حضارات الهِند

غُوستاف لُو بون



ترجمة

عادل زعيتر

حضارات الهند

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

كتاب مصور

يشتمل على ١٨٦ صورة وخريطتين
وفق وثائق المؤلف وتصويره الشمسي ورسمه وتخطيطه

نقله إلى العربية

عادل زعيتر



دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

بيانات الفهرسة أثناء النشر

(إعداد: إدارة الشئون الفنية بدار الكتب المصرية)

لوبون، غوستاف

حضارات الهند /

غوستاف لوبون؛ نقله إلى العربية عادل زعيتر

. ـ ط 1 . ـ القاهرة: دار العالم العربي، 2009.

732 ص؛ 24 سم.

1. الهند، تاريخ

أ. زعيتر، عادل (مترجم)

ب. العنوان

ديوي 954

إهـــداء الكتاب

إلى

النائب ووزير الأشغال العامة السابق ووزير المالية الحالىّ

مسيو سادى كارنو

اعترافًا بما شَمِل به بعثة المؤلف العلمية

إلى بلاد الهند من العناية

بسم الله الرحمن الرحيم

« الهندُ زُبْدَة جميع العوالم وخلاصةٌ ناطقة لجميع أدوار التاريخ وصورةٌ صادقة للأطوار المترجحة بين الهمجية الأولى والحضارة الحديثة » ، « ولا يتجلّى الماضى للسائح كتجليه فى بلاد الهند ، ولا يُحِسُّ السائح ما اعتور أجيال البشر من تطور وما بين هذه الأجيال من فروق ومن روابطَ بأحسنَ مما فى الهند ، فالسائح يعلم هنالك، فقط ، أن الحاضر منحدر من الماضى وأنه يحمل فى أثنائه بذور المستقبل » .

والهندُ تَمَثَّلت لخيال الأمم أرضاً لكل عجيب ، فكانت عُرْضة للغازى الأجنبية منذ القديم ، وكان الأجنبىُّ إذا ما دخلها استقرَّ بها واستغلها استغلالاً محلياً ، فلم يُفكِّر فى إخراج خيراتها منها .

ويفتح الإنكليز بلاد الهند الواسعة الزاخرة بالسكان فى القرن الثامن عشر بمال الهند وجند الهند فيسلكون فى استعمارها طريق نفع إنكلترة دون الهند ، فيمتصُّون بركات الهند ليرسلوها إلى بريطانية ، وفى سبيل الهند يحتلُّ البريطان مصر فلا يجلون عنها ، وفى سبيل الهند يفصل البريطان السودانَ عن مصر ، وفى سبيل الهند يقتطع البريطانُ فى القرن العشرين جنوب الشام المعروف بفلسطين فيمعنون فى تهويده مُمَثِّلين فى أهله العرب مأساةً أندلسية ثانية ، والهندُ قطرٌ عظيم يسكنه مئات الملايين من الآدميين ، والهندُ قطرٌ عظيم يملكه الإنكليز بألف موظف بريطانىّ وبجيش بريطانىّ لا يزيد عدد جنوده على مئة ألف !

وأبحث عما وُضع فى اللغــة العربية عن الهند ، فلم أجد سوى مقالات قليلة هزيلة مبثوثة فى بعض المجلات العربية ، ولم أجد سوى بضعة كتب صغيرة خاطفة لا تُسْمن ولا تغنى من جوع ، فيروعنى ذلك ، فأرى أن أُتمّ هذا النقص بأن أنقل إلى العربية إحدى غُرَر الـكتب المهمة التى أُلِّفت عن الهند .

وينشر العلامة الفيلسوف غوستاف لوبون سنة ١٨٨٤ كتاب « حضارة العرب » الجليل الخالد ، ويتخذ فى وضعه مِنْهاجاً لم يسبقه إليه أحد ، ويَعْرِض فيه صورة واضحة لتلك الحضـــارة العظيمة التى رَغِب فى بعثها ، فيبدو فريداً فى بابه ، فتسير بذكره الرُّكبانُ ، وننقل هذا السِّفْر العظيم إلى العربية وننشره فى سنة ١٩٤٥ ، ويَتَقَبّلُه العرب بقبول حسن .

وترسل الحـكومة الفرنسية العلامةَ لوبون على رأس بعثة آثارٍ إلى بلاد الهند ، ويجُوب لوبون الهندَ طولًا وعرضاً فتسفر بعثته إليها عن وضعه سِفْراً جليلًا خالداً آخر ، فيسميه « حضارات الهند » وينشره سـنة ١٨٨٧ فيَعْدِل هذا الـكتابُ « حضارةَ العرب » ضخامة ورَوْعَة وطرافة ويُعَدُّ تَوْءماً له .

ويستعين العلامة لوبون فى وضع كتاب « حضارات الهنـد » بالأصول التى اهتدى إليها فى كتاب « حضارة العرب » على الخصوص ، فيُعَوِّل ، كما ذكر ، على مُحْـكَم الأسانيد ، ويَعْرِض تطورات النظُم الدينية والاجتماعية وعوامل هــذه التطورات ، ويبحث فى الحوادث التاريخية كما يُبْحَث فى الحادثات الطبيعية ، ويبعث الأجيال الغابرة بما انتهى إليه من الـكتابات والنقوش والرسوم ويعَرْض صورٍ لبعض آثار تلك البلاد الهائلة التى هى مَنْبِت كثير من الديانات والمعتقدات .

و يسير العلامة لوبون فى كتاب « حضارات الهند » على طريقة التحليل العلمى ، شأنه فى كتاب « حضارة العرب » ، فيوضح فيه الصلة بين الحاضر والماضى و يظل مخلصاً فيه لسُنَن النفس والتطور فينتهى إلى نتائج لم يَصِل إليها عالم قبله ، فيظهر هذا الكتاب للعالم بِدْعاً فى درس حضارات الهند درساً شاملاً ، و يظهر هذا الكتاب خيرَ كتاب عن الهند ، إن لم يكن من أحسن الكتب عنها ، وذلك فى بابه وروحه ومناحيه وقوة التحليل فيه ووصول لوبون فيه إلى ما نَشَدَه من الأهداف الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية الخ .

و يقع نظرى على كتاب « حضارات الهند » هـذا ، وأقرأه بالفرنسية غير مرة وأسأل : هل أُوَفَّقُ لنقله إلى العربية مُوَطِّناً موضوعاته الطريفة ومباحثه القاسية الكثيرة الأصول والفروع التى لا عهد لنا بهـا ووضعها فى قالب عربىّ خالص ، و يهُون الأمر لدىّ ، بعد تردد ، خدمةً للعرب فى السياسة والعلم والأدب ، فأعزم على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية .

وترجمتنا لهذا الكتاب التاريخى الاجتماعى السياسى العظيم حرفيـة ، وراعينا مبدأ حرفيـة الترجمة من أول الكتاب إلى آخره مع الانسجام وعدم الإبهام وسهولة المنال .

والكتابُ خاصٌّ بالهند ، و يشتمل على نحو ألف من أسماء الأعلام ، وتعوَّدنا كتابة هذه الأعلام منقولةً عن مؤلفات الغرب ، فنكتب فى صحفنا وكتبنا ، مثلاً ، الكلماتِ : بوذا ، وهيالايا ، و بومباى ، ودلهى الخ . مع أنهـا تُكتب بالحروف العربية فى الهنـد هكذا : بُدَّهَة ، وهِمَالْيَة ، وبَمْبِى ، ودهلى الخ . وأردنا أن نكتب أسماء الأعلام التى تشتمل عليها ترجمة هذا السفر كما فى الهند ، فبذلنا جهوداً

غير قليلة للحصول على جداولَ خاصةٍ من الهنـد وغيرها فـكان ما يجده القارئ في هذه الترجمة من رسم تلك الأسماء مثل ما في الهند .

وقضينا في سبيل ذلك كلّه أوقاتاً شديدة ولاقينا مصاعب كثيرة يُقدّرها القارئ ، ولم نر أن نضع لهذه الترجمة مقدمة مطولة ما نشرنا في آخر الـكتاب فهرساً مفصلاً الموضوعات وما رأينا قيام هذا الفهرس المفصل مقام المقدمة المطولة ، وحافظنا على مظهر الـكتاب كما في الأصل على قدر الطاقة ، فلم نستثن من صوره ورسومه سوى بعض مانشره المؤلف بقصد تزيين الـكتاب ، فيقوم مااخترناه منها ، وهو معظمها ، مقامه ، ويؤدي إلى الغـاية التي وضعها المؤلف أمامه ، وفي الـكتاب خريطتان من تخطيط المؤلف رأينا إبقاءهما على حالهما لا كتسابهما قيمة أثرية مع الزمن .

وإننا نطمع أن تمتاز هذه الترجمة ، التي لم نتجوّز فيها قط ، بالصحة والوضوح والدقة فلا يضيع فيها معنى ولا يضطرب فيها لفظ ، والله الموفق .

(نابلس فلسطين) عادل زعيتر

مُقَدِّمَةُ المؤلِّف

الهندُ من الأقطار التى شَمِلَت نظر العلماء والسيّاح والمتفننين والشعراء، وأثارت فيهم حبَّ الاطلاع فى كل حين ، والهندُ عالَمٌ يختلف عن عالَمنا بجوّه وهوائه وأرضه وسكانه ، ولا شَبَهَ بين ما تعرفه الهند وما يعرفه الغرب من الأصول الدينية والمبادئ الفلسفية والفنون والآداب والنُّظُم والمعتقدات .

ذلك العالَمُ العجيب هو زُبْدة جميع العوالم وخلاصةٌ ناطقة لجميع أدوار التاريخ وصورةٌ صادقة للأطوار المترجحة بين الهمجية الأولى والحضارة الحديثة .

ظلّت تلك الأطوار التى جاوزها البشر دفينة تحت أعفار العصور زمناً طويلاً ، وحديثاً بدأنا نرفع الكفن الكثيف الذى يَرْقُد تحته أجدادنا ، وأخذنا نبعث أُسس معتقداتنا ومشاعرنا وخيالاتنا .

والعلمُ لم يستطع ، بالحقيقة ، أن يُثْبِت الأطوار التى قطعها الغرب ليبلغ ما وصل إليه من المزاج النفسى والنظام الاجتماعىّ إلّا بعد أن ارتاد حَمَلَتُه أقطاراً كثيرةً ذات أمم متفاوتة فى نشوئها وارتقائها .

وفى الأرض بُقْعَةٌ واحدة تكتنف مختلف العروق الممثّلة لجميع تطورات الماضى تقريباً ، وتلك البُقعة هى ذلك القطر الواسع العجيب الذى وَقَفْنا هذا السفر لدرسه ، ففى ذلك القطر إجمالٌ لتاريخ البشر ما اشتمل على جميع الأجيال ، وفيه تبدو جميع

الحضارات حَيَّةً أو ماثلة في عظيم الآثار ، وفيه نُبْصِر ما اعتور نظمنا وعاداتنا من متعاقب الصور والأحوال منذ البَداءة إلى الزمن الحاضر .

ويكاد يكون مفقوداً ما اصْطُلِح على تسميته بحوادث التاريخ التي يُظَنُّ أنها ضرورية لبعث ماضي الهند ، ولا نأسف على ذلك كثيراً ، ما أدّت أخبار الملاحم والفتوح وأنباء الأُسَر المالكة التي تملأ كتب التاريخ إلى حَجْب سَيْر حياة الأمم الحقيقية وإخفائها ، وما وَدّ المفكرون أن يعرفوا مجرى الأَخْيِلَة والمعتقدات والمشاعر السائدة لأحد الأجيال وتأثيرَ مختلف العوامل التي أوجبتها .

وفي كتابنا الذي جعلناه مقدمةً لتاريخ الحضارات[١] بَيَّنّا كثرة تلك العوامل وأن الأمم جاوزت مراحلَ تطورٍ مماثلةً مع تباين تاريخ هذه الأمم الظاهر ، وأنه إذا ما رُئي أحياناً تباينٌ واضح بين أمّتين فلمصاقبتهما أوجهَ تطور مختلفة على الخصوص .

ونحن ، وإن لم يكن لدينا تاريخٌ للهند بالمعنى الصحيح ، نجد في الهند من الآثار الدينية والفنية والأدبية ما يَبْلُغ قِدَم بعضه نحو ثلاثة آلاف سنة، ولهذه الآثار من الأهمية ماليس لقِصَص المؤرخين ، فبمثل هذه الآثار نَنْفُذ حياة الأمم ، فنقوشُ معبد هندوسيّ خَرِب خيرٌ من تواريخ الملوك في إخبارنا عن سرائر قدماء الهندوس ، وقلْ مثلَ هذا عن كتب الأدباء والقصائد والأقاصيص والأساطير في الدلالة على تلك السرائر .

وفي الآثار الأدبيــة يجب أن يُبْحَثَ عن روح الأمم ، فالشعراء والقاصُّون إذ كانوا سريعي الانفعال شديدي التأثُّر فإنهم يعانون تأثير بيئتهم ، أي تأثيرَ عِرْقهم

(١) كتاب (الإنسان والمجتمعات ومصدرها وتاريخهما) وبقع في مجلدين ، سنة ١٨٨١ .

وعصرهم ، أكثر مما يعانيه العلماء والمفكرون ، ويبدون مرآة صادقة بليغة لهما .

أجل ، إن الشعراء والقاصين يشوهون ما يصفونه ويبالغون فيما يعبرون عنه ، ولكنه ينطوى تحت ذلك التشويه وتلك المبالغة معان كثيرة ، فالشعراء والقاصون يتقمصون روح زمنهم فيألمون ويترنمون بآلام أبناء قومهم ومسارهم وأمانيهم ويترجمون عن عواطف أممهم وعن عقائد عصرهم ومشاعره ، فلا يكون أمر أية حضارة مجهولا ما استوعبت ذاكرة الناس قصائد الشعراء وأقاصيص القاصين .

بيد أن فهم معنى آثار الشعب الأدبية والفنية ، ولا سيما آثار الهندوس ، يتطلب دراسة هذه الآثار فى أماكنها ، فبدراسة الحضارات فى الأماكن التى ظهرت فيها وكملت نتمكن من الاطلاع على روحها ونتحرر من الحكم فيها بأفكارنا العصرية ، فلن يقدر علماء أوربة على اكتناه عبقرية أمة آسيوية ووصفها بتصفح ما فى المكتبات من الكتب .

حقاً أن الهوة التى تفصل بين أفكار رجل غربى عصرى وأفكار رجل شرقى عظيمة جداً ، فما فى أفكار الغربى من الدقة والإحكام يختلف كثيراً عما فى أفكار الشرقى من الإبهام والتموج ، ومن العبث أن يطمع الغربى فى استنباط ثبات أفكار الشرقيين من عدم تحول عاداتهم ، و بلغت أفكار الهندوسى ومعتقداته من الغموض والتذبذب ما تقصر معه لغاتنا اللاتينية (الفقيرة فى النعوت مع ما فيها من ضبط) عن الإفصاح عنها فى الغالب .

* * *

اقتصر علماء أوربة فى مباحثهم التاريخية عن الهند على ترجمة الأسانيد

السَّنْسكْرِتية مع أن السَّنسكْرِت ، لدى الهندوس ، لغةٌ ماتت منذ عدة قرون ويكاد شأنها عندهم يكون مماثلًا لشأن اللغة اللاتينية فى أوربة ، فتكون معرفتنا لتطور الهند من دراسة كتب الآداب القديمة وحدها متعذرة تَعَذُّرَ معرفتنا لأحوال الناس فى القرون الوسطى وفى عصر لويس الرابع عشر من دراسة كتب سيسرون وفيرجيل فقط .

ومن العسير أن نستعين بالكتب وحدها فنطلع على ما فى الويدا من الشعر الأغَرِّ وما أُثِر عن قدماء الحكماء من التأملات الفلسفية ومالا يحصى من الآلهة وما يخالف الذوق من الطقوس الصارمة ، فى الهند نفسها يجب البحث عن حضارتها الكبيرة الرفيعة وآثار عظمتها المحيرة للعقول ، فلا يتجلى مفتاح الأسرار المملوءة بها آداب الهندوس إلاّ فى أطلال مدنها القديمة وفيما هو ماثل بين صُرُود[1] هِمَالَيَة المتجمدة وسهول الدكن المحرقة من أطلال المدن القديمة ونقوش الزُّون[2] والقصور الزاهية الهائلة التى لم يَرُدْها الرُّوَّاد إلّا حديثًا ، فى هذه الكتب الحجرية التى لا تعرف الكَذِب تُحْفَظُ أفكار الأمم .

ومنذ عهد قريب فقط فُطِن إلى أهمية ذلك الطراز فى البحث ، فبينما يقضى كثير من العلماء أوقاتهم فى درس كتب الأدب البَرَهْمِىّ فيُسفر ذلك عن وضع ضخم المؤلفات ، وبينما يملأ أولئك العلماء فى العواصم الأوربية الكبيرة مالا يُعَدُّ من الدفاتر ، نجد اتجاهاً حديثاً إلى دراسة آثار الهند ومبانيها فى أماكنها .

(١) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع فى الجبال — (٢) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام وتزين .

ولا مِراء فى أن الحكومة الإنكليزية عَيَّنَت لجنةً خاصة لبلوغ ذلك الغرض، غير أن هذه اللجنة لم تصنع غير حلّ الكتابات وفكّ رموزها على الخصوص ، ولم تنشر سوى رسوم هندسية لقليل من الآثار بدلاً من عرض صور هذه الآثار عرضاً يَمْلِم الغربىّ منه وجودَ فنون تختلف عن فنونه اختلافاً تامًّا .

وتزيد ضرورة معرفة تلك الآثار معرفة تامة ما أغضى الأوربيون الفاتحون عن دُثُورها بفعل الزمن إن لم يُقوِّضُوها بمعاولهم ، فإذا ما أريد الحكم على ما يصِلُ إليه الأمر فى المستقبل بما يقع فى هذه الأيام قلنا إنه لا يبقى شىء من تلك العجائب التى أقيمت فى قرون كثيرة قبل انقضاء خمسين سنة، وإننى أذكر ما حدث فى مدينة كَهْجُورَا القديمة مثالاً من بين ألوف الأمثلة الماثلة على ذلك الاستخفاف بالآثار ، فقد زال فى الأربعين سنة الأخيرة نحوُ ثلث المعابد الستين التى كانت تُزَيِّن جيد هذه المدينة .

قال الجنرال الإنكليزى كَنِنْغْهَم منذ بضع سنين : « يستحيل على الباحث أن يجوب الهند من غير أن يأسف على ما أصيبت به بقايا مبانيها الأثرِيَّة ، ولم تصنع الحكومة فى قرن بعد الفتح الإنكليزى شيئاً تقريباً لحفظها وصيانتها ، مع أنها المصدرُ الوحيد لمعرفة أحوال الهند الغابرة التى لم يُدَوَّن لها تاريخ ، ولا ريب فى زوال الكثير منها إلى الأبد ما لم تُخَلَّد بتصويرها ووصفها وصفاً مبيناً » .

فإذا حدث ما تَوَقَّعه الجنرال كَنِنْغْهَم ، وذلك ما نكاد نُبْصره ، أصيبت البشرية بخُسْر لا يُعَوَّض منه ، فالبشرية إذ سلكت سبيلا جديداً بفعل مبتكرات العلوم وأضحت بذلك قادرة على التعبير عن أفكارها بسرعة عادت لاتحتمل صَوْغَ هذه الأفكار فى قوالبَ حجرية يتطلب صنعها عدة قرون ، فلن نقيم من المبانى

العجيبة كالتى أقيمت فى عصور الجاهلية والإيمان ، وليس لدينا مايحفز إلى إقامة أهرام وكنائسَ غوطيةٍ فى زمن البخار والكهرباء .

والحكومة الفرنسية إذْ أدركت مالآثار الهندمن القيمة الفنية والتاريخية عَهِدَت إلينا فى دراسة هذه الآثار حيث هى ، فأسفرت بعثتنا عن وضع خمسة مجلدات مشتملة على أربعمئة صورة مُوَضَّحة ، فاقتبسنا بعضها فى هذا السِّفْر .

وقد اعتمدنا على دراسة آثار الهند ، فنقيم كتاب «تاريخ حضارات الهند» هذا على أساس متين ، فقد زُرْنا جميع مبانى الهند المهمة ومنها ما هو قائم فى البِقاع التى لم يَرُدها الباحثون إلّا قليلاً ، كمِنطقة نيبال التى لم يدخلها فرنسىٌّ قبلنا ، فاستطعنا أن نَجْلو أموراً كثيرة فى تاريخ الهندوس الدينى وحضارتهم ، فمن ذلك أننا أثبتنا بما قمنا به من دراسة المبانى أن البُدَّهِية ، التى أراد علماء أوربة أن يجعلوا منها ديانة بلا إله مستندين فى ذلك إلى كتب المذاهب الفلسفية التى وُضِعَت بعد ظهور بُدَّهَة بستمئة سنة ، هى أكثر الأديان قولًا بتعدد الآلهة ، وأوضحنا كيف غابت هذه الديانة عن البلد الذى نشأت فيه غياباً لم يجِد العلماء له حلًّا قبلنا .

واستعنا فى هذا الكتاب بالأصول التى اهتدينا إليها فى كتبنا السابقة ، ولا سيما كتاب « حضارة العرب » ، فعَوَّلنا على مُحْكَم الأسانيد وعرضنا تطورات النظم الدينية والاجتماعية وعواملَ هذه التطورات ، وبحثنا فى الحوادث التاريخية كما يُبْحث فى الحادثات الطبيعية ، ودرسنا المذاهب بحَذَر فكان لنا بذلك كلِّه نَهْجٌ خاص .

وبتلك الأصول تَمَكّنا من الوصول إلى ما فى مبادئ الهند الفلسفية والدينية

والاجتماعية المُعقَّدة من المعانى البعيدة الغَوْر وإلى إظهار ما للآلهة القديمة الآفلة من الجَبَرُوت والتقديس .

* * *

وللفرنسيين فائدةٌ عمليـة واضحة من الاطلاع على أحوال الهند الحاضرة فضلاً عن الفوائد التاريخية والفلسفية والفنية التى تُجْتَنَى من دراسة ماضيها ، فمن المهمّ أن يُعْرَف فى هذا الزمن ، الذى يتحدث الناس فيه عن الاستعمار ، كيف استطاعت أمة أوربية أن تسيطر بألف موظف وستين ألف جندىّ على إمبراطورية مؤلفة من ٢٥٠ مليون شخص ، وقد أتيح لى بما اتفق لى من الصلات بأكابر موظفى الإنكليز فى أثناء إقامتى بالهند ، أن أطلع على دقائق إدارة الهند العجيبة التى لا تعرف أوربة عنها إلاّ قليلا .

وهنالك أسباب ، أهمُّ من تلك على ما يحتمل ، تدعو إلى البحث فى شؤون الهند الحديثة ، فقد اقتربت الساعة التى يتقابل فيها الشرق والغرب بفعل الكهرباء والبخار ، والشرق والغرب ما تَعْلَم من وجود هُوّى عميقةٍ بينهما فى الحياة والتفكير حتى الزمن الحالى ، ودنا الغرب وحضارته من دور الخطر فى الصراع الهائل الذى سيقع فى عالم الصناعة المُهْلِك ، لا فى ميادين القتـال ، بين أمم متساوية فى كفاءاتها المتوسطة متفاوتة فى احتياجاتها تفاوتاً عظيماً ، فيَحِيق الخطر فيه بالغرب ، وإن شئتَ فقل بالحضارة ، فما هى نتائج هـذا الصراع ؟ ، وإلى أىّ مَدًى نداوم على منح أمم الشرق من الأسلحة المادية والثقافيـة ما ستصوبه إلينا ؟ لمثـل هذه المسائل من الأهمية ما لا يجوز أن نسكت عنه فى هذا الكتاب .

فتاريخ حضـارات الهند ، إذَنْ ، ليس قَصَصاً لماضٍ أدبر إلى الأبد ، بل هو تاريخ ينطوى ، أيضاً ، على مجهولات هائلة .

ولم يَخْلُ من نقص هذا الكتابُ الذى هو بِدْعٌ فى درس حضارات الهند درساً شاملاً ، وسنبلغ به ، مع ذلك ، الهدف ما رَسَمْنا صورةً ناطقةً للأطوار المتتابعة والأجيال المتعاقبة التى اعتورت المجتمع الهندوسىّ الذى لا تزال حضاراته القديمة قائمةً منذ ثلاثة آلاف سنة وما بيّنا ما يكون لمقادير هذا المجتمع من أثر كبير فى مستقبل العالم .

أجَلْ ، لقد بعثنا تلك الأجيال الغابرة بما انتهى إلينا من الكتابات والنقوش والرسوم و بعرض صورٍ لبعض آثار تلك البلاد الهائلة التى هى مَنْبِت كثير من المدنيات والمعتقدات مستعينين بالقلم والريشة ، ولكن أيَّة ريشة أو أىّ قلم رَصاصىّ يستطيع أن يُخْبِرنا بجمال تلك البلاد القاصية التى يَشْعُر السائح الأوربىّ عند دخولها بأنه انتقل إلى عالم جديد عجيب فى أرضه وسمائه ونباته وحيوانه ؟ وكيف يمكن وصفُ تلك الديار الساحرة التى أقامت الجبالُ الشاهقة الجبارة حولَها نطاقاً أبدياً من الثلوج ، أو وصفُ تلك المدن الخامدة الواسعة سَعَةَ عواصم أوربة والتى توحى معابدها الرائعة وقصورها المهجورة البادية من خلال الخمائل إلى السائح أنه أصبح فى مدن الغيلان التى لعنها من فى السماء ؟ وما هو السبيل إلى عَرْض ما تؤثِّر به فى النفس تلك المعابد الحافلة بالأسرار والداخلةُ أعماقَ الجبال والمشتملةُ على أُلوف الأصنام الحجرية التى تظهر للأعين على نور المشاعل فيُخَيل إلى الناظرين أنها عبيدٌ خُرْسٌ لربِّ الأموات ؟ يكاد قلم الرسام الماهر يَنقُل إلينا جلال تلك القصور الرُّخامية الهائلة المرصعة بالحجارة الكريمة والمُشْرِفة على أسوار من الغرانيت الأحمر كالدم القانى فتبدو صاعدةً فى سماء لا يحجب زُرقَها سحاب .

ألاَ إن الماضى لا يتجلى للسائح كتجليه فى بلاد الهنـد ، وإن السائح لا يُحِسُّ ما اعتور أجيال البشر من تطور وما بين هذه الأجيال من فروق ومن روابطَ بأحسن مما فى الهند ، فالسائح يعلم هنالك ، فقط ، أن الحاضر مُنْحَدِر من الماضى وأنه يحمل فى أثنائه بذور المستقبل وأن خيالاتنا وطبائعنا ومبادئنا انتقلت إلينا بالإرث من غابر الأجيال التى لا نقدر أن نُقَلِّلَ من سلطانها وإن أمكن جهلُها ، فمن خلال الأجيال القديمة نكتشف ، بالحقيقة ، أصول نُظُمنا ومعتقداتنا ونُبصر ما لهـا من السلطان العظيم وأنها تقود كلَّ شىء إلى مصيره الحقّ بسلسلة من التطورات البطيئة[1] .

(١) لا أرى أن أختم هذه المقدمة قبل أن أشكر للأشخاص الكثيرين ما حبونى به من المساعدة التى لاتقدر بثمن فى أثناء سياحتى فى الهند أو فى إخراج هذا الكتاب ، وإنى أنى لا أنس العون الذى لقيته من حكومة الهند الإنكليزية والقرى الذى نلته من موظفيها ومن أمراء الهند الأصليين ، وإنى إذ لا أستطيع أن أعد هنـا جميع من انتفعت بخدمهم أقتصر على ذكر من علق بذهنى منهم اتفاقاً ، فأذكر حكومة نائب الملك بكلكتة ، ولا سيما وزارة الداخلية التى أعدتنى مدينة لها بمجموعة ثمينة من الكتب عن الهند ، وأذكر الجنرال أنيسلى الذى عنى بأمرى عناية فائقة فى أيام إقامتى بالهنـد ، وأذكر حاكم الهند الوسطى سير ليبيل غريفين ، وحاكم منطقة بمبى سير فيرغوسن ، ومفوض راجبوتانا الكولونيل براد فورت ، ومفوض الحكومة الإنكليزية بأجمير مستر ساوندرس ، والميجر كولينغوود بجبل آبو ، والجنرال مارتر بأغرا ، ومدير متحف لاهور مستر كيلينغ ، والوزير المقيم بأودى بور الكولونيل والتر ، والبنديت براناب جوتيشى بأودى بور ، والوزير المقيم بغواليار الكولونيل بركيلى ، والميجر روبرت أنيسلى ببنارس ، وجراحى السفارة الإنكليزية بنيبال الدكتور جيمليت ، والقنصل الفرنسى العام بكلكتة مسيو كرتزلر ، ومسجل القنصليات الفرنسية مسيو موئت ومسيو فواكس ، والقاضى بكلكتة مستر كارى ، والقاضى بمحكمة نانهة مستر بورش ، ومستر هنتز المهندس بيجابور ، ومستر هيث المهندس بأغرا ، ومستر بلاك المهندس بيجانغر ، وحاكم بوندى چيرى مسيو ريشو ، وحياة كنبه كونم وترى جانلى ومدورا الخ ، والكولونيل كوكبرن بحيدر آباد ، ووصى مملكة جترپور (بنديل كهند) وصاحبة العظمة ملكة بهوبال ، الخ ، الخ .

وإذا عدوت بضعة رسوم أعدتنى مدينا بها لمرمم تاج محل والمهندس الفضال مستر هيث فلم أنشرها وجدت معظم صور هذا الكتاب قد صنعت على طريقة التجويف الفوتوغرافى (الهليوغرافور) بحسب الصور الشمسية التى التقطتها ، أى من غير استعانة بنقاش أو رسام ، وقام مسيو ديتى بهذا العمل الشاق خير قيام فلا يسعنى سوى الإعراب عن رضاى التام بما بذل من همة عظيمة ذاكراً أن محفوراته الفوتوغرافية (فوتوغرافور) على النحاس هى أعلى من جميع ما انتهيت إليه حتى الآن من الطرق المماثلة .

وقد رأى السادة فيرمان ديدو أن يكون هذا السفر محلا لعنايتهم كما اعتنوا بكتاب « حضارة العرب » ، فشملوه برعايتهم يوماً فلم يقصروا فى الإنفاق بسخاء على طبعه فأعلن شكرى العظيم لهم .

البَابُ الأوَّلُ

البيئات

الفَصْلُ الأوّل
الأرْضُ وَالأجْوَاءُ

(١) وصف بلاد الهند العام — طبيعتها الخاصة — يتألف منها عالم مستقل — عزلتها — أسباب اختلاف أجوائها ونتائجها — (٢) بلاد الهند — حدودها وجبالها وأنهارها — بقاع الغزو — (٣) الدكن — المنطقة الوسطى والمنطقة الساحلية — (٤) وصف أنهار الهند الكبيرة — عدم انتظام مجاريها — منحدراتها — أنهارها العظيمة : الگنج والسند وتربدا — أنهار الدكن — السواحل — فقدان المواني الطبيعية — (٥) أجواء بلاد الهند — اختلاف هذه الأجواء — يجتمع فى بلاد الهند مختلف أجواء العالم — فصولها — رياحها الموسمية — تقلب الأمطار — المجاعات — الأعاصير — الأوبئة — أثر جوها فى سكانها .

١ — وصف بلاد الهند العام

يتألف من الهند عالَم مستقل فى الكون من الناحية الطبيعية ، فالطبيعة، كما يظهر ، قضَت على الهند بعزلة أبدية لِما أحاطتها به من جبال هائلة ، ومن بحار ذات أمواج مُزْبِدة تَلْطِم سواحلها غيرَ المِقْراة[1] ، ويكفى المرء أن ينظر إلى حدودها ليشعُر بنشوء حضارة ثابتة فيها تقريباً ،وبمِضِيها للعناصر الأجنبية التى أغارت عليها ، ولا تزال بلاد الهند الأرضَ المقدسةَ الحافلة بالأسرار التى حكى عنها شعراؤها الأقدمون ، وظلّت بلاد الهند الحصنَ المنيع مع إغراء كنوزها للفاتحين واقتحام

(١) المقراة : الكثيرة الضيافة .

الكثيرين منهم لها فى غضون القرون ومع ما يبدو من سهولة مواصلاتها الحديثة التى زالت بها جميع العوائق وقرَّبت بهـا كلَّ المسافات ، فلا تجد طريقاً مُهمّاً يمرُّ من جبال هِمالَيَة ، ولا تجد ميناء سهلًا على شواطئها ، فبلادُ الهند هى ، بالحقيقة ، أكثرُ البلاد انغلاقاً وأصعبها انفتاحاً ، ولم يَخْطُر ببال شعب قديم عَمَرها أن يخرج منها بعد أن استوطنها .

وتلوحُ بلاد الهنـــد المنعزلة أنها خلاصةُ العالَم بتنوع مناظرها ، فالهند كلُّ الأجواء بسبب اتساعها وتفاوت ارتفاع بقاعها الكثيرة ، فبينما يكون الحرُّ شديداً إلى الغاية فى سواحل مليبار وكُورُومَنْدَل وسهول البنجاب ترى ربيعاً ساحراً فى رداف الجبال وريحاً صَرْصَراً تلطِم صُرُود[1] الشمال العالية وأغطِيَةً من الثلوج مشابهةً لِما فى القطبين تسترُ شواهق هِمالَيَة ، وبينما تجرى السيول مسرعةً فى أوائل يونيه إلى السواحل الجنوبية الغربية فتغمُرها وتملأ جداولها ينظر فَلّاحو أوريسة ووادى السِّنْد الذين أعياهم الجفاف إلى سمائهم الصافية الحاقدة ضارعين باحثين فى الرمال المحرقة عن أثر الأنهر الكبيرة النافدة .

وتشتمل بلاد الهنـد ذاتُ المناظر الرائعة والعوارض المختلفة على سهول الغَنْج الخصيبة القريبة من صَحَارى تِهار الغُبْر الدَّكَن ، وعلى الأودية المنبتة الواقعة بين هِضاب الدَّكَن الجُرْد الجديبة ، وعلى مالا نظير له فى الدنيا من الشِّماف الهائلة المتصدعة المهيمنة على واحة كشمير الجميلة المعدودة دُرَّة العالَم .

ويمكن تفسيرُ تلك الظواهر الطبيعية التى رُئِى تسميتُها بنَزَوات الطبيعة فى الهند بنتوء اليَبَس وعِظَم نَوْفه وبتفاوت توزيع المياه ، فقد نجم عن ذينك السببين

(١) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع من الجبال .

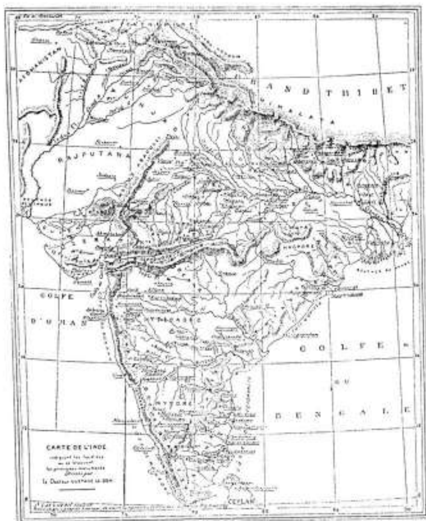
أن نشأ ألف بلد فى بلد واحـد وأن جُمِعت الأماكن والأجواء فى مساوفَ غيرِ متباعدة بما يزيد عن بضعة كيلومترات مع انفصال بعض أمثالهـا عن بعض بألوف الفراسخ فى خريطة العالم .

فلذلك نرى أن نعْرِف ، قبـل كل شىء ، ارتفاعاتِ بلاد الهند واتجاهَ مجاريها وعددَ هذه المجارى وقيمتَها ، وسنُضيف إلى ما نعلمه من مسايل بلاد الهنـد وأنهارها بحثاً فى توزيع أمطارها ورياحها الموسمية ، فلسَماء الهند المِدْرار تقويم خاصٌ ذو نتائجَ لا تقِلُّ أهميةً عما يجرى فوق برِّها .

و بلادُ الهند مربعـة الأضلاع مقسومةٌ إلى مُثَلَّثَيْن متقاربين ذوَىْ قاعدة مشتركة ، فقِمَّة المثلث الشمالى هى ذُرْوَة جبل تَنْغا الذى هو من أعظم جبال هِمَالَيَة وقِمَّة المثلث الجنوبى هى ذُرْوَة جبـل كُمَارى ، والخطُّ الذى يُمَدُّ قاعدةً مشتركةً لذينك المثلثين هو الوَهْدة الضيقة العميقة الممتدة من خليج كَمْبى إلى نهر الغَنْج فيجرى فيهـا نهر نَرْبَدا ونهر سُون اللذان يتَّجه أحدهما إلى الغرب والآخر إلى الشمال الشرقى .

وليس مجريا ذَيْنِك النهرين وحدَهما ما يُحَدُّ به ذانك القسمان الطبيعيان لبلاد الهند ، بل يفصل بينهما ، أيضاً ، سلسلةُ جبال وِنْدهيَا فى شمال تلك الوَهْدَة وسلسلةُ جبال سات پورا فى جنوبها ، فمن ثَمَّ تَحُول ثلاثة حواجز دون غزو الأجنبى للقسم الجنوبى من بلاد الهند برّاً على الأقل ، وسترى أن شواطئ هـذا القسم الجنوبى ليست أقلَّ صَلاحاً للدفاع من تلك الحواجز الثلاثة .

ويتألف من المثلث الشمالى « الهندوستانُ الحقيقية »، وورد ذكر هذه الـكلمة ، التى تعنى « بلاد الهندوس » ، فى أقدم أقاصيص الإغريق .



١ ــ خريطة الهند (تشتمل على اتساع يعدل ٧٥٠ فرسخاً تقريباً ، وفيها ذكر للأمكنة المحتوية على أهم المباني ، وتعدل كل درجة عرض نحو ١١٢ كيلو متراً)

(من تخطيط المؤلف)

أجلْ ، يرى الغربيون أن نهر السِّنْد أعار من اسمه البلادَ الحافلة بالأسرار الواقعة فيما وراءه فما فتئوا يطمعون فيها ، غير أنه لا يُسَلَّم بهذا على عِلّاته ما احتمل اشتقاق اسم « الهند » من اسم الإله « إندرا » .

والأمرُ مهما يكن فإن اسم الهند قد أُطلق على كثير من البلدان ، فمن ذلك أن تمثّلت بلاد الهند لخيال الأوربيين أرضاً لكلّ عجيب ومنبعاً لكلّ ثروة ، فبحثوا عن طريقها فبَدَوْا ضحية الأوهام فى الغالب ، فظنّ كريستوف كولومب أنه بلغها بسُفُنه حينما وصل إلى الدنيا الجديدة ، فكان ما نعلمه من تسمية الدنيا الجديدة ببلاد الهند الغربية ، ومن ذلك تسميةُ كثير من جُزُر آسية والاوقيانوس بالاسم الذى أطلقه الإغريق على وادى السِّنْد .

وأما نحن فنقصِد بكلمة الهند فى هذا الكتاب شبهَ الجزيرة التى تحيط بها جبال آسام و هِمَالْيَة وكارا كورَم وهِنْدُوكُش وسليمان والبحر ، ونقصِد بكلمة « الهندوستان » المثلثَ الشمالىّ من بلاد الهند ، ونقصِد بكلمة « الدَّكَن » المثلثَ الجنوبىّ منها .

٢ — الهندوستان

يتألف أكبر حدّ للهندوستان من جبال هِمَالْيَة التى هى أعلى سلسلةٍ فى الكرة الأرضية ، والتى ينظر الهندوس إلى شِعافها المقدسة باحترام فيسمونها « سَقْفَ الدنيا » ، وتبدو هذه الجبال العظيمة فى مجموعها كَسُوَرٍ ضَخْم مائل يزيد ارتفاعُ طرفه الأعلى عن ستة آلاف متر ويبلغ مُعَدَّل علوّه المتوسط أربعة آلاف متر ، وتجد

بين ذلك السد المنيع الهائل من الشواهق ما يصل ارتفاعه إلى ثمانية آلاف متر أو تسعة آلاف متر .

وأظهر ما يبدو ذلك فى القسم الغربى من جبال هِمَالْيَة ، ويتسع عرض هذه الجبال فوق منابع الأنهر الكبرى : السِّنْد والغَنْج وجَمْنَة وسَتْلِج ، ثم تختلط هذه الجبال بهضاب التِّبَت العالية ثم تفقد منظرها الملتوى فتمتد من هنالك هضاب واسعة كئيبة تزيد ارتفاعاً عن أعلى ذُرَى جبال أوربة ، فما هى بالتابعة جغرافياً للهند ولا للتركستان ولا للتِّبَت ، وما هى بالتى ينمو فيها نبات ، وما هى بالتى يجد الماء الذى يتجمع فيها أحياناً منفذاً أو مُنْحَدَراً ليسيل منه ، وما هى بالتى يَصْلُح هواؤها لتنفس السائح المِقْدام ، فهى « بلاد الموت الكريهة » كما يدعوها به أهالى تلك الأصقاع .

لم تُمْسَح ذُرَى كارا كورَم المرهوبة المُشْرِفة على جبال هِمَالْيَة فى أىّ زمن ، فقد يأتى زمن تخلع فيه إحداها مَلِكَ الجبال غُورِى شَنْكَر الرائعَ الخالع لبركان أند : جِمْبُورازُو الذى عُدّ أعلى جبل فى العالم زمناً طويلاً .

يقوم طَوْد غُورِى شَنْكَر متوجهاً إلى القسم الشرقى من جبال هِمَالْيَة ، ويتألف من اتجاه شوامخ دِيوَلْغِيرِى وغُورِى شَنْكَر وكَنْجِنْجَنْغَا خطٌّ مستند إلى ماوراء هِمَالْيَة يُعَدّ فى مجموعه سلسلة تلك الجبال الحقيقية من غير أن يشتمل على الذُّرَى المهمة ، على حين تمتد إلى الشمال وإلى الجنوب سلستان أخريان متآزيتان تسمى إحداهما غَنْغ دِيسرِى المُشْرِفة على التِّبَت ، وتسمى الأخرى هِمَالْيَة الدنيا التى هى أقلّ ضخامة من تلك فتهبط بالتدريج بين روافد نهر الغَنْج الشمالية .

وتَشْغَل جبال هِمَالْيَة أرضاً تزيد مساحتها على مساحة فرنسة ، وهى أمنع متراس أقامته الطبيعة بين بلدين أو أمتين ، ومن الصعوبة أن تجد رابطةً بين أراضى شمال الهند العالية وأودية الجنوب الواسعة العميقة سواء فى أمر السكان أو فى أمر الطبائع والأخلاق .



٢ ــ قرية دنكور فى جبال همالية الغربية

ولا يربط الهندَ بالصين غير طريقين ناقصين ، وهما : طريق سِمْلَا وطريق دَارجيلنغ الواقعتان على طرفى جبال هِمَالْيَة ، وهذا إلى أنك تصادف بين حين وآخر سائحاً أو تاجراً مخاطراً يمرُّ من التِّبَت إلى وادى القَنْج واضعاً متاعه الخفيف، أحياناً ، على ظهر مَعْزٍ أو مَتْنِ ضائنٍ لعجز أىِّ حيوان آخر عن مجاوزة مساربَ وَعْرَةٍ معْوَجَّة مخيفة كالتى تُبْصَر فى منحدرات تلك الجبال .

وتكون تلك المسارب على حافَة نهر فى الغالب ، بيد أنه ليس لمجارى المياه التى

تَنْبُع في جبال هِمَالَيَة جوانب يسهل اجتيابها خطوة بعـد خطوة ما هَوَتْ هذه المجارى ، على العموم ، في مضايق مظلمـة ومسايل مُمَزَّقة للصخور خارقة لهـا خَرْقاً بليغاً ممتدة بين الصخور القائمة ، وما أكثر ما يُسْمَع خريرها من أعماق الهُوِىّ والوهاد فتُجاب إذ ذاك على جُذُول[1] الشجر أو بواسطة جبل، ثم يُصْعَد في طُنُف[2] صخرة يصاب بها المرء من تخيله بالتَّوَل[3] والدُّوَار .

لم تَسْلَم بلاد الهند من غزو الفـاتحين لها من الشمال مع ذلك ، فقد حَلَم أمراء الغرب الفاتحين، منذ أقدم القرون،بالاستيلاء على هذا القطر الغنيّ الذي جاء في الأساطير أنه يَدُرّ الحجارة الـكريمة ويُخْرِج النبات العجيب .

وفي الشمال الغربي من النِّطاق المُخيف المنيع الذي ضربته الطبيعة حول بلاد الهند ثُغْرة نهر كابُل ، فمن ضِفاف هذا النهر وَلَجَ الإسكندرُ والمغول والأفغان وغيرهم في شبه جزيرة الهنـد .

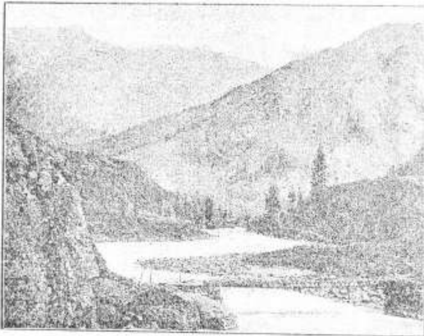
ولا مِراءَ في أن أولئك الفاتحين ساروا على الدَّرْب الذي سَلَـكه قدماء الآريين، ولا تجد طريقاً أخرى غير هذا الدرب يسهل على أيّ جيش أن يَمُرّ منها إلى أرض الإله إِنْدْرَا ، ويقوم وراء تلك الثُّغْرة حاجزٌ آخر من جبال سـليمان المتصلة بجبال خَيْبَر فتـكفي لوَقْف غزو الأجنبي مع أنها دون تلك الجبال أهميةً بمراحل .

وإذا ما استثنيت ذلك المَنْفَذ ، الذي يدافع عنه بموقع پِشَاوَر وقلعـة أَتُك في الوقت الحاضر ، وَجَدْتَ جميع حدود بلاد الهند البرية منيعةً يتعذر اقتحامها تقريباً .

ويظهر في طرف المُنْحَنَى الشرقيّ الـكبير ، الذي أكسبته جبال هِمَالَيَة شكل

(١) الجذول : جمع جذل وهو من الشجرة أصلها الباقي بعد ذهاب فروعها — (٢) طنف الصخرة : ما نتأ منها — (٣) تول الرجل يتول تولا : حمق .

سَيْف ، ثُلْمَةٌ كبيرة جَوَّفها نهر برهما پوترا ، فمن هـذه الثلمة استطاع أناسٌ من الجنس الأصفر أن يدخلوا بلاد الهند في دور قديم ، وذلك بعد جهود عظيمة ، لما تراه في كل سنة من انغـلاق وادي برهما پوترا الأعلى الذي لم يقع ارتيادُه حتى الآن ، وذلك بفعل ما ينجم عن رياح الجنوب الموسمية من الطوفان ، فما ينزل على هذه المنطقة من الأمطار الهائلة يؤدي إلى طَمْس مَعالم كل طريق مسلوكة وتَحَوُّل الأنهـار إلى سيول والسهول إلى مستنقعات وغُدْران ويوجب نموّ نبـات يعوق السير وانتشارَ أبخرة وخيمـة قاتلة مفسدة للهواء في كل حين ، فلا نصـادف في الأرض بلاداً مجهولة كتلك المنطقة مع قُرْبها من الأمكنة العامرة .



٣ ــ منظر في وادي السند (مملكة كشمير)

وتكتنف جبال آسام ضِفَّةَ نهر برهما پوترا اليسرى وينحني مجرى هذا النهر

عند سفوح جبال كَهَاسِى وجبال غارو التى هى أخرى الحلقات المحيطة بشمال الهند .

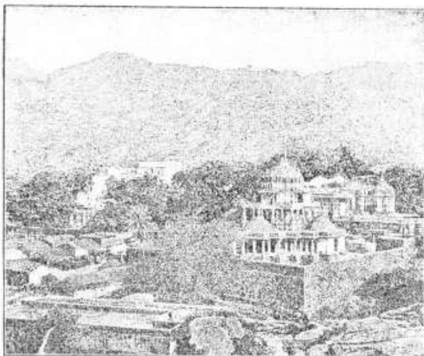
ويحيط ذلك النطاق بالسهل الهندىّ الغَنْجِىّ الذى تتألف الهندوستان الحقيقية منه ، وينخفض هذا السهل رُوَيْداً نحو خليج البنغال من جهة ونحو بحر العرب من جهة أخرى ، ويَقْسِم وادى السِّنْد ووادى الغَنْج ذلك السهلَ إلى منطقتين مختلفتين أشدَّ الاختلاف متباينتين منظراً ، ويبدو هذا الانقسام بارزاً فى الجنوب بجبال أرَاوَلى التى يرتبط فيها أعالى جبل آبو ، ويكاد هذا الانقسام يكون غيرَ بادٍ فى الشمال .

ووادى الغَنْج هو من أكثر بِقاع الأرض سكاناً وخِصْباً وغِنًى ، ولا يقال مثل هذا عن وادى السِّنْد الذى يشتمل على الصحراء الهندية الكبرى الوحيدة ، ويُفَسِّر تباين ذينك الواديَيْن باتجاه ذينك النهرين اللذين يجرى أحدهما موازياً لسلسلة الجبال التى يخرجان منها ويجرى الآخر عَمُودِيًّا بالنسبة إلى هذه السلسلة ، فكلما سار نهر الغَنْج نال من جبال هِمَالْيَة التى يحاذيها روافدَ لا يَنْضُب لهـا مَعِينٌ بما يسيل إليها من مياه أحواض الثلج فيَرْوى الحقول والمزارع التى يمرّ منها بوَفْرَة ، وكلما ابتعد نهر السِّنْد عن الجبال خَفَّت مياهه وقَلَّت روافده لضياع كثير منها فى الرمال وعجزها عن شَقّ مسايلَ لها ، فإذا كانت مقاطعة البنجاب ذاتُ الأنهر الخمسة خَصِيبَةً لم تلبث هذه الأنهر الخمسة أن تُؤَلِّف نهراً واحداً متوجهاً وحدَه إلى الجنوب الغربىّ تاركاً عن يَسَاره أراضىَ واسعةً خالية جديبة كئيبة .

ومن المحتمل أن كان جميع وادى السِّنْد فى غابر الأزمان مغموراً بالبحر فجعل منه البحر خليجاً واسعاً ، ونرى أن سهول شمال الهند وطبقات الجنوب من أسفل هِمَالْيَة قد تكَوَّنَت حديثاً ما كانت الصخور البِلَّوْرِية والألواح الحجرية فى أواسط

هِمَالْيَة وما وراءها وما كانت أقسام هِمَالْيَة المركزية وحدها مؤلفةً من الصَّوَّان والجلاميد المتحولة .

ويدلُّ ما حَوْل قِمَم هِمَالْيَة من بقايا نبات البحر ومن رواسب الملح على مُكْث مياه البحر بهضاب تلك الجبال زمناً طويلاً .



٤ — منظر فى جبل آبو (راجبوتانا)

وتَشْمَل سلاسل الجبال الصغيرة الكثيرة ، الممتدة من جبال هِمَالْيَة إلى منطقة البَنْجَاب العليا ، النظرَ بتركيبها ومنظرها ، ونذكر منها « سلسلة الملح » التى يُشَاهَد فيها ، عدا رواسبَ الملح ومختلف المناجم ، نماذجُ لجميع الصخور المُتَرَجِّح تكوينها بين الدور الجيولوجى الأول والدور الجيولوجى الثالث ، فنشأ عن لَطْم أمواج البحر

لسفوحها وشقِّ الأمطار لشعافها منذ القِدَم تَصَدُّعُها على شكل عجيب نالت به منظر الأبراج والقلاع التى أتقن الإنسان صنعها ، وذلك إلى أنها كانت مستورة بالحصون التى لا تزال أطلالها الرائعة ماثلة على ذُرَا صخورها الناهضة فيتمثل بها المتأمل بقايا آطام القرون الوسطى المملوءة بها بلاد الغرب ، وذلك إلى أن هذا الشبه واقعيًّا أكثرُ منه عاطفيًّا ما أدى إليه قيام تلك المعاقل الدفاعية فى البنجاب و بُنْدِيل كِهَند من استعباد البلاد وزيادة طغيان الأمراء الإقطاعيين كما حدث فى فرنسة بعد الغزو النورمانى .

والأرضُ فى جنوب وادى الغَنْج ترتفع بهضاب مالْوَا و بُنْدِيل كِهَنْد ثم تبدو سلسلة جبال وِنْدهْيَا .

وتُعَدُّ سلسلة جبال وِنْدهيا « حجابَ الهند الحاجز » ، فلهذه السلسلة أهميةٌ كبيرة لفصلها بين حضارتين وجَوَّيْن وأرضَيْن وعرقَيْن ، فبينا يسود العنصر الغازىُّ ، أى العرق الآرىُّ ، السهلَ الهندىَّ الغَنْجىَّ يَقْطُن بهضبة الدكن الكبرى ، التى لها الوقايةُ بخندق نَرْبَدَا العميق و بسلسلتين من الجبال ، العرقُ الدراويدىُّ الفطرىُّ الخالص المحافظ على أخلاقه وأوصافه الجثمانية ومعتقداته القديمة الثابتة مع مرِّ القرون .

٣ — الدَّكَن

تألفت من الدَّكَن جزيرة حين كانت مياه المحيط تَغْمُرُ ، فى سالف العصور ، مُعْظَمَ السهل الهندىِّ الغَنْجىِّ فتلْطِم الأمواج سفوح الجبال المحيطة به ، ثم ارتَدَّت هذه الأمواج عن شواطئه الضيقة التى تهيمن عليها الهَضْبَة القديمة من ارتفاع يترجَّح بين أربعمئة متر وستمئة متر .

وفى الدَّكَن ، لذلك ، قسمان مختلفان بمنظريهما وإنتاجيهما وبالعروق التى تقيم بها ، فيتألف القسم الأول من الشواطئ الدنيا الواقعة على بحر العرب والمشتملة على : كُونْكَن الشمالى وكُونْكَن الجنوبى وملبار ومن الشواطئ : كورومَنْدِل وَسَكْهَر وأوريسة الواقعة على خليج البنغال ، ويتألف القسم الثانى من الهَضْبة الواسعة المائلة من الغرب إلى الشرق فتحيط بها جبال سات پورا وتوابعها وسلسلة كَهات الفاصلة لها عن المنطقة الساحلية تقريباً .

وتُسَمّى سلسلتا الجبال اللتان تفصلان الدَّكن عن البحر بكَهات الغربية وكَهات الشرقية ، وتَقِلُّ سلسلة كَهات الشرقية عن سلسلة كَهات الغربية ارتفاعاً ، وإليها يستند أسفل الهَضْبة ويتخلل هاتين السلسلتين عِدّة أنهر تَصُبُّ مياهها فى خليج البنغال تبعاً لميل تلك الجهة العام .

وسلسلة كَهات الغربية أكثر انتظاماً من تلك ، وتتألف من حَلَقات متصلة متوجهة عُمُودِيًّا إلى الساحل .

وبينا تَبْرُز كَهات الغربية الوَعْرَة من ناحية البحر شامخة بذُرَاها التى صَدَّعَتها أمطار الرياح الموسمية العاصفة تبدو أقلّ رَوْعة من الهَضْبة المُشْرِفة عليها ، وسلسلةُ كَهات الغربية هذه لا ترتفع عن الشاطئ بأكثر من ١٢٠٠ متر ، وهى ليست غير جلاميدَ قديمة محافظة على وضعها العام ، وتَغْمُر الأمواج هذه الجلاميدَ حيث يضيق الشاطئ فى بعض الأمكنة ، ويقطعها بين مسافة وأخرى فِجاج(١) تَصِل بين السهول العليا والمنطقة الساحلية ، ويُعَدُّ بُهُور كَهات أهمَّها ، وهو الذى سُمِّى قديماً بمفتاح الدَّكَن .

(١) الفج : الطريق الواسع الواضح بين جبلين .

وتتسع سلسلة كَهَات الغربية فى الجنوب ، فكان لها بهذا الاتساع منظر أقلُّ وحشة من ذلك ، وكان لقسمها المعروف بنِلْ غِيرى (الجبـال الزُّرْق) من سحر المنظر وحسن الجوّ ما دُعِيَت معه بسويسرة الدراويديّة .

وتنفرج وراء نِلْ غِيرى (الجبال الزُّرْق) فَجْوَة[1] بال كَهَات التى هى أهمُّ انخفاض فيها وتنتهى السلسلة برأس كارى .

وفَجْوة بال كَهَات أكبر طريق يَصِل بين الشاطئين ، ويمرُّ من هذه الفَجْوة فى الوقت الحاضر خطٌّ حديدىٌّ يربط مدينة مدراس بمدينة كالى كَت .

وإذا ما عصفت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية على خليج البنغال وقَفَتْ جبالُ كَهَات تلك الرياحَ وأمكن السفنَ أن تَمْخُر فى بحر العرب بسلام ، ولكن السفن إذا ما أصبحت أمام فَجْوة بال كهات كانت فى بحر مائج ، وذلك لأن الإعصار يتَقَوَّر فى هـذه الفَجْوة فيمرُّ منهـا ليُثِير أمواج الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهنـــد .

وعُدَّ جميع شواطئ الدكن الدنيا انتصاراً على البحر فى وقت قريب من دورنا ، ثم وُقِف ارتفاع هذه الشواطئ ، ودَلَّتْ المشاهدات الحديثة على حدوث عكس ذلك فى بعض جهات الهند ، واكتُشِفَت بقايا غابة غاطسة بالقرب من بَمْبى ، ويلوح أن منطقةَ الجزُر المُسْتَغْدِرة[2] الناشئةَ حديثاً فى مصب نهر الغَنْج والمسماةَ سُنْدُرْبَن والبقعةَ القائمة عليها مدينةُ كلكتة ستَخْسِفان ، ذات يوم ، فى هُوَّة هائلة تجوِّفُها

---

(١) الفجوة : الفرجة بين الشيئين — (٢) استغدر المكان : صارت فيه غدران ، وهى جمع غدير ، والغدير : قطعة من الماء يتركها السيل .

الأمواج و ينساب التراب نحوها ويَتِيهُ فيها المِرْجَاس[1] مع سهولة تعيين حافّاتها .

ولا يكون للنبات أثرٌ فى هَضْبَةِ الدَّكَن التى سترتها حجارة البراكين فى غابر الأزمان ، لو لم ينشأ عن الأمطار الغزيرة التى تَغْمُرها فى كلّ سنة حلٌّ لهذه الحجارة البركانية فى كثير من الأمكنة وسَحْقٌ لهـا ثم كَسْحُها وظهورُ أوديةٍ تؤدى كثرة مياهها وحرارة جوّها إلى نموّ نبات وافر عجيب فيها .

واستطاعت أصقاع الدَّكَن العليا أن تقاوم حَمَلات الغزو المتتابعة وأن تظلّ ذاتَ صِبْغَة خاصّة بفضل سلسلتى الجبال القائمتين فى شمالها و بفضل الخندق العميق الذى حَفَره نهر سون ونهر نَرْبَدَا ، فالحقُّ أن فى جنوب جبال وِنْدهيا بقايا قدماء سكان الهند والعنصرَ الدراويدى ومراكزَ الدفاع ضِدَّ غزو الأجنبى .

ورأسُ كُمَارى هو أقصى نقطة فى بلاد الهند ، وتقع جزيرة سيلان بجانبه .

ومع أنه ليس من برنامجنا أن نَصِف سكان جزيرة سـيلان ولا أن ندرس تاريخها نرى أن نقول بضع كلمات عن جِغْرافِيَّتها وجِغْرافيَّة الجُزُر القريبة من الهند فنختمَ بذلك بحثنا الإجمالى فى أرض الهنـد الدائمة التى يمكن تسميتها بهيكل الهنـد العَظْمى .

تكاد جزيرة سـيلان ، التى تَعْدِل مساحتها اثنتى عشرة مديرية فرنسية ، تتصل بشبه جزيرة الهند ، و إلى جزيرة سيلان تمتدُّ متوجهةً سلسلةٌ من الجُزَيْرات التى تَعُدُّ رَامِيشوَرَم ومنار أهمَّها ، فيتركب منتصف سلسلة الجُزَيْرات هـذه من صخور وأكثبة يغمرها الماء بضع أقدام فتُعْرَف بجسر راما وتَنفُذ ثلاثة معابر فقط

---

(١) المرجاس : حجر أو ما يشابهه يشد فى حبل فيدلى فى الماء ليعلم عمقه .

هذا السدّ الطبيعى ، وجُعِل أحد هذه المعابر فى الزمن الأخير صالحاً لسير السفن الصغيرة .

وفى شمال جسر راما يَنْقُر خليجان شواطئ الهند ، ويبدو أحد ذينك الخليجين مَأْمَناً للسفن الفارّة من الرياح الموسمية .

وتقسم جزيرة سيلان إلى قسمين : يقع أحدهما فى الشمال حيث السهول التى ينمو فيها نبات البلاد الحارة ، ويقع الآخر فى الجنوب حيث الجبال ، وذُرْوَةُ آدم التى يبلغ ارتفاعها ٢٢٠٠ متر هى أشهر ذُرَا سيلان وإن لم تكن أعلاها ، ففيها يَتَبَصَّر الهندوسىُّ الساذج أثر قدم بُدْهَة المقدسة .

وفى الجنوب الغربىّ من الهند تُوَشِّى البحرَ المحيط مئاتُ الجُزُر المعروفة بجُزُر لَكْ ديب وجزر مال ديب ، وجُزُرُ مال ديب هذه هى التى استوقفت النظر فأوحت إلى العلماء كثيراً من الفرضيات ، فرأى العالم الشهير داروين أنها شماريخ[1] جبال غابت عن الأنظار ، ونشأت هذه الجُزُر عن تَجَمُّع الحيوانات ذات الشكل النباتى ، وتبدو كلٌّ واحدة منها على شكل دائرة من الجلاميد محيطةٍ ببحيرة داخلية ، وتكتسب تلك الجزائر المختلفة شكل دائرة أيضاً ، وتبدو فى مجموعها ذاتَ وضع عام مُنْسَجِم .

٤ — وصف أنهار الهند الكبيرة

لا تكفى المياه التى تجرى فوق الهند لإخصاب جميع أراضيها مع أنها أكثرُ بلاد الأرض رِيّاً ، ولا تُمَدُّ مجارى الهند بالماء إمداداً متماثلاً فى كل سنة وفصل فضلاً

(١) الشماريخ : جمع شمراخ ؛ وهو رأس الجبل .

عن تفـاوت توزيعها ، فلا يلبث نهرها الذى يتّسع ويَعْمُق فى الفصـل الماطر أن يَضْمُرَ ويصبح ضَحْضاحاً فى دور الجفاف ، وإذا كانت سُحُب الرياح الموسمية دون العادة زاد تقلصه وقلّ خِصْب الحقول التى تستقى منه ، وليس بقليل أن تُغَيِّر أنهار الهند مجاريَها فتنتقل بذلك أسباب الرخاء والخير من مكان إلى آخر وتؤدى بذلك إلى جَدْب المكان الذى هجرته وإقفار مُدُنه وعُمران المكان الذى هاجرت إليه وزُخُور سكانه .

والهندوس ، لكى يتلافَوْا ما قد يطرأ على الأنهار من نقص عظيم ويتداركوا ما قد يصيبهم من خُسْرٍ كبير ، اتخذوا فى كل زمن طُرُقاً للرَّىّ مصنوعةً ، فأقاموا الأسداد التى تَقِف المِياهَ وتَنْشُكها فى القَنَوات أو فى الأهْوار[1] التى احتفرتها يد الإنسان وأنشأوا الحِياض الواسـعة التى تَسْطُمُ[2] وادياً بأسره فى بعض الأحيان ، ونذكر مما صنعته شعوب الهند فى هـذا المضمار سدّ كاويرى الذى لا يزال قائماً مع أنه شِيدَ منذ خمسةَ عشر قرناً ، وأحواضَ حيدر آباد التى يبلغ وجه أكبرها أربعة آلاف هكتار ، وبحيراتِ مَهُوبا الكبرى فى بُنْدِيل كَهَنْد .

ولا مَعْدِل لمياه الهند عن أحد الاتجاهين : خليج البنغال الذى يَتَقَبَّلُ مُعْظَمها ، وبحر العرب، وإليك أهم أنهر الهند :

وادى الغَنْج . ـ يرى الهندوس لكل نهر صفةً إلهية لما يحمله من البركات وما ينشره من الخيرات فى الأمكنة التى يمرُّ منها ، ولكنك لا تجد نهراً قُدِّس مثل نهر الغَنْج ، وإن شئت فقل الغَنْغا كما يسميه الأهالى ، ما عبدوه كالإلاهة .

---

(١) الأهوار : جمع هور ، وهو البحيرة تجرى إليها مياه غياض وآجام فتتسع — (٢) من سطم الباب يسطمه سطماً : أغلقه ورده

وينبع نهر الغَنْج ، كأكثر روافده ، فيما وراء هِمالْيَة ، ثم يجاوز هِمالْيَة قبل أن يوغل في السهل ، ويتألف نهر الغَنْج من السَّيْلَيْن : أَلَكْنَنْدَا وبَهَاكِي رَتِي المتدفقيْن من كُتَل الجليد التي يزيد ارتفاع محالّها على أربعة آلاف متر ، ويَعُدُّ الهندوس من الأماكن المقدسة ذينك المصدرين والجبال التي تعلوهما ويَرَوْن فيهما الخطوة الأولى لتاج شِيوا ، فطوبى للهندوسيّ الذي يستطيع أن يتسلق دَرَجها مهما أصابه من نَصَب .

والأوربيون ، على الخصوص ، هم أول من ارتقى ذلك المِعْراج فوجدوا أن بَهَاكِي رَتِي يتدفق من طاقه الجليديّ ، فلما رأى حجيج الهندوس ، الذي كانوا يَقِفُون دون مدخل المَرَاتِج[1] حتى أوائل هذا القرن ، ذلك الاقدام تَشَجَّعوا على الارتقاء إلى ما هو أعلى فهلكوا حين ذهبوا لإتمام مناسكهم عند منابع ذلك النهر المقدس .

ويُدْعى المكان الذي يختلط فيه السيلان : أَلَكْنَنْدَا وبَهَاكِي رَتِي بـ « المُلْتَقَى الإلهي » ، ويقوم هنالك معبد يزوره الهندوس كثيراً ، وتَجْذِب معابد هَرْدَوَار الواقعة دون ذلك ، وذلك في شهر مارس وشهر أبريل من كل سنة ، مئاتِ الألوف من الحُجّاج فيُخَيِّم حولها هؤلاء الذين قد يبلغ عددهم مليونين أحياناً ، ولا يقصدها هؤلاء جميعُهم عن تقوى مع ذلك ، بل تَجِد بينهم من يَؤُمُّونها سعياً وراء الربح والغُنْم .

وتَنْبُع جَمْنَة ، التي هي من أكبر روافد نهر الغَنْج ، من جبال هِمالْيَة غيرَ

---

(١) المراتج : جمع مرتج وهو الطريق الضيقة .

بعيدة من منبعه ، وتُقدَّس جَمْنَة كالغَنْج نفسه تقريباً ، وفى مجمعهما قامت الله آباد « مدينةُ الله » .

وأُنشئت مدينة بنارس الشهيرة على شكل مُدَرَّج فى الضِّفة اليسرى من النهر غيرَ بعيدة من الله آباد ، و بنارسُ هـذه هى المدينة المقدسة بالمعنى الصحيح ، وهى مركز الهند الدينىُّ وعاصمة البرهمية .

وكان من احترام الهندوس لنهر الغَنْج ، أو « لأُمِّهم الغَنْغا » ، أن ثاروا على الإنكليز حينما حفروا قناة دوآب الصالحةَ للرّىّ وسير السفن فحولوا المياه المقدسة إليها ، وهذه القناة التى تسير من هَرْدْوَار وتنتهى إلى كانْ بور هى أعظم قَنَوات العالم التى من نوعها لما تَطَلَّبه حفرها من كَنْح ترابٍ كالذى تَطَلَّبه حفر قناة السويس .

ولم يكن الإنكليز أقلَّ خَطَلاً من الهندوس حينما حاولوا منعَهم من إلقاء جُثث موتاهم فى نهر الغَنْج ، فما فَتِئَ الهندوس يمارسون هذه العادة ما تَفَلَّتوا من مراقبة قاهريهم ، ويقوم ذلك على ربط الميت برَمْث[١] صغير ذى مصباح ثم تَرْكه للأمواج المتقاذفة ، فإذا ما أرخى الليل سدوله رُئِى من بعيد تَسَكُّع[٢] تلك الأرْمَاث السابحات على وجه المياه الأسحم[٣] .

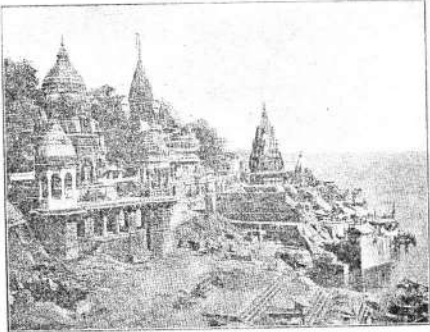
وتَنْظُم جَمْنَة قبل أن تَنْضَمّ إلى الغَنْج بما تتلقاه فى أثناء سيرها من الروافد المهمة التى نذكر منها جَمْبَل وسِنْدَها .

و يتجه نهر الغَنْج إلى الجنوب الشرقى قبل أن يجتمع بجَمْنَة ، ثم يسير إلى

---

(١) الرمث : خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب فى البحر ، ويجمع على أرماث — (٢) تسكع فى سيره : لم يهتد لوجهته — (٣) الأسحم : الأسود

الشرق فإلى الجنوب ، فتتلقى ضِفته اليمنى نهر سون وتتلقى ضِفّته اليسرى روافدَ كثيرة جارية من وراء هماليَة ، كغوغرا وغَنْدَاك وبَهَاك متى وكوسى .



٥ ــ ضفاف الغنج ببنارس

وتجاوز تلك الروافد منطقة ترَائى المشؤومة قبل أن توغل فى السهول التى ترويها بمياهها فتَهَب لها خِصْباً لا مثيل له ، ويُطلق اسم ترَائى على الأراضى المستنقعة الواقعة فى سفوح الجبال ، ولا يمكن الإنسانَ أن يقيم بمنطقة ترَائى ، ويخاطر الإنسان بنفسه إذا ما جابها .

وتبدو جبال هِمَاليَة سَدّاً شامخاً عظيماً فتقِف سُحُبَ الرياح الموسمية الماطرة فتوجب انصباب وابلها[1] فى المُنْحَدرات الجنوبية فينجم عن ذلك رطوبة شديدة

(١) الوابل : المطر الشديد

في البُقعة الدنيا التي تلي تلك المنحدرات فتُسْتَر بنباتٍ مُتَقَصِّ وتَصْرَى[١] فيها غُدُرٌ[٢] حَمِئة[٣] فيغدو هواؤها وبيئاً قاتلاً ، وإذا عَدَوْتَ هذا الجزء الضيق المستطيل الماقر الغامر[٤] وَجَدْتَ وادي القَنْج أكثر بلاد الدنيا ثمراً ودَرّاً .

ويُغيِّر نهر القَنْج هيئته بحسب الفصول فتطمو[٥] مياهه في فصل الفيض وتَطْغَى فتغمر مالا حدّ له من الأراضي فيرتدّ الزُّرّاع أمامها ليحرثوا الحقول البعيدة التي تُسْتَنْبَت بين الفصلين ثم ليعودوا حين يعود ذلك النهر إلى مجراه تاركاً لهم أطياناً خصيبة .

وتَحَوّل أضواج[٦] القَنْج العظيم أوضاعها بسرعة ، فيصعب تعيين مجراه وملاقيه بدقة ، وتَتَحَوّل بعد كلّ فيضان شِعابه الكثيرة التي ينصبُّ بها في البحر وما تحيط به هذه الشِّعاب من الجُزُر المُسْتَغْدِرَة[٧] ، وبذلك تعود المرافئ ، التي ترسو فيها السفن الكبيرة ، غير صالحة لإيواء زوارق الصيد ، ومدينة كلكتة وحدها هي التي أنفق الإنكليز عليها كثيراً من المال وقاموا في سبيلها بعظيم الأعمال ، التي لا بد من تجديدها ، ليجعلوا منها ميناء صالحاً لاستيعاب السفن في كل وقت .

وكانت مدينة غُور رأسَ دلتا القَنْج فيما مضى ، ولم يلبث سكان هذه المدينة التي كانت عاصمة لدولة عظيمة أن هجروها عندما هجرها ذلك النهر فعادت لا تكون اليوم سوى خرائب وأطلال ذات أدغال[٨] .

---

(١) صرى الماء يصرى صريا : طال مكثه وتغير — (٢) الغدر والغدران : جمع الغدير وهو قطعة من الماء يتركها السيل — (٣) الحمىء : الماء خالطته الحمأة أي الطين الأسود — (٤) الغامر : الأرض الخراب — (٥) طما الماء يطمو طموا : ارتفع وملأ النهر — (٦) الأضواج : جمع الضوج وهو منعطف الوادي — (٧) استغدر المكان : صارت فيه غدران — (٨) الأدغال : جمع الدغل وهو الشجر الكثيف الملتف .

وينقسم نهر الغَنْج إلى عِدَّة شُعَب عندما يقترب من مصبه ، ويَدْما التى هى من أهم هذه الشُّعَب تسير لتتصل بجَمُونا التى هى بَرَهْما پُتْرا الحقيقية ، وبهاغى رَتِى ، التى هى أكثر تلك الشُّعَب قُدُساً ، جزءا من بهاغى رَتِى التى تمرُّ من كلكتة باسم هوغلى فتصِلها بالبحر .

وليست مياه الغَنْج أغزر ما يصبُّ فى خليج البنغال ، بل يَدْفق أغزر المياه فى مِيعْهنا التى هى مصبُّ بَرَهْما پُتْرا ، وفى مِيعْهنا تتعذر الملاحة ، تقريباً ، لشدَّة جَرْى الماء ولِما تسفر عنه الأكثبة من العوائق والمراتيج(١) التى يرتفع عُبابها(٢) عِدَّة أمتار ثم ينهال فتسمع له جَلْجَلَة كقصف المدافع .

ويَتَجَمَّع حول جزائر سُنْدُرْبَن بعض الرمال التى يأتى بهما نهر الغَنْج فتقَدَّر بعِدَّة مئات الألوف من الأمتار المكعبة فتزيد هذه الجزائر اتساعاً .

ويظهر أن الدلتا تَهْبِط بالتدريج بدلاً من أن تَتَّسِع على حساب البحر ، وأن الهُوَّة التى تَفْغَر فاها أمام مصابِّ الغَنْج ستبتلع هذه الدلتا .

وتَفْغَر هُوَّة ، كذلك ، أمام مصابِّ أخى الغَنْغا : نهرِ السِّنْد العظيم الذى يجرى إلى الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهند حاملاً مقادير وافرة من الرمال ، ولكن هـــذه الرمال لا تَعتمّ أن تذهب مع الجريانات الناشئة فى البحر فوق تلك الهُوَّة .

ويبلغ طول مجرى نهر الغَنْج ٢٤٢٠ كيلو متراً .

وادى السِّنْد — يقلُّ وادى السِّنْد عن وادى الغَنْج رِيّاً وَخِصْباً وانتظاماً وتعمر

(١) المراتيج : جمع المرتاج وهو ما يغلق به الباب — (٢) العباب : معظم السيل وارتفاعه .

صحراء تِهار التى تفصله عن بقية الهند أكثرَ من نصفه ، ويكون معزولاً عن شبه جزيرة الهند لو لم تَصِله بسهل الغَنج أراضٍ زراعيةٌ محاذية للمنطقة الجبلية .

تلك الأراضى هى البنجاب ، أو « البلد ذو الأنهر الخمسة » الذى مَرَّ منه جميع الفاتحين ، بعد أن ساروا ونهرَ كابُل فأوغلوا فى الهند ، وفى البَنْجاب وحدَها تجد المدن الكثيرة الأهلِ والحقولَ الغنيةَ غِنَى الحقول التى يسقيها نهر الغَنج .

ويكون وادى السِّنْد فى الصيف جافًّا لافحاً ، ولا تكون مياه روافده كافية لجلب الرَّخاء أو لبقاء ما هو موجود ، وظاهرةُ هذه الروافد أن تَضْعُف كلما ابتعدت عن منطقة الجبال وأن يَبْطُؤ جَرْيها ويقلّ فيضها كلما اقتربت من البحر ، وليس بقليل أن يَغُور بعضها فى رمال الصحراء قبل أن يبلغ اليمّ[1] كَسَرَسْوَتِى ، ولا يُتِمّ ما بقى منها سيره إلا بعد أن يجتمع بعضه إلى بعض ويصبّ فى السند .

وأسماء الأنهر الخمسة التى تنبع من جبال هِمَالْيَة الغربية فتشتهر البنجاب بها هى: سَتْ لَج وجِناب وَبِيَاس وجِهْلَم وَراوِى .

ويتبع نهر السند وروافده المهم سَتْ لَج من السلسلة المركزية العظمى التى يخرج منها نهر الغَنج ونهر جَمْنَا أيضاً ، ولكن السِّنْد وسَتْ لَج تابعان لمنحدَر ما وراء هِمَالْية الجنوبىّ فيطوفان بجميع سلسلة هِمَالْية فيُجَوِّفان فيها فِجاجاً عميقة قبل الوثوب على السهل ، ومما يحدث أن يَقِف سيرَهما انقضاض الجلاميد فتتجمع مياههما على سُطُحٍ كبيرة إلى أن تتغلب على الجلاميد فتَدْفُق من فوقها بشدةٍ فتغمر ما تحتها وتقضى على مدن بأسرها فى بعض الأحيان .

---

(١) اليم : البحر .

ويجرى نهر السِّنْد من الشرق إلى الغرب مسافةً غير قصيرة فيتغشّى تَنْغاپَرْبَت، ثم يخرج من المِنطقة الجبلية بالقرب من هَرِى پُور متوجهاً إلى الجنوب ، ثم يتلاقى عن اليمين الرافدَ كابُلَ المهمَّ الذى هو باب للتجارة والمغازى .

ويقوم الحصنان أتُك وپِشاوَر على السِّنْد ورافده كابُل لحراسة الإمبراطورية الإنكليزية الهندية ويقطع السِّنْدَ خطٌّ حديدىٌّ ممتدٌّ إلى الحدود .

وسهل وادى السِّنْد مستوٍ ، فليس فيــه من الانحدار ما تتوجه به الأنهار التى ترويه ، فتتسكع هذه الأنهار مُبَدِّلَةً مجاريَها أمام أىِّ عائق ، وتعدل الأنهرُ الجافة ، التى تحوّل الأراضى الواسعة إلى صحارٍ بعد خِصْب ، الأنهرَ الجارية كثرةً ، وتُبْصِر عِدَّةَ قَنَواتٍ فارغة لا تلبث أن تمتلئ بسرعة وقت الفيضان فتصــل بين روافد نهر السند ، وتؤلِّف بينها شبكةً معقدة متقلبة على الدوام.

وليست مصابُّ نهر السِّنْد أقلَّ تقلباً مما تقدم ، فهى تَنْسَدُّ بما تحمله من الرمال الكثيرة فتَحْدُث منافذ أخرى ، فيؤدى ذلك إلى تعذر المِلاحة فيه تقريباً كما يؤدى إلى استحالة ازدهار أىِّ ميناء فى مخارجه ، وأما روافده فتكون تارةً مجاريَ واسعة صالحة لسير السفن الكبيرة وتكون تارةً مجاريَ مبسوطة فيستطيع السياح أن يَعْبُروها خَوْضاً .

وينحرف نهر السِّنْد بالتدريج نحوَ الغرب فضلاً عن تقلب أضواجه[1] ، ويُفْتَرَض أن مياهه كانت توزَّع توزيعاً متساوياً وأنه كان يَتَلَقَّى روافدَ أكثرَ مما يتلاقى الآن وأن الصحراء كانت أضيق مما هى عليه اليوم ، ودليلُنا على ذلك تسمية كتب الهندوس القديمة لتلك المِنطقة ببلاد « الأنهر السبعة » ، لا بلاد « الأنهر الخمسة » كما تُسَمَّى فى الوقت

(١) الأضواج : جمع الضوج وهو منعطف الوادى .

الحاضر ، ومما جاء فى تلك الكتب القديمة وصفٌ لأنهر بأنها مجارٍ واسعةٌ مع أنها غير موجودة فى زماننا ، ومما نصّت عليه تلك الكتب أن سَرَسْوَتِى كان نهراً جليلًا متدفقاً إلى أن يَصُبّ فى نهر السِّنْد غضبان أسِفاً على فِرار الإلاهـة ، مع أنه يَمّحِى اليوم فى رمال الصحراء ، وإلى مثـل هـذا المصـير ينتهى كثيرٌ من المجارى وإن لم تَغُر تماماً ماادَّخَلت فى مسيل واقع تحت الأرض وما ثبت ذلك من الآبار التى تُحْفَر فى اتجاهها بعيدةً بعض البعد من المكان الذى توارت فيه .

ونهرُ السِّنْد أطول أنهار الهند ، ويبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ كيلو متر .

وادى نَرْبَدَا ووادى تابتى . — نَرْبَدَا وتَابتى نهران يفصلان هما والجبالُ التى يَمُرّان بينها المنطقتين الكبيرتين : الهندوستان والدَّكن ، وطول مجرى نَرْبَدَا ١٢٨٠ كيلو متراً ، وطول مجرى تابتى ٧٠٠ كيلو متر .

وينبع نهر نَرْبَدَا فى جبال أمر كَنْتَك التى هى عُقْدَة جبال الهنـد الوسطى ، ويجرى من الشرق إلى الغرب بسرعة نحو البحر ، وذلك فى مجرى ضيقٍ عميقٍ واقع بين سلسلة جبال سات پورا وسلسلة جبال وِنْدِهيا ، ولا يصلُح للملاحة لما فيـه من الشَّلّالات الكثيرة ، ويبدو ذا مناظر ساحرة عند مضيق « صخور الرُّخام الأبيض » غير البعيد من منبعه فتجرى المياه منه صافيـةً هنالك فيكتسب معها صباحَ مساء ألواناً عجيبة بفعل أشعة الشمس .

ويُقدِّس الهندوس نهر نَرْبَدَا بعـد نهر الغَنْج ، ويأتون إليه من الأماكن البعيدة ليغتسلوا فى مياهه وليأخـذوا من ضِفافه حصىً يتخذونها تمائم وتعاويذَ غالية قادرةً ، وكان من تزاحم الحجيج على ضِفافه فى كل زمن أن فَتْحَ الدَّكَنُ للمؤثرات الأجنبية بما لا يتمُّ بقوة السلاح .

ويصبُّ نهر نَرْبَدَا في خليج كَنْبِي غيرَ بعيدٍ من مصب نهر تابتى الأقلِّ أهمية والأكثرِ فيضاً ، وتقوم مدينة سُورت على مصبِّ نهر تابتى ، فتــدفع عنها المياه بالأسداد المحكمة .

وتقع ثلاثة أنهر صغيرة فى شمــال نهر نَرْبَدَا فتجرى من الجبال المحيطة بسهل كجرات فتصبُّ فى خليج كَنْبِي ، وأهمُّ هذه الأنهر الثلاثة نهرُ ماهِى الذى يبلغ مجراه ٥٣٠ كيلو متراً ، ونهر سابَرْمَتِى الذى يمر من مدينة الله آباد الشهيرة فلا يزيد طول مجراه على ٣٠٠ كيلو متر .

أودية الدكن . ـ لا يصبُّ نهر مهمٌّ بين مصب نهر تابتى ورأس كُمارى من شواطئ بحر العرب ، فقد بلغت جبال كَهات الغربية من القرب إلى الساحل ما لا تكون به المياه المنحدرة منها غيرَ جداولَ فتتحول هذه الجداول إلى سيول بفعل رياح الجنوب الغربىِّ الموسمية .

ويتكــون من ثَغْرَة بال كَهــات ممرٌّ لنهر بونانى الصغير الذى يَنْبُعُ فى شرق الجبــال ويختلط هنالك مُنْحَدَرَا الدَّكَنِ الــكبيران ، وينبُع بعض روافد كاوِيرى من غرب جبال كَهات .

والساحلُ الذى يقع فى جنوب بونانى ذو غُدْران كثيرة محاذية لشاطئ البحر متصلٍ بعضُها ببعض ، ويتألف من هــذه الغُدْران قناةٌ صالحة للملاحة ، ويُفَضِّل رَبَابِنَةُ السفن السيرَ فى مياهها الهــادئة على السير فى البحر المحيط ، وتــكاد تجارة كوچين وترانــكور تتمُّ بها .

أودية الدَّكَن الشرقى : ـ لا أنهار كبيرة فى الدَّكَن غير التى تجرى شرقاً إلى

خليج البنغال ، ومن هـذه الأنهار نهرُ سباريكا الذى يُرى بعد مصب نهر الغنج والذى ينحدر من عاليات جوتا ناغپور فيصبُّ فى البحر بعد أن يسير ٥٠٠ كيلو متر .

ونهرُ مهانَدِى البالغ طوله ٨٣٠ كيلو متراً هوأهمُّ الأنهر بعد ذلك ، فإذا مااجتمع هذا النهر بنهر غُوداوَرى البالغ طوله ٥٥٠ كيلو متراً و برهمنى البالغ طوله ٦٥٠ كيلو متراً تألفت بلا انقطاع فى ساحل أوريسة دلتا واسعة تمتدُّ تحت البحر إلى مسافة بعيدة مع زيادة عرضها .

ويتفتت تراب الدَّكَن البركانىُّ بفعل الأمطار ومياه الفيضان ، وتحمل الأنهارُ الرمالَ والنُّثارَ لتُودع الساحلَ إياها فتزيدها تلك الدلتا سمكاً .

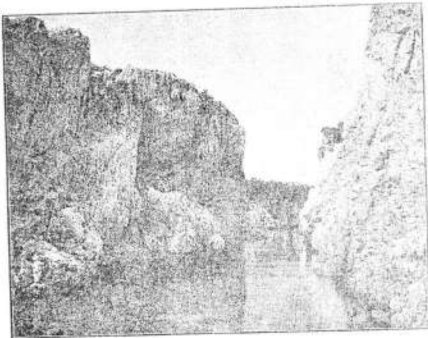
وتجمَّعت بالقرب من مصب مهانَدِى لِفَافَةُ رمال فاشتملت على بحيرة شِلْكا التى تصلها قناة بالبحر .

والجفافُ أظهر ما يُصاب به ساحل أوريسة الذى تجوبُه شعاب مهانَدِى الكثيرة ، فكان ما تراه من بؤس سكانه وتوحشهم ، فإذا تقلَّت ساحل أوريسة من هذا الجفاف ، أحياناً ، فلكى يُخرِّبه الفيضان ، وساحلُ أوريسة هذا بلغ من الانخفاض والاستواء ما يغمُره به البحر فى الغالب فينشأ عنه مالا يتصوره إنسان من التلَف والضَّرر ، وساحل أوريسة هذا أصيب فى سنة ١٨٦٦ بإعصار خرَّب قراه وأهلك ١٢٠٠٠٠٠ شخص من سكانه ، وذلك بعد قحطٍ نجم عن الجفاف فأمات ربعهم .

والجفافُ آفةُ الدَّكَن ، والهنودُ ، لكى يدفعوه ، يُقيمون الأسداد ويُنشئون الحياض الصالحة لوَقف طفَاح أمطار الرياح الموسمية المؤدية إلى ضخَم الأنهر فى بعض

أوقات السنة ، وذلك كالحواجز التي صُنِعَت في مصاب مَهَانَدِي وغوداوَرِي وكِرِشنا لِتُحَوِّل المياه ، عند الفيضان ، إلى قَنَوَات الرَّيِّ أو إلى البِرَك المصنوعة ، ويُقَدِّس الهندوس تلك الأنهر ويقيمون الشعائر على ضِفاف كلٍّ واحد منها .

ويقع نهر غوداوَرِي ، الذي هو أعظم أنهر الدَّكَن والذي يبلغ طوله ١٤٤٠ كيلو متراً ، تحت نهر مَهَانَدِي ثم يليه نهر كِرِشنا الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلو متر ، ثم نهر بنار الذي يبلغ طوله ٥٧٠ كيلو متراً ، ثم نهر كاويري الذي يبلغ طوله ٧٥٥ كيلو متراً .



٦ — مضيق صخور الرخام على ضفاف نربدا بالقرب من جبل بور

ويجري نهر كِرِشنا في مجرى ضيق فلا يصلح للمِلاحة ، ويفقد مياهه بما يَرْويه من ضِفافه ، ولكن أهميته تبدو ما قَطَع شبه جزيرة الهند من الشرق إلى الغرب ،

وما فصل منطقتين وَفرّق بين حضارتين ، فَلْيَذْهَب إلى المنطقة الجنوبيـــة منه مَنْ يرغب فى درس طبائع الشعب الدراويدى ولغتِـه ليُبْصر أنهـا أقلُّ فساداً بالعناصر الغريبة مما فى أىّ مكان آخر .

و بلغ كثير من الفاتحين نهر كرِشنا مجاوزين جبال و نْدهيا وجبال تَرْبَدَا وجبال سات پُورَا وتوابعها الممتدة إلى مصب نهر الغَنْج ، ولم يَعْبُر الفـاتحون كرِشنا أو لم يستطيعوا أن يَعْبُروه بكثرة فيختلطوا بالمغلو بين اختلاطاً تختلف به سَحَنات الشعوب الدراويدية القديمة .

وأول ما عَلِمه الغرب عن تلك المنطقة المنقطعة هو ما أتى به التجار الذين قَصدُوا سواحلها فملأوا الأخْيِلَة بالأقاصيص العجيبة عنها ، ولا غَرْوَ ، فتلك هى بلاد الهند الحقيقية ، تلك هى البـــلاد التى تجمع الشمس حرارة أشعتها فى أبازيرها وتوابلها وتجمع أنوارَها الوَهّاجة فى حجارتها الـكريمة .

شواطئ الهند ومرافئها : — ظلّ الوصول إلى جنوب الهند مقصوراً على البحر زمناً طويلاً مع صعوبة ذلك ، وليس فى شواطئ شبه جزيرة الهند الممتدة من مصابّ نهر السِّنْد إلى مصابّ نهر الغَنْج مكانٌ يسهل بلوغه بحراً أو بقعةٌ صـالحة لإنشاء ميناء عليها ، ولا نذكر مرافئ بَمْبِى ومدراس وكلـكتة البحرية العظيمة ما قامت هذه المرافئ بعزم الإنسان وعمله .

ومع اشتقاق كلمة بَمبِى من كلمة « Bonne Baie : الفُرْضة الصالحة » ، كما قيل ، فإن نزول السُّياح والسِّلَع إليها لا يتمُّ بغير صعوبة ، فإذا كانت هـــذه الفُرْضة رائعةً فإنها عاطلةٌ من أرصفة ، ولا تُعَدُّ مدراسُ ملجأً للسفن ، فترسو هذه السفن فى

(٤)

عُرْض البحر وترسل ما فيهـا من العُرُوض والأمتعة والركاب إلى البرّ في قوارب أو أطواف[1] لا تسير في اللُّجَج من غـير خطر ، واليوم تشتمل مدراسُ على رصيف يبلغ ٣٣٥ متراً مع خرابه غيرَ مرة فيما مضى ، ويفكِّر القوم في حفر خليج لهـا ، ولم يسهُل الاقتراب من كلـكتة في أيّ زمن ، وتقوم سلامة مينائهـا المفتوح وسلامةُ فرع الغَنْج الغربي هوغلي الصالح المِلاحة على مُتَّصِل الأعمال .

وإذا عَدَوْتَ ساحل مليبار الذى يشتمل على بضعة مرافئ صغيرة صالحة لإيواء المراكب وجدت جميع شواطئ الهند خَطِرة ، ولم ترَ مكاناً مناسباً في خليج البنغال ، وكلنغاپَتَمُ ، الواقعةُ بين دلتا مَهانَدِي ودلتا غوداڤري ، وحـدَها هى الملائمة لبعض الرُّسُو على مسافة ستمئة كيلو متر .

٥ — الأجواء

بلادُ الهند من أشدّ بلاد الدنيا حراً ، واختلاف بلاد الهند في الارتفاع يجعـل لكلٍّ منها جوًّا خاصًّا ، فيستطيع السائح أن يقطع فيها درجاتٍ متباينةً من الحرارة في بضعة أيام .

ومثلُ هذه الانتقالاتُ يُلاحَظ في جبال هِمالَيَة على الخصوص ، فبينما يُتَوِّج الثلج والجليد ذُرَا تلك الجبال الرائعة تتمتع منحدراتها بجوٍّ معتدل كجوِّ فرنسة وإيطالية ، وتكاد سفوحها تُلفَح بحرارة دائرة الانقلاب الصيفي .

والحدُّ الذى تَثْبُتُ الثلوج فوقه من جبال هِمالَيَة عالٍ ، ويترجح ارتفاعه بين

(١) الأطواف : جمع الطوف وهو قطع خشب تشد فتصير كهيئة سطح ويركب عليها في الماء أو تحمل عليها الأثقال .

٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ متر ، ولا يسقط الثلج تحت هـذا الارتفاع إلاّ قليلاً ، وإذا ما سقط ذاب سريعاً ، وفى القسم الغربىّ من جبـال هِمَالَيَة يُمْسك واسع الهضاب كُتَلَ الجليد ، وفى ذلك القسم الغربى يكون لديها من الوقت ما تَـكَوَّن فيه ، على حين تنهال كُوَم الثلج فى مُنْحَدَرات جبال هِمالَيـة الشرقية الواقفة .

ولا تَجِد لحقول الجليد التى تشاهَد فى هِمَالَيَة الغربية وفى كارا كورَم مثيلاً فى غير البقاع القطبية ، وتترجّح تلك الحقول بين ٢٥ و ٣٠ و ٥٠ كيلومتراً طولاً ، وهى مشهورة بما تَقُدُّه من الثّمار فى أثناء انهيالها ، ومما يحدث أحياناً أن يتجمع التراب بين الجلاميد فَيَنْبُتُ فيه العشب فيحجب كُتَلَ الجليد الـكثيبةَ غطاء أخضر .

وتمتدُّ فى جبال هِمَالَيـة الأمامية بقاعٌ يترجح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠ متر فيذ كِّرنا جَوُّها وإنتاجها بأفضل بقاع أوربة ، فإليها يجىء الإنكليز فى كلِّ سنة باحثين عن ملاجئ فِراراً من قَيْظِ الصيف ببلاد الهند ، فيستردون فيها قوَّتَهم التى أوهنها حَرُّ السهل ، فنيهـا أقاموا « مُدُن الصحة » التى تعَدُّ سِمْلا ومسورى ودارجى لنغ أهمَّها .

وإلى سِمْلا ينتقل أ كابر الموظفين فى بدء فصل الحرّ ، فتصبح مقرَّ الحـكومة بضعة أشهر ، فيعتقد المرء أنه أضحى بانكلترة عنـد تأمُّلها وتأمُّل ما فيها من غاب البلوط والزّين والأشجار المثمرة المألوفة فى الغرب .

وفى الهند نواحٍ كثيرةٌ لها ما لتلك المنطقة من الروعة ، وأهمُّها جبالُ نِلْ غيرى التى تبدو فى الجنوب ممتدةً من جبال كَهات الغربية ، فى تلك الجبال أُنشِئَت، أيضاً ، مدن للصحة ، وتُعَدُّ أو تا كمَنْد أعظمها شأناً ، ولتلك المدن جوٌّ أكثر اعتدالاً من جوِّ منحدَرات هِمالَية ما اتفق لها ربيع دائم وثمَراتُ الصيف ، وما غَرَّدَت الطيور

الأوربية والصيقان الشُّقْر والعنادل والبلابل فى أدغالها ، و إليها جلب الإنكليز عصافيرَ دُورِيّةً فَفَرَّخَت وكَثُرت حول بيوتها .

و إذا استثنيت تلك المناطق وجدتَ حرَّ بلاد الهند يترجّح بين درجة الصفر والدرجة ٥٢ بمقياس سَنْتِغْراد .

وظاهرةُ مقاطعة البَنْجَاب أن تجمع أقصى درجة البرد وأقصى درجة القَيْظ فى الهند ، وأن تتقلب الأجواء فيها أكثر مما فى غيرها .

وكلما سار الإنسان إلى جنوب الهند بدا له تناقص الفروق بين الصيف والشتاء ، فإذا بلغ أقصى الهند رأى استواء الجوّ فى مختلف الفصول .

أجَلْ ، إنه يجد هنالك ارتفاعاً فى الحرارة بسبب درجة العَرْض ، ولكن نِسَام[1] البحر تُلَطِّفها ، وهى تترجّح بين ٢٦ و ٢٨ درجة بمقياس سَنْتِغْراد فى جميع أيام السنة .

و يُمَيَّز فى الهند ثلاثة فصول وهى : فصل المطر و يدوم من مايو إلى أكتوبر ، وفصل البرد و يدوم من نوفمبر إلى آخر فبراير ، وفصل الحرّ و يدوم من أول مارس إلى أول يونيه ، و يختلف زمن كلّ فصل بين منطقة وأخرى اختلافاً جزئياً ، وأصلح فصول الهند على العموم هو الذى يستطيع الأوربيون أن يسيحوا أو يستقروا فيه من غير سوء ، أى الذى يبدأ فى أكتوبر و ينتهى فى أبريل .

و يصبح الحرُّ مضنياً فى الشهرين أبريل ومايو ، فيقاسى الأهلون فى أثنائهما كبيرَ عناء ، فيبلغ الحرُّ فى وادى السند وفى سواحل الدَّكَن شِدَّةً لا تجد مثلها فى بُقعة من الدنيا ، فيُغِيض الحرُّ مياهَ الأنهر و يُذْوِى النبات ، فتَشْخَص الأبصار إلى

(١) النسام : جمع النسيم .

السماء الصافية فيحجب هذه السماء فى نهاية الأمر ، كبقية الطبيعة ، ضبابٌ من الغبار الدقيق الخانق فتبدو الشمسُ من خلالها قُرْصاً نحِساً عاطلاً من الشعاع .

هنالك ينفد صبر الناس فينتظرون الفرج فيرتقبون ما فى أفق الجنوب من الرياح الموسمية الماطرة التى تجىء صائلةً هائلةً للخير حاملةً .

الرياح الموسمية ـ لا تجد حادثةً ، كالرياح الموسمية ، متجبرةً فى ظاهرها نافعةً فى نتائجها .

يرى الإنسان سُحُباً كثيفةً تتلبّد فى السماء فى يوم أو يومين ، ثم تهتزّ وتُقبل وئيدةً[(1)] غاشية نصف الأفق بغطاء مأتَميّ على حين يضىء نصفَ الأفق الآخر بيوتُ القرى البيضُ وضِفافُ الأنهر ، ثم لم يلبث الجميع أن يُعتِم ، فهنالك ترتعج[(2)] البروق وتقصف الرعود وتنزل الصواعق بما يُمزِّق القلب ويخلع الفؤاد ، ثم تتشقّق الأضوار[(3)] الطاخية[(4)] كالظروف والقِرَب المملوءة فينهمر طوفانها على الأرض ويملأ مجارى الأنهار الجافّة ويُحوّلها إلى سيول ، فتجرع الأراضى المتقاطلة من مياهه المباركة فتبدو للناظر حياةٌ جديدة آتية من السماء لتسرى فى عروق العالم فيعود إليه شبابه .

ولم تعتم تلك الزوبعة الأولى أن تهدأ فتنقشع تلك الغيوم المكفهرّة عن سماء ضاحكة وعن نبات رَطِيب نَضير يَخرُج فوراً فيعود إلى الأحياء نشاطهم ويتحول كلُّ شىء فى بضعة أيام ، ولكنّ رياح الجنوب الغربى الموسمية لا تنفكُّ تجىء من فوق البحر فى خمسة أشهر أو ستة أشهر حاملةً الرطوبة والندى خافقةً ماطرة بين حين وحين .

(١) وئيدة : على تؤدة — (٢) ارتعج البرق : تتابع — (٣) الأضوار : جمع الضور وهو السحابة السوداء — (٤) الطاخية : المظلمة .

ذلك هو فصل المطر ، وذلك ما يحدث فى السواحل الجنوبية الغربية ، ولايحدث مثله فى بقاع الهند الأخرى من كلّ وجه ومن حيث الزمن والأحوال ، و إليك ما قيل فى مصدر ذلك الحادث وسيره من النظريات الجديدة :

يَهُبُّ ببلاد الهند ريحان مختلفتان مقتسمتان لأيام السنة ، تَخْفِق إحداهما من الشمال الشرقى فتدوم من نوفمبر إلى مايو ، وتخفق الأخرى من الجنوب الغربى فتدوم فى الأشهر الستة الأخرى ، فأما الريح الأولى فتأتى من آسية الوسطى غيرَ مارّة بغير البُرُور فلا تحمل قابَةً[1] ، فتُدْعى بالريح الموسمية الجافّة ، فتختلط بالرياح التى تَهُبُّ بين دائرتى الانقلاب من الشرق إلى الغرب ، فلا تكون حادثةً ذاتَ طابع خاص ، وأما الريح الثانية فتجوب البحر الهندىّ فتحمِل أبخرة يُسْفِر تكاثفها عن وابل هاطل ، فتدعى بالريح الموسمية الماطرة ، فهى وليدة تفاوت توزيع البُرُور والبحار وقَيْظ الصيف فى أشهره الثلاثة .

تمتد طبقات هواء الهند فى آخر الفصل الحارّ وتنبسط شيئاً فشيئاً بفعل ارتفاع الحرارة فتتصاعد فى الجوّ فتتحول الهند إلى أتون مستغيث فتهتزُّ حينئذ السحبُ التى تَغْشَى البحرالهندىّ وتسير لتملأ ذلك الفراغ الحادث ، وتدوم على هذه الحال إلى أن يعود التوازن الذى اختلّ فى الجو ، و إذا أصبحت سُحُب رياح الجنوب الغربى الموسميةُ فوق شواطئ الهند وَقَفَتها جبال كَهات وحملتها على الانصباب فى جانبها الغربى ، فيؤدى هذا الوابلُ الهاطل إلى تَصَدُّع تلك الجبال وتقطيعها بروجاً ومسَلّات واكتسابها منظراً ساحراً عجيباً خاصاً بها .

---

(١) القابة : القطرة من المطر .

وإذا استطاعت تلك السُّحُب أن تنفُذ سلسلة كهات كان ذلك وهى أقلُّ قطراً فَصَبَّت فى جانب هذه السلسلة الشرقى وفى هِضاب الدَّكَن مياهاً دون تلك مرتين أو ثلاث مرات ، وهى إذ تعجز عن قطع جبال كهات الشرقيــة تجرى إلى الشمال الشرقى غيرَ حاملة قَطْرَةً إلى شاطئ كورومندل .

والرياحُ الموسمية الشمالية الشرقية هى التى تَرْوِى ، بما لا يكفى ، مِنطقةَ كورومندل بعد أن تحمل بعض السُّحُب من خليج البنغال .

والجفاف بَلِيَّةُ مِنطقة كورومندل فى الحقيقة ، وليس فى الهند مكانٌ يحتاج إلى الحِياض المصنوعة كهذه المِنطقة ، فأُنشِىء فيها من الحِياض الكثيرة ما تبلغ مِساحته أحياناً مِساحةَ الأراضى الزراعية التى يُرْوِيها .

وحينما تكون الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية فوق البنغال تقطع البحرَ ثانيةً فتنحرف بفعل جبال بِن مانى وآسام فتهبُّ عموديةً على شواطئ سُنْدَرْبن كأنها آتية من الجنوب تَوّاً ، وهى إذ تكون حاملة سُحُباً كثيفة فى هــذه المرة تُغَوِّر(١) فى وادى برهما بوترا العليا ، فهنالك ، حيث جبال آسام وطرف سلسلة هِمَالَيَة الشرقى ، تُنْزِل من الأمطار الهائلة ما لا مثيل له فى الدنيا ، فقُدِّر ارتفاع ما سقط منه فى سنة ١٨٦١ على چيراپونجى ، الذى هو من شوامخ كهاسى ، بعشرين متراً ، فنجم عن ذلك أن تَصَدَّعَت شِعاف تلك المِنطقة كما فى جبال كهات .

وتغيِّر الرياح الموسمية سيرها بعد ذلك تغييراً تاماً ، فهى إذ تعجز عن مجاوزة جبال هِمَالَيَة تجرى محاذيةً لهذه الجبال متوجهة إلى الشمال الغربىِّ فتنشر الرطوبة فى طريقها

---

(١) غور الماء : ذهب فى الأرض .

ثم اَصِل إلى البَنْجاب الذى ينتظرها ليَسُحّ[1] فيه وقْرُها[2] .

ولا يكفهرُّ جوُّ البنجاب إلا فى أواخر يونيه ، وتجوب الرياح الموسمية تلك السبلَ بصَوْلَة متناقصة فى عِدّة شهور ، ويتسال وادى السِّند وساحلُ أوريسة أسوأ حِصّة من مياهها ، فإذا ماساء الحظُّ فقَلّ مقدار ماياخذانه من الماء عادةً ، مع عدم كفايته، أسفر ذلك عن مجاعة أشدَّ من الغزو والوباء ، فهلك مئات الألوف من الناس ، فليس من العبث ، إذَنْ ، أن عَبَد الهندوسُ الأنهارَ والآلهة التى تُوَزِّعُ على الأرض مياه الخير والبركة ، جاء فى الماهابهارتا : « يأتينا المطر من الآلهة فيَهَب لنا النبات الذى هو قِوَام نعمة الإنسان » .

ويرى الإنسان فى الدَّكَن الجنوبىّ المناظرَ المختلفة التى هى وليدة الرىّ المتفاوت، فالمطر ينزل عليه ، بالحقيقة ، نزولًا غير متساوٍ بسبب الموانع الجبلية وما إليها ، فهنا يهطِل مِدْراراً فيخرج نباتٌ برى جامح فتقوم غابة استوائية ، وهناك تجد حقولاً حقيرة تنبت فيها الخيازر[3] نباتاً متفرقاً ، وهنالك ، حيث التراب البركانى ، تُبْصِر الجدْب والجفاف .

أجل ، إن المجاعات التى تنشأ عن تفاوت نزول الأمطار هى أشدُّ ما تُبْتَلَى به بلاد الهند ، ولكنها ليست كلَّ ما تصاب به ، فلْتُضَف إليها الأعاصير والهَيْضَة[4] والحُمِّيَات .

ترتفع الأعاصير فتُخَرِّب كلَّ شىء يعترض لها ، وتثير أمواجَ البحر أحياناً فتقذفها إلى مسافات بعيدة ، ومنشأ الأعاصير هو ما بين رُكام الجوّ من تفاوت ،

(١) سح : سال وانصب غزيراً — (٢) الوقر : السحاب المثقل بالماء . — (٣) الخيازر : جمع الخيزران — ٤ الهيضة : الـكوليرا .

وفى أواخر فصل الحرّ، على الخصوص، تهبُّ الأعاصير فوق شواطئ كورومندل وَسكْهر وأوريسة، وما تحدثه الأعاصير من الضرر يذهب بلبِّ الرشيد، ومن ذلك أن غَرِقت فى سنة ١٧٨٩ منطقة مدابُولِم القريبةُ من مصابِّ غوداورى فهلك ألوف من الناس فحملَت السفينةَ ليقيقرية مسافةَ فرسخ فى البر، ومن ذلك أن دُمِّرَت فى سنة ١٨٦٤ مدينة مچهلى بُتَّم المتوسطةُ الأهمية الواقعةُ على ذلك الساحل، ومن ذلك الخراب الذى تُعَرِّض له جُزُر سُنْدَرْبن الرملية التى يتألف منها مصابُّ نهر الغَنْج فيتعذَّر دفعه .

وفى غُدران جُزُر سُنْدَرْبن تلك وبين أبخرتها المنبعثة من التراب الرطيب وفى غِياضها المُتَمَعِّجَة الوبيئة بُؤْرةُ الهَيْضَة الآسيوية الدائمة مع تَقَطُّع تَفَشّيها فى بقية بلاد الهند، وفى منطقة تَرائى ذاتِ المستنقعات الواقعة فى سفوح جبال هِمالَيَة مصدرُ حُمّيات الآجام التى لا تَقِلُّ فَتْكاً عن الهَيْضَة، فَلْيَمّم بتلك المنطقة أو ليُوغِل فيها من يرغب فى الموت، فالموت، وإن لم يلاقه فيها على الدوام، يُنْشِب أظفاره فيه إذا ما غَفَل عنه فيندر أن يَتَفَلَّت منه .

ولا يقال، مع ذلك، إن بلاد الهند الرائعة، التى لا يَنْضُب لها مَعِين، وبيئة فى مجموعها، فيمكن الأوربيين أن يستقرُّوا بها من غير أن يخاطروا بأنفسهم ما سَلَكوا سبيل الرشاد فبدَّلوا منازلهم فيها وغَيَّروا ما هم فيه من هوائها وأجوائها بحسب الفصول، وهذا لا يكون لزمن طويل مع ذلك، فقد هدتهم التجارب إلى استحالة اختيارهم لها وطناً ثابتاً فتراهم يرسلون أولادهم إلى إنكلترة لِيَنْشَأُوا فيها، ما تألف ممن يبقى منهم فى الهند عرق منحط سخيف ضعيف محكوم عليه بالأفول قريباً، وما أحسن قولَ بعضهم : «لايتصف جيل البيض الأول فى بلاد الهند بالضَّعْف

والشُّخْف ، ويتصف جيلهم الثانى فيها بالعجز والكسَح ، ولا تسمع عن جيلهم الثالث فيها خيراً » .

والهندُ إذا أُريد وصفُها وصفاً أساسياً قيل إنها بلادٌ حارة يَقِلُّ فيها الاحتياج إلى المساكن والملابس والمآكل وتكثر فيها الأراضى الخصيبة التى تُخْرِج ، بغير عمل ، ما يُضْطَرّ إليه الأهلون من المحاصيل القليلة ، ففى أحوال كتلك لا يتطلب الصراعُ من أجل الحياة كبيرَ جهودٍ ، فلا ينمو فيها خلق المبادرة والنشاط والحزم ، فكأنه كُتِبَ على العروق الخاضعة لمثل تلك الأحوال أن تكون مستعبدة ، فهى تظلُّ فريسةً للفاتحين ، مستعدةً للعمل بأوامر الغالبين .

الفصل الثاني
وصف مناطق الهند العام

الحدود الطبيعية لمناطق الهند ـ الخط الفاصل بين الهندوستان والدكن ـ (١) هملاية الشرقية (نيبال وسكم وبهوتان) ـ عزلة نيبال ـ وصفها الخاص ـ اختلاط المؤثرات الهندية والتبتية ـ الممالك الصغيرة في منطقة جبال هملاية الشرقية ـ (٢) البنغال ـ خصبه ـ طبيعة سكانه ـ (٣) أودهة ـ اختلاف سكانه عن البنغال ـ (٤) هملاية الغربية ـ جو كشمير ـ وادي كشمير ـ (٥) الهند الإسلامية (البنجاب وراجبوتانا والسند الخ.) ـ أوصافها ـ البنجاب وكاتهياوار والكجرات الخ ـ (٦) ولايات الهند الوسطى وساحل أوريسة ـ المنطقة الوسطى المعروفة بغوندوانا ـ منطقة أوريسة ـ (٧) الدكن ـ الظاهرة البركانية أقدم من الدكن ـ مملكة حيدر آباد ومملكة ميسور الخ.

لمناطق الهند حدودٌ طبيعية على العموم ، كأنْ يفصل نهر أو سلسلة جبال بين منطقتين منها مختلفتين عرقاً وحكومةً وحضارةً ، والضرورات السياسية تؤدي ، في الغالب ، إلى تذليل تلك الحواجز وتبديل غيرها بها ، ولم ينجم عن الفتح أو الحِلف، مع ذلك ، تقريبٌ مستمرٌ لنصفي شبه جزيرة الهند (الهندوستان والدّكن) اللذين تفصل بينهما جبال وندهيا ما بقيت هذه الجبال حجاباً حاجزاً ، فكان ما تراه من اختلافهما في الأجواء والحاصلات والشعوب والطبائع والعادات .

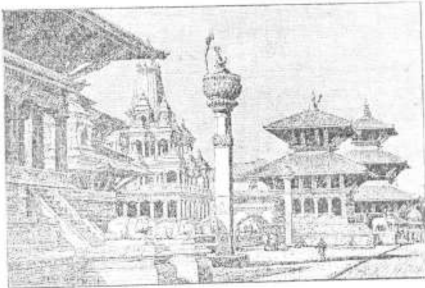
وأهل الشمال الذين تعوّدوا الانتقال بين القَيْظ والقُرّ أعظمُ بِنْيَةً وأكثرُ نشاطاً وأشدُّ بأساً من أهل الجنوب ، والمَرَاتها الذين يسكنون المناطق الجنوبية

يقاسون وحدهم بأولئك ، وسكانُ الدَّكن الذين يقطنون بقطر شديد الحرارة غير متقلب فلا ينمون جسماً وأخلاقاً يبدون قصاراً أخلياء كُسالى ، وتختلف جلودهم عن جلود أهل الشمال لوناً ، ويتدرَّج لون البشر من الجنوب إلى الشمال على العموم فتراه أسودَ في الجنوب ، نحاسياً فأبيضَ في الشمال كما عند الراجبوت .

وسنبدأ بالشمال فنَصِف سَحَنات سكان كلِّ منطقة وخواصّها ومحصولاتها المحلية وصفاً إجمالياً .

١ — هِمَالْيَة الشرقية (نيبال وسِكِم وبهُوتان)

تشتمل هِمَالْيَة الشرقية على دولتين مستقلتين على الرغم من الإنكليز ، وهما : نيبال وبهُوتان .



٧ — منظر في پتن (نيبال) (التقط المؤلف هذا المنظر من طرف الشارع المهم پتن ، وتجد تصويراً العمود الكبير ، الذي تحجب الفيلة قاعدته ، في هذه الصورة ، وتصويراً لمختلف مباني هذه المدينة في مكان آخر من هذا السفر)

ونيبال هى واد طويل واقع بين سلسلتى الجبال المتوازيتين : همالية وما تحت همالية .

وليست سلسلة ما تحت همالية هى الحاجز الوحيد الذى يفصل نيبال من الهند ، فاليها تضيف منطقة ترائى المرهوبة التى تحاذيها جنوباً فينشأ عن أوبئتها القاتلة حدٌّ طبيعىٌّ ثان .

ولنيبال المنعزلة على ذلك الوجه طابع خاص ، وبلغ أهل نيبال من الغيرة على استقلالهم ما رضوا به وجود سفير إنكليزى لدى بلاطهم بعد حربين طاحنتين ، على أن يكون هذا السفيرُ الأوربىُّ الوحيدَ الذى يُسمح له بدخول نيبال ، ولم يُؤذن لى فى زيارة هذا الصُّقع العجيب ، الذى لم يَستطع الرحالة جاكمون أن يدخله مع ما أتاه من جهود عظيمة ، إلّا بعد مفاوضات رسمية طويلة ، فكنتُ أولَ فرنسىٍّ طاف فيه[1] .

ويبدو فى نيبال جلال جبال همالية ووحشتها ، وتناطح شِعافها السماء ، فيهيمن على وادى نيبال الطويل جبلُ ديول غِيرى من الغرب وجبلُ كَنْجِنجِنْكها أو « جبل الكتل الجليدية اللامعة الخمس » من الشرق ، وجبلُ غورى شَنْكر أو « ملك الجبال » فى الوسط ، فتكتسب نيبال بذلك مناظر رائعة لا ترى مثلها فى منطقة أخرى ، وتشاهد من السهل ذُرَا تلك الجبال المنيعة ذواتُ الثلوج ، فإذا خاطر المرء بنفسه فتسلّق مسارحها ارتعد من التباين بين الهُوَى السود النافذة فى بطن الأرض وجُدُرِ الصوّان الشاهقة وفقر الثلج التى تتدرج إلى السماوات .

وأشهرُ الشِّعاب ذوات المهالك التى تصل الهندَ بالتبت هو شِعْب نِيَالو الذى

(١) بسطت رحلتى الى نيبال فى الصحيفة : « سياحة حول العالم » (أبريل سنة ١٨٨٦)

يؤدى إلى بحيرة مانْسَرُوور الواقعة فى أسفل جبل كَيْلَاس ، فنى مجاهل هـذا الجبل تَسكُنُ ، كما يعتقد الهندوس ، حيوانات خَفِيَّة قاذفة من أفواهها المُزْبدة أنهرَ الهند الأربعة : سـانغ بو (مجرى برهما بوترا الأعلى على ما يحتمـل) والسند وسَتْلَجَ والغَنْغَـا .

وروافدُ نهر الغَنْج الآتية من نيبال كثيرة ، وتقطع هـذه الروافد حدود نيبال الطبيعية قطعاً عمودياً ، وينبع بعضها من سفح هِمَالْية الشمالى فيجوب نيبـال ، ولا تصلُحُ للملاحة ما صَدَّعَت الجبالَ فجرتْ بسرعة من نيبال نفسها فأضحت بذلك غير نافعة لسوى نقل الحطب وأعمال الريّ .

وتقسم تلك الأنهرُ منطقة نيبال إلى عِدَّة أصقاع يختلف سكان بعضها عن سكان بعض ، و يؤدى تفاوت ارتفاع هذه الأصقاع إلى اختلاف سكانها أيضاً .

ويتجلى أثر التبت فى قسم نيبال الجبليّ على الخصوص ، وتَغَيَّر هـذا الأثر ، مع ذلك ، تغيراً محسوساً بما تمَّ من الاختلاط بالعناصر الآرية التى نتكلم عنها فى فصل العروق ، فنيبال هى منطقة الانتقال بين الهند ومملـكة ابن السماء عروقاً وعمـارةً وطبائعَ وعاداتٍ .

وتقع بين نيبـالَ و بهُوتان دولةُ سِكِم الصغيرةُ التى يملكها أحد الراجوات ، ولا تَعْدُو عاصمتُه تَمْلُنْغ قريةً ، ولا يزيد سكان هـذه الدولة على ستين ألفاً ، وهى ذات طابع تبتيّ خالص .

وسِكِم جبليةٌ رطيبة جـداً ، وتصعب الإقامة بها فى أكثر أيام السنة ، ومن دولة سِكِم القديمة سلخ الإنـكليز أخصب بُقْعة ، فجعلوا منها مديرية وجعلوا من

مقرّها دارجي لنغ مَصَحًّا ومَصِيفاً مهماً فى فصل القيظ ، فعُدّ نِدًّا لِسِمْلا الواقعة فى هِمَالْية الغربية وإن كان دونها لرطوبة جَوّه ، وتبدو مدينة دارجى لنغ سوقاً عظيمة يقصدها الهندوس وأهل التبت للمقايضة والمعاوضة .

وتشابه مِنطقة بهُوتان مِنطقةَ سِكِم الفاصلة لها عن نيبال ، وتقع على منحدرات الجنوب من مِنْطقة هِمَالْية الشرقيــة ، وتقسم إلى ثلاث مناطق زراعية : المِنطقة السهلية التى يَنْبُت فيها نبات البلاد الحارة ، ومِنطقة المنحــدرات التى يَنْبُت فيهـا نبات البلاد المعتدلة ومِنطقةُ غابات الصنوبر المرتفعة الجليــدية ، وتُرْوِى الرياح الموسمية سفوحها الجنوبية إرواء تامًّا ، ولا يَقْطُن بها غير الجبليين ، وتقوم مدينتاها المهمتان على أماكنَ مرتفعة ، وتحاذيها مِنطقة تَرَائى .

٢ — البنغال

يَلِى سهلُ البنغال الواسعُ شواهقَ سِكِم وبهُوتان من الجنوب ، ويرى الناظر إلى هذا السهل من جبال هِمَالية بساطًا أخضرَ من النبات الرَّيَّان[١] الزاخر حيث تجرى أنهار رائعة وروافدُ وجداول مُتَشَبِّكة ، ويَرَى فى أثناء الفيضان من المـاء ما يَعْدِل اليَبَس ، ويرى فى أثناء الطوفان الذى تُسْفِر عنه الرياح الموسمية الجنوبية رطوبةً شديدة .

ومن يمعن النظر فى البنغال يقطع بأنها تابعة للبحر أكثر من اتباعها لليابسة ، ما كانت مجارى المياه التى على سطحها لا تزيد عن البُحَيْرات والأنهار الواقعة تحتها ،

(١) الريان : ضد العطشان .

وليس بقليـل أن تجد فلاّحها الذى يقلب الأرض بمِعْزَقه(١) سماطاً سائلاً على عمق قدم أو قدمين .

وما هو آهلٌ معمور من البنغال يتنازعه الماء الغامر وشعاع الشمس الحارّ ، ولولا هـذا الشعاعُ ما سَلِمَت فى البنغال أرضٌ من الغَرَق ، وينجم عن تناوب الحرّ والبَلَل للبنغال قوةُ إنْبات لا تُنْعَت وأبْخِرةٌ وخيمة لا تُحَدّ وجوائحُ(٢) لا يحصيها عَدٌّ ، فمن البنغال تَثِب الهَيْضَة(٣) على العالم ، وعلى البنغال تسيطر الهَيْضَة والحُمَّى فى كل زمن .

والبنغالُ ، مع ما فيها من الآفات والضوارى وأُجُم الآجام وتماسيح الأنهار ، تُعَدّ من أكثر البلدان سكاناً وأصلحها أطياناً ، فأراضيها تؤتى أُكُلَها مرتين أو ثلاث مرات فى السنة من غير عناء كبير ، وهى ، لأنها ذات شواطئ ، تجد إلى البحر من المنافذ ما تصدر منه حاصلاتها ، ويغشى الأرز سهولَها الرَّطْبة المطمئنة ، ويغشى الشعير والبرّ(٤) والدُّخْن(٥) الخ ، حقولها المرتفعة ، وينبت فيها القطن وقصب السكر والتبغ والقِنَّب والخَشْخَاش(٦) والعِظْلِم(٧) وما إلى ذلك من النبات الغذائى الصناعى بسهولة عجيبة .

وتقوم مدن كثيرة عامرة زاهرة على ضِفاف الأنهر التى تَشُقُّ البنغال ، ويظلُّ زهو هذه المدن ما ظلَّت على هذه الضِّفاف ، فإذا حَوَّل النهرُ مجراه خَرِبت كما حدث

---

(١) المزق : المذراة ، الآلة من حديد ونحوه مما يحفر به — (٢) الجوائح : جمع الجائحة وهى البلية والتهلكة والداهية العظيمة — (٣) الهيضة : الكوليرا — (٤) البر : القمح (٥) الدخن : نبات حبه صغير أملس — (٦) الخشخاش : نبات يحمل أكوازاً بيضاً وهو منوم مخدر — (٧) العظلم : نبات يصبغ به .

لمدينة غور، وأهمُّ مدن البنغال مدينة كلكتة التى هى عاصمة الإمبراطورية الإنكليزية الهندية والتى هى أعظم مرافئ شبه جزيرة الهند .

وأهلُ البنغال مزيجٌ أناسىٍّ مختلفين، والمثالُ الهندوسىُّ فى هذا القطر كريهٌ خَلْقًا وخُلُقًا ، ويراه الأوربيون خلاصة جميع العروق التى تسكن شبه جزيرة الهند، ويرجع ذلك إلى أن أكثر سياح الغرب لم يُبْصِروا غيره ، ويتصف البنغالىُّ بالقِصَر والهُزال والاسمرار والتكرُّش ، ويهضم البنغالىُّ ما يُلْقَمه ، ويبدو البنغالى من الناحية الخلقية خَبِثًا جبانًا نَذْلاً مُرائيًا .

٣ — أَوَدْهَة

تقع ولاية أَوَدْهَة ، التى هى من أرغد بقاع الأرض ، فى شمال البنغال الغربى ، بين وادى الغَنْج وجبال هِمَالْيَة ، وتتمتع بجو أطيب من جو البنغال ، ويختلف سكانها عن سكان البنغال اختلافًا كثيرًا ، ويَقْرُب عرقهم الجميل البهىُّ القوىُّ من العروق الأوربية قُرْبًا كبيرًا ، ويتصف بالطول وانتظام الوجه وانسجام اللون ، ولا إفراط فى رطوبة أَوَدْهَة ، وتكفى لإنبات أراضيها نباتًا عجيبًا ، ولا مِراء فى قَيْظ صيفها ، ولكنَّ قُرَّ شتائها يُطَرِّى الجوَّ فيَتَقَوَّى أهلوها ويتجدد نشاطهم .

وفى أَوَدْهَة غاباتٌ ساترة لما يَلِى الجبال من الأراضى غنيةٌ بالقنائص ، كَثَّةٌ بالأشجار الصالحة لاستخراج العطور الفاخرة ، وفى أَوَدْهَة سهولٌ هابطة بالتدريج إلى نهر الغَنْج ذاتُ غَلَّات سنوية تورث وفرتُها العجب ، وليس بضائرٍ أن يشتمل ثَرَائى على قطعة مهمة من أَوَدْهَة ما تغلَّب الإنسان بقوة إرادته ومضاء عزيمته على الطبيعة فاستطاع أن يُحْيِى أجزاء كثيرة من تلك القطعة الخَطِرَة ويجعلها طيبة صحية .

وفى أساطير الهندوس ذِكْرٌ لجمال أَوَدْهَة وخِصْبها ، وفى قصائد الشعراء تَرَنُّمٌ بهذه المملكة التى كانت تسمى كُوسَلَة وبعاصمتها القديمة أُجُودْهيا الخربة فى الوقت الحاضر ، جاء فى ديوان الرمايَنا .

« هنالك قطرٌ واسعٌ اسمه كُوسَلَة واقعٌ على شاطئ سَرَاجو زاهرٌ عظيمُ الخيرات كثيرُ القطاع وافرُ الغلاّت ، وهنالك مدينةٌ شهيرة فى العالم بأسره أنشأها سيد البشر منو فَدُعيت بأجُودْهيا » .

وأضحت تلك المدينة الآهلة أَوَدْهَةَ الحديثةَ مؤخراً ، وبهذا الاسم يسمى البلد الذى كانت تلك المدينة عاصمةً له فكانت واقعة على شواطئ غوغرا .

وغَيَّرَ بلدأَوَدْهَة ، كبقية بلادالهند ، عاصمته غير مرة ، فأضحت مدينةالكَهْنَوُ عاصمة له بعد أن كانت فيض آباد ، ومدينةُ لكَهْنَوُ تلك نالت أهمية كبيرة منذ صارت منطقة أَوَدْهَة التى هى «فردوس الهند» مُلْكَ إنكلترة ، وهى تجتذب فريقاً كبيراً من الأوربيين بسبب موقعها الساحر ، وهى مركز الأناقة ، وهى ذات مبان مؤثرة من بعيد وإن عددناها نَمُوذَجاً لانحطاط الفنّ الهندوسىّ فى العهد الأوربى .

٤ — همالية الغربية (كشمير)

وادى كشمير أفضلُ من قطر أَوَدْهَة وأشهرُ منه فى أقاصيص الهندوأساطير العالم، ولا يعدله سوى منطقة نيبال حسنَ جَوٍّ وروعةَ منظرٍ ، ويقع بين فروع جبال همالية الغربية الأخيرة وشواهق كارا كورَم الأولى ، وتهيمن عليه الذرا ذات الثلوج وتحيط به أسوار من جلاميدَ تتحدّى أقدامَ الناس بمنحدراتها الوعْرة الصعبة الكامدة ،

وتحتوى سهوله النَّضِرَة الأَرِجَة[١] على بحيرات وأَهْوَار[٢] بلَّوْرية هادئة وقرى ذاتِ مساكن رائعةٍ ومعابدَ وقصورٍ ذوات حِياطٍ[٣] بيض .

والمرء حين يسير وَضِفَّةَ نهر ذلك الوادى الوحيد جهيلَم (الذى يدعوه الآريون بڤيتاستا ويسميه الإغريق بهيداسپس) فيرفع ناظريه يرى ذُرًا تَفْعًا يَرْبَت الهائلة التى يتألف منها حدُّ إمبراطورية الهند المُقَرَّن ويرى ذُرًا ذَبَسْنْغ الذى هو جبـل الدنيا الثانى البالغُ ارتفاعه ٨٦٦٠ متراً ، والمرء حين يخفض ناظريه يرى منظراً دون ذلك جلالاً وأكثر من ذلك سحراً وسناء ، أى يرى مبانىَ رائعةً تُجَلِّلُ أسـفلها الرُّخامىَّ بحيراتٌ زُرْق هادئة بهيجة محاطةٌ بنبات فاتن ذى اخضرار وأزهار .

وتقع مدينة شِرى نَغَر ، التى هى أكبر مدينة فى ذلك القسم من هِمالَيَة ، فى وسط وادى كشمير وعلى ضِفَّتَىْ نهر جهيلَم ، ودعيت هذه المدينة بـ « بندقية الهند » لما يَشُقُّها من القنوات .

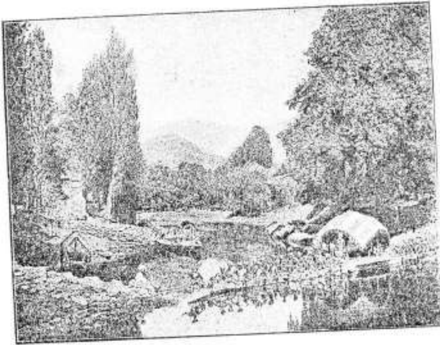
وتُغَطَّى سُقُفَ بيوت مدينة شِرى نَغَر طبقةُ ترابٍ رقيقةٌ ، حيث ينْبُت الخضر والزهر فتبـدو هذه المدينة حديقةً واسـعةً مُعَلَّقَة ، وتُشاهَد حدائق فوق أطوافٍ[٤] عائمة فى البحيرات فيزرع أهالى شِرى نَغَر الماهرون فيها القِثّاء والبِطِّيخ فلا تقلُّ غرابةً عن تلك .

ويلائم جمالُ الإنسان فى ذلك « الوادى المبارك » جمالَ الطبيعة فيبدو رجال

---

(١) الأرج : ذو الرائحة الطيبة — (٢) الأهوار : جمع الهور وهو البحيرة تجرى اليها مياه غياض وآجام فتتسع — (٣) الحياط : جمع الحائط — (٤) الأطواف : جمع الطوف وهو قطع خشب يشد بعضها الى بعض فتصير كهيئـة سطح ويركب عليها فى المـاء أو تحمل عليها الأثقـال .

كشمير أكثر رجال الهند تناسباً وبياضاً ، وتبدو تقاطيع نسائها الجميلة مشهورة فى أسواق نخاسة الشرق .



٨ – نهر جهيلم يقطعه قارب مهاراجة كشمير

وظلت صناعة الشالات الكشميرية منبع ثروة لذلك البلد زمناً طويلاً ، ثم نقصت أهميتها لتقلب الأزياء فى أوربة ، ولكن أهالى ذلك البلد وجدوا فى صناعة عطور الورد وصناعة الأدوات المعدنية المرصعة وما إليها ما يشغلهم .

ويتألف من وادى كشمير بقعة ذات طابع خاص فى مجموعة الولايات الكشميرية ، وتشتمل هذه الولايات ، التى اتخذت جمو الواقعة على نهر جناب عاصمة لها ، على أودية نهر السند العليا وعلى روافده وعلى جميع الهضاب المجاورة للتبت ، وتعد لداخ وبالتى من أجزائها سياسياً .

ويستوقف تكوينُ وادى كشمير النظرَ كثيراً ، فيدلُّ البحثُ العلميُّ على أن هذا الوادى كان بحيرةفى سالف العصور وأن انقلاباً حدث فأسفر عن انفتاق سلاسل جبال الدنيا وجريان مياه تلك البحيرة ، وأساطيرُ الهنـد مملوءةٌ بأخبار ذلك الأمر العُجاب الذى حدث قبل ظهور الإنسان فى الدنيا .

٥ — الهند الإسلامية (البنجاب وراجبوتانا والسند: الخ)

يشتمل وادى السند على البنجاب وراجبوتانا والـكجرات والسِّنْد ، ويسمى هذا الوادى بالهند الإسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ولما احتواه من المبانى التى أسفرت عنها الحضارة الإسلامية .

وتضـاف إلى ذلك القطر منْطقة وادى الغَنْج الأعلى التى يسميها الإنـكليز بالولايات الشمالية الغربيـة ، واتَّخِذَ نهر جَمْنة الذى هو رافد ضِفّة نهر الغَنْج اليمنى حَدًّا رسمياً بين البنجاب وتلك الولايات الشمالية الغربية .

وتبدو منطقة البنجاب الآهلة العامرة المستطيلة فى أسفل هِمَالْيَة أنها تَمُطُّ سهلَ الغَنْج الخصب إلى ماوراء نهر السند فتكون أداة وصل بين وادِيَى الشمال العظيمين اللذين يظلان منفصلين بغيرها .

وفى منطقة البنجاب حقولٌ حسنةُ الرَّيِّ جيدةُ الخصب ، وسكانٌ كثيرون ، ومدنٌ زاهرة شهيرةٌ كالمدن : لاهور وأمرت سِر ودهلى الخ .

ولـكن الإنسان إذا سار إلى الجنوب شاهد انبساط الصَّحارى الواسعة الـكثيبة واتجاهَها إلى بحر العرب وشاهد بيوتاً تتباعد أو تغيب ، وتتعذر الزراعةفى تلك الصَّحارى فلا تحتوى على غير مراعٍ ضعيفة هزيلة .

ويتصف جوُّ ذلك القطر باختلاف حرارته بين فصل وآخر ، وتزيد تقلبات هذه الحرارة على خمسين درجة ، ولا يشاهَد هذا فى صحراء تِهار وحدَها ، بل يشاهَد فى مدن الشمال أيضاً ، فمن هذه المدن أغرا التى تكون من أشدِّ البلاد قَيْظاً فلا يندُر أن تصبح ذات قُرٍّ فى الصباح والمساء من أيام الشتاء .

وفى فصل الجفاف تَهُبُّ فى الصحراء رياحٌ لوافحُ كأنها خارجة من الجحيم ، فلا تضع الحيوانات أرجلَها على رمالها المحرقة من غير أن تألم ، فيستفيد من ذلك أناس راكبون خيلًا أو جمالًا فيتصيدون ذئاباً لعجزها عن الهَرَب فى ذلك السعير .

وتمتدُّ بُقعة غريبةٌ مستوية من جنوب صحراء تِهار وتُسمَّى رَن كَجةَ ، ويترجح عرضها بين ٦٠ و ١٠٠ كيلو متر فتكون فى الصيف قاسيةً متماسكةً كالمرآة ، فإذا حلَّ الشتاء غمرتها طبقةُ ماء عمقها متر واحد ، فلا يفصلها عن البحر تقريباً سوى جزيرة كَجةَ البارزةِ قليلًا والحاويةِ بضعَ قُرًى ونباتاً ضعيفاً ، فيتموَّج فوق رَن كَجةَ تلك سرابٌ يَلُوَ سراب بفعل أشعة الشمس فيَمَسُّ السائحَ لُغُوبٌ[1] ، فيَهيم فيتعذر ، لهذا الهَيْم وانعكاس النور على الرمل أو على البِرَك ، اجتيابُ رَن كَجةَ تلك نهاراً لا بعد غياب الشمس .

ويقع فى جنوب كَجةَ الشرقىِّ وغديرها[2] شبهُ جزيرة كاتهياوار التى هى جزء من ولاية الكجرات سياسياً .

والكجرات من أمدن بلاد الهند ، ومدينةُ أحمد آباد ، التى هى قاعدتها ، زاهرةٌ ذات جِدٍّ وعمل وتجارة رابحة ، وليست مراقىء كاتهياوار بمجهولة لدى سفن

(١) لغب يلغب لغوبا : تعب وأعيا أشد الإعياء — (٢) الغدير : قطعة من الماء يتركها السيل

العالم ، ويصبُّ في خليج كَمْبي الذي يُبَلِّل شواطئها نهرُ نَرْبَدا ونهر تابتي .

وترتفع جبال أراولي وطَوْد آبو المنفصلُ منها في شمال الكجرات وشرق صحراء تهار، والطَوْد آبو هذا صيتٌ بعيد في جميع بلاد الهند حيث يُقدِّسه الناس ، فأنشئت في جوانبه معابدُ جَيْنِيَّة أظهر متفننو الهندوس فيها ما لديهم من الحِذْق في النحت العظيم الرائع الساحر .

ويسكن الراجپوت الذين هم من أقدم عروق الهند جبالَ أراولي والبُقْعة الوعرة التي تهيمن عليها هذه الجبال ، وظلَّ الراجپوت مستقلين تقريباً مع غَزَوات الأجنبيّ بفضل طبيعة بلادهم ذي الآطام[1] والمعاقل الطبيعية ، أي بفضل بلادهم ذي الصخور التي يُخَيَّل إلى الناظر من بعيد أنها حصون وأبراج ، فإذا أقيمت فوقها قلعةٌ صَعُب تمييز ما صنعه الإنسان فيها مما شادته يد الطبيعة .

وتقع ولاية بِنْدِيل كَهند وولاية بهاكيل كَهند في شرق راجپوتانا ، وتحتوي تانك الولايتان الجبليتان على مناجم حديد وفحم حجريّ ، وكانت مدينة كَهْجُورا قاعدة بُنْدِيل كَهند فأضحت مهجورة مع اشتمالها على معابدَ معدودة أعجبَ ما في الهند .

وتَصِل هضْبة مَالَوا وجبال وِنْدِهيا ذلك القسم الهندوستاني بولايات الهند الوسطى العالية .

٦ — ولايات الهند الوسطى وساحل أوريسة

يُعْرَف بغوندوانا قسمُ الهند الذي يسميه الإنكليز بالولايات الوسطى ،

(١) الآطام : جمع الأطم وهو الحصن .

ويتوسط هذا القسمُ الهندوستانَ والدَّكَن بحيوانه ونباته وموقعه الجغرافي ، وبدا هذا القسم مستوراً بآجام موبوءة مهلكة لا تُنْفَذ ، وظلَّ إلى القرن الثامن عشر حاجزاً لم يقدِر الغزاة على مجاوزته إلّا بالدَّوْر حوله ، وبقى إلى ماقبل ثلاثين سنة مجهولًا كإفريقية الوسطى .

وتتألف غوندوانا من سلسلة هِضاب يَتَرَجَّح ارتفاعها بين ٣٠٠ و ١١٠٠ متر ، وتتخللها أودية وفِجاجٌ عميقة ، وتظهر هَضْبَة أَمَرْكَنْتَك ، التى هى أعلى تلك الهضاب ، عُقْدَةً جبلية مهمة ينبع منها ستةُ أنهار كبيرة نذكر منها سون ومَهانَدى ونَرْبَدَا .

ويقطن فى قسم من غوندوانا وحوشُ الغوند الذين سندرس أمرهم فى فصل آخر .

ويقع ساحل أوريسة فى شرق غوندوانا ، وهو بُقْعَة قصيرة قَفْرٌ مُعَرَّضَة للجَدْب والفيضان والجوع فى الوقت الحاضر ، بعد أن كانت مقراً لدولة قوية سَنِيَّة فى غابر الأزمان ، كما يشهد بذلك ما تركته تلك الدولة من المعابد البَهِيَّة ، وتُعَدُّ معابد بهوُ وبنشوَر وجَكَن نَاتْها من أشهر معابد الهند ، لألوف الحجيج الذين يقصِدون هذه الأخيرة من جميع أنحاء الهند .

ويمتدُّ ساحل أوريسة إلى الجنوب من شاطئ سَكَهَر ، ويُرى تحت بحيرة جلسكا ممرٌّ ضيق يعرف بترموبيل سَكَهَر ، فيمرُّ بين الجبال والبحر بعد أن يقطع مدينة برهاپوترا المهمة ، فمن هذا الممرِّ اضْطُرَّ الفاتحون أن يسيروا ليدخلوا الدَّكَن من هذه الناحية ، فهذا هو الحدُّ بين اللغات الآرية والدراويدية ، فيتكلم الناس بالأوريَّة فى الشمال ويتكلمون بالتيلغو فى الجنوب .

٧ — الدَّكَن

كان اسم الدَّكَن يطلق على قسم الهند الجنوبى المقـابل للقسم الشمالى المعروف بالهندوستان ، واليوم يُطْلَق على منطقة الهضاب عدا الولايات الوسطى والسواحل .

وتلك الهضاب ذاتُ التراب البركانىّ غيرُ خَصِبة وقليلة السكان على العموم ، ويستثنى من ذلك ضِفافُ الأنهار والأودية ذوات الأطيـان السُّودِ والجزء الغربى الذى تحمل الرياح الموسمية الجنوبية إليه سيولًا مباركة فى كل سنة .

ويقطن فى الشمال الغربى من ذلك القطر المَرَاتها الذين كانت لهم دولة قوية محاربة مرهوبة فى الهند بأسرها فيما مضى .

قهر المَرَاتها سكانَ تلك الجهات الأصليين البهيل واستقروا بِعُرْضَى جبـال كَهات وبالهضاب العالية وبسهول كُونْكَن الغنية ، وثار المَرَاتها على الإنـكليز غير مرة ، ولاقى هؤلاء الأمَرَّيْن فى رَدِّ جماحهم ، وإذا عَدَوْت المَرَاتها وجـدتَ أهالى الدَّكَن من الدراويد ، أو من الذين تغلّب عليهم العنصر الدراويدى على الرغم من كل توالد .

ولم يبق سوى دولة ميسور ودولة حيـدر آباد من الدول الـكبيرة التى استولت على جنوب الهند فاتخذت غولـكندا وبيجاپور وبيجانَغَر عواصمَ لهـا فـكان لها فى أخيلة الأور بيين أعجبُ الذكريات .

وتقع مملـكة ميسور على الجانب الشرقىّ من جبال كَهَات الغربيـة ، ويستند جنوبها إلى جبال نِل غيرى ، وتفيض سُحُب الرياح الموسمية عليها بعد أن تصبّ بصولة فى ساحل ملبار ، ويستر بعض مملـكة ميسور ، لذلك ، نبات قوىّ ، وتشتمل

على غابٍ عجيبةٍ يكثر فيها شجر الصندل الطيِّبُ الشذا الذى يُتقن الهنود نقره وترصيعه ، وتُصدِر القطنَ والحبوب والأبازير إلى الخارج ، وتظهر عاصمتُها التى تسمى ميسور أيضاً مدينةً صحية هيفاء ، وإن كان الأوربيون يفضلون عليها أوتاكامند الواقعة فى جبال نِل غيرى والمعدودةَ مدينةَ الصحة فى جنوب الهند .

وفى ميسور ، فى جنوب نهر كِرِشْنَا ، على الجانب الغربى من جبال گهات ، ينبع نهر كاويرى الذى هو أهمُّ أنهار جنوب الهند ، فيترك منطقة الهضاب فوراً من شلال يزيد ارتفاعه على مئة متر ، فيبدو فى زمن الفيضان من أروع شلالات الدنيا ، فيتألف فى آخره دلتا واسعة تسمى ضلعها العريضة كورَمُونْدِل . فيُقدَّس كما يُقدَّس أكثر أنهار الهند ، فأقيمت فى الأماكن التى يجرى منها (أى فى تانجُور وترِى چنابلى وكُنْبَه كُونَم ومَدُورا) معابدُ مشهورة تختلف عن معابد الهند الأخرى بأبوابها الهرمية الكبرى المغطاة بألوف التماثيل ذات الأثر الرائع فى مجموعها .

ويتكوَّن من أقصى الهند الواقع فى جنوب نهر كاويرى منطقة جبلية وحشية ذاتُ غاباتٍ كثيرة مملوءة بالضوارى والأفاعى وذاتُ أودية غير صحِّيَّة ، وتُبذَل جهودٌ طيِّبة فى الانتفاع بترابها ، وتُقام مدنُ لَهْوٍ فى منحدرات جبالها حيث تَلطُف الحرارة وتجىء نِسامٌ(١) لَيِّنَة ملائمة للصحة .

وتشتمل دولة نظام الكبيرة ، التى هى أوسع دول الهند شبهِ المستقلة ، على جميع القسم الأعلى من الدكَن ، وعاصمتُها حيدر آباد الإسلامية من أكثر مدن الهند وَقْفاً للنظر ، فهى تصلح مثالاً لما كانت عليه عواصم الشرق ، كبغداد ، أيام سلطان العرب .

---

(١) النسام : جمع نسيم .

وتقع مدينة غول كوندا ، التى غدَتْ قريةً حقيرة ، بالقرب من حيدر آباد ، ويُثير اسمها فى الخيال صورَ القصور الرائعة الخرافية ذاتِ الشُّفُوف والوشاء الزاهية والحجارة الكريمة المتألقة ، وتسودها القلعة ذات الألغاز التى هى مِفتاح تلك المنطقة ، فلم يُوَفَّق لزيارتها قبلنا غيرُ فئة قليلة من الأوربيين .

ولم تكن عاصمة الدَّكَن السابقة غول كوندا وحدَها هى التى آلت إلى الخراب ، فليس قليلًا خَرِب العواصم السابقة فى الهند ، فأكثرُ هذه العواصم الخَرِبة وَقفًا للنظر هو بيجابور وبيجانَغَر اللتان تجد صوراً لكثير من مبانيهما فى هذا الكتاب ، وبيجانَغَر هذه أصبحت رُكاماً من المعابد والقصور على مساحة تَعْدِل باريس فصار لا يطأها إنسان وعاد لا يأوى إليها سوى الضوارى ، فعلى المرء أن يطوف على نور القمر فى تلك المعابد المهجورة وفى مسالك تلك المدينة الميتة المصفوف على جوانبها مُتَشَبِّكُ العِماد والأروقة ليدرك ما فى الأشياء الصامتة من بيان بليغ فى بعض الأحيان ، فبمثل هذه المناظر المائلة استطعنا أن نُخْرِج من أغفار القرون طَيْفَ حضارة بائدة .

الفصل الثالث

النباتات والحيوانات والمعادن

---

(١) النباتات — تنوعها في الهند — ثروة الهند الزراعية — حاصلاتها : الحبوب والقطن والشاى ، الخ. (٢) الحيوانات — تنوعها في الهند — قلة المواشى (٣) المعادن — ضعف الإنتاج المعدنى — مناجم الفحم الحجرى — الافتقار إلى الفحم الحجرى — الخلاصة .

---

١ — النباتات

تشتمل الهند على أنواع النبات والحيوان اشتمالها على مختلف الأجواء ، ولا تمتاز الهند بنوع خاصٍ من الحيوان والنبات .

فبينما ترى منحدرات جبال الهند مكسوّة أزهاراً وأثماراً كالتى تشاهد فى أوربة ، تذكّرك سهولها بسهول فارس والصين ، وتذكّرك بقاعها الجافة المحرقة بإفريقية الوسطى ، ويذكّرك نبات ترانى وسندربن القوىّ الأشعث بنبات جزائر الملايو .

وبلادُ الهند فى مجموعها غنيةٌ خصبة كافية لتموين سكانها وإطعامهم عن سعة ، ونشأ مجاعاتها الهائلة التى تخرّب بعض بقاعها أحياناً عن افتقارها ، فى الغالب ، إلى طرق منتظمة صالحة لنقل ما يزيد على احتياج بعض مناطقها إلى مناطقها التى تنقص حاصلاتها .

وتنشأ تلك المجاعات ، كذلك ، عن فقر طبقاتها الدنيا المُدْقِع الذى لا يجد أفرادها معه ما يشترون به قليلاً من الأرز أو البُرّ فيهلكون جماعاتٍ على حين تُوسَق فى السفن مقاديرُ عظيمة من حبوب الهند لتُباع فى الأسواق الأجنبية .

وتُعَدُّ الحبوب فى الهند أهمّ ما تُنْبِتُه الأرض ، فيُزْرَع فيها القمح والأرز والذُّرَة والدُّخن بكثرة ، فيكون للأهالى الذين حُرِّم عليهم أكل اللحم طعامٌ بذلك ، فما فى الهند من حرارة جوٍّ وقلةِ مواشٍ وحَظْرِ نَحْرٍ يحمل الهندوسىّ على العيش بما تُخرج الأرض من قوت .

ومارس سكان الهند الزراعة بحِذْق ونشاط فى كلّ حين ، فلما حاول الأوربيون أن يُحَسِّنوها بما أدخلوه إليها من الأساليب الحديثة اعتُرِف ، فى غيرحالة ، بأن المناهج القديمة خيرٌ من جديدها وبأن من أصالة الرأى أن يُرْجَع إليها ، وذلك إلى ضرورة توسيع رِقاع الأراضى الزراعية ما كانت هذه الرِّقاع لا تَعْدِل غيرَ ثُلُث مساحة الهند فى الوقت الحاضر .

ووادى الغَنْج أخصبُ بقاع العالم ، لا الهند وحدَها على ما يحتمل ، فتستره حقولٌ عجيبة لا حدّ لها ، فتكِلّتْ عينا الفاتح المغولىّ بَابَرَ وارتدّت عن تأمل امتدادها إلى ما وراء الأفق امتداداً مُطَّرِدًا ، وليس بنادرٍ أن يُنْتِج هذا الوادى ثلاث مرات فى السنة الواحدة ، والأرز ، على الخصوص ، هو ما يُزْرَع فى ضِفاف الغَنْج بعد الفيضان ، وتكثُر أيضاً زراعة البُرّ والقطن والتبغ والقِنَّب والخشْخاش فى واديه المنقطع النظير بخِصْبه الذى لا يَنْفَد .

وفى الهند حيث تُرْوَى الأراضى جيداً تبدو هذه الأراضى خَصِبةً سَخِيّةً ، وفى الهند حيث تَقْطع الولايات شبكةٌ من مجارى المياه أو تَفِيضُ عليها رياح الجنوب

الموسمية تُنتج هـذه الولايات إنتاجَ البنغال ، وفى الحقول المطمئنة حيث تزيد الرطوبة تُزْرَع بكثرةٍ أنواعُ الأرز ، وفى الحقول المرتفعة حيث تقلُّ الرطوبة يُزْرَع البُرّ .

والأفيونُ أهمُّ ما تُصْدِره الهند بعد الحبوب التى تمتلىء بها السفن كلَّ يوم فتنقلها إلى بلاد الغرب ، ويُزْرَع الأفيـون ، على الخصوص ، فى سهل الغَنْج والپَنْجاب وراجبوتانا ، وتستأثر الحكومة الإنكليزية باحتكاره ، وما تستنفده بلاد الصين من مقادير الأفيون العظيمة هو ما تستورده من الإنكليز بعد أن يزرعوه فى أتربة الهند ، وليست بمجهولةٍ أنباء حَنَق الإنـكليز وغيظهم من وُلاة الأمور فى مملكة ابن السماء حينما أرادوا وقايةَ رعاياهم من هذا السمّ القاتل ، فأسفر ذلك عن شهر الإنكليز لتلك الحرب المعروفة « بحرب الأفيون » فأكره الإنـكليز الغالبون فيها بلادَ الصين على إدخال أفيون الهنـد إليها كما فى الماضى فيموت فى كل سنة عدة ألوف من الآدميين بسبب استعماله .

وزراعةُ القطن فى الهند تلى زراعة الأفيون أهميةً ، ويصلح بعض الأصقاع من أراضى الدَّكَن العليا لزراعة القطن كثيراً ، والقطن الهندىُّ دون القطن الأمريكىِّ حظوةً وإن أدت حرب الانفصال إلى إقبال الناس عليه لبضع سنين فزادت زراعته وتجارته زيادةً غير منتظرة ، ولا يزال القطن الهندىُّ عاملَ إصدار مهمٍّ بعـد غزْله أو تحويله إلى نُسُج ، وكان لنسائج الهند القطنية شهرةٌ فنازعها الغرب إياها بآلاته ، فصار الغرب يرسل إلى الهند مثل ما ترسله الهند إليه .

وفى الهند يُزْرَع القِنَّب ثم تُصْدِره بوفرة ، والحبوب الزيتية مما تُنْتِجه الهنـد فتبيعه من الخارج .

ولا يبتاع الأوربيون التبغ الهندىّ لسوء تعبئته فيستنفده أهل الهند ، وتشتهر مدينة ترى چناپلى الواقعة فى الجنوب بسيغاراتها مع ذلك .

وتجىء الهند بعد الصين فى زراعة الشاى ، وأسفرت زراعة الشاى فى منطقة آسام عن أطيب النتائج ، وتتقدم زراعة القهوة منذ أواسط هذا القرن فى رُبَى الجنوب ولا سيا فى مملكة وناد الصغيرة الواقعة فى جنوب مملكة ميسور .

والعِظْلِم[1] والتَّنْبُل[2] والكينا وتوت القزّ مما تكثر زراعته فى بلاد الهند .

وكانت الهند تشتمل على غابات عجيبة ، ومن المؤسف أن تَقُصّت هذه الغابات بما قطعه الأهلون وغُزَاة الإنكليز من شجرها قبل أن تُدَبِّر الحكومة أمرها ، والهندوسُ ، فى الولايات الوسطى ، لا يزالون يتخذون أسلوب إحياء للأراضى محزناً حقاً ، فهم يُبيدون قديمَ الشجر فى قِطَع من الغاب فيحرقونه و يَبْذُرون الحبّ بين رماده ، فيَحْصِدون زرع سنتين أو ثلاث سنوات ، فإذا ما استُنْفِد خِصْبُ الأرض الموقت الذى نشأ عن الرماد أبادوا شجر قِطَعٍ أخرى ، وهكذا .

ونجم عن جَشَع الإنكليز وغفلتهم استمرارهم على ما بدأ به الأهلون من إبادة شجر الغاب ، ولم يَرَوْا فائدة الإبقاء على الغاب ووَقْفِ تلك الإبادة إلا فى الأيام الأخيرة .

ويُمِدّ السال والتِّيك مَلَكِيّ غاب الهند ، والسَّالُ يُخْرِج القطران والراتينج[3] ، والتِّيك يُتَّخَذ خشباً للبناء ، وتُحَوَّل أغصانه إلى فحم جيد ، ويتطلب

---

(١) العظلم : نبت يصبغ به ــ (٢) التنبل : نبات من الهند يمضغ ورقه ــ (٣) الراتينج : صمغ .

شجر السال والتِّيك واسع الأراضي ولا يَنْبُت بعضه بجانب بعض ، ويستر شجر السال منحدَرات همَالْيَة السفلى الجنوبية ، ويوجد في الولايات الوسطى ، ويَقِف عند حدِّ هضاب الدَّكَن ذوات الحجارة البركانية حيث يَنْبُت شجر التِّيك .

وتَدَّثِر أعالي جبال الهند ، كما في كل مكان ، برداء داجن من شجر الصَّنَوْبر والشُّوح[1] ، وتَجِد تحت هذا النطاق البارد الذي يصلُح لتلك الأشجار منحدَرات ذاتَ جَوٍّ معتدل اعتدال جوِّ أوربة فيَنْبُت فيها ما تَعْرفه غابات الغرب من شجر البلوط والزَّيْن[2] والحَوَر ، ويَنْبُت بجانب هذا الشجر مايعرفه الغرب أيضاً من الأشجار المثمرة ، فترى بين أدغال الكِشْمِش[3] شجر التفاح والكُمَّثْرَى والخَوْخ والإجَّاص ، وترى بينها الكَرْمَة في بعض الأحيان .

وإذا تَرَ‌آت من تلك الارتفاعات إلى السهول شاهدتَ أشجاراً ذوات أثمار يانعة وخُشْبَان نافعة وأوراق رائعة ، ومن هــذه الأشجار نذكر شجر البانيان والمَهُوَا ذا الزهر النافع في زمن المجاعات والخَيْزُرَان والصَّنْدَل ذا الرائحة الذكية ، ونذكر ، على الخصوص ، النخل التي يَمُدُّ أهل الهند ألف وجهٍ ووجهٍ للانتفاع بجُـذوعها وليفها وسَعَفها وعصيرها وثمرها ، والولاياتُ الجنوبية أكثرُ ولايات الهنـد غرساً للنخيـــل .

وتنمو نباتات البلاد الحارّة نُمُوًّا عظيماً في مناطق الهند الجيدة الرَّيِّ والشديدة القَيْظ ، وتُنْجِم هذه النباتات في مِنطقة آسام ، على الخصوص ، بمـا يُزْرِي بجهود

(١) الشوحة : شجرة تكون أغصانها على هيئة مخروطة وهي واحدة (الشوح) .
(٢) الزين : شجر كانوا يعملون منه الرماح ـ (٣) الكشمش : نبات ثمره يشبه العنب لاعجم له.

الإنسان ، فتبلغ نباتات غابها من الكثافة ما لا بدّ معه من حرقها فى فصل الجفاف لتنظيف ترابها ، وقد يَصِل عُلُوُّ شجرها ستين متراً فتصل المُعَرَّشَات بين هذا الشجر فيتعذر نفوذها ، فيتفتّح أسفلها عن غريب الأزهار ، وفى جبال كهَاسى وحدها عُدَّ ٢٥٠ نباتاً من الفصيلة السحلبية ، ولن تجد فى الأرض بقعة ذات نبات فخم أشعث كما تراه هنالك .

٢ — الحيوانات

لا تجد فى الهند نوعَ حيوان خاصّ بها ، وتختلف حيواناتها اختلافَ نباتاتها وجوائها ، وتذكّرنا حيوانات الهند ، على حسب البقاع ، بحيوانات الصين وإفريقية والملايو وأوربة .

وتَكْثُر فى أجزاء جبال هِمالْيَة التى تَلِى الذُّرا المكْسُوَّةَ ثلجاً ما يُرَى فى التبت من الوعول والتُّيُوس والدِّبَبة والضِّرَاء[1] والذِّئَاب ، وتكثُر فى بقاع تَرَائِى وآسام الحارَّة ذواتِ الآجام الغامرة ما يأوى إليها من الضوارى التى يتعقبها الناس فى بقاع الهند الأخرى فيتوالد فيها أميناً ، وفى تلك البقاع تجد ، أيضاً ، الفيُول تعيش جماعاتٍ وتسير حرةً ، والفيُول فى الهند تكاد تَبيد ما لم يعلن الإنكليز حمايتَهم لها ويُحَرِّموا صيدَها ويفرضوا امتلاكهم لجميع ما فى الهند منها ، وفى الهند يصطادون فى كلّ سنة نحوَ مئة فيل بالكُمُون والفِخاخ ، ثم يضيفونها إلى الفِيَلَة المُدَجَّنة فتقتبس منها خلق الطاعة والعبودية ، وفى الهند يستخدمون الأفيال فى أعمال

---

(١) الضراء : جمع الضرو وهو الضارى من الكلاب .



٩ — فيلان يستخدمان فى حمل الأثقال

كثيرة وفى تصيّد النُّمُر وفى مواكب الملوك ، ففى كلّ موكب سَنِىّ تُبْصِرُ فُيُولاً تتقدم مُسْرَجَةً بسروج أرجوانية ذهبية حاملة راجوات أو من يُرَادُ تكريمهم من مشاهير الضيوف .

وتكاد الآسادُ تزول من بلاد الهند ، فلا تَجِد منها فى غير جزيرة كاتهياوار بالغرب تقريباً حيث تبدو قصيرة عاطلة من اللِّبَد .

والنَّمِر هو الحيوان المفترس الذى تَجِدُه فى جميع أجزاء الهند ، ولا سيما بين أدغال الغاب حيث يأوى مطمئناً ، والنَّمِر إذا وُجِدَ بكثرة فى الهند فلأن النـــاس لا يطاردونه فيهـــا على الدوام ، ولأن الناس يحترمونه فى بعض البقاع التى تخربها الرِّتَتَة(١) فتفترسها النمور ، وهذا إلى أن النَّمِر يَتَصَيَّدُ عادةً ما فى الغاب من الحيوانات البرية كالظباء والتُّيُوس والخنازير ، وهـــذا إلى أن النَّمِر لا يهجم على بيوت الناس ليتصيد بعضَ نَعَمِهم إلاّ إذا عَضَّه الجوع ، ومن النادر أن يفترس النَّمِرُ إنساناً ، فإذا ما حـــدث ذلك وتَذَوَّق طعم لحمه لم يَعْدِل عنه إلى فرائسَ أخرى فيغدو خَطِراً إلى الغاية ، فيعلن الحرب على الإنسان فَيُظْهِر من الخِتال(٢) والمِحَال(٣) ما يكفـ

(١) الرتتة : جمع الرت وهو الخنزير البرى — (٢) خاتل الصياد : مشى قليلا قليلا لئــلا يحس الصيد به — (٣) ماحله : كايده وما كره .

الإنسان معه عن الكفاح أحياناً فيهجر المكان الذى يأوى إليه النَّمِر بعد أن يكون قد أكل بضع مئات من التعساء المساكين ، فيُعَدُّ النَّمِر ، إذ ذاك ، حيواناً جديداً ، فيُسَمَّى « أكَّال الرجال » ، ومما ذكره هَنْتِر أن أكَّال رجال افترس ١٠٨ من الناس فى ثلاث سنوات وأن أكَّال رجال ثانياً افترس ٨٠ شخصاً فى سنة واحدة ، وأن أكَّال رجال ثالثاً أوجب هجر الناس لثلاث عشرة قرية فحَوَّل ٦٥٠ كيلومتراً مربعاً من الأراضى إلى صحراء ، وأن أكَّال رجال رابعاً قتل ١٢٧ شخصاً فى سنة ١٨٦٩ فقطع طريقاً عظيمة لمدّة أسابيع .

وتمنح الحكومة الإنكليزية جوائزَ سنية لمن يبيدون تلك الضوارى ، ولكن الأهالى لا يجرؤون على ذلك ، تقريباً ، لِما تُلْقِيه هذه الضوارى من الرعب فى قلوبهم ، ولِما يَعُدُّ به الهندوسُ أكَّال الرجال ضَرْباً من الآلهة إذا ما افترس بعض الناس .

والهندوس يحترمون الصِّلّ[1] ، المعروف بالقبرا والذى هو أشدُّ فتكاً من النَّمِر ، أكثرَ من احترامهم للنَّمِر ، ولا بلد فى الدنيا ذا حَيَّاتٍ سامَّة متنوعة كالهند ، ومن الحيات ما يَخْرُج من الأرض ومنها ما يَخْرُج من الماء ، وما فى ساحل مليبار من الحيات التى تعيش فى الماء الملح فذو سمٍّ وما يعيش منها فى الماء العَذْب فغير سامٍّ ، ويُعَدّ الصِّلُّ من أشد الأفاعى التى تَخْرج من الأرض خطراً لِما تسفر عنه جروحه من الموت الزؤام على الدوام ، ومن المتعذر دفاع الإنسان عن نفسه تِجاه الأفاعى ما دَبَّت بين الكلأ وخرجت من شقوق الأرض وتسلَّقت المساكن وتكاثرت بسرعة ، مع أن من الممكن تَصَيُّدَ النَّمِر وإنقاذ الهند منه ذات يوم .

---

(١) الصل : الحية الخبيثة جداً .

والصِلّ حيوان مقدس لدى الهندوس لِما يورثهم إياه من الخوف ، وهو من صفات وشئو الذاتية فَتُفَش فى مختلف المعابد ، وهو يألَفُ مطاويه وينفش متوعداً حديدَ البصر .

ويُقدِّر العارفون ضحايا النُّمار والأفاعى من الهنود بعشرين ألفاً فى كل سنة ، والنّمار والأفاعى ليست كلَّ ما فى الهنـد من الحيوانات المرهوبة ، فنى الهند الفئران وأرْجال[1] الجراد وأنواع الحشرات والهوامّ العظيمة الأضرار .

وتـكثر أنواع الذئاب فى الهند ، و بالفُهود و بنات آوَى والضِّباع والكَرْكَدَّن والتماسيح تَتِمّ جدول ضوارى الهنـد ، و يُرَى الـكَرْكَدَّن فى منطقة سُـنْدَرَبن على الخصوص ، وتـكثر التماسيح فى الغُدْران والأنهر وتخرب مجارى المياه .

والهنـــد بلادٌ فقيرة فى المراعى ومن ثَمَّ فى المواشى ، وتـكون جمالها وخيلها و بقرها وجواميسها أهليـة ، وتتصف أفراسها بالقِصَر ولا تُرَبَّى الضأن فيها إلا من أجل لحومها وألبانها ، ويكره الهندوس الخنزير ، وفى الهند مافى أوربة من الدواجن، وفى أنهارها أسماكٌ صالحة للأكل ، وفى أحواض تلفيرى أنواعُ سمكٍ جديدةٌ أُدْخِلَت إليها لتَـكْثُر فيها .

وتـكاثُر القِرَدَة فى الهند فتُعَدُّ نـكبة على الفـلاحين لإتلافها مزروعاتهم ولدخولها بيوتهم بوقاحة وسلبها ما يطيب لها من أموالهم ، وما يُـكِنُّه الهندوس من الاحترام للقرد هنومان يَحُول دون دفاعهم ضدَّ القِرَدَة الثقيلة ، والقِرَدة جعلت بعض مدن الهند ، كمثرا مثلًا ، غيرَ صالحة لسُـكْنى الأوربيين ، و بلغت القِرَدة فى بنارس

(١) الأرجال : جمع الرجل وهو القطعة العظيمة من الجراد خاصة .

من مضايقة السكان وقلة الحياء فى السنوات الأخيرة ما نفيت معه إلى الضفة الأخرى من نهر الغنج .

وتشتهر طيور الهند بجمال ريشها ، وتقل المغردة منها ، ويحترمها زراع الهند لإبادتها الحشرات ، ويراعى سكان المدن الهندية النسور والعقبان لإزالتها المواد الحيوانية العفنة وإصلاحها الطرق والشوارع بذلك ، وتتصف ببغاوات الهند بالحسن والكثرة .

٣ — المعادن

صُوِّرَت الهند فى أقاصيص السياح المبالغ فيها ، وتمثلت لخيالات الغربيين الملتهبة معدناً لا ينفد من الحجارة الثمينة فلاحت الهند الواسعة مشتملة على مثل ما يتدحرج فى مجارى جزيرة سيلان وما يُرَصَّع قِدَرَها[1] البلورية من الياقوت واللازورد والزمرد والعقيق ، فيجب حذف كثير من هذه المبالغات بوضع الأمور فى نصابها .

أجل ، احتوت الهند على مناجم غنية بالألماس ، ولكن هذه المناجم نفدت منذ زمن طويل تقريباً ، وكانت مناجم سنْبل پور الواقعة فى وادى مهاندى ووادى كرنول بالجنوب تُستغَل إلى أوائل هذا القرن ، وتُخرِج مناجم غولكوندا مالا قيمة له من الحجارة مع إثارة اسمها فى الذهن صورَ ما يُغشى الأبصار من أنوار الحجارة الكريمة ومع ما كان يزهى الأمراء به .

---

(١) القدر : جمع القدرة وهى القطعة من الجبل .

وفى جبـال أراوَلى الجَمَشْتُ[1] ، وفى ميوَار اَلْهوْ[2] ، وفى وادى نَرْبَدَا البِلّوْرُ ، وفى ساحل الـكجرات اليَصْبُ[3] والعقيق ، وفى بعض الأماكن اليَشْمُ[4] وما إليه .

وظلّ استخراج اللؤلؤ مصدر ثروة للهند ، فاللؤلؤ يستخرج من مغاوص كَمْـبِى ومَدُورا وتراوَنـكور وسيلان .

ويؤخذ الرُّخام من مقالع راجپوتانا ، ويؤخذ حجر السَّنِّ من بُنْدِيل كَهند ووادى چمبل فتزيَّن به المبانى الفخمة .

وفى الهند مناجم فحم حجرىّ واسعةٌ واقعة بين الغَنْج وغوداوَرى مُقَسَّمةً إلى أربع شُعَب ، ولا يستحقّ بعضها أن يُستغلّ ، والفحم الذى يُستخرج من بعضها الآخر هو دون ما تخرجه مناجم أوربة جَوْدَة ، فما يتركه من الثُّفْل بعد حَرْقه أكثرُ ممـا يتركه الفحم الأوربى ، وما يقوم به من العمل هو نصف ما يقوم به الفحم الإنـكليزى .

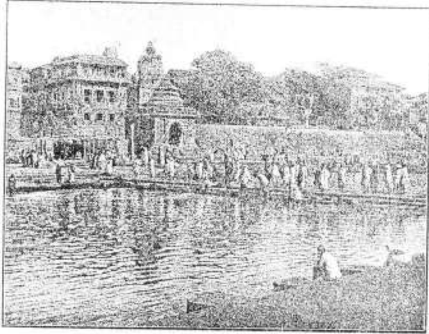
وتـكون الهند ، لافتقارها إلى الفحم الحجرى ، زراعيةً أكثر من أن تـكون صناعية ، فـكأن الطبيعة قد أرادت أن تظلّ الهنـد بلاداً تُمِدُّ الأمم الأخرى بالأقْوَات ، ولم تلبث صِناعات الهند أن أخذت تتوارى عندما أصبحت مصانع الغرب تنافسها بعد فتح قناة السويس .

والحديدُ كثير فى الهنـــد ، وأهمُّ مناجمه فى سِيلَمَ من أعمال ولاية مَدْرَاس ،

---

(١) الجمست : نوع من الحجارة الـكريمة ــ (٢) اللهو : نوع من البلور ــ (٣) اليصب : حجر قريب من الزبرجد لـكنه أصفى منه ــ (٤) اليشم : نوع من اليصب .

والأهالي قد استخرجوه وصنعوا الأدوات منه منذ القديم، وتُشابه الآلات الحديدية التي اكتشفت في آثار الهند الناقصة الشكل آثارَ السِّلْت الحجريةَ ، وتُعَدّ أقدم بقايا ما صنعه الإنسان في الهند .



١٠ ـ منظر في ناسك على ضفاف البحيرة المقدسة

والهنودُ كانوا يستخرجون الحديد ، إلى وقت قريب ، بأكيارٍ[١] وَقُودُها الحطب ، ثم تُرِكت هـذه الصناعة ، ولا يمكن أن يُرْجَع إليها بأن يستعمل الفحم الحجريُّ في نَقْيِ[٢] الحديد ما كان فحم الهنـد الحجري ناقصاً وما دَحَرَ الحديدُ الإنكليزي حديدَ الهند من الأسواق .

(١) الأكيار : جمع الكير وهو زق ينفخ فيه الحداد ـ (٢) نقي الحديد : من نقى الصيرفي الدراهم : أثارها ونثرها للانتقاد .

وفى الهند مقادير قليلة من النحاس والذهب ، فلا طائل فى استخراجهما ، والملح هو أكثر ما تحتويه ، فظلّت تُصْدِره إلى العالَم بأسره عِدّةَ قرون ، ففيها تِلالٌ مُكوَّنة من أكداس الملح ، كسلسلة الملح الواقعة فى البنجاب على ضِفاف نهر السِّنْد الأعلى .

واليوم تَحْتَكر الحكومة الإنكليزية ملحَ الهند .

ثمَّ وصفنا الإجماليُّ للهند ، ولا مَعْدِل لنا عن ذلك ما أردنا البحث فى معايش سكانها ونظمهم ومعتقداتهم وطبائعهم وعاداتهم ، ولم نأت فيما تقدم بغير بيان مُوجَز عن طبيعة تلك البِقاع السَّخِيَّة الصائلة معاً ، فلا تجد فى الأرض ، كالهند بلاداً تجلَّت فيها تلك القُوَى القاهرة النافعة أو الضارَّة التى هى أمُّ الضرورات المُكوِّنة للرجال والمسيِّرة إياهم والموجبة الأولى لِما يُدَوِّن التاريخ سيرَه من الحضارات .

البَابُ الثَّانِي

العُرُوق

الفصل الأول

منشأ عروق الهند وتقسيمها

(١) كيف تنشأ العروق وكيف تتحول — الفرق بين العروق والأمم — صفات العروق الفارقة — الصفات الموروثة والصفات المكتسبة — كيف يمكن أمة أن تؤلف عرقاً — تأثير التوالد والوراثة — تأثير نسبة اختلاط الأمم — تأثير البيئات البطيء — ثبات الصفات الموروثة — ما أدى إليه توالد الهندوس والأوربيين من النتائج السيئة — (٢) مبادئ تقسيم العروق — قيمة المقايسة بين الصفات التشريحية والخلقية والعقلية في ذلك التقسيم — عدم كفاية الصفات التشريحية في تقسيم العروق البشرية — أهمية الصفات الخلقية والعقلية — هذه الصفات هي تراث العروق وهي تعين تطور الأمم والدور الذي تمثله في التاريخ — كيف يرجع الأشخاص الذين أسفر عنهم الانتخاب إلى المثال المتوسط — الصفات الخلقية والعقلية المشتركة في المثال المتوسط — (٣) تكوين عروق الهند — تقسيماتها الأساسية — الفروق العظيمة بين أهالي الهند — تقسيمهم إلى أربعة عروق كبيرة : الأبيض والأصفر والتوراني والآري — لا قيمة لكلمة هندوسي من الناحية الإتنولوجية — لون أهالي الهند الأقدمين الأسود — الشعوب التي استولت على الهند — الغزو التوراني والغزو الآري — نتائج اختلاط الشعوب المختلفة .

١ — كيف تنشأ العروق وكيف تتحول

أرى قبل أن أصف عروق الهند أن أخصص بضع صفحات لتعريف العروق وبيان ظهورها وتحولها وذكر الصفات التي تقسم بها .

لم أفتأ أشرح في مؤلفاتي الأخيرة ما يقوله العلم وما أراه في تلك الأمور المهمة ، فيكفي أن ألخص هنا ما فصلته في تلك المؤلفات .

تُقسَّم الجماعات البشرية المنتشرة فى مختلف أقطار الأرض إلى عروق ، ويجب أن نَعُدَّ كلمة « العرق » بالنسبة إلى الإنسان معادلةً لـكلمة « الجنس » بالنسبة إلى الحيوان ، وتفترق العروق البشرية فى أخلاقها افتراقَ أنواع الحيوان المتقاربة ، ومن خواصِّ هذه الأخلاق الأساسية أنها تنتقل بالوراثة انتقالًا منتظماً ثابتاً .

وإذا كانت كلمة « العرق » مرادفة لـكلمة « الجنس » فإنها لا تَعدِل كلة « الأمة » أبداً ، فالأمة ، فى الغالب ، عروقٌ كثيرة جمعت بينها السياسة أو الجغرافيَّة أو غيرُها من الأسباب فى حكومة واحدة ، فالـكلمةُ : الهندوسُ أو الفرنسيون أو النمسيون الخ. تدلُّ على جماعات منتسبة إلى عروق مختلفة أشدَّ الاختلاف مع أنها تقطن فى قطر واحد وذاتُ أنظمة سياسية واحدة وذاتُ مصالح مشتركة .

ويشاهَد فى جميع العروق البشرية ، كما يشاهد فى مختلف أنواع الحيوان ، نوعان من الأخلاق ذوا أهمية متفاوتة ، أحدُهما هو الأخلاق التى انتقلت عن الأجداد بالوراثة ، والنوعُ الثانى هو الأخلاق التى يكتسبها الإنسان فى أثناء حياته القصيرة بفعل البيئة والتربية وما إليهما من مختلف العوامل ، فنوعُ الأخلاق الأول هو تُرَاث العرق الواحد بأسْره ، أى خلاصةُ ماض طويل ، فالإنسان يأتى به حين ولادته ، ولا يستطيع أن يُضِيف إليه غير القليل فى حياته ، ولن تَقْدِر الصفات الجديدة التى تُنال فى كلِّ جيل أن تقاوم عِبْء الماضى الثقيلَ الهائل إلا إذا تراكمت مع القرون فى اتّجاه واحد ، وبهذا التراكم المتعاقب الذى هو وليد الانتخاب الطبيعى تتطور الأنواع تطوراً بطيئاً بعيدَ الغَوْر .

وبيَّنْت فى مؤلفاتى التى أشرت إليها آنفاً أنه يمكن العروقَ التى تتألف أمةٌ منها بفعل الأحوال السياسية أن تُصْهَرَ فى عرق واحد مع الزمن ، وذكرتُ أن تلك

العروق تنتهي إلى عرق واحد عندما تؤدي البيئة والتوالد والوراثة في غُضُون القرون إلى اكتسابها صفات جُثمانيّة وأخلاقية وعقلية واحدة .

وفي تلك المؤلفات أثبتُّ أن ذلك الثبات لا يتمّ إلا بشرطين أساسيين : الأول أن يكون التحول بطيئاً وراثياً ، والثاني ألا يكون تفاوتٌ في نِسَب العروق المتوالدة .

والشرط الثاني على جانب عظيم من الأهمية ، فلا تلبث جماعاتٌ صغيرة من البيض أن تزول إذا توالدت هي وفريقٌ كبير من الزنوج ، فعلى هذا الوجه غاب الفاتحون من غير استثناء عندما اختلطوا بأمم أكثرَ منهم عدداً ، كالعرب في مصر ، فالمصريُّ المعاصر ، وإن كان عربياً بلغته ودينه ونُظُمه ، هو ، بالحقيقة ، من ذُرّية مصريّي العصر الفرعوني كما تدلُّ على ذلك مشابهتُه لما في المعابد والمقابر المصرية القديمة من الصور المنقوشة .

وما عُزِى إلى البيئات من التأثير في تحول العروق هو ، بالحقيقة ، ضعيفٌ إلى الغاية ، ولم يَبْدُ إلّا بتراكم القرون ، وإن شئت فقل قبل التاريخ ، واليومَ بلغ تأثير البيئات من الضَّعف في تبديل الأخلاق التي ثبت أمرها بالوراثة ما تراه ، مَثَلًا ، في بني إسرائيل الذين حافظوا على مثالهم الثابت مع وجود أناس منهم في كلِّ بلد .

والأخلاقُ التي ثبَت أمرها بالوراثة هي من الرسوخ ما يَهْلِك به العرق القديم إذا ما انتقل إلى بيئة تَفرِض عليه أن يتحول تحولًا أساسياً ، فالتَّبَوُّء وَهْمٌ باطل ، ومن هذا أن الإنكليزي لم يقدر على تبوُّء الهند مع مراعاته جميع قواعد الصحة ، فتراه يربي أولاده في أوربة ، فلولا ذلك ما رأيتَ في الهند أوربياً بعد الجيل الثالث، فلا يَذِلُّ الوراثة إلا الوراثة ، ولن تجِد للبيئات مثل هذا السلطان .

وأثرُ البيئات فى العرق ، مهما يكن ضعيفاً ، موجودٌ على كل حال ، والوراثة هى التى تَمُنُّ عليه بالقوة ، فإذا كانت العناصر المتقابلة غيرَ متفاوتة ، على حسب الشرط الثانى المذكور آنفاً ، تفاوتاً مانعاً من امتزاج عرقين انحلّت مُؤَثِّرات الماضى الثقيلة بفعل المؤثرات الوراثية المعاكسة المساوية لتلك فلم تجِد البيئات ، إذ ذاك ، ما تكافحه فسارت طليقة وأتت بعملها حُرَّة .

انتهينا إلى النتيجة الأولى القائلة إن جديد العروق يَتَكَوَّن بتوالد مختلف العروق ، لا بفعل البيئة وحدَها ، والآن نرانا أمام مسألة ذات أهمية عملية لِما يتوقّف على حَلِّها من تعيين مصير إحدى الأمم وهى : ماذا تكون قيمة عرق جديد تَكَوَّن على هذا الوجه ؟ لا ريب فى خيره إذا كان مساوياً لأرقى العرقين المتوالدين أو أعلى منه ، ولا ريب فى ضَيْره لأرقى ذينك العرقين على الأقلّ عند العكس .

درسنا هذه المسألة الأساسية فى مباحثنا السابقة ، ولا نذكر هنا غير النتائج ، ونحن حين استندنا إلى درس ما نشأ عن التوالد من النتائج فى مختلف أقطار الأرض أثبتنا أنه يكون نافعاً أو ضارًّا بحسب الأحوال ، فهو يكون نافعاً عندما يكون بعض العناصر المتقابلة مُتِمًّا لبعض بدلًا من أن تتعاكس ، وذلك كما اتفق للعناصر التى تألّف الإنكليز من توالدها ، وهو يكون ضارًّا عندما تكون العناصر المتوالدة مختلفةً حضارةً وماضياً وأخلاقاً ، وذلك كما أسفر عنه توالد الأسود والأبيض وتوالد الهندوسىّ والأوربى .

وسنعود إلى مسألة توالد الهندوس والأوربيين فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى طوائف الهند وفيما نَجَم عن ذلك التوالد من النتائج السيئة ، فسنرى أن مثل هذه النتائج السيئة ، التى نشأت عن توالد متباين الشعوب ، مما عَرَفه فاتحو الهند القدماء .

فوضعوا ، على الأرجح ، نظام الطوائف الذى هو أساس نُظُم الهند الاجتماعية .

وفى كتاب آخر درسنا أمور التوالد وبحثنا فيما تؤدى إليه من النتائج السياسية والاجتماعية بحسب الأحوال فأثبتنا أنها أهمُّ العوامل فى انحطاط العروق والدول ، وذكرنا ما تُسْفِر عنه مصاقبة عِرْقَيْن عَبَدَ أحدُهما الآخر ، وألمعنا إلى السبب فى سهولة احتمال السيطرة الأجنبية عند قليل من التباين بين شعبين كما اتَّفق للمسلمين فى الهند حيث اعتنق خمسون مليونَ هندوسيٍّ دينَ النبيّ ، وأشرنا إلى السبب فى صعوبة احتمال تلك السيطرة عند شدة التباين بين شعبين كما يحدث للإنكليز الذين مَضَى على فتحهم لبلاد الهند قرن فلم يستطيعوا حمل رعاياهم على انتحال ديانتهم ولغتهم ، والديانةُ واللغة هما العاملان اللذان يبدأ بهما ادّغام احدى الأمم .

ولا أُسهب هنا فى بيان القواعد العامة التى تُطَبَّق على جميع الأمم ، فقد فَصَّلْتُها ، بدرجة الكفاية ، فى كتابى[1] الذى وضعته ليكون مقدمة لتاريخ الحضارات ، فلندعْ ، إذَنْ ، ما هو خاص بتكوين العروق ، ولنقتصرْ على بيان الأخلاق التى تَتَمَيَّزُ بها العروق بإيجاز .

٢ — مبادئ تقسيم العروق ـ قيمة المقايسة بين الصفات التشريحية والخلقية والعقلية فى ذلك التقسيم

يظهر ، أولَ وَهْلَة ، أن أهمّ الصفات التى تَتَمَيَّزُ بها العروق البشرية هى الصفات التشريحية ، كلون الجلد ، ولون الشعر ، وشكل الجمجمة مثلًا ، وذلك لأن

(١) كتاب « الإنسان والمجتمعات ومصدرها وتاريخهما » وهو يقع فى مجلدين .

الصفات التشريحية هى التى ترى حالاً ، ولكن الباحث إذا ما أنعم النظر فى قيمتها اعترف بأنها لا تَصْلُح لغير التقسيات الثقيلة ، فبلون الجلد والشعر يمكن تقسيم سكان الأرض إلى أربع جماعات أو خمس جماعات على الأكثر ، وبشكل الجمجمة يمكن تقسيم كلٍّ واحدة من هذه الجماعات إلى زمرتين أو ثلاث زُمَر ، ثم تَقِف عند هذا الحدّ ، فإذا قسّمْنا البِيضَ ، أى جميعَ شعوب أوربة ، مثلاً ، إلى شعوب عريضة الجماجم وشعوب مستطيلة الجماجم ، وشعوب شُقْر وشعوب سُمْر فإننا لا نَصِــل إلى نتائج تُذْكر ماشتملت هذه التقسيات على أمم مختلفة كالفرنسيين والإنكليز والروس والألمان ، الخ .

فالصفاتُ التشريحية ، إذَنْ ، غير كافية لتمييز العروق البشرية ، وما قلناه عن اختلاف العروق التى تتألف منها أمة ، فى الغالب ، يُثبِت أن اللغة والديانة والجماعات السياسية ليست أصلح من تلك فى تقسيم العروق .

وما عَجَزَت عنــه اللغات والأديان والجموع السياسية والصفات التشريحيــة تستطيعه الصفات الخُلقية والعقلية ، وهذه الصفات التى هى عُنوان مزاج الأمة النفسىّ ذى العلاقة بتركيب الدماغ الخاصّ هى من الدقة ما لا نقدر على تقــديرها بما لدينا من الوسائل والأدوات .

وليس من المهمّ ، مع ذلك ، أن نَنفُذ ، فيما نَنْشُدُه من التقسيم ، إلى سرّ ذلك التركيب ما استطعنا أن نُقَدِّر ما هو عنوانه من الكفاءات الخلقية والعقلية .

وتُعَـيِّن الصفات الخلقية والعقلية تطورَ الأمة والدورَ الذى تُمَثِّله فى التاريخ ، فهى ، لذلك ، على جانب عظيم من الأهمية ، فلْيُعَوِّلْ على دراستها مَنْ يرغب فى معرفة إحدى الأمم أكثرَ من أن يُعَوِّل على صفاتها التشريحية .

ولن نستطيع أن نُمَيِّزَ الراجبوتيَّ الشجاع من البنغاليِّ الجبان بشكل جمجمتيهما ، بل نَقْدِر على ذلك بالبحث في مشاعرهما ، فنرى ، إذ ذاك ، عمقَ الهُوَّة التي تفصل بينهما ، ويمكننا أن نقايس بين جماجم الإنكليز وجماجم الهندوس من غير أن نكتشف بذلك سبب استخذاء ٢٥٠ مليوناً من هؤلاء لبضعة آلاف من أولئك مع أن دراسة صفات تينك الأمتين الخلقية والعقلية يكشف لنا ذلك السبب ، وذلك باطلاعنا على شدَّة نموِّ خلق الثبات والعزم في إحداهما وضعفه في الأخرى .

والكَفَاءاتُ العقلية والخلقية هي تُراث العرق ، وهي بواعث السَّيْر الأساسية ، وهي ما سَمَّيْتُها في كتاب آخرَ بصوت الأموات ، فالنُّظُم هي وليدة تلك البواعث ، ولا عكس ، وتلك الكفاءات ، وإن كانت مختلفة في أفراد العرق الواحد اختلافَ صُوَرِهم ، يتَّصف أكثر هؤلاء الأفراد بما يشتركون فيه منها اشتراكاً ثابتاً ثباتَ الصفات التشريحية الخاصَّة بالجنس .

ويدلُّ علم التشريح الحديث على أن أجسام ذوات الحياة مركبةٌ من ملايين الخليَّات التي يتصف كلٌّ واحدة منها بحياة مستقلة متجددة بلا انقطاع وأن مدة هذه الحياة أقلُّ من مدة حياة الجسم الذي يتركب منها ، ويمكن أن يُعَدَّ أمر العرق مثل ذلك فيقال إنه مؤلف من ألوف أفراده الذين يتجدَّدُون ، فلكلٍّ من هؤلاء الأفراد حياةٌ خاصة كحياة خَلِيَّة الجسم الواحد ، وللعرق المشتمل عليهم حياةٌ جامعة وأخلاق عامة ، فإلى تلك الحياة والأخلاق يجب أن يَنْظُر الباحث في التاريخ .

وحينما يتمُّ وضع علم نفس الأمم المقارن غيرِ الموجود الآن ، يمكن الناقدَ البصير أن يستخلص من الأخلاق الخاصة الأخلاقَ العامة الصالحة لتصوير المثال الخياليِّ

المتوسط الذى هو عِنوان الأمة فيقترب جميع أفرادها منه أو يبتعدون عنه إلى حدٍّ ما(١)، فالإنسان ليس ابنَ أبويه وحدَهما ، بل هو وارثُ عرقه أيضاً .

ويتألّف مثال الأمة المتوسط من اجتماع الأخلاق المشتركة بين أكبر عدد من أفرادها ، وتكون الأخلاق المشتركة بين أفراد الأمة كثيرة بنسبة تجانس العناصر التى تتألّف منها هـذه الأمة ، فإذا كانت هذه العناصر متباينة أو قليلةَ التمازج بَدَت تلك الأخلاق المشتركة أقلَّ عدداً ، وإذْ كنا نستعير مقاييسنا من التاريخ الطبيعىّ فإننا نقول إن الجماعات التى تتألف منها الأمة المتجانسةُ تُقاسُ بأنواع الجنس الواحد المتماثلة وإن الجماعات التى تتألّف منهـا الأمة القليلة التمازج تُقاسُ بأنواع الجنس الواحد المختلفة .

---

(١) يفترض نشوء هذا المثال المتوسط سريعاً بفعل الانتخاب الطبيعى الذى ينتق به خيار الناس فى كل جيل فتنتقل صفات هؤلاء الخيار إلى ذراريهم ، ولـكن ميل الأفراد إلى التفاوت فيما بينهم بالتدريج نتيجة لتقدم الحضارة ، كما بينا ذلك فى مكان آخر، يقضى بمكافحة سنن الوراثة المؤدية إلى أفول جميع من يجاوزون مستوى الطبقة الدنيا الـكثيرة العدد المتوسط ، أو برجوعهم إلى المثال المتوسط على الأقل ،ومن أكثر الأمور التى أسفرت عنها المباحث الحديثة شمولا للنظر و إيلاما هو أن أرقى طبقات المجتمع فى الذكاء والعقل تنحل وتفنى بسرعة لعطلهـا من الذرارى أو لرجوعهـا القهقرى وتحولها إلى بله وأغبياء كما يشاهد فى كثير من كبير الأسر، وقد يفسر هذا بأن ما ينال من الأفضلية فى ناحية يكون فى مقابل ما يقع من نقص فى ناحية أخرى ، فاختلال توازن كهذا لم يلبث أن يشتد فى الذرارى فيوجب توار يها لا محالة .

ويدلنا التاريخ على أن المجتمعات تعانى حـكم هذه السنة القائلة بألا تجاوز المجتمعات مستوى معينا فى مدة طويلة وبأن تخضع هذه المجتمعات لمـا تخضع له جميع الموجودات : ولادة فنمو فانحطاط فموت .

حقا أن اختـلال التوازن يرفع الأفراد ، ولـكنه يؤدى عنـد اشتداده إلى خفض المجتمعات وانهيارها بسرعة ، وحقا أن انحلال تلك الأسر يقضى بظهور غيرها، ولـكن اختلال التوازن متى تم لأسباب خلقيـة أو لتوالد أناس كثيرى التماثل أو كثيرى التباين أو لأسباب أخرى حانت سـاعة الانحطاط كما ترى ذلو بعض الأمم الأوربية منها .

ومن ذلك أنك تجد ، مثلاً ، اختلافاً كبيراً بين ألف فرنسيّ وألف إنكليزي في آن واحد ، مع أنهم ذوو أخلاق مشتركة يتألف منها مثالٌ فرنسيٌّ إنكليزيٌّ مشابه المثال الذي يجده العالِم الطبيعيُّ عند وصفه لجنس الكلب أو الفرس، فوصفُ العالِم الطبيعي إذ كان ينطبق على جميع الكلاب والأفراس من حيث أوجه الشبه بينها فإنه لا يشتمل على أوجه الخلاف بينها البتّة .

ونحن حين نضع تلك المبادئ الأساسية نصف مختلف عروق الهند ، فنتتبع في هذا الوصف الوضعَ الجغرافيَّ لكلٍّ واحد من هذه العروق ، ونحن بعد أن نصف سكان أقطار الهند نخصّص فصلاً خاصًّا للبحث فيما أسفر عنه التوالُد وتشابُه البيئات والنُّظُم والمعتقدات من الأخلاق المشتركة بين شعوب الهند المختلفة .

٣ — تكوين عروق الهند – تقسيماتها الأساسية

لم يمض سوى وقت قصير على الزمن الذي كانت الهند تُعَدُّ فيه بلداً واحداً ذا صفات عامة واحدة وعرق واحد وديانة واحدة وحضارة واحدة وفنون واحدة ثابتة غير متقلبة منذ قرون .

فرأيٌ فاسدٌ مثلُ هذا لا يُقبَل في هذه الأيام ، فقد أوضحنا في فصل « البيئات » أن الهند ذاتُ مناظرَ متنوعة وأجْوَاء متباينة ومعايشَ مختلفة ، فالناسُ في الهند متغايرون أجناساً ومبادئَ وطبائعَ وأخلاقاً وتمدناً تغايرَ البيئات التي تكتنفهم فإذا قلنا إن الهند ، بتخالفها ، خلاصةُ الدنيا ، فإننا نقول ، أيضاً ، إن سكان الهند خلاصةُ آدميي أدوار التاريخ المتعاقبة لِما نرى فيهم من تفاوت .

يبدو البشر في الهند ذوي أمثلة متباينة ، ففي الهند تجد شعوباً بيضاً بياضَ

الأور بين بجانب المتوحشين السُّود ، وفى الهند تستطيع أن تدرس صفحات تطور العالم سائراً من طور الهمجية الأولى البادية فى بعض مناطق الهند الوسطى الجبلية إلى طور الحضارة الزاهرة البادية فى المدن الزاهية الراقية القائمة على ضِفاف الگَنْج فإلى دقائق الزمن الحديث التى أدخلها إليها آخرُ الفاتحين .

يمكن تقسيم الـ ٢٥٠ مليون الشخص الذين ندعوهم فى أوربة بالهنـدوس إلى أربعة عروق مختلفة وهى : العرقُ الأسود والعرقُ الأصفر والعرقُ التورانىُّ والعرقُ الآرىُّ ، ونجَم عن توالد هذه العروقِ الأربعة الكبرى على نِسَب متفاوتة مع تفاوت البيئات ظهورُ عروق ثانوية فى الهنـد أكثرَ عدداً وأشدَّ اختلافاً من العروق التى تسكن أوربة جميعَها مثلاً .

إذَنْ ، ليس لكلمة « هندوسىّ » أىُّ معنى من الناحية الإثنولوجية ، وهذه الكلمةُ تُطلَق ، فى الهند نفسها ، على كلِّ شخص ليس مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا مجوسياً ، أى أنها تُطلَق على أتباع إحدى الطوائف التى أوجدتها الدِّيانة البرهمية فاعترف بها البُدَّهيون فعلاً إن لم يكن مبدأً ، وكانت هذه الطوائف ، التى لا يُحصى عددُها الآن ، أربعاً وهى : طائفة البراهمة (الكهنة) وطائفة الأكشترية (المُقاتِلة) وطائفة الويشْية (التجار) ، وطائفة الشُّودرا (الزُّرّاع) ، ولاتدلُّ هذه الطوائف على أقسام عرق ، بل تشير إلى أصلها إشارةً مفيدة كما نُبيِّن ذلك ، فنرى أن طبقة البراهمة آريةٌ ، وأن طبقة الأكشترية راجبوتيةٌ ، وأن طبقة الويشية تورانية ، وأن طبقة الشودرا ممزوجةٌ من التورانيين وسكان البلاد الأصليين .

والسُّودُ هم أقدم سكان الهنـد ، ويلوح أنهم مقسومون إلى فرعين منذ أقدم

العصور وهما : النيغريتو ذوو القامات القصيرة والشعور الصُّوفة(١) والتقاطيع المصورة القاطنون فى المناطق الشرقيــة والمناطق الوسطى ، والزّوج ذوو المثــال الأوسترالى القاطنون فى المناطق الجنوبية والمناطق الغربيــة والذين هم أطول من أولئك وأذكى منهم وأملسُ شعراً من شَعْرهم ، وترى من أولئك أناساً فى بعض أصقاع غوندوانا البائرة الجبليــة ، وترى من هؤلاء أناساً فى أودية نِلْ غيرى ، وكان ذانك الفرعان الفِطْريّان المتوحشان ، اللذان لا تجد فيهما بصيصَ رقىّ ، يسكنون غابات الهنــد وشواطئها قبل التاريخ فدُحِروا يوماً بعــد يوم مع تقــدم الحضارة فطَفِقوا ينقرضون بالتدريج .

والهندُ ، كما ذكرنا فى فصل سابق ، بلدٌ مُغْلَق عسيرٌ دخوله ، فتفصلها جبال همَالية والبحار عن بقية العالم ، ويتعذر الاقتراب من شواطىء خليج البنغال بسبب ارتداد أمواجه إلى الوراء ، ومن المحتمل أن دفعت الرياح الموسمية زوارق أناسٍ من آفاق إفريقية إلى سواحل بحر العرب فوقفت راكبيها جبالُ كهات الغربيــة التى كان يحتمى بها أهالى الهِضاب العُزْل ، فــكان يمكنهم أن يقــاوموهم من غير خطر .

والهندُ ، إذ لم يُفــكَّر فى غزوها من البحر لذلك السبب ، لم يدخلها الفاتحون إلّا من جبال هِمَالية العظيمة الواقيــة للهند على طول واسع والتى تَوطَّؤ فى طرفيها فيتّسع وادى برهماپوترا فى شرقها ووادى كابُل فى غربها طائفَيْن بها .

من ذينك الواديين انقضّ غُزاة آســية على سهول الهندوستان الخصيبة فى غضون القرون ، وأكثر هؤلاء الغزاة وأرهبهم جاءوا من الغرب لسهولة سلوك وادى

(١) الصوف : الــكثير الصوف .

كابل أكثرَ من وادى برهما پوترا الذى يمرّ من بقاع مجهولة الأمر قاسية مانعة من سير الإنسان بنباتها الأشعث وجوها الموهن .

ومع ما تراه من اختلاف ذَيْنِك الواديين سَمّاهما الإنكليز باسمين غير صحيحين دالّين على أهميتهما الجغرافية والأهلية فدعَوا الغربيّ منهما بالباب الآريّ ودعَوا الآخر بالباب التورانيّ .

لم يكن الباب التورانيُّ (وادى برهماپوترا) مَمَرًّا للتورانيين بالمعنى الحرفى ، بل بالمعنى العام ، فاسمُ « التورانيين » ، الذى يدل على شعوب التركستان أو توران ومن إليهم ، أُطْلِق على العرق الأصفر بأسره فى بعض الأحيان ، فكان أولَ من دخلوا باب الهند التورانيّ قبل التاريخ ، فبَدَوْا أولَ عنصرٍ أجنبيّ فى الهند ، أناسٌ صُفْرٌ جُرْدٌ زُورٌ(١) ، ولم يَغْمُرْ طوفان التورانيين الحقيقيين ذوى الشعر الأملس واللحى الكثّة والعيونِ الأفقية سهولَ الهند إلاّ بعد ذلك بزمن طويل ، وذلك من الباب الآرى .

وقبل أن نتكلم عن أولئك التورانيين ، نرى أن نبحث فيما آل إليه العرق الأصفر فى الهند وما تركه فيها من أثر .

ابتعد غُزَاة الهند الأوّلون عن وادى برهماپوترا ، متوجهين إلى الجنوب فوجدوا أنفسهم أمام منطقة الجبال الوسطى الشاهقة المعروفة اليوم بجبال غوندوانا ، فكانت هذه المنطقة ملجأً للأهالى السُّود الذين لم يستطيعوا لأولئك الغُزَاة رَدًّا ، والذين هم مدينون فيما نالوه من الوقاية للجوّ الخطر القاتل للأجنبيّ أكثرَ مما لطبيعة الأرض القفر الكثيرة المصاعب .

(١) الزور : جمع أزور وهو الناظر بمؤخرة عينيه .

وانقلب الغزوُ الأصفرُ إلى اتجاهين بعد أن وُقِف على ذلك الوجه : أحدهما نحو وادى الغَنْج والآخر نحو الجنوب سائراً مع شواطئ خليج البنغال .

وأولُ ما أسفر عنــه توالدُ غُزَاة آسية وسُودِ الهند ظهورُ قدماء الدراويد الذين يُعَدُّون سكان الهند الأصليين لتَغَلُّب العنصر الفطرى ، ثم جاء غُزَاةٌ آخرون فدَحَروا هؤلاء إلى الجبال فانتشروا فى جنوب شبه جزيرة الهند ثم توالدوا هم وقدماء الدراويد، لا هم والزنوج رأساً ، فأسفر هذا التوالد عن ظهور الدراويد أو التَّمُول الذين يبتعدون عن المثال الأصلىّ أكثرَ مما تقدم .

وإذا نظرت إلى أثر الغزو الأصفر فى عروق الهند رأيتَه يَتَجَلَّى فى الشمال حيث وادى برهماپوترا الذى ازْدَحم عليــه فى قرون كثيرة ما خرج من آسية الشرقية من الجوع لا ريب ، وينتسب إلى العرق الأصفر الخالص مليونا النفس اللذان يسكنان ولاية آسام ، ومنطقةُ البنغال ، وإن كان يسكنها مزيجٌ من الآدميين تَجِد فيها أثر الغزوات الأولى التى اجتاحت بغير عائق سهولَها الخصيبة ، وكلما تدرجتَ إلى الجنوب سائراً على سواحل البنغال وجــدتَ العرق الأصفر يَغْرَق فى طبقات السُّود القديمة ، ويمكن تَبَيُّن العرق الأصفر فى الشمال ، حيث يسكن السانتهال مثلاً ، أحسنَ من تَبَيُّنه فى المناطق الجبلية الوسطى حيث ظلّ السكوند والملير والغوند قريبين من المثال الأول وحيث تَجِد ، على ما يحتمل ، حَفَدَة قدماء النيغريتو الأصليين .

ثم تَبْلُغ جنوبَ الهنــد الممتد من غوداوَرى إلى رأس كُمارى فترى الشعوب الدراويدية التى يُعَدُّ التَّمُول والتيلغو أهمَّها والتى هى نتيجة توالد الأمم الصُّفْر والأمم السُّود وما امتزج بها بعد زمن طويل من شتى العناصر ، ولا سيما العنصر التورانىّ .

ونحن قبل أن نتكلم عن المغازى التورانية التى جاءت من غرب الهند ، ولنَنْتَهِى إلى العروق الصُّفْر ، نذكر أن سكان هِضاب هِمَالْية العليا والأودية الواقعة بين هذه الجبال وكارا كورَم ، خلا وادى كشمير ، هم من أهل التبت القريبين من جيرانهم سكانِ الصين الغربية ، ولكننا لا نُعْنَى هنا كثيراً بما أسفر عنه غزوٌ عنيف مفاجى، من النتائج ، وإنما نقول إن هـذه الأودية والهضاب جزء من التبت أكثرَ من أن تكون جزءاً من الهند من الناحية الجغرافية ، وإن الشعوب التى تقطن فيها هى من أَرُومَة التبت وتعتنق الدين الذى يعتنقه أهل التبت وتتصف بما يتصف به أهل التبت من الطبائع والأخلاق وإنه يسكن لَدَّاخ ودارستان وبالتى وبُهوتان وجزءاً من نيبال تبتيُّون ذوو وَجَنات نائئة وأجفان مزمومة .

ومع أنه يتعذر تعيين الزمن الذى نَفَذَت فيـه المغازى من الباب التورانىّ إلى الهند ، ومع أننا لم نَرَ غزوةً تَمَّتْ من هذه الطريق منذ بدء الأزمنة التاريخية نَعْرِف مفصلًا تاريخَ كثير من الغَزَوات التى جاءت من آسية الغربيـة مُجاوِزَةً الباب الآرىّ ، وهـذا إلى أن أقدم هذه الغزوات ظل مجهولًا فى مجاهل الزمن ولم يُعْرَف إلا من نتائجه الإثنولوجية كما عُرِفَت نتائج مغازى الشعوب الصُّفْر .

والتورانيون أشدُّ الغُزَاة تحويلًا لعروق الهند من الناحيـة الجُثْمانية ، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر فى عروق الهند من الناحية المدنية ، فمن التورانيين أخـذ سكان الهند نِسَب أجسامهم وتقاطيعَ وجوههم ، وعن الآريين أخذ سكان الهنـد لغتهم ودينهم وسَجِيَّتهم وطبائعهم ، وفى الهنـد نَيِّف ١٧٠٠٠٠٠٠٠ هندوسىّ يتكلمون باللغات الآرية مع أنك لا تجد من هذه الملايين غيرَ فريق قليل يتّصل بالعرق الأبيض الخالص اتصال دم .

والتورانيون أولُ من قَصَدوا الهنـد ، فأقاموا فى البداءة بجميع وادى السِّنْد وبقسم من وادى الغَنْج ، وكانوا كلما زاد عددهم بمن ينضمُّ إليهم من العُصَب الجديدة أوغلوا فى داخل الهند فدخلوا الدَّكَن فى آخر الأمر ، فاندحر أمامهم الأهلون ، كما اندحروا أمام الشعوب الصُّفْر فيما مضى ، فاضْطُرَّ هؤلاء الأهلون الذين عَجَزوا عن الدفاع إلى الاعتصام بمناطق الدَّكَن الوسطى الجبلية ذواتِ الغاب والآجام .

فى تلك الجبال الوسطى يجب ، كما قلنا ، البحث عن حَفَدة قدماء السكان ، أى قدماء الدراويد أو الزنوج الخُلَّص ، وأَكثرُ هؤلاء الشعوب القديمة عدداً وأعظمُهم أهميةً هم الذين يُعْرفون بالـكول ، ويقطن الـكول فى جُهُوتاناغپور الواقعة فى وادى مَهَانَدِى الأعلى ويُقَسَّمون إلى عِدَّة أقوام تَهَنَّدوا ، مع بقـاء نحو مليون شخص منهم غير مقتبسين شيئاً من عادات الدراويد ، الذين يسكنون الأودية والسهول ، ومعتقداتهم .

ومن لفظ « الـكول » الدالِّ على أهمِّ الشعوب الأصلية اشْتُقَّ التعبيران « الجماعة الـكولية واللغة الـكولية » الدالّان على أكثر سكان المِنطقة الجبلية القاطعةِ شبهَ جزيرة الهند من خليج كَمْبى إلى نهر الغَنْج وعلى لَهَجاتهم ، وفى اتجاه الشرق من هـذه المِنطقة ، على الخصوص ، تبدو بكثرةٍ الشعوبُ الفطرية التى لم تتوالد هى والشعوب الأخرى ، ويعيش فى اتجاه منابع بَرَهْمَنى الواقعة فى شمال وادى مَهَانَدِى « أصحابُ الأَجَمَة » الذين يُعْرفون بالدُّوَانغ فيقولون إنهم أقدم البشر فيبدون وحوشاً من كلِّ وجه .

ونحن ، إذ نُشير إلى اللغة الـكولية ، نقول إن اللغات فى الهند لا تُعَيِّن العروق ، فالشعب الذى يتكلم باللغة الـكولية الخالصة فيُسَمَّى بسانتهال لم يكن من سكان الهند

الأصليين ما أُشبع من العنصر الأصفر ، ولا يُبْحث في الجنوب ، حيث تسود اللغات الدراويدية ، عن حَفَدة العرق الآسيوى الشرقى الذى أدخل هذه اللغات إلى الهند ، ولا يخرج عن هذا المعنى قولُنا إن الشعوب الهندية التى يمكنها أن تَعْتَزّ بانتسابها إلى أجداد آريين هى أقلّ الهنود عدداً مع شيوع اللغات الآرية أكثر من سواها فى الهند .

وحينما دخل العرق الأبيض ، الذى نسميه بالعرق الآرى ، الهندَ اضْطُرّ إلى مقاتلة الدول المنظمة القوية التى أقامها التورانيون ، لا الشعوب المتوحشة العُزْل الهَيّابة ، فقهر ما هو قائم منها فى وادى السِّنْد فاستقرّ بهذا الوادى زمناً طويلاً قبل أن يُوغِل فى غرب الهند وجنوبها .

وما كان الآريون ليجاوزوا المنطقة التى تحميها جبال ونْدهيا قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً ، وكان استعباد تُورَانيِّى الشمال أولَ ما صنعوه فجعلوا منهم طبقة الويشية (التجار) التى تجىء بعد طبقة البراهمة (الكهنة) وطبقة الأكشترية (المُقاتلة) ، ولم يجعلوا بعدهم سوى طبقة الشودرا (الزُّرّاع) المؤلفة من سكان الهند الأصليين .

حلّ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فقام الآريون بغزوهم الأكبر الذى اتُّخذ موضوعاً للرامايَنا (إلياذة الهندوس) ، فأوغلوا فى الدَّكَن بقيادة زعيمهم راما فوَصَلوا ، بعد ألف مَفْخَرة ، إلى نهاية شبه جزيرة الهند فحملوا الناس ، ومنهم أهلُ سيلان ، على انتحال شرائعهم .

ومما جاء فى أساطير الرامايَنا أن الآريين حاربوا الغيلان فاستعانوا بالقِرَدَة فقلبوا عروش عَبَدَة الأفاعى ملوكِ النّاغا الأقوياء الأشداء رأساً على عَقِب ، فنرى أن أولئك

الناغا هم الفاتحون التورانيون الأوّلون الذين شادوا فى جنوب الهند دُوَلاً زاهرة فعَبَدوا، هم ورعاياهم قدماء الدراويد ، الأفاعىَ ، وأن أولئك القِرَدَة الذين أعانوا راما هم أهل البلاد السُّود .

وكان ذلك الغزو الآرىُّ لجنوب الهند حملةً عسكرية أكثرَ من أن يكون استيلاء ما خلّ عاطلًا من أثر فى البلاد المُحْتلة .

ثم حلَّ القرن الرابع قبل الميلاد ، فكانت الهند عُرْضَة لغزوٍ جديد قام به الراجپوت الذين هم آريون على الأرجح ، فهؤلاء الراجپوت ، (أو أبناء الملوك كما يدل عليه اسمهم) ، الذين هم قوم جُسُرٌ محاربون أكفاء متماثلون ، عُرِفوا بالأكشترية (المُقاتِلة) فأقاموا بالمنطقة الممتدة من شرق نهر السند إلى ما وراء آراوَلى الذى لا يزال يُسَمّى براجپوتانا .

رأينا آنفاً أن الغَزَوات التى جاءت من الباب التورانىّ الواقع فى شمال الهند الشرقىّ أسفرت عن سيطرة العرق الأصفر الذى توالد هو والزنوج فأكره هذا العرق بعد زمن طويل على الاحتكاك بالتورانيين فى وادى الغَنْج وجنوب الدَّكَن ، فبمثل هذا نُلَخِّص نتائج المغازى التى أتت من الباب الآرى فنقول : إنها أدّت إلى استيلاء العروق التورانيــة على غرب الهند وعلى شمال الهنـد الغربىّ ، وإن هذه العروق التورانيــة لم تلبث أن خضعت لصَفْوَة من الآريين فنجمت عن ذلك نتائجُ خُلقية تختلف عن النتائج الجثمانية والمادية اختلافاً تاماً كما بينا ذلك .

وإذا سِرْنا من الشمال إلى المنطقة الغربية ، كاصنعناذلك بشأن المنطقة الشرقية، فكنا فى البنجاب وجدْنا الجاتَ والغوجَر والسِّك ، الذين هم من الشعوب التورانية على مايظهر ، يؤلِّفون ثلاثة أخماس الأهالى وأن بقية هؤلاء يقتربون بلون جلودهم من

الآريين ، وإذا نزلنا إلى ما تحت ذلك رأينا الراجبوت الذين ينتسبون إلى الفصيلة الآرية ، وإن لم يكونوا من خُلَّصها ، ورأينا أن أهل الكجرات مزيجٌ من مختلف العروق وإن كان العرق التورانيّ هو الغالب في هذا المزيج ، ثم رأينا أن العنصر الآريّ يقف عند الهضاب التي يشتمل عليها وادي الغَنْج في الجنوب وعند جبال وِنْدهيا التي تَصِل إليها ، ثم لا نجد للعنصر الآري أثراً تحت هذه المنطقة مع هَيْمنة نُظُم الآريين ومعتقداتهم في الغالب، ونَجِد فيما وراء بَمْبَي ، وعلى جانبَيْ جبال كَهات، بِضعةَ ملايين من الشجعان المقاتلين الذين هم من أصل تورانيّ فيبلغون عدة ملايين فيُسَمَّوْن بالمراتها ، وكلما أقبلنا إلى الوسط أو نزَلنا إلى الجنوب وَجَدْنا الحضارة الآرية والسَّحْنة التورانية تذوب في الشعب الدراويدي ، ونشأ عن امتزاج تلك العناصر على نِسَب مختلفة ظهورُ البهيل الذين دحرهم الراجبوت إلى الجبال فغدَوْا عِنْوان قدماء الدراويد الذين أثَّر التورانيون فيهم قليلاً ، فكانت منهم قبائل محافظة على تقاطيعها الأولى، وأقاموا بوِنْدهيا الغربية فبلغ عددهم نحو ثلاثة ملايين — وظهورُ المهار المتصلين بالجات التورانيين فسكنوا سلسلة جبال آراوَلي الشمالية فبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ شخص — وظهورُ الميِنا المقيمين بمملكة جيبور في وادي الغَنْج الأعلى فبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠٠٠ شخص — وظهورُ الراموسي والدهانغ المقيمين بسفوح جبالى كَهات الغربية فتُبْصِر فيهم أثر العنصر الدراويدي كاتشهد بذلك جلودهم الدُّكْن وأنوفهم الفُطْس ووَجَناتهم الناتئة .

وبدأت غَزَوات الشعوب الإسلامية للهند في القرن الحادي عشر من الميلاد ، فهذه الشعوب إذ كانت منتسبة إلى أصول شديدة الاختلاف من عرب وفرس وأفغان ومغول زاد اختلاطُ العروق السائدة لشمال الهند تعقيداً ، ونجم عن سلطان المسلمين

تغيير عظيم فى الطبائع والعادات والمعتقدات والحضارة بوادى السِّند ووادى الغنج ، و إن لم يؤدّ ذلك إلى ظهور عرق جديد من الناحية الإثنوغرافية لعدم تمازج المسلمين وقدماء السكان تمازجاً وافراً كافياً .

ونحن ، بعد أن أتينا بتلك الخلاصة الخاطفة فقسمنا سكان الهند إلى أربع جماعات كبيرة : « الكولية والدراويدية والتورانية الآرية والتبتية » ، نبحث فى العروق الثانوية ذوات السَّحَنات المختلفة ثم نفصّل مظاهرها وأصولها وعاداتها ودياناتها والأدوارَ التى مثّلتها فى مختلف القرون ، فإذا ما أتممنا ذلك أمكننا أن ندرس ما يشمل أكثرية الشعب الهندوسىّ من العادات والطبائع والأخلاق والنُّظُم والحضارات .

الفصل الثاني

عروق الهند الشمالية

أو الهندوستان

---

(١) سكان همالية — أصل سكان أودية همالية ودردستان وكشمير ونيبال الخ (٢) سكان آسام — قبائلها المتوحشة : الناغا والكهاسيا الخ . — (٣) سكان وادي الغنج — تدرجهم إلى التجانس — تفوق العنصر الأصفر في البنغال وتفوق العنصر الآري في وادي الغنج — قبائل وادي الغنج الأدنى المتوحشة : السانتهال والملير ، الخ — (٤) سكان البنجاب — تفريق العناصر الآرية والتورانية والإسلامية — وصف العناصر الأجنبية — الأصل التوراني — أهمية الجات — (٥) سكان السند وراجبوتانا — قدم الراجبوت — الراجبوت أقل العناصر الهندية تأثراً بالمغازي الأجنبية — أشباه الوحوش من سكان راجبوتانا : البهيل ، الخ . — (٦) سكان الكجرات وشبه جزيرة كاتهياوار — اختلاط العروق في هذه المنطقة .

---

١ — سكان همالية

تعدّ هضاب همالية الغربية العليا وأكثر الأودية التي تهيمن عليها من التبت ، لا من الهند من الناحية الجغرافية ، وتعدّ من أجزاء الهند من الناحية الإثنولوجية . وتجمّعت الشعوب الصغيرة التي تسكن تلك المناطق المنيعة ، وبعضها قديم جداً ، على شكل جماعات ، وجاءت تلك الشعوب من التبت في الغالب ومن الهند في بعض الأحيان ، ولكن لا كفاتحة ما كان من طبيعة تلك البلاد الجبلية أن تحمل كل

غزو مسلح أمراً مستحيلاً ، فتفلت أهل تلك البلاد من نير الأجانب حتى الآن وحافظوا على استقلالهم على العموم

ويتوارى المثال التبتى شيئاً فشيئاً فى أودية همالية الجنوبية حيث يتصل سكان الجبال بسكان السهول فتتهند الديانة والطبائع ويمارس السيادة طبقة أريستوقراطية راجپوتية يصدر عنها الراجوات .

همالية الغربية (لداخ ، بالتى ، دردستان) — يسكن البقاع الجبلية التى يجرى فيها ستلج والسند وشيوك من الشرق إلى الغرب ، وذلك قبل الانتهاء إلى منفذ فى سلسلة همالية الغربية ، شعوب تبتية صغيرة ذوات وجوه واسعة وعيون مزورة[١] وشعور سود سندرية[٢] ولحى زعرة[٣] وأخلاق لينة حسنة نشيطة مرحة ، ولا تدين هذه الشعوب بديانة واحدة ، فبينما ترى سكان لداخ أو التبت الأوسط بدهيين مطيعين لكهنتهم ترى سكان بالتى أو التبت الأصغر مسلمين مطيعين لأئمتهم .

ويقول أهل لداخ بتعدد الأزواج من الذكور ، وينشأ انتحالهم لهذه العادة عن فقرهم ، فنى لداخ يجتمع خمسة إخوة أو ستة إخوة ، فى الغالب ، ليعولوا امرأة ويؤلفوا أسرة ، وأما البالتيون ، وإن لم يكونوا أغنياء ، فلم يتخذوا هذه العادة لتحريم الإسلام إياها ، ويترح أناس كثيرون منهم ، عن بؤس ، إلى سهل القنج فيكونون عمالاً مأجورين لدى الإنكليز ، فإذا ما جمعوا مالاً قليلاً عادوا إلى جبالهم ومساقط رؤوسهم ليقضوا فيها بقية أعمارهم ، وإذا ما أثروا تزوج الواحد منهم غير زوجة .

والمنطقة التى يبدأ نهر السند بالجرى من شمالها إلى جنوبها تجولاً حول شوامخ

---

(١) مزورة : منحرفة — (٢) سندرية : مشدودة — (٣) الزعر : القليل الشعر والمتفرقه .

نَفْعًا يَرِبت تُعرف بدردستان ، ويسكن هذه المنطقة أناس يختلفون عن أولئك ، فما يتصفون به من القامات العاليـة والوجوه البيضية الناضرة يدلّ على أصلهم الآرى ، وهم ، مع إسـلامهم يقولون بنظام الطوائف ، ومن أكثر الطوائف احتراماً عندهم طائفةُ الصين التى ورد ذكرها فى شرائع منو وفى المهابهارتا فظن بعض علماء أوربة ، على غير حقٍّ ، أنها تدل على نَسَب بين أهل دردستان وأهل الصين ، ومن الدرديين يتألف أشراف دردستان الذين يستعبدون سكان البلاد القطريين أو القوم القاطنين فى الأصقاع الممتدة إلى البنجاب والقسم الشمالى من راجپوتانا والمتصفين باسوداد جلودهم كجلود هَمَج الهند الوسطى والمعدودين أنجاساً عند البراهمة والمسلمين ، وماعند الدرديين من عادات وثنيـة شاهدٌ على قِدَمهم ، وفى بلادهم أنصابٌ كثيرة تُشابه أنصاب بريتانى ، ويتصف الدرديون وسادتُهم بأخلاق الحرّ وحبّ الفخر ، ولم يتمّ قطّ إخضاعُ ياغستان التى تقيم بها إحدى قبائلهم فيسميها الإنـكليز « البلدَ المتمرِّد » .

ويُرَى بين لَهَجات دردستان ولغات الأفغان وجهُ قرابة ..

وادى كشمير — جميع البلاد التى ذكرناها من أعمال راجة كشمير ، فإذا نزلنا إلى منطقة كشمير الأصلية ، أى إلى الوادى البالغ طوله ثلاثين فرسخاً والبالغ عرضه عشرةَ فراسخ والمشهورِ فى العالم كلّه بجمال مناظره ووَفْرَة نباته وَجَدْنا عرقاً يختلف عن عروق المناطق المحيطة به ، فيجب أن يُطْلَق اسم الـكشامرة على سكان هـذا الوادى ، لا على مختلف القبائل المجاورة له .

ويشتهر الـكشامرة من الناحية الجثمانية بين أهمّ سكان الهنـد وأكثر الناس بياضاً ، وتشتهر نسوتهم بالجمال .

فللكشامرة جلودٌ ناعمة مُلَوَّنة قليلاً وأنوفٌ قُنُوٌ ولُحًى وشعورٌ كَثَّة وقاماتٌ مربوعة وأجسام ضليعة .

وتدلُّ سيماهم على الاعتداء أكثر من أن تدلَّ على الشجاعة ، وهم على جانب عظيم من الاستعداد الفنيّ ، فهم الذين يصنعون الشالات المشهورة فى العالم بأسره والآنيةَ النحاسية المُزَيَّنة بالميناء فلم تُوَفَّق أوربة لتقليدها حتى الآن .



١١ — زعيم ناغى (من جبال آسام)

ويمكن عدُّ سكان وادى كشمير ، أو طوائفهم العليا على الأقل ، وذلك من الناحية الإثنوغرافية ، حَفَدةً لآريين كانت تجرى فى عروقهم دماء تبتية قليلة.

ويدين الكشامرة بالإسلام منذ الفتح الإسلامى مع محافظتهم على نظام الطبقات ، ويتكلمون بلغة ممزوجة من الفارسية والسّنسكريتية .

قبائل أقطار هِمالْية الدنيا — لِنَدَعْ مناطق هِمالْية العليا المُغْلَقَة جانباً ولنَمُرَّ من الفُلُوج [1] الضيقة المؤدية إلى سهول البَنْجاب الواسعة لنرى زُمَراً صغيرة كثيرة تتدرَّج بها من التبتى القاطن فى الهضاب البائرة إلى الهندوسى المقيم بالبنجاب الخصيبة، أى من البُدّهىّ إلى المسلم أو عابد وِشنو .

(١) الفلوج : جمع فلج وهو الشق .

وليس من المفيد ذكرُ قبائل تلك المنطقة مفصلًا ما اختلطت جميع العروق والعبادات في الشيباليين والبهاريين والغاديين والكولو والغوجر ، وبينما يتوارى العنصر الأصفر من هؤلاء نكتشف فيهم أثرَ العنصر الأسود أحيانًا ، وتتألف طبقتهم الأريستوقراطية من الراجبوت على العموم .

وأكثر تلك الشعوب الصغيرة من الرُّعاة ، وبعض تلك الشعوب من البدويين، ويقول بعضها بتعدد الأزواج من الذكور ، ودينُ الكثير منها مزيجٌ من الإسلام والبرهمية ، ولا يزال بعضها يَعْبُدُ الأصنام القديمة ويعبُد الأفاعي .

ويتصف جوُّ هذه المنطقة وعروقُها ولَهَجاتها بطابع التحول ، وفيها تمتدُّ سلسلة شيوالك ، وهي تقع بين مُنْحَدَرات هِمَالْيَة المهيمنة الجليدية في الغالب وسهولِ وادي السِّند المحرقة .

نيبال . — تشابه المنطقة المسماة « نيبال » منطقةَ كشمير باشتقاق اسمها من وادٍ ضيق صغير ، وبأنها مركزٌ للقوة والحضارة في البلاد ، ويحيط الوادي بعاصمتها كهات ماندو القائمة في القسم الشرقي منها ، ويبلغ طول مملكة نيبال ٧٠٠ كيلو متر ويبلغ عرضها ١٢٥ كيلو مترًا ، وتقع مملكة نيبال بين سلسلة هِمَالْيَة الأساسية وطلائع الجبال المسيطرة على سهل الغَنْج والتي تبدو منطقة تَرَائي على حَرْفها .

ويسكن منطقة نيبال قبائلُ قبائلُ مختلفةٌ في أصولها ولَهَجاتها ، فبعضُ هذه القبائل من أصل تبتيّ وبعضُها نتيجةُ توالدِ أناسٍ من التبت أو من السكان الأصليين وأناسٍ أتوا من جميع أجزاء الهندوستان ، ومن هؤلاء المهاجرين أناسٌ من الراجبوت، أي من أشرف شعوب الهند ، وأناسٌ متوحشون مشابهون لكول جهوتاناغبور وولاية

أوريسة ، والأهالى الذين يُعْرَفون بالغوركها هم وليدو الامتزاجات الأولى ، والأهالى الذين هم وليدو الامتزاجات الأخرى هم من قبائل نيبال المجاورة لسِكِم .

وتنتسب أكثرية الأهالى الذين يقيمون بوادى نيبال ، أى بالمنطقة الضيقة التى تحيط بها الجبال وتشتمل على كُبْرَيات مدن مملكة نيبال ، إلى فرعين مختلفين : فرع النيوار الذى هو وليد العرق الأقدم ، والذى ظلّ سيد نيبال إلى نهاية القرن الأخير ، وفرع الغوركها الذى استولى على نيبال فى نهاية القرن الأخير .

وبقى الغوركها من قبائل نيبال المحاربة قبل أن يصبحوا سادة وادى نيبال ، ويزعمون أنهم من حَفَدة الراجپوت الذين هاجروا إلى نيبــال فِرَاراً من الفتح الإسلامى ، وهم ، مع كونهم من أصــل هندوسى ، لم أر إلّا الأقلين منهم لم يحملوا أثراً ظاهراً من الدم التبتى ، على أن اسم « غوركها » لا يدلّ على عرق معين ، بل يدلّ فى نيبال على أناس من كل طبقة وأصل غادروا ولاية غوركها النيپالية ليفتحوا بقية نيبال .

ويُقَسَّم الغوركها إلى عِدَّة طوائف ، وأسمى هذه الطوائف هى طائفة الأكشترية التى هى وليدة تزوج الراجپوت بنساء القبيلة القطرية المعروفة بكهوس .

ويُعَدُّ الغوركها نواةَ أهالى نيبال المحاربين ، ثم انضمّ إلى هــذه النواة قبائلُ محاربةٌ أخرى نذكر منها المَغَر والغُورَنْغ ، الخ . الذين يتجلى المثــال المغولىُّ فيهم أكثر مما يتجلى فى الغوركها .

ويهاجر الـكثيرون من قبائل نيبال المحاربة ليُسْتَخْدموا فى الجيوش الإنكليزية فيُسَمَّوْن فيها باسم الغوركها العام مع عدم صواب هذه التسمية .

وإلى غُزاة الغوركها يعود الفضل فى خضوع نيبال لسيد واحد كما ذكرنا آنفاً، والغوركها قوم عسكريّون، وليس الغوركها أهلاً لغير ما يَمُتّ إلى الأمور العسكرية بصِلَة، فتراهم يزدرون الصّناعة والزّراعة والتّجارة، ولا تجد فيهم أثراً للذوق الفنىّ، وهم نقيضُ النيوار فى القابليات .

والبرهمية هى دِيانة الغوركها، ولغةُ الغوركها المعروفة بالپربتية هى لهجةٌ سَنْسكرتية ممزوجة بكلمات تبتية، وتُكْتَب لغة الغوركها بالحروف السَّنْسكرتية .

ويتألف من النيوار الذين خضعوا للغوركها جمهورُ الوادى، والراجوات الذين هم من عرقهم هم الذين ملكوهم عِدّة قرون فامتلأت مدن نيبال فى عهدهم بالمبانى العجيبة .

والنيوار، وإن كانوا كالغوركها نتيجةَ توالد الهندوس والتبتيين، بدا أثر أهل التبت أظهرَ من أثر الهندوس فيهم، فلما أُتيح لى أن أدخل وادى نيبال كان بين حاشيتى خادمٌ رافقنى فى زيارتى لمختلف أقطار الهند من غير أن يعلم شيئاً عنها، فسألنى، حينما وَطِئَتْ أقدامنا أولَ قرية نيبالية واقعة على الحدود، عن وصولنا إلى بلاد الصين ظانّاً أن نيبال من الصين لما رآه من مشابهة سكانها للصينيين الذين شاهدهم معى فى بمبى .

ويتكلم النيوار باللغة النيوارية المختلفة عن الپربتية التى هى لغة الغوركها، وإن كانت ممزوجة مثلها من السَّنْسكرتية والتبتية، واللغةُ النيوارية وحدَها هى لغة نيبال التى لها آداب .

والنيوار عاطلون مما اتّصف به الغوركها من الروح العسكرية، وتجد عندهم، مع ذلك، ما ليس عند هؤلاء من الأهليات الزراعية والصناعية والفنية العظيمة،

وبفضلهم أُقيم ما يملأ الوادى من المعابد الطريفة المُزَيَّنة بالنقوش العجيبة فنشرنا لطائفة صوراً فى هذا الكتاب، وبلغوا من إتقان حفر الخشب درجة لم تَفُقْهم معها أوربة كما أرى، ومن دواعى الأسف أنهم لم يلاقوا من الغوركها، الذين هم سادتهم فى الوقت الحاضر، ما يُشَجِّعهم، فترى متفننيهم يزولون بالتدريج فلا تجد منهم اليوم أكثر من اثنى عشر رجلًا قادرا على حفر الخشب أو الحجر بمهارة، فالحقُّ أن فنَّ البناء فى نيبال دخلَ دور الانحطاط، وما تشاهده فيها من الآثار المهمة صُنِع قبل الفتح الغوركهاني.

وتَجِد ثلث النيوار من أتباع شِيوا وتَجِد ثُلُثَيْهم من البُدَّهِيِّين، وتَجِد هؤلاء وأولئك من القائلين بنظام الطوائف.

بهوتان وسِكِم. — تقع دُوَيْلتا بهوتان وسِكِم المستقلتان فى شرق نيبال، أى فى منطقة جِماليّة، ويعدُّ سكانهما من فصيلة الآدميين الذين يقطنون فى الهضاب العليا، ويُعَدُّون، كذلك، من التبتيين فيشتق اسم «بهوتان» من كلمة «بود» التى تَعدِل كلمة «التبتى».

ويرى الإنكليز أن أهل سِكِم أرق من سكان بهوتان بمَرَح أخلاقهم، ولا تُبْصِر فى الهند شعباً أنيساً مثل أهل سِكِم، ويمارس هؤلاء، الذين هم من شِباه البرابرة بعضَ فنون اللهو والتسلية ويُزَمْزِمُون بما يأخذ بمجامع القلوب، ومن محاسن لغتهم عطَلُها من تعابير القَذْع والشتم فدلَّ ذلك على لطفهم ودَماثتهم.

وأهلُ سِكِم من القائلين بتعدد الأزواج من الذكور على العموم، ويدينون بالبُدَّهية وتكثر فى سفوح جبالهم أديار الكهنة، وتبنى هذه الأديار فى مواقعَ رائعةٍ وتسيطر على مناظرَ ساحرةٍ.

وسكان بهوتان أقلُّ مرحاً من جيرانهم أهل سِكِم ، ونجم ذلك عن البؤس الشديد الذى ألقتهم فيه حكومتهم المستبدة المرهقة ، فالذى يودُّ منهم أن يملك نتيجة عمله يترك بلده ليخدم الإنكليز ، ويشابه دينهم ولَهَجاتهم دينَ أهل سِكِم ولَهَجاتهم ، ويقولون مثل هؤلاء بتعدد الأزواج من الذكور ، ويملكهم الكاهن الأكبر وقائمُ مقامٍ دون الكاهن سلطاناً وإن كان يدعى بالملك .

ولا تتجلى فى أهل سِكِم وأهل بهوتان سَحَناتُ أهل التبت الخالصة إلّا فى الأودية العليا ، فإذا ما نَزَلْتَ إلى السهل أبصرتَ اختلاطهم بأهل البنغال اختلاطاً وتزل معه الملامح والعادات الأولى .

٢ — سكان آسام

آسام ، كما نعلم ، جزء من وادى برهما بوترا تابعٌ لإمبراطورية الهند الإنكليزية خلا شبكةَ مصبِّه المعقدة التابعة لبنغال والتى تختلط فيها مياه هذا النهر بمياه الغَنْج .

ويتوارى مجرى برهما بوترا الأعلى فى البِقاع غيرِ المَرُودَه(١) التى يحجُزها عن الحضارة جوٌّ هائل فظات الملجأُ الأخير للهمجية فى ذلك القسم من العالم ، ومما ذكرناه ، فى الفصل الذى وصفنا فيه أقطار الهند ، أنه لا ينزل فى أى قسم من العالم القديم مطر ثَجّاجٌ(٢) كالذى تُنْزِله رياح الجنوب الموسمية إلى آسام ، فما ينشأ عن هذا المطر من الرطوبة المرهوبة الموجبة للنبات الأشعث والعفونة القاتلة يَحْمِى استقلال سكان آسام العليا المتوحشين ، بيد أن صَوْلات الطبيعة هذه مشؤومةٌ على هؤلاء ،

(١) راد الأرض يرودها رودا وريادا : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للنزول فيها
(٢) مطر ثجاج : مطر سيال شديد الانصباب .

فهم إذْ كانوا يتقهقرون يوماً فيوماً إلى أشدّ أراضيهم وباء وأقلّها صلاحاً للزراعة يَنْقُص عددهم بلا انقطاع فيزولون أمام حضارة تمنعهم جِبِلّتهم الدنيا من ملاءمتها على الدوام .



١٢ ـ جماعة من السكول (عالية) (وادى بياس الأعلى)

وجميعُ تلك القبائل (الآبور والمِشْمِي والسنغپور) المقيمةِ بضِفاف برهما پوترا والقبائلِ (الناغا والغارو والسكهاسيا) المقيمة بالجبال الواقعة على الضّفة اليسرى من ذلك النهر ذاتُ مثال واحد تقريباً وهى فروع لعرق واحد .

ويصعب تعيين هذا العرق ، ويلوح لنا ، مع ذلك ، أنه أقرب إلى الفصيلة المغولية منه إلى الفصيلة الملايوية ، فما تراه فيه من ملامح الوجوه وانخفاض الأنوف وغِلَظ

الشِّفاه وازورار(١) العيون واسوداد الشعور السندرية(٢) واللُّحَى المُعْز(٣) يدل على قرباه من العرق الأصفر ، وما تراه فيه من الجلود السُّود يذكرنا بالعرق الملايوى .

والحقُّ أن العنصر التبتى المغولى هو الغالب فيه ، ومن الطبيعى أن تجده باديًا فى جوار الثَّغْرة الشمالية الشرقيــة التى فاضت منها طوفانات العرق الأصفر إلى تلك البقاع فى عدة قرون ، وهذا إلى أنك تجد فى الأقسام الجبلية أناسًا يشابهون مثــال الشان فى بِرْمانى ، أى مثالَ الآسيويين الشرقيين الخُلَّص كالذين يسكنون سيام والهند الصينية فاحتمل أن يكون أولئك قد أتَوْا منهما .

والجماعة الـكهاسـيا الصغيرة المقيمة بجوانب جبال كهاسى ظاهرةٌ عجيبة تجد مثلَها فى الباسك الساكنين جبال البيرنة الأوربية ، وذلك أنهم يتكلمون بلغة لا يمكن ربطها بأية فصيلة من اللغات المعروفة ، فهذه اللغة ذات المقطع الواحد تبدو مُطوَّقةً غريبة بين مختلف اللغات الهندية التى يسهل تصنيفها .

وأشــدُّ الشعوب التى ذكرناها توحشًا هم الآبور والغارو ، فأما الآبور فإنهم يعيشون عُرَاةً ، ولا يمنعهم هذا من أن يُحِبُّوا الحُلِيَّ ويُزَيِّنوا نساءهم بنُطُق وأطواق تَصِلُّ(٤) لأقلِّ حركةٍ ، ولا يعرف الآبور الزراعة ويأكلون الفواكه واللحم ، وليس عندهم من السلاح غيرُ النِّبال والرِّماح والسيوف ، ويدينون بأغلظ ضروب الوثنية ، ويُعَدُّون عنوان الأجيال الفطرية الأولى ، وأما الغارو ، وهم قومٌ جبليون ، فلا يزالون يُضَحُّون بالقرابين البشرية ، وتجد لهؤلاء الوحوش ، مع ذلك ، بعض المزايا كالصدق مع الأصدقاء والأعداء والوفاء بالوعود وازدراء ما يَرَوْنَه فى البنغاليين ، المقيمين بالسهول

---

(١) ازورار : انحراف — (٢) السندرية : المشدودة — (٣) المعز : جمع أمعز وهو القليل الشعر — (٤) صل الشيء : صوت .

الواقعة تحتهم ، من القَذَر والخَتْر[١] والخَنَث[٢] والخَبَث ، وليس بعيداً الزمنُ الذى كانوا ينزلون فيــه إلى تلك السهول ليقبضوا على بعض البنغاليين فيذبحوهم حول ما يُكْرِمونه من جُثَث الموتى ، واحترام الغارو للموتى يستوقف النظر كثيراً ، فالغارو ، إذ يَرَوْن أن حرق الجُثَث هو ما يُكَرَّم به الموتى وأن هذا الحرق يتعذر فى فصل الأمطار ، يحفظون جُثَث موتاهم فى العسل فى أثناء ذلك الفصل إلى أن يَحِلَّ فصلُ الجفاف فيَحْرُقوها فيه .

والناغا ، الذين يدلُّ اسمهم على « الأفاعى » ، يذكروننا بسادة الهند الجنوبية الأقدمين الوارد ذِكْرُهم فى الرّامايانا بأنهم عُبّاد الأفاعى ، ومن المحتمل أن كان بينهم و بين قدماء الدراويد قُرْبَى ما بَدَوْا سُوداً ، و يبدون قوماً محاربين متمتعين بالاستقلال الكامل .

والكَهاسيا هم الشعب المتوحش الوحيد الذى يتّصِل بصلة التجارة بالبلاد المجاورة و يزرع أراضيَه الجبليـة و يبلغ درجةً ضعيفة من الحضارة ، و يقيم الكَهاسيا بقُرًى كبيرةٍ و يبدون مِلاحاً صُلّاحاً ذوى أرواح وأنغامٍ مُحْكَمة عنـد الشرقيين ، و يَعْلِك الكَهاسيا عُشْبَةً تُحَمِّر أسنانهم و يعتذرون عن ذلك بـ « أن البنغاليين والكلاب ذوو أسنان بيض » ، ومن أغرب عاداتهم أن يرموا بَيْضَاتٍ ليكون لهم من انتشار صُفَارها الفـأل أو الطِّيَرَة[٣] ، وترى طرق قُراهم مملوءة بقشور البَيْض ، ولا يأكل الكَهاسيا ما ينتجه دجاجهم من البَيْض لِما فى البَيْض من مصـادرَ ثمينةٍ لمعرفة الغَيْب .

---

(١) الختر : أقبح الغدر — (٢) خنث الرجل يخنث خنثا : كان فيه لين وتكسر وتثن فكان على صورة الرجال وأحوال النساء — (٣) الطيرة : ما يتشاءم به .

وتدين بالوثنية جميع القبائل الوحشية التي ذكرنا طبائعها وعاداتها ذكراً خاطفاً ، والنكاح عند هذه القبائل من أقل النظم حرمة ، ولنسائها حق السيطرة على الأسر وحق نقل الأموال وتحويلها وحق الاعتراف ببنوة الأبناء ولهن شأن كبير في الحكومة أحياناً .

ولا يزال الغارو محافظين على بعض العادات القديمة التي سنفصلها حين البحث في بعض شعوب الهند ، ويقسم الغارو إلى قبائل صغيرة تدعى بالمهار أو الأمومات ، وكانت تمارس السلطة في كل واحدة من الأمومات امرأة فيا مضى فيمارسها اليوم رئيس (لشكر) منتخب من بين أكثر من يملكون عبيداً ، على أن توافق النساء على نصبه ويستشيرهن في غير مسألة ، والفتاة هي التي تخطب الفتى في المهار تبعاً للعادات القديمة ، وفي الغالب يغصب رجال المهار الخطيب غصباً مصنوعاً ما كانت الزوجة القادمة ملك المهار ، ولا يرث الابن في المهار إلا بعد عمته وأبناء عمته ، ويكثر الطلاق في المهار فيظل الأولاد فيها ملصقين بأمهم ، ولا يعرف الأولاد أباهم في الغالب ، أو يعيشون قريبين منه مع عدهم إياه أجنبياً .



١٣ — تيمور لنك (كما جاء في مخطوط هندى قديم)
(مكتبة فيرمان ديدو)

وتلك العادات المنحطة ، التي ستزول بزوال العروق الطريدة الضعيفة التي تمارسها

والتى لا تزال بادية فى جبال آسام ، تتوارى وتمّحى عند النزول إلى السهل حيث يكون القوم هندوسيين مختلفين ، مثالاً ولساناً وديناً وأخلاقاً ، عن البنغاليين الذين يمتزجون بهم شيئاً فشيئاً .

ونحن حين نربط أهالى بقاع آسام الدنيا بأهالى وادى الغَنْج نصف هؤلاء الأهالى فندخل الهند الحقيقية بهم .

٣ — سكان وادى الغَنْج

لا تجد فى الخلاصة التى ذكرنا فيها مختلف عروق هِمَالَيَة وآسام العليا ذكراً خاطفاً مايمكن تسميته بالهندوسىّ ولو بوجهٍ عام أو مبهم .

ونحن حين ندخل وادى الغَنْج نجد أنفسنا فى صميم بلاد الهندوس أى بلاد الشعوب البرهمية التى يجرى فى عروقها دماء قدماء الدراويد ودماء تورانية ودماء آرية على نِسَب متفاوتة غير منتظمة .

والسهل الواسع الذى يَشُقّه نهر الغَنْج وروافده هو من أكثر بقاع العالم خِصْباً وسكاناً، ففى هذا السهل تجد ١٤٠٠٠٠٠٠٠ شخص يُخرِجون من ترابه بسهولة منابعَ أنعُمهم ومعايشهم ، وليس فى تضاعف هؤلاء الآدميين وتكاثفهم بما قد لا تراه فى بُقعة من الدنيا ما يجعل تلك الأراضى العجيبة غير كافية لاحتياجاتهم .



١٤ — الملك المغولى أكبر (كما جاء فى مخطوط هندى قديم)
(مكتبة فيرمان ديدو)

والفاتحون الذين تزاحموا على الهنـد من شمال غربها ومن شمال شرقها انتشروا في تلك المنطقة المدهشة ، فتُبْصر في وادي الغَنْج مختلف العناصر التي تَجِدها في تركيب عروق شبه جزيرة الهند الـكثيرة ، فتشاهد اختلاط هذه العناصر في وادي الغَنْج أشدَّ مما في أية بُقْعَة أخرى ، وهذه العناصر إذا كان من شأنها أن تُسْفِر عن مثال واحد أو قومية واحدة فإنك قد تجد هـذا المثال في أرياف ضِفاف الغَنْج ، ويتجلى هذا المثال في فَلّاح (شودري) بهار أو أَوَدْهة الذي انتقل إليه من أجداده قدماء الدراويد اسمرار جلده والذي انتقل إليه من غُزَاة توران الأولين جَرَدُ[1] وجهه العريض وأكثرُ ملامحه ودقةُ أعضائه ، والذي انتقل إليه من الآريين زَهْوُه وفخره وتَوَقُّد ذهنه وخياله الدينيّ والاجتماعيّ .

والحقُّ أن العرق القـاطن في وادي الغَنْج مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية ، والذي يمنع هذا العرق من أن يكون خالصاً هو اختلاط هـذه العناصر فيه اختلاطاً غير مُتَّسِق[2] ، فإذا كان العنصر الآريّ سائداً للغرب في أَوَدْهة فإن العنصر الأصفر هو السـائد للشرق في البنغال ، وتقع بين هاتين الولايتين ولاية بهار التي تختلف عنهما وضعاً ومنظراً وسكاناً ، وكلما صَعِدت من مصبّ الغَنْج إلى منبعه وجـدتَ المثال الهندوسيّ يَشْرُف خَلْقاً وخُلُقاً .

وأسوأ ما تتجلى تلك الاختلاطات في البنغاليّ ، فيبدو البنغالي صغيراً هزيلاً أسمرَ الجلد قصير الأنف واسع الفم أسود الشعر أَمْعَر[3] اللحية ، ويتصف بذكاء كافٍ لهضم ما يُعَلَّمُه ، ويشتهر بالمداهنة والمداجاة والفتور والنذالة .

---

(١) الجرد : قصر الشعر — (٢) غير متسق : غير منتظم — (٣) الأمعر : القليل الشعر .

وجلودُ أهل بهار سُمْرٌ ، ويقتربون من المثال الأوربىّ بملامحهم ، ولا أثر فيهم مما فى البنغاليين من الخداع والدناءة .

ويظهر أهل أَوَدَهَة شعباً راقياً ويجد المرء فيهم المثالَ الآرىّ شائعاً ، لما يراه فيهم من استدارة الوجه المنير وانسجام الملامح وارتفاع القوّام والاعتزاز بالنسب .

ويتألف ثُمْن سكان أَوَدَهَة من البراهمة، أى من حَفَدَة قدماء الآريين، ويكثر الأكشترية (المقاتلة) أو الراجبوت فى أَوَدَهَة ، ويملك هؤلاء أراضىَ واسعةً فيها ، ويفتخر زراعها بانتسابهم إلى عرق الإله كرشنا .



١٥ — الملك المغول شاهجهان يستقبل (كما جاء فى مخطوط هندى قديم) (مكتبة فيرمان ديدو)

وتَعْتَرِف الولايات الثلاث التى ذكرناها آنفاً نظام الطوائف كما فى بقية الهند ، ولكن أحقر طائفة فى أَوَدَهَة تحتقر أعلى طائفة فى البنغال ، فترى الصعلوك السائل فى أرباض[1] بنارس يترفع عن الأكل من مائدة البرهمىّ فى كلكتة ، وترى هذا البرهمىّ يَعُدُّ من الأحلام أن يتزوج ابنته فلاحٌ غليظ من ضفاف غوغرا .

ويتجلى تأثير الإسلام فى وادى الگنج على عكس التأثير الآرىّ ، فهو يزيد

---

(١) الأرباض : جمع ربض وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

من الغرب إلى الشرق ومن منبع هذا النهر إلى مصبه ، ويتألف من المسلمين عُشر أهل أَوَدَهَة وسُبْع أهل بهار وثُلُث أهل البنغال ، بَيْدَ أن الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام لم ينفصلوا عن إخوانهم من البراهمة بسبب إسلامهم ، فهم يفترقون مثل هؤلاء إلى طوائف ، وتَجْمَع أهمُّ الشعائر الدينية بين أتباع تينك الديانتين في الغالب .

وتُبْصِر ، مما تقدم ، عناصرَ متقاربةً في وادى الغَنْج يُرْجَى صهر كلٍّ منها فى شعب متجانس يوماً ما ، لِما بين أقصى مُثُلها من حلقات متصل بعضها ببعض اتصالًا يكاد يكون غير محسوس ، فبينما تَجِد فى أقسام الهند الأخرى شعوباً مختلفة أشدَّ الاختلاف مع مجاورها تَرَى فى وادى الغَنْج عناصرَ كثيرةً مشتبكةً تقريباً ، فترى البنغاليين يَعُدُّون أنفسهم فيه من جنس واحد ، وترى مثال طبقاته العليا واحداً مشابهاً لمثال الطبقات العليا فى الهند الصينية ، وترى طبقاته الدنيا تبتعد عن العرق الأصفر وترتبط فى العروق الفطرية الأولى وفى قدماء الدراويد والكول .

قبائلُ وادى الغَنْج الأدنى المتوحشة : السانتهال والملير الخ . — يوجد بين الشعب المتجانس الذى وصفناه آنفاً جماعاتٌ متفرقة من شباه الوحوش ، ولا يُعَدُّ أكثر هؤلاء من سكان وادى الغَنْج تماماً من الناحية الإثنوغرافية والناحية الجغرافية ، وسندرس أمرهم حينما نبحث فى شؤون إخوانهم من سكان الولايات الوسطى ، وما نقوله هنا هو فى أمر بعض تلك الجماعات التى لا يجوز الإغضاء عنها الآن ما ظَلَّت من سكان وادى الغَنْج وما تكلمنا فى هذا المطلب عن هؤلاء السكان .

والملجأ الأخير للهمج الذين أقاموا بشبه جزيرة الهند فيما مضى هو ، كما ذكرنا ، جبالُ الهند الوسطى الواقعة فى جنوب نهر نَرْبَدا ونهر سون والفاصلةُ بين الهند الشمالية

والدَّكَن ، فأمام قَفْر هــذه المِنطقة وقسوةِ منظرها وخَطَرِ جَوِّها تقهقر الفــاتحون ، وتهبط مُنْحَدراتها الأولى العاصيــة غيرُ المَرُودة(١) إلى ضِفاف الغَنْج حيث ينحنى هذا النهر العظيم ليَتَوَجّه إلى الجنوب ، وتَمْتَنّ الضِّلْعُ التى تُحَدِّد مجرى هــذا النهر شواهقُ راجمحل المشرفة على الجبال الوسطى ، فهنالك ، فى وسط الهند المتمدنة بين بهار والبنغال ، تَجِد فى حال شِبْه وحشية وشِبْه طليقة المليرَ والسانتهال، وهنالك،نحو الجنوب ،فى جوانب جهوتاناغبور ، تَجِد فى حالِ شِبْهِ وحشية وشبه طليقة الأوراوُنَ والمُنْدَا والكول ، أى أكثرَ شعوب آسية فطرةً على ما يحتمل .

فلْنَدع الآن جانباً أمر هذه القبائل الفطرية الثلاث الأخيرة التى سنتكلم عنها بعد قليل ولنذكر شيئاً عن السانتهال والملير كما يأتى :

يقطن الملير أقسام جبال راجمحل العليا ، ويُعْرَفون بالپهاريين أو الجبليين ، ويمكن عدُّهم مزيجاً من سُود الدراويد ومن الأهالى الصُّفْر ، ولم يتأثروا بالآريين قط ، ويجهلون معنى الطائفة ، ويشابهون دراويد جنوب الهنـد كثيراً ويتصفون بأنسهم ودماثتهم وصدقهم الذى هو مضرب الأمثال، فمن أقوالهم المُفَضَّلة : «البَيْن(٢) ولا المَيْن(٣) » .

ويسكن الملير أكواخاً كبيرةً مصنوعة من سيقان الخيزُران المزينة بإتقان ومُؤَثّثةً بمتاع ذى أفنان ، ويعبد الملير النجومَ وقُوَى الطبيعة والملائكة الذين يقطنون ، على زعمهم ، فى الأجواء ، ويَبْنِى الملير بيتاً كبيراً عامًّا لشــباب كلِّ قرية حيث يمارسون ضروب الرياضة والبأس ويقيمون فى بعض الأحيــان ، فلجأ الإنكليز إلى

---

(١) راد الأرض يرودها روداً ورياداً : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للنزول فيها
(٢) البين : الفرقة والعداوة والبغضاء ، وهو هنا بمعنى الموت — (٣) المين : الكذب .

الحيلة لقهر الملير أكثرَ مما إلى القوة فوجدوا أن النقود والوعود خيرٌ من السلاح فى إخضاع الملير .

والساتنهال أكثر من الملير عدداً وأعظم أهميةً ، ويسكن الساتنهال مُنْحَدَرات الجبال والسفوح التى يقطن الملير فى أعالى جبالها ، وللغة الساتنهال طابعٌ خاصٌ ما بَدَت أمٌ جميع اللغات الكولية ، والساتنهال أشدّ القطريين تأثراً بالعنصر الأصفر ، والساتنهال نتيجة اختلاط الصُّفْر بالسُّود .

والساتنهالُ خِفَافٌ لِطَافٌ مُكْرِمون للأضياف ، فترى أمام أكواخهم الخيف « صُفَّةَ الغريب » حيث يَجِد المسافر حُسْن القِرَى .

والأسرة الساتنهالية متينةُ التركيب ، ويختار الأزواج عند الساتنهال بعضُهم بعضاً طَوْعاً على أن يكون الزوجان من عشيرتين مختلفتين ، ويقول الساتنهال بمبدأ تعدد الزوجات فى حالة عُقْم المرأة فقط ، ويندر الطلاق بينهم .

والساتنهالُ يُكِنُّون احتراماً كبيراً لنسائهم فيُحَلُّونهنّ(١) ويُظْهِرون ما يروقهُنّ ويتملقونهنّ بالعناية بأنفسهم وتزيين أشخاصهم ، وديانة الساتنهال وشعائرهم بسيطة إلى الغاية ، فهم يعبدون الشمس والأجداد ، وربُّ الأُسْرة الساتنهالية كاهنُها ، وربُّ الأسرة هذا إذا ما احْتُضِر عَلَّم ابنه البكر ، وهو على فراش الموت ، الأدعيةَ التى تَلِين بها الآلهةُ والطقوسَ التى تَجْلُب البركات من السماء .

والساتنهالُ يَحْرُقون موتاهم ، والساتنهالُ يحفظون ، مع ذلك ، عظاماً من موتاهم ليرموها فى مياه نهر دامُودَر المقدسة ، والساتنهالُ يحافظون على شرفهم

---

(١) حلى المرأة : ألبسها أو اتخذ لها الحلى .

وأعراضهم كثيراً ، فيُعَدُّ ارتكاب المنكر أعظمَ جرم عنـدهم ، فمن يقترفه يعاقب هو وعشيرته بالطرد من حظيرة القوم .

والسانتهالُ زراعٌ ماهرون ، وللسانتهـال أذواق البدويين ، فإذا ما استنفدوا خِصْبَ أرضٍ تركوها وأحْيَوْا غيرها ، ولـكن المَدَى الذى يقدرون على التَّيَهان فيه يقلُّ شيئاً فشيئاً بسبب تـكاثرهم السريع وتطاول الإنكليز ، وما أصاب السانتهالَ من زيادة بُؤْسٍ حملهم ، منـذ بضع سنين ، على المثول بين يَدَىْ حكومة كلـكتة ظانِّين أنها تتدبر أمرهم ، فلما وصلوا إلى مكان مناسب أُطْلِق الرَّصاص عليهم إطلاقاً مُنَظَّماً ، واليومَ يهجر سانتهالٌ كثيرون جبالهم ليبحثوا عن عمل لهم فى السهل ، واليومَ يَنْزَح بعضهم من وطنهم إلى ما هو أبعد من السهل .

ومن القطر بين تُرى السانتهال والملير وحدَهم يعيشون أمةً فى وادى الغَنْج ، وفى وادى الغَنْج تَجِد أهاليَ منثورين هنا وهنالك يُعْرَفون بالـ (قُلِى) فيُسْتخدمون أجراء وعمالًا وموظفين صغاراً فى دواوين الحـكومة .

ونذكر ، قبل أن نترك وادى الغَنْج ، أن جميع مدنه المهمة ، خلا كلـكتة ، قائمةٌ فى النصف الغربىِّ منه ، وأن قسمه الشرقى المشتمل على البنغال هو أرض حرث وزرع وأن سكان هـذا القسم مبعثرون فى أكواخ ظريفة مُحَجَّبة بالأشجار غيرِ متجمعة فى مراكزَ كبيرةٍ كالتى تُرى على ضِفاف الغَنْج العليا .

٤ — سكان البنجاب

يحتوى وادى السِّنْد ، الذى سندرس أمر سكانه ، على ثلاثة أقسام : البنجاب

فى الشمال والسِّنْد فى الجنوب وراجپوتانا فى الشرق ، و يقطن فى هذه الأقسام الثلاثة أمم مختلفة .

والپنجاب الذى كان الطريقَ الكبرى لجميع ما عُرِّضَت له الهند من المغازى ذو سكان مختلطين غير مصهورين بدرجة انصهار سكان وادى الگَنْج ، فتبدو فيه العناصر الآرية والتورانيــة والمسلمة متخالفة ، ولا تجد فيه أثراً للعنصر الدراويدى أو العنصر الأصلى ، والإسلام هو الدين الذى يسود الپنجاب ، وللإســلام أثرٌ بليغٌ فى براهمة هندوس الپنجاب الذين يظهرون بإيمانهم الفاتر سُبَّةً لدى إخوانهم فى بقية الهند .

وأصل سكان الپنجاب تورانىٌّ ، وهو مؤلف من الجات على الخصوص ، فعلى هذا الأصل الواسع تَنَضَّدت طبقةٌ آرية تَعْدِل نصفَه وأقليةٌ مسلمة ضعيفة .

ومن المحتمل أن كان الجات سادة البــلاد حين الغزو الآرىّ مع أن الجنرال كننغهم يرى ، فى كتابه « تخطيط آثار الهنــد » الذى يعد حُجَّة فى الموضوع ، أن الجات من العنصر الهندى الشيثى وأنهم أتوا الهند بعــد الفتح الإسكندرى ، فالذى لا ريب فيه أن هؤلاء التورانيين القطريين أو الهنود الشيثيين امتزجوا قليلًا بمن دحروهم إلى الجبــال من الدراويد وبمن خضعوا لهم مؤخراً من الآريين ، فنجم عن المصاهرات القليلة التى تَمَّت بين تلك العروق أمثلةٌ مختلفة بين الجات فترى فيهم أناساً شديدى الاسمرار وترى بينهم أناساً منيرين كالراجپوت .

ولْنَقُل ، قبــل البحث فى أمر الجات ذوى الشأن المهمّ فى الهند ، بضعَ كلمــات عن آريى الپنجاب الذين كان لهم نفوذٌ بالغ وفوز لغوىّ واضح مع قلة عددهم .

من الطبيعىّ أن يكون المثـال الآرىّ الخالص فى شمال البنجاب الغربىّ حيث المنفذ المُسمى بالباب الهندىّ الآرى ، ويتجلى هذا المثال فى الأفغان الإيرانيين الذين يُعْرفون باسم البَتْهان ، فيشابهون كثيراً أهل دردستان وأهل كافرستان ، ويظهرون ذوى صلة بسكان وادى كشمير ، فهم ذوو لون صافٍ وأنوفٍ قُنْوٍ ووجوهٍ بَيْضِيَّة وشعورٍ شُقْرٍ أو حَمْرِيَّة(١) وعيونٍ بُلْجٍ(٢) وما إلى ذلك من الأوصاف النـادر وجودها مجتمعةً فى أناس من أهل الهند حيث الشعورُ السُّود والعيونُ الدُّكْن(٣) .

ويستقرّ بجانب جبال هِمَالْيَة الأوان والقَـكَر الذين أريد نَسَبُهم إلى الإغريق، فعلى ما فى هـذا من شكّ فإن الذى لا مِراء فيه هو أن أولئك من العرق الآرىّ الخالص ، وينتسب الدُّغرا وبعضُ القبائل الأخرى إلى العرق الفـاتح أيضاً ، فإذا ما نَزَلْتَ إلى الجنوب وجدتَ أناساً كثيرين من الراجپوت ، ويقيم معظم الراجپوت بالمِنطقة المستطيلة المسماة بمنطقة الراجپوت ، وسنصف أمر الراجپوت فى مطلب آخر ، فلْنَدَعهم الآن جانباً .

ويقطن فى قسم هِمَالْيَة المُشْرف على البنجاب وفى الأودية المنحدرة إلى البنجاب جماعاتٌ من التبت وصفناها فيما تقـدم فنكتفى بالإلماع إليها هنا ، والآن نَصِل إلى الجات الذين هم أهم شعوب البنجاب ووادى السِّنْد .

فعلى ما فى الجات من بعض المُثُل المتباعدة التى هى وليدة امتزاجات نادرة نرى الجات يتصفون بالطول وتنـاسب الأعضاء وذكاء المنظر والاسمرار واتساع الأنوف

---

(١) الحمرى : الأسود الضارب إلى الحمرة ـ (٢) بلج : جمع أبلج وهو المشرق الوضىء ـ
(٣) الدكن : جمع أدكن وهو المائل إلى السواد .

وارتفاع طرفها وَقَنَاها[١] أحياناً وصِغَرِ العيون وأُفُقِيَّتِها ونتوء الوَجَنات واسودادِ الشعور وكثافتِها ودقة اللِّحَى وشُمُوتَتِها ، ونرى نِسْوَة الجات يتصفْنَ بطول القدود مع حسن المنظر وبالبَخْتَرَة مع الاتِّزان الناشىء عن ثِقَل الخلاخل ، ويَلْبَس هؤلاء النسوة سراويلَ ذوات ثَنْي ويَدَّثِرْن بِدُثُرٍ أنيقة تشتمل على رؤوسهن وأكتافهن وتحجب أحياناً وجوههن .

ويُقَسَّم الجات إلى ثلاث جماعات دينية : المسلمين المسيطرين على القسم الأدنى من وادى السِّنْد والسِّكْ أو أتباعِ نانَكْ المقيمين بالپنجاب وأتباعِ البرهمية المستقرين بمنطقة راجپوتانا والمنتسبين إلى طائفة الويشية .

وبينما كان الجات يملكون جميع الهند الغربية أغارت عليهم قبائل الآريين المحاربة فبادر الجات إلى الخضوع ، على ما يحتمل ، فعاملهم الآريون الغالبون بالحسنى فأحدثوا لهم طائفة جديدة عُرِفَت بطائفة الويشية التى لا تزال مشتملة ، بوجه عام ، على أبناء الطبقة الوسطى ولا سيما التجار مع حصر قدماء الأهالى فى طائفة الشودرا المحتقرة .

ولا ريب فى أن ذلك كان نتيجةَ اتفاقٍ أو تراضٍ قاضٍ بجعل سلطان الآريين فوق نورانيى غرب الهند ، ولا نزال نجد لهذا الاتفاق أثراً فى بعض حَفَلات التتويج حيث يتسلَّم الأمير الراجپوتى الصَّوْلَجان من رعاياه الجات .

وحدث فى أواخر القرن الخامس عشر نوعٌ من الإصلاح الدينى فظهر مذهب السِّك الذين غَدَوْا شعباً بعد أن كانوا جماعةً من الأشياع والمريدين ، وبيان الأمر :

---

(١) قنى الأنف يقنى قنا : ارتفع وسط قصبته .

أن نبيّهم نانَك حاول أن يجمع الإسلام والدّيانات الهندوسية فى دين واحد وأن يَصْهَرَ العروق بإزالة ما بين الطوائف من الفروق و بإعلانه المساواة بين الناس ، فصار جميع الذين اعتنقوا تعاليمه من السِّك أو من «المريدين» ، وهؤلاء كلُّهم كانوا من الجات تقريباً ، فانضمَّ الآريون إليهم فرفعوا بذلك مستوى الجات ، ثم أضحى السِّك شعباً حربياً فنَمَت أجسامهم بفضل تماريبهم العسكرية فلم يلبثوا أن تألف منهم عِرْقٌ باهرٌ يتّصف مثاله بالبأس والكَيْس ونُبْل الملامح وقوة البيان وانسجام القامة ، فالمحارب السِّكى هو من أمثلة جمال النوع الإنسانى حقاً .

وزعيمهم الثانى غوو ندسِنغ هو الذى حَبَّب إليهم النظام العسكرىّ ، فإذا كان نانَك قد هداهم إلى معتقد رُوحىّ عال قائل بإله واحد فإن غووندسِنغ مَنَّ عليهم بالفولاذ رمزاً مادياً ، ما صُنِع من هذا المَعْدِن دروعٌ مُسَرَّدَة وسيوفٌ مُهَنَّدَة ، فعلى السِّكِىّ المحارب أن يحمل تميمةً من فولاذ ولو نُزِع منه سلاحه .

وكان السِّك يطيعون زعيماً منتخباً منهم ، وكانوا يجتمعون فى مجالس شعبية للتشاور فى الشؤون المهمة ، ولم يلبث السِّك أن بَدَوْا قوماً أولى بأس شديد فاضْطُرَّ ملوك المغول والإنكليز من بعدهم إلى مراعاة جوانبهم ، فلما كانت أوائل هذا القرن أقام السِّك فى البنجاب دولة مرهوبة فعامل الإنكليز زعيمَهم مَلِكَ لاهورَ المُسمَّى رَنجيت سِنغ معاملة النِّدِّ للنِّدِّ ، وأجلس زعيمُهم هذا على عرش الأفغان ملكاً اختاره بنفسه ، واليوم عاد السِّك يكونون ، كما فى الماضى ، طائفة دينية عاصمتها الروحية مدينة أمْرتسر المهمة .

وحبُّ التعليم نامٍ عند السِّك ، فلهم جمعيات علمية مهمة نذكر منها جمعية لاهور

المشتملة على علماء فطاحل ، وما فى السُّلك من الروح العسكرية التى لم يَخبُ(١) أُوَارها(٢) جعل منهم ومن الغوركها أحسن الجنود فى الجيش الإنكليزى ، ومن وَقَفُوا أنفسهم منهم على أمور الزراعة فأكثر الجنود صبراً وعملاً ، وتقع جميع أراضى وادى السند الصالحة للزراعة بأيديهم ، وفيهم يتجلى أرقى زُمَر الهند الزراعية .

ومن الجات أناسٌ كثيرون حَبَسوا أنفسهم على التجارة فيمارسونها ببراعة ، ويُعْرَف هؤلاء التجار بالمُلتانيين ، نسبةً إلى مدينة مُلتان التجارية الواقعة بين البنجاب والسند ، وليس هؤلاء بمعروفين فى الهند وحدها ، بل اشتهروا فى جميع مدن آسية الوسطى حيث يَسِيحون للتجارة على مقياس واسع ولإذاعة أهمّ الأخبار وإشاعة أنباء الحرب .

وفى الهنــد ، فى البنجاب كما فى ضِفاف الغَنْج وفى الدَّكَن ، ترى الصَّيارِفة والمرابين والماليين من الماروارين ، أى من جات ماروار الواقعة فى جنوب البنجاب والتى هى جزء من راجبوتانا ، وكلمةُ « المارواری » فى الهنــد مترادفةٌ هى وكلمةُ « اليهودىّ » فى البلدان الأخرى ، فهؤلاء المرابون الذين يُدينون لآجالٍ مختلفة يغتنون على حساب فقراء الهندوس المرهَقين بضروب الضرائب ، فترى الناس يَخْشَوْن أولئك ويحقدون عليهم فى كل مكان ، ولا أجِد ، لوصفهم ، أحسنَ من أن اقتطف بضع جُمَل من كتاب طريف دَبَّجَه حديثاً يَرَاعُ أحد هندوسيى بَرُودَة السيد ملبارى عن أهالى كجرات ، ففى كجرات كما فى جميع أقسام الهنـد يظهر المارواریُّ بمظهر صاحب الأمر والنهى ، فإذا ما أثرى تَزَوَّج وعاد إلى مسقط رأسه ليقضى فيه بقية حياته ، قال السيد ملبارى :

(١) خبا يخبو خبوا : خمد وسكن وطفىء — (٢) الأوار : الحر .

« لا يقوم الماروارىُّ بعمل لا يُدِرُّ عليه ربحاً مئة فى المئة ، ويُحِبُّ الماروارىُّ الإدانة لآجال بعيدة ، والماروارىُّ يُدِين ويُدِين إلى أن يصبح المدينُ قبضتَه ، فإذا ما أفلس هذا المَدِين حَمَلَه على السَّرقة ، فبذلك يَحُطُّ الماروارىُّ ضحاياه كما يُخَرِّب بيوتهم ، وليس نصف عواهر بَمْبى إلّا من أخَوَات هؤلاء الضحايا وأزواجهم اللاتى عَرَفْن الماروارىَّ فاشترين منه بضعة أرطال من السكر لآجال فأسفر ذلك عن سقوطهنّ خَلقاً وخُلُقاً ، والماروارىُّ ، مع كونه من أتباع وِشْنو ، لا يحترم آلهته ، ويُفَضِّل ديناراً حاملاً صورة المَلِكة على أكثر هذه الآلهة حرمةً » .

ولا يتعاطى جميع الجات الزراعة والتجارة والمراباة ، فبعضُ الجات ظلٌّ من شِباه البرابرة والبدويين ، ومن الممكن أن يُلْصَق بالجات زُرّاع البِنْجاب وتجارهم المعروفون بتجار الهند الذين هم إخوان النَّوَر بأوربة كما يظهر ، ويزاول أولئك ما يزاول نَوَرُ أوربة من المِهَن ، ويتصعّون مثلهم بالجمال الفطرىّ ، ويتجولون من بلد إلى بلد ومن كوخ إلى كوخ وينزلون ، إذا ما حَلُّوا بمكان ، فى عرباتهم ، ويَعْرِضون للبيع صغيرَ المتاع ويُغَنُّون ويرقصون ويقصون الأقاصيص .

٥ — سكان الهند وراجپوتانا

إذا ما نَزَل المرء من البنجاب إلى مجرى السِّند بَلَغ السِّنْد حيث يكثُر الجات والمسلمون والسِّك والجِيْنِيُّون ، ويتألف عنصر السكان الآخر الأساسى من البلوجيين الذين هم شعب جبلىٌّ مشابه للشعب المقيم ببلوجستان المجاورة للسِّند ، فالبلوجيون هؤلاء من المسلمين السنيين ويُقَسَّمُون إلى عِدّة قبائلَ ، فإحدى هذه القبائل تَدَّعى بأنها من العرب ويتجلى فيها المثال السامى ، وقبيلةٌ أخرى منها لا يَنْدُر وجودُ ذوى

شعور شُقْر فيها ، وقبيلةٌ ثالثة منها تُعَدُّ نتيجةَ توالد أناس من البلوچيين والجات .

وتتكلم الشعوب التى تسكن وادى السند ، على العموم ، بلغات من أصل سَنْسكرتى ، وأهمُّ هذه اللغات هى : البِنجابية والسِّندية والماروارية ، فلا تجد فروقاً كبيرةً بينها .

وراجپوتانا هى القطر الواسع الممتد من السند إلى مداخل أغرا ومن جنوب البنجاب إلى ممالك مراتها الممتدة من بَرُودة إلى غواليار ، وتشتمل صحراء تِهَار الكبرى على النصف الغربى من راجبوتانا حيث تغدو وتروح قبائلُ من شِباه الوحوش ، ويشقُّ النصفَ الشرقىَّ من راجبوتانا عِدَّةُ مجار تنبسط بين أوديتها هِضاب وتقوم عليها جبال ، وسلسلةُ آراولى هى أهمُّ هذه الجبالِ ، ومن جنوب سلسلة آراولى هذه ينفصل إلى الجنوب الغربى شاهقُ آبو الجليل .

وما فى راجبوتانا من شذوذ أرض ، كالذى ذكرنا ، حال دون امتزاج عروقها مثلما وقع فى وادى الغَنْج ووادى السند المبسوطيْن ، فقد ظلت هذه العروق مختلفةً اختلاف الأودية والهِضاب والجبال ، فى ضِفاف الأنهر تتجمَّع أكواخ الجات التورانيين والزُّرَّاع ، وعلى الهِضاب تقوم صَيَاصِى[1] الراجبوت الآريين المحاربين ، وعلى المنحدَرات العالية وفى الغابات الوَعِرة يدافع البِهيل عن العادات القديمة والحريات الوحشية .

وأُطلق اسم الراجبوت على القطر الذى كانوا سادتَه ، والراجبوت لا يزالون يَبْدون فيه شعباً مهماً من الناحية العرقية ، والراجبوت منتشرون ، مع ذلك ، فى شمال الهند خُلَّصاً أو متوالدين هم وسواهم .

(١) الصياصى : جمع صيصة وهى الحصن وكل ما امتنع به .

والراجبوت و إن كان التاريخ غيرَ مُصَدِّق لما جاء فى أساطيرهم حول قِدَم أصلهم، هم عِنوانُ أجملِ عروق الهند وأصفاها، فالراجبوت ذوو قدود هيفٍ عالية وجلود سُمْر نَيِّرَة وعيون نُجْل[1] شُهْل[2] وأنوفٍ قُنْوٍ ومناشقَ لطيفةٍ ذاتِ رَجٍ وشعورٍ سُود كَثَّة متجعدة ولِحًى طويلة جثيلة[3] ، والراجبوت يُطلقون فى الغالب شعورَ الوجنتين والعارضين بإفراط ثم يجمعونها فى أعلى الرأس ليعقدوها هى و بقية الشعور ، وتتصف نِسْوَة الراجبوت بالحسن الرائع على العموم .

و بين الراجبوت تجد أقدم طبقة للأشراف فى العالم ، فراجه أودى پوروحدَه هو الأمير الذى يمكنه أن يفتخر بأنه سليلُ أجدادٍ يملكون منذ أكثر من ألف سنة .

ونجهل تاريخ قدماء الراجبوت جهلَنا لتاريخ ممالك الهند القديمة الأخرى ، بيد أن ما ورد فى أساطير الهندوس من مفاخر أبطالهم وقتالهم المرهوب المسلمين وما عانَوْه من حصار مخيف ولا سيما حصار چتور الذى حرق النساء فى أثنائه أنفسهن بالألوف حَذَرَ الأَسْر والذى فضّل الحماة فى أثنائه أن يُقتَلُوا جميعهم على التسليم ، يثبت قيمتهم التالدة[4] ، وللراجبوت أن يَزْهُوا بشجاعتهم إزاء جموع الهندوس ذوى الجُبْن على العموم .

والمسلمون حينما استولَوْا على الهند وجدوا الراجبوت مقيمين بجميع مدن الشمال و بسهل الغَنج إلى منطقة البنغال الحاضرة ، فكان الراجبوت يملكون لاهور ودلهى وقَنُّوج وأجودهيا الخ . وكانت المنطقة التى يملكونها ممتدةً فى الشمال من نهر السِّند

(١) النجل : جمع أنجل وهو الواسع — (٢) شهل : جمع أشهل وهو من يشوب سواد عينه زرقة — (٣) جثل الشعر يجثل جثالة فهو جثيل : كثر والتف واسود — (٤) التالد : القديم وعكسه الطارف

ونهر سَتْ لج إلى نهر جَمْنة بالقرب من أغرا وفى الجنوب إلى جبال وِندهيا ، أى كانت شاملةً لجميع شمال الهند الغربى .



١٦ — مسلم من دهلى يصنع وشاحا

فلما دُحِر الراجپوت من البقاع الخصِبة التجأوا إلى منطقة راجپوتانا الحاضرة التى هى أمنع من تلك وأسهل منها دفاعاً .

وتقسم أملاكُهم إلى تسع عشرة دويلة يملك الراجپوت منها ستَّ عشرةَ ، ويقوم بشؤونها رؤساؤهم ، ودُوَيْلَةُ أودى پور هى أهمُّها .

والراجپوت حاربوا المسلمين بنجاح إلى القرن الرابع عشر ، وهم لم يصبحوا مهدَّدين بجدٍّ إلا بعد أن خَسِروا عاصمتهم چتور ، وهم لم يندمجوا ، مع ذلك ، فى الدولة المغولية إلا فى عهد الملك أكبر ، ولم يكن هـذا الاندماج ، مع ذلك ، إلا صورةً ، لا حقيقـةً ، ما حافظوا على استقلالهم الناقص ، فالملك أكبر ترك لهم ، بالحقيقة ، نُظُمَهم منعماً على زعمائهم بمراتبَ عاليةٍ فى جيوشه متزوجاً ببنات منهم ، ثم سار خلفاؤه على سُنَّته فى ذلك .

ودستور دويلات الراجپوت القديم وحدَه هو الذى كُتِب له البقاء مع تقلبات السياسة فى غضون القرون ، وعاداتُ الراجپوت وحدَها هى التى لم تتحول بالمؤثرات الأجنبية ، فنحن ، إذ نبحث فى هذا الدستور وهذه العادات فى فصل آخر ، نَرْسُم

حضارة قسم كبير من الهند حوالَىْ القرن العاشر من الميلاد ، فمن العبث ، إذَنْ ، أن نُفَصِّل هنا أمور ذلك الشعب الشامل للنظر .

وتشتمل منطقة راجپوتانا ، خلا أولئك الراجپوت والجات الذين تكلمنا عنهم آنفاً ، على شعوب من شِباه الوحوش جديرةٍ بالدرس كما يأتي :

شِباه الوحوش من سكان راجپوتانا : البهيل والمينا ، الخ . — يُعَدُّ البهيل الذين يقيمون براجپوتانا وبالبقاع المجاورة لهـا من أقدم عروق الهند ، ومن البهيل نزع التورانيون شمال غرب الهند فاقتسم هذان الشعبان وادى السِّند زمناً طويلاً ، ولم يكن دحر البهيل إلى الجبال إلا نتيجة الغزو الراجپوتى الآرى الذى وقع فى القرون الأولى من الميـلاد ، كما يرى بعض المؤرخين ، ولم يُقْهر البهيل الفَلَاط المتوحشون من غير مقاومة مع ذلك ، والبهيـلُ ألقَوا الرعبَ ، عِدَّةَ قرون ، فى قلوب الراجپوت بانقضاضهم عليهم من ملاجئهم العالية ، ولا يزال ملوك الراجپوت يحافظون منذ القديم على مظهر التولية من بهيلىٍّ كرمز احترام للبهيل الذين كانوا سادة البلاد الأقدمين ، وذلك بأن يَجْرَح البهيلىُّ الهمجىُّ إبهـامَه وأن يُلَطِّخ بمـا يسيل من دمه جبينَ الأمير الجديد .

وعلى ما يدلّ عليه هذا الرمز من اتفاق ذينك الشعبين يمقت البهيل الهندوس ، والبهيلُ يغتنمون ، على الدوام ، فرصة محاربة الإنـكليز للراجپوت فيُوَجِّهون إلى هؤلاء سلاحهم ، والبهيلُ عَرَضوا فى سـنة ١٨٥٧ ، حين اشتعلت ثورة السپاهى ، خِدَمَهم على الحـكومة البريطانية .

وليس البهيـل عرقاً خالصاً ، فمن البهيل الذين يَتَرَجَّح عددهم بين مليونين وثلاثة ملايين لا تجد سوى مليون واحد ظلّ صافياً تقريباً ، وترى البهيل يفتخرون

بصفاء عرقهم مع أن العكس هو الأجدر ما بدا البهيل الذين تجرى فى شرايينهم دماء تورانية أنبلَ من خُلَّصهم ، وهنا نُلْحق بالبهيل شعبين مقيمين براجبوتانا ، وهما : الميِنا والهاير ، فنقول : إذا كان العنصر الأصلىّ غالباً فى البهيل فإن العنصر التورانىّ مساوٍ للعنصر البهيلى فى الهاير غالبٌ فى الميِنا .

والمِنطقة التى استقرّ بها البهيل بعد أن طُرِد بعضهم من راجبوتانا هى مِنطقة جبلية كثيرة الغاب ممتدةٌ من شمال جبال كَهات الغربيـة إلى جنوب جبال آراولى ومن خليج كَمبى إلى الجزء الأوسط من وادى نَرْبَدا ووادى تاپتى ، وفى جبال وِندهيا وسات پورا ، على الخصوص ، مأواهم ، وفى هـذا المأوى بَدَوْا مستقلين إلى الآن ، وعديدُهم كثيرٌ فى جبـال كجرات وفى وادى ماهى النهرِ الصغير الذى يسيل إلى خليج كَمبى .

والبهيلُ سُودٌ قِبَاح شُوهٌ فُطْسٌ ذوو عيون صغيرة زُوْر[1] ووجنات ناتئة قليلاً وقاماتٍ مربوعة مع خفة وقوة ، والبهيلُ عُرَاة ولا يَضَعُون سوى فُوَط حول الكُلَى ومَرَسٍ حول شعورهم السُّود المُلْسِ الطويلة ، ويتألف سلاحهم الابتدائىّ البسيط من حِراب ومزاريقَ ورماحٍ وأقواس وسهام يرمونها بمهارة فيقابلون بهـا حتى الأثمار ، ويعيشون من صيد البرّ والبحر ويَسُمُّون مجارىَ المياه بِرُبِّ اليَتُوع فَيُدَوِّخُ السمك بذلك فيسهل إمساكه .

ويَعرِف البهيل النظام القَبَلِىّ السياسىّ الفطرىّ كما يعرفه الراجپوت وتقوم القبيلة من الوجهـة النظرية على وجود جدٍّ واحد لجميع أفرادها ، ويندُر ، حتى عند

---

(١) الزور : جمع أزور وهو المائل ، الناظر بمؤخر عينيه .

الآريين ، دخولُ بيضة[١] القبيلة ، ما لم تقض ضرورة الجوار أو ضرورة الدفاع بأن يدخل القبيلةَ غرباء بطريق الوَلاء ، وكلما سَهُل أمر الوَلاء غدا النظامُ القَبَلِيُّ مَرِناً متحولاً إلى النظام الشعبيّ ، وأبواب القبيلة مفتوحةٌ عنـد البهيل بعض الفتح ، فإذا ما أتى تورانيٌّ أو راجبوتيٌّ من أهل السهل مُنْكَراً فأَطِلَّ[٢] دمه التجأ إلى البهيل في الجبال فتقبلوه بقبول حسن ، ما كان معنى كلمة البهيل « الأطِلَّة[٣] » .

والزواج بين أفراد القبيلة الواحدة مُحَرَّم عند البهيل ، وعلى الغريب الذى يودُّ الزواج أن تتبناه إحدى القبائل ، فإذا تَمَّ له ذلك سَهُل عليه أن يتزوج فتاة من قبيلة أخرى ، والفتاة إذا ما سُبِيت[٤] لم يُفَكِّر المُنْتَمُون في تزويجها بأحدهم قبل أن تُعَدَّ واحدة من إحدى القبائل التى لا يجوز لها أن تتزوج بواحد منها ، فمثلُ هـذا اليُسْر الممزوج بالعُسْر يثبت في وقت واحد ميلَ البهيل إلى تكوين أنفسهم ، مثل جيرانهم الأكثر منهم تمدناً ، ودرجةَ عروقهم[٥] في البداوة الفطرية .

ونكاحُ البهيل يتمّ ببساطة ، فالعروسان يتواريان بضعة أيام في الغاب ثم يعودان فيعربان عن اقترانهما ، ويندرُ وقوع الطلاق عند البهيل .

ويُعْرَفُ البهيل الذين يسكنون قرًى محصنةً بالبال ، ويُعْرَفُ ساكنو هذه القرى بالپلارى عند أهل السهل ، والپـلارى ، فضلاً عن البهيل والمهاير والميتا ، ليسوا من الأنجاس عند الهندوس مع أنهم لا ينتسبون إلى طائفة .

ودينُ البهيل فِطْرِيٌّ فطرةَ أخلاقهم وعاداتهم ، فالبهيل يعبدون الشجر ويضعون في أسفله ألواحاً صغيرة لتكونهيا كل تُخَضَّبُ بالدم أو بِمَغْرَة[٦] رمزاً إلى الحياة ،

(١) بيضة القبيلة : ساحتها — (٢) أطل دمه : أهدره — (٣) الأطلة : جمع طابل وهو الدم المهدور — (٤) سبي العدو يسبيه سبياً واستباه : أسره (٥) عرق في الأرض يعرق عروقاً : ذهب فيها — (٦) المغرة : الطين الأحمر يصبغ به

ويُسكِنُ البهيل احتراماً عظيماً للإله القرد هنومان ، وهذا ما يستوقف النظر ما كان ذلك القردُ الوهميُّ رفيقَ البطل الآريِّ راما فأعانه على فتح الهند ونَزْعِها من أهلها الأصليين .

ونَعُدُّ من سكان راجپوتانا شِباه الوحوش المهاير والمينا الذين تكلمنا عنهم آنفاً ، فهؤلاء هم الحلقتان اللتان يتّصل بهما البهيل المتوحشون بالجات المتمدنين، ويقيم المهاير والمينا بجبال آراولى الواقعة فى راجپوتانا ، ويبلغ عددهم مئات الألوف، ويُنْشِئون ، كالبهيل ، قرًى منيعة ، ويحافظ أكثرهم على عاداتهم فى النهب والسلب مع حُثالة الجات والراجپوت فيؤدى هذا الاختلاط إلى تحسين مثالهم الذى يقترب عند المينا من مثال الجات .



١٧ — جنود من الراجپوت

ويسير المهاير والمينا إلى الحضارة قُدُماً ، فقد أخذوا يحرُثون الأرضَ ويعتنقون البرهمية ، ولكنهم لا يمارسون شعائر هذه الديانة إلاَّ باعتدال ، فتراهم يُقَدِّسون الشجر والهياكل الحجرية والحديد كإخوانهم البهيل ، وهم يتكلمون بلغة هندية مع أن بهيل الوسط يتكلمون بلغة مشابهة للغة الغوند .

٦ ـ سكان الكجرات وشبه جزيرة كاتهياوار

تمتدُّ الكجرات إلى جنوب راجپوتانا وتشتمل على قسم من اليابسة غنيٍّ خصيب حافلٍ بالمدن الزاهرة كالمدن : بَرُودَة وسُورَت وأحمد آباد ، وعلى قسم ساحليٍّ جبليٍّ وعلى شبه جزيرة كاتهياوار التى يفصلها خليج كَمبى عن ذلك القسم .

ويسكن الكجرات ، التى يُبَلِّلُها البحر ويقصدها التجار من جميع أنحاء الدنيا ، خليطٌ من الآدميين ، فى الكجرات تجد زُمَراً من البراهمة المراتها والراجپوت والجات ، وتجد فيها الجَيْنِيين ، وتجد فيها أناساً من السنيين والشيعة والمجوس والدراويد والكول .

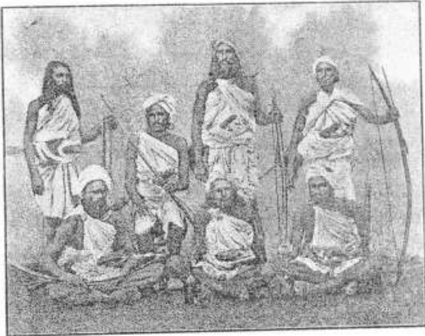


١٨ ـ پندت هندوسى من أودى پور

ولا تزال الجبال الواقعة فى شبه جزيرة كاتهياوار ملجأً لشعوب متوحشة ، على حين ترى هندوساً من أتباع المذهب الجَيْنِى يسكنون مدنها وشواطئها ، وهذا المذهب المشابه لِلبُدَّهِيَّة هو أكثر مذاهب الهند حباً لإقامة المعابد للآلهة ، فتُبْصِر شِبه الجزيرة تلك حافلةً بنماذجَ رائعةٍ لفن البناء الهندوسى ، فتشاهد فوق جبل شترونجيا الواقع فى القسم الجنوبى الشرقى مدينة مؤلفةً من معابدَ للعبادة لا من منازلَ للإقامة ، فإذا قضى المؤمنون مناسكَهم تحت قِبابها الجبلية وبين أعمدتها المزينة بأنواع النقوش اللطيفة نزلوا إلى مدينة پالى تانا الواقعة فى سفح ذلك الجبل المقدس .

وأكثرُ الناس فى الكجرات من أتباع طريقة وِشْنَوِيّة ذاتِ طقوس عجيبة ، فتقوم هـذه الطريقة على تقديس هؤلاء المؤمنين لثلاثين كاهناً كبيراً يُدْعَوْن بالمهاراجوات تقديساً مطلقاً مع قيامهم بأمور معايشهم ، فعلى الكاتب الهندوسىّ وناشرِ صحيفة « الإيندين سبكتتر » السيد ملبارى أحيلُ القارئ ليعلم طِراز حياة هؤلاء الكهنة وسذاجة مريديهم ، قال السيد ملبارى :

« إن المهاراجه هو الكاهن الذى يُؤَلَّه ، أى الذى يَتَجَسَّد فيه وشنو كرشنا فيَقِف عليه كلُّ وشنوىّ تقىّ جسمَه وروحه ومُلْكه وأهله وتوابعه .



١٩ — أناس من المينا (قبيلة شبه متوحشة فى راجبوتانا)

« .. وإليك بعض ما يَجْبِيه المهاراجه من عُبّاده الأتقياء : خمس روبيات (نحو عشرة فرنكات) للتشرف برؤيته ، و ٢٠ روبية لِمَسّه ، و ٣٥ روبية لغسل

رجليه ، و ٦٠ روبية للجلوس بجانبه ، و ٥٠ — ٥٠٠ روبية للثَّواء بغرفته ، و ١٣ روبية ليتفضَّل فيضربه بسَوْطه ، ١٩ روبية للشرب من غُسالته أو غُسالة ثيابه القَذِرة و ١٠٠ — ٢٠٠ روبية من النساء اللائى يَقْضِين معه روحَ اللذة » .

وأبدى ذلك الكاتب الهندىُّ حول « قضاء روح اللذة » تعجبه من إغضاء رجالٍ غَيارَى ونساء مُحْصَناتٍ العيونَ عن أعزِّ المشاعر ، وأرى، مع ذلك، أنه ليس فى الأمر ما لا يمكن إيضاحه مع وَقْفِه للنظر ، فقد ظلَّ الإيمان الدينى أقوى العوامل فى توجيه النفوس على الدوام ، فهذا الإيمان يُعَلِّم الإنسان أن يحتمل كلَّ شىء وأن يقتحم كلَّ شىء ، وبالإيمان استقبل الشهداء ضاحكين لَهَب النار وبالإيمان أقام الفاتحون أعظم الدول .

الفصل الثالث

عروق الهند الوسطى والهند الجنوبية

(١) المراتها — أهمية المراتها فى الهند — نظام بلديات المراتها السياسى — (٢) صفات العروق الدراويدية العامة — انفصالهم عن عروق الهند الأخرى — أهمية جماعة التمول — (٣) سكان كوكن — (٤) سكان شواطئ ملبار : النابر الخ . — أهمية البحث فى النابر لتمثل بعض تطورات الأسر الأولى — تعدد الأزواج وتعدد الزوجات — الأمومة عند النابر — شأن رب الأسرة الضعيف — قدم تعدد الأزواج من الدكورفى الهند — (٥) سكان نل غيرى — هؤلاء عنوان مراحل البشر الأولى — التودا والبداغا الخ . — (٦) سكان جنوب الهند الوحوش — (٧) سكان الولايات الوسطى أوغوندوانا — عزلة غوندوانا منذ القديم — غوندوانا منطقة ظلت منيعة فى وجـه الفاتحين على الدوام — الغوند — طبائعهم وعاداتهم ومعتقداتهم وقرابينهم البشرية — التنبؤ بالبلايا والآفات — عبادة النمر والأفعى — نظام الأسرة والنظام السياسى عند الغوند — (٨) سكان أمركن تك وجهوتا ناغبور وأوريسة الخ . — السكوندو السكول الخ . — عادات السكول — الخلاصة — تنوع عروق الهند وما بين هـذه العروق من عظيم الفروق .

لقد سِرْنا فى وصف العروق مع التقسيمات الجغرافية التى أوضحنا أمرها فى فصل « البيئات » ، فذكرنا صفات شعوب الهندوستان الأساسـية فانتهينا إلى شعوب الدَّكَن الواسع الشامل للمنطقة الممتدة من نهر نَرْبَدا ونهر سون إلى رأس كُمارى .

وفى الدكن سندرس قبل كلّ شىء أمر المراتها الذين نستطيع أن نَصِلهم وحدَهم بالغُزَاة رأساً ، ثم نبحث فى العروق الدراويدية القديمة التى تختلف عن السكان الذين وصفناهم آنفاً ، ثم نختم الفصل بدرس أحوال الوحوش المقيمين بالجبال الوسطى والذين يُعْرف أكثرهم بالكول ، فدرجةُ هؤلاء هى الدنيا بين عروق الهند ، وهم أقدم ممثلى الجنس البشرى فى تلك الديار .

١ — المراتهـــا

يشتقُّ اسم المراتها من كلمة مهاراشترا التى تَعْنِى « المملكة الكبرى » ، فهذا الاسم والعرق الذى يدل عليه قديمان فى الهنــد إلى الغاية ، فلا نستطيع أن نُعَيِّن بالضبط حدود مهاراشترا القديمة ولا أصل الشعب الذى كان يسكنها ، ففى القرن السابع عشر فقط ظهر المراتهـا على مسرح التاريخ فمثّلوا دوراً مهماً ففتحوا قسماً كبيراً من الهند فأقاموا دولة أهلية .

واليومَ يَتَجَمَّع المراتها ، وعددُهم نحو عشرة ملايين ، فى شمال الدكن الغربىّ بين جبال گهات الغربيــة وجبال سات پورا ويقيمون بالمنطقة الجبلية المحتوية على منابع نهر غوداوَرى ونهر كرشنا ومجاريهما العليا ، ويعتنقون منــذ القديم الديّانة البرهمية فيُقَسَّمون إلى طوائف ، وهذه الطوائف دون سَمِيَّاتها فى الشعوب الأخرى مرتبةً ، ولا يَعُدُّ الهندوسُ المراتها فى مجموعهم إلا من طائفة الشودرا ، وفى هذا دليل على أن المراتهـا أبناء عرقٍ غُلِب فى غابر القرون وأُذِلّ ، ومثالُ المراتها تورانىّ من بعض الوجوه ، شأنَ الشعوب المتوالدة ، فالمراتهـا وسيطو القامات صُفْر الجلود بارزو

الوَجَنات قليلًا صغيرو العيون مرتفعو طرف الأنوف واسعو المناشق ، وتتصف نسوتهم بالتماع جلودهنَّ وشعورهنَّ السود الطويلة الكثَّة .

ويؤلِّف المراتها جامعةَ بلديات مستقلة يدير شؤون كلٍّ واحدة منها رئيسٌ منتخب يُدْعَى پَتيل ، ويتألف من نواب البلديات مجلسٌ وطنيٌّ يُسَمَّى پَنْجَايَت ، وبلغ المراتها من الارتباط فى نُظُمهم القديمة ما حَمَل مَلِكَهم لقبَ پَتيل بعد أن أقاموا مملكةً وما ظلَّت السلطةُ العليا قبضةَ ذلك المجلس الوطنى .

ونذكر بجانب مراتها كَهاتِ الغربية أولئك ممالكَ مراتها الهند الوسطى ، فلا يُقيم بهذه الممالك أناس من عرق أولئك فى الحقيقة ، بل تملكهم ، فقط ، أُسَرٌ من أولئك لا تزال محافظةً على نفوذ قدماء الفاتحين وسلطانهم ، ومملكةُ غواليار هى أهمّ هذه الممالك الممتدة مئات الكيلو مترات بين نهر جَمْنَة وجبال وندهيا فى راجپوتانا وبُندِيل كهند وكجرات ، وينتسب مَهَارَاجَة غواليار إلى أسرة سِنْدهيا الشهيرة التى استطاعت أن تقيم دولة زاهرة على أنقاض الدولة المغولية وأن تقاوم الغزو الإنكليزى ببسالة وأن تحافظ على عرشها حين تَدَاعِى العروش الأخرى فى كل ناحية .

وأسرة سِندهيا من أصل وضيع ، فهى سليلة راناجى سِندهيا الذى كان سنة ١٧٢٥ يقوم فى قصر پيشوابونا بحمل الخِفَاف فعظم أمره بالحيلة والدهاء ، ثم أضحى ولداه مادَهُوجِى ودولت راو بَطَلَى استقلال الهند ، فقاما بجهود جَبَّارة لجمع كلمة أهل البلاد ضدَّ غُزَاة الإنكليز .

والأَفَّاقُ شيواجى هو الذى أسَّس دولة المراتها وجعل من تلك البلديات الزراعية الصغيرة المجهولة الأمر أمةً محاربة مرهوبة فى القرن السابع عشر ، والأَفَّاقُ شيواجى

هذا هو الذى ألّف عِصاباتٍ ذواتِ بأسٍ شديد فسارت هذه العِصابات من الدّكَن وألقَت الرُّعْب حتى فى المدن الواقعة على مصبِ الغَنْج وهدمت الدولة المغولية ، ولا تَجِد اليوم شبهاً بينها و بين حَفَدَتها خلا راجواتِ غواليار و إندور المحافظين على بعض ما كان لأجدادهم من نفوذ .

٢ — صفات العروق الدراويدية العامة

يَبْدُو الدراويد ، الذين نبحث فى أمورهم الآن ، نتيجةَ توالد سكان الهند القطريين الأصليين والغُزَاة الصُّفْر الذين أتَوْا من شمال وادى برهابوترا الشرقى ، ثم من توالد جميع هؤلاء والغزاة التورانيين الذين جاءوا من الشمال الغربى ، ويُقسَّم الدراويد ، بحسب النسبة التى تَغَلَّب بها عنصرهم الأساسىُّ ، إلى فرعين : الدراويد الأصليين الذين هم نتيجة التوالد الأول والدراويد المُوَلَّدين الذين هم نتيجة توالد أولئك والتورانيين .

و إذا نظرتَ إلى القطر الهندىِّ الواقع جنوب غوداوَرى وجدته دراويدىَّ الطابع ، ولا يزال حَفَدة الدراويد الأصليين يُرَوْن فى المناطق الجبلية التى التجأ إليها أجدادهم بالتدريج فِراراً من تأثير المغازى الأجنبية .

وعلى ما بين الدراويد الأصليين والدراويد المُوَلَّدين من تفاوت تُبْصِر فيهم كلِّهم صفاتٍ عامةً كاسمرار جلودهم وضعف شعورهم واسودادها ومَلَاستها وضخامة أنوفهم واتساع مناشقهم وسفول قاماتهم وشكل جماجمهم التى هى دون المستطيلة ، وتُبْصِر فيهم عباداتٍ فطريةً واعتقاداتٍ خرافيةً وطبقاتٍ طائفيةً وما إلى هذه من الأمور التى عرَفوها قبل غزو الآريين لبلاد الهند على ما يحتمل ، ولَمَّا قاتلهم الآريون

كان عندهم قليلٌ من التمدن كما دلّت عليه أقاصيص الرامايانا ، فكانوا على علم بصناعة المعادن والخزف وإنشاء السفن وحَبْك النُّسُج وفنّ الكتابة .

ولا علاقة للغاتهم بالسنسكرت ، وقد درسها علماء أوربة قبل اكتشاف السنسكرت ، ولتلك اللغات عِدّةُ لَهَجات ، وتُقسّم إلى أربعة فروع أساسية لكلّ واحدٍ منها نَحْوٌ خاصٌ وآدابٌ خاصة ، وهذه الفروع الأربعة هي : فرعُ الكَنَري ويتكلمون به بالغرب في جبال كَهات الغربية وكوكن وملبار ، وفرعُ المَليَالَم ويتكلمون به في ساحل ملبار على الخصوص ، وفرعُ التيلغو ويتكلمون به بالشرق في وادي غوداوَري ووادي كِرِشنا ، وفرعُ التمول ويتكلمون به بالجنوب في ساحل كوروميندل ورأسِ كُماري وقسمٍ من جزيرة سيلان .

وتجد بين الدراويد الذين يقطنون في جنوب الهند من وادي غوداوَري إلى رأس كُماري أناساً من الهمج مقيمين ، على العموم ، بالمناطق الوعرة التي دَحَرتهم المغازي المتتابعة إليها ، فهؤلاء هم عنوان السكان الأصليين الخُلّص أو الذين توالدوا هم والصُّفرُ قليلاً .

فإذا طرحت هؤلاء جانباً رأيتَ في هَضْبَة الدَّكَن الواقعة في جنوب نهر غوداوَري طبقاتٍ كثيفةً من العرق الدراويدي يبلغ عدد أفرادها خمسين مليوناً .

ولا يُقَسّم أولئك الدراويد إلا من ناحية اللغة مع بُعْدهم من التجانس المطلق ، وجميعُ الدراويد يسايرون تقدم الحضارة منذ زمن طويل ويَدِينون بدين البراهمة ويَبْدون من طائفة الشودرا ، والهَمَجُ ، على العكس ، يَعُدُّهم الهندوس نُفَايةَ البشر ومنبوذي الطوائف وطريدي العدل وأطِلّةَ الدم .

والتمولُ المقيمون بشرق الهند الدراويدية وبوسطها أمْدَنُ الدراويد ، وبين

التمول تقوم المدينتـان مدراس و بون دى جيرى ، وفى مدراسَ تُطبع كتبُ التمول بلا انقطاع ، وما فى لغة التمول من الـكلمات الـكثيرة والتراكيب الوافرة يجعلها ذات آداب ، ويتـكلم بهذه اللغة ١٥٠٠٠٠٠٠ شخص ، ويتمُّ لها الغَلَب على الـكَنَرى والتيلغو الدراويديتين ، وللتمول كتبٌ وُضِعت منذ ألف سنة .



٢٠ ــ باجان هندوسيان فى جوار مدراس

وأمةُ التمول ذات نَجْدَة وشهامة و إقدام واستعداد للتقدم ، وعليها يتوقف مصير الهند الجنوبية على ما يحتمل .

و يعيش التيلغو فى ساحل كوروميندل سائرين إلى الجنوب ، والتيلغو دون التمول مدنيةً ولهم ما لهؤلاء من العَدَد.

والمَلَيالَم ، ويتـكلمون بإحدى اللَّهَجات الدراويدية الأربع المذكورة آنفاً ، يسكنون ساحل ملبار ، والهندوسُ الذين هم فريقٌ منهم هم ، على عكس التمول ، هاربون من التمـدن ومتمسكون بعاداتهم القديمة .

وتقع كَرْنَاتَك أو « الأرض السوداء » فى وسط الدَّكَن ، وتشتمل على مملـكة ميسور وعلى جزء من مملـكة نظام ، ففى تلك المِنطقة يتـكلم الناس بلغـة الـكَنَرى التى هى ثالثةُ اللغات الدراويدية الأدبيـة ، والوسط هو « البلد الأسود » الحقيقىّ حيث يَتَجَمَّع التراب الأسود المُتَفَتِّتُ من الحجارة البركانية، بفعل سيول الرياح الموسمية وفيضانات الأنهر ، والصالحُ لزراعة القطن .

ونحن ، بعد أن درسنا صفات شعوب الدراويد ، نبحث فى الجماعات المتفرقة التى هى بقية الأهالى الفطريين الخُلَّص كما قلنا .

٣ — سكان كوكن

يُقْصَد بكلمة كوكن جميعُ الساحل الممتدّ من خليج كَمبى إلى جنوب غوا حيث يبدأ ساحل ملبار ، ويُطْلَق اسم كوكن أحياناً على منطقتين : شمالية وجنوبية، وإلى ذلك البلد المتوجّه إلى بحار الغرب وَصَل منذ زمن طويل تجار وأفّاقون من أوربة وآسية وإفريقية ، فكان ما نرى من اختلاط سكانه ، ولا تجد فيه جماعةً ذات مثال جُثْمانىّ خاصّ يستحق الذكر ، وهذا إلى أنك تشاهد فى جوانب جبال كَهات بعض القبائل الوحشية التى تسكن الغابَ فيتصف أفرادها بخفةٍ يَنْمُلُون[١] بها فى الشجر كالقِرَدة ، فينتفعون بها فى استغلال النخل التى هى هنالك مصدرُ ثروة فيكون لهم بها ما يأكلون وما يلبسون وما يسكُنون بما يَعْصِرون منها وما يحتطبون وما يجتنون[٢] وما يَغْزِلون وما يَخْصِفون ، وإلى أصحاب الأيك[٣] أولئك حاول تيبو صاحب أن يُدْخل عادة لُبْس الثياب ذاتَ يوم ، فوزَّع عليهم بُزُوزاً[٤] فتأملوها مذعورين من غير أن يَرَوا استعمالها ، فخَرَّ أحد زعمائهم باكياً ساجداً على قدَمَىْ ذلك السلطان وهو يقول : « مولاى ! دَعْنا نَقْتَدِ بآبائنا كما تقتدى بآبائك » .

ونساء النير يَسْتُرْنَ ما تحت السُّرَر ، ومن السُّبَّة عندهن أن يُخْفِين صدورهن ، فلم تستطع حواضن الإنكليز اللائى يَتَّخِذْنَهُنَّ مراضعَ أن يَحْمِلْنَهُنَّ على ترك العُرْى كما عَجَز تيبو صاحب من قبلهنّ عن إلباس أولئك الهمج من زُرَّاع النخيل ثياباً .

---

(١) نمل ينمل فى الشجر نملا : صعد — (٢) اجتنى الثمر : تناوله من شجرته — (٣) الأيك: الشجر الكثير الملتف ، الواحدة أيكة — (٤) البزوز : جمع بز وهو الثياب .

٤ — سكان شواطىء ملبار (النابر ، الخ .)

لشعوب الهند المختلفة نظمٌ وعاداتٌ تَتَمَثّل بهـا ما جاوزته الأمم المتمدنة من المراحل والأطوار قبل أن تَصِل إلى حالها الحاضرة ، فنحن ، حين تَجُوب شِبْه جزيرة الهند ، نُبْصِر جميع أدوار الحياة التى مَرّ أجدادنا منها .

والنابر القاطنون فى ساحل ملبار يزاولون بعض تلك النُّظُم الفطرية التى عاد الغرب لا يعرفها فى غير الـكتب ، فاليومَ يستطيع الباحث أن يبحث عنـد النابر فى نظام الأُمُومَة كما كان فى فجر التاريخ .

دَلّت المباحث الحديثة التى عَرَضْناها فى كتابنا «الإنسان والمجتمعات ومصدرها وتاريخهما» على أن نظام الأُمومة أولُ نظام ظهر بعد الدور الذى كانت تُعَدُّ فيه جميع نساء القبيلة وجميع أولادهن ملكَ جميع رجال القبيلة ، فنظام الأُمُومَة ذلك هو أصـل الأسرة ، وما كانت الأُسرة لتنشأ بغيره ، ونظامُ الأسرة ذلك يجعـل الأمَّ زعيمة أولادها ويمنحهم حقّ وِراثة اسمها وأموالهـا فحَلّت المصالح الفردية القوية بذلك محلّ المصالح القَبَلِيّة الضعيفة .

وفى أوائل القرن السابع عشر من الميلاد زار فرنسوا بيرار ساحل ملبار فوصف النابر بما يَقْرُب من حالهم فى أيامنا فذكر أنهم قوم محاربون مقـاديم ذوو عادات تُذَكِّر الإنسان بفرسان الدور الإقطاعى الأوربى فى القرون الوسطى لِما وجده فيهم من حُبّ الفخر وشدة البأس والحرص على الاستقلال وخلق الـكرم وحفظ الـكرامة واحترام النساء .

وكان النابر فى القرن السادس عشر من الميلاد أناساً أغنياء أقوياء يملـكون مُدُناً مهمةً ، فقـال ذلك السائح « بيدو زامورن (تمولى) فى كالى كت من أعظم أمراء

الهند وأغناهم ، فهو يقدر أن يُجَهِّزَ ١٥٠٠٠٠ جندىّ من النايَر .. ويُعَدُّ جميع ملوك النايَر المقيمون بذلك الساحل من أتباعه فيطيعونه خلا ملكَ كوچين » .

والنايَر من الناحية الجُثمانية عرقٌ ذو مَسْحَة من الجمال ، فهم ذوو قامات ناهضة وهيئات مليحة وأطراف لطيفة وجلود سُمْر لامعة .

وتعنى كلمة النايَر « السادة » ، ولا عجب ، فالنايَر تتألف منهم طائفـــة أريستوقراطية مسيطرة على ساحل الملبار ، والنايَرُ ، وإن خضعوا ذات حين للبراهمة ، لم يلبثوا أن رفعوا نير هؤلاء عنهم ، ولم يتركوا لهم غيرَ نفوذ روحى ، والبراهمـة هؤلاء ليسوا من أصل آرىّ ، فلم يُعَدُّوا مساوين لبراهمة شمال الهند الآريين ، والنايَرُ أنفسُهم ، وإن كانوا يزعمون أنهم من طبقة الأكشترية ، لا يراهم الهنـــدوس إلا من طبقة الشودرا ، والنايَرُ يتَـكَبَّرون على الأهلين الذين يحيطون بهم ويتعاظمون على التير الخاضعين لهم مع أن جلود هؤلاء أصفى من جلودهم ، والنايَرُ يَمْتَقُون الموبلا الذين هم عرب مسلمون مُخَضْرَمون ، والموبلا هؤلاء على جانب عظيم من الشجاعة مع ذلك ، فتراهم لا ينفكون ، فى الغالب ، عن مقاتلة سادتهم قتالاً لا هَوَادة فيه ولا رحمة .

وأكثر الأقوام الذين بلغوا شأواً فى التقدم جاوزوا نظام الأمومة الذى نراه فى النايَر ، فلا تجد هذا النظام عند غير القليل من الأهلين كالـكهاسيا القاطنين فى ولاية آسام فتكلمنا عنهم فى فصل آخر ، وكالنايَر الذين نتكلم عنهم فى هذا المطلب .

ولا تجد فى القبائـل العريقة فى الفطرة أثراً للنـكاح ، فنسوةُ إحـدى هـذه القبائل مُلْكٌ جميع رجالها ، فإذا تطورت هذه القبيلة قليلًا أخـذتْ بنظام

الامومة ، شأنَ النايرِ ، فقَدَت النسوة مُلْكَ قليل من الرجال وعُهِد إليهنّ في إدارة الأسرة .

والزواج عند النايرِ قائم على مبدأ تعدد الأزواج من الذكور ، ومن المحتمل ألا يكون بدء المظاهر التي تَسْبِقه أقدمَ من الزمن الذي صارت السيادة فيه إلى البراهمة .

أَجَلْ ، إن الزواج عند النايرِ قائم على مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة ، ولكن أَمَدَ هذا الزواج قصير فلا يزيد على بضعة أيام ، فالخطيب يجعل في عُنق الفتاة قِلادَة على ألا تَنْزِعَها منه ، ويدوم زواجها به ما قَبِلَتْ هذه القِلادة وحافظت عليها ، فإذا مضت أيام سُرِّح مع جائزة فاسحاً في المجال لأزواج آخرين كثيرين .

ولن تصبح الفتاة النايرية مُلْك القبيلة بأسرها كما هو أمر القبائل العريقة في الفطرة، بل مُلْكَ عدد من أفرادها ، ولن يزيد عدد أزواج الفتاة عند النايرِ عن أحد عشر رجلًا ، والفتاةُ النايرية هي التي تختار أزواجها ليعملوا على دوام الأسرة ، والفتاةُ النايرية ، وهي تقيم مع إخوتها ، تَقْبَل أزواجَها الكثيرين بالنَّوْبَة على أثر اقترانها بخطيبها الأول ، والأزواجُ هؤلاء يَغْرِزُون خناجرَهم في باب الزوجة ليُعْلِم حضورُهم وليُذْكَر ما لهم من حقوق المُتْعَة ما ظَلّوا ذوي حُظْوة .

ومن الطبيعي ألا يُنْسَب الأولاد الذين هم نتيجة تلك الاقترانات الموقتة إلّا إلى أمّهاتهم وأن يُسَمَّوْا بأسمائهن ما جُهِل آباؤهم على العموم .

فالمرأة النايرية هي رَبَّة الأسرة الحقيقيةُ ، وتمارس سلطان هذه الأسرة بمعونة ابنتها البِكْر ، ولا يعيش معها من الذكور إلاّ إخوتها وأولادها ، فما يُمكِنُه الأولاد

الذين تُنَشِّئُهم أمهم وأخوالُهم لأخوالهم هؤلاء من الحب يَعْدِل الذى يُـكِنُّه الأولاد لأبيهم فى الأمم الأخرى ، والأبنـاء إذ كانوا لا يتركون أخَوَاتهم تقريباً ، فإنهم يحملون لهنَّ من الوُدِّ ما لا يحملون لزوجاتهم ما كان زواجهم بهؤلاء لا يدوم أكثر من أيام .

ويسهل إدراك السرِّ فى تمثيـل المرأة ، التى تُرَبِّى أولادها على ذلك الوجـه فيرثونها ، دوراً أساسياً فى الأسرة ، وفى تلك الأسرة يَلِى الأولادُ درجـةً الخال والإخوةِ الذين يعيشون معها منـذ عهد الطفولة ، ولا يكون للزوج غيرُ شأن ضعيف ما قام عمله على السَّـكَن الموقت مع الزوجة وصولاً إلى دوام الأسرة ، وليس للمرأة من همٍّ سوى اختيار أقوى الرجال وأجملهم لنفسها ، وللمرأة حقٌّ مطلق فى الاقتران بمن يروقونها ، على ألا يكونوا من طائفة أدنى من طائفتها حَذَر العـار والفضيحة .

ومما لامِرْيَةَ فيه أن يكون بين أولئك المُوَلِّدين أناس من البراهمة لِما لهم من التقديس وقديم النفوذ ، فالبراهمـة هؤلاء ينتقلون من بيت إلى بيت حاملين بذوراً من الدم الغالى ما يرتفع به مستوى العرق الذى يقترنون به .

وللرجال مثل حرية النساء عند الناير ، فلنا أن نقول إن النايركما يمارسون نظام تعدد الزوجات ونظام تعدد الأزواج معاً ، وقراؤهم ، فقط ، هم الذين يعملون بنظام تعدد الأزواج من الذكور ، فترى كثيراً من الإخوة أو غيرهم يتفقون على التمتع بالمرأة الواحدة ، وذلك إلى أن نظام تعدد الأزواج من الذكور شائعٌ فى عِدَّة مناطق من الهند ، ولا سيا فى مناطق أقصى الشمال القريبة من التبت وفى أقصى الجنوب حيث

القبائلُ القريبــة المجاورة لمدورا ، وكان لِلْمَلِـكة بِكالِي كُت ، فى غابر الأزمان ، عشرة أزواج مختارون من البراهمة خلا زوجها المَلِك .

ويظهر أن نظام تعدد الأزواج من الذكور ذلك ، وهو مما لا يلائم مبادئنا المصرية ، عريقٌ فى القِدَم ، فقد وَرَد فى كتاب مهابهارتا أن الإخوة الخمسة المعروفين بپاندَوا تَزَوَّجُوا درويدى الحسناء « ذاتَ العينين اللتين هما كالسِّدْر » .

وإذا مات أحد النابر وَرِثه أولاد أخته الكبرى ، لا أولاده ، وينتقل إرث الأم من بنت إلى بنت ، كما كان حال السلطة المَلَكية فى تراوَن كور ، والإخوة يستغلون أملاك الأم من غير أن يتملكوا منها شيئاً .

ويلائم نظام الأُمومة عند النابر مزاجهم النفسيّ وطرق معايشهم ماحافظوا عليه منذ قرون مع اتصالهم بالمسلمين والنصارى المقيمين بساحل مليبار منذ زمن طويل ، ولم يَسْطِع الفتح البرهمى أن يقضى عليه .

٥ — سكان نِل غيرى

يسكن طَوْد[١] نِل غيرى أقوامٌ متوحشون مختلفٌ بعضهم عن بعض بسَحَناتهم ، ونتوصل بالبحث فى طبائعهم وعاداتهم إلى تَمَثُّل الحال فى القرون الخالية ، ويُقَسَّم هؤلاء الأقوام إلى خمس قبائل مختلفة : التودا والبداغا والكوتا والكورومبا والإيرولا .

ويسكن التودا قِمّة الطَّوْد ، وهم أسنى من جميع أولئك ، وهم معدودون من الرُّعاة ويتكلمون بلغــة كَنَرِيَّة ، ويُفْتَرَض أن يكونوا قد جاءوا من كَنَرًا منذ ثمانية قرون ، ولا يزيد عددهم على ألف .

(١) الطود : الجبل العظيم ، الهضبة .

والبداغا هم مهاجرون أتَوْا من ميسور حوالَى القرن السادس عشر ، ولا يختلفون عن سكان السهل إلَّا بأنهم دون هؤلاء حضارة ، وهم أكثر سكان ذلك الطَّوْد عدداً فيبلغ عددهم نحو ٢٥٠٠٠ ، وهم قَوْمٌ زُرَّاعٌ ، ويتكلمون مثل أولئك بالكَنَرِيَّة .

وتَجِد تحت ذينك القبيلين المروقَى الأصل الكوتا والكورومبا والإيرولا الذين لا يزيد عددهم على ٣٠٠٠ ، فهؤلاء هم ، لاريب ، من بقايا الأهالى الأصليين ، وإلى أجدادهم يُعْزَى صُنْع الأنصاب المشابهة لأنصابنا القديمة ، ويتكلمون بلَهَجات دراويدية قريبة من لَهَجات سكان السهل المتصلين بهم ، والكوتا عنوان العنصر الصناعى فى الطَّوْد ، ويُمَثِّل الإيرولا الذين يقيمون بالغاب فى أسفل الطَّوْد أدنى مُثُل النوع البشرى .

والآن نبحث فى سَحَنات هؤلاء الأقوام الذين أشرنا إلى أصولهم وفى طبائعهم وعاداتهم .



٢١ — تودى (نل غيرى) (استعيرت هذه الصورة والصورتان التاليتان من مجموعة بريكس)

التودا — التودا هم ، كما ذكرنا ، أسْنَى سكان نِل غيرى ، وهم يتصفون بطول قاماتهم وكثافة شعورهم السُّود وكثَاثة لِحاهم الجَعْدة وغِلَظ شفاههم ، واستقامة أنوفهم على العموم ، وقَنَاها فى الغالب ، ورشاقة خُطاهم ، ولا نستطيع أن نلصقهم بالهمج لدَعَتهم وطلاقة وجوههم ومرَحهم ولطفهم وسلامة سرائرهم وعاداتهم السلمية

وحسن الذوق فى ملابسهم وصفاء سَحَنَاتهم ، وتَعُدُّهم عنوان الهمجىّ المثالىّ ، وإن شئت فقل عنوان إنسان الطبيعة الذى رَاق وصفَهُ روسو ومن على مذهبه فى القرن الثامن عشر .

وتجىء كلمة تودا بمعنى الرُّعاة ، ولا يُعنَى التودا بغير رعاية مواشيهم ، وما فى نِل غيرى من المراعى الصالحة بُقِيت أطيب القِطاع ، والألبانُ أهمّ ما يتغــذى به التودا ، وبلغ احترام التودا للأنعام درجة العبادة ، والبقرة عند التودا هى الحيوان المقدس كما هو أمْر البداغا ، والزَّرِيبَة هى كنيسة التودا ، ويُدْعَى كاهنهم بالپَلال أو اللَّبَّان الأكبر ، ويرى التودا أن حِلَاب البقر وصُنعَ الزُّبْدِ والجُبْن من أقدس الأعمال الدالَّة على جلال خُلق من يتعاطاها ، ويعتقد التودا أن الإلاٰهة العليا هى بقرة مشهورة النَّسَب ، والحَــبْرُ الأعظم لدى التودا هو أقدر الرُّعاة فى فنّ تربية الحيوانات والعناية بها .

والبقرة ، وهى حيوان التودا المقدس ، تشترك فى جميع طقوسهم وترأس جميع حوادثهم المهمة ، فإذا وُلِد تودىّ جُعِل فى حِرْزِ القِطاع ، وإذا مات تودىّ عُرِض أمام جُثَّتِه بقر عشيرته وذُبحت اثنتان منها لتَقِيّماه فى ملكوت الأرواح ، ويحمِل عجلٌ اسمه بَسَاوَا خَطايا التودا فى بعض أيام السنة فيُطْرَد بالعِصِىّ إلى الغاب فيكون لهؤلاء القوم بذلك تزكيةٌ وتطهير ، وفى هذه العادة من المشابهة لأمر تَيْسِ العبريين ما لا يخفى على المتأمل .

ويَعْبد التودا أرواح الأموات ، خلا عبادتِهم للبقر ، شأنَ الشعوب الفطرية ، فإذا قُعِص[1] أحدهم خُيِّل إليهم أن روحه تعود عَطْشَى الانتقام حائمة حول ماقُتِل به من

(١) قعصه : قتله مكانه ، أجهز عليه .

السلاح فيكون هذا السلاح المُضَرَّج محلَّ احترام لديهم فيحفظونه بين ذخائرهم ومَماخِضهم وآنية زُبَدهم وقوالب جُبْنهم .

ومن خرافات أهل نِل غيرى الطريفة أن يَرَوْا بين الـكورومبا ، أصحابِ الأدغال الغِلاظ المتعودين الأَبْخِرة الوبيئة والهالـكين فى الأمكنة العَذِبَة[1] ، سَحَرةً ذوى قُوّة لاحدَّ لها ، فإذا أصابت مصيبة أسرة تودية أو إذا اجتاح وباء سوائم بداغا استَدْعَوْا، على عَجل ، كورومباويًا وابتهلوا إليه أن يَقِف الشَّرَّ الذى أحدثه ، فَلَبَّى ضَرَاعتهم وأخذ يُكْثِرُ من الحركات والالتواء ، ثم ارتمى على الأرض زاعقاً صارخاً .

ويحترم التودا الشجر، أيضاً، احتراماً دينياً ، وبيان الأمر : أن نـكاحهم ، وهو فطرىّ ، لا يكون شرعياً إلاَّ إذا بلغ حَمْلُ الفتاة ، من غير عائق ، الشهرَ السابع للمرة الأولى ، فيذهب الزوجان ، إذ ذاك ، إلى الغابة كى يَقْضِيا ليلةً تحت شجرة جميلة من أشجارها جاعلين إياها حامية للطفل القادم ، فإذا وُلِد هذا الطفل أخذ أبوه وَرَقاً منها وثَنَاه على شكل قَدَح وصَبَّ فيه ماءً قليلاً ثم بُلَّتْ شِفاهُ الأبوين والطفل به فَتَمَّ بهذا تأليف الأسرة حقًّا .

وتَسْبِق بعض المظاهر النكاحَ مع ذلك ، فعند ما يختار الفتى فتـاةً من عشيرته يُؤَدِّى إلى حَمِيه القادم نقوداً ، فيضع حَمُوه هذا رجلَه على رأسـه ويَعُدُّه ابناً له ، ثم يُؤْتى بالخطيبة إلى بيتها الجديد لابسةً ثياباً فاخرة على صوت الأغانى ، فتسجد أمام زوجها فيضع هو والأقارب أرجلهم على رأسها ، ثم تُرْسَل لتبحث عن جَرّة ماء فإذا فعلت هذا الأمر اليسير قامت بشؤون المنزل خادمةً .

(١) هذا المسكان يعدو عدواً : طاب ، كان بعيداً من الماء والوخم .

والنــكاح الذى يقع على ذلك الوجه يَدْخُل دور التجربة ، ولا يُعْترف به إلّا فى الشهر السابع من الحَبَل الأول حين تَمِيس[1] الفتاة فى وليمة فاخرة عارضةً أمام الجميع تَغَيُّرَ قدّها فيَرْبِط زوجها بعنقها شريطاً يُدْعَى بتالى التابر .



٢٢ — كوتاوى (نل غيرى)

والتودا من القائلين بتعدد الزوجات وتعدد الأزواج معاً ، وذلك بأن يتزوج رَهْطٌ من الإخوة رَهْطاً من الأَخَوات ، فيكون لكلٍّ زوجة أزواج إخوة ويكون لكلٍّ زوج زوجات أَخَوات ، فالفتى يكون بذلك قد تَزَوَّج مع زوجته أَخَوات زوجته كلما بَلَغْن مكتفياً بما تعهد بدفعه إلى كُبْراهن من المال ، ويكون لإخوته حق مشاركتــه فى زوجاته الأَخَوات على أن يدفعوا نصيباً مما اتفق على تأديته .

والانتحار بسبب الحبّ ليس من النــادر ، على ما يظهر ، عند أولئك الأقوام الفطريين ، ولا سيما عند البداغا ، مع ما فى نكاحهم وطلاقهم من يُسْرٍ ، أقولُ هذا وأنا أرى ضرورة وضعه على مَحَكّ النقد .

والأولاد يُوَزَّعون بحسب العمر على أزواج أمهم ، فأكبرهم يكون من نصيب

(١) ماس يميس ميساً : مشى وهو يتمايل ويتبختر .

الزوج الرسمىّ ، ويكون الولد الثانى من نصيب عمه الأكبر، ويكون الولد الثالث من نصيب عمه الثانى ، وهكذا .

وتَنْزَع هذه العادات الفطرية إلى الأفول عند التودا ، فالغنىّ منهم يشترى لنفسه زوجةً ، فأضحى أمر تعدد الأزواج من الذكور مقصوراً على طبقاتهم الدنيا .

والأولاد عند وفاة والدهم يقتسمون تَرِكته بالتساوى مع احتفاظ أصغرهم ببيت أبيه على أن يَسْكن فيه نساء الأسرة ويَعُولَهُنّ .

ولا يَعْرِف التودا من مبدأ التملك غيرَ ما يحتفظ به المرء لنفسه من بيت ومتاع ، فالأراضى عندهم مُشاعة ، وهم لا يزرعونها ، بل تكون مراعىَ لمواشيهم ما أعْرَضَ التودىّ عن الفلاحة .

ولا يعرف التودا من أمور الصيد شيئاً ، ولا يحملون سلاحاً لذلك ، ولا يُفَكّرون فى الهجوم ولا فى الدفاع ، ويكتفون بصنع أبواب أكواخهم واطئةً جداً درءاً لما قد يُعرّضون له من الغزو .



٢٣ — رهط من الإيرولا (تل غيرى)

والتودا ، كالبداغا ، يسكنون القُرَى ، مع أن الكوتا والكورومبا يقيمون بخِصَاص(١) حقيرة، ويقطن الإيرولا فى الكُنُس(٢) والاجحار(٣) وتحت الأشجار كالأيائل والظباء .

---

(١) الخصاص : جمع الخص وهو البيت من قصب أو ما إليه — (٢) الكنس : جمع الكناس وهو بيت الظبى — (٣) الأجحار : جمع الجحر وهو المكان الذى تحتفره السباع والهوام لأنفسها

البداغا . ـ لا تجد فى البداغا ما تجده فى التودا من حسن المنظر والأخلاق والكياسة والنُّبل ، فالبداغا أقصرُ قامةً من التودا وأشد سوادَ جلودٍ منهم ، والبداغا ذوو شعور قليلة ولِحًى مَعِرَة(١) وأنوف مُفَلْطَحة(٢) وشِفاهٍ غليظة ، ويتصف البداغا بالمراوغة والقسوة والشُّحّ وتعاطى الأفيون ، ويبدون أكثر الشعوب الخمسة التى تسكن نِل غيرى عدداً ، ويقومون بزراعة تلك المنطقة الغنية من غير أن يمنعهم ذلك من أن يكونوا رُعاةً ، وللبداغا عقائدُ مشابهة لعقائد التودا ، ويرتبطون فى مجموع عباداتهم فى دين البراهمة مع ذلك ، ويُقدِّس البداغا لِنغا ويعبدون شِيوا فى صورة ثَوْر ، وفى نكاح البداغا ما فى نكاح التودا من يُسْرِ العَقْد وفيه ما فى نكاح هؤلاء من التعقيد فى عدد الزوجات والأزواج ، ويتماثل ذانك الشعبان فى الطقوس تقريباً ، ويختلفان ، مع ذلك ، فيما يُدْخِلان إليها ، فى الغالب ، من مظاهر السرور والألم ، ويَشُوب تهانئهما شهيقٌ وزفير ويتخلل رقصَهما نِيَاحَةٌ ونَحِيب ، ويقومون بجنائزهم مع سُكْرٍ وعَرْبَدة .

السكورومبا والسكوتا والإرولا . ـ تختلف هذه القبائل الثلاث عن القبائل المذكورة آنفاً من الناحية الإثنولوجية ، وتتمثل بها قدماء السكان الأصليين ، وتتصف بالضعف وبسواد الجلود وازْبِئْرار(٣) اللِّحَى وخشونتها وصَوَف الشعور وبَرْمها وغِلَظ الشِّفاه واستواء الصدور وطول الذُّرعان وقِصَر السِّيقان ، ووَجَد بعض السياح شَبَهاً عظيماً بين هذه القبائل وسكان أوسترالية الأصليين .

ويسكن السكورومبا أكواخاً كبيرة فى سفح الطَّوْد ، حيث يجتمع عِدَّة أُسَر ، ويخاف البداغا والتودا من السكورومبا المساكين ويزدرونهم فى وقت واحد ، وقد

(١) المعر : القليل الشعر ـ (٢) فلطح الشىء : بسطه وعرضه ـ (٣) ازبأر : انتفش .

يُغمَى على نسوة البداغا والتودا ذُعْراً عند ما يُباغتهن أناس من الكورومبا ، ويُمَدُّ الكورومبا من السَّحَرَة لِما في جيرانهم من السذاجة وسرعة التصديق فيُوسِعُون ضَرْباً أكثر من أن ينالوا نَشَباً[١] .

ويزاول الكورومبا مِهَناً كثيرةً قليلة الإنتاج كالعِرافة والسِّحر والغناء مع الطِّواف ، ويَمْدَح أهل السهل الكورومبا أُجَراء ، ويعرف الكورومبا شيئاً من الفِلاحة ويُثِيرون الأرض بِعِصِيّ مُذَرَّبَة[٢] .

وليس الكوتا بأرقى من الكورومبا كثيراً ، ويعيشون مثلهم عيشَ بُؤْس ، ويعرفون عِدَّة مِهَن ، وتتألف منهم طبقة العمال بين أهالى الجبل ، ولا يقتنى الكوتا بسبب اتِّضاع حِرَفهم ، ويَتَضَوَّرون جوعاً على الدوام ، فلا يشبعون إلا فى رأس كلِّ سنة فيخاطون ما استطاعوا جمعه من القُوت فيلتهمون فى ثمانٍ وأربعين ساعةً ما تحتمله مِعَدهم منه .

ويجىء الإيرولا فى أدنى تلك الدرجات ، ويعيشون فى آجام زِنِل غيرى ويتصفون بجلودهم السُّود وأذرعهم الطويلة وسُوقهم النحيلة وشعورهم الخَشِنة المُتَنَفِّشة وظهورهم الحَدِبة ، ويَتَنَفَّسون من هواء منطقة ترانى الوخيم النَّجِس الذى مَرَنوه[٣] فأصبح ضروريّاً طبيّاً لديهم ، فإذا ما غادروا ملاجئهم العَفِنة حيناً وتَنَشَّقوا نِسام[٤] التلال والسهول الصافية وهَنُوا وماتوا .

والمتوحشون المحيطون بالإيرولا يزدرونهم زاعمين أنهم يعيشون مع الأنمار وأن أولادهم يَشِبُّون فى حَيْض بَيْض بين صغار السباع .

---

(١) النشب : المال – (٢) مذربة : ذات حد – (٣) مرن الشىء : اعتاده وداومه –
(٤) نسام : جمع نسيم .

والايرولا فضيلة واحدة ، وهى سلامة الطَّوِيَّة ، فمن المحتمل أنهم لم يبلغوا من الذكاء ما يقدرون به على الكذب ، فما يقولونه من كلام مجرد أصـدق مما يقوله البراهمة مع اليمين المؤكدة .



٢٤ ــ أمثلة من أهل الكجرات

وصناعة الخيْزُران هى كل ما يعرفه الايرولا من المِهَن ، ويتألف غذاؤهم ، على الخصوص ، من الجذور والفواكه والحبوب البرية .

٦ – سكان جنوب الهند الوحوش

تشتمل جبال أنامالا القائمةُ في جنوب جبال نِل غيري على قبائل وحشية مماثلة لتلك مع استثناء التودا كما ذكرنا آنفاً .

والكادر هم سكان جبال أنامالا الذين يمارسون الصيد ، ويزعُم الكادر أنهم أمراء الجبال ، ويَرَوْن من السُّبَّة أن يزرعوا الأراضيَ ، وتُرِك أمر الزراعة إلى الملسار ، ويقوم الباليار بالرَّعْي والتجارة ، ويُرْخِي الباليار هؤلاء شعورَهم الكثيفة النافرة فتصِل إلى كُلَاهم فيكتسبون بذلك منظراً وحشياً ، ويرى علماء وصف الإنسان إلصاقَ هذه العروق بزنوج جزائر الملايو .

ولا تزال توجد جماعاتٌ وحشية من سلالة قدماء الدراويد في جنوب الهند ، فهي تشابه الشعوب التي وصفناها فيما تقدم بمنظرها وعاداتها وأعمالها ودياناتها الوثنية وعبادة الأرواح ، وإليك قولًا موجزاً عن هذه الجماعات .

الجُنَار ، ويقيمون بأقصى جنوب الهند وبجنوب تراون كور ورأسِ كُماري ، ويبلغ عددهم ٥٠٠٠٠٠ ، ويَدِين من هؤلاء مئةُ ألف فقط بالنصرانية ، ويعبدُ الباقون أرواح الأموات ، ويرى الناظر إلى مداخل قُرَاهم أهراماً صغيرة يَضَعون عليها نُذُوراً من فواكهَ وحبوب وأزهار لتَجْلِب إليهم حماية الملائكة ، ويتعاطى الجنار زراعة النخيل وحدَها ، وتقوم النخيل بجميع احتياجاتهم على ما في استغلالها من عُسْرٍ ونَصَب ، ويتكلم الجُنار بلغة التمول كجيرانهم الإيلاوا الذين لا يختلفون عنهم في شيء .

الـكانيكهار ، ويسكنون أعالى جبـال أليغرى التى تمطُّ إلى الجنوب طَوْدَ أنّاملا ، ويُنْشِئون مساكنهم الخفيفة بين أغصان الأشجار حفظاً لهم من الضوارى ، ويجهلون نظام التملك ، وأموالُهم مُشاعة ، وقد انتقلوا ، مع ذلك ، من نظام تعـدد الأزواج من الذكور إلى نظام الاقتصار على زوجة واحـدة الذى لا تجِده عند هَمَج الهند إلا قليلًا .

النياديش ، ويسكن بعضهم حول كالى كت ، ويقيم بعضهم الآخر بجوار بحيرة بولى كت ، ويَبْدُون أشدَّ وحوش جنوب الهند بُؤْساً ، ولم يزالوا ، إلى وقت قريب جداً ، يُوقِدون النار بدَلْك غصنين يابسين أحدهما بالآخر .

الـكولر ، ويسكنون مناطق كوِيْم بتور ومَدُورا الجبلية ، ولم يقلعوا عن العادات المُضَرِّجة إلّا منـذ زمن قصير ، فـكان الواحد منهم ، إذا أراد أن يَجْلِب النَّحْس والتَّعْس إلى عدوِّه يذهب بأحد أولاده ليذبحه على عَتَبَته .

٧ — سكان الولايات الوسطى أوغوندوانا

فَرَغْنا من وصفنا المختصر لعروق جنوب الهند ، فنرى أن نَصْعَد فى شمال الدَّكَن وننظر إلى جبـال غوندوانا الواقعة فى وسط الهند والتى لم تُرْتَدْ حتى اليوم ، فتشتمل على حَفَدَة قدماء السكان حافظةً لهم من مغازى الأجنبى بهضابها المنيعة وفِجاجها العميقـة .

ويُقْصَد بغوندوانا المنطقة الجبلية التى هى أعلى مناطق الهند ، وتفصِل غوندوانا منطقة الهند الغَنْجِية أو الهندوستان عن الهند الجنوبية أى الدَّكَن ، وتبدو غوندوانا مُمْسِكَةً ، بجوِّها وحيوانها ونباتها ، ذينك القطرين المعترضة بينهما ، وعنـد سفوح

غوندوانا وقَفت المغازى المتوالية فلم تَستَطع اجتيابَها بغير الدَّوْر حولها، ومن شِعاف[1] غوندوانا تَتَصَبَّب إلى جميع الجهات : إلى الغَنْج و إلى خليج البنغال و إلى بحر عُمَان ، أنهارٌ وروافدُ تَختلِط منابعَها فى أعاليها الحافلة بالأسرار .

ولا تنطبق كلة « المنيعة » تلك على الأمر الواقع منـذ عشرين سنة ، ولـكنّ مدةً قصيرة كهذه وما تمّ فى أثنائها من المعجزات بفعل مبتكرات العلم الحديث ليس مما يُحسَبُ عندما نبحث فى عروق الهنـد وفى الحال التى انتهت إليها تبعاً لسنة النشوء وتأثير مختلف البيئات .

حقاً أن عادة القرابين البشرية ، مثلًا ، غابت من غير ناحية بأمر الإنـكليز ، وحقاً أن احتياجات الشُّرَطىِّ الإنـكليزى أحَلَّت نسائجَ مانچستر القطنية محـلَّ الأضفاث[2] التى ظلَّت لِباس فريق من الأهالى منذ قرون ، وحقاً أن الخطَّ الحديدىَّ الذى يَصِل بَمْبِى بكلـكته يسير موازياً لنهر نَرْبَدا الذى يَحُدّ الولايات الوسـطى فى الشمال ، وحقاً أن خطاً حديدياً آخر يَمُرُّ من ناغپور ويقطع مِنطقة الغوند ، وحقاً أن من المحتمل ألا يبقى بعـدَ نصف قرن شىء من الطبائع والعـادات والمعتقدات التى دامت فى وسط الهند ألوف السنين ، بَيْدَ أن ساعة زوال هذه الأمور ، التى دنا وقت إبطالها ، لم تَدُقّ بَعْدُ ، فيمكن ، والحالة هـذه ، درس أحوال أهل غوندوانا الفطرية كما هى اليوم فى البِقاع الكثيرة الغاب الوبيلة ، مادام أهل السهول والهِضاب يَتَهنّدون بسرعة .

ويبلغ الغوند ، الذين اشْتُقّ اسم غوندوانا من اسمهم ، عِدّةَ ملايين ، غير أنه لم يبق منهم سوى مليون ونصف مليون فى طور الوحشية المطلقة .

---

(١) الشعاف : جمع الشعفة وهى رأس الجبل — (٢) أضفاث : جمع ضغث وهو قبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه فى بعض .

ولا تجد من منطقة غوندوانا التى غزتها الحضارة أثراً للهمجيــة فى غير قسمها الجنوبى الشرقىّ المتّجه إلى منابع رافدَىْ غوداورى : برنهيتا و إندرَاوَتى ، وفى غير قسمها المتّجه إلى الشمال الشرقى حيث جبال أمَركَن تك والجبال التى بجانب مجرى نهر نَرْبَدَا الأعلى .

تسمع عن تلك الأصقاع التى لم تُرَدْ(١) حتى الآن ما تجده فى كتب الآريين من الأساطير حول جبال الهند الوسطى ، فيصفها هندوس السهول بأنها غاباتٌ مملوءة بالدَّوح(٢) المُظلَّة لأبْخِرَةٍ و بيئة قاتلة و بأنه يسكنها حيواناتٌ مفترسة ذوات قاماتٍ عظيمة وقُرُودٌ كريهة محاكية للإنسان، فبمثل هذا تصوَّر قدماء غُزَاة الهندالهِضابَ الواسعة التى دحروا إليها سكان البلاد الأصليين المغلوبين من غير أن يَجْرُؤُوا على دخولها .

والمراتها هم أول من اقتحموا غوندوانا ، وكان ذلك فى القرن الثـامن عشر ، فبسطوا سلطانهم غير الفَعَّال عليها ، وفى زماننا أسفرت جهود الإنـكليز عن فتح أبوابها وعن تَعَقُّب الهمجية القطرية فى ملاجئها المخيفة .

و يُرَدُّ الآدميون ، الذين التجأوا إلى غوندوانا والذين يُدْحَرون إليها بين حين وآخر ، إلى ثلاث جماعات أساسية : البهيل والـكول والغوند ، وهؤلاء الغوند هم الأكثر عَدَداً والأقدم إقامةً ، فأطلقوا اسمهم على ذلك القطر .

والبهيلُ ، وهم من الدراويد ، قد درسنا أمرهم فى فصل آخر ، ولا يسكن

---

(١) راد الأرض يرودها روداً ورياداً : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح النزول فيها — (٢) الدوح : جمع الدوحة وهى الشجرة العظيمة المتسعة .

غوندوانا غير ٢٠٠٠٠ شخص منهم مع ذلك ، ومقرُّ البهيل الدراويد الحقيقيُّ هو فى الشمال والغرب مع ذلك .

والكولُ ، وقد عادوا لا يكونون من الدراويد ، لا يسكن غوندوانا منهم غير ٤٠٠٠٠ تقريباً ، ويَنْتشرون ، على الخصوص ، فى جهوتاناغپور وفى ساحل أوريسة وفى البنغال حيث لاقيناهم ، ومن قبائلهم القاطنة فى غوندوانا الكوركو المقيمون بأودية مهاديو والكوندُ الذين لا يجوز خلطهم بالغوند .

ونحن ، إذ نُخَصِّص مطلباً آخر للبحث فى أمر الكول المقيمين بجهوتاناغپور وفى أمر سكانها الآخرين، ندرس الآن حال الغوند الذين هم أساس سكان غوندوانا والذين هم أهمُّ سكان الهند الأصليين أوصافاً وعدداً

إذا لم يكن الغوند عرقاً أصلياً من عروق الهند فإنهم يُصَنَّفون ، على الأقل ، بين قدماء الدراويد الذين هم أقرب الناس إلى المثال الزِّنْجيّ الفطرىّ ، وللغوند أدنى درجةٍ فى سُلَّم العروق لشَنَعهم وقِصَرهم وسوادهم ، وللغوند ، مع ذلك ، أعضاء عَضِلَةٌ قوية ، والغوندُ يختلفون بهذا عن بعض وحوش نِل غيرى ذوى المظهر الناقص الضعيف وعن الهندوسىّ ذى المنظر القَضِيف[١] ، ووجوه الغوند مستوية ، وأنوفهم قصيرة ، وشِفاههم غليظة ، وعيونهم صغيرة أُفْقِيَّة ، وشعورهم سُود خَشِنَة لامعة مُسَدَّلَة خُصَلاً وضَفَائِر على جوانب وجوههم ، وتتألف ثيابهم من رُبُط يجعلونها حول كُلاهم ومن رُبُط أخرى يجعلونها حول رؤوسهم ، وتتألف ثياب نسائهم من نُسُج ساترة لأوْرَا كِهِنَّ صاعِدةٍ إلى عواتقهنّ شاملةٍ لأنصافهن الفوقانية، ولا يزال يُرَى أناس من زُمَر غوندية متفرقة يقتصرون على نُطُق من ورق الشجر

(١) قضف الرجل يقضف : نحف ودق .

كما فى غابر الأزمان ، وفى الغالب تَهُبُّ ريح الشمال الشرقىّ على تلك الهضاب بشدّة فلا تكفى ثياب الغوند لرَدّ عادية هواء المساء والصباح فيُوقِدون نيراناً عظيمة ليَتَدَفَّأوا حولها ، ومما يَسْتَحى الغوند منه أن يُضِيفوا شيئاً إلى تلك الثياب التقليدية ، فالغوند على النقيض منا فى النظر إلى عوامل الأدب والحشمة .

وأسلحة الغوند بسيطة جداً ، ولا يعرف الكثيرون منهم القوْس ولا السّهْم ، وبالفؤوس التى يحملونها على الدوام يُصْمُون[1] الصَّيْدَ ، ويَصْرَعون العدوّ ويقطعون النبات المُعَرَّش الذى يعوق سيرهم فى الغاب ، ويجندلون ما يطاردونه من الأُنْمُر فى عراتنها .

وإذا كان الغوند يزدرون التسربل والتسلح فإنهم يُزَيِّنون أجسامهم ووجوههم بالحُلِىّ الثقيلة وبضروب الوَشْم الفَنِّىّ ، وتُحِبّ نساؤهم الأساور والخُرْصان[2] المصنوعة من الحديد فيُثْقِلْن بها ذُرْعَانَهُنّ وسيقانَهُنّ ، ويُزَوِّقْن خدودهن وأفخاذهن بنقوش وتصاوير ، وهنّ دون رجالهن قُبْحَ منظر ويَسْكُنّ على قليل من المَلاحة فى بعض الأحيان .

ويعرف الغوند فَلْح الأرض ، ولكن بغير إتقان ، شأنهم فى كلّ صناعة ، فإذا مااختار الغوند أرضاً صالحة قطعوا أشجارها الساترة لها ، وأشجارُ الغاب (السال والمهووا والبانيان) فى منطقة الغوند تَطْغَى وتنتشر فى كلّ مكان بالقوة التى تنمو بها أشجار البلاد الحارة ، ثم حَرَقوها فى محالّها ثم بَذَروا الحبوب فيها ، وفى الغالب يَضَع الغوند الحبوب أكداساً أكداساً فى مكان مرتفع من الحقل تاركين للريح والمطر

---

(١) أصمى الصيد : رماه فقتله مكانه وهو يراه — (٢) الخرصان : جمع الخرص وهو حلقة الذهب أو الفضة وغيرهما .

أمر نثرها عليه ، ثم يُقيم الغوند بعُرُش منتظرين وقت الحصاد .

والغوند يَسْتَغِلّون الأرض مرتين أو ثلاث مرات ، فإذا فَقَدَت خِصْبها بحثوا عن أرضٍ أخرى ليُحْيوها ويزرعوها ناقلين إليها مساكنهم مُبَدِّلين أماكن إقامتهم مرةً في كل سنتين أو ثلاث سنين .

ولو اقتصرت معايش الغوند على ما تنتجه أراضيهم لوَقَعوا في بؤسٍ شـديد ما دامت آلاتهم الزراعيـة ناقصةً وفنونُ فِلاحتهم ضعيفةً ، ولـكن مِنطقتهم الغنية تَمُنّ عليهم من مصادر العيش الشيء الوافر ، فمـا أكثر ما أنْقذوا من المجاعة بفضل ما عندهم من أثمار أشجار المَنْغَة والسال والبانيان والعُنّاب وأزهار المَهُوَا ، ومن هذه الأزهار النافعة يَسْتَخْرِج الغوند عصيراً متخمراً يسكرون منـه في الأعياد فضلاً عن استفادتهم من موادّها الغذائية ، ويغتذي الغوند أيضاً بما في غابهم من الطرائد التي تُفَرِّخ بكثْرةٍ وبالأسماك التي توجد في مجاريهم بوَفْرة .

والغوندُ ليسوا بمحاربين مع أنهم غيرُ جُبَناء ، والغوندُ ، على ما ليس فيهم ما في البهيل من غرائز الشرّ والاعتـداء والتخريب ، هم ، مثلُ هؤلاء ، لصوص ، ومَنْ أتيح لهم من الغوند أن يعيشوا في السهل حيث الحضارة لم يَرَوْا أن من غير الطبيعي أن يسرقوا ما يقع تحت أيديهم من أموال الهنـدوس أو الإنـكليز النازلين بين ظَهْرَانَيْهم ، ويَمقت الغوند الـكَذِب مع ذلك ، ويمتازون بهـذا الخُلُق ، كما يمتاز جميع وحوش الهند ، من الهندوس الذين أضحى زُورُهم مَضْرِبَ الأمثال .

والغوندُ في منـازلهم مُحِبّون للقِرَى ذوو دَعَةٍ ، والغوندُ ليسوا قُساةً ما لم تُثَرْ حَمِيَّتهم الدينية أو ما لم يُهَيَّجوا بعد أن يَسْكَروا ، فهم يَنْقَضّون إذْ ذاك على قُربانهم ليُمَزّقوه بأسنانهم وأظافرهم إرْباً إرْباً ، وقلما يكون مثل هـذا القربان من البشر في

أيامنا الحاضرة ، ومن المحتمل أن يبقى أثرٌ للقرابين البشرية فى بلاد الغوند ما تفلّتت آجامٌ منيعة وهضاب وعِرَةٌ وأوْدية وبيئــة من رَقابة الشُّرْطِيّ الإنكليزيّ ، ولا تغيب الطقوس المُضَرَّجَة إلا حيث يتّصِل الغوندُ بالأوربيين .

وفى الزمن الحــالىّ استُبْدِلت مَجادِيرُ[١] الصَّفْصاف أو دُمَى التراب أو الأزهار أو الأثمار بالعُجُول أو المَعْز أو الفَراريج كقرابينَ إلى الآلهة ، وعادت المذابح القائمة فى إطار من حجر فى أسفل الأشجار المقدسة لا تُحَمَّرُ بغير طِلاء رمزاً إلى ما كان يُراق فيها من الدم .

وإلى العفاريت والأرواح الشِّرِّيرة ، على الخصوص ، يُقَــدِّم الغوند النُّذُور الرمزية أو القرابين ، فالإيمــان بالأرواح الشِّرِّيرة أمرٌ عام بين سكان بلاد الهند الأصليين ، ومما يعتقده هؤلاء السكان أن الجنّ يطوفون فى الليل حول القُرَى بقصد الإضرار ، فيجب أن يَجِدوا فى المذبح ماء ليُطْفِئوا غليلهم ، وفوا كهَ ليقتلوا جوعهم ، ودماً ليَشْفُوا حُرْقتهم أو لوناً أحمرَ مشؤوماً ليتمّ به خِداعهم ، وأوتاداً مغروزة فى الأرض ليَضَعوا عليها أقدامهم الخفيــة ما حُظِر عليهم مسُّ الأرض وما طافوا مغاضبين بغير ذلك .

والأرواح التى تخافها شعوب الهند الفطرية فتَعْبُدها هى أرواح المَوْتَى ، ولا سيما التى نُزِعَت من الأجسام بخاتمة فاجعة ، فإذا مات واحد منها قَعْصاً[٢] ، ولو طَوْعاً ، افتُرِض أن روحه التى نُكِّل بها تعود لتطوف فى الأماكن التى خَرَجت فيها وَعُزِي

(١) المجادير : جمع المجدار وهو ما ينصب فى الزرع لطرد الطير والوحش — (٢) قعصه يقعصه قعصاً : قتله مكانه ، أجهز عليه .

إليها من فعل الشر ما يجب دفعه بالتعزيم(١) وتقريب القرابين ، وأرواح النسوة اللاتى يتوفين فى النفاس أصعب الأرواح مراساً(٢) .

وإذا مات غريب بين الغوند أقاموا له عبادة خاصة كما يقيمون للقريب ، ومن هذا أن قائد المئة بول مات مثخناً بالجراح فى قتال قام به ليصل إلى مدراس بجوب غوندوانا ، فهال ذلك السكان الذين خر بينهم قتيلاً لاعتقادهم أن روحه الغاضبة الساخطة ستختلف إلى منازلهم ، فأقاموا له هيا كل وقدموا ما يستميلونه به من الأدعية والقرابين .

وليست أرواح الموتى وحدها هى ما يعبده الغوند ، فكل شىء إله عندهم ، فقوى الطبيعة وآفاتها ، مثلاً ، مما يعبدونه ، فهم يرون أن على رأس كل آفة عفريت لا بد من إجادة عبادته إذا أريد درء ما يحمله من الشرور ، وهم يرون تقديس الهيضة(٣) والجدرى وحمى الآجام والضرع إليها بغية دفع عواديها .

والإله الذى يحتل ، مع الشمس النافعة أو الضارة والأرض الخصيبة أو الجديبة ، أسمى مقام بين آلهة الهند الوسطى هو الإله القادر على كل شىء الذى تصفر الوجوه حين يذكر ، وتجف(٤) القلوب حين يزمجر ، أكال البشر ، الإله النمر .

والنمر عند ما يتذوق لحم الإنسان فيروقه فيلقى الرعب فى إحدى البقاع ، تنصب له الهيا كل ، ثم يختلط العفريت الذى يغريه ويحرضه بأرواح ضحاياه فتشتد عزيمته بعددها فيكون لها من الحماسة مثل ما له ما أضيف غضبها إلى غضبه ، فيصبح أمر تسكينها ضربة لازب ، فيجلب فى الغالب كاهن ذو شهرة من قبيلة

(١) عزم يعزم تعزيماً : قرأ العزائم — (٢) المراس : الشدة والقوة — (٣) الهيضة : انطلاق البطن وهو المعروف بالكوليرا — (٤) وجف القلب يجف وجفاً : خفق .

البايغاس على العموم ، فيقرأ هذا الـكاهن المزأتم داعياً إليه تلك الأرواحَ المتقمصة للنَّمْر والدافعةَ له على الصَّوْلَة والشِّرَة فيصيب الـكاهنَ نوعٌ من الذهول والوَلَه بفعل الرُّقْية والدروشة فيُخَيَّل إليه أن ضَرَاوَة النَّمْر قد انتقلت إليـه فَيَنقَضُّ على جَدْيٍ حَيٍّ يُقَدَّم إليه فيخنُقه بأسنانه ويُمَزِّق لحمه ويدسُّ رأسه فى جوفه الداخن ثم يرفعه فيرى القوم وجهه المُضَرَّج بالدم فيرفعون أصواتهم مستبشرين مسرورين .

وتُؤَلِّه شعوب الهند الفطرية ، ولا سيما الغوند ، الأفاعيَ (القبرا على الخصوص) مثلما تُؤَلِّه تلك الآفات ، فيَدَعها كثير من أبناء هذه الشعوب التُّعَساء تَلْدَغهم من غير أن يقتلوها ، وعبادة الدراويد للأفاعى أسفرت عن تسمية الآريين لهم بالناغا .

وفى الهند ، حيث يقوم بعض الأديان بجانب بعض من غـير اصطراع وحيث يقتبس بعضها من بعض عقائدَ ورموزاً وطقوساً ، لا يقتصر اعتقاد الأرواح وتقديس الأفاعى والأنمار على الأقوام الفطريين ، بل سَرَت عَدْوَى بعض ذلك إلى البراهمة وقليلٍ من ذلك إلى المسلمين ، فأضحى الصِّلُّ[1] من خصائص عظيم الأرباب عنـد الهندوس ، فتُتَّخَذ مَطَاوِيه الرائعـة أداةَ زينة فى المبانى وينتصب رأسه ذو الحدقتين الشاخصتين متوعداً بجانب رأس وِشْنو .

ولا عهد للغوند بنظام الطوائف ، ويُقَسَّمون إلى قبائل متزاوجـة ، فمن سِفاح ذوى القرابة أن يقترن رجلٌ بامرأةٍ من قبيلته ، ويؤدى قِران مثل هـذا إلى القتل أحياناً ، وعادة خطف الخاطب للفتاة خطفاً صُورِيًّا أو حقيقياً شائعـةٌ شيوعاً مُنَظَّماً عند أولئك القوم ، وفى الغالب يدافع عن الزوجة من يرافقها مع ضحك تجاه أصحاب الزوج ، فيتِمّ الغَلَب لهؤلاء الأصحاب بحكم الطبيعة فيسيرون بالأسـيرة حاملين إياها

(١) الصل : الحية الخبيثة جداً .

على أكتافهم فاكهين ، ومما يحدث عند سكان الهند الوسطى القطريين ، أحياناً ، أن يتكرر الخطف بعد الزواج ، وذلك وقتما تُغادِر الفتاةُ بيت زوجها إلى بيت أبيها بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك باكيةً بكاءً مصنوعاً مُعْرِبة عن عزمها على عدم تركه .

والغونديُّ ، على العموم ، يشترى لابنه امرأة قبل أن يبلغ سِنَّ الزواج بها ، فيختارها قويةً صليمة ليتخذها ، في الغالب ، خادمةً وخليلة ، إلى أن يُلِحّ الزوج الحقيقيُّ في طلبها ، فإذا عَدَوْت هذه العادةَ وجدتَ الغونديَّ من المقتصرين على زوجة واحدة ، والزوجة عند الغوند ، إذ تكون ، على الدوام ، أكبر من بعلها سناً فإنها تتمتع بنفوذ عظيم في أمور المنزل .

ونظام الغوند السياسيّ بسيطٌ جداً ، فيدير شؤون كل عشيرة منهم رئيسٌ خاضع ، على العموم ، لِما يقضى به شيوخها المجتمعون ، ولكلِّ رجلٍ غونديٍّ صوتٌ في الحكومة ، ويكون الرئيس في الغالب سليل الراجپوت ، ويُسَرَّح بعض ممثلى الراجپوت عند كل حرب بين الغوند الذين لا يَنْشَبُون أن ينالوا عندهم شيئاً من النفوذ .



٢٥ ـ راقصة من جنوب الهند

٨ — سكان أمَركن تك وچهوتاناغپور وأوريسة ، الخ

يقوم فى شمال جبال الهند الوسطى الشرقى طَوْدُ أمَركن تك ، فهذا الطَّوْد هو أعلى تلك الجبـال ، ويُعَدُّ عُقْدَة ، تلك المنطقة الجبلية ، وهو أقلُّها رَوْداً[١] ، وغابُه أشدّ من غابها امتناعاً ، وآجامه أكثر من آجامها ضوارىَ ، وحُمّياتُ أوديته أعظم من حُمّيات أوديتها خطراً ، وسكانُه أظهر من سكانها همجيةً واقترابًا من الحيوان واحتمالاً للجوّ القاتل والطعام الجَشِيب[٢] .



٢٦ — ثلاثة وحوش من چهوتا ناغپور

ويَقِف كل وصف عند الحدّ الذى وَقَف عنده الغُزَاة المتمدنون ، فما قيل عن معايش أهل تلك المنطقة الوحشية ليس إلاّ فَرَضِيَّات ، فهندوس السهل يُشَبِّهونهم بالقرود ويخشونهم كأنهم من الجنّ الأشرار ، ومن الأساطير ما هو خاصٌّ بغاب تلك المنطقة البعيدة الغَوْر وفجاجها الكثيبة التى لا تخلو من حَفَدَة أقدم عروق الهند البائسين .

ويتألف من چهوتاناغپور منطقة متوسطةٌ بين هَضْبة الولايات الوسطى والسهول المجاورة لمصبّ نهر الغَنْج ، وتشتمل تلك المنطقة ، المائلة إلى الجنوب الشرقى والمتوجهة

(١) راد الأرض يرودها رودا : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للنزول فيها —
(٢) الجشيب من الطعام : الغليظ الخشن .

إلى خليج البنغــال ، على وادى مَهانَدى ووادى برهمَنى الأعليَيْن ، وتجرى من منحدَراتها الشمالية الغربية روافد سون ، ويُعَدُّ معظمها من ولاية البنغال .

وجهوتاناغپور منطقه انتقال من الناحية الإثنولوجية والناحية الجغرافية ، فالمرء إذا ما نَزَل من أعاليها وتوجّه إلى أوْدهة ، حيث يعيش أجمل العروق الآرية بالهند كما ذكرنا ، وَجَدَ بالتتابع أمثلةَ جميع ما فى الهنــد من العروق المترجحة بين قِباح وثني الزنوج وشُمَّخ البراهمة .

ويسكن جهوتاناغپور قبائلُ من سكان البــلاد الأصليين على الخصوص ، فهذه القبائل ، وإن ظلَّت وحشيةً فى الجبال ، تَتَهَنَّد فى السهول بالتــدريج ، وهنا نُنَبِّه القارىء إلى أن ما نَصِفها به ينطبق على حالها الفطرية الأولى التى قد تشاهَد اليوم فى أقاصى تلك المنطقة وفى أراضيها المنيعة قياساً على ما فعلناه فى أمر الغوند .

ونحن ، حين نُضيف إلى جهوتاناغپور سلسلةَ جبال وِندهيا ومعظمَ شبه جزيرة الـكجرات تبدو لنا بلادٌ ممتدة من بحر إلى بحر قاطعةٌ لوسط الهند ، فهــذه البلاد المستطيلة هى مقرُّ العروق الـكولية التى تُعَدّ ثالثةَ الجماعات الهندية فتأتى بعد الجماعة التورانية الآرية ، أو الهندوس البراهمة ، التى هى الأولى منها والجماعةِ الدراويدية التى هى ثانيتُها .

واختلافُ اللغات بين تلك العروق ، ولا سيما بين الدراويد والـكول ، هو سبب ذلك التقسيم الثلاثى ما كان الدراويدُ والـكول من الشعوب الفطرية التى توالدت هى والغزاةُ بعضَ التوالد وما تماثل الدراويد والـكول طبائعَ وصُوَراً ، ويشابه الـكولُ البهيلَ الذين يقطنون معهم فى الأراضى التى تغشى جبالَ وِندهيا ، بيد أن الـكول المقيمين بجهوتا ناغپور يقتربون من البهيل ذوى المثــال المغولىِّ مع أن دم الراجپوت

يجرى فى شرايين الكول المقيمين بالكجرات ، وقد تكلمنا فى فصل سابق عن هؤلاء الكول القاطنين فى المنطقة الغربيـة والذين يَعُدُّهم البراهمة من الشودرا فيُسْتخدمون فى المدن للقيام بأشقّ الأعمال ، فأُطلق اسم الواحـد منهم (القُلى) فى المستعمرات الإنكليزية وأمريكة على العمال والعتّالة والمُكارين .

و يُعَدُّ الكول الشرقيون من زمرة المنبوذين لا من طبقة الشودرا ، ولم يخرج أكثرهم من دور الهمجية الأولى ، وعن هؤلاء قلنا إنهم يُذَكِّروننا بالمثال المغولىّ ، فهم ، بالحقيقـة ، ذوو وجوه مثلثة الأضلاع ولِحًى مَعِرَة[1] وعيون صغيرة مزمومة أفقية وشفاه غليظة ووَجَنات ناتئة وأنوف قصيرة وألوان مُتَرَجِّحَة بين الصُّفْرة والسواد وقامات قصيرة مربوعة ضليعة ، ويتكلمون بلَهَجات مُفَرَّعَة من اللغة الكولية التى يتميزون بها من شعوب الهند الفطرية الأخرى ، ويجاوز الكول مِنْطَقَتهم المستطيلة إلى وادى الغَنْج حيث لاقيناهم .

و يسكن الساتهالُ والمليرُ الجبالَ الواقعة بين بهار والبنغال ، فيُعَدُّون من الأَرُومَة الكوليـة بالحقيقة ، ومما قلناه إن لغة الساتهال تُمَثِّل دور اللغة الأمّ بين اللَّهَجات الكولية كما هو شأن السنسكرت فى اللغات الهندية الأوربية .

وكان الكولُ جميعهم يُسَمَّوْن باسم سوارا العامّ الذى ورد ذكره فى كتب الهندوس غيرَ مرة ، ورأى بعض العلماء أن هـذا الاسم مشتقٌ من الكلمة الشيثية « سغارى » التى تَعْنى « الفأس » ، والواقع يُؤَيِّد هذا الرأى ما كانت الفأسُ سلاحَ الكول والغوند المُفَضَّلَة وما ظَلَّت ، فى بعض الأحيان ، عُدَّتَهم الوحيـدة ، فالحقُّ أنك لا ترى شخصاً من أهل جهوتاناغپور أو أهل غوندوانا الأصليين لا يحمِل بيده

(١) معرة : قليلة الشعر .

فأساً إذا ماابتعد قليلاً عن منزله ، ولا غَرْوَ ، فلا غُنْيَةَ له عن هذه الآلة فى فتح طريق له وسط الآجام وفى الهجوم على الأثمار .

و بعضُ القبائل الكثيرة التى تسكن چهوتاناغپور وساحل أوريسة فى الشرق ما هو كولىٌّ خالص و بعضُها ما هو ممزوج بالعنصر الدراويدى الحديث والقديم ، و بين هذه القبائل فروقٌ غير واضحة تماماً لعدم وجود أمثلة بَيِّنَةٍ لها على الدوام ، وتُدْعَى تانك الجماعتان بالأوراوْن والمُنْدَا ، فأما المُنْدَا فيشابهون المغول كثيراً ، وأما الأوراوْن فمن الزنوج الذين يبدو مثالُهم أقربَ إلى القرود منه إلى البشر .

ومن أهمّ الأهالى الذين يسكنون وادى برهمَنِى ووادى مَهانَدِى الأَدْنَيَيْن وقسماً من ساحل أوريسة نذكر السكوند الذين يجب التفريق بينهم و بين الغوند المقيمين بغوندوانا ، وعلى ما بين تلك الشعوب من صِلَة كما بين جميع القطريين يتألف منها جماعتان مختلفتان .

وتلك الشعوب ، إذ كانت ذوات عادات متماثلة يَدْنُون بها من إخوانهم سكان الولايات الوسطى الذين وصفناهم آنفاً ، نوجز أمرها بما يأتى :

تقوم دِيانتها ، كما تقوم دِيانة الغوند ، على عبادة الشمس والأرض وقُوَى الطبيعة والخوفِ من أرواح الموتى وتقديس الضوارى والآفات التى يُعَرَّضون لها ، على الدوام ، تقديساً ممزوجاً بالهَوْل ، وترى فى الأعاصير والمجاعات والأو بئة والجفاف مظاهرَ لقُوًى هائجة يجب التوسل إليها بقراءة العزائم وتسكينُها واستعطافها بالقرابين ، فمُدَّت الدموعُ ودماء الضحايا البشرية طويلَ زمنٍ نَدًى سحرياً لا بدَّ للأرض منه لكى يَتَّسع صدرها فتصبحَ خصيبة ، واليوم يزول هذا الاعتقاد بالتدريج ، وصارت الأنعام، أيضاً ، لاتُذْبح ، فتُستبدل بها فى المذابح صورٌ خزفية وفواكهُ وأزهار و يستبدل

بدمائها دَهْنٌ أحمرُ تُرَشُّ به الحجارةُ المصفوفة على شكل دائرة أو الأهرامُ الصغيرة التى تعلوها أو الأوتادُ المُثبَّتَة فى الأرض .

ولما حاول الإنكليز أن يحملوا ، بالاقناع والتهديد ، الكولَ السُّذَّج على نَبْذ عادة تقريب القرابين البشرية رَضِى هؤلاء بذلك على أن يحتمل الأوربيون تَبِعَة هذ الإلحاد تجاه الآلهة ، ولا شىء أفظع من القيام بمثل هذه الشعائر ، فكان الجمهور يقطع الضحية إرْباً إرْباً عند ذبح الكاهن المُقَرِّب لها اتِّباعاً للاعتقاد القائل إن كلَّ قطعة من اللحم الخافق تميمةٌ قادرة ، فمن يأخذها فيدفنها فى ناحية من حقله وهى دامية سخينة ينَل البركات من السماء لِأمَدٍ بعيد ، فبهذا الثمن يزول غضب الإلاهة تارى أى الأرضِ الساخطة .

وكان يُتَخَطَّف صِبْيَةٌ من الغرباء والأيتام ويُؤتَى بهم إلى الكول ليُرَبَّوْا فيكونوا ضحايا المستقبل ، وكان يقوم بذلك الاصطياد قَهارِمة[1] فيبيعون مايتصيدون بثمن عال ، فإذا لم يَجِد هؤلاء القهارمة ما يصطادونه اشْتَرَوْا صِبْيَةً من آبائهم الفقراء أو الطُّمَعاء ليَشْرُوهم بربح فيُثْرُون بذلك لعدم المَكْس ، فكلما كانت الضحيةُ غاليةً كانت مقبولةً لدى الأرض والشمس والجنّ الذين يثيرون أمواج البحر فيُلْقونها فى الحقول زوابعَ وعواصفَ .

ويدير شؤون كلِّ قبيلة من الكول رئيس خاضع ، على الدوام ، للأهالى المجتمعين ، وتُسْفِر هذه الاجتماعات ، فى الغالب ، عن دعوة منطقةٍ بأسرها ، لا قريةٍ واحدة ، إلى العمل بأحد الأمور ، وتشعُر الشعوب الكولية بأنها أمة واحدة ، ويذكر الكول أنهم كانوا سادة الأرض ، وفى أساطيرهم ، كما فى الشواهد الغريبة ، ما يدلّ

---

(١) قهارمة : جمع قهرمان وهو الوكيل .

على أنهم كانوا أمة ذات حكومة مُنَظَّمة ، ومن قبائلهم قبيلةُ البهومية التي يعني اسمها « أبناء الأرض » ، أو أهل البلاد الأصليين ، ويعلم الكول أنهم حَفَدة أمة قديمة إلى الغاية ، وليس الكول من البأس ما يقدرون به على القتال فتراهم لا يبالون بالحِيَل وصولاً إلى الإثراء على حساب من يَسْرِقونهم ، فالكولُ جميعهم لصوص أجْرِثاء[١] فُخُرٌ بما يقترفون من اللّصّ ، فيقولون : « لا نعمل غيرَ استرداد ما تَمَلّكه فَسَرق منا فيما سلف » ، ومن التناقض العجيب أن يصبح هؤلاء السُّرّاق ، حينما يحملهم الفقر على الخدمة عند سادة الهند في الزمن الحاليّ ، من أحسن موظفي الشُّرْطة وأحزمهم ومن أيقظ النُّظّراء وأقدرهم على خفر المزارع ، ومما يحدث أن يجمع هؤلاء بين حَرَس الحقول والمواشي في النهار وسَرِقتها في الليل بجِدّ وحَذَر ولباقة ، فإذا ما كُشِف الأمر لم يبق لإقامة البينة وسماع الشهود ضدّهم ضرورةٌ ، فهم يعترفون بما اجترحوه من فَوْرِهم حين الاستنطاق فيُستذنبون .

والكولُ شديدو القِرَى ، فيبذلون أرواحهم دون الضيف إذا حاق به خطر ، والكولُ كثيرو الفَخْر ذوو مزاج حُرّ ، والكولُ ، إذ يُحْمَلون على دفع الضرائب إلى الإنكليز ، يحملونها إليهم بانتظام حيث يكونون عند حدودهم ، وذلك حَذَر تدنيس الجباة لِحُرْمة منازلهم في غيابهم .

ويُحِبُّ الكولُ الحربَ لهواً وتقرباً إلى الآلهة ، فهم يَفْتَئِلون[٢] قبل أن يوقدوا نارها ، فإذا رأَوْا أن السماء تأمر بالحرب وسفك الدم أرسلوا رُسُلًا إلى القبيلة المجاورة لدعوتها إلى القتال في أحد الميادين، والقتال يدوم طويلًا مالم يَفْتَئِلوا ثانيةً فيرَوْا

---

(١) أجرثاء : جمع جرىء . — (٢) افتأل : ضد تشاءم .

وَقْفَ الحرب، ولا يشوب المتحاربين حِقدٌ ولا وَغَرٌ[١] فيناموون في الغالب معاً ويأكلون معاً في الهُدَن التي تتخلَّل القتال ، ويشهد النساء الطِّعان فَيَهْتِفن عند إصابة الأهداف ويُصفِّقن عند باهر الأعمال ويَجْمَعْنَ الجَرْحَى وَيَضْمِدْن جُرُوحهم ويبكين القتلى ويَنْظُرْن ، كما كانت نساء سابين تنظر في القرون القديمة ، آباءهن وإخوتهن في أحد المعسكرين وأزواجهنّ في المعسكر الآخر ، فالأنكحةُ عند الكول لا تكون إلّا بين مختلف العشائر .

والفتى من أولئك القوم يشترى له أبواه المرأة التي يرغب في الزواج بها ، وهو ، إذ كان لا يملك لنفسه شيئاً ، لا يقدر على تأليف أُسْرَة مستقلة عن أبويه فيبقى تحت وصايتهما زمناً طويلًا ، وللمرأة من أولئك القوم حقُّ الطلاق ، فتتزوج ، في بعض الأحيان ، أربعة أزواج أو خمسةَ أزواج بالتتابع ، فيجب على كلّ زوج لاحقٍ من هؤلاء أن يَرُدَّ إلى الزوج السابق ما دفعه ، فيسعى الزوج اللاحق إلى التخلص مما عليه .

إذن ، يمارس أولئك القوم مبدأ تعدد الأزواج من الذكور ممارسةً مُقَنَّعة ، وتنشأ هذه العادة عن الفقر وعن ارتفاع المهور ، وقتلُ الأولاد عند أولئك القوم أمر شائع ، فالأُسْرَة الواحدة منهم لا تحتفظ ، في الغالب ، بغير ابنة أو ابنتين ، وأما البنات الأُخرى فيُوضَعْن ، حين ولادتهنّ ، في آنية من فَخَّار ويُدْفَنَّ ، فيسفر ذلك عن زيادة مهور النساء لقلة عددهنّ .

ومعايش سكان جهوتاناغپور ضَنْكٌ ، فأراضيها فقيرة وفلاحتها رديئة ، وأسوأ منها أراضي أوريسة ، حيث يَغْتَمِر الطوفانُ غَلَّاتها الهزيلة في بعض الأحيان فيَعْقِب

(١) الوغر : الضغن .

الطاعون ذلك ، ثم يُسْفِر الجدْب الذى يجىء بعد ذلك عن موت الألوف من السكان جوعاً ، وليس للإنسان فى بلد بائس كهذا البلد أن يختار نوع الطعام ، فترى السكول يأكلون من كلّ لحم مع مقت براهمة الهندوس لذلك .

ولم يكن ساحل أوريسة منطقةً بائسة فى كل زمن كما هو اليوم ، فقد كان يقوم فيه دولةٌ زاهرة أيام هرون الرشيد وشارلمان ، وفى أساطير الهندوس ما يؤيد ذلك ، وما اشتمل عليــه من المعابد العجيبة الخربة ، كمعابد بَهُو وبنشور ، يثبت ، بأقوى من ذلك ، أن هذا الساحل غيرَ المِقْرَاء[1] كان مَقَرًّا لحضارة قوية ، ومما لاريب فيه أن السكوند الوحوش لم يكونوا المبدعين لذلك الفن المعمارى الرائع التالد .

وتغشى ساحلَ أوريسة معابدُ أكثرَ من أن تغشاه مدنٌ ، وساحلُ أوريسة هذا، الذى يتساوى البراهمة والهمج فى تقديسه ، إذ يقع بين الهند الآرية والهند الدراويدية، شاهدٌ على اختلاط كثيرٍ من العروق والأديان فيه وعلى نظر المؤمنين إليه نظر إجلال واحترام وعلى حَجّهم له من كلّ صَوْب وحَدَب مهما كان نوع الإله الذى يعبدونه .

ذلك ما يَبْهَر الهمجىّ الذى لم يَسْجُدْ لغير أوثان فيــدعو كالى ووشنو وشِيوَة فينتقل ما يدور فى خَلَده من الهواجس إلى بنى قومه فيَتَساوَوْن هم والآخرون فى بعض المعابد حيناً فيغــدو المنبوذُ أخاً لأشهر البراهمة ، فلا ترى فرقاً بين الأبيض والأسود وبين الآرى والدراويدى وبين الهمجى والمتمدن فيُخَيَّل إليك امتزاج مختلف العناصر التى يتألف منها سكان شبه جزيرة الهند لوقت قصير .

بحثنا فى تلك العناصر بحثاً خاطفاً ، فنختم دراستنا بذكر شعب الأوريا المهم القاطن فى المِنطقة الساحلية الممتدة من شاطىء أوريسة إلى مَصَبّ نهر الغَنْج ، فهذا

(١) المقراء : الذى يقري الضيف ، الكثير الضيافة .

الشعب المتوسط ، الذى هو شعبٌ شِبْه همجىٌّ ذو لغة خاصة وغيرُ ذى مثال واضح ، أخذ نصيباً من العروق الكثيرة التى يعيش بينها .



٢٧ ـ امرأة هندوسية من جنوب الهند تهرس الأرز

نطمع أن يكون القارىء قد اطَّلَع ، بالخلاصة الخاطفة غير الكاملة التى سردناها فيما تقدم ، على ما بين عروق الهند من الفروق التى لا حدَّ لها وعلى ما بين هذه الفروق من المساوف العظيمة ، ونحن بعد أن بيَّنَّا اختلاف أوصاف تلك العروق وأخلاقها وعاداتها ومعتقداتها و بعد أن ذكرنا أن أمثلة البشر ودرجات الحضارة التى جاوزها منذ فجر تاريخه إلى يومنا هذا لا تزال قائمةً بادية فى الهند نرى أن نُرَكِّب بعد أن حَلَّلْنا فنبحثَ فيما بين هذه العروق من الأخلاق المشتركة وفى ميل هذه العروق إلى الوَحْدَة التى قد يَصِلون إليها شيئاً فشيئاً بالتوالد والخضوع لبعض النُّظُم الكبيرة العامة ، ونحن بعد أن درسنا ما يَفْصِل بعض عروق الهند عن بعضٍ ندرس ما تتقارب به هذه العروق وما تلتقى فيه من النقاط .

الفصل الرابع

الصفات الخلقية والعقلية المشتركة

بين عروق الهند المختلفة

(١) ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة في الهند من تماثل بين شعوب الهندوس — ما بين فريق كبير من شعوب الهندوس من الصفات المشتركة — المؤثرات الجثمانية والعقلية التي أدت إلى هذه الأخلاق المشتركة — نظام الطوائف والنظام السياسي والمعتقدات الدينية الخ — (٢) الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس — الدماثة والصبر والتسليم والمداجاة وعدم النشاط وعدم التبصر وفقدان المبدإ الوطني — نتائج عدم النشاط في مصير الهندوس — الصفات الخلقية أفضل من الصفات العقلية في تقرير مصير الأمم — مستوى الهندوس العقلي — مقابلة بين الهندوس والأوربيين — طبقات الهندوس الوسطى مساوية لطبقات الأوربيين الوسطى — طبقات الهندوس العليا هي دون طبقات الأوربيين العليا — قدرة الهندي على الإدغام — ضعف رأيهم وبرهانهم — عدم الدقة في تفكيرهم — الفروق بين العروق العليا وغيرها — تطبيق هذه الفروق على الهندوس — نتائج مزاج الهندوس النفسي — تقصيرهم في العلوم وفي التاريخ — الخلاصة .

---

١ — ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة في الهند من تماثل بين شعوب الهندوس .

ظهر من الفصول التي خصصناها للبحث في عروق الهند اتساعُ الفروق بين تلك العروق ، فالحقُّ أن شِبْهَ جزيرة الهند الواسعة فُسَيْفِساءُ عظيمةٌ مؤلفة من

شعوب مختلفة إلى الغاية ، فى الهند تجد الوحش الفطرىّ والرجل المتمدن وما بينهما من آدَمِيٍّ مختلف الدرجات .

وقد رأينا أن المُثُل الجُثمانية لهذه العروق متباينة جداً وأن كلة الهندوس تشتمل على أناس مختلفى الألوان مُتَرَجِّحين بين الزِّنجىِّ الأسود والرجل الأبيض وأن تلك المُثُل تَتَرَجَّحُ بين الجمال الباهر وأقصى البشاعة .

وما لهذه العروق من الصفات الخُلقية والعقليـة ليس بأقلّ من تلك الفروق الجُثمانية اختلافاً ، فترى هُوَّة عميقة بين الراجپوتىّ المشهور بشجاعته النادرة والبنغالىّ المعروف بجبانته الفاضحة ، وترى مثـل تلك الهُوَّة بين جَبَلِيٍّ راج محل الذين لا يعرفون الـكَذِب و بعض الهندوس الذين يكذبون على الدوام .

ومن الصواب ، إذن ، أن نستنتج ، أولَ وَهْلَة ، فُقْدان أىّ صـفةٍ مشتركة بين عروق ذلك مدى تباينها ، بيد أننا سنرى عما قليل أن هذا زعمٌ خاطىء ، فقد نجم عن البيئات المادية والأدبية الواحدة أخلاقٌ عامة تجمع بين تلك العروق فى أُسْرَة واحدة كما يجمع العالم الطبيعىّ مخلوقاتٍ متباينةً أشدّ التباين ، كالفيل والفأر ، فى فصيلة واحدة .

فلْنَدَع الفروق التى عرضناها بدرجة الـكفاية ولنبحثْ فى الصفات المشتركة بين عروق الهند المختلفة ، فنرى ، إذ ذاك ، أن الهندوسىَّ ينال بهذه الصفات معنًى معيناً ، ولا يَظُنَّ القارىء ، مع ذلك ، أنه يكون لهـذا المدلول من القيمة المقررة ما لـكلمة « الفرنسى أو الإنـكليزى أو الألمانى » ، فلم يقع تمازج مختلف العنـاصر بدرجة الـكفاية ، ونحن ، لـكى نوضح رأينا بأحسن من ذلك ، نَتَمَثَّل أمر فرنسة فى العصر الـكارلوڤينجى وقيمة كلة « الفرنسىّ » الدالة فيه على خليط من القوط

والفَرَنْج والمغوليين والرومان بدأ يمتزج فيكتسب بعض الصفات المشتركة .

ونرى ، قبل أن ندرس الصفات المشتركة لأكثرية الهندوس فنشيرَ إلى الأسباب التي أوجدتها ، أن نأتي بتقسيماتٍ قليلة أساسية للعروق الكثيرة التي وصفناها فيما تقدم على انفراد ، فبعد أن نصنع هذا على طريقة التحليل نبدأ بالدرس على طريقة التركيب .

يُؤدّي البحث الخاطف إلى إمكان تَشكيل جميع تلك العروق في ثلاثة تقسيمات أساسية كبيرة ، فأما التقسيم الأول فيشتمل على العروق التي لم تَنَلْ بصيصاً من أية حضارة فتجَلّت فيها آثار سكان الهند القطريين الأصليين ، فليس هؤلاء السكان القطريون القاطنون في الجبال أو في المناطق المنعزلة إلاّ أقلية ضعيفة ، وهم من شِدّة الاختلاف عن بقية سكان شِبْهِ جزيرة الهند ما لا يحتشدون بها معهم ، فلهذا لا نَتَفكّر في أمرهم هنا .

وأما التقسيم الثاني فيشتمل على الهندوس الحقيقيين الذين هم ، كما نعلم ، نتيجةُ توالد عروق بيض أو صُفْر مع السكان السُّود الأصليين ، فهؤلاء الهندوس إذ كانوا على شيء من التمازج في غضون القرون فإنهم مجموعٌ من الزُّمَر المتباينة بنسبة العناصر التي تتركب كلٌّ واحدة منها ، وهذا مع القول إن البِيئات المادية والأدبية الواحدة التي خضعت تلك الزمر لأحكامها منذ زمن طويل والمعتقداتِ الواحدة التي اعتنقتها قد وَسَمَتْها بعدد من الصفات المشتركة ، و إنه على تلك الزُّمَر التي تتألف منها أكثرية الهند الساحقة تنطبق هذه الصفات المشتركة التي نرى أن نبحث فيها .

وأما التقسيم الثالث فيشتمل على السكان المسلمين الذين هم نتيجة توالد العرب

والأفغان والفرس والتركمان والمغول وغيرهم من الذين غَزَوا الهنـد فى مختلف الأدوار فانتَهَوْا إلى فتحها ، وكان يصعُب خلط هؤلاء المسلمين بزُمَر التقسيم المذكور آنفاً لو ظلّوا خُلَّصاً بعيدين من كل توالد ، بيد أنك لاتجد بين الملايين الخمسين الذين يدينون بالإسلام فى الهنـد سوى أناس قليلين لا تجرى فى شرايينهم دماء هندوسية ، فهؤلاء المسلمون ، و إن كانوا يختلفون عن زُمَر ذلك التقسيم الثانى فى غير ناحية ، أكثرُ تأثّراً بهذه الزُّمَر من تأثيرهم فيها ، فإذا كان جميع الصفات العـامة التى نذكرها فيما يأتى لا ينطبق على المسلمين فإن كثيراً من هذه الصفات مشتركٌ بينهم و بين تلك الزُّمَر مع ذلك .

إن المؤثرات التى أسفرت عن صفات مشتركة هى مادية وأدبية معاً .

و يمكن تلخيص المؤثرات المادية فى بضع كلمات : فمن هذه المؤثرات نذكر الجوَّ الحارَّ الذى لايُعِدُّ الإنسان إلى الأعمال القاسـية ، بل يُسَهِّل عليه أمر زراعة الأرض الذى وَقَفَ أكثرُ السكان به نفوسهم عليه من جهة و يؤدى إلى اعتمادهم على النظام النباتى فى أمر الغِذاء من جهـة أخرى ، فالهندوسىُّ يكاد لا يَغْتذى ، و يقتصر فى طعامه على قليـل من النبات و يرتوى بماء صاف ، و يعيش عن سَعَة ببضعة دوانق مياومةً ، فارتفاع درجة الحرارة فى بلد الهندوسىِّ ، إذ يؤدى إلى زهد الهندوسىِّ فى الطعام واللبـاس ، لا يجد الهندوسىُّ به الحافز الحاجِىَّ الذى يُزِيل به كسله الطبيعىَّ .

ونشأ عن تأثير البيئات المادية المتماثلة وتَكَرُّرِ الأعمال الواحدة طرقٌ للمعايش متشابهةٌ بحكم الضرورة ، ثم ثبَتَ أمر هـذه المعايش المتشابهة بمؤثرات أدبية واحدة أهمُّها نظام الطوائف والنظام السياسىُّ والمعتقدات الدينية .

ونظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نُظُم الهند الاجتماعية منذ ألفى سنة ، وبلغ نظام الطوائف من الأهمية ما وَقَفْنا به مطلباً خاصا من هذا الكتاب على البحث فيه ، فسنرى فى هذا المطلب ما هى الأسباب الإثْنُولوجيَّة التى أوجبته فى غابر الأزمان وما هى الأسباب التى حَلَّت محلّ تلك بالتدريج فدام بها مع تتابع القرون ، وسنرى كيف أسفر ذلك النظام عن تقسيم الهند إلى ألوف من الجمهوريات الصغيرة غير مبالٍ بعضُها بشؤون بعض ، أو مُعَادٍ بعضُها لبعض ، ومنفصلٍ بعضها عن بعض فى المشاعر انفصالاً يتعذر معه أن تكون ذواتِ مآربَ مشتركة ، وسنرى كيف أن طائفة الهندوسىّ ، لا الهندَ ، هى وطن الهندوسىّ الحقيقىّ ، وكيف أن طائفة الهندوسىّ قد أحاطته بشبكة من التقاليد والعادات إحاطةً ثبت أمرها بالوراثة فأضحى خروجه منها صعباً إلى الغاية .

وأدّى النظام السياسىّ ، الذى هو ثانى المؤثرات المذكورة آنفاً ، وذلك فى غضون القرون ، إلى مثل ما أدّى إليه نظام الطوائف فى تكوين روح الهندوسى ، ويمكن تعريف نظام الهند السياسىّ السائد منذ زمن طويل بأنه يتألف من جماعات صغيرة تُعْرَف بالطوائف ، وأن هذه الطوائف متجمعةٌ على شكل جمهوريات صغيرةٍ تُعْرَف بالقُرَى الخاضعة لسيد واحد ذى سلطان مطلق ، وعلى ما اعتور اسم السيد من تَبَدُّل لم يتغير ذلك النظام الذى بلغ من الدَّيْمومَة ما وَهَنَتْ به روح المقاومة فى الهندوسىّ فتَعَوَّدَ الهندوسىّ مع القرون أن يطيع سلطةَ سيدٍ إطاعةً تامة ، سائراً وَفْقَ المعتقدات الدينيـة .

ونذكر التعاليم الدينية ، التى هى ثالثة المؤثرات ، ممـا أوجب اتصاف الهندوس بأخلاق متماثلة ، ولا يستطيع الأوربىُّ أن يُدْرِك تأثير الدين العظيم فى الهندوس إلاّ

إذا حَقَّقه بنفسه ، فأكثر الأوربيين تديناً يُفرِّق بين المقدس والمدنس تفريقاً لا يفهمه الهندوسيّ الذي يعتقد أن الآلهة تنظر في أدقّ شؤونه وأن تعاليم الدين تهيمن على جميع أعماله ، فالدين ، بالحقيقة ، كلُّ حياته إن لم يكن جزءاً منها ، فما السعي والأكل والنوم عند الهندوسيّ إلاّ أعمال دينية ، وكلُّ شيء ما خلا أوامرَ الدين باطلٌ لديه ، والدينُ هو الذي يُوَجِّهه ، ولم يرض بلقاحِ الجُدَرِيّ ، مثلاً ، إلاّ بعد أن اكتسب شكلاً دينيًّا ، ونحن ، حين البحث في تكوين أديان الهند ، نُثْبِت مقدار الفراغ الذي تملأه الأديان في حياة الهندوس ومقدارَ عَدِّ الهندوس لكلّ سلطة عنوانَ قدرةٍ إلٰهية ، وهنا ، كما في أمورٍ كثيرة أخرى ، تَتَمَثَّلُ الهُوَّة العظيمة التي تفصِل الشرق عن الغرب في كلّ أمر والتي لم تَفْتَأ تزيد اتساعاً .

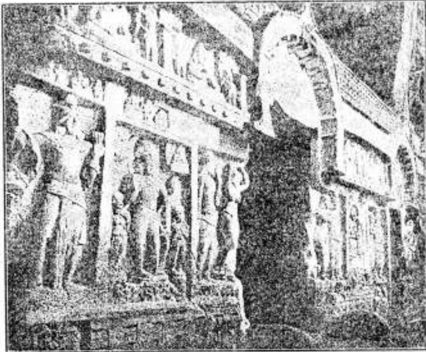
والباحث وقلما يُدَقِّق في تسليم الهندوسيّ وإذعانه المطلق لأوامر الآلهة فيعلَم أن هذه الأوامر سيطرت عليه قروناً كثيرة وأن تعاليم مَنُو الدينية هي صاحبة السلطان في الهند منذ ألفي سنة يدرك درجة انسكاب أذهان الهندوس التي احتملت نيراً واحداً تلك المدة في قالَبٍ واحد .

ولنَبْحَثْ ، بعد أن أوضحنا تأثير تلك العوامل الكبيرة ، في الأخلاق العامة التي نشأت عنها .

٢ — الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس

لا تَجِد في أمة خضعت منذ عِدّة قرون لمعايشَ وأحوالٍ مادية وأدبية ، كالتي ذكرناها آنفاً ، ما تَجِده في الأحرار من شِدّة البأس ومتانة الخلق ، فلو كان عند الهندوس مثل ذلك ، أو أقلُّ من ذلك ، لخلعوا نِير الأجنبي عنهم منذ زمن طويل ،

فلا عَجَبَ إذا رأينا فى الهندوس من النقائص ما يُرى عادةً فى الأمم التى رَئِمت[١] حكمَ الأجنبى قروناً كثيرة ، فالهندوسىُّ ، على العموم ، خَوّار[٢] هَيّاب مَكّار وَلاج[٣] مَلاّق[٤] إلى أبعدِ حدّ ، وتدل أوضاعه على الخداع والإلحاف[٥] ، وهو بعيد من المبادىء الوطنية ، وما عُرِّض له من البغى والطغيان أحقاباً[٦] جعله يرى الخضوع لسيد على أن يحترم هذا السيد شرائعَ طائفته وعقائدَه الدينية ، فالهندوسىّ ينقاد سلفاً لجميع أوامر سيده ويَعُدّ نفسه سعيداً إذا ما نال حُفْنَة أرز يُمْسِك بها رَمَقه .



٢٨ — كارل . مدخل معبد مصنوع تحت الأرض فى القرن الثانى قبل الميلاد

(١) رئم الشىء : ألفه — (٢) خوار : الضعيف الرخو — (٣) ولاج : كثير الولوج — (٤) ملاق : كثير التملق — (٥) ألحف : ألح — (٦) أحقاب : جمع حقب وهو ثمانون سنة أو أكثر .

والهندوسُ قوم لَيِّنون صابرون مُسَلِّمُون ، وأشدُّ نقائصهم وفقاً لنظر الأوربيِّ هي ، خلا ما تقدم ، البَلادةُ والغفلةُ والخمول .

والخمول أظهر أخلاق الهندوس ، وبالخمول تُفَسَّرُ خضوع ٢٥٠ مليون هندوسي لسلطان ٦٠٠٠٠ إنكليزيّ من غير أن يَرْمَعوا عَقِيرتهم[١] ، مع أنه يسهل عليهم أن يُبيدوا هؤلاء الإنكليز في يوم واحد إذا قاموا قَوْمَة رَجُل كما يسهل على رِجْلٍ[٢] من الجراد أن تُهْلِكَ بُرَّ حقل ، وليس هذا مما يصدر عن الهندوس ، وما اضطراب فصائلَ من السپاهي الساخطين في سنة ١٨٥٧ إلاَّ فورةٌ محلية عارضة لم يكترث لها مُعْظَم القوم .

وسنرى أن مستوى الهندوس العقليّ المتوسط ليس دون مستوى سادتهم الأوربيين العقليّ المتوسط ، بَيْدَ أن الهندوس أقلُّ من هؤلاء الأوربيين أخلاقاً بمراحل ، وفي هذا بيانٌ لسبب انقياد الهندوس للغربيين ، والأخلاقُ (أي الثبات والعزم) ، هي ، كما نعلم من التاريخ ومن دراسة الناس ، تُمَثِّل دوراً في حياة الأفراد والأمم غيرَ الذي يقوم به الذكاء ، فبالأخلاق ، على الخصوص ، أكثرَ مما بالذكاء ، تُؤَسَّس الديّانات وتُشاد الدول ، ففي صراع يقع بين شعبين يتألف أحدهم من أناس أذكياء متعلمين متصفين بالحذَر الذي هو وليد الذكاء قائلين ببُطْلان كلِّ مَثَل عالٍ غير مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل المُثُل العُلْيا ويتألف الآخر من أناس محدودي الذكاء عُنُدٍ لا يتأخرون عن بذل أرواحهم انتصاراً لدين يَتِمُّ النصر لهؤلاء على أولئك لا ريب ، فهذا ما قُلْته غيرَ مرة في غير كتاب ، ففيه مِفْتاح كثير من حوادث التاريخ التي يَظَلُّ

(١) العقيرة : الصوت — (٢) الرجل : القطعة العظيمة من الجراد خاصة وهو جمع على غير لفظ واحده

إدراك أمرها متعذراً بدونه ، فإذا كان الرومان قد قهروا الإغريق ، و إذا كانت قبائل العرب التى هى من شِبْاه البرابرة قد خَرَجَت من جزيرتها فتحت العالم الإغريقىّ الرومانىّ ، و إذا كان المسلمون قد ملكوا الهند ، ثم جاء إنكليزٌ قليلون فدوّخوها ، لم يتفق ذلك كلُّه لهؤلاء الفاتحين جميعهم إلا بفضل ما اتصفوا به من شدّة العزم أكثرَ من اتصافهم بقوة الذكاء ، فالعزيمة هى أقوى ما فى البشر من القوَى .

و يُضاف إلى الخمول الذى هو أظهر صفات الهندوس عدم اكتراثهم الدالّ على الإذعان والتسليم بالقَدَر فيُفضى الهندوسىّ هادئاً عن كلّ ما لا يَمَسُّ تعاليم طائفته ومعتقداته الدينية فيحتمل أقسى ضروب الجَبَرُوت عادًّا إياها أمراً مُقدَّراً لا مَفَرَّ منه .

وليست شجاعة الهندوسىّ مثلَ شجاعة الأوربيين ، فالهندوسىّ يزدرى الحياة ولا يَهزَؤُه الموت ، ولا يحاول اجتنابه ، لِما يَجِده من عدم استحقاقه لذلك ، ولِما يراه من أن كل عمل للفِرار منه لا يُجْدى نفعاً .

وعدمُ اكتراث الهندوسىّ لأكثر ما فى هذه الدنيا يؤدى إلى عدم التأثير فيه بمثل العوامل التى يُؤَثِّر بها فى الأوربى ، فكيف يُؤَثِّر فى أناس لا يبالون بالحياة ولا بالموت ولا يشعُرون بشَيْن من فرض أية عقوبة تَنُصّ عليها قوانيننا ، ولاسيما السجن ، ولا يطلبون فى كل يوم غيرَ وَجْبَة أرز يَسُدُّون خَلَّتهم بها ؟ فالهندوس إذا ما نالوا مثل هذه الوَجْبَة لم تَجِد ما يُخْرِجهم من بَلَادتهم ، فَعِدِ العامل الهندوسىّ أىّ مبلغ من المال مقابلَ عملٍ يقوم به فى وقت معين وَنَلْ منه أىّ عهد بذلك لم يُنْجِز ما عاهدك عليه ، فالغدُ عند الهندوسىّ مستقبلٌ بعيد مشكوك فى أمره كثيراً

فلا يدور فى خَلَده أن يُفكِّر فيه ، فالأوربىّ الذى اختبر الهندوسَ قليلاً يعلَم جيداً أنه يجب عليه ، إذا أراد أن يعتمد على حَمّاليهم ، مثلاً ، ليكونوا حاضرين فى الزمن المُقرَّر ، أن يحملهم على النوم ليلاً أمام بابه .

ويجب على الباحث أن يدرس أحوال الهندوس عن كَثَب ليعلم جهلهم بعضَ مشاعرنا البسيطة التى انتقلت إلينا بالوراثة كالدقة والضبط ، ومن ذلك أن الهندوس فى بدء إدخال الخطوط الحديدية إلى بلادهم كانوا يَصِلون إلى محطّاتها بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت المُقرَّر لذهاب القُطُر ، فلما علموا بالتجربة أن القُطُر تَمضِى من غير أن تنتظرهم صاروا اليوم يَفِدون إلى المحطات قبل الميعاد بساعتين أو ثلاث ساعات ، فمِنْ ثَمّ ترى أن خُلُق عدم الضبط فيهم لم يتغير، بل بَدَّل دليله على حسب تعبير علماء الجبر .

وقد عاملتُ هندوساً من جميع الطبقات ومنهم خِرِّيجو الجامعات الأوربية ، فلم يحدُث أن أتانى واحد منهم مَرّةً واحدةً فى الوقت المعين ، مع أننى لم أجِد فى الهند إنكليزياً واحداً يُخلِف الميعاد .

ونحن ، بعد أن درسنا أخلاق الهندوس العامة ، نرى ، للوصول إلى حكمٍ صائب، أن نبحث فى صِلاتهم بالأوربيين وفى علاقات بعضهم ببعض .

يَألَم الأوربيون ذوو الصِّلات بالهندوس من مُداجاة هؤلاء وعدم صدقهم ، وهم يَنْسَوْن أن هذه النقائص من مقتضيات علاقات العبد بسيِّده ، فصِلاتُ الهندوس بعضِهم ببعض هى على خلاف ذلك ، وإذا ما اتخذنا احترامَ المرء لطبائع بلده وعاداتها

وشرائعها وما ينطوى عليه هـذا المرء من التقوى وروح التسامح مقياساً أمكننا أن نقول إن عوامَّ الهنـدوس أفضـلُ من عوامِّ الأوربيـين وإننا كلما صَعِدْنا فى السُّلَّم الاجتماعية بدا لنا العـكس فرأينا فُقْدان الأخلاق فى الهندوس الذين تَخَرَّجوا على الطريقة الأوربية فثبت لنا بذلك فساد النظرية القائلة إن التعليم يرفع مستوى أخلاق الناس وعلِمْنا بذلك أن التربية التى تلائم احتياجات أمة فتَصْلُح لها تأتى بنتائجَ سيئة عند تطبيقها على أمة أخرى سلـكت طريقاً أخرى فى التطور .

وتقتصر تقوى الهندوسىّ على أبنـاء طائفته ، ولا تَنْس أن هذا من مقتضيات أوامر دينه القائلة إن العمل يكون ذنباً على حسب أهمية المَجْنِىّ عليه ، فمع أن شريعة مَنُو تَعُدّ شتم البرهمىّ جناية تَنُصّ على أن أكبر جناية على الشودرىّ من اللَّمَم (١) .

ولا أرى أفضل من قول الأستاذ الإنكليزى مستر مونير وليامز الخبير بأحوال سكان الهند فى أخلاق الجمهور الهندوسىّ ، قال هذا الأستاذ :

« لم أرَ فى أية ناحية من أوربة شعباً ، كالهندوس ، متديناً مُتِمًّا لواجباته خاضعاً لأولياء الأمور مُحْتَرِماً ، مع خفضِ جناحٍ ، للسنّ والعلم مطيعاً لأبويه ، أجَلْ ، إن للهندوس نقائصَ ومعايب ، ولـكن ذلك دون ما فى الأوربيين ، وإنى لأشُكُّ فى أن يكون أسوأ الهندوس ذا مساوىء وشوائب كما فى طبقات الأوربيين التى تقابل طبقته » .

ذكرنا صفات الهندوس الخُلُقيـة المشتركة على العموم ، فنرى الآن أن نُقَدِّر مستوى أهليّاتهم العقلية ، ويتطلب هذا التقدير مقياساً فنتخذ الأوربيين مثالًا .

---

(١) اللمم : صغار الذنوب .

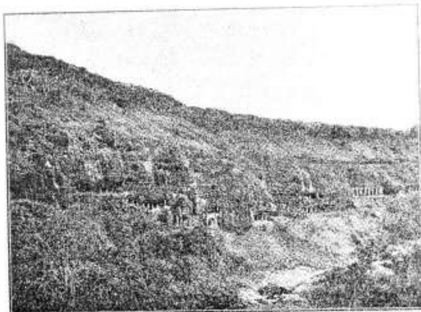
ولـكي تـكون المقابلةُ ممكنةً يجب أن تتناول عناصر متماثلةً يُقاس بعضُها ببعض فنقابل بين هندوس الطبقات الوسطى بأوربي الطبقات الوسطى ونقابل بين هندوس الطبقات العليا وأوربي الطبقات العليا .

أشُكُّ في تأدية المقايســة بين طبقات كلا الفريقين الوسطى إلى تَفَوُّق يذكر للأوربيين مهما بُولِغ في التدقيق ، نَعَمْ ، إن الهندوسيّ دون الأوربيّ مبادرةً وأبطأُ منه عملًا ، ولـكنه يستطيع أن يقوم بمثل ما يقوم به الأوربيُّ من غير عَنَاء وبآلات أقلّ من آلات الأوربيّ ، فيَصْنَعَ كأحسنِ عاملٍ أوربيّ أنواعَ المصنوعات الخشبية والحجرية والمعدنية ، وما يؤدى إليه التَّخَصُّص من إضعاف مستوى الأوربيّ لم يُؤَثِّر في الهندوسيّ بَعْدُ ، والهندوسُ مثلُ الأوربيين ، إن لم يفوقوهم ، في القيـام ببعض الفنون كفنّ العمارة .

والهندوسُ مساوون للأوربيين في أكثر الأعمال التي لا تستلزم غيرَ أهليـات عقلية متوسطة ، فتَجِد بين الهندوس محامين وأطباء ومهندسـين يَعْدِلون من هم في المستوى المتوسط بيننا ، فالهندوسيُّ يستطيع كالأوربيّ أن يَرْسُم صورةَ بنـاء وأن يسوق قاطرة وأن يُدِير جهازَ بَرْق ، وتَجِد الهندوس في الإدارات الإنكليزية بالهند يقومون بأكثر وظائف البريد والمصارف والمالية والخطوط الحديدية ، الخ .

ويبـدو قصورُ الهندوس وعجزُهم عند الصعود في أعلى درجات المقياس العقلي حيث قوة المبادرة وروحُ الإبداع والقدرةُ على التأليف بين الأفـكار الـكثيرة وتفريقُ ماائْتَلَف منها وماااخْتَلف ، فالهندوسيُّ يتعذر عليـه أن يدير مشروعاً صناعياً عظيماً وأن يقود الرجال وأن يقوم بالمباحث العلميـة وأن يأتي بالاكتشافات وما إلى ذلك

كلَّه من الأعمال التى تتطلب استقلالًا وحريةَ سيرٍ ، فالهندوسىُّ ، وإن سَهُل عليه أن يدير قاطرةً أو جِهازَ بَرْقٍ ، يستحيل عليه اختراعهما، وتقريباً للذهن نقول : إننا إذا جمعنا اتفاقاً ألفَ أوربىٍّ وَجَدْنا بينهم ٩٩٥ على الأقل لا يفوقون ألفَ هندوسىٍّ يُجْمَعون اتفاقاً أيضاً ، و إن الذى لا نجِده فى الهندوس هؤلاء هو واحدٌ أو أكثرُ من ذوى المواهب العالية والأهليات النادرة .



٢٩ ــ أجنتا : منظر عام لمداخل قسم من الأديار والمعابد التى نحتت تحت الأرض فى منحدر الجبل بأجنتا بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد

هـذه مسألةٌ مهمة قد فَصَّلْتها فى كتاب آخر فذكرتُ أن الفروق بين العرق العالى والعرق المتأخر لاتقوم على تفاوت فى مستوى كلا ذينك العرقين العقلىِّ المتوسط ،

بل تقوم على عَطَل العرق المتأخر من رجال قادرين على مجاوزة ذلك المستوى ، وهذا أمرٌ أساسيٌ يمكن الاستدلال عليه في العوامل النفسية ، وهذا أمرٌ أساسيٌ قد سعيت في استنتاجه من العوامل التشريحية أيضاً ، فقد أثبتُّ ، بما قمت به من المباحث في عِدّة جماجمَ من عروق مختلفة ، أن العروق العاليــة تحتوى على الدوام مالا تجده في العروق المتأخرة من الجماجم الـكبيرة الواسعة .

ولْنَتْرُك تلك المبادىء الفلسفية العامة ولْنُعَيِّن ما يختلف به هندوسيُّ الطبقات العليا عن أوربيِّ الطبقات العليا ، لنُبْصِر أن ذلك الهندوسيّ يفترق عن ذلك الأوربيّ ، على الخصوص ، في عَطَله من روح الضبط والدقة وروح النقد وخُلُق المبادرة وأصالة الرأى وقوة البرهان وفي سِعَة خياله وفي عجزه عن رؤية الأمور كما هي عليه وما إلى ذلك من النقائص التي لا يطفُو عليها قدرتُه على الإدغام وما فيــه من المنطق الذى لا يَعْدُو به حدّ استنباط عِدّة نتائج من الأمر الواحد فلا يستطيع أنْ يقابل بين المتشابهات والمختلفات التي تُستخرج من مقايسة شتى الأمور .

عَطَلُ الهندوسيِّ من روح الضبط واضح ، فالأمور تتموّج عنده ، كالضَّباب ، من غير ضابط ، فتبدو له كما لو كانت من خِلال عَدَسَاتٍ كالمرايا المُشوَّهَة التي يعرفها علماء الفيزياء ، فترى نُظُمه الدينية وأقاصيصه التاريخية وقصائدَه القوميــة مبهمةً متناقضةً ، ولهــذا التناقض وعدم الضبط تجد أديان الهندوسيِّ ، ولا سيما البُدّهيةَ ، غامضةً لدى علماء أوربة الذين تعوّدوا دِقّة المنطق فلا يكون للـكلمات عندهم سوى معانٍ صريحة معينة ، ولذلك يلوح الإلحاد والشِّرْك للأوربيِّ ، مثلًا ، أمرين تفصل

أحدهما عن الآخرهُوَّةٌ عميقةٌ مع أنهما لا يَبْدُوان للهندوسيّ إلّا أمرين يمكن التوفيق بينهما فتقرأ فى كتبه فرضَهما عليه .

وأمورٌ كفقْدان الضبط وتَمَوُّج الفِكْر ، و إن كانت تُحْتَمَلُ فى الإلٰهيات والأشعار والقصائد الدينية ، تُضْحى ثقيلةً غير سائغة عند تطبيقها على الموضوعات التى لا بدّ لها من الضبط ، وأمورٌ كتلك حالت دون مجاوزة الهندوس أدنى المراحل فى العلوم الصحيحة ، أجَلْ ، قد هَضَم الهندوس ما عَلَّمَهم إياه العرب فيما مضى وما يُعَلِّمهم إياه الأوربيون فى الزمن الحاضر ، ولكنهم لم ينتهوا إلى اكتشاف واحد فى ميدان المعرفة .

ومن آية عدم الضبط ذلك أنك لاتَجِد بين ألوف الكتب التى وضعها الهندوس فى ثلاثة آلاف سنة من سنوات الحضارة كتاباً واحداً يشتمل على تواريخَ صحيحة ، فاضْطُرَّ العلمُ الحديث إلى اتخاذ بعض الطرق المصنوعة كى يُعَيِّن تعييناً تقريبياً الأزمنةَ التى ظهر فيها أشهر ملوكهم ، ولا تسأل عن أنبائهم التاريخية ، ففيها يتجلى لك استعداد الهندوس ، عن حسن نيةٍ ، لرؤية الأمور على غير ما هى عليه وروايةِ ما يشاهدونه مُحَرَّفاً مُبَدَّلاً .

و إذا أردنا إجمال ما ورد فى هذا الفصل عن الأخلاق المشتركة بين أكثرية الهندوس قلنا إن عوامّهم ليسوا دون عوام الأوربيين ، و إنه ليس عندهم ما عند الأوربيين من أصحاب النفوس العالية ، و إن معظمهم عاطلٌ من النشاط والثبات والإرادة ، و إنهم مقسومون إلى عِدّة طوائفَ مؤلفة من ألوف الزُّمَر التى ترى لكل واحدة منها جنسية خاصة ذات مصالح تختلف عن مصالح الأخرى ، و إن أحوالًا

كهذه تُفَسِّر الدور الذى مَثَّلَته الهنـد على مَسْرَح العالم والذى ستمثله ، فالهندُ ، إذ كانت أمّةً منذ الأزَل كُتِب عليها أن تخضع لسادةٍ من الأجانب على الدوام .

ثمّ البحث فى البيئات والعروق التى هى عواملُ حضارة إحدى الأمم الأساسية ، وقد تجِد عوامل أخرى فى تطور هذه الحضارة ، ولـكنها تستند إلى البيئات والعروق على الدوام ، ونحن ، إذْ فَرَغْنا من بحثنا التمهيدىّ ، ندرس الحضارات التى أينَعَت فى الهند والتطورات التى اعتورتها فى غضون الأجيال .

الباب الثالث

تاريخ الهند

الفصل الأول

تاريخ الهند قبل المغازي الأوربية

(١) مصادر تاريخ الهند — نقص المصادر التاريخية — ليس للهند تاريخ — اقتصار تلك المصادر على المباني والكتب الدينية والأساطير وأقاصيص قدماء السياح — أهمية المباني والتماثيل والنصبات — لا يزيد تاريخ أقدمها عن ثلاثة آلاف سنة — الأسس لتقسيم تاريخي — (٢) العصر الويدى — العصر الويدى هو عصر الهند الأساطيرى — المغازى الآرية — كتب الويدا — (٣) العصر البدهى — فقدان الوثائق التاريخية — الغزو الإسكندرى — علاقات الإغريق بالهندوس — أشوكا ووكراماديته — عواصم الهند القديمة — (٣) العصر البرهمى الجديد — وثائق هذا العصر — دوامه — (٤) العصر الإسلامى — أهمية الغزوات الإسلامية — لم يبدأ تاريخ الهند الصحيح إلا فى هذا العصر — تعاقب الدول الإسلامية فى الهند — المغول — سقوط دولتهم — (٥) تاريخ جنوب الهند — تاريخ جنوب الهند مستقل عن تاريخ شمالها — ممالك الدكن الهندوسية القديمة — ممالك بنديا وچيرا وچولا وچالوكية — فتح المسلمين لجنوب الهند — سقوط دولة بيجانغر .

١ — مصادر تاريخ الهند

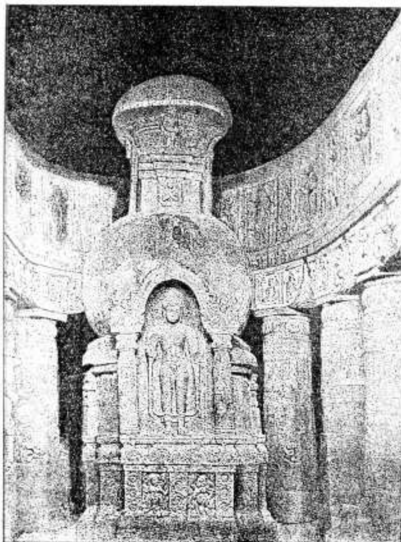
ليس للهند القديمة تاريخ ، وليس فى كتبها وثائقُ عن ماضيها ، ولا تقوم مبانيها مقام الكتب ما دامت لا تزيد فى القِدَم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد ، ولولا ما فى قليل من الكتب الدينية من أكداس الأساطير التى يُسْتَشَفُّ منها بعض الحوادث التاريخية لظلّ ماضى الهند مجهولاً جهلَ ماضى جزيرة الأطلنتيد التى تحيت

بانقلاب جيولوجيّ فجاء ذكرها في الأساطير القديمة التي خلّدها أفلاطون .

وأقدم المصادر التي يُرْجَع إليها في تَبيُّن أثرٍ للماضي المفقود أشْعارُ ويدا الدينية التي كُتِبَت في أدوار مختلفة والتي تَصِل في القِدَم إلى ماقبل القرن الخامس عشر من التاريخ الميلاديّ تقريباً ، ثم تأتي القصائد الحماسية المعروفة بمهابهارتا وراماينا وشريعةُ مَنُو الدينية والاجتماعية .

وليست آداب الهندوس في عصرنا بأغنى منها في العصر الذي قبله ، والمصادر الوحيدة التي يمكن مراجعتها في الأمر هي المجموعات التي ألّفها اليورانا ووُضِعَت في أدوار مختلفة لا تُجَاوِزُ القرن الثامن بعد الميلاد ومُلِئَت بالخرافات العجيبة وعَطِلت من أيّ تاريخ عَطَلًا لا يستطيع العلم الحديث أن يستنبط معه كبيرَ شيء ، فالحقّ أن دور الهند التاريخيّ لم يَبْدَأ إلاّ بعد المغازي الإسلامية في القرن الحادي عشر بفضل مؤرخي المسلمين .

ونُضِيف إلى تلك المصادر الناقصةِ أقاصيصَ السُّيَّاح الذين زاروا الهند في القرون القديمة ، وهذه الأقاصيص قليلة جداً ، وليس لدينا مما هو خاصٌّ بما قبل المسيح سوى مختارات من أُحْدُوثَة ميغاستين السفيرِ اليوناني لدى بَلاط مَغَدْها قبل الميلاد بنحو ثلاثمئة سنة ، ولم يَنْتَهِ إلينا عن الثلاثة عشر قرناً التي انقضت بين ذلك الزمن القديم والمغازي الإسلامية غيرُ قِصَّتَيْن للحاجَّيْن الصينيين فاهيان وهيوين سانغ اللذين زار أولُهما الهندَ في القرن الخامس وزارها الآخر في القرن السابع ، وذلك خلا ما ورد في كتب المؤلفين من شُذُور ، وتُعَدُّ قصة ثاني ذينك الحاجَّيْن،على الخصوص، أهمّ الوثائق التي وَصَلَتْ إلينا عن الهند قبل الغَزَوات الإسلامية .



٣٠ ـ أجنتا . محراب معبد منحوت تحت الأرض (يبلغ ارتفاع التمثال الكبير متراً واحداً و٦٠ سنتيمتراً)

وما فى كتب التاريخ من نقص كبير عن الهند يُسْفِر عن أهمية الآثار الماثلة كالمبانى والتماثيل والنُّصُبات[1] ، وأقدمُ هـذه الآثار الأعمدةُ التى نَقَشَ أشوكا عليها مراسيمَه قبل الميلاد بـ ٢٥٠ سنة ، ثم يليها فى القِدَم نقوش المبانى العظيمة كبهارَت وسانچى وغيرها من التى أقيمت فى القرن الأول من الميلاد أو قبله بقرنين أو أكثر، فمن يُنْعِم النظر فيها يظفر بفوائد كبيرة عن طبائع الشعوب التى أقامتها وعاداتها ومعتقداتها وفنونها و يَعْلَمْ درجة تمدنها .

و إلى تلك الآثار التى لا يكاد أقدمها يرجع إلى ماقبل ثلاثة قرون قبل الميلاد تُضَاف المعابد المصنوعة تحت الأرض والتماثيلُ والنقودُ التى تُلْقى ضوءا على تاريخ البُقْعَة التى أُنشئت فيها ، ومن ذلك أن كَشَفْنا من بقايا التماثيل والمبانى تأثيرَ الإغريق العميق فى بعض المناطق بعد الإسكندر بِعِدَّة قرون ، أى بعد طرد الإغريق من الهند بزمن طويل ، ومن ذلك أن نقوش المعابد تَـكْشِف لنا عن منشأ ما انتاب الهند القديمة من المعتقدات وتطور هذه المعتقدات .

وللدين أثر بالغ فى الهنـدوس على الدوام كما فى أمم الشرق ، و بلغ الدين من الشأن العظيم فى الهند ما نَقْدِر أن نتخذ به تطور المعتقدات أساساً لتقسيم تاريخىّ .

و يشتمل ذلك التقسيم الواسع ، الذى لم تُحَدَّد فيه الأدوار لتداخلها أو لوجودها معاً ، على الأعصر الآتية : ١ — العصر الويدى ، ٢ — العصر البرهمى ، ٣ — العصر البُدّهى ، ٤ — العصر البرهمى الحديث أو عصر النهضة البرهمية ، ٥ — العصر الإسلامى ، ٦ — العصر الأوربى .

---

(١) النصبة : الصورة التى تعبد .

١ — العصر الويدى

ترجع أوائل العصر الويدى إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وآيتها غزوُ الآريين للهند .

ويُعَدُّ العصر الويدىّ عصرَ تاريخ الهند الخرافىّ، فكلُّ ما نعرفه عنه من علم قليل هو ما تَكْشف عنه الكتب الدينية المعروفة بالويدا والتى أُصيب فى تسمية أهمّها رِغْ ويدا بتوراة آريى شمال الهند الغربى .

عاش قدماء الآريين الذين استوطنوا ما بين جبال هِمَالْيَة وجبال وِندهيا فى البَداءة رعاةً أعراباً ، ومن المفروض أن قاموا بغزوهم شيئاً فشيئاً ، ويظهر أن اقدمَ كتبهم وُضع قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً حين كانوا لايعرفون نظام الطوائف وحين كانوا يعبدون قُوَى الطبيعة غيرَ مقيمين لها معبداً ولا هيكلاً ، وإلى الشعوب التى مَلَكوها جَلَبوا لغةً ودِيانة جديدتيْن ولم يأتوها بفنِّ عِمارة ، فهؤلاء الآريون الفطريون ، وإن كانوا قادرين على وضع الكتب ، لم يكونوا عارفين بشَيْد المبانى الحجرية ، ولا شىء يَدُلُّ فى أقدم كتبهم على أنهم أنشأوا معابدَ وقصوراً .

وسنعود إلى العصر الويدىّ فى الفصل الذى خَصصناه لدرس الحضارة الآرية بالهند ، فلا نرى أن نُسْهِب فى بيانه الآن كما أننا لا نُسْهِب فى بيان العصر البرهمىّ الذى خُتِم به ذلك العصر فنعود إلى دراسة حضارته ، وهذا إلى أن وثائق هذين العصرين التاريخية الصحيحة مفقودة ، وما انتهى إلينا من قصائد العصر البرهمى التى أيدتها أحدُوثة ميغاستين يُثْبِت أن الهند أخذت فى العصر البرهمىّ تُغَطَّى بالمدن والمعابد والقصور ، وإن لم يَصِل إلينا أىُّ طَلَل لمبانيه .

٢ — العصر البُدَّهِى

يرجع ظهور البُدَّهِيَّة فى الهند إلى الأساطير أكثر مما إلى التاريخ ، فلا نعرف عن عصرها الأول غيرَ ما ورد فى الكتب البُدَّهِيَّة من الأحاديث الخيالية ، ثم أخذ صريح الحوادث يبدو والإبهامُ ينجلى بعد مغازى الإسكندر ، ولا سيما حين أضحت البُدَّهِيَّة ديناً رسمياً قبل المسيح بنحو ٢٥٠ سنة ، ثم عاد الغموض بعد زمن قليل مع الأسف ، وبَقِىَ على ما كان عليه عِدَّةَ قرون .

وقع غزو الإسكندر فى سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، فلما أتمَّ الإسكندر فَتْح بلاد فارس عزم على فتح الهند لكى يصبح سيد آسية .

وما كان من انقسام منطقة البنجاب إلى عِدَّةِ دُوَيلات مستقلة متنافسة يَسَّرَ للإسكندر بدء فتحه للهند ، والإسكندر حضر إلى الهند على رأس جيش مؤلف من ١٢٠٠٠٠ مقاتل ، وكانت نَوَاة هذا الجيش من الإغريق وسياجُه من الفُرْس ، وكان لديه أدِلَّاء من الهنود ، وكان على اتفاق مع رؤساء لسكان البلاد الأصليين ولا سيما مع ملك تاكشيلا الواقعة بين نهر السِّنْد ونهر جِهِلَم الذى كان يُعْرَف بنهر هيداسپس .

زَحَفَ الإسكندر من بقطريان إلى مدينة كابُل ثم سار إلى الهند فعَبَرَ نهر السِّنْد فاعترض له پُورَس ملك ما بين هيداسپس وچناب فهزم هذا الملكَ ثم حالفه تاركاً له مملكته فخضع له إذ ذاك عِدَّة ملوك ولا سيا ملك كشمير .

ثم زحف الإسكندر بعد عِدَّة وقائع ضدَّ رؤساء من الأهالى إلى نهر هيفاس (المعروف اليوم بنهر بياَس) ، فلم يوافقه جيشه على السير إلى ما وراءه ، فأقام على

ضِفافه اثني عشر هيكلاً تذكارياً لتكون علائمَ على نهاية الغزو ، فلما عاد إلى ضِفاف هيداسپس أنشأ أسطولاً فنَزَل به إلى حيث يَصُبُّ في نهر السِّند ، ولم يفتأ الإسكندر يحارب إلى أن وَصَــل إلى پَتَّالَة الواقعة على مصب نهر السِّند فأرسل أسطوله إلى الخليج الفارسي بقيادة نِيَارْك وسار على الشاطئ ، ثم قَسَّم جيشه إلى فيلقَيْن فأعاد أحــدَهما من طريق كرمان إلى بلاد فارس بقيادة كراتر ورَجَع بالآخر من طريق جدروزيا (السِّنْد) ، ثم وَصَل ذلك الأسطول إلى الخليج الفارسي وتلاقى الإسكندر وكراتر فأقيمت الأعياد ابتهاجاً بالعودة من الغزو .

ولو نظرنا إلى غزوة الإسكندر من ناحية الفتح لقلنا إنها غير ذات نتائج لتلاشي الحاميات الإغريقية التي تَرَكها في الهند في بضع سنين ، بيد أنه كان لتلك الحملة نتائجُ طيبةٌ لوصلها أوربة بالهند لأول مرة .

اغتنم الملك الهندوسيُّ چَنْدَرغُپْتَا (المعروف لدى الإغريق بساندروكوطوس) فرصةَ رجوع الإسكندر ، وكان ابناً لأحــد زعماء الپنجاب الذين شَتَّت الإسكندر شملهم ، فوَسَّع رُقْعَة مملكته في شمال الهند بالتدريج ، مُنَكِّلاً بالحاميات الإغريقية جاعلاً پاتلي پوترا (پَتْنَة الجديدة) عاصمةً لمملكة مَقَدْها ، ولم يلبث أن ذاع صيته فأرسل نيكاتور السلوقيُّ ، الذي مَلَك بعد وفاة الإسكندر سورية و بلادَ بابل والولايات الواقعة بين نهر الفرات ونهر السند ، حوالَيْ سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، سفيراً إلى بَلَاطه اسمه ميغاستين ، فأقام هذا السفير الإغريقيّ زمناً طويلاً بپاتلي پوترا ، فمن القصة التي ألفها هذا السفير فانتهى إلينا جزءٌ منها اطلعنا ، لأول مرة ، اطلاعاً صحيحاً على طبائع الهندوس وعاداتهم في ذلك الزمن .

ولم تقتصر علاقات الإغريق بالهنــدوس على غزوة الإسكندر ولا على سفارة

ميغاستين ، فاليوم نعلم ، مع سكوت المؤرخين ، وذلك من النقود و بقايا المبانى التى انتهت إلينا ، أن خلفاء الدولة الإغريقية البقطريانية التى أقامها نيكاتور السلوقى فتحوا البنجاب وشادوا عِدَّة ممالك ووَصَلوا إلى مترا ، وأن أفَاقاً اسمه ميناندر أسس سنة ١٢٦ قبل الميلاد مملكةً بين نهر جَمْنة ومصب نهر نَرْبَدَا .

والنقوش والنَّصَمات[1] والنقود هى كلُّ ما انتهى إلينا من تلك الممالك الإغريقية فى الهند ، فمنها نعلم أن هـذه الممالك زالت أمام مغازى الشيث حوالَى الميلاد ، وأن هـذه المغازى بدأت فى القرن الذى جاء قبل الميلاد ، وأن الشيث استولَوْا على شمال الهند الغربى فأقاموا مملكة اشتملت على بقطريان وضِفاف السند والبنجاب وقسم من راجپوتانا وأن أجل هـذه المملكة كان قصيراً ما احْتمل طَرْدُ الشيث من الهند فى أوائل القرن الأول من الميلاد .

ولْنَدَعْ جانباً هـذا الجزء الغامض من تاريخ الهند الذى بعثه المباحث الحديثة ولنأت إلى جَنْدَرغبتا وخلفائه .

يُدْعَى حفيد جَنْدَرْغبتا بأشوكا الشهير الذى تَقَلَّد الملك سنة ٢٥٠ قبل الميلاد تقريباً ، ومما جاء فى بعض الأساطير البُدَّهية أن أشوكا هذا قَتَل إخوته المئة الذين وُلدوا لأبيه من ستِّ عشرة زوجة فأمِن بذلك أمر منافستهم له فبَسَط ملكه على جميع شمال الهنـد ، وتَتَّضِح حدود مملكته من الكتابات التى لا تزال موجودة ، فمنها نرى أنها قامت بين أفغانستان والبنغال وهِمَالية ونَرْبَدا وأنها تاخمت مملكة الإغريق فى بقطريان من الغرب .

---

(١) النصمة : الصورة التى تعبد .

ويُبدئ تاريخ الهند المعماريُّ بالملك أشوكا ، ولا يزال كثيرٌ من العَمَد التى رفعها لتُنقَشَ عليها مراسيمه قائماً ، وأشهر هذه الآثار ، كالموجودة فى بهـارت وسانچى وبُدْهَة غَيا ذاتِ النقوش البارزة المعتبرة فى تاريخ البُدْهِيَّة ، صُنِـع فى أيام ملـكه أو بعدها بزمن قليـل ، ولم ينته إلينا شىء من القصور التى أنشأها ، ونفترض ، مع ذلك ، أنها جميلةٌ جداً ، فقد روى الحاجُّ فاهيان ، الذى رأى أطلالهـا وأطلال برج قصره فى پاتلى پوترا ، أنها من الأعاجيب التى يَعْجِز عن صنعها إنسان .

وأشوكا ذلك هو الذى جعل من البُدْهِيَّة دينَ الهند الرسمى ، وكان على جانب عظيم من الحَمِيَّة الدينية فأرسل مبشرين إلى كلِّ ناحية ، حتى سيلان ، حتى مصر بالقرب من بطليموس فيلادلفيا .

ودام مُلْكُ آل موريَة الذين كان أشوكا أهمَّ رجالهم نحوَ قرن ونصفِ قرن ، أى بين سنة ٣٢٥ وسنة ١٨٨ قبل الميلاد ، فبَعْد أن أديل منهم انقسمت الدولة التى شادها أشوكا إلى عِدَّة دُوَيْلات ذوات ملوك مستقلين ، واستطاعت مملـكة مَغَدْها أن تدوم ، مع ذلك ، إلى القرن السادس من الميلاد مقتصرةً على البُقْعَة التى تُعْرَفُ فى عصرنا ببهار ، وتَجِد فى القوائم التى وَضَعَها الپورانا أسماء ملوك مَغَدْها لمدة ألف سنة ، ولـكن هذه القوائم غيرُ موثوق بها .

والوثائقُ الوحيدة التى انتهت إلينا عن الهند بعد عهد أشوكا حتى الغزو الإسلامى هى المبانى وأساطير الپورانا ، فهـذه الوثائق وما يضاف إليها من أحاديث الحاجَّيْن الصينيَّيْن هى كلُّ ما نستطيع أن نَتَمَثَّل به حضارة الهند فى ذلك الدور الطويل .

ولم يظهر فى أثناء ذلك الظلام الدامس الذى دام اثنى عشر قرناً غيرُ قليل من الرجال ذوى الخطر فخَلَّدت أحاديث الهند ذكراهم ، وأشهرُ أولئك هو الرجل الأساطيرىُّ

وكرماديته الذى كان ملكاً لمالْوَا ومقيماً بأوجّين بالقرب من نَرْبَدَا ، ففى تلك الأحاديث أنه بَسَط مُلكه على بلاد الهند إلى أقصى جنوب الدَّكَن ، وعلى ما فى تاريخه من روح الأساطير نرى أنه مَثَّلَ دوراً مهماً فأرَّخ الهندوس سنة جلوسه فافترضوا أنها سنة ٥٧ قبل الميلاد فاتخذوها مبدأ للتاريخ المعروف بِسَمْوَا .

ومن دواعى الأسف أن خَلَتْ تواريخ الهندوس من الضبط ، شأنَ الهندوس فى كل أمر ، فمن البحث الدقيق فى المبانى والكتابات الحجرية يَثْبُت لنا أن وِكْرَماديته كان يملك بعد التاريخ المُدَوَّن فى الكتب بستمئة سنة .

وإلى هذا البطل تعزو الأساطير طَرْدَ الشيث من الهند ، والشيثُ كانوا قد أوغلوا بين إغريق بقطريان قبل الميلاد بقرنين فأخضعوهم ، ثم انتحل أحد ملوكهم كِنِشكا البدهيةَ فأقام قبيل الميلاد دولةً اشتملت على أفغانستان والپنجاب وراجپوتانا ، ولا نعلم عن تاريخ الشيث فى الهند غير أنهم نشروا الفن الإغريقىَّ فيها ، كما يشهد بذلك بعض التماثيل بمترا .

ونذكر من معاصرى وَكْرَماديته ، وذلك بحسب الكتابات التى فَسَّرها كننغهم ، الراجة هَرشاوَردهان الذى دام ملكه من سنة ٦٠٧ إلى سنة ٦٤٨ فقصّ علينا الحاجُّ الصينىّ هيوين سانغ الذى زار الهند سنة ٦٣٤ أنه من أقوى ملوك شمال الهند ، وكانت مدينة قَنُّوج التى هى من أقدم مدن الهند عاصمتَه ، وهذه المدينة ظلّت مقراً لآل غُبتا مدةً طويلة ، ويُفْتَرض أنها من مُهُودِ[1] الحضارة الآرية ، فذكرها بطليموس سنة ١٤٠ بعد الميلاد باسم قَنُّوجيا ، وكانت المملكةُ التى اتخذتها عاصمةً لها فى زمن هيوين سانغ تمتدُّ من كشمير إلى آسام ومن نيبال إلى نَرْبَدَا .

(١) مهود : جمع مهد .

وتقع قَنَّوج فى غرب أغرا وتبعد من نهر الغَنْج بضع كيلومترات ، وأجمعت الأنباء على مدح جلالها ، وأُعجب السلطان محمود الغزنوى بها أيَّما إعجاب وقتما هجم عليها سنة ١٠١٦ من الميلاد فرآها حينما دنا منها ، على رواية فرشتة ، « مدينة تُناطِح السماء بحصونها ومبانيها جديرةٌ بأن تَفْتَخِر بأنها لا نظير لها » .

ولم يبق من هذه العاصمة القديمة التى كان طولها خمسَ كيلو مترات ، على قول هيوين سانغ ، حجرٌ يُنَبِّئُنا بتاريخها ، وبلغ خراب مبانيها التى كانت قائمة قبل الغزو الإسلامى مبلغاً لم يقدِر كننغهم معه أن يَجِد طَلَلاً منها على ماقام به من بحث واستقصاء ، وكلُّ ما استطاع كننغهم أن يلاحظه من قديم فى مدينة قَنَّوج القديمة هو كتابةٌ يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٦ ميلادية ، أى إلى ما بعد الفتح الإسلامىِّ بزمن طويل ، وما تراه فيها من المبانى فجميعه أقيم فى العصر الإسلامىِّ وإن بُنِىَ بعضه من أنقاض المبانى الهندوسية القديمة .

وقَنَّوج هى من كُبْرَيات العواصم القديمة التى لا تَعْرِف تاريخها إلا من بعض الروايات المبهمة وبعض الكتابات ، ولا يجوز أن يُعْزَى إلى خيال الأدباء وحدَه ما وُصِفَتْ به عَظَمَةُ هذه العواصم بعد أن شاهدنا بقايا بعضها الذى نجا من التخريب كمدينة كهجورا مثلاً .

كانت قَنَّوج وكهجورا ومَهوبا وغيرُها من المدن المشهورة ، التى لم يبق منها سوى الاسم أو الأطلال ، عواصمَ لدول قوية ، وأشهرُ هذه العواصم ما كان يملِكها ملوك من العرق الراجپوتى الذى لا نزال نرى منه أُسَراً مالكةً فحافظ على نُظُمه وعاداته إن لم يَصُن استقلاله ، ومن المحزن أن بدأنا نعلَمَ تاريخ الراجپوت بعد أن

أخذوا يتصادمون هم والمسلمون ، أَجَلْ ، استطاع المسلمون أن يُخَرِّبوا عواصمهم وأن يدحروهم إلى مناطق راجپوتانا الجبلية الوَعِرة ، غير أنهم لم يخضعوا لهم إلّا ظاهراً .

ذلك العصر الذى دام من زمن خلفاء أشوكا إلى زمن النهضة البرهمية فإلى المغازى الإسلامية هو ، إذَنْ ، كالعصر الذى جاء قبله غموضاً ، فلولا ما بَقِى من مبانيه لجهلنا أمره تقريباً .

٣ — العصر البرهمىّ الجديد

ليس لدينا وثائقُ تاريخية عن عصر النهضة البرهمية أو العصر البرهمىّ الجديد ، فالنقود والمبانى هى المصادر الوحيدة التى يُرْجَع إليها فى تَنَوُّره .

ومن المحتمل أن شرع نفوذ البرهمية القديمة ، الذى لم يَغِبْ تماماً ، يبدو أيام آل كپتا الذين بسطوا سلطانهم على شمال الهنـد فى القرن الخامس من الميلاد ، ففى نقود ملوك قَنُّوج ودهلى ومَهُوبا ذِكْرٌ للعودة إلى المعتقدات القـديمة ، وفى القرن الخامس والقرن السادس لم ينفكّ نجم البُدَّهية عن الأفول ، فلما حَلّ القرن السادس نَدَرَ شَيْدُ مبانٍ بُدَّهيةٍ ، ولما حَلّ القرن الثامن غابت البُدَّهيَّة عن الوجود تقريباً ، وسندرس فى فصل آتٍ سرَّ هذا الغياب مستندين فى ذلك إلى المباحث التى قُمْنا بها فى الهند .

وأخـذ يظهر مذهبٌ جديد اسمه الجَيْنِيَّة حينما بدأ ذلك الماضى المظلم ينجلى ، ولـكن معظم الهند قد شُطِر بين دِيانة وِشنو ودِيانة شِيوا ولم يَعْدُ حـدُّ النظر محافظةُ البرهمية الجديدة على الآلهة القديمة ، فما بين هذه الدِّيانة الجديدة والدِّيانة القديمة من فرق عظيمٌ جداً ، فالبرهمية الجديدة هى ، بالحقيقة ، مزيجٌ من قديم المذاهب الويدية والمعتقدات البُدَّهية ومختلف الخرافات الأجنبية .

ولم يُقطَع عصر البرهمية الجديدة التي خَلَفَت البُدَّهِيةَ في الهند في القرن السابع أو القرن الثامن من الميلاد بفعل الغَزَوات الإسلامية ، فالهندُ ، وإن خضعت لأتباع النبي وكثيرٌ من الهندوس وإن رَضُوا بالإسـلام ديناً كما يدل عليه وجودُ خمسين مليون مسلمٍ في الهند ، حافظ معظم أهاليها على دينهم القديم ولا يزالون يزاولون شعائره حتى الآن .

٤ — العصر الإسلاميّ

مارس المسلمون في الهند مثلَ النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها ، ولا أمة ، كالمسلمين، تمّ لها من النفوذ البالغ ما تمّ للمسلمين كما أثبتناه في كتابنا «تاريخ حضارة العرب»، ولا تستثن الرومان من ذلك ، ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون غيَّر فريقٌ كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييراً عظيماً وظلّ هذا التغيير بادياً بعد زوال ملكهم ، فعلى ما نَعلَمه من عدم تأثير الغزو الإغريقي للهند وعلى ما نراه من تَفَهِ النفوذ الإنكليزيّ في الهند تجد فيها خمسين مليوناً من الهندوس يَدِينُون بدين محمد .

ترجع غَزَوات المسلمين الأولى للهند إلى القرن السابع ، ولم تكن هذه الغَزَوات سوى غارات مُوَقَّتَة ، ولكنها لم تُسْفِر عن استقرار دائم ، وفي أوائل القرن الحادي عشر فقط بدأ غزوُ المسلمين الجِدُّ للهند بقيادة محمود الغزنوي .

محمود الغزنويُّ هـذا من سلالة أَفّاق تركيّ أنشأ إمارة مستقلة في مدينة غَزْنَة الجبلية الواقعـة في جنوب كابُل الأفغانية ، فلما زحف إلى الهند كان شمالها الغربيّ مقسوماً بين أمراء كثيرين من الراجپوت معترفين لراجة دهلي بالغَلَب والتفوق ، وكان

راجة قَنُّوج الذى هو سليل راما يملك إمارة أودهة و إمارة وادى الغَنْج ، وكان آل پال يملكون البنغال وبهار، وكان خلفاء وِ كَرَمادِيتة يَمْلِكون ملوا ، وكان جنوب الهند يشتمل على الممالك الهندوسية الثلاث التى سنتكلم عنها فى مكان آخر : چيرا وچولا و پنديا .

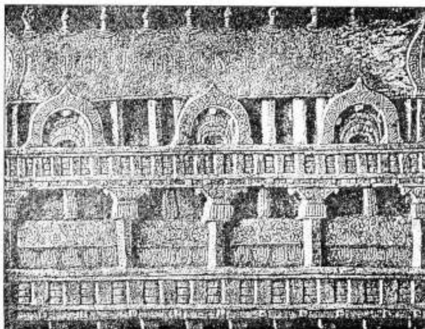
لم يُوَطِّد محمود الغزنوى سلطانه بسهولة ، فقد قاومه الراجپوت ، ولا سيما مَلِكُ لاهور أشدَّ مقاومة ، وما لاقاه من المصاعب الكبيرة غير التى لاقاها الإسكندر فلم تقلَّ الحَمَلات التى قام بها بين سنة ١٠٠١ وسنة ١٠٢٦ لإخضاع شمال الهند عن سبعَ عشرةَ حملة، ووصَلَ فى غزوه إلى الكجرات حيث انتهب معبد سومنات ، ولكنه لم يحتفظ بغير البنجاب ، فظلَّ الراجپوت مستقلين تقريباً ، ثم سار خلفاؤه على سُنَّته فى التوسع فهاجر الراجپوت إلى منطقة راجپوتانا الجبليــة الصعبة حيث أسَّسوا دُوَلاً لم تخضع بالحقيقة لأحد ولا للمغول ، وهى لا تزال مُلْكَ كثيرمن الأُسَر الراجپوتية المالكة .

وما تمَّ على يد محمود الغزنوى من فتح فذو طابع دينى سياسىّ ، فمحمودُ الغزنوى كان مسلماً متينَ العقيدة توّاقاً إلى رفع شأن الشريعة النبوية فأعلن فى كل مكان أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم فأنعم خليفة بغداد عليه بلقب يمين الدولة .

وكانت الهند تتمتع ، حين أوغل محمود الغزنوى فيها ، بما لا عهد لها بمثله من الوَفْر واليُسْر ، وما لا يزال قائماً فيها من المبانى والآثار يُثبِت أن وصف أدباء الشرق لها بعيدٌ من المبالغة ، وما كان يقع بين ملوكها المحليين من الحروب لا يُؤَدّى إلاّ إلى تبديل مواضع خزائنها وكنوزها من غير أن تخرج منها مع أن ما عُرِّضَت له منذ قرن من امتصاصها المنظم قد نَهَكها تماماً .

وليس مما لا طائل فيه أن نسهب فى ذلك الأمر لنطلع على سرٍّ غِنَى المبانى التى تَصِفها فى هذا الشِّعْر فلم يجد مؤرخو الشرق ، حتى محمود الغزنوى نفسه ، من التعابير ما يُعْرِبون به عن إعجابهم بها .

فلما فتح محمود الغزنوى مدينة متْرا سنة ١٠١٩ بَهَرَتْه أُبَّهتها فكتب يقول :



٣١ — بهارت . نقوش بناء هندوسى أقيم فى القرن الثانى قبل الميلاد تقريباً

« تحتوى مدينة متْرا العجيبة على أكثرَ من ألف من المبانى المتينة متانةَ أهل الإيمان والمصنوعِ أكثرُها من الرُّخام .. وإذا عُدَّ المال الذى أُنفق على إنشاء هذه المبانى بلغ ألوف الألوف من الدنانير فضلاً عن أنه لا يقام مثل هــذه المدينة فى أقلَّ من قرنين ، ووَجَد جنودى فى معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذواتِ عيون من ياقوت أحمر تساوى قيمته خمسين ألف دينار ، ووَجَدوا فيها صنماً آخر مزخرفاً

بما زينته أربعمئة مثقال من الياقوت الأزرق .. ووجدوا فيها ، فضلاً عن ذلك ، نحو مئة صنم من الفضة يعدل وزنها حمل مئة بعير » .

رأى محمود الغزنوي مثل تلك العجائب في جميع المدن التي دخلها ، ولا سيما في قنوج التي كان لها أن تباهي بأنها فريدة بمبانيها كما روى فرشتة الذي ذكرناه آنفاً ، فوجد في أثناء الحملة التي قام بها سنة ١٠٢٤ لهدم معبد سومنات بالكجرات على الخصوص ، معبداً عجيباً ذا ستّ وخمسين سارية مصفحة بصفائح من ذهب ومرصعة بالحجارة الكريمة ، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطة بهيكله ، وذا صنم ضخم قائم في وسطه مشتمل في جوانبه على مقدار كبير من الحجارة الكريمة ، وذا حَشَم مؤلفين من ألفي برهمي وخمسمئة راقصة وثلاثمئة موسيقيّ ، ويُقدَّر ما غنمه المسلمون من الكنوز في تلك الأثناء بنحو ٢٥٠ مليون فرنك أي بمبلغ عظيم جداً في ذلك الزمن .

ولم يقلّ دَهَش خلفاء محمودالغزنوي عنه تجاه الثروات والعجائب التي لاقوها في كلّ مكان بالهند، فقد هدم محمدالغوريّ أصنامَ ألف معبد ببنارس وحمّل أربعة آلاف بعير من الغنائم التي استولى عليها ، و بلغ ما حمله جنود المسلمين في حملتهم الأولى التي قاموا بها في الدّكن من الذهب الكثير ما تركوا معه الأدوات الفضية لثقَل نقلها ، فلم تكن أواني المعابد و بيوت الأغنياء مصنوعة إلاّ من الذهب الخالص ، ولم يكن الناس ليتداولوا غير النقود الذهبية على عكس ما يقع في أيامنا .

ودام سلطان آل محمود الغزنويّ الأفغانِ في غزنة ولاهور من سنة ٩٩٦ إلى سنة ١١٨٦ حين طردهم محمود الغوريّ رأسُ أسْرة الأفغان الثانية ، فسلك محمود الغوريّ هذا في فتوحه مسلكاً بسيطاً كُتِب له التوفيق به كما كتب لخلفائه ، ومنهم الإنكليز ،

من بعده ، فقام ذلك على التدخل فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من نزّاع وعلى الاستفادة من تنافسهم بإضعافهم ثم بالاستيلاء على ممالكهم ، فهو بعد أن توسّط حليفاً فى نزاع كان يُفرّق بين ملوك دهلى وقنّوج جمع مملكتيهم وألّف منهما دولة واسعة يحدُّها بنارس من الشرق وغواليار وكجرات من الجنوب جاعلاً مدينة دهلى مقرّاً للحكومة .

مات محمود الغورى فأعان أحد وُلاته قطبُ الدين استقلالَه فأضحى قطب الدين هذا رأسَ الأسرة الأفغانية المعروفة بأسرة الملوك المماليك التى دام سلطانها من سنة ١٢٠٦ إلى سنة ١٢٩٠ ، وإلى قطب الدين هذا يُعْزَى إنشاء « منارة قطب » بدهلى.

والملكُ ألتَمَش هو أشهر ملوك هذه الأسرة ، ويُعَدُّ مزاره الفخم من أشهر مبانى دهلى ، ودام عهده من سنة ١٢١١ إلى سنة ١٢٣٦ فحارب فى أثنائه عدّة مرّات ضدّ غارات المغول وفتن القبائل المحلية .



٣٢ — سانچى . منظر معبد مقبب (من المحتمل أن يكون هذا المعبد قد أنشىء فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد أنشىء السياج المحيط به والأبواب الكبيرة المؤدية إليه فى القرن الأول من الميلاد) (يبلغ ارتفاع القبة نحو ١٧ متراً ويبلغ قطرها ٣٤ متراً)

أُديل من الأسرة الغورية فقامت مقامها أسرة أخرى يُعَدّ علاء الدين من أشهر ملوكها (١٢٩٤ — ١٣١٣) ، لِما اتّسع به مَدَى الفتوح الإسلامية فى عهده ولِما كان له من الذوق فى الفنّ المعمارى مثل ما كان لأسلافه كما يشهد بذلك الباب المنقوش الذى يحمل اسمه بدهلى .

ومن سوء حظ هذه الأسرة الجديدة أن تفاقم خطر المغول الذين جُنّدوا فى

جيشها المَلَكىّ شيئاً فشيئاً ، فلم يلبث زعيم هؤلاء المرتزقة أن أسَّس أُسرة أفغانيـة مالـكة خامسة (١٣٢٠ — ١٤١٤) اشتهر منهـا فَيْرُوز وطوغلُق ، وامتاز ملوكها بالطابع الذى وَسَمُوا به فنَّ العِمارة .

وفى سنة ١٣٩٨ ، أيام ثانى ذينك المِلكين ، أغار تيمورلنك على الهند فسلَب دهلى فجاب الهند كإعصار فعاد إلى بلاده .

وكان الوُلاة يحاولون الاستقلال أيام انهماك ملوك دهلى فى الحروب فوُفِّق أكثرهم له فشادوا عِدَّة ممالك فتنافست عواصمها فى البهاء وزيَّنَت أجيادها بقلائد من المبانى التى لا يزال عددٌ كبيرٌ منها قائماً .

سادت الفوضى بعـد غارة تيمورلنك ، فحاول الوُلاة الذين استقلوا بالولايات الإسلامية أن يصبحوا أصحاب دهلى ، فتمكن اللودى ، حكامُ لاهور ، من الاستيلاء عليها فى سنة ١٤٥٠ فأسَّسوا أُسرة أفغانية مالـكة سابعة دام سلطانها إلى سنة ١٥١٧ .

فى تلك السنة سَلَكَ حاكم لاهور الجـديد تلك السُّنَّة فأراد الاستقلال فرأى إبرٰهيم لودى أن يحمله على الخضوع فاستغاث بملك كابُل المغولىّ بابَر الذى هو من حَفَدة تيمورلنك وجنكيزخان فأبْصَر بابَرُ هذا أن فرصة فتح الهند سَنَحَت فلاح له اهتبالها فزحف إليها بجيش مؤلف من ١٢٠٠٠ رجل ففَلَّ جيش لودى المؤلف من ١٠٠٠٠٠ رجل فاستولى على دهلى وعلى جميع شمال الهند .

بابَر ذلك هو مُؤَسِّس آل الملك المغولىّ بالهند ، وهو الذى استطاع أن يُدَوِّخها، ثم مات فى أغرا سنة ١٥٣٠ بعد أن أصبحت أفغانستان وهندوستان قَبْضَتَه .

حافظ جنوب الهند على استقلاله فى مُعْظم الدور الإسلامىّ الأول الذى لخصناه آنفاً ، وذلك خلا القسمَ المتوسط المجاور لِنَرْبَدَا الذى استولت عليه الدول الإسلامية

المستقلة ، ولم تخضع الهندُ بأسْرها لسلطان واحد إلا فى الدور الأخير من الدولة المغولية ، وذلك لوقت قصير جداً ، فنى شمال الهند ووسطها ، إذَنْ ، مارَس بابَر وخلفاؤه ملكهم .

اضْطُرَّ همايون (١٥٣٠ — ١٥٥٦) ، ابن مؤسس الدولة المغولية بالهند ، إلى الجهاد طويلاً فأُكرِه على الجلاء عن أغرا إلى السِّند حيث تَزَوَّج امرأة فارسية فرُزِق منها فى سنة ١٥٤٢ ابنه الذى اشتهر بالملك أكبر فيما بعد ، ثم ثَبَّت دعائم مملكته فاستردَّ ما خَسِره فمات بالقرب من دهلى حيث لا يزال ضريحه ماثلاً .

وفى زمن خليفة همايون ، الملكِ أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) ، تَجَلَّتْ عظمة الدولة المغولية بالهند ، فقد حاول هـذا الملك إدغام الهندوس بالمسلمين فتزَوَّج أميرات هندوسيات واتَّخَذ وزراء له من المسلمين والهندوس معاً ، وأراد مَزْج فَنَّىْ عِمارة كلتا الأمتين ، ونستطيع أن نَتَبَيَّنَ مقاصده من المبانى التى شادها وإن سكت التاريخ عنها ، ويُعَدُّ عهده الذى دام خمسين سنة من أنضر العهود الجديرة بأطيب الذكر ، ونرى النُّظُم التى انتحلها من أكثر النُّظُم ملاءمةً للشعوب التى ملكها ، وكُتِبَ لكثير من هذه النُّظُم البقاء بعدَه ، وقلَّدَها الإنكليز فى الغالب .

وأكبرُ ، إذ كان مرتاباً وكان يَعُدُّ الهندوس والمسلمين من المتعصبين ، احترم ديانتيهم ، وشَجَّع بإنصاف إقامةَ معابد لجميع الأديان ، وخُيِّل إليه أن يَصْهَرَ الأديان فى دين واحد فحَبِط ما سعى إليه .

والملك جهانكير (١٦٠٥ — ١٦٢٨) من النوابغ أيضاً ، وإن كان دون أبيه أكبرَ أهميةً ، وهو ، إذ كان مرتاباً كأبيه مُتَحَلِّياً مثله بخُلُق التسامح ، سار على سياسته فتزوّج نساء مسلماتٍ وهندوسيات فعامل هاتين الأمتين بإنصاف ، وكان

للنصارى الذين بلغ عددهم ستين شخصاً فى عاصمته نصيب من رعايته .

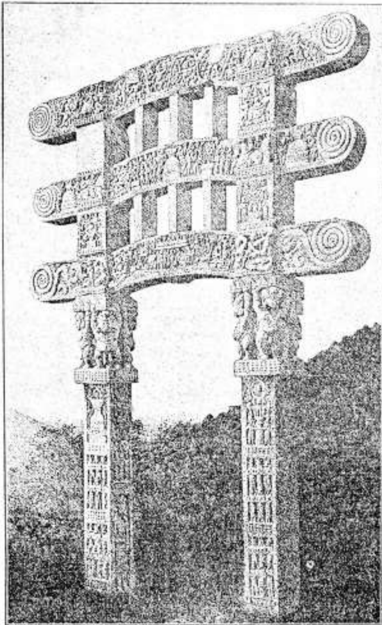
ولم يكن ابنه شاهجهان الذى خَلَفَه سنة ١٦٢٨ فدام سلطانه إلى سنة ١٦٥٨ متسامحاً مثلَه ، فقد حذف من فن العِمارة ما استطاع حذفه من المؤثرات الهندوسية كما يدل على ذلك ما شاده من المبانى .

وفى سنة ١٦٣٧ استقرّ شاهجهان بدهلى وأنشأ فيها القصر الفخم الذى لم يسمح الإنكليز بغير بقاء جزء منه ، فيُعَدُّ ، مع ذلك ، من أجمل مبانى الدنيا .

وفى عهد شاهجهان أقيمت أشهر مبانى المغول فنذكرُ منها تاج محل ومسجد اللؤلؤ بأغرا والقصرَ والمسجد الكبير بدهلى ، الخ .

وخَلَف أورنغ زيب أباه شاهجهان فى سنة ١٦٥٨ فدام ملكه إلى سنة ١٧٠٧ ، فكان يقيم بأغرا تارةً و بدهلى تارةً أخرى ، وفاق أباه قلةَ تسامحٍ تجاه الهندوس ، وأدّى بتعصبه إلى سقوط الدولة المغولية بالهند ، وذلك أنه قضى على مملكة بيجاپور ومملكة غول كوندا الإسلاميتين فى الدكن فقضى على الحاجز الأخير القائم أمام أعدائه الذين كان المراتها أهمّهم ، فأعَدّ بذلك انحلال دولته العظمى ، فنحن لو عَدَدْنا أهمية الدولة بنسبة اتساعها لقلنا إن الدولة المغولية بالهند بلغت الأوْج فى عهد أورنغ زيب ، غير أنه كان ينطوى تحت هذا الاتساع بذور الانحطاط التى لم تلبث أن محقتْها ، فهى لم تَعِش ، بالحقيقة ، بعد الملك الذى رفع شأنها .

دام العصر الإسلامى الذى أجملنا تاريخه بما تقدم نحوَ سبعمئة سنة ، ولم تكن وَحْدَة الهند فى مُعْظَم هذا العصر الطويل الذى امتدَّ إلى زمن أورنغ زيب فى غير الظاهر ، فقد أقام وُلاة المسلمين ممالكَ مستقلةً كمملكة غور ومملكة غولكوندا ومملكة بيجاپور وغيرها من الممالك التى لا نرى البحث فى أمورها ، فالحقُّ أن الهند لم تُصْبح قَبْضَةَ سيد واحد إلاّ فى أيام أورنغ زيب ، وذلك لوقت قصير .



٢٣ ـ سانچى : منظر باب بعيد قليلا من المعبد المقبب
(يبلغ مجموع ارتفاعه خمسة أمتار و٢٥ سنتيمتراً)

لم تَدُم تلك الدولة المُوَحَّدَة زمناً طويلاً ، فكان موت أورنغ زيب نذيرَ انهيارها ، فلم يكد أورنغ زيب يتوفَّى حتى وقعت الهند في الفوضى العميقة، فأخذ المراتها والأفغان والسِّك والجات والراجبوت وأمراء مسلمون يتلهَّوْن بالنهاب و باقتطاع ممالكَ مستقلةٍ من الجثَّةِ الضخمة فلم يبق لخلفاء أورنغ زيب الضعفاء سوى سلطة اسمية ، واستردَّ الدَّكَنُ استقلالَه فأنشأ الوزير نظامٌ فيه دولة لا تزال قائمة باسمه حتى الآن واتخذ مدينة حيدر آباد عاصمة لها .

وفي سنة ١٧٣٩ أغار شاهُ الفرس نادرٌ على دهلي فغصَب جميع ما جمعه المغول من الكنوز ، فآب بغنائمَ تُقدَّر بأكثرَ من مليار فرنك ، وفي سنة ١٧٤٧ استولى الأفغان على لاهور والپنجاب ، واغتنم المراتها الفوضى فنزَعوا من الدولة أجملَ ولاياتها .

ولم يكن زوال مُلْك المغول كلّه وليدَ يوم واحد ، فقد ظلّ جالساً على عرش دهلي حَفَدَة أولئك الملوك ١٥٠ سنة أخرى ، بيْد أن سلطانهم أصبح اسمياً بالتدريج فكانت خاتمةُ أمرهم أن أضْحَوا موظفين لدى الإنكليز ، ولما أُسِر آخرهم في سنة ١٨٠٧ كان سلطانه أقلّ من ظلٍّ في المدينة التي كانت مقرًّا لآبائه .

وتَعُدُّ غزواتِ المراتها من أقوى الأسباب في سقوط دولة المغول بعد موت أورنغ زيب وتقسيمها إلى عِدَّة ممالك ، ونكاد نُسْدُل على هذه الغَزَوات ثوباً من النسيان لو كانت غاراتِ انتهابٍ كالتي قام بها الفرس والأفغان ، لا مغازيَ فتحٍ ، فقد كان المراتها يجمعون الهند بأسْرها تحت سيادتهم لو تَمّ لهم النصر فترى الهندُ نفسَها إذ ذاك قَبْضَةَ الهندوس لأولِ مَرَّة منذ قرون كثيرة، فيتطلب الفتح الأوربيّ حينئذ جهوداً غيرَ التي اقتضاها .

وكان المراتها يسكنون المنطقة المعروفة قديماً بمَهَاراشترا والواقعةَ في الشمال الغربيّ من الدّكّن وفي جنوب ولاية بَمْبي الحاضرة مبتدئةً من جبال ساتپور ، وتجوب تلك المنطقةَ الجبليةَ فروعٌ من جبال كَهات وجبالِ وِندهيا فكان يقيم بها أناس جبليون لم يخضعوا للمسلمين إلاّ ظاهراً .

بدا المراتها أعداء أشداء للدولة المغولية في سنوات أورنغ زيب الأخيرة ، فما أظهره هذا الملك من قلة التسامح حَمَلهم على شَقّ العصا ، فجمع الأفّاق شيواجي المولودُ في جوار پونا جيشاً من الأتباع ، بعد أن قَضَى عُمراً في قطع السابلة ، فاستطاع أن يقتطع مملكته التي لم تشتمل على غير جزء من مملكة بيجاپور في بدء الأمر فلم يلبث أن وَسَّع رُقْعتها في مُعْظم جنوب الهند ، فمات أورنغ زيب قبل أن يقهره مع ما قام به من الحروب الطاحنة .

ومملكة بيجاپور الإسلامية هي الحاجز المهمّ الذي كان يَقِي الدولةَ المغولية من المراتها ، بيد أن أورنغ زيب هَدَم هذه المملكة فاستطاع المراتها أن يقوموا بالمغازي والغارات أحراراً في كل مكان .

فتَح المراتها ، بعد موت أورنغ زيب ، أكثرَ الولايات الهندية بالتتابع ، ومَثَّل أمراء المراتها المتحدون دوراً عظيماً في نصف قرن ، وإنهم لجَادُّون في تدويخ الهند بأسْرها إذ وَقَفَتْهم مغازي الأفغان الذين كَسَروهم سنة ١٧٦٠ في معركة پاني پَت الشهيرة حيث قُتِل ٢٠٠٠٠٠ رجل كما روى .

ومن نتائج غَزَوات الأفغان وتنافس أمراء المراتها وما اضْطُرَّ إليه هؤلاء، من محاربة أمراء المسلمين المستقلين أن دَبَّ الضعف فيهم ، فاغتنم الإنكليز ذلك فاستطاعوا أن يقهروهم ، والإنكليز وَجَدوا بين أولئك من قاتلوهم بعنف مع ذلك ،

ولم يُتِمَّ الإنكليز إخضاعهم إلا بعد أربع حروب انتهت في أوائل هذا القرن ، ولا يزال بعض أمراء المراتها مالكين لإندور وغواليار على الخصوص ، ولكنهم لا يتمتعون بشيء من السلطان السياسيّ على ما عندهم من جيوش كثيرة .

٦ — تاريخ جنوب الهند

جنوبُ الهند منطقة لا يرتبط تاريخها في تاريخ شمال الهند إلا عرضاً ، ونحن إذ لم نَسْتطِعْ أن نطبّق عليه تقسيماتنا العامة نرى أن ندرسه في مطلب مستقل .

قَسّم القدماء الهند إلى المنطقتين الكبيرتين : الهندِ الشمالية أو الهندوستان والهندِ الجنوبية أو الدَّكَن ، واتُّخِذ وادي نَرْبَدَا في الغرب والجبال المجاورة لكَتَك على خليج البنغال فواصلَ لتينك المنطقتين ، واليوم لا يُطْلِقون اسم الدَّكَن إلا على الهَضْبة الوسطى التي يَحُدُّها نهر نَرْبَدَا وجبال وِندهيا شمالاً ووادي كِرشنا جنوباً وجبال كَهات الغربية غرباً وجبال كَتَك وجبال كَهات الشرقية شرقاً .

وإذا عَدَوْتَ المسلمين وقليلاً من الآدميين القاطنين ببعض البِقاع المُعيَّنة وجدتَ سكان الدَّكَن القديمة من ذوي الجلود السُّمْر الذين هم نتيجة توالد العروق السُّود الفطرية والغزاةِ الصُّفْر الذين أتَوْا من التبت لا ريب والمغول الذين أتَوْا من الغرب ، وهذا التوالد المُكَرَّر قد تَمَّ في عصور أقدمَ من عصرنا كثيراً ، واليوم يبدو سكان جنوب الهند ، وإن شئتَ فَقُل الدراويدَ ، من أكثر عروق الهند تجانساً ، فهم يَدِينون منذ اثنى عشر قرناً بديانة واحدة ويتخذون فنوناً واحدةً ويتكلمون بلغات تكاد تكون واحدة .

ويظهر أنه لم يكن للبُدّهية أثرٌ كبير فى سكان جنوب الهند ، وهــذا الأثر ، عند افتراض وجوده ، قد زال بسرعة ، فلا ترى بعد نهر كِرشنا بناء بُدّهيّاً .

ولِلْجَيْنِيَّة أثرٌ أكبرُ من أثر البُدّهِيَّة هنالك ، فلا تزال تَجِد لهـا أشياعاً حول كانجى وَرَمَ وفى ميسور ، وللإسلام أتباعٌ غيرُ قليلين هنالك أيضاً ، ولـكن البرهميـة ظلت دِيانة الأكثرين من سكان جنوب الهنـد ، ويُقسّم هؤلاء بين المذهبين : وِشنو وَشِيوا ، غيرَ أن معابدهم متماثلةٌ غـيرُ مختلفة فى سوى الرموز ، فنرى ، لذلك ، أن نَضَع ، مِن الناحية المعارية ، أكثر مبانى جنوب الهند فى فصل واحد بدلاً من أن نُصَنِّفها بحسب المدن والممالك كما نُضْطَرّ إليه فى أمر مبانى شمال الهند ووسطها .

وتاريخُ جنوب الهند ، إلى دور المغازى الإسلامية ، أى إلى القرن الثالث عشر من الميلاد ، أشدُّ غموضاً من تاريخ شمال الهند ، فلا تجِد فيه آثاراً أدبية كـكتب الويدا ومهابهارتا الخ ، ولا يجاوز ما أُلِّف من الكتب بلغة التَّمول أو اللغات الدراويدية الأخرى القرنَ الثامن بعد الميلاد قِدَماً ، ولا يجاوز ما أقيم من المبانى الحجرية وما نُقِش من الـكتابات الحجرية القرنَ الخامس بعد الميلاد قِدَماً .

ونستنتج من تقاويم الملوك وفتوحهم التى أشير إليها فى الـكتابات الحجرية ، وورودِ أسماء لممالك جنوب الهند فى مراسيم أشوكا قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وذِكْرِ أسماء بعض المدن فى كتب قدماء المؤلفين ، وجودَ ممالكَ فى جنوب الهند قبل الميلاد بخمسة قرون أو بستة قرون وإن كنا لا نستطيع قولَ شىء عن حضــارتها ، ومما لا مِراء فيه ، مع ذلك ، أن جنوب الهند لم يتمدّن إلا بعد شمالها بزمن طويل .

ويمكن تلخيص ما نَعْرِفه عن ممالك جنوب الهنـــد قبل المغازى الإسلامية بما يأتى :

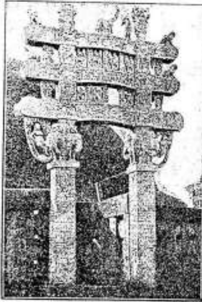
كان جنوب الهنـد مقسوماً ، قبل الميلاد ، إلى ثلاث ممالكَ كبيرةٍ ، مملـكةَ بنديا ومملـكةَ جولا ومملـكة جيرا ، وذلك بحسب أساطير الهنـدوس التى جاءت الـكتاباتُ الحجرية مُصَدِّقَةً لها ، وكانت مملـكة بنديا تلك تقع فى أقصى جنوب الهند ، وورد ذكرها فى المهابهارتا وفى مراسيم أشوكا وأحاديث ميغاستين ، ويُرَى ، على العموم ، أنها كانت موجودة فى القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً وإن لم يَنْتَهِ إلينا شىء من تاريخها ، واتَّخذت مدينةَ مَدُورا عاصمةً لها ، ومما لا شكَّ فيه أن كان لسكان مدينة مَدُورا هذه علاقاتٌ بالرومان كما تدلُّ عليه النقود الرومانية التى وُجِدَت بالقرب منها .

ثم استولى بيتُ جولا المالكُ على مملـكةَ بنـديا حوالَى القرن الحادى عشر من الميـلاد فظلَّ أمرها اسمياً إلى منتصف القرن السادس عشر تقريباً ، فلما حَلَّت سنة ١٥٥٩ استولى عليها راجه بيجانَغَر ، وشِيدَ فى عهد الملك تيرومل (١٦٢٣ـ١٦٥٩) ما فى مَدُورا من المبانى .

وكانت مملـكةَ جولا تقع فى شمال مملـكة بنديا وشرقِها فتمتدُّ من وادى كولرون ووادى كاويرى إلى مستوى مدراس ، ومن اسمها اشْتُقَّ اسم جول مَنْدَلَم الذى جعله الأوربيون كورومنيدل .

ومن المحتمل أن تكون هذه المملكةَ قد قامت فى الزمن الذى قامت فيــه مملكة بنديا ، فقــد ذُكِرَتْ فى مراسيم أشوكا وإن جهلنــا تاريخها مثلما نجهــلُ تاريخَ بنديا ، ونعلمُ ، مع ذلك ، أن ملوك جولا كانوا ، كما جاء فى الـكتابات الحجرية ، فى

عظيم يُسْرٍ ورَخاء بين القرن العاشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ، فقهروا جنوب الهند وامتدّ سلطانهم إلى سيلان التى كانوا قد استَولَوْا عليها فى سنة ٢٥٠ قبل ظهور المسيح على حسب ما جاء فى التواريخ السنغالية ، وبلغت فتوحهم البنغالَ ومملكة أُودَهَة فى الشمال ، فكانوا مالكين فى القرن الحادى عشر لأقوى ما عَرَفه جنوب الهند من الممالك ، بَيْدَ أن نفوذهم لم يَدُم طويلًا ، فقد كان آفلًا قبل الغزو الإسلامى الذى وقع سنة ١٣١٠ .



٣٤ — سانچى . منظر الباب الكبير الشمالى (يبلغ مجموع ارتفاعه نحو تسعة أمتار و٦٠ سنتيمترًا) .

ويظهر أن عاصمة مملكة چولا فى القرن الثانى من الميلاد كانت مدينةَ أُورايُور القريبة من ترى جنابلى فنُقِلت إلى مدينة كُنْبَهَة كُونَم فى القرن الثالث فإلى مدينة تانجور فى القرن العاشر .

وكان الچيرا يملكون ناحيةَ الغرب من مملكة چولا وناحيةَ الشمال من مملكة بنديا وجزءاً كبيراً من ولاية ميسور الحاضرة ، وكانت مملكتُهم قائمةً قبل الميلاد ، فقد ورد ذكرها فى مراسيم أشوكا أيضاً ، وكانت هذه المملكة على جانب عظيم من القوة فى القرن الرابع والقرن الخامس من الميلاد كما تشهد بذلك تقاويمُ الفتُوح المنقوشةُ قديماً على الحجارة ، وبلغت فُتُوح ملوكهم مَدًى بعيداً فى الشمال فافتخر مَلِكهم كُوغَنِى راجه الثالث فى إحدى الكتابات بوصول جيوشه إلى نهر نَرْبَدَا ،

وتمّ هـذا الفتح حوالى القرن الثامن من الميلاد ، فاستُدِلّ عليه من معبد قائم على الطراز الدراويدى فى إيلورا .

وكانت مدينة تلاكاد ، الواقعة على نهر كاويرى والبعيدة اثنى عشرَ فرسخاً من شرق ميسور ، عاصمةَ جيرا .

ويُضاف إلى تلك الممالك الثلاث مملكةُ جالوكيا التى مثّلت دوراً مهماً فى فنّ العمارة على الأقل ، وكان ظهور هـذه المملكة بعد تلك بزمن طويل ، فقد قامت فى القرن السادس من الميلاد ، ثم غاب نجمها بعد ستة قرون ، وتُقسَّم أُسَر جالوكيا المالكة إلى بيت جالوكيا الشرق و بيت جالوكيا الغرب على حسب ما كان ملوكهم يُقسِّمون الدّكن .

وكان سلطان ذينك الفرعين مبسوطاً ، فوق تلك الممالك الثلاث ، على أملاك واسعة مشتملة على مملكة ميسور الحاضرة وجزء كبير من مملكة نظام الحالية ، وكانا يزعمان أنهما من العرق الراجبوتى فجاء طِراز مبانيهما الذى هو مزيج من طِراز الهند الشمالية وطِراز الهند الجنوبية مؤيداً لزعمهما .

وما تركه جالوكيا من المبانى قليل ، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد نجم عن اتخاذ المسلمين لِما كان يملكه جالوكيا من المدن ، كبيجابور وكُلْبَرْغَه الخ ، مقراً لدولهم الكبرى فيما بعد ، ولتلك المبانى بعضُ الأهمية مع ذلك ، فقد رأى بعض المؤلفين أنها عنوان طِراز سمَّوْه بالطِّراز الجالوكياوى .

وفى ولاية ميسور بلغَ ذلك الطِّراز غايته بين سنة ١٠٠٠ وسنة ١٣٠٠ من الميلاد ، فتجد أجمل نماذجه فى هُلاَّبيد و بيلور ، ومن المحتمل ألّا تكون قد أُنشِئت قبل القرن الثانى عشر من الميلاد ، ويُذكِّرنا ما فيها من فَيْضِ الزخرف بالمبانى الجَيْنِيّة ،

وليس ما يسترها من النقوش التى تُمَثِّل الآلهة الهندوسية شِيوا و پاروَتى ووِشنو الخ ، بأرق من نقوش المعابد الدراويدية ، ونَعُدُّها مرحلةَ انتقال بين طراز شمال الهند وطراز جنوبها أكثرَ من أن تكون عنوانَ طِراز جديد .

وطَفِق جنوب الهند يُعَرَّض للمغازى الإسلامية منذ القرن الثالث عشر من الميلاد، وجاهد المسلمون عِدّة قرون لفتح أقسام الدَّكَن المختلفة، ولم يُوَفَّقوا لتدويخ جميعه إلّا لوقت قصير ، وفى الدَّكَن أقاموا ممالكَ قويةً و إن لم تكن من الشَّوْكة بما يقاس ببأسهم فى شمال الهنـد ، وذلك كما يبدو لنا ، عنـد سكوت التاريخ ، من قِلّة تأثيرهم الدينىّ واللغوىّ والفنىّ فيه ، ولم يصبح فن العِمارة إسلامياً ، مع ذلك ، إلا فى المدن التى ظَلَّت بأيديهم زمناً طويلًا ، أجَلْ ، شاد ملوكٌ من الهندوس، كأحد ملوك مَدُورا ، قصوراً على الطِّراز الإسلامى ، ولكن تأثير هـذا الطِّراز ظلَّ فى المعابد الهندوسية كالعدم تقريباً .

وقعت مغازى المسلمين الأولى للدَّكَن سـنة ١٣٠٦ فى عهد علاء الدين ، فبلغ الجيش الإسلامىُّ شاطىء ملبار فى سنة ١٣١٠ وخُرِّبت هُلّابيدُ وميسورُ فى سـنة ١٣١٠ ، وكان لوَرَنْغل مثلُ نصيبهما فى سـنة ١٣٢٣ ، واسُرْعان ما تمَّ فتح شمال الدَّكَن فقام بأمور حكومتــه ، بعض الوقت ، وُلاة مسلمون تابعون لملوك دهلى مُتَّخِذون دَوْلَتْ آباد مقراً لهم.

لم يلبث أولئـك الوُلاة أن نَشَدوا الاسـتقلال لأنفسهم فـكان أولُ بيتٍ إسلامىّ مالك مستقل بيتَ ملوك بَهَمَنى الذى دام سلطانه من سنة ١٣٤٧ إلى سنـة ١٥٢٦ فاستطاع فى أثناء ذلك أن يَضُمَّ إليه ساحل أوريسة بعضَ الزمن، ولم تَتِمّ هذه المملـكة أن قُسِّمت إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة متحاربة على الدوام ، وهـذه

الممالك هى : مملكة بيجاپور (١٤٨٩ — ١٦٨٩) ومملكة أحمد نَقَر (١٤٩٠ — ١٦٣٧) ومملكة غول كوندا (١٥١٢ — ١٦٨٧) ومملكة بَرار (١٤٨٤ — ١٥٧٤) ومملكة بِيدَر (١٤٨٩ — ١٥٩٩) ، فما كان من اقتتال هـذه الممالك منعها من التوسُّع فى جنوب الهند فَسَهُـل على جنوب الهند أن يحافظ على استقلاله .



٣٥ — خريطة الهند الإسلامية فى عهد الملك أكبر
(القرن السادس عشر من الميلاد)
(خططها المؤلف)

والواقعُ أن جنوب الهند كان مقسوماً إلى مِنطقتين مختلفتين فى القرن الخامس عشر وفى النصف الأول من القرن السادس عشر ، فأما المِنطقة الأولى فكانت واقعةً شمال نهر كِرِشنا تابعةً للمسلمين ، وأما المِنطقة الثانية فكانت واقعةً جنوب ذلك

النهر تابعةً لراجوات من الهندوس معدودين من عُمّال راجه بيجانَغَر ، وما في بيجانَغَر هذه من المباني الرائعة ، الخرِبة الآن ، شاهدٌ على ازدهار دولتهم فيما مضى .

وفي سنة ١٥٦٤ فقط وُفِّق ملوك الدَّكَن المسلمون المتحدون لتقويض سلطان الهندوس في جنوب الهند وتخريب بيجانَغَر ، ولم يكن تدويخ جنوب الهند هذا إلا ناقصاً مع ذلك ، فقد قامت فيه عِدّة دُوَيْلات ، كدُوَيْلة تانجو ودُوَيْلة مَدُورا وغيرهما من الدُّوَيْلات التي حافظت على استقلالها بين الفِتَن إلى أن نزعه المراتها ثم الإنكليز .

استقرّ المراتها بتانجور سنة ١٦٧٤ واستولى المسلمون على مَدُورا سنة ١٧٣٦ ، ثم استفاد الإنكليز الذين ثبّت أمرهم بمدراس سنة ١٧٣٦ من تلك المنازعات ففتحوا جنوب الهند بالتدريج ، وما أصاب مسلمي ميسور من الهزيمة سنة ١٧٩٩ في زمن تيپو صاحب أسفر عن تَسَلُّم الإنكليز لزمام السلطة العليا في جنوب الهند وعن بسط سيادتهم عليه بأسْره ، وسنرى ، عما قليل ، كيف تمّ لهم هذا الفتح وما هي العوامل التي جعلته ممكناً .

الفَصلُ الثانِى

صِلاتُ الهندِ القديمةِ بالغربِ

تاريخ الغزوات الأوربيـــة

كيف فُتِحَت الهنـــد

---

(١) صلات الهند بأوربة فى القرون القديمة والقرون الوسطى — كيف كانت الهند تتصل بأوربة فى القرون القديمة — العرب وحدهم كانوا واسطة ذلك — صلات الهندوس بالفرس — صلات الهندوس بالإغريق بعد غزو الإسكندر — صلات الهند بممالك بقطريان الإغريقية — اكتشاف طريق إلى الهند أيام قياصرة الرومان — طريق بحر أريثرة — معارف بطليموس عن الهند — انقطاع صلات أوربة بالهند مدة ألف سنة بعد الفتوح الإسلامية — رحلات علماء من العرب إلى الهند — بعثة ماركوبولو — اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى القرن الخامس عشر — نتائج هذا الاكتشاف العظيمة — (٢) مؤسسات الأوربيين الأولى بالهند — محاولات البرتغاليين والهولنديين — إقامة أول شركة إنكليزية فى أوائل القرن السابع عشر — كره وكلاء الإنكليز فى البلاط المغولى — حلول الإنكليز محل البرتغاليين والهولنديين بالتدريج — تأسيس شركة فرنسية للتجارة فى الهند — (٣) الصراع الفرنسى الإنكليزى فى الهند — قوة الإنكليز والفرنسيين فى أوائل ذلك الصراع — محاولة دوپليكس طرد الإنكليز من الهند — استدعاؤه — حبوط عمل خلفه — اتساع الفتح الإنكليزى بسرعة بعد طرد الفرنسيين — (٤) كيف فتحت الهند — انتحال الإنكليز لأساليب دوپليكس — كيف فتح الإنكليز الهند بجنود هندوس ومال هندوسى — الصفات الخلقية التى أدت إلى استيلاء الإنكليز على الهند — نتائج فقدان الشعور القومى فى الهند .

---

١ — صِلات الهند بأوربة فى القرون القديمة والقرون الوسطى

كانت أوربة والهند تتبادلان سِلَعَهما منذ أقدم القرون ، ولـكن بطُرُق عرضيَّة،

وذانك العالَمان ، وإن كانا يتقايضان ، لم يتعارفا ، وتلك الصلات كانت تتمّ إما بطريق آسية الوسطى بعد أن تجوب السلع الهندية بلاد التتر وبلاد فارس وإما بطريق مصر بعد أن تقطع هذه السلع البحرَ الأحمر مارّةً من الخليج الفارسي وسواحل بلاد العرب، والعربُ وحدَهم كانوا واسطة هذه المقايضات ، وظلّ سكان اليمن الذين كانوا يُعْرَفون بأهل سَبَأ محتكرين لها زمناً طويلاً ، وكان تجار مصرَ ، بعد وفاة الإسكندر بـ ١٥٠ سنة ، ينالون سِلَع الهند بواسطة هؤلاء العرب .

وطرقُ اتصال العرب بالهند كانت ثلاثاً ، كانت إحـداها بَرِّيّةً والأُخْريان بحريتين ، فأما الطريقُ البرية فـكانت تَصِل بواسطة القوافل أعظمَ مراكز الشرق كسمرقند ودمشق وبغداد وغيرها بالهند مارّةً ببلاد الفرس وكشمير ، وأما الطريقُ البحرية فـكانت أكثر استطراقاً ، فـكان التجار الذين يسلُـكونها يأتون إلى موانىء الخليج الفارسيّ حيث يتسلمون سلع الهند لينقلوها إلى البحر الأحمر مُحَاذين سواحل بلاد العرب ، ومن البحر الأحمر كانت تلك السلع تُنْقَل إلى الإسكندرية حيث كان الفينيقيون ثم التجار الأوربيون من جنوه وبيزه والبندقية يأخذونها ليوزعوها بين مرافىء البحر المتوسط ، فـكانت مصر ، بذلك ، خطَّ وصل بين الشرق والغرب وكانت تلك التجارةُ مصدرَ ثروتها المهمّ .

صِلاتُ الفرس بالهند كانت أُولى الصِّلات لا ريب ، فنعلم مما ذكره هيرودتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد أن دارا بن هِسْتَسْب « أراد أن يعرف البحر الذي يصبّ فيه نهر السِّنْد » فأرسل بعثةً بقيادة سيلاكس فسارت هذه البعثة من جوار أتك الواقعة على ضِفاف نهر السِّند مع هذا النهر إلى البحر ثم أبحرت إلى الغرب

فوصَلَت إلى البحر الأحمر بعد سفر دام ثلاثين شهراً » فبعد أن تمَّت هـذه الرِّحلة البحرية أخضع دارا الهنودَ وبَسَط سيادته على ذلك البحر » .

ولم يكن الهنود الذين حَـكَى عنهم هيرودتس فكانوا يدفعون إلى دارا الأُتَاوَى[1]، كما تشهد به الـكتابات المسمارية ، إلا من الهمج المجاورين لنهر السِّند ، فنعلم مما رواه هيرودتس أن من عاداتهم أكلَ أقربائهم وأصدقائهم إذا مَرِضوا « وعدَّ نسائهم من الأنعام » ، ومن المحتمل أن دامت تلك الصلات فى عهـد خلفاء دارا ، ودليلنا على ذلك وجود أفيال فى جيش ملك الفرس دارا قرمان حينما غلَبه الإسكندر سـنة ٣٣٠ قبل الميلاد .

ولم يَعُد أمر الهند معروفاً بعضَ المعرفة إلا بعد غزو الإسكندر سنة ٣٢٧ قبل الميلاد، وكاد هذا البطل المقدونىّ لا يَمَسُّها ، فلم يُوغِلْ فيما هو أبعد من نهر السِّند ، ولم يبق أحد من جنوده فى الهند بعد عشر سنين من حملته ، فأسفرت هـذه الحملة عن لفت الأنظار إلى الهند بعد أن كان أمرها مجهولاً تقريباً .

غادر الإسكندر بلاد الهند ، فلم تلبث الممالك التابعة له والمَرْزَبات[2] التى أقامها أن رفعت رايات العصيان ، ففتَرت العلاقات التى تربط الهند بدولته العظمى بعد موته بالتدريج ، فبَدَت الهند طليقة من الفاتحين الأجانب بعد عشر سنوات .

على أن صِلات الإغريق بالهنـد دامت بواسطة ممالك بقطريان الإغريقية كما يُثْبِت ذلك خبرُ الوفد الذى أرسله مؤسسُ المملـكة السورية السلوقىُّ بزعامة ميغاستين إلى پاتلى پوترا (پتنه) حوالَىْ سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، وهذه هى الرحلة الأولى التى نفَذَ

---

(١) الأتاوى : جمع الإتاوة وهى الخَراج — (٢) المرزبة : الرآسة عند الفرس .

الأوربيون فيها قلب الهند فكانت أُحْدُوثةُ ميغاستين التى انتهت إلينا المصدرَ الوحيد عن أحوال الهند فى ذلك العصر .

ومما لا شكَّ فيه أن الهدف المقصود من الوفد هو أن يُحَوَّل عن مصرَ إلى تَدْمُر ودمشق وأنطاكية مجرى التجارة الذى كان يَسْلُكه العرب فيؤدى إلى اغتناء البطالمة كما أدَّى إلى إثراء خلفاء القاهرة فيما بعد ، فنشأ عن ذلك انتظامُ العلاقات بين بقطريان وشمال الهند الغربى انتظاماً تستدلّ عليه من المؤثرات فى مبانى شمال الهند الغربى .

أضحت مصرُ ولايةً رومانية سنة ٣٠ قبل الميلاد فاعتقد أغسطس ، كما كان الناس يعتقدون ، أن بلاد العرب هى مصدر التوابل والأبازير مع أن العرب كانوا يأتون بها من الهند ، فوَجَّه إلى بلاد العرب حملةً لم يُكْتَب لها فوز ، وفى زمن القيصر كلوديوس ، أى فى القرن الأول من الميلاد ، دفعت ريحٌ سفينةً إلى سيلان اتفاقاً فعُلِم بذلك أن من الممكن الوصولَ إلى الهند من سَوَاء البحر العظيم بفعل بعض الرياح بدلاً من مُحاذاة السواحل كما كان يُسار قبل ذلك ، فصار تجار من الرومان يقومون بهذه الرِّحْلة من مصر فى سبعين يوماً على رواية پلين فيبلغون مَنغلور الواقعةَ بين غوا وكاليكت ، وفى ذلك الحين ألف تاجر إسكندريٌّ كتاباً سَمَّاه « رحلة فى بحر أريثْرة[1] » فنَجِد فيه بعض المعارف الجغرافية .

وما عَرَفه القدماء عن الهند فى القرن الثانى من الميلاد تَعْلَمه من كتاب بطليموس فى الجغرافية ، وما فى هذا الكتاب من المعارف فسطحىٌّ مقصور على وصف الساحل .

---

(١) بحر أريثرة : هو المحيط الهندى الآن وفى العصور الأولى أطلق اليونان هذا الاسم على المحيط الهندى وخليج العرب والخليج الفارسى (المترجم)

وقَلّت الصِّلات بالهند فى دور انحطاط الدولة الرومانية ثم قُطِعت تماماً حينما فتح العربُ العالمَ القديم بقيادة خلفاء محمد ، وظلّت مقطوعةً عن العالم النصرانىّ أكثرَ من ألف سنة ، فمن أراد الاطلاع على حال الهند فى القرون الوسطى فليطالع ما جاء فى كتب سُيّاح العرب من الأنباء ، ومن هؤلاء السياح نذكر المسعودىَّ الذى زارها فى أواسط القرن العاشر وابنَ بطوطة الذى طاف فيها سنة ١٣٣٠ ، الخ .

وزار الهند ، قبل سيّاح العرب ، حجاجٌ من الصينيين البُدّهيّين ، وما رواه هيوين سانغ عن الهند فى القرن السابع من الميلاد فأهمُّ ما انتهى إلينا عن الهند فى ذلك الدور .

وأولُ من وُفّق من الأوربيين لدخول الهند رجلان من البندقية ، أحدُهما ماركو بولو الذى زارها فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، والآخرُ ، وهو من أبناء بلده ، زارها فى القرن الخامس عشر من الميلاد بعد أن نَزَل من الفرات والخليج الفارسى فوَصَل إلى كَمبى (كهمبات) .

وحَرّكت عجائبُ الهند الخرافية عواملَ الطمع فى الشعوب الأوربية فى القرون الوسطى ، فصار كلُّ واحدٍ منها يبحث عن طريق للوصول إليها غيرِ الطريق التى منعهم المسلمون منها ، وليس بمجهول أن كريستوف كولونب وَجَد أمريكة فى طريقه إلى الهند ، فاعتقد ، حين وَطِئ جُزُرَ الأنتيل أنه نَزَل إلى الجُزُر القريبة من شواطئ الهند ، فمات هذا الملّاح الكبير قبل أن يَعْرِف خطأه .

والبرتغاليون هم الذين وَجَدوا الطريق المنشودة فكان لاكتشافها أهمُّ النتائج ، ففى سنة ١٤٩٨ جاوز فاسكودوغاما رأسَ إفريقية الجنوبىَّ متوجهاً إلى الهند فبلغ كاليكت الواقعة على شاطئ مليار من جنوب الهند .

والبرتغاليون ، حين وُفِّقُوا لهذا الاكتشاف الكبير ، وَصَلوا أوربة بالهند رأساً فقَضَوْا بذلك على تجارة مصرَ التى ظلَّت مستودعَ السِّلع الهندية عِدَّةَ قرون ، ولم تنقطع علاقات أوربة بالهند منذ ذلك الحين فانقضَّ كلُّ أفَّاق أوربىّ عليها بُغْيَةَ استغلالها ، ومنذ أوائل هذا القرن فقط كُشِف أمر اللغة السَّنسكريتية وتوالت البعثات العلمية على الهند بانتظام فكُشِف عن الهند ذلك الغِطاء الذى كان يَحْجُبها عن أوربة فكانت تُعَدُّ مكاناً لكلِّ عجيب .

٢ — إقامة الأوربيين الأولى بالهند

وَصَل ڤاسكودوغاما إلى سواحل الهند حيث يقيم زعيمٌ صغيرٌ اسمه زامورن الكاليكتى ، فاستولى ألبوكِرك على غوءا فاتخذها عاصمةَ مِنطقة الهند البرتغالية ، ولم يَفْتَأْ البرتغاليون يَبْسُطون سلطانهم فدَان لهم قِسْمٌ كبير من الساحل الغربى الممتد من ملبار إلى جزيرة كاتهياوار .

والبرتغاليون ، و إن عَرَفوا أن يفتحوا ، جَهِلوا المحافظة على ما فتحوا ، فلم يلبثوا أن تَوَارَوْا أمام أوربيين آخرين حينما أتَوْهم لينافسوا .

والهولنديون أول من بدأوا بمنافستهم ، فكانت حملتُهم الأولى فى سنة ١٥٩٦، فلم يَنْقَضِ نصفُ قرن حتى طردوهم ، والهولنديون لو لم يُزَحْزِحهم الإنكليز عن مكانهم لأقاموا فى الهند إمبراطورية عظيمة ، ولكن موارد هولندة إذ كانت ضعيفة فى أوربة لم تَقْدِر هولندة على مقاتلتهم باستمرار فتَخَلَّت عن مكانها لهم .

وفى سنة ١٦٠٠ ، أى فى عهد الملكة إليزابت ، أُلِّفَت أول شركة إنكليزية

للتجارة فى الهنـد فبدت وضيعةً فى أوائل الأمر ، وبدا وكلاؤها الذين بُعِثوا إلى بَلاط المغول خُشَّعاً ، وفى سنة ١٦٠٨ ، حين ظهر هوكينز الإنـكليزى سفيراً لملك إنـكلترة جيمس الأول ولشركة الهند الإنـكليزية لدى بَلاط الملك جهانـكير المغولى قال له وزراء هذا الملك إن ملك إنكلترة ليس غيرَ سيدِ جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون ، فلما مضت سنتان ونصف سنة على إقامته هنالك من غير أن يظفر بطائل عند الملك المغولىّ ضَرَع إليه أن يُعطِيَه كتاباً إلى مولاه فقال له الوزير الأول إن مما لا يناسب قَدْرَ ملك مغولىّ أن يكتب إلى أمير صغير كملك إنـكلترة .

بَيْدَ أن تلك الشركة الإنكليزية لم تَقْنَط ، فنالت ، بالدسائس ، بَرَاءة من الملك المغولىّ سُمِح لها فيها بأن تتاجر فى سُورت ، فاتسعت دائرة أعمالها بالتدريج فـكان لها فى أقلّ من ستين سنة فروعاً فى كل مكان تقريباً ، فاشترت فى سـنة ١٦٦١ مدينة بمبى من البرتغال ، ثم اسـتقرت فى سنة ١٦٧٧ بمدراس ، ثم عَيَّنَت فى سنة ١٦٨١ قائداً لـكتائبَ بالهند ، ثم أرادت فى سنة ١٦٨٦ أن تقاتل كتائبَ الملك المغولىّ بالبنغال فهُزِمت .

قام الإنـكليز مقام البرتغاليين والهنولنديين شيئاً فشيئاً ، ولـكنهم لم يُعتَّموا أن قابلوا أعداء آخرين طامعين فى فتح الهند وجهاً لوجه ، فرأوا أن يُزيلوهم من طريقهم أيضاً ، فهؤلاء المنافسون الجُدُد هم الفرنسيون الذين أخذوا يُثبِّتون أقدامهم فى الهند وإن أتوها متأخرين ، فقد أنشأوا فى سـنة ١٦٦٤ شركةً فرنسية للتجارة فى الهند تحت رعاية كولبر .

لم تُفـكِّر دولةٌ أوربية ثانيةٌ فى بَسْط سلطانها ، ولو قليلاً ، على جزء من داخل الهند ما ظَلَّت دولة المغول قائمة ، مكتفيةً بما لها من المؤسساتفى سواحلها ، ولـكن

أبواب المطامع فُتِحَت بوفاة أورنغ زيب الذى كان موته نذير انهيار سلطان المغول ، فلما تم انحلال الدولة المغولية العظمى قامت على أنقاضها عِدَّة ممالك فصار من الممكنات إقامة إمبراطورية جديدة فى الهند بالتَّدَخُّل فيما يقع بين أمرائها الكثيرين من المنازعات الداخلية ، وفى الهند كان الفرنسيون والإنكليز وحدهم ثابتى الأساس قادرين على وِراثة تلك التَّرِكة التى يتنازعها كثيرمن الخصوم ، فلَسُرْعان ما اصْطَرَعوا .

٣ — الصراع الفرنسى الإنكليزى فى الهند

أوّل نزاع بين الفرنسيين والإنكليز كان فى جنوب الهند ، ففى جنوب الهند كانت الفوضى عظيمة ، فكان مُعْظم الدَّكَن مُلْكاً لملكة حيدر آباد المستقلة ، وكان أمير أركت يدير كرناتك بالنيابة عن حيدر آباد ، وكان أقصى الجنوب مقسوماً بين الممالك الهندوسية : ترى جنابلى وميسور وتانجور ، وكان الفرنسيون يملكون بونديچيرى ومتاجرَ غيرذات قيمة فى ماهى وكارى كَل وچندر نَغَر ، وكان الإنكليز يملكون مدراس وبمبى ومرافىء كثيرة على الشاطىء ، وكان امراتها يَشُنّون الغارات على كلّ مكان .

وَقَعَت الحرب بين فرنسة وإنكلترة فى أوربة سنة ١٧٤٠ فَعَنَّ لدوپليكس الذى عُيِّن سنة ١٧٤١ حاكماً عاماً للممتلكات الفرنسية فى الهند أن يَطْرُد الإنكليز من الهند وأن يُحَوِّلها إلى إمبراطورية فرنسية ، فوُفِّق سنة ١٧٤٦ لإجلاء الإنكليز عن أكثر مراكزهم ، ولا سيما عن مدراس بعد وقائعَ كثيرة ، فلم يلبث أن أصبح

سيد ساحل الهند الشرقيّ بأسره ، وهو إذ رأى أنه لا يَقْدِر أن ينال من حكومته رجالاً ولا أموالاً عقــد عزيمته على عدم مطالبتهــا بأيّ مَدَد وعلى فتح أعظم إمبراطوريات العالم وطَرْدِ جميع الإنــكليز بعثات الأور بيين الذين هم كلٌّ من بَقُوا عنده مستعيناً بنائبه بوسى .

واغتنم دو پليـكس فرصةَ وفاة نظام حيدر آبادر فأَجْلَس أحدَ أنصــاره على عرشه وتَمَكَّن من نصب أميرٍ مُوَالٍ على أرْكُت ، ودو پليـكس ذلك عُيّنَ ، فى مقابل ما ساعد به كثيراً من الأمراء ، أميراً على جميع البِقاع الواقعـة جنوب نهر كرشنا ، أى على بلاد تَعْدِل فرنسة مِساحةً ويزيد دخلها عن خمسةَ عشر مليونَ فرنك ، وهكذا استفحل أمر دو پليكس وعَظُم نفوذه من غير أن يُـكلِّفَ فرنسة شيئاً ، فلما رأى الإنـكليز أنهم كادوا يُجْلَوْن عن جميع ما يملـكون فى الهند تَذَرَّعوا بِحَوْك الدسائس فى قصر فرساى فاستطاعوا ، بوسائلَ لا يزال أمرها سِرًّا غامضاً ، أن يَحْمِلُوا لويس الخامس عشر على استدعاء دو پليكس وعلى ترك جميع ما فتحه ، فــكان هذا أخزى عهدٍ قطعه ملكٌ فرنسيٌّ .

يَئس دو پليـكس فعاد إلى فرنسه ليموت فيها بائساً ، ومن المؤسف أن أطاع أمر استدعائه بعــد أن أصبح ، بالحقيقة ، أميرَ عِدَّة ولايات واعترف ملك المغول بإمارته وعاد لا يخشى ضياعها ، فلو خالف أمر مولاه ذلك لأسدى إلى فرنسة خدمة لا تُقَدَّر بثمن ما دامت تلك المعاهدة الشائنة لم تَحُلْ دون محاربة إنـكلترة ثانيةً فى سنة ١٧٥٧ ، ولم يكن مُجْدِياً عزم فرنسـة ، إذ ذاك ، على تجديد ماصنعه دو پليكس بعد أن أُقْصِيَ عن الهند هذا الرجلُ العظيم ، فخَلَفه الأسيف لالى الذى جُهِّزَ بوسائل لم يَنَل دو پليـكس مثلَها فى أيّ زمن فلم تنفعه هــذه الوسائل ما عَطِل من دهاء

كدهاء دو پليكس ضرورىٌّ لتمام النصر له ، فقد غُلِب فى كلّ مكان فخَسِر فى سنة ١٧٦١ حتى پونديچيرى فعاد إلى فرنسة فَحُكِم عليه بالقتل فقُتِل مع أن الإنصاف يقضى بقتل أولئك الذين استدعَوْا دو پليكس فأضاعوا على فرنسة إمبراطورية الهند .

تَخَلّص الإنكليز من مزاحمة الفرنسيين فَخَلا لهم الجوُّ فاتسعت فتوحهم بتدخلهم الدائم فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من منازعات و بتسليط بعض هؤلاء الأمراء على بعضٍ ، فكانت هزيمة ملك ميسور الأخير تيپو صاحب فى سِرِنْغاپَتَم فى أواخر القرن السابق ، وكانت محاربتهم الطويلة للمراتها فى أوائل هذا القرن الصفحاتِ الأخيرةَ المُهِمّةَ لفتحهم الهند ، ثم ضُمّت إليهم بالتدريج الممالك الهندية التى لم يستولوا عليها بعدُ متذرعين للوصول إلى هذا بأية ذريعة ، وعاد الأمراء ، الذين لم تُنْزَع أملاكهم لِما قاموا به من الخِدَم ، لا يمارسون سلطةً سياسية وأضحَوْا معدودين من أتباع إنكلترة ، ومملكةُ نيپال وحدَها هى التى حافظت على استقلالها التام إلى أيامنا .

٤ — كيف فُتِحَت الهند

ليس من مقاصدنا أن نُفَصِّل فى هذا الكتاب الوقائعَ التى قام بها الإنكليز لفتحهم الهند ، ولكن من المفيد أن نشير إلى المبادئ العامة التى سار الإنكليز عليها ، وتلك المبادئ قد اهتدى إليها دو پليكس الذى هو من أكبر دُهاة التاريخ ، فأنصفه الإنكليز فأقَرّوا بأن اتخاذهم لأساليبه أدى إلى فتحهم الهند التى لم يَحْلُمُوا بتدويخها فى أى زمن ، فاسمع ماقاله المؤرخ الإنكليزى الكبير ما كولى : «دو پليكسُ

هو أول من أدرك إمكان إقامة إمبراطورية أوربية فى الهند على أنقاض المملكة المغولية ، فقد وضع هذا الداهية ذو النظر الثاقب خطةَ ذلك حين كان أمهرُ موظفى الشركة الإنكليزية لا يفكرون فى غير تنظيم قوائم الأوْسَاق[1] وحساباتها ، ولم يقتصر دوپليكس على انتحال غرض ، فقد قَدَّر ببصره الحديد الوسائلَ المؤدية إلى بلوغ ذلك الغرض ، فرأى أن جميع ما يُمْكِن أمراءَ الهند أن يَحْشِدوه من الجيوش فى ميدان القتال لا يقدر على مقاومة فئة قليلة من الجنود المُدَرَّبين الذين يُقادون بحسب فن الغرب الحربى ، ورأى أيضاً أن أهالى الهند يمكنهم أن يتحولوا إلى كتائب يُبَاهِى بقيادتها مريشالُ سكس أو فردريكُ الكبير إذا كان على رأسهم زعماء أوربيون ، ورأى أيضاً أن أفضل ما يستطيع أن يتمسك به أفَّاقٌ أوربىٌّ ليَصِلَ إلى الحكم فى الهند هو أن يُوَجِّه الأحوال والأهواء وأن يتكلم بلسان إحدى اللُّعَب الفَخْمَة التى تَحْمِل ألقاب الملوك



٣٦ ـ بدهه غيا . المعبد الكبير (يبلغ ارتفاعه ٥٢ متراً) (تدل صورة هذا المعبد التى التقطها المؤلف على حاله الحاضرة بعد ترميمه وإصلاحه ، وقد أُنشئ قبيل الميلاد ويرجح أن يكون سياجه الذى يرى بعض أنقاضه فى هذه الصورة قد أقيم فى زمن أشوكا ، أى فى القرن الثالث قبل الميلاد)

---

(١) الأوساق : جمع الوسق وهو الحمل .

أو الأمراء ، فـكان دو پليـكس أولَ من طبقوا فنون الحرب والسياسة التى سار عليها الإنـكليز بعد سنوات قليلة مُوَفَّقِين » .

ثم كَرَّرَ الفيلسوف الإنـكليزى ستيوارت ميل ما قاله ما كولى تقريباً عندما بحث فى أسباب فتح الإنكليز للهند فقال : « إن الاكتشافَيْن المهمَّيْن اللذين انتهى الفرنسيون إليهما لفتح الهند هما : ضَعْفُ جيوش الاهالى تجاه الـكتائب الأوربية المُدَرَّبة ، وسهولة تدريب من يستخدمهم الأوربيون من الأهالى على النظام الأوربى الحربى » .

و إلى ذينك السببين يعزو الإنكليزىُّ المفضال الأستاذ سيلى فتحَ الهند ، فبعد أن ذكرهما فى كتاب نشره حديثاً لم يَرَ أن ذلك الفتح نشأ عن بَسْطَة الإنكليز فى الخَلْق والخُلُق كما يَتَشَدَّق به بعض هؤلاء ، وعلى ما أراه من عدم القسوة على الإنكليز ، خلافاً للأستاذ سيلى الشديد فى حكمه على أبناء قومه ، أُضِيفُ إلى السببين المذكورين آنفاً عنادَ الإنـكليز وعزمَهم الذى لا ينثنى ، ففى هذين الخُلقين سِرُّ سيادتهم و بقاء سلطانهم .

وليس ذانك الاكتشافان وحدَهما ما أسفرت عنــه عبقرية دو پليـكس ، فالإنكليز مَدِينُون له ، أيضاً ، باكتشافٍ ثالث طَبَّقُوه ، فقد قام هذا الاكتشاف ، الذى هو مثل ذينك الاكتشافين أهميةً ، على إمكان تدويخ مستعمرة بأموال أهاليها المغلوبين ورجالهم ، ومن الغريب أن يَعْجِز الفرنسيون عن العمل بهذا المبــدأ الذى اهتدى إليه واحدٌ منهم ، فقد أثبت مثالُ تونـكنَ ومثال الجزائر وغيرِهما من الأمثلة درجةَ عجز المـكتشفين لأحد المبادىء عن تطبيق هذا المبدأ فى بعض الأحيان .

والإنـكليز ، حين اتخذوا مبادىء دو پليكس نِبْراساً لهم ، توصلوا إلى فتح الهند

برجال الهندوس وأموالهم ، وإن شئت فقل بجنودٍ غيرِ جنودهم ونقودٍ غيرِ نقودهم[1]، فالحقُّ أن الهند دانت للإنكليز بجيوش مؤلفة من الهندوس و بأموال أدتها حكومات من الهندوس .

وقد يَتَعَجَّب الإنسان ، أولَ وهلة ، من قهر تلك الملايين الكثيرة بسهولة ، مع أنه يجب أن تكون جيوش الفاتحين مؤلفةً من جنود كثيرين ، لا من بضعة آلاف من الجنود ، ولكن عجبه يَبْطُل إذا قرأ فصولَ هذا الكتاب السابقة ، ففيها يرى أن كلة « الهند » ليست سوى تعبيرٍ جغرافيّ وأن الهند بلادُ شعوبٍ مختلفة أشدَّ الاختلاف ، وأنها لا تحتوى على ما تَعْرِفه أوربة من معنى « الأمة الواحدة » ، أى وَحْدَةِ العرق واللغة والمشاعر المؤدية إلى وَحْدَة المصالح ، وأنها لا تشتمل على قومية هندية كالقومية الفرنسية أو القومية الألمانية أو القومية الطليانية الخ ، وأن بعض شعوب الهند المختلفة أجنبيٌّ عن بعض ، وأن نظام الطوائف الذى يُفَرِّق بين مختلف طبقات العرق الواحد ، كما سنرى ذلك ، يوجب نَظَرَ أىٍّ هندوسىٍّ إلى أكثرية أبناء قومه الساحقة كغرباء مثل الأوربيين كما يَعُدُّ الراجپوتىُّ سكانَ جنوب الهند من الغرباء .

ولا نُطِيل البحث فى فُقْدان الشعور القومىّ فى الهند فُقْداناً لا يدركه الأوربيون الذين لم يطوفوا فيها ، قال الأستاذ الإنكليزى سيلى : « تغيب إمبراطوريتنا الهندية

---

(١) لم يقتل فى معركة پلاسى ، التى خاض الإنكليز غمارها ضد الهندوس فى سنة ١٧٥٧ فكانت أشهر المعارك التى دخلوها لما أسفر انتصارهم فيها عن انتقال سيادة البنغال إليهم وخضوع الهند بأسرها لهم فيما بعد ، سوى اثنين وعشرين جنديا ولم يجرح فيها سوى خمسين رجلا ، وكان جيش العدو فيها مشتملا على ٦٨٠٠٠ مقاتل وكان الجيش الإنكليزى لا يشتمل فيها على غير ٦٥٠ أوربيا خلا من فيه من الهندوس .

عن الوجود عندما يبدأ الشعور القومىّ ينمو فيها وعندما يشعُر الناس فيها بأن من العار مساعدتَنا على دوام سلطاننا ولو لم يبتغوا طرد الأجنبىّ منها بالفعل ، ما دام ثلثـا الحاميات مؤلفيْن من السكان الأصليين » .

ولما لا تَراه من الشعور القومى فى الهنـد تجِد سلطان الإنكليز قوياً فيها وتجِد ما يحدث فيهـا من الفِتَن غيرَ ذى خطر ، ومن ذلك أن ثورة السپاهى التى اشتعلت سنة ١٨٥٧ كانت وليدة شَكَاوى عسكرية خاصةً ، فلم تكترث لها شعوب الهندوس فأطفأتها كتائب هندوسـية مخلصة تقودها فئةٌ قليلةٌ من الإنكليز (ككتائب الغوركها وفرق البنجاب ومُشاة السِّك) .

و إذا عَدَوْت المغـازى الأجنبية التى قد يقوم بها أوربيون وَجَدْت أن أكبر خَطَرَ على سيادة الإنكليز فى الهند بزوغُ شعور قومىّ فيها و إن كنا نرى بُعْدَ ذلك فى الوقت الحاضر ، والإنكليز أنفسهم ، هم الذين يتعهدون ، بما يَسْلُكونه من أساليب التربية التى ندرس نتائجها فى فصل آخر ، نُمُوَّ ذلك الشعور و يُعِدُّون بذلك انهيارَ إمبراطوريتهم العظمى .

البَابُ الرّابعُ
تَطوّرحَضاراتِ الهِنْدِ

الفَصلُ الأوّل

حضارة العصر الويدى

وصف للمجتمع الهندوسى قبل الميلاد بألف سنة

---

(١) عناصر بحث حضارات الهند — التقسيم إلى أعصر — الكتب الدينية — الحماسيات — الأساطير — أحاديث قدماء السياح — المبانى — بطوء التطور فى الهند — لماذا لم تجاوز شعوب الشرق أطوار القرون الوسطى بعد — تأثير التقاليد والمعتقدات — من أسباب جمود الشرق اختلاط شرائعه الدينية والاجتماعية على الدوام بدلا من فصل بعضها عن بعض كما فى الغرب — المعتقدات الدينية فى الشرق هى أساس جميع نظمه الاجتماعية — عناصر التقسيم لمختلف أطوار الحضارة فى الهند — التقسيم إلى ستة أعصر — (٢) مصادر بحث الحضارة الآرية — غموض أصول العصر الآرى — لم تصل إلينا منه آثار حجرية، وإنما انتهت إلينا منه كتب دينية — قيمة كتب الويدا — لم تكن هذه الكتب من عمل شعوب فطرية بل من وضع فريق من الأدباء وعلماء اللاهوت — (٣) أصل الآريين — مقايسة بين الآريين وقدماء الفرس — غموض أصل الآريين — الفرضيات الحديثة — أدخل الآريون إلى الأمم المقهورة حضارتهم ولغتهم، لا دمهم — توارى الآريين عن الهند — (٤) الأسرة عند الآريين — كانت الأسرة والعرق أساس المجتمع الآرى — ارتباط الفرد الوثيق فى أجداده وحفدته — كانت الأسرة، لا الفرد، أساس الوحدة — لم تكن الديانة غير عبادة العرق والأسرة — خلط الآلهة بالأجداد — أهمية ما يقرب إلى أرواح الأجداد من القرابين — حال المرأة عند الآريين — سلطان رب الأسرة المطلق — (٥) نظم الآريين السياسية والاجتماعية — القرية وليدة الأسرة الكبيرة — لا يزال نظام القرية، كوحدة سياسية، باقياً إلى أيامنا فى الهند — (٦) الحياة عند الآريين — فنونهم — طرق معايشهم — الميسر والملاهى والمآتم الخ . — (٧) مبادئ الآريين اللاهوتية والدينية — لا آلهة معينة عند الآريين — تشتمل كتب الويدا على أكثر المبادئ الدينية تناقضاً واختلافاً — تذبذب مبادئ الآريين — آلهة الآريين الأصلية — ما يعزوه الآريون لآلهتهم من القدرة المحدودة — ما يمكن استنتاجه من كتب الويدا من المبادئ اللاهوتية والمبادئ الدينية — الأخلاق عند الآريين — تقدير الحضارة الآرية فى مجموعها .

١ ـ عناصر بعث حضارات الهند ـ التقسيم إلى أعصر

ذكرنا في فصل سابق أنه ليس لدينا كتابُ تاريخ بين آثار الهند القديمة وأن أدوار ما يَقْرُب من ألف سنة تبقى مجهولةً تماماً لو لم يُلْقِ عدد قليل من المباني والكتابات وكتب القدماء نوراً ضئيلاً عليها.

وما عندنا من الوثائق التي نبعث بها حضارة الهند، في دور يَقْرُب من أربعة آلاف سنة سَكَن الهندَ في أثنائها شعوبٌ بلغت درجاتٍ متفاوتةً من الحضارة، وإن كان غيرَ كافٍ، يزيد عما يقتضيه رسم تاريخ هذا الدور، فما انتهى إلينا من الكتب الدينية ككتب الويدا، ومن الحماسيات كالرامايانا والمهابهارتا، ومن الشرائع القديمة كشرائع مَنُو، يكفي لتَمَثُّل الأحوال الاجتماعية في الأزمنة التي وُضِع فيها، وما وَصَل إلينا عن الهند القديمة من مئات الأقاصيص والأمثال والأساطير يَدُلُّنا على شعور الأمم التي أبدعتها وأفكارها ونظرها إلى الأمور، وما بَلَغَنا من المباني وأحاديث الشهود، القليلة مع الأسف، كأحاديث السفير اليوناني ميغاستين والحاجَّيْن الصِّينِيَّيْن فاهيان وهيوين سانغ، يُتِمُّ تلك المصادر إتماماً نافعاً.

ومن يَبْحَث في تاريخ حضارة الشعوب الأوربية يَرَ التطورَ التدريجيَّ من صفات هذه الحضارة، ومن يبحث في حضارة الأمم الشرقية، كالصينيين والهندوس على الخصوص، يَبْدُ له مثلُ ذلك التطور أمراً غامضاً وإن تَعَذَّرَ إنكاره، وذلك التطور، وإن لم يُبْصِره الباحث، نشأ خفاؤُه عن قِلَّةِ معرفتنا لماضي تلك الأمم وعن عدم مجاوزة تلك الأمم للطور الذي يكون التطور فيه بطيئاً، فلو وَقَفَتْ حضارة الغرب في أواخر القرون الوسطى فجأةً غيرَ تاركةٍ لنا سوى وثائقَ ناقصة نَقْصَ التي نحكم بها في

أمر الشرق الأقصى لاعتقدنا ، عند عدم التدقيق التام ، أن الغرب لم يتطور ، مع أن أُسُس حضارة الغرب وُضِعَت فى ذلك الزمن الطويل فقامت على هـذه الأسس بعدئذ بسرعة .

جاوزت شعوب الشرق طورَ الهمجية الأولى كما جاوزنا ، وارتقت إلى دور يشابه دور قروننا الوسطى كما ارْتَقَيْنَا ، ولـكنها إذ قَيَّدَت نفسها بسلسلة من العـادات والتقاليد والمعتقدات أقوى ممـا يُقَيِّدُنا لم تَسْطِع أن تتخلص منها كما استطعنا ، فلم تَخْرُج من ذلك الدور كما خَرَجنا ، فظَلَّت فى الدور التمهيـديّ الذى لا يَتِمّ تطور إحدى الأمم فيه بسرعة .

وتَمُدُّ نيرَ معتقدات الشعوب الشرقية من أهمّ الأسباب المختلفة التى يُفَسَّر بها بطوء تطورها كالبيئة المادية وطُرُق المعايش والمزاج النفسىّ والعروق الخ . ونيرٌ كهذا قد ثَقُلَت وطأته علينا فى أحد الأزمان لا ريب ، بَيْد أن معتقدات الغرب لم تَعْدُ حَدَّ التعاليم الدينية مع أن معتقدات الشرق نسيجٌ من الشرائع الدينيـة والاجتماعية ، فالشرائع الدينية إذ عُدَّت ثابتةً غيرَ متحولة على الدوام وجب عَدُّ الشرائع الاجتماعية المشتملة عليها ثابتة غيرَ متحولة أيضاً ، فـكان ما تراه من بطوء تطورها ، وهنا نقول إننا حينما دَرَسْنا فى كتاب آخر « تاريخَ حضارة العرب » ذكرنا أن القرآن الذى هو دستور دينىّ واجتماعىّ كأكثر دساتير الشرق ، وإن أنعم على العرب بالوَحدة التى بَدَوْا بها أمةً واحدة ذاتَ مشاعرَ واحدةٍ ومعتقداتٍ واحدة ومقاصدَ واحدةٍ ، أدَّى ، فيما بعد ، إلى انحطاط الحضارة العظيمة التى نشأت على أساسه[1] .

المعتقدات الدينية فى الهند هى أساس جميع النُّظُم الاجتماعية ، فما فى الهند من نُظُم اجتماعية ليس ، بالحقيقة ، إلا نُظُماً دينيةً ، ونحن ، حين نرى الدور المهمّ الذى

---

(١) أخطأ المؤلف فى رأيه ذلك فرددنا عليه فى مقدمتنا لـكتاب « حضارة العرب » (المترجم)

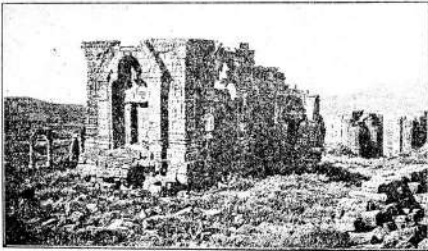
مَثَّله الدين فى جميع شعوب الهند على الدوام ، نَعُدُّ تطورات الدين عنصراً أساسياً فى تقسيم ما لحضارتها من الوجوه ، وتكون هذه التطورات غيرَ محسوسة عند النظر إليها بين قرن وقرن ، وتبدو كبيرةً عند النظر إليها فى أدوار تحتوى عِدَّةَ قرون على الدوام ، وذلك كما نُضْطَرُّ إلى أن نفعله لعدم كفاية الوثائق ، ولا يقاس تاريخٌ يُؤَلَّف عن حضارات الهند بكتاب جغرافىّ يشتمل ، مثلاً ، على ما لأحد البلاد من الطرق المترجِّحة بين مسارب الغاب وشوارع المدن وطرق القُرَى ، بل بكتابٍ يضعه سائحٌ ينظر إلى إحدى البِقاع من فوق جبلٍ فيُصَوِّرها تصويراً عاماً مقتصراً على الإشارة إلى مُدُنها بإيجاز على أن يُفَصِّل أمرها بعدئذٍ إذا تَيَسَّر له أن يجوب إحدى المدن التى أشار إليها مختصراً .

فلنتخذ المعتقدات الدينيةَ ، إذَنْ ، أساساً للتقسيم ، ولْنَنْظُرْ إلى الأعصر الستة الآتية فى دراسة حضارات الهند وهى : العصر الويدى والعصر البرهمى والعصر البُدَّهى وعصر البرهمية الجديدة والعصر الإسلامى والعصر الحديث الذى جعلناه موضوعَ بحثٍ منفصل فى هذا السِّفْر ، ولا يقلُّ العصر الحديث عن تلك العصور أهميةً ، فَفِيهِ تتجلى نتائج اصطدام حضارتين يَفْصِل إحداهما عن الأخرى مثلُ هُوَّةِ مابين القرون الوسطى والأزمنة الحديثة .

٢ — مصادر بعث الحضارة الآرية

نرى أن نتفادى من التكرارات فنَبْسُطَ فى هذا الفصل وفى الفصول الآتية حضارةَ كلِّ عصرٍ بسطاً عامًّا على أن نَعْرِض فى فصول خاصة آثارَ كلِّ عصر من تلك الأعصر ، كالآداب والمبانى ، الخ .

تتجلى الحضارة الآرية فى شمال الهند الغربىّ فى عصر يَرْجِع فى القِدَم إلى خمسةَ عشرَ قرناً قبل الميلاد ، ولم يَفُتْه إلينا منها أىُّ أثر حجرىّ كما أننا لم نَجِد ما يدلُّ على إنتاجها مثل هذا الأثر ، وكلُّ ما وَرِثه العالَم منها هو دائرة المعارف الدينية الواسعة المعروفة بالويدا ، وتحتوى هذه الدائرة على أسفارٍ كُتِبَت فى أزمنة مختلفة ، ويُعَدُّ السِّفر المسمَّى بالرِّغ ويدا أهمَّها ، ويرى مكس مولر أن سِفْر الرِّغ ويدا هذا وُضِع قبل المسيح بألف سنة على الأقل ، وفسَّر هذا السِّفْر تفسيراً ملائماً فأخبرنا عن لغة الشعوب التى ألَّفته ودِياناتها وأحوالِها الاجتماعية ومزاجِها النفسىّ .



٣٧ — مارتند ، أطلال المعبد الذى أقيم فى كشمير على الطراز الإغريقى الهندوسى
(فى القرن السادس من الميلاد على ما يحتمل)

ولمَّا يَمْضِ قرنٌ على معرفة أوربة لتلك الأسفار ، وقضى مترجموها من العَجَب مالا يَقِلّ عن نَصَبهم فى سَكْب أفكار واضعيها المترددة فى قالَبٍ لُغَوِىّ واضح ، ولا أرى أن أحكم هنا فى ذلك الأثر الأدبىّ العظيم الذى لا يُلقِى فى رُوع من يقرأه

بإنصاف سوى قليل عَجَب بالحقيقة ، فهو يعترف ، لا ريب ، بأن من العبث أن يُبْحَث فيه ، خلافاً لما صُنِع حتى الآن ، عن « أثَر الرُّعاة الفطريين الذين يُقدِّسون للآلهة حين يَسْرَحون[1] أنعامَهم » ، وليس مما يحتاج إلى نظر ثاقب أن يُقطَع بعجز الرُّعاة عن وضع أشعار كالتى نراها فى الويدا ، فكلُّ شىء فى الويدا مصنوعٌ ، وهو من وضع أدباء نُبَهاء ولاهوتيين أذكياء ، فمتى نَفَذَ مبدأ التطور فى العلوم التاريخية سَهُل الاعترافُ بأن آثاراً كالويدا تَفترض سابقَ إعداد فى قرون فلا تَصْدُر عن أدمغة أناس فطريين كما أن كنيسةً غوطية لا تَصْدُر عن أدمغة أناس فطريين معاصرين للاموث[2] أو لوَعْل الشمال ، فلا نبحث فى الويدا ، إذنْ ، عن الحضارة الفطرية ، بل عن حضارة أمة ذات ماض تَليد .

٣ — أصل الآريين

تطلق كلمة « الآريين » على شعب ، ذى جلود بيض وشعور سود ولغة ضائعة معروفة بالأرياك (فاشْتُقَّت منها اللغة المعروفة بالسَّنسكرت) ، هَبَطَ قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرناً إلى شمال الهند الغربىِّ مارًّا من معابر كابل ، وكان الآريون قبائلَ شِبْهَ بَدَوية شِبْهَ حَضَرية تَعْرِف الزراعة وتَتَّصِف ، ككثير من الأعراب ، بانقياد الخيال ، وتشابه بطرق معايشها قدماء الفرس الذين حَكَى عنهم هيرودتس .

وتقدَّم الآريون رويداً رويداً من نهر السِّنْد إلى نهر الغَنْج ، ثم تقدَّموا من نهر الغَنْج إلى نهر برهما بوترا ، فأخضعوا فى أثناء ذلك ذوى الجلود السُّود والشعور

---

(١) سرحها يسرحها سرحا وسروحا : أرسلها لترعى — (٢) الماموث : الفيل البائد .

السِّبَاط[١] كما أخضعوا التورانيين الذين سَبَقوهم إلى الهنـد ، فتَدَرَّج الآريون من البداوة إلى الحضارة .

لا يزال أصل أولئك الغُزَاة الآريين ، الذين مثَّلوا ، لا ريب ، دوراً مهماً فى تاريخ الهند خافياً ، ويُرَى ، على العموم ، أن الآريين الفطريين كانوا يقطنون قبل الميلاد بألفَيْ سنة فى بُقعة من التركستان مجاورة لمجرى نهر أكسوس[٢] ، ثم سَلَـكوا طريقين للهجرة ، إحداهما الطريقُ المؤدِّية إلى أوربة والأخرى الطريقُ المؤدية إلى إيران ، فالآريون الذين سَلَـكوا طريقَ إيران أقاموا ببلاد فارس وبقطريان والصُّغْد ، ثم داوم حَفَدتهم على سيرهم إلى الجنوب فجاوزوا جبال هِنْدُوكُش ودخلوا الهند ، فإذا صَحَّت هـــذه النظرية كان الأوربيون والهندوس فَرْعَيْ دَوْحَة آسيوية بدوية واحدة .

بَيْد أن تلك النظرية ليست غيرَ فرضيَّة قائمة ، فقط ، على تشابه أصول اللغات الأوربية (اللاتينية واليونانية والألمانية الخ .) والفارسية والسَّنسكرتية .

حقا أن هنالك قرابةً لغويةً بين الهندوس والأوربيين ، ولـكننا نَعْلَم اليوم أن تشابه اللغات لايعنى ، دائماً ، قرابةَ العروق ، فإذا عَدَوْت هذه القرابةَ اللغوية لم تجِد ما يؤيد تَحَدُّر الأوربيين من أصلٍ آسيوىٍّ ، ما أمكن افتراضُ العكس بأن يقال إن الآسيويين أتَوْا من أوربة .

هـذا ما افترضه حديثاً علماء من الألمان مستندين إلى وجود أناس شُقْر قليلين فى شمال الهنـد الغربىّ ، وأرى أن فَرَضيَّة علماء الألمان هذه ضعيفةٌ كتلك ما عُدَّ

---

(١) السباط : جمع السبط وهو من الشعر نقيض الجعد — (٢) هو نهر جيحون المسمى الآن أموداريا (المترجم)

هؤلاء الشُّقْر القليلون بَقِيَّةَ كثيرٍ من الغُزاة الذين أتَوا منذ ثلاثة آلاف سنة فاتحين لتلك البُقْعَة من كلّ جهــة ، لا من أوربة وحدَها ، فإذا كان فى العالم بُقْعَةٌ يَنْدُر وجودُ الشُّقْر فيها فهى بلاد الهند لا ريب ، فلقد طُفْتُ فى جميع نواحيها فلم أصادف فيها إنساناً أشقر ، وهذا إلى قولى إن الشُّقْر الآريين لا بُدَّ من أن يكونوا قد وُجِدوا فعَرَفهم مَنُو فَعَدَّهم من شعب متأخر فحَظَرَ زواج رجال الطوائف العليــا بِنِسْوَتِهم « ذوات الشعور الشُّقْر » .

لم يبق سوى الرجوع إلى الافتراض القائل إن الآريين من أصل آسيوى بعــد دحض الافتراض القائل إن الآريين من أصل أوربىّ ، فقد رُئِى نزولُهم الأساسىُّ بمختلف البِقاع الممتدة من نهر أكسوس إلى بحيرة بال كاش ، أى ببُقْعَة من بلاد المغول كان العرق الأصفر يملِكها منــذ أكثر من ألفى سنة قبل الميلاد على حسب ما جاء فى أقاصيص الصينيين ، فأرى ، أيضاً ، وجوب استبعاد هذا الافتراض القائل إن بلاد المغول هى مهدُ الآريين ، ما لم نَرْضَ بزعم ويلر الواهى القائل إن الآريين من المغول .

ولا أحاول هنا أن آتِىَ بافتراض جديد فى أصل الآريين ، بل أذكر أن المحتملَ أكثرَ من سواه ، على ما يظهر ، هو أن الآريين كانوا سكان إيران الأصليين ، وأن المجاورين منهم للهند هم الذين دَخَلوها على دَفعات متتابعة لا ريب ، كما استولى أجدادهم على أوربة من قبلهم ، وأن تأثيرهم فى دماء الشعوب المقهورة كان ضعيفاً إلى الغــاية كما يبدو لى خلافاً للرأى السائد .

ولا أعتقد وجودَ شعبٍ فى الدنيا يستطيع أن يزعم اليوم أنه من سلالة الآريين ، وسببُ ذلك أنه افتُرِض ضِيقُ بلد الآريين الأول وأن ما فتحه الآريون من البلاد،

ولا سيا الهند ، واسعٌ آهِلٌ بأمم كثيرة فوقع ما أثبته البحث من أن شعبيْن متفاوتيْن في العَدَد إذا تقابلا لم يلبث أكثرهما عدداً أن يبتلع أقلَّهما عدداً ابتلاعاً يَمَّحى به مثال هذا الأخير بعد بضعة أجيال ، ووقع مثلما حدث فى مصر التى ليس القوم فيها من سلالة العرب الفاتحين ، بل من سلالة مصريى عهد الفراعنة ، كما تشهد بذلك سَحَناتهم المشابهة لسَحَنات قدماء المصريين التى خَلَّدَتها نقوش المعابد ، وذلك مع اعتناق المصريين لدين العرب وانتحالهم لغة العرب وَفْقَ ما ذَكرتُ فى فصل سابق .



٣٨ — نقش لغريقى بدهى بالقرب من بيشاور
(صنع قبل القرن الخامس من الميلاد
بزمن قليل على ما يحتمل)

وجب أن يكون شأن الآريين فى أوربة قد تماثل هو وشأنهم فى الهند ، فيكونوا قد أدخلوا إلى الأمم المغلوبة حضارتهم ولغتهم ، لا دمهم ، وهم إذا لم يتوارَوْا فى الهند بسرعة كتوارى العرب فى مصر فلأن نظام الطوائف الشديد حال دون امتزاجهم فى الهند بالتورانيين المقهورين زمناً طويلًا أو أنهم امتزجوا بهؤلاء شيئاً فشيئاً ، ولكن هذا الامتزاج مهما كان بطوءه أدى إلى اختفاء الفاتحين بتعاقب القرون ، فلم تجد فى الهند أثراً للآريين منذ زمن طويل ، ونحن إذا سايرنا رُخْصَة اللغة والعادة فقلنا إن الشعب الفلانىّ آرىٌّ فإننا نَقْصِد بذلك أن هذا الشعب من البيض وأنه يدنو من مثال الأوربيين من غير أن يساويَهم بياضاً .

ونحن ، وإن لم يكن لدينا علمٌ قاطع بأصل الآريين ، نَعرِف وجودهم من آثارهم الأدبية أو من آثار حَفَدتهم الذين دخلوا الهند فيما مضى ، وفيما تقدم ألمعنا إلى حقيقة تلك الآثار ، فبَقِى علينا أن نبحث فى أحوال واضعيها الاجتماعية ودرجة حضارتهم ، وهذا ما نفعله كما يأتى :

٤ — الأُسْرة عند الآريين

كانت الاسْرة والعرق فى العصر الويدىّ أساسَىِ المجتمع الآرى ، فلم يُفرِّق بين الآريين أية زمرة كالقبيلة أو العشيرة أو الحكومة ، والعرقُ عند الآريين هو الذى كان يعلو الأُسْرة ، ولم يُوجَد شىء عندهم دون الأُسرة ، فالفردُ الآرىّ لم يُعَدّ مستقلًا عن أجداده ولا عن حَفَدته ، فالوَحْدة ، لدى الآريين ، لم تَقُم على الفرد ، بل قامت على الأب والأم والأبناء والأجداد وعلى الذرارى التى تَخرُج من أصلاب هؤلاء فتحافظ على ذكراهم واسمهم بتعاقب الأجيال .

ولم تكن الدِّيانة عند الآريين سوى عبادة العرق والأُسرة ، وكانت آلهة الآريين تختلط بالأجداد ، وكان النكاح والولادة لديهم من الأعمال المقدسة ، وكانوا يَرَوْن أن انتقال الحياة من الأب إلى الابن بواسطة الأم هو انتقالٌ خَفِىٌّ لإله النار أغنى الذى هو أصل الإلقاح وسيدُ الكون ومُبْدِعه من خلال أحشاء البشر لتخليد الوجود الأزلىّ .

ومن أعظم المصائب عند الآريين أن يَتزَوّج الواحد منهم أجنبية أو أن يموت غيرَ ذى ولد ، فإفساد نَقَاوَة العرق لدى الآريين كانت تتضمن قطعاً أبدياً للنَّسَب الإلهى الذى يَصِل الآرىّ بأغنى فيؤدى ذلك إلى تصامٍّ هذا الإله عن صلوات ذلك

الذى أوجب جريانه ، وهو إله كلِّ حياةٍ نَقيَّةٍ فى عروق شعبه الذى يكون قد اتَّصل بعناصر غليظة جُبِلَت منها العروق الدنيا ، فالزواج بالأجنبيات ، إذَنْ ، هو عنـد الآريين ، جناية يستحقُّ مقترفوها اللعنةَ الدائمة .

وليس بأقلَّ فظاعةً من ذلك أن يموت الآرىُّ بلا عَقِب، فالولد ، عند الآريين، يُخَلِّد الأجداد بما يقوم به من عباداتهم و بما يُقَرِّب من القرابين إليهم ، فإذا قُطِعَت تلك العبـادة وهـذه القرابين تَلاَشَت أرواح الآباء وفَنِيَت وزالت الأُسرة إلى الأبد .

والبناتُ الآريات إذا ما تَزَوَّجْنَ انْتَحَلْنَ آلهةَ أُسَرِ أزواجهن فَعَبَدْنَ أجدادهم وصِرْنَ غير صالحات لتخليد آبائهن ، فالرجلُ الآرىُّ الذى يموت غير ذى ابنٍ يَهْلِك من غير أن يَبْعَث فيما وراء القبر ، و يجرُّ خلفه ، بذلك ، أجيالاً كثيرة من الأجداد إلى بَوَارٍ لا يمكن تلافيه .

وترى فى الرِّغ و يدا تَضاعُل قرابة الإله أغنِى وعلى شأنه فى خَلْق الأُسرة وعلى نقاوة العرق وأهميته وعلى ضرورة وِلادة أعقاب قادرين على تقريب القرابين ، جاء فى الرِّغ و يدا :

« أغنِى هو ربُّ الخلود ، هو ربُّ الغِنَى ، فهو الذى ينْعِم بالأُسرة القَوِيَّة ، فيا إلهنا القادر ! لا تُؤاخذنا ، نحن عبادك ، بما تراه فينا من عدم العَقِب ومن العَطَل من الجَمَال وفُقْدَان القرابين » .

« أيَشْمُلنا العَطُوف أغنى بأفضاله ؟ أَنَأْمُل منه سَـعَةً سَرْمَدِيَّة ؟ فيا أغنى لسنا من أصلاب عرق أجنبىّ ولا من عرق كافر ، فلا تَسْلُك غير السبيـل المؤدية إلينـا » .

« فلو لم يكن الإله أغنى من دم كدمنا لكان من العبث بحثه عن خضوعنا وقرابيننا ، فله علينا حقُّ المأوى فنحفظه له ، فليَدْخُلْ علينا هذا الإله القادر الظافر الجدير بأن يُسْجَد له » .

والأسرة المُوَحَّدة المباركة الوافرة هى عند الآريين مصدر كلّ سعادة دنيوية وأبدية ، فلا شىء لديهم يَعْدِل مَسارّها ، فهم لا يفتأون يتغنَّوْن بها ، وهم إذا ما أرادوا تصوير مجد الآلهة أو يُمْنِها لم يتمثَّل لهم غير جمال الزوجة ووفائها وقوة الأب الكاهن وجلاله وظَرْف الأولاد وانقيادهم ، فهم يَرَوْن فى هذه الأمور كلّ نعيم ، وتملأ هذه الأمور جوانحهم ، فتجد فيها سرّ أغانيهم الدينية الكثيرة المُفَصَّلة حولها ومنها تُجْتَلى أحوالهم .

ولا شىء يفوق أهمية تقديم كلّ أسرة قرابينَ إلى أرواح أجدادها ، وقد قلنا إن تقديم هذه القرابين إذا ما انقطع تلاشت أرواح الموتى وانطفأت الأُسرة إلى الأبد ، والأب هو الذى كان يقوم بتقريب القرابين ، وكان للأم ، كما أن عليها ، أن تساعده على ذلك فتُقاسِمَه المجد ، فالأم كانت تجمع على ضوء القمر الأزهارَ من سفوح الجبال فتستخرج منها بدقة و بتخمير بطىء الشرابَ المقدس المعروف بالسوما ، فكان الأبُ يَنْضَح الضحية بهذا الشراب ، والنارُ إذ كانت تزيد اشتعالاً بشراب السوما الروحانىّ بعد أن تكاد تنطفئ ، وكان أغنى يبدو بذلك أشدّ قوةً وأسطعَ نوراً ، عَبَدَ الآريون هذا الشراب كما عبدوا النار فأبدعوا له مدائح وصلوات ، فما جاء فى الرِّغْ ويدا .

« عَظِّموا بتَليد الأناشيد ذلك الإله النقىّ الذى يبدو لكم بالأعمال المقدسة المُمَجِّدة للآلهة » .

« هو يَنْصَبُّ على مِمْصَل(١) من صوف ليُصَفَّى ، هو سَنَد العـالم ، هو مَلَاك صلاة الفجر الذى يُسَبِّح الحـكماء بحمده » .

« يستقرّ السوما الذى هو عَيْن الزّكاء ومنبع السعادة بآنية القربان ، ويبدو ناثراً للدعاء نَثْرَ الثَّوْر للّقاح فى النَّعَم(٢) » .

وكانت لحوم القرابين تُعَدُّ نافعـة لتغذية الأجداد ، وكان الإله أغنى يَحْمِلها إليهم ، ولم تكن النار لتَحْرُقها إلاّ لتجعلها صالحةً للتقديم إلى الآكلين من الطعام الإلهى ، وكان عدم تقريب القرابين إلى الأجداد عنـد الآريين كترك المرء والديه يموتان جوعاً فى زماننا ، وما أكثر ما كانت الأسرة تأكل جالسةً هى وعشيرتُها من مائدة واحدة حول المَوْقِد الداخن .

والأمُّ إذ كانت تُقاسم الأب شرف تقديم القربان وما يتطلبه هذا التقديم من عمل نفترض مساواتها له ، ويَتَّضِح من كتب الويدا أن المرأة ابنةً كانت أم خطيبة أم زوجة أم والدة لم تعدّ تلك المخلوقةَ المنحطة الفاقدة الشعور خلافاً لاحتقار المشترع مَنُولها فيا بعد ، فـكُتُبُ الويدا تُحَدِّث عنها وعن شأنها باحترام على الدوام ، جاء فى كُتُب الويدا :

« تعـالَىْ ، أيتها الزوجة الحسناء ، تعالَىْ يا مُنْيَةَ الآلهة ، تعالَىْ أيتها المرأةُ ذات القلب الحنُون واللَّحْظ العَـذْب والصالحةُ لزوجها ولأنعامها والمُعَدَّةُ لولادة الأبطال ! » .

« إن امتياز المرأة هو مقاسمتُها لزوجها شرفَ تقريب القربان » .

---

(١) الممصل : الوعاء لمصل وهو وضع اللبن أو نحوه فى خرق أو نحوها ليقطر ماؤه ـ
(٢) المقصود من النعم هنا البقر .

ونُضِيف إلى ذلك الامتياز نَظْمَ المرأة للنشائد ، فني الرّغ ويدا أناشيدُ كثيرة مُمْضَاة بأسماء نساء .

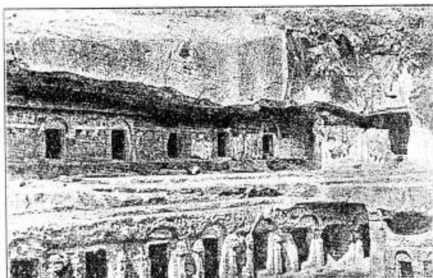
ويظهر أن الاقتصار على زوجة واحدة كان مبدأ آريّاً ويدا على العموم ، ونحن إذا مانظرنا إلى الأمر بما نراه بعد ذلك وَجَدْنا الأمراء والأغنياء منهم كانوا يتزوجون عِدّةَ زوجات ، والذى حَفَز الآريين إلى انتحال مبدأ تعدد الزوجات هو احتياجهم الملِحُّ إلى الأولاد الذكور ، فالرجلُ الذى لا تلِد له زوجته الأولى إلاّ إناثاً كان يتزوج امرأةً أخرى بحكم الضرورة .

وكان للفتاة أن تختار زوجها ، وكان للفتاة أن ترفض تكليل المبارِز الغالب فى المبارزة عند وجود غير خاطبٍ واحد لها كما يحدث أحياناً ، وإن كانت موافقتها على المبارزةضربةَ لازب ، وفى كتب الويدا وصفٌ دقيق للغرام الناشئ ولأُولَى العلاقات بين الفتيان والفَتيات ، والآريون ، إذ لم يرَوْا سعادة فى الدنيا والآخرة خارج الأُسرة، كانت تدفعهم أسباب دينية ومصالح دنيوية ، أى كلُّ ما يمكن أن يُؤَثِّر فى الروح البشرية ، إلى الاهتمام بكلِّ ما يَمُتُّ إلى النكاح بصِلة .

وكانت طقوس الزواج تَتَّسِم بذلك الطابع الدينيّ البادى فى جميع شؤون الأُسْرَة، فتظهر رائعةً بالصلوات والقرابين والنذور وتظهرُ ذاتَ بَهْجَة بسَناء الأزياء وكثرة الحضور وضروب اللهو والطرب كما ورد فى أُنْشُودَةٍ طويلة من أناشيد الرّغ ويدا ، فالمرء حين يقرأ أُنْشُودة « أعراس سوريه » يُخَيَّلُ إليه أنه يشاهِد عيداً قديماً من أعياد الأُسرة كما لو ذهب راجعاً ألوف السنين فى مجرى الأجيال ويلوح له أنه يسمع نصيحة الكاهن وما يُكَلِّمُ به الفتى خطيبتَه .

ويُضاف إلى صفة الأب الرائعة فى تقريب القرابين سلطانُه المطلق ، فيُطيعه

أبناؤه إطاعته للأجداد ، لا إطاعة العبيد للأسياد ، فإذا ما طَعَنَ الأبوان في السِّن وعَجَزا عن العمل غَذَّاها أبناؤهم كما يَغذُون الأجداد بالقرابين ، ولم تُقطَع هذه الفروض المتقابلة قط ، وكلّ ما كان الآريُّ يَنشُدُه هو أن يشيخ بين أولاده وحَفَدَته وما كان ليخاف الكِبَر ما بدأ يَتذَوَّق فيه شيئاً من طعم سعادة الأجداد الأبدية الهادئة .

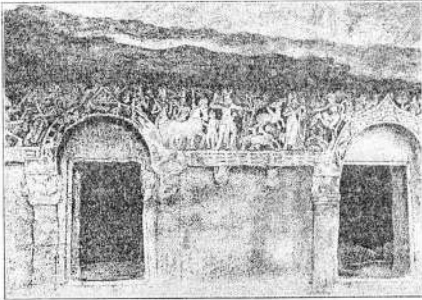


٣٩ ــ أودى غيرى (أوريسة) . مقدم دير راتى نور البدهى المنحوت فى منحدر جبل
(فى القرن الثانى قبل الميلاد)

٥ ــ نُظُم الآريين السياسية والاجتماعية

لم يوجد للنُّظُم السياسية ولنظام الطوائف وللنظام الحكوميّ أثرٌ فى أوائل العصر الويدى حينما كان الآريون يقيمون بسهول الهند الواسعة ذات الأنهار السبعة ، وإن شئت فقل حينما كانوا يقيمون ، قبل دخولهم وادى الغَنْج ، بالمنطقة التى تُرْوَى بمياه نهر السِّند وروافده .

وقد رأينا أن الأُسرة هى أساس مجتمع الآريين ، وأن هذا المجتمع كان يؤلَّف من العرق بأسره من غير وظائفَ وطبقاتٍ ، فرَبُّ الأُسرة كان يَجْمَع فى شخصه صفة المُقَرِّب والزارع والمحارب ، أى جميع الوظائف التى إذا ما فُصِل بعضُها عن بعض نشأ نظام الطوائف ، ولم يكن للثَّراء الذى هو مصدر التفاوت الاجتماعى وجودٌ فى ذلك الحين ، أجَلْ ، كان الأبطال يَبْدُون زعماء وقت الجهاد ، وكان أشجعُهم يسير رئيسَ أصحابه ، ولكن أرضاً إذا ما اسْتُوْلِىَ عليها فوجب إحياؤها بالفأس والنار لتَصْلُح للزراعة بمَشَقَّة تَساوَى الجميع فى القيام بذلك .



٤٠ — أودى غيرى . نقوش قديمة منحوتة على صخر دالة على موكب صيد ملكى ، وذلك فى الدير السابق ذى الحجرات المنقورة فى منحدر الجبل ، (وتلك النقوش هى من أقدم ما تشتمل عليه الهند ومن أهم نماذج الفن الهندوسى)

وكانت تنشأ قرية على الأرض الجديدة ، وكانت المساكن الابتدائية المصنوعة من التراب وسُوق الخَيْزُران تؤاوى الأُسَرَ إليها على انفصال بعد أن كان

بعضها يختلط ببعض فى الحقول ، ثم وَدَّت كلُّ أسرة أن تنال قطعة من الأرض فبدا مبدأ التقسيم ، فلم يبق مُشاعاً بين الجميع سوى مراعى المواشى .

ولم يُسْفِر إنشاء الآريين للقرية وتقسيمهم للحقول والأنعام عن نشوء زمرة سياسية أو اجتماعية بعد ، فالأسرة الكبيرة ظلّت مَدَار الوَحْدة ، فكان أرباب الأسرة الشيوخ يجتمعون لتوطيد النظام فيها وتقرير المسائل المهمة من غير أن ينتحلوا سلطاناً بالمعنى المعروف ، ولم يلبث أن أقيم حصنٌ ثخينٌ مُربَّع الزوايا على مكان مرتفع قريب من القرية مُشْرِف عليها ليقيم به الزعيم المنصور الذى وَسَّعَ الأرض فنيط به أمر المحافظة عليها .

ولم تجد رابطة بين قرية وقرية ، ولم تجد سلطة عالية تفرض سيادتها على الزعماء ، فصادفات الحروب كانت تؤلف بين هؤلاء الزعماء فينقادون ، أحياناً ، لقائد واحد من غير أن يَعْنِيَ ذلك عَدَّه ملكاً ، فالآريون لم يقولوا بمبدأ المَلَكية إلا بعد استقرارهم بوادى الغَنْج ، وذلك مع عدِّ الملك قائد حرب فقط كما جاء فى الويدا ، فلا ترى فى العصر الويدىّ ملكاً ذا وزراء يَجْبِي الضرائب بانتظام ويملك شعباً بأسره .

وإذا وُجِد للآريين مَلِك فى الهند فبالاسم فقط ، فما كانت القرية الآرية فى الهند إلا جمهوريةً صغيرةً متماسكةً منظمة ، وما كان الزعيم المقيم بحِصْنه والمعروفُ بالراجه إلا سيداً ذا سلطان ، فهذا هو النظام السياسى الذى كُتِب له الفوز فى الهند بتعاقب الأجيال ، وهذا هو النظام الثابت الآساس الذى احترمه الفاتحون على الدوام مهما كان جنسهم .

ومن ثَمَّ ترى بذورَ دستورٍ لايزال باقياً منذ عِدَّة قرون فى مجتمع ناقص التكوين،

ومن ثمّ ترى بذور نظام الطوائف الذى نشأ مذبذباً مبهماً حين حاولت الطبقات أن تتميز فى البداءة فاشتدّ أمره بعدئذ بفعل المؤثرات الإثنولوجية فأدى إلى حفر هُوّى بين العروق يتعذر اقتحامها .

ويمكنك أن تُبْصِر فى الويدا مسافة ضيقة بين الكُهّان والمحاربين لم تَعْتِمْ أن اتسعت لأسباب سندرسها فيا يأتى .

لم يَقِف توزيع الأعمال عند ذلك الحد ، فبينما كان المُقَرِّب يقضى أوقاته فى القيام بالطقوس المقدسة ووضع الأناشيد وبينا كان المحارب يقضى أوقاته فى الغارات والرياضات العنيفة كان من الصواب أن يُسْأَل : ماذا يكون مصير الحقول وأمر استغلالها إذا لم يوجد من يحرثها ؟ فلذلك كان لابد من ظهور طبقة أخرى : طبقة الزراع .

بَدَتْ فى إحدى أناشيد الرِّغ ويدا الأخيرة طبقاتٌ ثلاثٌ مختلفة دُعِيَت بالبراهمة والأكشترية والويشية فدَلّت بعد زمن على طوائف حقيقية ذات مدلولات مطلقة عميقة.

وفى أنشودةٍ أقدمَ من تلك تقرأ العبارة الآتية ذاتَ المغزى الدالةَ على تقسيم الطبقات:

« ابْتَهِلَ إلى إندرا الكبارُ والصّغار وأبناء الطبقة المتوسطة والسائرُ والقاعد والحارسُ لمنزله والمحارب وجميع طالبى الفيض والبركة » .



٤١ — بهو ونيشور (أوريسة) . نقوش معبد براشورا ميشوار الخارجية (أنشىء فى القرن السادس من الميلاد)

وتمَّ ظهور الطائفة الرابعة ، أى طائفة الشودرا بعد حين ، فجُمِلَت شاملةً للشعوب المغلوبة ، وذلك عند ما دخلت دائرة الحضارة الآرية فى آخر الأمر ، وكلما وقع فتحٌ لم يَعْتَرِف بسيادة الأجنبى سكان البلاد الأصليون المجاهدون جهراً أو المهاجرون إلى الجبال للمحافظة على استقلالهم الفطرىّ .

من أجل هؤلاء أُوْجَد الغالبون طائفة رابعة ، فتحولت الطبقات التى كان أمرها مبهماً غيرَ واضحٍ ، فكان بعضها يشترك مع بعض فى الولائم وكان بعضها يتصل مع بعض بصِلات النسب ، إلى طوائفَ مختلفةٍ أشدَّ الاختلاف .

وأهمُّ تلك التقسيمات هو الذى حَدَث قبل غيره ففُرِّق به بين الكهنة والمحاربين ، فلم يلبث البراهمة الذين هم وسائط بين الناس والآلهة أن صاروا يزيدون مزاعمهم فعَدُّوا أنفسهم من العالين وحملوا غيرهم على اعتقاد ذلك .

وما بين المحارب بين والزراع من فَرْقٍ لم يَعْتَمّ أن بدا واضحاً ، وقد قام على اختلاف فى الثَّراء أكثر مما فى الوظائف .

وكان القائد الذى يعود مُثْقَلاً بالغنائم يُشتَرَ بخِرْصان[1] ذهبية وثياب زاهية وأسلحة لامعة ، فيصبح راجه (أى ساطعاً) ، وللراجوات ، وإن شئت فقل للأكشترية ، شأنٌ كبير فى كتب الويدا فكان الشعراء الذين يَنْظِمون الأناشيد يأمُلون منهم المجد والعطايا فكان من الطبيعىّ أن يُشيدوا بذكر بأسهم وكرمهم أو التنويه ببخلهم وإمساكهم .

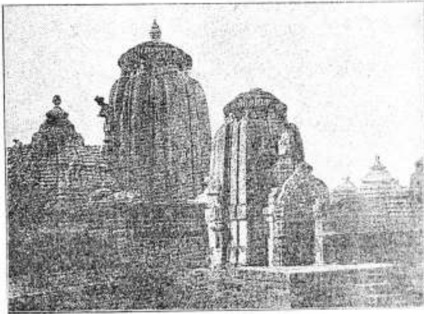
ولم يكن بين الطبقات حاجز فى ذلك الحين ، فالطبقات كان بعضها يختلط ببعض

(١) الخرصان : جمع الخرص وهو حلقة الذهب أو الفضة أو غيرهما

لتقريب القرابين و إقامة الولائم وما إلى ذلك من الأمور التى لا تكون عند وجود طوائف حقيقية .

وشعوب البلاد الأصلية ، إذ لم تُقهَر بعدُ، كان الآريون يَعُدُّونها أسْرَى حرب ، وكلٌّ يدل على استعباد الآريين لهؤلاء الأسْرَى ، جاء فى الويدا :

« نضرع إليك يا سوما أن تَهَب لنا الغِنَى بالذهب والخيل والبقر والناس » .



٤٢ — بهو ونيشور ، المعبد الكبير (يبلغ ارتفاعه نحو ٥٢ متراً وأقيم في القرن السابع من الميلاد)

ولم يكن أمر وِراثة الوظائف التى هى إحدى علامات النظام الطائفى قاطعاً عند آريى العصر الويدى و إن ذَرَّ قرنه(١) بينهم ، فهنالك أُسَرٌ كانت تنتقل إليها الأغانى

(١) ذر القرن : طلع أدنى شىء منه .

المقدسة ووظائفُ التضحية كابراً عن كابر ، وبهذا يُفَسَّر حفظ كتب الويدا حفظاً عجيباً .

وكان الأولاد ، على العموم ، يَرِثون أبويهم فى الأعيان ، وفى الأناشيد المقدسة ذِكْرٌ غالب لعادة إيصاء الإنسان بثروته لأبنائه .

ذلك هو مجتمع آريى العصر الويدى الذى كانت تَنْضَج فيه ، مع القرون ، بذور النُّظُم التى ثبت أمرها فى الهند فيما بعد فظلَّت فيها سائدةً لا تبديل لها .

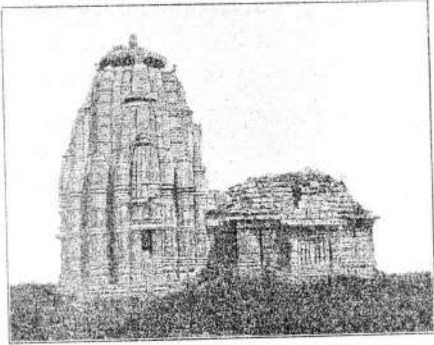
٦ — الحياة عند الآريين

يمكننا أن نَتَمَثَّل الآريين فى أدقّ شؤون حياتهم اليومية حينما ندرس كتب الويدا :

كان شعراؤهم يبحثون مختارين عن صُوَرِهم فى الأشياء المألوفة البسيطة التى تبدو لنا غليظة لاختيارها بوحى دينىّ رفيع كوحيهم ، بيد أن بساطة الموضوعات هذه التى تجد مثلها فى قصائد أكثر الشعراء الفطريين لا تَحُطُّ من قَدْر انسجام أناشيدهم ، فالشاعر الآرىّ كان يَعْرِف كيف يرفع شأن أكثر الأفكار ابتذالًا وأن يستخرج من النظائر العادية أروع النتائج ، والعرقُ الآرىّ إذ كان ذا خيال مُتَّقِد مولعاً بتساوق الكلمات كان يَتَرَنَّح من أناشيده التى انتهى إلينا منها عدد كبير وَضَعه مئات الأدباء ، ومن هذه الأناشيد نستطيع أن نُقَدِّر غِنَى الأدب السنسكرتى فى العصر الويدى .

ويظهر أن فنّ الشعر هو الفنّ الوحيد الذى نجح فيه الآريون ، فكلُّ شىء

يدلُّ على أنهم كانوا يجهلون فنَّ العِمارة ، وقد تتخيل لهم ، مع ذلك ، بعض الآلات الموسيقية الابتدائيـة وأنهم كانوا يصنعون من المعادن والخشب بعض الأدوات صنعاً فنياً وإن لم يحدثونا عن الصور المُلوَّنة أو المنقوشة .



٤٣ — بهو ونيشور . معبد راجاراني (أقيم في القرن العاشر من الميلاد)

والمِهَن التى كانوا يزاولونهـا كثيرة ، ويظهر أنهم كانوا على شىء من الحذْق فى بعضها ، فما وَصَفوا به ثيابَهم الزاهية وخواتمَهم وخِرْصانهم وأسْوِرَتَهم وأرياشهم الذهبية ومراكبهم الحريريـة وزينةَ خيلهم وأسلحتَهم اللامعة ودروعَهم وسيوفهم وأغْمَادهم يُثْبِت أنه كان عندهم حَوَكَةٌ[1] وصُوَّاغ ونَجَّارون وصانعو أسلحة وعمالٌ

---

(١) الحوكة : جمع الحائك .

قادرون على التصرف فى الخُشب تصرفاً دقيقاً فيصنعون منها أكواباً مقدسة ليُصَبَّ فيهـا شراب السوما ، وليس قليلًا ما ذكروه من الأدوات المنزلية كالملاعق والمراجل المصنوعة ، كأسلحتهم ، من الحديد على ما يحتمل .

وكانت نُسُجهم تُصْنع من الصوف أو الـكَتّان مع خيوط من الذهب فى بعض الأحيان ، والنساء هن اللائى كُنَّ يَغْزِلن والعمال هم الذين كانوا يَحْبُكون بالمَكُّوك .

وكان الآريون ينتعلون أحذية فَيَرْبطونهـا بكعابهم كما تدلُّ عليه الآية التى حَكَت عن الإله إندرا فقالت إنه دائم السير والحركة « فلا يَفُكُّ حذاءه أبداً » .

والآريون كانوا يُبْدون أفخر النفائس فى عُدَدهم الحربية ، فـكانت مراكبهم مزينة بصفائح معدنية وكانت تحمل على عجال مدورة ذات محاور[١] .

وكانت الخُصُن تُقْرَن بالمراكب وتُساق بالأعِنَّة والُّلجُم والسياط .

وكان المحاربون يتقلدون أسلحة مصقولة ساطعة ، ويركبون مراكب ويَلْبَسون أساور من ذهب تَتَلْصِل حينما يَهُزُّون أسلحتهم ، وكانت أسلحتهم تُؤَلَّف من سيوف وأقواس وسهام توضع فى كنائن[٢] وتنتهى بقوارٍ[٣] من حديد ، وكانوا يضعون على جباههم ريشاً من ذهب ، وكانت الأعلام تَخْفِق فوق صفوف الجيش .

وكانت الزراعة والحرب وما إليهما من المِهَن أهمّ ما يُعْنَى به الآريون .

والآريون إذ سكنوا وادى الســند غيرَ ذى الزرع فى بعض الأحيان بسبب الجفاف عَلِموا كيف يَرْقُبون الفصولَ ويَرْصُـدون قدوم الأمطار ذات البركات ، فـكانوا يَعُدُّون سُحُب الرياح الموسمية أبقاراً سماوية تَرْعَى فى سهول الفلك ويسوسها

(١) المحـاور : جمع المحور — (٢) الـكنائن : جمع الـكنانة وهى جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام — (٣) القوارى : جمع القارية وهى أعلى السهم .

راع إلهىٌّ فتدرُّ من ثُدِيِّها الثِّقَالِ السعادةَ والرخاء على الأرض .

وكان الآريون يُثيرون الأرض بمحاريث يَجُرُّها بَقَرٌ ، ويعودون إلى منازلهم فى فصل الرياح الموسمية على مراكبَ يَجُرُّها بقر .

وكانت المواشى من أهمّ منابع الثروة عند الآريين ، وكان الآريون يُمَجِّدون البقرة التى تَدِرُّ باللبن المُغَذِّى فيُعْنَوْن بتربيتها ويحترمونها ويكادون يعبدونها .

وكان اللبن والسمن أساسَى الغِذاء عند الآريين ، وكان الآريون يُريقون منهما للآلهة ، وكان المَوْقِد يُبَلَّل بالسمن الذائب فيزيد النارَ سعيراً والإلهَ أغنى نوراً ، وفى الويدا مدحٌ للعسل فى كل زمن ، فَتُضَاف الفطائرُ والحلاوى إلى تلك الأغذية المُفَضَّلَة التى كانت تُقَدَّم إلى الآلهة .

وكان الآريون يأكلون اللحم أيضاً ، وكانوا ماهرين فى الصيد فيُصْمُون الفرائس بالسهام أو يصطادونها بالحبائل والأشراك ، وكانوا يصطادون السمك بالشِّبَاك .

وكان الآريون على علمٍ من المِلاحة ، فلم يجرؤوا فى البداءة على غير السير فى أنهر سَپْتَا سِنْدَهُو التى بدت لهم طُرُقاً طبيعية للمواصلات ، ثم اتَّسع نِطاق تجارتهم فصارت سفنهم تجرى فى البحر حاملةً سِلعاً على ألا تبعدُ من الشواطىء المجاورة لمصابِّ نهر السِّند .

وكان للآريين علمٌ بالطبّ ، غير أن ثقتهم بالأدوية التى يقول بها الطبُّ كانت دون ثقتهم بالرُّقَى والعزائم التى كان الكهنة يزعمون شفاء المرضى بها .

وكلما سار الآريون فى ميدان الحضارة اتَّسع نِطاق توزيع الأعمال عندهم ، فنى

أناشيد الدور الأخير تُبْصِر زيادة المِهَن ، فتَجِد لـكلّ عملٍ عاملاً ، فترى فيها وصفاً حتى لحلاّق القرية .

وبدأ التفاوت بين الثروات يزيد فى ذلك المجتمع الذى كان أمره يتعقد ، فأخذ يمارس أمور التجارة ، فبدا وصف أُبَّهَة الأغنياء وآلام الفقراء عنيفاً ، فصار الفقر الكريه يُجَسَّم ويُضْرَع إلى الآلهة أن تُبْعِدَه ، والجفافُ هو الذى كان يؤدى إلى الفقر فى الغالب فيَفِرُّ أمام سيول الموسم الماطر ، جاء فى الويدا :

« تَوَجَّه ، أيها الفقرُ ذو العين الموعوكة والسير الثقيل ، إلى الجبل السماوىّ حيث تجد مُحْسِناً مُنْعِماً ، فبأمواج السحاب ندفعك » .

« يَضُرُّ الفقر المدحور من هذا العالم ومن العالم الآخر بالبذور ، فيا بَرْهَسْ پَتِى أبْعِد هذا الشرَّ » .

ونشأت عن تفاوت الثَّرَوات هذا فضيلةٌ جديدة ، أى الإحسان ، فتأمر أسفار الويدا به كثيراً فيقول الـكهنة :

« الإحسان الإلٰهىُّ الناصر جزء من القربان .

« الرجلُ المحسن هو الرجل الطيب نحو البائس الجائع ، فإذا دخل بيته وَجَد سعادةً فى القربان ووجد أصحاباً بين الآخرين » .

وانهماك الآريين بالمَيْسِر من أسباب الفقر الشديد المفاجئ وتدهور الثروات عندهم ، فقد بلغ وَلَعهم بالميسر ، ولا سيما بالنَّرْد ، ما كانوا يخسرون به ، أحياناً ، فى يوم واحد جميعَ كنوزهم وبيوتهم وحقولهم وأولادهم وأزواجهم وحريتهم ، وفى الويدا وصفٌ قاتم لِما يَجُرُّ إليه ذلك الوَلُوع من المصائب ، ومن ذلك الوصفُ الآتى الذى جاء فى أنشودة رائعة منها :

« يَصِل المقامر إلى مجاس الميسر فيقول : فى نفسه متحمساً : « سأكسب ! » فيستحوذ النرد على روحه فيُسَلِّم إليه كلَّ ما يملك .

«والنردُ ، كسائس الفيل المُجَهَّز بكلَّاب يضغطه به ، يُلْهِب المقامر بالرغبة والحسرة ويأتى بالنصر ويوزع الغنيمة ويوجب سعادة الفتيان ويورثهم اليأس ويغويهم بِسُكْرٍ من عسل .

« والنرد لا يُؤَثِّرُ فيه غضبٌ ولا وعيد ، وله يَعْنُو(١) الملوك » .

« والنردُ إذ يتدحرج على الأرض ويَهُزُّ فى الهواء يبدو عاطلاً من الذُّرْعان فيهيمن على من لهم ذُرْعان ، والنردُ فَحْم سماوىٌّ يسقط على الأرض ، فيُجْمِد القلوب ويُشْعلها » .

« زوجةُ المقامر تَحْزَن حين تُهْجَر ، وأمُّ المقامر تَغْتَمُّ حين تجهل مصير ابنها ، والمقامرُ يرتجف حين يتعقَّبه الدائن فَيَعِنُّ له أن يَسْرِق فلا يدخل بيته إلاّ ليلاً » .



٤٤ — بهو وتبشور ، مشكاة منقورة فى معبد بهكواتى (القرن التاسع من الميلاد) (تدل هذه الصورة على دقائق التزيين فى داخل معابد بهو وتبشور ، وهى من رسم الهنود فتجدها فى كتاب بابوراجندرالاميتره .)

(١) عنا يعنو عناء وعنوا : خضع وذل .

ولم تكن ملاهي الآريين كلّها ذاتَ خطر، فبينما كان يسوده الطُّهْر، كتمثيل اللَّعب على المسارح الخشبية التي أشير إليها في الويدا .

والآريون، كجميع الفطريين، كانوا يُوقِدون النار بدَلْك حطبتين إحداهما بالأخرى، وكانت تانك الحطبتان، اللتان يظهر من دَلْك إحداهما بالأخرى إلهُ النار أغنى، تُسَمَّيان بالأرنى، جاء في الويدا :

« هذا هو زمن هزّ الأرنى وولادة أغنى، فَجِئْ بملكة الشعب (أرنى) ولنعملْ على إنتاج ابنها .

« فالإله الذي بيده الخير هو في قطعتي الأرنى، فهو فيهما كالجنين في بطن أمه » .

والآريون كانوا يدفنون موتاهم على العموم، وفي الويدا غيرُ نصٍّ على المآتم، وفي النصِّ الآتي تصويرٌ شِعْريٌّ لوداع حيٍّ لميت :

« اذهب تَجِد الأرض الأمَّ الكريمة الرؤوم الفتاة الواسعة العطوف، كالبساط، على من قدَّس للآلهة بعطاياه .

« فيا أيتها الأرض ! انهضي ولا تُؤْذِي عظامه، وكوني سلاماً عليه رؤوفاً به، ويا أيتها الأرض زَمِّليه كما تُزَمِّل الأمُّ طفلها بذيل ثوبها .

« فَلْتَنْهَض الأرض له، ولأجْمَعْ هذا التراب لكيلا تؤذيَ عظامه، وليحرس الأجداد قبره، وليحفر يما هنا منزله .

« ألاَ إن الأيام عندي كالسهام التي تذهب بالريش » .

فأين تَجِد ما هو أشدُّ وقعاً على النفس من سرعة الحياة التي تذهب بها الأيام كما تذهب السِّهام بالأرياش ؟ .

٧ — مبادىء الآريين اللاهوتية والدينية

مبادىء الآريين الدينية على شىء من الإبهام والغموض ، فلم تكن أمور أىّ إله معينةً تعييناً قاطعاً عندهم ، فكان للمشاعر والخيالات الشخصية شأن كبير فى تكييفها ، وليس قليلاً ما تجده من ذلك فى الويدا ، فمن ينظر فى الرّغ ويدا يَعْلم طوراً بعد طور أن ديانة الآريين كانت ديانة توحيدٍ خالص وديانةَ وَحْدَةِ وجودٍ راقيةً وديانةَ شِرْكٍ غليظ .

حقاً أن قواعد المنطق التى أثبتت التربية أمرها فى أدمغتنا الأوربية بتعاقب القرون جعلت لتلك الكلمات المُجَرَّدة فيها معانىَ صريحة مُحْكَمَة لا يُوَفَّق بينها مع فصلها بهُوَّى عميقة بين ما تدلُّ عليه من المعتقدات ، بَيْدَ أنه ليس لهذه المبادىء المجردة معانٍ مقررةٌ فى أدمغة القطريين التى لا يكون فيها للأفكار والعقائد واللغات غيرُ معان مذبذبة متقلبة على الدوام ، ولم يكن للتناقض مكان فى دماغ الآرىّ ذى الفكر المتقلب بسرعةٍ تقلبَ السُّحُب التى كان يراها فى الفلك ، فالإله الذى يَرِد ذكره فى الأنشودة يبدو الأهمّ ما حُدِّث عنه ، فلم تَكَد تُقَلَّب الصفحة حتى تَجِد إلهاً آخر يَغْلِبه ، والإنسان يرى أحياناً أن الشعراء الذين وضعوا الأناشيد أرادوا الجدل بذلك ، مع أنهم ، كأكثر الشعراء ، لم يكترثوا لموضوعات الأناشيد الاّ قليلاً لا ريب ، فكانوا يُضَحُّون مختارين بالرأى فى سبيل خيال أو وصف .

إذَنْ، تبدو الأناشيد الآرية مُتَموِّجةً بين أشدّ المبادىء الدينية اختلافاً ، فتجد

فيها عبـــادةَ قُوَى الطبيعة وتَجِد فيها وَحدة الوجود وتَجِد فيها الشِّرْك وتَجد فيها التوحيـــد .

ولا شيء أصعب من وضع تقسيم لآلهة الآريين ووضع سلسلة لها .

وأكثر الآلهة أو الرموز المذبذبة ذات الصفات والمقـامات غيرِ المستقرة على الدوام ، فتَجِد الأساطيرَ الويدية مملوءة بها ، هي ما يأتي :

إلهُ النار أغني والشرابِ المختمر سوما الذي يَحُثُّه ، فأغني هو موجب الآلهة وهو موجب العوالم وهو موجب الحياة الكونية ، وسوما يُخَلِّد الآلهة ويَهَب للناس القوةَ والنشاط ، وسوما أوجب مثله ، السماء والأرض ، إندرا وَوِشنو ، وسوما حين اتَّحَد بأغني صَوَّر السماء والكواكب .

وملكُ السماء إندرا هو من أكثر الآلهة ذكراً لدى الآريين ، فهذا الإله محارِبٌ واقف على مركبةِ حربٍ كأنه زعيمُ عشيرةٍ آرية .

ويجتمع حول الإله إندرا آلهةٌ لايحصيها عَدٌّ فتقاسمه سلطانَه وتَغْلِبه في الغالب ، ومنها الآلهةُ التي تُعْرَف بالماروت ، أي آلهةُ الزوابع والأعاصير والبروق وتوزيع الأمطار ، والتي هي أولادُ رودرا الذي هو أجمل إلهٍ والذي يُرْسِل الصواعقَ ويَحْمِي الأنعام ويَشْفِي المَرْضَى ، ومن تلك الآلهة الإله الذي يُعْرَف ببرهَسْپَتِي الذي يُنَظِّم الكون ، ومنها الإله وَرُونا الذي ينظر إلى أعمال الناس والذي هو ملك السماء كالإله إندرا ، والذي يُصَوِّره بعض الأناشيد خاضعاً للإله إندرا هـــذا ويُصَوِّره بعضها سانداً له ، ويُصَوِّره بعضٌ آخر منها متحداً به .

ثم يجيء الإله سُورْيَه ، الشمسُ ، وِشنو الذي يجوب الفضاء بثلاث خطوات ، والذي قَفَز ذات يومٍ إلى الصفّ الأول من الآلهة بعد أن كان ذكره خاملًا في الويدا .

ويُضاف إلى تلك الآلهة ، الكثيرة التى لا فائدة من عدِّها جميعها ، أشخاصٌ مجردةٌ كپوراندهى (الرخاء) وأراماتى (الإحسان) ومرتيو (الموت) ، الخ .

وتَمَثُّل الآريين للآلهة يختلف عن تَمَثُّل الأوربىّ لها اختلافاً عظيماً ، فلا نرى علماً يستطيع أن يحيىَ أفكاراً مَيِّتَةً عُبِّرَ عنها بلغة شعب ميت ، فما فى لغاتنا العصرية من كلمات بَيِّنَة مُحْكَمَة لا يَعْزُبُ به عن آراء أولئك .

ولا يمكننا أن نُبْصِر معنى الأمور الخاصــة بزمان زال إلى الأبد إلّا بالبحث العميق فى آثاره الأدبية ، فمع أن قصائد المهابهارتا والرامايانا أحدثُ من النشائد الويدية الأولى تبدو آثاراً آرية بالحقيقة ، فمن يقرأها يسهلْ عليــه أن يَتَبَيَّن الفروق بين ما دار حول الآلهة عند الآريين من الأفــكار وما يدور حولها عندنا ، فسلطانُ الآلهة وإن مُجِّدَ فى تلك القصائد ، فى الغالب ، لم تَخْرُج هذه الآلهة ظافرةً فى كلِّ مرة من اصطراعها هى والإنس أو الجنّ ، والأدبُ الهندوسىّ حافلٌ بمثات الأقاصيص التى هى من هــذا الطِّراز ، ومن ذلك أن راونا ، ملكَ الجنّ المعروفين بالركشسَا افتخرَ ، وهو يخاطب أحد الزُّهَّاد ، بقهره للإله العظيم إندرا والإله يَمَا ، ومن ذلك ما ورد فى صفحة أخرى من أن ابن الإنسان لكشامَنَا أخا راما قال للحسناء سيتا مُعَزِّياً إياها عن غياب زوجها الذى افترضت وقوعه فى مَكْمَن :

« من المستحيل أن تَغْلِب الأسُرَا وجميعُ الآلهة ، حتى الإله إندرا ، أخى » .

ومن ذلك أيضاً ما ورد فى رواية شَكُنْ تَلَا التى نظمها الشاعر كالى داســا فى القرن السادس من الميلاد ، على ما يحتمل ، من أن « مَلِكَ الآلهة » إندرا أرســل رسولًا إلى الملك دُشايَنْتا ، الذى هو رجلٌ ، ليرجوَ منه أن يُعينه على قهر العفاريت الذين « يَشْعُر بعجزه عن دحرهم » ؛ فوافق ذلك الملِك الرجلُ على ما طُلِب منــه

فانتصر على أولئك العفاريت الذين لم يَسْطِعْ « مَلِكُ الآلهة » أن يَغْلِبهم .

ظهر مما تقدم أن من الصعب حصرَ المعتقدات المذبذبة المتحولة التى أُستنبط من الويدا فى دوائرَ من التعاريف معيَّنةٍ ، وهذه المعتقدات تشابه تلك للموجودات المتقلبةَ غيرَ المحددة التى كان علماء الطبيعة يَعُدُّونهـا من الحيوانات تارةً ومن النباتات تارةً أخرى ، ونحن ، مع محاولتنا القيام بهذا العمل الجديد نستخرج ، تقريباً ، الأمورَ الآتية من مجموع المعتقدات التى جاءت فى الويدا .

(١) عبادة قُوَى الطبيعة .

(٢) تَشَخُّص هذه القُوَى بأسماء الآلهة .

(٣) اعتقاد خلود الروح .

(٤) عبادة الأجداد .

(٥) الميل إلى إخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإلهٍ واحد أقوى منها ، وهو الإله إندرا على العموم .

(٦) هَيُولِيَّة الدين الثابتــة التى ينحصر بها أمر الدين فى تبادل الإنسان والآلهة للهبـات ، وذلك بأن يُقَرِّب الإنسان قرابينَه ويُقَدِّم نوا كهَه وأن تَمْنَح الآلهةُ الكُثْرَ واليُسْرَ والمطرَ المبارك والصحةَ والكنوزَ .



٤٥ ـــ جكن ناتهه (ساحل أوريســة) مدخل المعبد الكبير (القرن الثانى عشر من الميلاد)

والآن نبحث فى هذه المسائل مستندين إلى بعض النصوص :

عِلاً تأليه قُوَى الطبيعة وعبادتها الرُّغْ ويدا .

وتفرض عبادةٌ كتلك على شعب جاهل فتىّ ساذج هَلُوع(١) فى قطر ، كالهند ، ذى عظمة رائعة وجمال عالٍ وذى يُسْر لم تسمع به أذنٌ مرة وذى عُسْر مرهوب مرة أخرى ، فنى الهند عُدَّت الشمس والرياح والأنهار والجبال والنباتات قُوًى قادرة ، وبدا سَيْر الشمس للآريين سِرًّا مُحَيِّرًا للعقول ، وشَمَلَت لطائفُ الفجر وعُذُوبة الشفق وتعاقب الفصول أنظارَهم فملأ شعراؤهم حظيرة قُدْسهم بآلهة وصفوها .

ولكن القوم فى وادى السِّنْد حيث يكون الحرُّ والجفاف هائلين كانوا يَضْرَعون ببليغ القول ، فى الغالب ، إلى إله الريح وايو وإلى أعوانه ورسله الماروت وإلى البَقَرات السماوية التى هى سُحُب تَحْمِل المطر .

فإليك بعضَ الأنشودة التى تَتَغَنَّى بالشمس ، فتُعَدُّ مثالاً حسناً للشعر الويدى :

« يقيم الإلهُ ساوِترى بالنجم الساطع الذى يَبْزُغ(٢) فينير العوالمَ كلَّها ، فالشمس تُحْيِى بأشعتها السماء والأرض والهواء » .

« يجيء بالشمس جيادُها الحُمْر ، فيَصِل الفجرُ العظيم الجميل الذى يُنْعِش الجميع بضيائه ، فتأتى الإلاهة على مركبة فخمة فتوقظ الإنسان ليقوم بعمل نافع » .

« كيف تطلع الشمس التى لا دليل لها وكيف تغيب الشمس التى لا رابط لها من غير أن تسقط ؟ ومن يعرِف القدرة التى تُمْسِكها ؟ هى صاحبة ربنا ، هى حافظة القُبَّة الخضراء وعمادها » .

والنارُ التى تُعْرَف بأغنى من أهمّ الآلهة الويدية ، ولا يفوق النارَ سوى الخالق الأعلى الإله إندرا ، فالنارُ موجودة فى كل مكان ، وتسرى النار فى كل مكان ،

---

(١) الهلوع : الضجور الذى لا يصبر على المصائب — (٢) بزغ يبزغ بزغا وبزوغا : طلع .

تسرى فى شرايين الأحياء وفى جَوْف الأرض وفى عروق النبات وفى أشعة الشمس، والنار تتجلى إذا ما ألهب الكاهنُ الحطبَ ، جاء فى الويدا :

« حينما أرى هذا الكائن المنير فى قلبى تدوى أذناى وتختلج عيناى وتتيه نفسى فى ارتياب ، فماذا أقول ؟ وَفِيمَ أُفكِّر ؟ » .

« فيا أغنى ! تَمَجَّدَتك جميعُ الآلهة واجفةً[1] ما تواريتَ فى الظلام » .

والمعتقدات حول اليوم الآخر مبهمةٌ متقلبة فى الويدا ، ففى الويدا يعود الشخص بعد موته إلى العناصر ، ويغشى روحَه جسمٌ جديد ، فمن ثمَّ ترى بَداءة المذهب التناسخى»[2] ، وفى الويدا تجد الاعتقاد القائل بخلود الروح وبأن الروح أسمى من الجسم وأنها أساس شخص الإنسان ، جاء فى الويدا :

« لتذْهَب عين الميت إلى الشمس ولتذهب روحه إلى وايو ، ولتَرُدَّ إلى السماء والأرض ما أنت مدين به لهما ، ولتُعْطِ الماء والنبات ما فى بدنك من الأجزاء التى لهما .

« وفى الكيان جزء خالد ، وهذا الجزء هو ما يجب أن تُدْفِئه بأشعتك وتُلْهِبه بنيرانك يا أغنى ، وانقُلْ ، يا جاتا ويدا ، ذلك الموجودَ السعيد ، الذى بَرَأْتَه ، إلى عالم الأتقياء الأبرار .

« وروحُك حين تزور هنالك بقعةَ الموت تدْعوها إلى منزلك هنا ، إلى الحياة .

« وروحُك حين تزور هنالك السماء والأرض ندعوها إلى منزلك هنا ، إلى الحياة.

« وروحُك حين تزور هنالك الشمسَ والفجر ندعوها إلى منزلك هنا ، إلى الحياة . الخ » .

---

(١) الواجف : المضطرب — (٢) التناسخ : انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر ويعرف « بالتقمص » والذين يعتقدون ذلك يسمون« بالتناسخية » .

ونشأت عبادة الأجداد عن ذلك الإيمان بخلود الروح ، ورأينا في مكان آخر أن الأجداد المَوْتَى ، عند الآريين ، لا يدومون ولا يَسْعَدون في المَثْوَى الأبديّ ما لم تَدُم أُسرتهم في الدنيا فتُقَدِّمَ إليهم القرابين وتُصَلِّي من أجلهم ، وفي الويدا :

« يا أغني ! تعالَ مع هؤلاء الأجداد القدماء الأتقياء العظماء ، تعالَ مع ألوف عِباد الآلهة هؤلاء الذين يركبون وإياها مركباً واحداً ويشربون هم والإله إندرا الشرابَ ويأكلون وإياه القربانَ ويذهبون للجلوس بالقرب من الدار » .

وتَجِد في الويدا بذرةَ الإيمان بإله عَلِيّ خالقِ كلّ فانٍ وكلّ دائمٍ مهيمن على الناس والأجداد والآلهة ، ويُخَيَّل لواضع أنشُودَة كلّ إله فيها أن هذا الإله هو أهمّ الآلهة أو الإله الواحد ، ومما حدث في الويدا أن عُدَّت الآلهة ، في بعض الأحيان ، إلهاً واحداً ذا أسماء متنوعة ، وفي الويدا :

« أن الروح الإلهيــة التي تسير في السماء تُسَمَّى إندرا ومِتْرَا وورونا وأغني ، فالحكماء هم الذين يُطْلِقُون على الموجود الواحد عِدَّة أسماء فيقولون هذا أغني (النار) ويَمَا (الموت) ، الخ . »

ومن هنالك ترى أن للموجود الواحد خواصَّ مبهمة فيــدعى تارةً بالنار وتارةً بالموت أو ما إلى ذلك من المُجَرَّدات الأخرى ، وفي العبارة الآتية تَجِد ما هو أدقُّ من ذلك :

« ذلك الذي هو أبونا ، ذلك الذي هو سبب كلِّ كائن ، ذلك الذي هو محيطٌ بكل موجود عليمٌ بكلِّ عالم ، فالإله الواحد هو موجب الآلهة الأخرى ، وكلُّ ما في الكون يُقِرُّ بسلطانه » .

بَيْدَ أنك تَجد ، أحيـاناً ، ما يكسو ذلك القولَ المؤكد ثوباً من الالتباس مصدرُه شعورُ الإنسان بعجزه عن معرفة أصل الأشياء ومصيرها ، ففي الويدا :

« تَعلَمُون خالقَ كلِّ شيء ، هو ذلك الذى تَرَوْنه أمامكم ، ولـكن كل شيء عندنا مستورٌ بغطاء من ثلج ، فأحكامُنا غامضةٌ ، والناسُ يَمْضُون مُقَرِّبين للقرابين وَمُرَتِّلين للأناشيد » .

وكان يَنْبُتُ فى تلك الأدمغة الفطرية مذهبُ الارتياب الذى نَمَا بعدئذ فى كتب الهنـد نمواً عظيماً ، ودليلُنا على ذلك النصُّ الآتى الذى ورد فى الرِّغْ ويدا فاستشهدَ به مكس مولر فى كتابه « أصل الأديان ونشوؤها » :

« مَنْ يَدْرِى ، من يقول من أين أتى هذا الـكون ؟ فالآلهة ظهرت بعد ظهوره، فمن يستطيع أن يُخْبِرنا بمصدره ؟

« من أين أتى هذا الـكون ؟ هل هو من صنع خالق أم لا ؟ يَعْلَمُ ذلك من ينظر من فوق الفلك ، وقد لا يعلم . »

ويظهر أن الجمهور كان لا يبالى كثيراً بمثل هـذه الأفـكار التى كانت تُساوِرُ بعضَ المفكرين، فالذى كان يُهِمُّ الجمهور هو أن يتساوم هو والآلهة تساوماً عمليًّا فيقدمَ إليهـا القرابينَ والأدعية والنشائد فى مقابل أُسَرٍ عزيزة وكنوز وافرة وقطاع كبيرة وانتصارات مُؤَزَّرَة ، ففى الويدا غيرُ شاهد على ذلك، والشواهد فيها من نَمَط واحد ، ففيها أن أىَّ إله يُضْرَع إليـه يُتَمَلَّقُ بوعده بسيول من شراب السوما وأنهـار من عسل ولبن وبالصلوات والأدعيـة والتسابيح ، وبتقريب القرابين أحياناً ، على أن يَحْمِى الأُسَرَ ويَقِى من الأمراض ويُنْزِل على الحقول المطرَ ويجعلَ البقر كثيرة النسل والدَّرِّ .

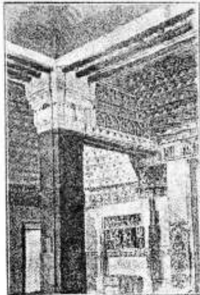
وقلما كان يُخْتلط بتلك الأمور الغليظة الصادرة عن الحرص والطمع روحُ التوبة والندم على ما فَرّط من الذنوب والرغبة فى إصلاح الحال .

ولا تكاد تجد فى الويدا مبدأ الذنب ، فالآرىُّ كان لا يَبْغى الكمال ، ويعزو ما يقترفه إلى ضعف الطبيعة البشرية ، جاء فى إحدى تلك الأناشيد :

« يابتريس ! لا تؤاخذنا بذنوبنا ، فهى نتيجة ضعف طبيعتنا البشرية . »

وما عند الآريين من مبادئ الأخلاق قليلُ النموّ قليلُ الصرامة ، فيكاد ينحصر ما تأمر به الويدا فى إيتاء الصدقات والرّفق بالحيوانات والوفاء للأصدقاء .

نختم بحثنا المُجْمَل الذى رسمنا خطوطه بإخلاص فاعتمدنا فيه على الويدا ، فحاولنا فيه إظهار حضارة الآريين وشأنهم ، فنقول ، من غير أن نعترف لهم بالصفات العالية التى أريدوصفُهم بها حينما كُشِف أمرهم ولا بما عُزِى إليهم من الشأن فى تكوين العروق ولا بما قُصِد نسبته إليهم من كلّ أمر رفيع فى الغرب ، إنك لا تُبْصر حضارة تساوت هى وحضارتهم فى النشوء فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الهمجية الأولى ، وإنك إذا قايست بين الشعب الآرى والشعب اليهودى الذى مَثَّلَ دوراً كبيراً فى العالم وجدتَ ذلك أعلى من هذا ، ففى تاريخ بنى إسرائيل ترى ما لا ترى له أثراً فى كتب الآريين



٤٦ — جكن ناتها . داخل معبد غورشابارى
(القرن الثانى عشر على مايحتمل)

من الأكاذيب وكفرانِ النعمة والجُبْن والنذالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء والخُرَافِيَّة الضارية .

وغيرُ ذلك يكون تقديرنا عند المقايسة بين ذينك العرقين فى الأسلوب الشعرىّ، فليس الرَّغ ْويدا بأجلّ من سِفْر أيوب .

ونعترف عنـد النظر إلى المناحى الفلسفية المدوّنة بصورة استثنائية فى كتابَىْ كلا العرقين بأن الشوق إلى معرفة الحقيقة والمجهولِ وغيرِ المحدود و بأن مشاعر البؤس البشرى و بأن وَهْىَ حُطام الدنيا أظهرُ بياناً وأكثرُ نَصًّا فى التوراة مما فى الويدا .

وإذا نظرتَ إلى الأمر من ناحية الحيـاة وجدتَ ، على العموم ، أن التوراة أكثر من الويدا تشاؤماً ، وتبدو الويدا أكثر من التوراة تفاؤلاً ، فالآرىُّ متفائلٌ بطبيعته ويَسْهُـلُ أن تجده راضياً بمـا قُسِم له ، فإذا علمت أن الآريين أربابَ الأسر يغتبطون بأبنائهم ومواشيهم ورياحهم الموسمية فلا يطلبون من السماء الصافية أكثرَ من هذه الأشياء صَعُبَ عليك أن تُصَدِّق أنهم أجدادنا ، نحن الغربيين ذوى الحاجات التى لا تقف عند حدّ فيصعُب قضاؤها ، نحن الغربيين الذين لا نعيش إلاّ بين المآرب الأزلية والرغائب الأبدية

———

الفصل الثاني

حضارة العصر البرهمي

وصفٌ للمجتمع الهندوسيِّ قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون

---

(١) الوثائق التي يستعان بها في بحث المجتمع الهندوسي قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون — شرائع منو — العلائق بالإغريق — رحلة ميغاستين — (٢) تقسيم المجتمع الهندوسي إلى طوائف — حقوق كل واحدة من هذه الطوائف وواجباتها — الضرورات الإثنولوجية التي أدت إلى نظام الطوائف — فساد المثال الآري كما ظهر من دراسة النقوش القديمة — شدة نظام الطوائف — وظائف أفراد كل طائفة — (٣) المدن والمباني — ما انتهى إلينا من مباني ذلك العصر — وصف مدينة هندوسية قديمة على حسب رواية ميغاستين ورواية رامايانا — (٤) الحكومة والإدارة — سلطة الملك المطلقة — إدارة الدولة — الضرائب — (٥) إقامة العدل — الشرائع والعادات — إذا عدوت الشريعة الدينية لم تجد شريعة سوى العادة — كيف كان العدل يقوم — البحث عن الجرائم والاشتراع الجزائي — حكم الله — لا تفرض العقوبة بحسب الضرر الواقع — دماثة الطبائع — (٦) الجيش وفن التعبئة — أهمية الجيوش الهندوسية على حسب رواية ميغاستين — الأسلحة — فن التعبئة — (٧) الزراعة والتجارة — التعليمات الزراعية — مبادئ المقايضة — الربا الفاحش — الطبقة الصناعية والتجارية — (٨) أحوال النساء — الوصاية على المرأة في العصر البرهمي — عقوبة الزناء الشديدة — واجبات الأزواج المتبادلة — (٩) معتقدات الهندوس الدينية قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون — تطورات النظام الويدي القديم — جفاء الطقوس — أسس وحدة الوجود — مذهب التناسخ — مستقبل الإنسان على حسب أعماله في حياته — شدة النير الديني المفروض على الهندوس في العصر البرهمي .

١ — الوثائق التى يستعان بها فى بعث المجتمع الهندوسى كما كان قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون

كان وادى السِّنْد مقراً للحضارة الآرية التى وصفناها فى الفصل السابق ، وكان وادى الغَنْج محلَّ نشوء الحضارة البرهمية التام .

استمرّ فاتحو الهند على زحفهم إلى الشرق فى الدور الذى دام نحو ألف سنة ففصل بين دَوْرَىْ هــذه الحضارة البارزيْن ، فأضحَوْا سادةَ جميع الهندوستان ، أى جميعِ القطر الواقع بين بحر عُمَان وخليج البنغال ، و بين جبــال هِمَالْية وجبال وِندهيا ، وخضع سكانُ هذا القطر الواسع الغنىّ القدماء لقاهريهم نهائياً وكَفُّوا عن مقاتلتهم راضين بنيرهم مختلطين بهم ، ورأى الآريون أن يجتنبوا هذا الاختلاط الذى بدا فى الصميم فصار يؤدى إلى انصهار بعض العروق فى بعض بعد أن كان سطحياً ، فوضعوا ، وضع المُتِمّ ، نظامَ الطوائف الذى ذكرنا ظهوره الأول فى العصر الويدى.

بلغت الحضارة البرهمية ذُروتها قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون ، ففى ذلك الزمن ، لا ريب ، أُلِّفت مجموعة شرائع مَنُو (مانوا — دَهرما — شاسترا) التى صارت دستور الهند المدنىّ والسياسىّ .

وظُنَّ فى بدء الأمر أن تلك المجموعة أقدم من ذلك بزمن طويل ، فرَجّحها جونس إلى القرن الثامن قبل الميلاد ورجّحها آخرون إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أُبْدِى حديثاً رأىٌ أقومُ من ذلك كما يظهر ، فلم يَرْجِعها إلى ما قبل القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد .

إن مانوا — دَهرما — شاسترا أوثقُ مصدرٍ لدينا عن العصر البرهمى ، وهو يَمْدِل الرِّغْ ويدا عن العصر الويدى ، وما وصفناه فى أمر الويدا تصنع مثله فى أمر شرائع مَنُو فنستنبط من هـذه الشرائع الأساسية جميع الشواهد التى تتمثل بها ، بالضبط ، ما تشير إليه من الأزمنة .

وليست الـكتب المقدسة وحدَها هى التى نستجلى بها العصر البرهمى مع ذلك ، فقد أخذ التاريخ ، أيضاً ، يُلْقِى بَصِيصاً ، ولو ضعيفاً ، على الهند القديمة بعد غزوة الإسكندر .

أجَلْ ، إن غزوة الإسكندر لم تُسْفر عن كبير معرفة للغربيين ، غير أنهم أبصروا بها القطرَ الحافلَ بالأسرار الواقع فيما وراء نهر السِّنْد فوَجَّهوا إليـه بعدئذ أفـكارهم وأنظارهم فى الغالب ، فعَنَّ لنيكاتور السلوقى ، الذى هو أحد الأمراء المقتسمين لدولة الإسكندر المقدونى ، أن يُتِمَّ ما بدأ به هـذا الفاتح راجياً أن يكون أوفر حظاً منه فخاب أمله ، فقد كان لدى ملوك الهنـد الشمالية من الحرس والجيوش الـكثيرة ما لم يجرُؤْ معه على مقاتلتها مخاطراً .

بَيْدَ أن ذلك الأمير فتح بقطريان فأصبح جاراً لأولئك الملوك فعَرَضَ عليهم أن يتفاوض هو وإياهم ، فحالفه جَنْدَرا غُوپتا (المعروف لدى الإغريق بساندروكوتوس) الذى كان من أعظمهم سلطاناً فتزوج هذا الملك الهندوسىّ بابنته مُضِيفاً إياها إلى نسائه مما عُدَّ خارقاً للعادة عند الإغريق والهندوس على السواء ، فذهبت هذه الأميرة الفتاة إلى عاصمة زوجها پاتلى پوتْرا الواقعة على ضِفاف الغَنْج وغيرِ البعيدة من رأس الدلتا لتلحق به ، فرافقها إليه السـفير ميغاستين فقَضَى هـذا السفير أوقات فراغه فى وصف ما كان غريباً عليه من طبائع الشعوب التى أصبح بين أظهرها .

ومن المؤسف أن رِحْلَة ميغاستين الـكاملةَ المفصلة ، كما يظهر ، لم تَصِل إلينا ، واليومَ تُعَدُّ مزورةً المجموعةُ التى عزاها أنيوس الڤيتربى فى القرون الوسطى إلى ذلك السفير السلوقى على أنهـا صحيحة ، غير أن مؤرخى الإغريق واللاتين وجغرافييهم المعاصرين لهذا السفير والذين ظهروا بعـده قد استشهدوا برحلته فى الغالب فاقتطفوا منها فصولاً كاملة ، فنجد أسترابون ، مثلاً ، يستند إليها كثيراً فى الجزء الذى درس فيه جغرافية الهند ، فنشأ عن ذلك أن انتهت إلينا منها قِطَعٌ واسعة بعض الاتساع تُعَدّ ، بالإضافة إلى شرائع مَنُو ، الأساسَ الذى نعتمد عليه فى بعث الهند البرهمية .

حقّا أن رِحـلة ميغاستين وشرائعَ مَنُو هى الوثائق الوحيدة التى تُستنبط منها معارفُ ، على شىء من الصحة ، عن العصر البرهمى ، وأما القصائد الحماسية الـكبرى، كالرامايانا والمهابهارتا ، فمحشوةٌ بالأساطير مهذبةٌ عِدّة مرات لا ريب ، فلا تَصْلُح لمعرفة الزمن الذى وُضِعت فيـه ولا لتعيين ما أشارت إليه من الحوادث بالضبط ، وإن كانت آثاراً أدبية خالصة يُرْجَع إليها أحياناً بتحفظ كبير .

٢ — تقسيم المجتمع الهندوسى إلى طوائف

حقوق كل واحدة من هذه الطوائف وواجباتها

رأينا فى أواخر العصر الويدى تقسيمَ الوظائف وتطورها لتـكون إرثيـة ، وذكرنا أن ذلك يوجب نظام الطوائف وإن كان لا يُؤَدى وَحـده إلى ظهور هذا النظام .

كانت ضرورة المحافظة على نَقَاوةِ العرق واحترام الأنساب وبقاء الأُسَر القديمة مما يَشْغَل بال آريى العصر الويدى ، فصار التفـكير فى ذلك هَمّ مشترعى الآريين

عندما دان للآريين الفاتحين شمالُ الهنـــد فتفرّق هؤلاء القليلو العدد بين سكانه المغلوبين الـكثيرين .

وكانت الحقائق الإثنولوجية ، التى هَدَت إليها التجارب فوُضِعت فى نصوص من الحِـكَم ، بَدِيهِيَّةً عند الآريين ، فالآريون كانوا يعلمون ، لا ريب ، أن الغُزَاة لا يلبثون أن يَفْنَوْا فى الشعب المقهور إذا امتزجوا به فلا يبقى لهم أثر بعـد بضعة أجيال ، وكانوا يعلمون ، أيضاً ، أن تزاوج رجل وامرأة من عرقين متفاوتين يؤدى فى الغالب إلى وِلادة أولاد متوسطين خَلْقاً منحطين خُلُقاً .

فاسمع ما جاء فى شريعة منو :

« لم يلبث كلّ بلد يُولَد فيه أولاد من عرق متوالد مُفْسِد لصفاء الطبقات أن تَقَوَّض دعائمه وينحطّ سكانه .

« وأُسرة الرجل مهما تـكن شريفةً ممتازة لا بُدَّ لهذا الرجل ، إذا كان وليـدَ طبقات مختلطة ، من أن ينتقل إليه بالإرث شىء من سَجِيَّة أبويه وسوء خُلقهما .

« وما فى الرجل من فُقْدَان المشاعر النبيـلة وغِلْظة الـكلام والجَلَف وإهمال الواجبات فموروثٌ عن أمٍّ جديرة بالاحتقار » .

والآريون قد تَمَلَّمُوا تلك المبادئ على حسابهم الخاص لا رَيْب ، فلما راعهم ، على الأرجح ، هبوط عرقهم أقاموا الحواجز الواقية الشديدة التى لا تزال باقية .

ولا يدلّ ما فى شرائع مَنُو من التعاليم على سلامة العرق الآرى قبلهـا ، وإن دلّت على تقدير الآريين لضرورة سلامة عرقهم ، فتوالدُ الآريين وغيرهم قد حَدَث حتماً ، فلم يَعْـتَمّ المثال الآرىّ أن تَغَيَّر ، فلا تجد شريعـة قادرة على مقاومة بعض الضرورات الفيزيولوجية .

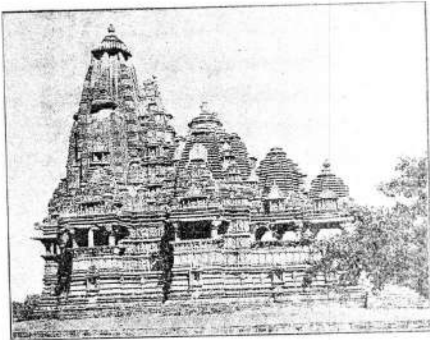
ومما يُؤيِّد هذه النظرية ما في المباني القديمة من النقوش ، فتدلُّ نقوش ذلك العصر ، كنقوش بَهَارَت مثلاً ، على مثال نَجِده في القرون الآتية وفي مناطق الهند البعيد بعضُها من بعض بُعْداً كبيراً ، كسانچي وبَهَاجا على الخصوص ، فلا نرى بينه وبين المثال القفقاسيّ وجهَ شَبَه ، فهو ذو وجه عريض صفيح يُثْبِت تَغَلُّبَ العنصر التورانيّ ، والآريون الخُلص إذا ما وُجِــدوا في ذلك الحين كانوا أقليةً صغيرة منتسبة إلى طائفة البراهمة وحدَها لا ريب .

ويدلُّ درس المجتمع في ذلك العصر على تطوره خَلْقاً وخُلُقاً ، فقد أضيف ثِقَل نظام الطوائف الذي وُضِع لإنقاذ ما بَقِي من النَّقاوة والفَخْر إلى نِير التقاليد الشديد الذي حُصِرت فيه الحضارة الهندوسية فلا تخرج منه أبداً ، فَفَدَت الآلهة هَيُولانيّة وحَلَّت تعاليم مَنُو الجافَّة محلَّ الشعر الآري الرائع ، نَعَمْ ، إن الخيال لم يُقَيَّد تماماً ، بيد أنه أضحى أشعثَ ثقيلاً مُنْتِجاً للأساطير المُطَوَّلة التي لا حدَّ لها بدلاً من أدعية الويدا البليغة أو نشائدها الساطعة .

والطوائف التي ورد ذكرها في شريعة مَنُو أربع : طائفةُ البراهمة (الكهنة) وطائفة الأكشترية (المقاتلة) وطائفة الويشية (الزراع والمرابين والتجار) وطائفة الشودرا (سِفْلة الناس الذين ليس لهم مهنةٌ خاصة فلم يُعْترف لهم بعمل غير خِدْمة الآخرين) .

وعلى الرجل أن يتزوج بامرأة من طائفته أو من طائفة أدنى منها ، ولكن الرجل الذي يتزوج بواحدة من الشودرا يصبح مفضوحاً مَهتُوك السِّتْر ويُطْرَد من طائفته ويصيبه خزيٌ في الدنيا والآخرة ، فلا يتزوج نساء الشودرا إلاَّ رجالٌ من الشودرا .

ويمكن البرهمىّ أن يتزوج امرأة من الأكشترية أو من الويشية ، ولا عكس ، فمن معتقدات الآريين أن الأب الذى هو من طائفة أعلى من طائفة زوجته يستطيع أن ينقل بعض صفاته إلى ابنه ، وأن الأب الذى هو أدنى من طائفة زوجته يُنْزِل هذه الزوجة وأولاده منها إلى مستواه ، فيُنْظَر فى عدم الكفاءة الحقيقية فى الزواج إلى زواج المرأة حيث الذرارى .



٤٧ — كهجورا . معبد شيوا (القرن العاشر من الميلاد) (ارتفاعه نحو ٢٥ متراً)

وإليك واجباتِ كلٍّ واحدة من الطوائف ومبادىء النكاح كما جاءت فى شريعة مَنُو بادئاً بالرمز البرهمىّ المشهور القائل إن كل طائفة خرجت من جزء من جسم برهمة .

« أراد الربُّ المولَى تكاثُرَ الجنس البشرىّ فخلق من فَمِهِ وذراعه وفخذه ورجله البراهمة والأكشترية والويشية والشودرا وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكلٍّ واحدة من هذه الطبقات أعمالاً خاصة .

« فمَهد إلى البراهمة فى درس أسفار الويدا وتعليمها وتقريب القربان وإدارة ضحايا الآخرين والعطاء والأخذ .

« وفَرَض على الأكشترية حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك فى الشهوات .

« وخَصَّ الويشية بتربية المواشى وإيتاء الزكاة والتضحية ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحرث .

« وأوجب على الشودرا عملاً واحداً فقط ، وهو خدمة تلك الطبقات من غير أن يَحُطُّوا من قَدْرها .

« ولْيُعْرَف أمر الرجل الذى ينتسب إلى طبقة دنيئة والذى وُلِد من أمٍّ حقيرة فلم يظهر أمره جيداً فيُخَيَّل إلى الناظر إليه أنه رجلُ شرفٍ وما هو بذلك .

« يمكن المرء الذى يولد من أب شريف وأمٍّ حقيرة أن يكون شريفاً بخصائله، ولكن الذى يولد من أمٍّ شريفة وأب حقير يُعَدُّ حقيراً كما هو حكم القدَر .

« لا يَنْجُل الرجلُ الشودرىُّ الذى يتزوجُ امرأةً من طبقة الكهَّان غيرَ ولدٍ أدنى منه ، كما أن كلَّ واحد من هؤلاء المُوَلَّدين الأدنياء يتزوج بواحدة من بنات الطبقات الأربع الخالصة لا يَنْجُل إلاّ ولداً أدنى منه .

« نارُ جهنم هى دار البرهمى الذى يتزوج امرأة من الشودرا ، لا من طبقته ، فإذا وُلِد له ولد منها طُرِد من طبقة البراهمة » .

كان تفوقُ رجال البراهمة على بقيّة الشعب عظيماً ، وما كانوا يتمتعون به من السلطان والحقوق والاحترام يجعلهم من شِباه الآلهة أكثر من أن يكونوا من البشر ، وقد نالوا هذا المقام الممتاز بعنصرهم الطيب و بما لصلواتهم من التأثير المزعوم فى عزائم الآلهة و بما اكتسبوه من العلم فى جميع أيامهم .

وكان البراهمة يقومون ببعض الواجبات ، فى الحقيقة ، فى مقابل ما يتمتعون به من الامتيازات، و بيانُ الأمر : أن حياة البرهمىِّ كانت تُقسَّم إلى أربعة أدوار :دورِ المراهقة وفيه يتخرّج البرهمىّ على أساتذة مخصوصين فى دراسة الكتب المقدسة والاطلاع على أسرار الدين ، ودورِ الفتوة وفيـه يتزوّج البرهمىّ فيصبح أباً وربّ أسْرة ما كانت وظائفه وراثية وما كان واجبه الأول أن يكون ذا ولد ، ودورِ الكهولة وفيه يقضى البرهمىّ أيامه معتزلًا مُتبتِّلًا زاهداً ، ودورِ الشَّيْبَة وفيه يصبح البرهمىّ كاملًا متصلًا بالآلهة رأساً متأملًا متأهباً للموت .

ويجب أن تكون هذه الحياة ، التى قُسِّمت على هذا الوجه إلى هذه الأدوار الأربعة (المراهقة والفُتُوّة والكُهُولَة والشَّيْبَة) ، لكلّ هندوسىّ وُلِد مرتين ، أى لكل هندوسىّ مقبول ، ويُعَدّ جميع رجال الطوائف الثلاث الأولى من الذين وُلِدوا مرتين ، فالواحد منهم إذا خَرَج من دور المراهقة وُضِع حول عنقه حَبْلٌ رمزىٌّ فى احتفال ليكون علامةً على الولادة الروحية وعلى أنه ابن برهمة ، غير أن البراهمة وحدَهم هم الذين يمارسون بدقة الوظائفَ الأربع : وظيفةَ المرشح للرهبانية ووظيفةَ ربّ الأُسرة ووظيفة الناسك ووظيفة القانت .

وفى حالة الفقر يؤذن للبرهمىّ فى القيام ببعض الوظائف ، وبالتجارة أيضاً ، ولكن فقراء البراهمة يعيشون ، على العموم ، من جُود الأكشترية وكَرَمهم ، فإيتاه

الهبات للبراهمة هو أفضلُ عمل يقوم به هندوسيّ ، جاء في شريعة مَنُو :

« يُؤْجَر الواهب مرة على هِبَة المـال لغير البرهميّ ، ويُؤْجَر مرتين على هِبَته لرجل يزعم أنه برهميّ ، ويُؤْجَر مئةَ ألفِ مرةٍ على هِبَته لبرهميّ مُتَبَحِّر في كتب الويدا ، ويُؤْجَر أجراً لا حدَّ له على هِبَته لبرهميّ مُتَبَتِّل إلى علم اللاهوت » .

وإليك أهمّ ما جاء في شريعة مَنُو من النصوص على حقوق البراهمة :

« إذا وُلِدالبرهميّ وُضِـع في الصف الأول من صفوف هذه الدنيا ، والبرهميّ إذ كان السيدَ الحاكمَ لـكلّ مخلوق وَجَب عليه أن يحافظ على كَنْز الشرائع المدنيـة والدينيـة .

« والبرهميُّ محلٌّ لاحترام الجميع والآلهة بسبب نَسَبَه وحده ، وأحكامُه حجةٌ في العالم ، والـكتاب المقدس هو الذي يمنحه هذا الامتياز .

« كلُّ ما في هـذا العالم مُلْك البرهميّ ، وللبرهميّ حقٌّ في كل موجود بسبب البِـكْرِيَّة والنَّسَب .

« والبرهميُّ إذا ماافتقر حُقَّ له أن يمتلك مال الشُّودرِيّ الذي هو عَبْدٌ له من غير أن يجازيه المَلِك على ما فعل ، فالعبدُ وما يَمْلِك لسيده .

« ولن يُدَنَّس البرهميُّ صاحبُ الرِّغْ ويدا بذنب ولو قَتَل أهل العوالم الثلاثة وتناولَ طعاماً من أسفل رجل .

« ولا ينبغي للمِلِك أن يَجْبِيَ خَرَاجاً من برهميّ عالم بالـكتاب المقدس ولو مات الملك محتاجاً ، ولا يجوز له أن يَصْبِر على جوع برهميٍّ في ولايانه .

« وليجتنب المَلِكُ قتلَ برهميٍّ ولو اقترف جميع الجرائم ، وليَطْرُدْه ، إذا رأى ، من مملـكته على أن يترك له جميع أمواله وألاَّ يصيبه بأذى .

« والبرهمىُّ المُحْصَن إذا ما زَنَى قُصَّ شعر رأسه قصًّا شائناً ، على حين يُقتَل الزُّناة المُحْصَنون من أبناء الطبقات الأخرى » .

ومن حقوق البراهمة أن يكونوا مشيرين للملك ، فعلى الملك ألاَّ يقطع أمراً مُهِمًّا قبل أن يستشير أكثرهم دراية ، فكان يجتمع بانتظام مجلسٌ يدعى بالمجلس الكبير للبحث فى أهمِّ الشؤون .

وشاهد ميغاستين ما كان يتمتع به البراهمة من ضروب العزِّ والشرف وحَدَّث عن فلسفتهم معجباً فقال إنها قريبة من فلسفة سقراط وفيثاغور .

وكان الأكشترية (المقاتلة) يقومون بأمور الحرب وحدَها فلا يمارسون حِرْفَةً أو مِهْنة أخرى ، وكان وقت السلم لهم وقتَ بَطالة ، وكان يجب عليهم أن يستعدوا للحرب على الدوام وأن يُلَبُّوا أول نداء ما قامت رسالتهم على حماية الشعب وما أركن الويشىُّ (الزارع ..) إلى مرابطتهم فى الثغور فحَرَث حقله مطمئناً .

وكان الأكشترية والبراهمة (الكهنة) عِمَادَى المجتمع المُتِمِّ أحدُهما للآخر ، وإن كان الأكشترية دون البراهمة بدرجات ، جاء فى شريعة مَنُو :

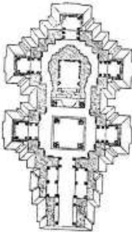
« لا فلاح للأكشترية بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الأكشترية ، فتانك الطائفتان إذا ما اتحدتا كُتِبَ لهما الفوزُ فى الدارين .

« يجب أن يُعَدَّ البرهمىّ أباً للأكشترىِّ ولو كان عمر البرهمىِّ عشرَ سنوات وعمر الأكشترى مئة سنة ، ويجب أن يحترم الأكشترىُّ البرهمىَّ على هذا الأساس » .

ومن ثَمَّ ترى الفرق بين تينك الطائفتين الأوليين ، وهذا الفرق ليس بالذى يذكر إذا ما قِيس بالهُوَّة التى تفصلهما عن بقية الشعب ، ويبدو الأكشترى نِدًّا

للبرهمىّ من بعض الوجوه كما يُسْتَشَفُّ من ذلك النصّ الدالّ على الصلة الوثيقة بينهما ، و يبدو مالا يتصوره العقل من الوهاد العميقة بينهما و بين الويشية ، ولا نقول الشّودرىّ الذى يكاد يكون غير موجود فى المجتمع .

وكانت طبقة الويشية تشتمل على الزراع والتجار والمرتهنين ، وكان هؤلاء يُعَدُّون من الذين يُولَدون مرتين ، وإن كان قبولهم يَتِمُّ بعد الأكشترية بمدة كما أن قبول الأكشترية هؤلاء كان يتأخر عن قبول البراهمة .



٤٨ — كهجورا ، رسم معبد كهندارِيا (كما خططه الجنرال كننغهم) (القرن العاشر من الميلاد)

وما كان الويشىّ ليَهْبِط إلى درجة الأُجَراء مهما رأيت من اتِّضاع مهنته ، فكان للويشىّ منزلُه وأسرته التى هو ربّها المحترم ، ولا شىء كان يَجْلِب العار لدى الهندوسىّ البرهمىّ كإيجار المرء نفسَه من الآخرين ، فالخِدْمةُ من شأن الدوابّ والشودرا .

و إليك بعض نصوص وردت فى شرائع مَنُو عن الويشية :

« يجب على الويشىّ بعد أن يُقَلَّد الحبلَ المقدس ويتزوج امرأة من طائفته أن يُعْنَى جادًّا بمهنته و يُرَبِّىَ المواشى على الدوام .

« ولْيَعْلَم جيداً كيف يبذُر الحبوب ، ولْيُفَرِّقْ بين الأرض الجيدة والأرض الرديئة ولْيَطَّلِعْ على نظام الأوزان والمكاييل اطلاعاً تاماً .

« ولْيَعرف أَجْرَ الخَدَم ولغاتِ الناس وما تُحْفَظ به السِّلع وكلّ ما يَمُتُّ إلى البيع والشراء بصلة » .

ولا ريب فى سريان قطَرَاتٍ من الدم الآرىّ فى عروق الويشية وإن كان دم الويشية كثير الاختلاط بغيره ، وأما الشودرا فهم سكان البلاد الأصليون الأدنياء الذين لا يخالفهم الإنسان من غير أن يَهْبِط من مرتبته ، وهم نُفَايَة الخلْق وأحقر من البهائم ، وليس فى هذا ما يَصْعُب إدراكه عند النظر إليه من الوجهة البرهمية ، فليس فى الكلب أو الحصان أىُّ خَطَر على مستقبل العرق الآرى ، مع أن الشودرا كانوا يُهَدِّدون ، على الدوام ، قاهريهم بغَمْرهم وابتلاعهم ، فلو لم يُفْضِ المغلوبون منذ الساعة الأولى لأدَّى غزوهم السِّلْمِىُّ إلى زوال أى أثر من العرق القديم الذى يفتخر البراهمة بالانتساب إليه ، ولو انقطع القَرَاحُ(١) عن السيل فى قناته الصَّوَّانيَّة لامتصته حَمْأَةُ(٢) مُسْتَنْقَعٍ واسع .

ويمكن القارىء أن يطلع على درجة الذلّ العظيم التى كان يعيش فيها الشودرى المنكود الحظّ من النصوص الآتية الواردة فى شرائع مَنُو :

« يجب على الشودرىّ أن يمتثل امتثالاً مطلقاً أوامر البراهمة سادةِ الدار العارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل ، فتُرْجَى له السعادة بعد موته (ببعث أسنى) .

« خدمةُ الشودرىّ للبراهمة هى أفضلُ عمل يُحْمَد عليه ، ولا أجرَ للشودرىّ على عمل آخر يقوم به .

« ولا يجوز للشودرىّ أن يجمع ثَرَواتٍ زائدة ، ولو كان على ذلك من القادرين ، فالشودرىّ إذا جمع مالاً آذى البراهمة بقِحَته .

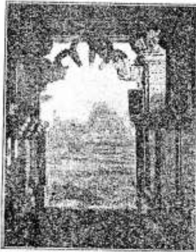
---

(١) القراح : الماء الخالص — (٢) الحمأة : الطين الأسود .

« ويجب نفى ابن الطبقة الدنيا الذى تُحَدِّثه نفسه بأن يساوىَ رجلاً من طبقة أعلى من طبقته وأن يُوسم تحت الوِرْك .

« وتقطع يده إذا علا من هو أعلى منه بيده أو عصاه وتُقْطع رجله إذا رَفَسه برجله حين الغضب .

« وإذا ما دعاه باسمه أو باسم طائفته مُتَشَتِّمًا أُدْخل إلى فمه خِنْجر مُحَمّى مَثْلُوثُ النَّصْل طوله عشرة قراريط .



٤٩ — كهجورا . باب المعبد السابق (أخذت هذه الصورة من داخل المعبد) .

« ويأمر الملك بصبِّ زيتٍ حارٍّ فى فَمِه وفى أذنيه إذا بلغ من الوقاحة ما يُبْدى به رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم .

« ومن يَكُ ذا علاقات برجل منبوذ أُسْقِط فى نهاية سنة ، ولا يكون هذا السقوط ، فقط ، بأن يُقرِّب معه أو يُقرَأ معه الكتاب المقدس أو يُحالَف مما يؤدى إلى السقوط حالاً ، بل ينْجُم أيضاً عن الذهاب معه فى مركبة واحدة أو الجلوس معه على متكأ واحد أو الأكلِ معه حول خِوَان واحد » .

٣ — المدن والمبانى

أقام الهندوس فى العصر البرهمىّ مبانىَ فَخْمَةً ومدناً زاهية على ضِفاف الغَنْج ،

فكانوا بذلك على عكس آريي العصر الويدي الذين لم يُنشئوا غير قرى حقيرة .

وأطلال ماشاده الهندوس في العصر البرهمي قليلة جداً ، ويُثبت ما بَقِي منها ، كنقوش بهارت وأعمدة أشوكا ، أن الهندوس كانوا ماهرين في فن العمارة .

ومن المحتمل أن أُنشِئَت أبنية الهند الأولى من الخشب والآجُرّ وأن المباني الحجرية لم تكن غير نسخة عنها ، وليس ما قام به ميغاستين من الوصف وحده هو الذي أَستَنِد إليه في هذا ، بل أستَنِد ، أيضاً ، إلى مشاهداتي في نيبال التي حافظت على طبائع الهند القديمة ، فقد وجدتُ فيها أعمدة حجرية غير قليلة اقتُبِسَت نقوشها من نقوش الأعمدة الخشبية اقتباساً تامّاً .

والأمر مهما يكن فإن الذي لا ريب فيه هو أن الهندوس كانوا مالكين لمدن مهمة في زمن ميغاستين ، فما وصَفَ به هذا السفير اليوناني مدينةَ پالي بوترا الكبرى من القول يدلنا على اتساعها وقوتها وعظمتها .

قامت تلك المدينة ، كما روَى ميغاستين ، على ضِفاف الغَنْج وكانت مسطحة مستطيلة جداً وكان يحيط بها سُورٌ ، وكان يوجد في أسفل هذا السّور خندق عريض ، وأثار عجبَ ميغاستين قصرُ الملك فيها وأسواقُها وحوانيتها المملوءة بالسلع الثمينة والمواكبُ الزاهية التي كانت تجوب شوارعها .

ولم يكن وصف ذلك السفير كلَّ ما لدينا من الوثائق لتَمثُّل إحدى المدن الهندوسية في القرن الثالث قبل الميلاد ، فاليك وصفاً أكثر تفصيلاً مما ورد في رحلة ذلك السفير جاء في شعر الرامايانا الحماسي الذي وُضِع في زمن أقدم من تاريخها لا ريب :

« هى بُقْعَة واسعة دَسِمَة باسمة وافرة الغِنَى مملوءةٌ بالحبوب والمواشى واقعة على ضِفاف سَراجو مُشَمَّاةٌ كوسَلا ، هنالك كانت مدينةٌ مشهورة فى جميع العالم أنشأها سيد البشر منُو ، فـكانت تدعى بأجودهيا .

« يا لَجمال تلك المدينة ويا لسعادة تلك البلدة التى كان عرضها ثلاثةَ أوَدْجِنَاَ وكان طول سورها الرائع اثنى عشر أوَدْجِناً ! .

« كان لتلك المدينة أبواب يَفْصِل بعضَها عن بعض مساوفُ متساوية ، وكان يقطعها شوارعُ كبيرةٌ عريضة ، وكان يَسْطَع من هذه الشوارع الشارعُ المَلَكىُّ حيث تَرْشاشُ الماء يُسَكِّنُ ثائرَ الغُبار .

« وكان تجار كثيرون يَتَرَدَّدون إلى أسواقها ، وكان كثيرُ الحلىِّ يزخرف حوانيتها ، وكانت منيعة ، وكان كبيرُ البيوت يُغَطِّى أرضها ، وكانت مُزَيَّنَة بالغِياض والحدائق العامة ، وكانت تحيط بها الخنادق العميقة التى يتعذر اقتحامها ، وكانت دور صِناعتها طافحة بأنواع الأسلحة ، وكانت الأقواس البديعة تُتَوِّج أبوابها فيَحْرُسها النَّبَّالة على الدوام .

« وكان الملكُ المنصور العالى الشأن دَشَرَتْهَا يَمْلِكُ تلك المدينةَ كما يَمْلِكُ الإله إندرا مدينةَ الخالدين أمَرَاوَتِى .

« وكانت البنودُ الخافقة ترفرف فوق حنايا مداخلها المنقوشة ، وكانت تتمتع بكلِّ ماينتجه مختلف الفنون والمِهَن ، وكانت زاخرة بالمراكب والخيل والفِيَلَة والعُدَد والمقامع وآلات الحرب ، وكانت طرقها ذواتُ الأبوابِ المتينة وأسواقُها الحسَنَة التوزيع على أبعادٍ محسوبة حساباً دقيقاً تَعِجُّ بالباعة والسُّعاة والسُّيَّاح ، وكانت

ألوف الجموع تَغْدو وتَعْدو فيها ، وكانت تُحلِّيها العيون الساطعةوالبساتين العامة وَرِداه المجالس وضَخْمُ المبانى المُوَزَّعَة توزيعاً كاملاً ، وكانت تبدو محطةً لمراكب الآلهة الحيَّة فى هذه الدنيا لِما فيها من هيا كل هذه الآلهة » .

٤ — الحكومة والإدارة

كان نظام الحكم فى العصر البرهمى مَلَكيًّا مطلقاً ، فكان الملك يُطاع كإله، فإذا ما ارتقى الملكُ العرشَ ، ولو بعد جناية يقترفها ، نُظِر إليه مثلاً لمشيئة قُدُسيَّة وقدرةٍ إلٰهيَّة ، جاء فى شريعة مَنُو :

« يجب ألا يُسْتَخَفَّ بالمَلِك ولو كان طفلاً ، وذلك بأن يقال : إنه إنسان ، فالألوهية تَتَجَسَّم فى صورة الملِك البشرية » .

ويظهر أن حكومة ذلك العصر كانت ذات حُنُوّ أبوىّ لم تَبْدُ شديدة على الرَّعِيَّة ، وكان البراهمة على رأسها تقريباً بسبب مركزهم الطائفى ، فكان على الملك أن يعمل برأيهم وأن يُجْزِل لهم العطايا ، وكان لصلواتهم من النفوذ ما كانوا يُعَدُّون بهقادرين على جعل أيام حكمه سعيدة مَجِيدَة أوعلى صبِّ ضروب الغَضَبوجميع اللَّعَنات السماوية على رأسه .

ومن الأكشترية كان يُنْصَب الملك ، والملك على الأكشترية ، وقد كانوا رفقاءه فى الجيش ، احترامُ الجنود لقائدهم .

إذَنْ ، كان سلطان الملك المطلق يَتَجَلَّى على الويشية ، ولم يُعَدَّ رجال هذه الطائفة إلا من مُسَاقيه ومُزَارعيه ، فكانوا يزرعون الأرض ويتاجرون لأجله ،

و إن شئت فقل لأجل الدولة ، فالضرائبُ ، و إن كانت تُجْبَى للملك ، كان على الملك أن ينظم الجيش و يرعاه وأن يقوم بكلّ ما ينفع الرعية من الأعمال .

وكان فى الولايات وفى المدن وفى أحقر القرى مفتشون لمراقبة إنتاج الأراضى وقِيَم السِّلع والأثمان التى تُباع بها كى تُجْبَى ضرائب الملك منها بعد أن تُعيَّن .



٥٠ — كهجورا . دقائق نقوش معبد كهنداريا .

ويلوح لنا أن نوع الإدارة ذلك مزعجٌ جائر ، بَيْد أن احتماله كان سهلاً على الهندوس كما يظهر ، وهم الذين شبَّههم ميغاستين بالأولاد السَّهْلِى الانقياد فقال إنهم أكثر شعوب العالم دماثة وتسلياً ، شأنهم فى الزمن الحاضر .

والملوك ، مع ما كانوا يتمتعون به من السلطان المطلق ، لم يكونوا قادرين على إساءة استعمال مقامهم ، فهم ، إذ كانوا مُنْزَوين فى قصورهم ملزَمين ، مع انتظام فى العيش ، بتطبيق شرائع مَنُو والعمل بتعاليمها الكثيرة فى واجبات الملك كان همُّهم الكبير مصروفاً ، على ما يظهر ، إلى الخلاص من الخِنْجر والسُّم ، فعلى ما كان يَحُفّ منصبَهم من الأخطار

كان محلَّ رغبة وطمع ، والقاتلُ المُوَفَّق الذى يَخْلُف الملك إذ كان يُعَدُّ موجوداً إلهيًّا فَوْرَ قبضه على التاج والصولجان وإذْ كان لا يخشى سوى الإخفاق وَجَب على الملك أن يتذرع بالحذر وحدَه لإنقاذ حياته ، والحذَرُ ما توصيه به شريعة مَنُو أيضاً ، فترى أن تُؤَلَّف حاشية الملك من أناس ضِعاف ذوى حياء يَخْشَوْن حَوْكَ الدسائس حوله والائتمار به وأن يُغَيِّر الملك مكان نومه فى الغالب وألا يسكر لاحتمال قتل إحدى زوجاته إياه فى أثناء سُكْره ، طمعاً فى الزواج بخلفه .

ولم يكن من حق إنسان ، مع ذلك ، أن يَسْكُن داخل القصر غيرُ الملك وأزواجه ، فكان على حرس الملك أن يقيموا بخارجه .

وكنت ترى بين حين وحين موكباً رائعاً مشتملاً على الملك وزوجاته مُؤَلَّفاً من فُيُول مجهزة بأفخر جهاز ومن نساء مُسَلَّحات ومن نَبَّالة وحرس سائراً بأُبَّهة من الشوارع إلى الصيد بين حبال ممدودة على الجانبين وَقْفاً لحبى الاستطلاع .

وكنتَ ترى الملك حينما يذهب ليُقَرِّب القرابين الرسمية أو ليحكم بين الرعية أو ليقود الكتائب .

وفى شرائع مَنُو أن الملك الحكيم الرشيد هو الذى يَظَلّ متأهباً للحرب على ألا يخوض غمارها إلاّ إذا كان موقناً بأن النصر يكون حليفه ، فعلى الملك الذى يَوَدّ النصر ألا يمتشق الحسام قبل المفاوضات وبَثِّ العيون والأرصاد وبَذْرِ عوامل الشقاق بين الأعداء ، جاء فى شرائع مَنُو :

« ليجتذب الملكُ من يستطيعون أن يساعدوه على بلوغ مآربه ، كأقرباء الأمير العدوّ الطامعين فى عرشه أو وزراء هذا الأمير الساخطين ، وليَعْلم جميعَ ما

يصنعه الأعـــداء ، فإذا ما آنس من السماء عطفاً حارب ، غَيْرَ هَيَّابٍ ، ليفتح بلاداً » .

ولم يكن التجسُّس نافعاً ضد الأعداء وحدَهم ، بل كان يُعَدّ أداةً حكومية صالحة، فبالعيون كان الملك يكتشف الائتمار به ، وبهم كان يعلم مَدَى نَزَاهَة مفتشيه وإخلاصهم ، وبهم كان يراقب الغِلال الأسواق دَرْءاً لـكلِّ غِشٍّ وتدليس فى جباية الخراج .

وكان الخراج يزيد وينقُص بحسب جَوْدة المواسم ورداءتها ، فـكان يُزاد فى الجَدْب وينقص فى الخِصْب ، فاسمع ما جاء فى شريعة مَنُو حَوْل هذه التحولات:

« يمكن إبلاغ الضريبة المفروضة على التجار فى زمن العُسْر إلى ثُمُن الغَلَّات ، وإلى رُبعها ، وإلى واحد من عشرين من الربح النقدىّ بعد أن تـكون فى زمن اليُسْر واحداً من اثنى عشر من الغَلَّات وواحداً من خمسين من الربح النقدىّ ، ويجب على الشودرا والعمال والمحترفين أن يُؤَدُّوا عمل يوم واحد فى الشهر من غير أن يُؤْتُوا ضريبةً .

« وليأخذ الملكُ سُدُسَ الدخل السنوىّ من اللحم والعسل والسمن والرُّبِّ والعَقَّار[1] والشجر والعِطْر والزهر والجَذْر والثَّمر » .

ومن ثَمَّ تُبْصِر أن الشودرا ليس لهم ثروةٌ غيرُ العمل فلا يؤدُّون إلى بيت المال ضريبة سوى عملِ يومٍ واحد فى الشهر .

وكانت المراقبة العامة فى البلاد مُحْكَمَة التنظيم ، فـكان لـكلِّ قرية وكلِّ مدينة مفتشها الذى يرفع تقريره إلى المفتش الأعلى لمجموعةٍ من المدن ، ثم يرفع هذا

---

(١) العقار : ما يتداوى به من النبات .

المفتش تقريره إلى مفتش الولاية ، ثم يرفع مفتشو الولايات النتائجَ رأساً إلى وزراء الملك الذين كانوا يُخْتارون من أعلم البراهمة .

وكان للجيش أيضاً مفتشون من مراتبَ مختلفة على حسب أهميتهم .

٥ — إقامة العدل ، الشرائع والعادات

الأصلُ هو أن يقيم الملك العدل ، ولكن الملك إذ كان يَتعذَّر عليه ، بحكم الطبيعة ، أن ينظر في جميع الدعاوَى كان يُنيب عنه البراهمة في ذلك . قال مَنُو :

« على الملك الذى يَوَدّ أن ينظر في الخصومات أن يذهب إلى مجلس القضاء متواضعاً هو وأناس من البراهمة والمشيرين المُحَنَّكين .

« فالملك إذا لم يفعل ذلك وجَب عليه أن ينيب عنه برهمياً مثقفاً .

« وليُدَقِّق هذا البرهميّ في القضايا المعروضة للفصل فيها مستعيناً بثلاثة مساعدين.

« وليَخْتر الملك لتفسير الشريعة ، إذا أراد ، رجلاً من طبقة الكَهَنوت فلا يستند هذا الرجل في القيام بالواجبات و بالدلالة عليه إلى غير نسبه ، أو ليَختر رجلًا يبدو من البراهمة وإلّا فمن الأكشترية أو الويشية ، ولكن ليَجْتَنِب اختيار مفسرٍ لها من الطبقة السُّفلى » .

ولم يُوجَد قانونٌ شامل لجميع مشاكل الحياة الاجتماعية ، فترى من قول مَنُو الآتى أن للعادة حكمَ القانون على العموم .

« يجب على الملك الصالح أن يدرس قوانين الطبقات والولايات الخاصة ، وأن يدرس نُظُم شركات التجار وعادات الأُسَر ، وأن يجعل لها قُوَّة القانون إذا لم تكن تلك القوانين والنُّظُم والعادات مخالفة لتعاليم الكتب المُنَزَّلة » .

والخصومات بين الناس كانت قليلة، فكان الهندوس يمقتون الدعاوى خلافاً لما يُشاهَد في أيامنا ، وكانت الجُنَح والجنايات تُفصَل بعد عناية كبيرة واحتفال عظيم .

والعيون هم الذين كانوا يكتشفون الجرائم في الغالب ، فكان التجسس شاملاً للعدل والسياسة، والبغايا، على الخصوص ، هُنّ اللائى كُنّ يَقُمْن بأعمال التجسس ، وكان الغريب إذا ماوَصَل إلى البلد يُحاط ، من غير أن يَشْعُر ، بجواسيس لايتركونه .

وكانت تُعَدّ شهادة الزور من الكبائر فيعاقب مقترفها بعقوبة رادعة في هذه الدنيا إذا ما اكْتُشِفَت و بأشدّ الجزاء في الآخرة على كلّ حال ، جاء في شريعة مَنُو :

« يجب على كل عاقل ألاّ يحلِف زوراً ولو من أجل أمر تافه ، فالبَوَار في الدنيا والآخرة للشاهد الكاذب .

« ويُعَدّ لشاهد الزور من النَّكال ما يُعَدّ لقاتل البرهمىّ أو لقاتل المرأة أو لقاتل الصبىّ أو للذى يؤذى الصديق أو للذى يُتلِف المال .

« سيَهْوِى في نار جهنم رأساً على عقب المجرم الذى يَشْهَد الزور عند سؤاله من قِبَل القضاء » .

وكان يُرَى في أمر الشهادة ، كما في محاكمنا ، ألّا يكون الشاهد قريباً للمتهم أو ذا علاقة أخرى به ، وكان يُزَكّى قبل سماع شهادته ، قال مَنُو :

« يجب أن يُختار الشهود للقضايا في جميع الطبقات من أناس موثوق بهم عالمين بواجباتهم خالين من الغرض ، و يجب أن يُرَدّ من لم يكونوا من هؤلاء .

« لا يجوز أن تقبل شهادة من لهم مَغْنَم ، ولا شهادةُ الأصدقاء ، ولا شهادةُ الأُجَراء ، ولا شهادة الأعداء ، ولا شهادة من اشتهروا بسوء النية ، ولا شهادة المجرمين » .

وكان لا يُشَدِّدُ في أمر الشهود إذا كان الجرم كبيراً وأُمسِك المجرمُ متلبِّساً به وكان إثباته سهلاً ، جاء في شريعة مَنُو :

« لا يُفرَض تَقَصِّي أمر الشهود في جرائم الغصب والسَّرِقة والزناء والشتائم وسوء المعاملة » .

تُثبِت تلك النصوص وغيرها ، مما لا نرى سَرْدَه في هذا الكتاب ، درجةَ حرص براهمة الهندوس على إحقاق الحقّ بتدقيق ووضوح .

وتَجِد بين تلك التحفظات الحكيمة الدقيقة التي وُضِعت لإظهار الحقّ عاداتٍ خرافيةً شاملة للنظر قريبة من أحكام الربّ في قرون الغرب الوسطى ، جاء في شريعة مَنُو :

« ليُحَلِّف القاضي البرهميَّ بصدقه ، وليُحَلِّف الأكشتريَّ بخيوله أو فُيُوله أو سلاحه ، وليُحَلِّف الويشيَّ ببقره وحبوبه وذهبه ، وليُحَلِّف الشودريَّ بكلِّ الجرائم .

« أو ليأمُر القاضي ، بحسب أهمية المُعضِلة ، من يريد امتحانه بأن يُمْسِك النار بيده أو يُغَطِّس في الماء أو يَمَسَّ رأسَ زوجته ورأس كلِّ واحد من أولاده على انفراد .

« فالذي لا تحرِقه اللَّهَب أو لا يَطفو فوق الماء فلا يناله أذىً يُعَدُّ صادقاً في يمينه » .

ومن يتصفَّح السِّفْر الثامن والسِّفْر التاسع من شرائع مَنُو يَجِدْهما مملوءين بما يجب عمله في تحري الآثام والجرائم وبالعقوبات التي تُفرَض على المذنبين .

وتُوَجَّه تلك الأحكام رأساً إلى الملك الذى هو قاضى المملكة الأعلى والمسؤولُ عن جميع ما يُقْتَرف فيها من الجرائم الصغيرة والكبيرة .

ومما ذكرناه أن للملك سُدْسَ الدَّخْل ، ومن يُنْعِم النظر فى الآيتين الآتيتين يَطَّلِعْ على ما كان من التضامن بين الملك وشعبه مادةً ومعنى .

« سُدُس ثواب طَيِّب الأعمال للملِك الذى يَحْمى رَعِيَّته وسُدُس جزاء سَيِّء الأعمال يقع على الملِك الذى لا يسهر على مصالح رعيته .

« وسُدُسُ ثواب ما يُقَدَّم إلى الآلهة من القراءات الصالحة والقرابين والهبات والتسابيح للملك الذى يُجير رَعِيَّته » .

ومما قلناه أن هندوس ذلك العصر كانوا يرغبون عن رفع الدَّعاوى ، فقد أُوصُوا بأن يَحُلُّوا مسائلهم صُلْحاً وأن يلجأوا ، عند الاقتضاء ، إلى بعض التدابير القَسْرية ، قبل أن يَطْرُقوا أبواب القضاء .

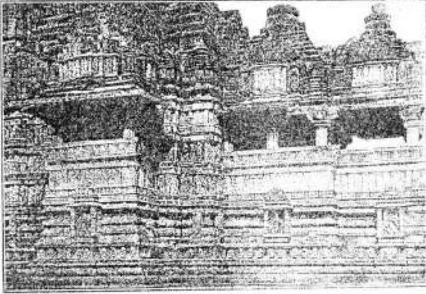
« يمكن الدائنَ أن يتخذ جميع الوسائل المألوفة لإكراه المَدِين على رد مااستدانه .

« وعلى الملك ألا يُعَزِّر دائناً أكره مدينَه على رد مااستدانه » .

والمقصودُ من عبارة « اتخاذ جميع الوسائل المألوفة لاسترداد مااستدانه المَدِين » هو اتخاذ طرق الإرغاب والإرهاب وتوسيط الأصحاب نحوَ المَدِين وتَعَقُّبه فى كل مكان وفى بيته والقبض على زوجته أوأولاده ووَقْف هؤلاء فى بيت الدائن والالتجاء إلى الجلد فى نهاية الأمر .

ولم تكن أبواب اليُسْر مُوصَدَةً دون المَدِين ، فكان يمكنه أن يوفى ما عليه من الدين بأن يعمل مقداراً فمقداراً ، وإذا ما عَقَد مُقَايَضَةً أو مصالحةً أو مبايعةً أمكنه

الرجوعُ عنها فى خلال عشرة أيام ، فذلك العقد لا يصبح باتًّا لا يُنقَض إلّا بعد انقضاء عشرة أيام .



٥١ — كهجورا . دقائق معبد لكشمن جى (القرن العاشر)
(يبلغ عرض هذا القسم المصور نحو ١٣ مترا)

والشريعة عيّنت مقدار الرّبا ، وكان هذا المقدار يختلف باختلاف الطوائف ، فما كان يؤديه البرهمىّ من الرّبا أقلُّ مما يؤديه الأكشترىّ ، وما كان يؤديه هذا أقلّ مما يؤديه الويشىّ .

ومما تقدم تُبْصر أن كلّ شىء كان يميل إلى المرونة والرِّفق فى علاقات بعض الأفراد ببعض ، فكان هؤلاء القوم الصابرون الهادئون يكرهون أعمالَ العنف ، وكان أولَ ما يجب على الملك أن يصنعه هو أن يمنع القهر ويجازىَ الغاصب بشدة .

« يجب على الملك الذى يطمع فى سيادة العالم وفى السعادة الثابتة الأبدية

ألا يَغْفُل طَرْفَةَ عَيْن عن مجازاة الذى يقترف أعمال العُنْف كالحرق وقطع السَّابلة .

« وليُعَدّ الذى يقترف أعمـال العُنْف مجرماً أكثرَ من اللَّمَّاز[١] الهَمَّاز[٢] الثَّلَّاب[٣] الضَّرَّاب السَّرَّاق .

« وما الملك الصابرُ على مقترف أعمال العُنف إلَّا بالذى يُلْقِى نفسه فى الهاوية فلا ينال غيرَ بُغض الناس » .

وكانت أهمية الجرائم التى تُقْتَرف والعقوبات التى تُفْرَض تختلف باختـلاف طائفـة المَجْنِىّ عليه ، لا باختلاف الضرر ، فما كانت العقوبات التى تُفْرَض على البرهمىّ من الشدة كالتى تُفْرَض على أبناء الطوائف الثلاث الأخرى .

« فإذا اقترف برهمىٌّ معروف بكَرَم النَّحِيزَة[٤] جنـايةً غُرِّم ، وإذا كان ذلك عمداً نُفِى من البلاد وأُذِن له فى أخذ أثاثه وأسرته .

« بيد أن من يقترف من أبناء الطبقات الأخرى تلك الجناية غَيْرَ متعمد يخسر أمواله ويُنْفَى من البلاد ، ومن يقترفها عمداً يُقْتَل » .

وتقول العقوبات المنصوص عليها فى شريعة مَنُو بمصادرة الأموال أو النفى أو القتل عند اقتراف الجنـايات الـكبرى كالقتل أو زنا الأزواج ، وبالغرامة أو قَطْع العضو أو السِّجْن عند السَّرِقة .

وعُدّ خطف البنات وغَصْب الفَتَيات وزناء الأزواج من الجنـايات الـكُبْرى لما يؤدى إليه ذلك من تمازج الطوائف الذى حَرَّمته شرائع مَنُو ، وسنعود إلى هذا الموضوع فى المطلب الذى خَصَّصناه للبحث فى أحوال النساء .

وإننى أختم قولى الإجمالى فى النظام القضـائىّ بكلمة عن المواريث فأقول إن

(١) اللماز : النمام ــ (٢) الهماز : العياب ــ (٣) الثلاب : المغتاب ــ (٤) النحيزة : الطبيعة .

الأولاد كانوا يقتسمون ميراث أبيهم بالتساوى حين وفاته ، ومما كان يَحْدُث أن يُخَصِّص الأب ابنه البكر ذا المزايا الحميدة بجميع التِّركة فيقوم مقامه بعد موته ، وكان إخوة الميت وأبواه يَرِثونه عند ما يُتَوَفَّى بلا ولد ، وكان الملك والبراهمة يَرِثونه إذا مات بلا وارث .

٦ — الجيش وفنُّ التَّعْبئة

كان جيش براهمة الهندوس يُؤَلَّف من طبقة الأكشترية ، وكان مما يخالف الشريعة أن يتعاطى أكشتريٌّ غير مهنة الجندية ، والشريعة كانت لا تأذن للأكشترى فى اتخاذ مهنة أخرى إلا عند أقصى الضرورة ، والأكشتريُّ كان يعيش جنديًّا حتى فى زمن السِّلْم .

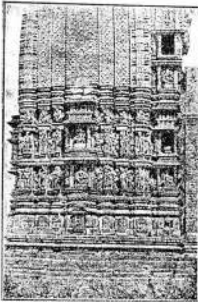
ومما رواه ميغاستين وجودُ معسكر جامع لجميع المقاتلين مُقَدَّراً عددهم بأربعمئة ألف ، فكان هؤلاء يَقْضون أيامهم فى تمرين قُوَّتهم وحِذْقهم فى اللعب والشرب والنوم ، وكان الملك يَعْرِضهم بين حين وحين .

وأُعجب ميغاستين بانتظام ذلك المعسكر المحتوى على أربعمئة ألف مقاتل وبأمانة الهندوس فَرَوَى أنه لم يسمع من الأخبار السيئة عنه سوى سَرِقَة جنديٍّ منه لبعض ما عند جنديٍّ آخر .

وكان المقاتلون يَتَجَمَّعون عند أول نداء ، فما كان عليهم أن يُعِدُّوا عُدَّة ولا أن يجهزوا حصاناً أو مركبة ، فكان الملك يقوم بجميع ذلك ، والملك كان يُخَصِّص مُعْظم الضرائب لهذا الغرض كما رأينا ، وكانت قوة الجيش وأُبَّهته تتجليان فيما فيه من المراكب والفيُول والخيُول ، فكان يركب كلَّ فيل أربعةُ رجال وثلاثةُ نَبَّالَة وسائقٌ ، وكان يركب كلَّ مركبة ثلاثةُ رجال ونَبَّالان وسائق .

« قوةُ الجيش فى الفيل على الخصوص ، فلا شىء يَعْدِل الفيل ، فتُعَدُّ أعضاء الفيل وحدَها أسلحةً ثمانية ، وفى الحصان تتجلى قوة الجيش أيضاً ، فالحصان حِصْنٌ متحرك ، فالملك الذى يملك خيولاً أكثرَ من عدوه يكون النصر حليفه فى ميدان الوغى .

« لا بدَّ لمن يقاتل فى السهول من المراكب والخُيُول ، ولا بدَّ لمن يقاتل فى أماكن المياه من السفن والفُيُول ، ولا بدَّ لمن يقاتل فى الأدغال من الأقواس والنِّبال ، ولا بدَّ لمن يقاتل فى الميدان من السيوف والتروس وما إليها من الأسلحة » .



٥٢ — كهجورا . دقائق نقوش فى معبد موزردهارا

لم نقتطف ذلك القول من شريعة مَنُو ، بل أخذناه من مختارات الأقاصيص التى جُمِعَت بعد زمن فَعُرِفت بالهِتُو بديشا لِما رأيناه فيه من دقائق الطبائع الحربية الموافقة لعادات العصر البرهمى .

ومن تلك المجموعة نقتبس العبارة الآتية التى تشير إلى حرب الاستيلاء أكثر من أن تُشير إلى إحدى الحملات العادية ماذُكِرَ فيها النساء وما يرافق الجيش من كل ثمين :

« يجب أن يكون القائد العامّ وأشجع الجنود فى مُقَدَّمة الجيش ، وأن يكون النساء والأمير والمال وكل ثمين فى القلب ، وأن يكون الخيل والمراكب والفُيُول والمُشاة فى الميمنة والميسرة .

« ويجب على القائد المساعد أن يكون فى المُؤَخَّرة وأن يَشُدَّ عزيمة كلِّ تَعِب ، ويجب على الملك ، ويَحُفُّ به وزراؤُه وأعوانه ، أن يقود الفيلق المهمّ من الجيش . »

وإذا نظرنا إلى أمر الجيش من حيث فنّ التعبئة أبصرنا النواحيَ الثلاث الآتية التى اقتطفنا أولاها من الهتويديشا واقتطفنا الأخريين من شرائع مَنُو فرأينا أنها تأمر باتباع تلك السُّنَّة :

« يجب على من يرغب فى النصر المُؤَزَّر أن يناوش جيش العدو فيُبيده بالتدريج، فمن السهل قهرُ العدو إذا ما أُتْعِب زمناً طويلاً .

« وإذا أحاط بالعدوّ وجب عليه توطيد معسكره وتخريبُ أملاك العدو وإتلاف ما فيها من الكَلَأ والقُوت والماء والوَقُود .

« ولْيَهْدِمْ أحواض العدوّ وحصونَه وخنادقه ولْيُنَازِله نهاراً ولْيُبَاغِته ليلاً . »

وإذا وُجِدَت فى كتب الهندوس نصوصٌ على ضروب الخدائع الحربية والحِيَل السياسية وُجِدت فيها أيضاً تعاليمُ تُشِيعُ رحمة، فيها، مثلاً ، نَهْيٌ عن استعمال الأسلحة الغادرة التى تُحْدِث جروحاً بليغةً خَطِرَةً كالسهام السَّامَّة ، وفيها نَهْيٌ عن الإجهاز على عدوّ عاجز عن الدفاع كأَنْ يكون قد سقط صريعاً أو أن يكون مبارزاً لمجاهد آخر ، فإليك ما جاء فى شريعة مَنُو :

« لا يجوز لمحارب أن يقاتل أعداءه بأسلحة غادرة كالعِصِيِّ ذوات الخناجر المثلوثة النَّصْل أو النِّبال ذوات الأسنان أو السهام السَّامَّة أو الحِراب الملتهبة .

« ولا يجوز لمحارب أن يضرب عدوًّا ماشياً إذا كان هو راكباً مركبةً ، ولا رجلاً مُخَنَّثاً ، ولا مُتَكَتِّفاً طالباً الرحمة ، ولا من يَفُكُّ شعره ، ولا من هو جالس ، ولا من يقول : أنا أسيرك . »

وأوصى مَنُو بأن يُعَامَل الأعداء المغلوبون بكرم على أن هـــذا من حُسْنِ السياسة فقال :

« لا تزيد موارد الملك ووسائله إلا إذا جعل المَلِك صديقاً من الضعيف الذى قد يَقْوَى ذات يوم ، ولو نال الملك كنوزاً واكتسب أملاكاً . »

والنصر إذا تمَّ للملك أمكنه أن يأخذ مغانمَ كثيرةً على أن يُعْطى البراهمة قسماً وافراً منهـا ، ومن مصالح الملك ، مع ذلك ، ألاَّ يُرْهِق الشعوب التى أصبح سيدها عُسْراً ، قال منو :

« اغتصابُ الأشياء الثمينة المؤدى إلى الحقد أو منحُ الأشياء الثمينة المؤدى إلى تألُّف القلوب قد يكون محموداً أو مذموماً بحسب الأحوال » .



٥٣ ــ كهجورا . تماثيل فى أساس معبد الإلاهة باراوتى (القرن العاشر من الميلاد)

وإليك وصيةً بأن يحترم الغالب قوانين المغلوبين ودياناتهم احتراماً يُذَكِّرنا بالسياسة الرشيدة التى سار عليها الرومان ، أمهرُ مالكى رقاب الشعوب :

« يجب على المالك الفاتح أن يُمَجِّد آلهة الشعب المغلوب وأصحابَ الفضيلة من كهانه ، وليُسْبِغْ عليه النِّعَم ، وليُزِل مخاوفَه بمراسيمَ خاصةٍ ، وليَحْتَرِمْ قوانينَه كما هى ، وليُنْعِمْ على أميره وأعوان أميره بالجواهر » .

وكانت الحرب تُعَدُّ أمراً خطيراً سيئاً ، فعلى وَلِيِّ الأمر ألا يلجأ إليها إلا بعد أن يَبْذُل ما فى طاقته من الوسائل السلمية لاجتنابها ، قال منو :

« يجب على الملك أن يَبْذُل جميع جهوده فى حمل أعدائه على الخضوع فلا يُقَصِّر فى مفاوضتهم ولا فى تقديم الهدايا إليهم ، ولا فى نشر بذور الشِّقاق بينهم ، وليَفْعَل ذلك دفعةً واحدةً أو على انفراد مُتَجَنِّباً القتال .

« والملكُ إذ كان لا يعلَمُ تماماً من سيخرج من الحرب منصوراً ومن سيخرج منها مقهوراً وجب أن يُبْعِد شبحها ما استطاع .

« فإذا لم يستطع أن يَتَّخِذ واحدة من تلك الوصايا الثلاث وجب عليه أن يحارب ببسالة لِيَغْلِب العدوَّ » .

٧ — الزراعة والتجارة

الويشية هم الذين كانوا يمارسون الزراعة والتجارة ، بَيْد أن أبناء هذه الطائفة كانوا لا يتعاطَوْنها لحسابهم الخاصّ وإن استطاعوا أن يتملكوا وأن يقتنوا ، فالملِكُ هو مولاهم،وهو مالك الأراضى الحقيقىّ ، وكان الزارع المهمل يُجَازَى لإضراره حقوق المِلك، فضلاً عن افتقاره ، قال مَنُو :

« يُغَرَّم الزارعُ الذى تُتْلِف مواشيه حقلَه أو الذى لا يَبْذُر الحبَّ فى الوقت الملائم بغرامة تَعْدِل ثَمَنَ حِصَّة الملِك من الغَلَّة عشر مرات ما حدث هذا بإهماله ، أو بنصف هذه الغرامة إذا نشأ الإهمال عن أُجَرائه من غير أن يَعْلَم » .

وكان الملك يُنَظِّم بدقة أمور البيع والشراء وأثمان السلع وقيمة العيارات والمكاييل وشؤونَ الاستيراد والإصدار ، جاء فى شريعة منو :

« يجب على الملك أن يَضَع مراسيم لتنظيم أمور البيع والشراء بعد أن ينظر إلى المسافة التى تُجْلَب بها السِّلَع الأجنبية وإلى المسافة التى تُصْدَر بها السلع المحلية وإلى مدة خزنها وإلى ما يمكن أن يُرْبح منها وما يُنْفَق عليها .

« ولْيُنَظِّم الملك ، بواسطة الخبراء ، أثمانَ السِّلَع المتقلبة فى كلِّ خمسة أيام أو خمسةَ عشرَ يوماً .

« ولْيُعَيِّن الملك قِيَمَ المعادن الغالية ، ولْيُحَدِّد العيارات والمكاييل ، ولْيفحصها فى كلِّ ستة أشهر مرة » .

وأكثر العيارات والمكاييل استعمالاً ما كان مصنوعاً من الذهب والنحاس والفضَّة ، وكانت تُفْرَض أقسى العقوبات على من يَغُشُّ فى أمر الضريبة أو نوع السلعة ، فمن شريعة مَنُو :

« يُغَرَّم من يُخَادِع فى أمر الضرائب أو من يبيع ويشترى فى غير الأوان أو من يُزَوِّر فى قِيَم السِّلَع ثمانيةَ أمثال القيمة .

« ويجب ألا تُبَاع سِلْعَةٌ مخلوطةٌ بغيرها على أنها غيرُ مخلوطة ، ولا أن تُبَاع سلعةٌ رديئةٌ على أنها جيدة ، ولا أن تُباع سلعةٌ أخفُّ من المُتَّفَق عليها ، ولا أن تُباع سلعةٌ غيرُ مُحْرَزَة ، ولا أن تُباع سلعةٌ مع إخفاء عيوبها » .

ولم يكن اتصال الرَّقابة وجَوْر المفتشين الملكيين الدائم والضرائب الثقيلة على الزارع والتاجر وما إلى ذلك من القيود الشديدة لِيُثِير ذلك الشعب الجاهل الهادئ الذى حَنَا النِّير الدينى ظهرَه فضلاً عن الاستعباد الإدارىّ ، وما كان لذلك الشعب أن

يتوجع من هذا ، فقد كان يرى المُقابِلَ فيما يتمتع به من السلام الذى هو أطيب الأموال .

وكان مُعْظم ما يُجْبَى يُنفَق ، بالحقيقة ، على شؤون الحرب ، وكان الويشى غير مُكَلَّف بأية خدمة عسكرية ما انطوت هذه الخدمة على نُبْل كثير عليه ، وما كان يَحْرُث حَقْله آمناً مطمئناً على حين يدافع الأكشترية عن الثغور ، فإذا ما أتت المواسم جَيِّدَةً حاز الويشى الغِنَى وإذا ما أتت رديئة فكان عُشْرٌ رجا العونَ من بيت المال ما بدا المِلك مولاه وأباه الذى لا يَرْضَى بهلاكه ، وكان للويشىِّ أعيادُه الريفيةُ ، وكان رَبًّا لأسرته فيتمتع بما يتمتع به أرباب الأسر من الهناء المنزلى ، وكان الويشى ممن يُولَدون مرتين ، فكان له بهذا حقٌّ قِيادَة الشودرا ، وما كان له أن يقوم بالأعمال الدنيئة .

وما كان الأُجَراء قليلين لديه ، ففى شريعة مَنُو سبعة أنواع للأُجَراء الذين كانوا ، بالحقيقة ، أرقاء فلا يستطيعون أن يتملكوا ، جاء فى شريعة مَنُو :

«للأُجَراء سبعةُ أنواعٍ وهى : أسيرُ الراية أو أسير المعركة ، والأجيرُ بشرطِ الإعالة ، وابنُ الأَمَة فى بيت السيد ، والمملوكُ المُشْتَرَى أو الموهوب ، والعبدُ الموروث ، والمُسْتَرَقُّ عقوبةً ، والعاجزُ عن دفع الغرامة .

« ولا يملك الولد والزوجة والرقيق شيئاً ، فكلُّ ما يُحْرِزونه مِلْكٌ لمعيلهم » .

« وعلى ما تراه من تكاليف شريعة مَنُو الكثيرة الوثيقة لا تخلو هذه الشريعة من رحمة ، فمن كان عاجزاً عن العمل كانت تُعْفيه من الضريبة ، فقد جاء فيها :

« لا يجوز للملك أن يَفرِض ضريبةً على الأعمى والأبله والأكسح وابن السبعين ومن يساعد المُتَبَتِّلين إلى الكتاب المقدس » .

وكان الصانع الفقير لا يُطالَب بغير عمل يوم في الشهر ضريبةً .

والمرء يَحَار حين يقرأ بين نصوص تلك الشريعة ، الواضحة العادلة إجمالًا ، إباحةَ الربا الفاحش الذي كان يَتَرَجَّح ، بحسب الأحوال وفي الغالب ، بين ٢٠ و ٢٤ و ٤٠٠ و ٥٠٠ في المئة ، جاء في شريعة مَنُو :

« لِيَقْبِض الدائنُ الراهنُ في كل شهرٍ واحداً من ثمانين في المئة أو واحداً ورُبْعاً زيادةً على رأس ماله .

« ولْيَقْبِض ، عند عدم الرهن ، اثنين في المئة في كلِّ شهر، ذاكراً أهلَ الخير والصلاح ، فهو إذا ما قبض اثنين في المئة لا يُعَدّ مقترفاً لذنب الربح غيرِ الشرعي .

« ولْيَقْبِض ، فقط ، في كلِّ شهر اثنين في المئة من البرهميِّ وثلاثةً في المئة من الأكشتري وأربعةً في المئة من الويشي وخمسةً في المئة من الشودري ، وذلك بحسب الترتيب الطائفيّ .

« ولا يجوز أن يزيد الربا عن رأس المال إذا قُبِض مع رأس المال من غير مشاهرة ولا مياومة ،



٥٤ — كهجورا . عمود في معبد شيوا القائم في معقل كالنجر بشمال كهجورا الفرق (يبلغ ارتفاعه ستة أمتار و٩٠ سنتيمتراً)

وليُضْبح رأس المال مع الربا خمسةَ أضعافه عنــد إدانة الحبوب والفواكه والصوف والسَّبِيب[1] والدوابّ لِتُرَدّ بأعيان من ذات القيمة » .

ولا نستطيع أن نتمثل جيــداً الطبقةَ الصّناعية والتجارية فى الهند فى العصر البرهمىّ إلاّ بنقل بعض عبارات وردت فى شريعــة مَنُو عن واجباتها ، جاء فى شريعة منو :

« يجب على الويشىّ ، بعد أن يتقلد الحبل المقدس ويتزوج بامرأة من طبقته ، أن يقوم، كادحاً ، بمهنته وبتربية المواشى .

« فالحقُّ أن ربّ المخلوقات فوّض أمر الحيوانات النافعــة ، بعد خلقها ، إلى الويشىّ ليقوم بتربيتها ، كما وضع الجنس البشرى تحت وصاية البراهمة والأكشترية .

ولا يَتّبِـع ويشىٌّ هواه فيقول : « عُدْتُ راغباً عن تربيــة المواشى » ، فإذا تشاغل عنها وَجَب ألا يقوم آخرُ مقامه فيها .

« وليَــكُن على علم بتقلب أثمان الجواهر واللآلئ والمرْجان والحــديد والنُّسُج والعطور والتوابل .

« وليَعْرِف كيف تُبْذَر الحبوب ، وليُفَرِّق بين الأراضى الجيــدة والأراضى الرديئة ، وليَطَّلِـع جيداً على نظام المــكاييل والعِيارات .

« وليَقِف على خبيث السِّلَع وطيِّبها ومحاسن البلدان ومساوئها وما يُحْتَمَل من الربح والخسران عند البيع وما تَزِيد به المواشى من الوسائل .

« وليُلِمّ بأجور الأُجَراء وبلغات الناس وبطُرُق حفظ السِّلَع وبكلّ ما يَمُتُّ إلى البيع والشراء بصلة .

(١) السبيب : من الفرس شعر الذنب والناصية والعرف .

« وليبذل جهوده فى إنماء ثروته حلالًا ، وليُعْنَ بإطعام ما عنده من الخلائق الحيّة » .

٨ — أحوال النساء

لم تكن المرأة فى العصر البرهمىّ ، كما كانت فى العصر الويدى ، العروسَ المُدَلَّلة التى تُنال الحظوةُ لديها برفيع الأعمال ، ولا رَبَّةَ المنزل الفخورَ المحترمة التى تقاسم زوجها شَرَف تقريب القربان ، فقد اتَّضع شأنها فيه وبدا فى شريعة مَنُو كما يأتى :

« واجباتُ النساء هى أن يَلِدْن ويُرَبِّين أولادهن ويُدَبِّرْن أمور منازلهن » .

وتكون المرأة ، بحسب شريعة مَنُو ، تحت وصاية دائمة وتقضى حياتها مطيعةً . فيجب على الحفيدات والفتيات والعجائز ألاّ يَصْنَعْنَ شيئاً كما يَشَأْن ولو فى بيوتهن .

« وتكون المرأة تحت رعاية أبيها فى صباها وتحت رعاية زوجها فى فُتُوّتها وتحت رعاية أبنائها فى شَيْبَتها ، فلا ينبغى لها أن تسير كما تريد » .

والمجتمعُ الهندوسىّ إذ قام على نظام الطوائف الجديد القائل بالتفريق بين الطوائف تفريقاً مطلقاً وبعدم اختلاط بعضها ببعض فإن المرأة التى تَخِفُّ وتطيش فتخالف هذا النظام تَفْقِد حريتها ، وقد أسىء الظنّ بقلبها ومشاعرها ، ووُجِد أن كلّ قانون لا يَحُول دون هواها ، وأنها لا [illegible] به المراسيم السياسية فى تنظيم وحْى فؤادها فلم تُتْرَك لحدتها ، جاء فى شريعة مَنُو :

« يجب على الأزواج ، مهما بلغوا من خَوَر العزيمة ، أن يراقبوا سلوك نسائهم ، وأن يَعُدُّوا هذا الأمر شريعةً سائدة لجميع الطبقات .

« فالحقّ أن الزوج يصون ذريته وتقاليده وأسرته ونفسه وحقه إذا ماصان زوجته.

« ويجب على المرأة الفاضلة أن تُقَدِّس لزوجها على الدوام كإله ، وإن كان فاسد السيرة عاطلاً من الصفات الحميدة منهمكاً في ضروب العِشْق والغرام .

« والمرأة إذا لم تكن وفيَّة لزوجها غَدَت عُرْضَةً للخِزى فى الدنيا ، وبُعِثَت بعد موتها فى بطن ابن آوَى أو أصيبت بعده بالجذام والسّل » .

ولا جُرْمَ يَعْدِل زناء الأزواج ، ففى شريعة منو :

« يؤدى زناء الأزواج إلى اختلاط الطبقات ، وهذا الاختلاط يؤدى إلى انتهاك الواجبات وهلاك النوع البشرى وخراب الكَوْن » .

والعقوبات التى تُفْرَض على المرأة الزانية وشريكها فى الذنب هائلة ، وتبدو هذه الشدة عند ما تكون الزوجة من طبقة رفيعة على الخصوص ، جاء فى شريعة مَنُو :

« إذا كانت المرأة الفخورُ بِأسرتها وصفاتها غيرَ وَفيَّة لزوجها فخانته وجب على الملك أن يَدَع الكلاب تفترسُها فى مكان عامّ .

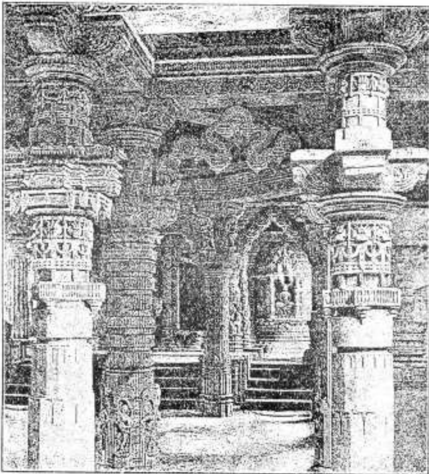
« ولْيَحْكُم على الزانى بها بالحرق على سرير من حديد مُحْمَى على أن يزيد منفذو الحكم النارَ سعيراً بالحطب إلى أن يُحْرَق الداعر »

ووَدّت شَريعة مَنُو ، التى قَدَّرت ضعف المرأة الشديد وتقلب سجيتها فتكلمت عنها برحمة مع الازدراء ، أن تتساوق معها فحمَّلت تابِعَ الخطيئة ذلك الذى لم يعرف أن يصونها وذلك الذى أغواها فقالت :

« إذا حدث أن اغترب الزوج فى بلد أجنبىّ وجب عليه ألا يَحْرِم زوجته وسائل العيش قبل أن يغيب ، فالمرأة التى يَمَضُّها البؤس قد تأتى المنكرَ ولو كانت صالحة .

« وليَنْتِف المَلِكُ من يَغْوُون نساء الآخرين بعد أن تُقَطَّع بعض أعضائهم » .

وما فرضته شريعة مَنُو على الزوج من الوفاء لزوجته والعِناية بها ليس بأقلّ مما فرضته على الزوجة ، وهذه الشريعة قد رأت أن سعادة العرق فى الحال والمستقبل قائمة على اتحاد الجنسين بالزواج فأَوْصَت الرجل بأن يختار زوجةً صالحة له فلا يستطيع أن يتركها بعدئذ إلاّ إذا أبغضته أو كانت عاقراً أو كانت لا تضع غير إناث .



٥٥ ــ جبل آبو ، داخل معبد وِملا شاه
(القرن الحادى عشر)

« بَيْد أن الزوجة الطيبة المتحلية بالأخلاق الصالحة لا تَحِلُّ زوجةٌ أخرى محلَّها إلّا برضاها ولو كانت مريضة ، ولا يجوز أن يزدريَها أبداً » .

ويجب على الزوج أن يُدْخل السعادة إلى قلب زوجته قبل كلّ شيء ، فمما يُقَوِّض دعائم المنزل أن تعامل المرأة بعنف أو ألا تكون موضع احترام من يحيطون بها ، جاء في شريعة مَنُو :

« رضَى الآلهة باحترام النساء ، ولن يكون للعمل الصالح ثوابٌ إذا ما احْتُقِرَت النساء .

« والسعادةُ كلُّ السعادةِ في الأُسرةِ التي يَتَحَابُّ فيها الزوجان .

« يجب أن يَحْبُو الزوجاتِ آباؤهنّ وإخوتُهن وأزواجهنّ وإخوة أزواجهن بضروب الاحترام والعطايا إذا رَغِبُوا في الفلاح » .

ويجب ألا يقلّ احترام الأولاد وإطاعتهم لأمهم عن احترامهم لأبيهم وإطاعتهم له إن لم يَزِدْ ، فقد جاء في شريعة مَنُو :

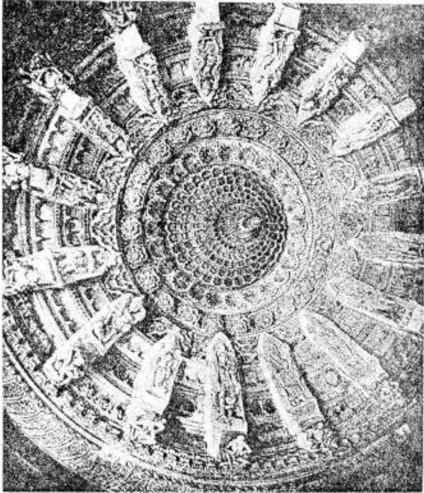
« ليصنع الفتى ما يروق أبويه ومعلمَه ويُرضيهم على الدوام وفي كلّ حال ، فإذا فعل ذلك قام بأعمال التقوى ونال ثواباً .

« والمعلم أجدر بالاحترام من عشرة مُرَبِّين ، والأب أجدر بالاحترام من مئة مُعَلِّم ، والأم أجدر بالاحترام من ألف أبٍ » .

ولم يكن النكاح تجارة ، فليس لوالد الفتاة أن يُعطَى مالاً ولاأن يُعْطَى حُطاماً ، وإنما كان يُفرَض عليه أن يبحث عن أخلاق الخطيب ، قال مَنُو :

« يجب على والد البنت ألا ينال مالاً عند ما يزوجها ولو كان شودريًّا ، لما يدلّ عليه ذلك من بيعها المضمر .

« وأحرى بالبنت الصالحة للزواج أن تقبَع فى بيت أبيها إلى أن تحضرها الوفاة من أن يزوجها أبوها بزوج عاطل من الأخلاق الحسنة » .



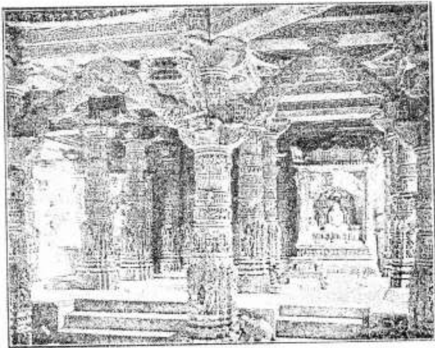
٥٦ ــ جبل آبو . قبة المحراب فى معبد وملا شاه
(مصنوعة من الرخام المنقوش)

والخلاصة أن شريعة مَنُو ، إذا بَدَت كثيرةَ الارتياب فى فضائل النساء، ومتانة

أخلاقهن ، وإذا كانت لم تُحَدِّث عنهنّ بمثل ما جاء فى الرِّغ ويدا من القول الشعرىّ والكلام العذب ، وإذا كانت لم تَمْنَحْهُنّ مقاماً كالذى كان لهنّ عند قدماء الآريين ، جعلت لهن ، مع ذلك ، مكاناً مهماً فى المنزل والمجتمع ، فالأسرة التى تؤلّف على حسب شريعة مَنُو متينةٌ وتكون حقوق أفرادها وواجباتهم متبادلة ، جاء فى تلك الشريعة :

« أهمّ واجب على الزوجين أن يَفِيَ أحدُهما للآخر وفاء متبادلاً إلى آخر العمر .

« وما على الزوجين من التحابّ فقد أُظْهِر لكم » .



٥٧ — جبل آبو ، معبد ورج بال تيج بال الجينى
(القرن الثانى عشر من الميلاد)

وليس فى شرائع مَنُو ذكر لعادةِ حرق الأرملة على مَوْقِد زوجها التى لم تَزُل عن بلاد الهند إلاّ فى أيامنا ، وتلك العادة أخَذَت تَشِيع فى ذلك الزمن مع ذلك ، فقد رَوَى خبرها مؤرخو الفتح المقدونىّ من اليونان .

٩ — معتقدات الهندوس الدينية

قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون

ظهرت البُدّهِيّة فى الهند فى العصر البرهمى ، وكاد يكون لها شأن فيه ، فقد حَدَّث ميغاستين عن رهبانٍ بُدّهِيِّين وعن مذاهبهم الحديثة التى كانت حديث القوم فى زمانه وعن معارضة البراهمة لها ، غير أن البُدّهِيّة لم يستفحل أمرها فتصبحَ دين الهند الرسمى إلا بعده قليلاً ، أى فى عهد آشوكا الذى ظهر قبل الميلاد بقرنين ونصف قرن كما نرى ذلك فى فصل آتٍ ، وأما الآن فإننا نبحث فى الديانة البرهمية قبل المسيح ببضعة قرون .

ظلّ دين القوم ، من الناحية النظرية على الأقل ، كما هو منصوص عليه فى كتب الويدا ، فقد بَقِيَت هـذه الأسفارُ الـكتبَ المقدسةَ المعتبرة التى يُحْتَجّ بنصوصها على الدوام ، بَيْدَ أن المعتقدات تطورت تطوراً شاملاً مع بقاء الآلهة القديمة ، فترى من جهة ظهورَ نظريات فيما بعـد الطبيعة جديدةٍ حول مقادير الإنسان ومصاير الـكوْن وأسبابه ، وترى من جهةٍ أخرى تَحَوُّل الدستور الـكهَنُوتىّ إلى دستور شديد إلى الغاية ، وبلغ أمر الطقوس وتقريب القرابين من الأهمية ما نقول معه إن قدرته السحرية غَدَت تَفوق قدرة الآلهة ، وإقامةُ الشعائر هى التى تَهمّ قبل

كلَّ شيء ، ولن تجِد دِيانة ذات شعائرَ جافَّة مُعقَّدَة كتلك ، وكأن ريحاً صَرْصَراً قد هَبَّت في العالم الويدى القديم فأتت إلى الأبد على الآلهــة العجيبة التي وصفتها كتب الويدا بالقول الرائع والخيال الساطع ، فَصِرْت لا تُبْصِر في الشرق ذلك الفجرَ العَذْب اللطيف ، بل ترى كوكب النهار فوق مركب النصر ، وصِرْت لا تَشْعُر بالرياح الطيبة تسوق البَقَرات الإلٰهية إلى المراعى السماوية فتَدِرّ ثُدِيُّها بما يَغْمُرُ الأرض من المطر السخيّ ، حقاً لقد غابت هذه الأساطير وما كانت تثيره في النفوس من الخيالات .

ولا ندرس في هذا المطلب بالتفصيل عــلم اللاهوت البرهمى القــديمَ الزاخر بدقائق الشعائر وتقريب القرابين ، وإنْ كُنَّا نعود إلى ذلك ، مع تعديل ، في الفصل الذى خصَّصْناه للبحث في دِيانات الهنــد الحديثة ، وكلُّ ما نفعله الآن هو أننا نُشِــير إلى أكثر المناحى الفلسفية انتشاراً في ذلك الحين ، وهى ماتراها مُجْمَلَة بوضوح في كتاب مَنُو الذى لم يفعل غير تــكرار ما يقوله البراهمـــة والأوپانشد بإسهاب .



٥٨ ــ غواليار . معبد تيلى مندر
(أنشىء في القرن العاشر من الميلاد على ما يحتمل)
(يبلغ ارتفاعه نحو ٣٤ متراً)

ولم تــكن الآلهة الغامضة الأمر في الرِّغْ ويدا ، فتجلَّت مؤخراً في شَخْصَيْ شيوا ووشنو ، إلا أشدَّ غموضاً مما كانت عليه في العصر الويدى ، فليست هذه الآلهةُ غيرَ

مظاهرَ مجردةٍ فائرة للإله الأعلى برهما الذى يَبُثُّ الحياة فى كلّ موجود ، وليس الإله برهما ، مع ذلك ، الربَّ الأسمى الخالقَ لـكلّ شىء ولـكلّ موجود والمهيمنَ على العزائم الذى بَصُرَت به كتب الويدا ، فهذا الإله ليس مستقلاً فضلاً عن عدم تدبيره لِلْـكَوْن ، فهو إذ كان مُوَزَّعاً فى جميع المخلوقات المُتَرَجِّحة بين أطيبها وأخبثها يشاطرها مصايرها وينال نصيباً من آثامها وآلامها وبعثها وتحولها البطىء وارتقائها العسير ، قال مَنُو :

« تَسْتَقِرّ الروح العليا فى أرقى المخلوقات وأسفلها .

« فمن جوهر تلك الروح العليا يَخْرُج ، كالشرر ، ما لا يُحْصَى من أصول الحياة فتوجب هذه الأصول الصادرة حركةَ جميع المراتب على الدوام » .

فلهذا المذهب ، القائل بتَجَلِّى الروح العليا فى جميع المخلوقات ، يجب على الإنسان أن يحترم كيانَ هذه المخلوقات ولو كانت من الحيوانات الضارة أو الحشرات الواهيـــة .

« والإنسانُ ، حين يَعْرِف تَجَلِّىَ الروح العليا فى روحه الخاصـــة وفى جميع المخلوقات ، يبدو هُوَ إياه تجاه جميعها فيُثاب بأن يَفْنَى فى برهما ، أى بأحسن مصير .

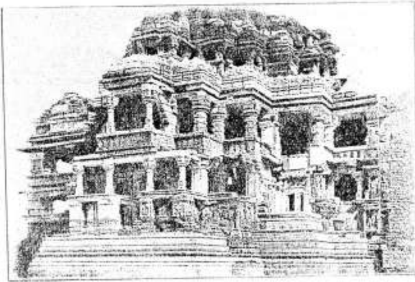
« وإذا عَجَز البرهمىّ عن تـكفير ما اقترفه من قتـل حَيَّةٍ أو مخلوق آخر فلْيَتُب ، فبالتوبة تُمْحَى الذنوب .

« ولْيَتُب ، أيضاً ، إذا قَتَل ألف حيوان صغير ذى عظام أو قَتَل من غير ذوات العظام ما يملأ مركباً كما يتوب عند ما يقتل شودرياً » .

وليست الروح بمنفصلة عن الله ، فالروحُ فى كلّ حىّ جزء من الـكائن الأعلى ، وتتألف الروح العليا من مجموع أرواح الآلهة والناس والحيوانات ، والله ، المتعددُ وغيرُ الشخصىّ معاً ، هو مصدر كل عمل وكل حياة وكل تبدل .

« ألا إن الروح هى مجمع الآلهة ، وإن الروح العليـا هى مقرّ الـكون ، وإن الروح هى مصدر أعمال ذوات الحياة » .

وليس ربُّ الـكَوْن الأعلى بالذى يتَصَوَّره الخيال ، فهو غير الهَيُولَانِيّ القاهرُ الذى يَسْرى فى الـكَوْن فَيَهَب له الحيـاةَ كأغنِى إلٰهِ الآريين القديم ، وهو النور القوىّ الموجود فى كلّ مكان ، وهو الذى يُقَدِّس البرهمىّ له مرتجفاً فيَشْعُرُ بسريانه فى عروقه ، جاء فى شريعة مَنُو :



٥٩ ـ غواليار . معبد ساس بهاوالـكبير (القرن الحادى عشر) (يبلغ ارتفاعه الآن نحو ٢١ متراً ، وقد كان ٣٠ متراً قبل أن يهدم أعلاه على الأرجح)

« يجب على الإنسان أن يعلم أن الموجود الأعظم هو ربّ الـكَوْن الأعلى ، وأنه أدقّ من الذرة وأنه أسطع من الإبريز[1] وأنه لا تدركه الأبصار إلا فى المنـام على وجهٍ مجَرَّد .

(١) الإبريز : من الذهب خالصه .

« فبعض الناس يَعْبُده فى عنصر النار ، و بعضهم يَعْبُده فى شخص سيد المخلوقات مَنُو ، و بعضهم يَعْبُده فى إندرا ، و بعضهم يعبده فى عنصر الهواء الخالص ، و بعضهم يعبده فى برهما الأزلى .

« ذلك هو الله الذى يُحِيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف من العناصر الخمسة فتنمو هـذه المخلوقات بعد أن تُولَد ثم تنحلّ فتَتِمّ ذلك كلّه بحركة تشابه دوران العَجَلة » .

والخلاصـة أن ذلك هو مذهب وَحْدَة الوجود ، ولـكن ذلك ليس بمذهب وَحْدَة الوجود الهَيُولَانِيَّة الساطعـة الظاهرة التى عَرَفَها الآريون ، وليس بقُوَى الطبيعة التى أضحت آلهة مع محافظتها على ثيابها المؤلفة من السُحُب والأشعة وعلى شَذَا عطورها وعلى هَدِيرها ودَوِيِّها ، بل هو مذهب وَحْدَة الوجود الأكثرُ تجرداً وقولًا بالقضاء والقدر ، هو مذهب وَحْدَة الوجود الذى يَحْجُب الله فلا يُبْدِيه رائعُ الـكلام ولا ساطعُ الألوان ، هو مذهبُ وَحْدَة الوجود الذى يجعل اللهَ أسيراً فى العناصر ، هو مذهبُ وحدة الوجود الذى يقيم عِزَّةَ الله ومَجْده على تجريده من الصورة والظاهر والإرادة والحياة ، فيشابهه من يَتَطَهَّرون من الذنب ، أو يَفْنَوْن فيه .

وعلى الإنسان ، قبل أن يَصِل إلى ذلك النعيم الدائم ، أن يحتمل أذى الحياة زمناً لا يتصور طولَه المرهوب سوى خيال الهندوسىّ الخصيب ، فمدى حياة الإنسان ليس بالشىء الذى يُذْكر إذا ما قيس بذلك الزمن الطويل ، فالولد الذى يُولَد لا بدّ من أن يكون قد جاوز عِدَّة أطوار قبـل أن يولد ، والأشيبُ الذى يموت لا بُدّ من أن يولد و يعود أشيبَ عِدَّة مرات فى عدة أجسام .

وتجد فى شريعة مَنُو تفصيلًا واضحاً لمذهب تناسخ الأرواح الذى هو أساس

جميع مذاهب الهند الدينية ومنها البدهية ، وتجد فيه ، أيضاً ، تفصيلاً لمذهب الكَرْما الذى يرى أن عمل الإنسان فى هذه الحياة الدنيا يُعيِّن الحالَ التى يُولَد بها مرة أخرى فَمَمَّ أمره ، كذلك ، جميع المذاهب الدينية التى انتشرت فى الهند فيما بعد .

والحياة التى تَعْقُب الحياة الأولى تكون طيبة أو خبيثة بحسب حُسْن الحياة الأولى أوخُبْثها ، فالروح تتقمص إما برهمياً أو قديساً أو إلهاً ، وإما جَنْدَالا(١) أو بقرة أو خنزيراً أو حية ، جاء فى شريعة مَنُو :

« إذا عَمِلت الروحُ الصالحاتِ على الدوام وقليلاً من السيئات فتقمَّصَت جسماً من العناصر الخمسة تمتعت بأطايب النِّعَم .

« وإذا عَمِلَت الروح السيئات على الدوام وقليلاً من الصالحات جُرِّدَت بعد الموت من جسمها ونُزِعَت من العناصر الخمسة وتَقَمَّصَت جسماً آخر مؤلفاً من أجزاء دقيقة من العناصر وعَذِّبَها يَماً عذاباً شديداً ، والروح ، بعد أن تقاسِيَ هذا العذاب الأليم كما يقضى به قاضى النار وتَطْهُر ، تَتَقَمَّص جسماً من العناصر الخمسة ، أى تكتسى ببدن .

« فعلى الإنسان أن يَعْلَمَ بنفسه أن نوع التناسخ يكون على حسب ما يعمل من الصالحات والسيئات فيُوَجِّه نفسَه إلى الفضيله على الدوام .

« ويَلْبَث أكابر المجرمين فى جهنم أحقاباً ، ثم يُقْضَى عليهم بأن يجاوزوا المراحل الآتية تكفيراً عن خطيئاتهم :

« فيتَقَمَّص قاتل البرهمىِّ ، بحسب أهمية جرمه ، جسمَ كلب وخنزير وحمار وجمل وثَوْر وتَيْس وكَبْش ووحش وعُصْفور وجَنْدَالا .

(١) الجندالا هو ابن الرجل الشريف والمرأة الشودرية ، ويجىء دون الشودرا أنفسهم مرتبة .

« والبرهمىّ الذى يَسْرِق ذهباً يَتَقَمَّص ألف مرة أجسام العناكب⁽¹⁾ والأفاعى والحِرْبايَ⁽²⁾ وحيوانات الغُدْران والعفاريت الأشرار » .

وفى شريعة مَنُو يتوقف مصير الإنسان على جميع أعماله فى الحياة الدنيا فيدخل فى وزنها الهائل كبيرُ هذه الأعمال وصغيرُها ، لا كما فى النصرانية التى تقول بمحاسبة الإنسان فى اليوم الآخر على العمل الفلانىّ أو العمل الفلانىّ أو الوضع الأخير فقط مع النظر إلى التوبة فى الساعة الأخيرة ، جاء فى شريعة مَنُو :

« الإنسان مجزىٌّ بأىّ عمل يأتيه بقلبه أو لسانه أو جسمه إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ ، وعلى ما يصنعه الإنسان يَتَوَقَّف حاله فيكون طيِّباً أو متوسطاً أو سَيِّئاً . »

وتلك العقيدة هى مصدر خضوع الهندوسىّ لنظام مرهوب لا يترك له خِيار القيام بأىّ عمل مهما صَغُر ولا قضاء أىّ احتياج جُثْمانىّ مهما ضَؤُل .

فأقلّ إهمال منه يذهب بثمرته التى تَعَهَّدَ أمرها بمشقة ، فلا يأمُل تلافى ما فَرَط منه من اللَّمَم⁽³⁾ إلا بإقامة شعائر التطهير ، وما قيمة أحكام القضاة فى مخالفة الإنسان للشريعة ؟ وما قيمة العَطَل من وجود شاهدٍ على تعدى أمرها ؟ فشعور المذنب الوَرِع يُصَوِّر له نتائج ما صنع ، فيَرْضَى طائعاً بما تَفْرِضُه الشريعة عليه من العقوبات الشديدة .

---

(١) العناكب : جمع العنكبوت — (٢) الحرابى : جمع الحرباء ، وهى ضرب من الزحافات تتلون فى الشمس ألواناً مختلفة ويضرب بها المثل فى التقلب — (٣) اللمم : صغار الذنوب .

ومن يطالع ما في شرائع مَنُو من الأوامر الشديدة يَتَبيَّنْ ثِقَلَ النِّير الذي كان مفروضاً على الهندوس وأثره في أدقِّ شؤون حياتهم في العصر الذي نحاول بَحْث تاريخه ، ويَتَمَثَّل الفرق بينه و بين أدب آرِيِّي العصر الويديِّ السَّمْح اليسير ، فالحقُّ أن الزمن تَغَيَّرَ وأضحى شعبالأجيال القديمة الحرُّ السعيد قطيعاً من الرعايا الخُوَّف الذين يتجلى فيهم الذُّعْر والألم إذا ما ساروا على الدوام .

ذلك أمرُ المجتمع البرهميّ القديم ، ونَجِد مبادئه الأساسية في المجتمع البرهمي الجديد ، حتى في الهند الحديثة ، بَيْدَ أنك ترى شِدَّةَ تلك المبادئ قد خَفَّت بفعل البُدِّهِيَّة السمحاء .

و بلغت البرهمية القديمة من شِدَّة التَوَتُّر حول النفوس ما كانت تَتَقَصَّف به تحت الضغط فتنتظر المنقذ ، وكانت وطأة النِّير تَثْقُل على النـاس في أدق أعمالهم فتنسحق قلوبهم فلا يَرَوْن بخيالهم سوى رِجْس الحياة وقُبْحها ، فيبدو لهم كلُّ شيء سيئاً إلاّ الفناء ، وما وَصَفَ « دانتي » به العذاب في رواية « جهنم » هو وحدَه يُمَثِّل لنا رأي قدماء البراهمة في ضروب العـذاب الذي يبدأ في الدنيا فيَتَدَرَّج شدةً في أحقاب لا يتصورها خيال إلى أن يَغْدُوَ الإنسان جديراً بالفناء في الـكَوْن ، و إن شِئت فَقُلْ في العـدم ، ومن طبيعـة الأمور أن يَنْبَثِق فجر الأمل في تلك الأمم المُثْقَلَة من خِلال الضغط المُشْتَدِّ عليها ، ومثل هذا ما حدث بعد زمن قليل في العـالَم الروماني حين ظهر المسيح و إن اختلفت الأسباب .

ظهر في الهند ، أيضاً ، المنقذُ الذي جاء بما كانت النفوس الظَّمِئَة تنتظره من

القول العذب ، فكان لهذا القول صدى بعيدُ المَدَى فى أرجاء آسية ، فوَجَدت به ملايين البشر ، الذين حَنا كواهلَهم نِيرُ الطوائف وأثخنتهم قيود الدين الثقيلة وأوْلَهَتهم أنواع العذاب الأبدىّ المنتظر الذى لا مفر منه ، ربحاً طيبةً مملوءة حناناً ورحمة وإحساناً .

كان بُدّهة شاكيه مونى ذلك المنقــذَ ، وكانت البُدّهيةُ تلك البُشرَى الطيّبــة .

الفصل الثالث

حضارة العصر البدهى

(١) الوثائق التى يستعان بها فى تمثل المجتمع الهندوسى حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد — دام العصر البدهى فى الهند نحو ألف سنة — قلة الوثائق التاريخية وكثرة المبانى الحجرية فى العصر البدهى — مخطوطات نيبال — رحلات حجيج من الصين — (٢) القصة البدهية — تحول العالم البرهمى القديم فى أوائل العصر البدهى — حياة بدهة كما جاءت فى لليتاوشتار — ولادة بدهة — يأسه — تأملاته فى أسباب الألم — نظرياته فى هدف الحياة وبؤسها — (٣) الديانة البدهية — الأدب الذى نجم عن البدهية — لا تمس البدهية الآلهة القديمة — مذهب الكرما — الأسباب الأدبية والمادية التى انتشرت بها البدهية — تأثير البدهية الواسع فى آسية — عاذا تختلف البدهية عن البرهمية — (٤) البدهية كما جاءت فى المبانى — رأى علماء أوربة فى إلحاد البدهية — فساد هذا الرأى — البدهية أكثر الأديان إشراكا — مطابقة ما جاء فى الأقاصيص لما فى المبانى — ماقى البدهية من التأملات اللاهوتية يرى فى جميع ديانات الهند — نشوء النظريات الفلسفية حول البدهية نشوءاً موازياً لها مستقلا عنها — مصدر ما فى أوربة من الأغاليط حول البدهية — يجب عد البدهية متطورة عن البرهمية — (٥) توارى البدهية عن الهند — تؤدى دراسة مبانى نيبال وسائر بلاد الهند إلى تفسير ذلك الغياب — البدهية فى نيبال — الثالوث البدهى — امتزاج البرهمية والبدهية فى نيبال — (٦) المذاهب الفلسفية فى البدهية — بطلان الأشياء — مختارات من كتاب بدهى حديث — (٧) المجتمع البدهى — روح الاتحاد والإحسان والرحمة — رحلات الحاجين الصينيين فاهيان وهيوين سانغ فى الهند — ما انتهى إلينا منهما عن المجتمع البدهى — الخلاصة .

١ — الوثائق التي يُستعان بها في تَمَثُّل المجتمع الهندوسي

حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد

دام العصر البدهيّ من القرن الثالث قبل ظهور المسيح إلى القرن السابع بعد ظهوره، فينطوي هذا العصر على مدة ألف سنة تقريباً ، ويتطور الدين في السنوات الألف هذه ، وتَغَطَّى الهند في أثنائها بالمباني العجيبة ، ويُؤَدِّي ما سمح الدهر ببقائه من أطلال هذه المباني وما اكتُشف حديثاً من الكتابات الدينية إلى الوقوف على نشوء الحضارة الهندوسية في ذلك العصر ، غير أن حوادث ذلك العصر التاريخية ظَلَّت دفينةً تحت طبقة من الظلام الدامس .

والعالِم الذي كان يَوَدّ ، منذ نصف قرن ، أن يكتب فصلاً بعنوان فصلنا هذا لم يَجِد من المعارف ما يملأ به سطراً واحداً ، وكادت أوربة تكون وقتئذ جاهلةً كلَّ شيء عن شأن البُدَّهِيَّة وحقيقة أمرها مع أنها الشريعة العليا لنصف مليار من البشر .

وليست كثيرةً الوثائقُ التي تؤدي إلى نَبْش بضعة أسطر عن تاريخ تلك السنوات الألف من تحت أعفار القرون ، ومن هذه الوثائق نذكر ، في الصف الأول، المبانيَ الفَخْمَة التي نعلم منها مبتكرات الفنون وعظمةَ الملوك ، ومن أقدم هذه الوثائق وأكثرها قيمة نذكر ، كمصادرِ معارفَ ، الأعمدةَ التي ملأ الملك آشوكا ولاياته الواسعة بها فنقش عليها قبل الميلاد بثلاثة قرون أحكام شريعة جديدة لدى الهندوس .

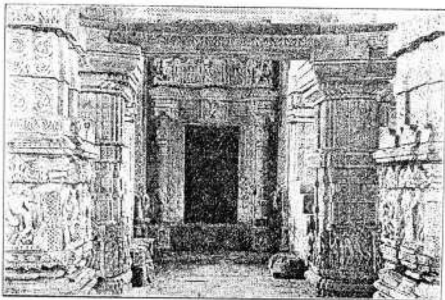
ومن الوثائق التى يستعان بها فى ذلك نذكر ، أيضاً ، مجموعة مخطوطات نيبال الكثيرة الخاصة بالديانة البُدّهيـــة تقريباً ، وتَعدُّ « زهرة الشرع القويم » و « لَلِيتا وِشْتار » أهمّ ما نُقِل إلى اللغـات الأوربية منها ، ونُضِيف إليهما «تواريخ ملوك مَغَدْها » التى هى ، بالحقيقة ، أقاصيص خرافية لا تَمُتّ إلى التاريخ الصحيح بصلة ، كما نضيف إليهما رِحلة الحاج الصينى فاهيان الذى زار الهنـد فى القرن الخامس ورِحلةَ الحـاج الصينى هيوين سانغ الذى زارها فى القرن السابع من الميـلاد .

٢ — القصة البُدّهية

من يُنْعِم النظر فى الوثائق الأولى المذكورة آنفاً ، أى فى كتابات آشوكا التى نُقِشَت قبل الميلاد بقرنين ونصف قرن يَعْلَم وجود تحولٍ عميق فى العالم البرهمىّ القديم ، وبيان الأمر : أن من مطالعة شرائع مَنُو يَثْبُت لنا استخذاء أجيالٍ كثيرة من البشر لِنِيرٍ دينىّ دقيق شديد ، ومن مطالعتها يبدو لنا مقدارُ الضّيق الذى كان مستحوذاً على كثير من الآدميين الذين كان أقلُّ ذنب قلبىّ أو حسىّ يأتيه الواحد منهم يؤدى إلى أفظع تكفير ، والذين لم يكن بينهم اشتراكٌ فى احتمال البأساء ، فكان بعضهم ينظر إلى بعض من فوق الحواجز الطائفية ، فإذا تناول الواحد منهم ، بحسب الأحوال ، كأسَ ماء من آخر أو قال له قولاً ليّناً ممزوجاً بأطيب التمنيات عُدّ مقترفاً جرماً لا يُمّحى إلا بالتوبة والتكفير الطويل ، فبينا كان القوم على ذلك أتتهم ريحٌ طيبة فيها حنان وإحسان فسقطت القيود وتَفَتّحت القلوب وصار وجه الأرض يتبـدل ،

فقد صاح مصلح كبير مُجَلْجِلٌ(١) فكان شرعُ عطفٍ وكان شرعُ محبةٍ شاملٌ لجميع الخَلْق مُؤَلِّفٌ لِما بين الطوائف .

لم نعرف حياة المصلح الشهير الذى يُقَدِّس اسمه وذكراه خمسمئة مليون من البشر إلاّ من الشعر الأساطيرى ، فمن خلال هذه الأساطير ، إذَنْ ، نستطيع أن نستنبط تلك الحياة ، وتُعَدُّ « لَلِيتا وِسْتَار » التى وُضِعَت فى نيبال فى أوائل التاريخ الميلادى ، على ما يحتمل ، أقدمَ هذه الأساطير ، فإليها تستند فى رسم حياة بُدَّهَة .



٦٠ ــ غواليار . داخل معبد ساس بهو الكبير

وهاجم النُّقَّاد المعاصرون تاريخَ بُدَّهَة الأساطيرىَّ بشدةٍ ، فلم يَرَوْا أن

(١) المجلجل : البعيد الصوت .

يَرْسُموا دَور الأسطورة البُدَّهِيَّة الافتراضيّ ولا أن يُثبِتوا أن شاكيه مونى انتفع بالتقاليد القديمة التى أُخِذت من أسطورة وِشنو وأسطورة كِرشنا ، فالحقُّ أن مُعْظم تاريخ بُدَّهَة هو ، كما أشار إليه مسيو سينار ، مقتبسٌ من الأساطير القديمة وأن من الممكن عَدَّ ديانته خلاصةَ عقائدَ وطقوس كانت موجودة قبله .

وليس من المهمّ أن نعرف حياةَ بُدَّهَة الحقيقية ، فإذا استثنيتَ محمداً لم نجدنا مطلعين على حياة مؤسسِ ديانة اطلاعاً صحيحاً على ما يحتمل ، فلم تُؤَلَّف سِيَرُهم ، على العموم ، إلا بعد وفاتهم بزمن طويل ، وكلُّ ما نرى معرفته ، مع ذلك ، هو أن ملايين كثيرة من البشر يُقَدِّسون بُدَّهَة منذ أكثر من ألفى سنة ، سواء أكان رجلاً حقيقياً أم وهمياً .

لم تظهر ديانة بُدَّهَة على مسرح التاريخ إلا فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مع أن بُدَّهَة وُلِد قبل ظهور المسيح بخمسة قرون فى كَپِيلا وَسْتُو الواقعة فى جنوب نيپال ، وتجد أوجهَ شبهٍ شاملةً للنظر بين حوادث حياته الخرافية وبعض أقاصيص الأناجيل ، فَبُدَّهَة ، كعيسى ، وُلِد من أمٍّ عذراء ، وأُخْبِر بولادته إخباراً معجزاً ، وبُدَّهَة الذى سُمِّى ، حين وُلد ، بِغُوتَمَا فلُقِّب بشاكيه مونى كان ينتسب إلى أُسرة مالكة كما انتسب عيسى إلى آل داود ، وتجد ، مع ذلك ، اختلافاً فى طفولة ذينك المصلحين وشبابهما ، فمع أن غُوتَمَا رُبِّىَ وارثاً لعرش كان ابن مريم يشاطر يوسف النجار عمله ، فإذا عَدَوْت هذا الاختلاف رأيتَ تماثلاً عجيباً من كل وجه بين صيام عيسى فى البَرِّيَّة حيث حاول الشيطان أن يُغْوِيه ثلاث مرات وصيامِ شاكيه مونى فى الآجام حيث حاول الشيطان أن يُغْويه ثلاث مرات أيضاً ، ويُذَكِّرنا

ما حدث لهذا الحكيم الهندوسيّ مع المرأة التي طلب منها أن تَسْقيه بما حدث لعيسى مع السامرية وما قاله لها .



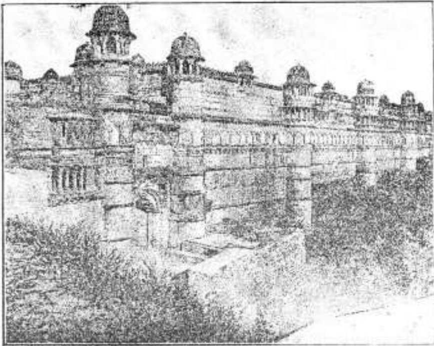
٦١ — غواليار. معبد ساس بهو الصغير (القرن الحادى عشر من الميلاد) (أخذت هذه الصورة من المحراب)

وتزيد أوجه الشبه تلك أهميةً عند الوقوف على تشابه تَيْنِك الدِّيانتين موضوعاً فضلًا عن الشكل ، فكلتاهما أمرتا بالإحسان والمساواة والزهد ، وكلتاهما ناطتا الخطيئةَ بالنِّيَّات كما تُناط بالأعمال ، وكلتاهما ابتدعتا الرَّهْبانيةَ ، وكلتاهما اعتنقهما ملايين من البشر بروح واحدة ووسائلَ واحدة ، فصَلُح الغرب بالنصرانية وصَلُح الشرق بالبُدَّهِيَّة ، وكلتاهما عنوان أملٍ إنسانيّ واحد ولم تكونا سوى وجهين لحادث مهمّ واحد في تاريخ أدب العالم ، وليس مما نبالي به كثيراً أن تكون إحداهما مدينةً للأخرى أو أن تكون كلٌّ واحدة منهما قد نشأت نشوءاً ذاتياً غريزياً مستقلًا عن نشوء الأخرى ، فلا ندرس هذا الأمر في هذا الكتاب .

ذاق غُوتَمَا منذ أن كان طفلًا في قصر أبيه كلّ ما يمكن أن يجود به الجاه والثَّراء والجمال والصحة والفُتُوَّة من أطايب النعم ، فلما بلغ سنّ الرجولة تزوج بفتاة حسناء كان يَعْبُدها فوضعت له ذكراً ، ففي ذلك الحين الذي بلغ فيه أَوْج السعادة انفقت له

ذات يوم ثلاثُ مصادفات متتابعات فقرَّرت مصيره وهى : أنه لَقِى شيخاً حَنَت الأيام ظهره فلا يكاد يمشى من السَّقَم ، وأنه لَقِى رجلًا مصاباً بالطاعون الفظيع فيتلَوَّى من الألم ، ولَقِى ميتاً شاحباً مُشوَّهاً فيُكَفِّنه والداه المحزونان .

فقال غُوتَمَا فى نفسه : لِمَ الهَرَم ؟ لِمَ المرض ؟ لِمَ الموت ؟



٦٢ ــ غواليار . منظر قصرمان مندر (القرن الخامس عشر) (يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً ويبلغ طوله نحو مئة متر)

وقال فى نفسه أيضاً : إننى غَنِىٌّ قوىٌّ سعيد عزيز ، وما لدىَّ من الثروة والقوة لا يَمْنَع ، مع ذلك ، رأسى من الشَّيْب ووجهى من التَّـكَرُّش وأعضائى من التَّلَوِّى والألم ، ولن يحول دون ذلك أحِبَّائى الذين سيبكون فوق قبرى ، وكيف أفرح

بكنوزى وصحتى وزوجتى الفتاة الحسناء وولدى وأنا عارف بما ينتظرنى ؟ أجَلْ ، عندى من السعادة أقصى ما يطمع فيه رجل ، ولكن ما هو عَيْش أولئك الذين هم عاملون ، أولئك الذين هم بائسون ، أولئك الذين هم مُسْتَضْعَفون ، أولئك الذين هم جائعون ؟

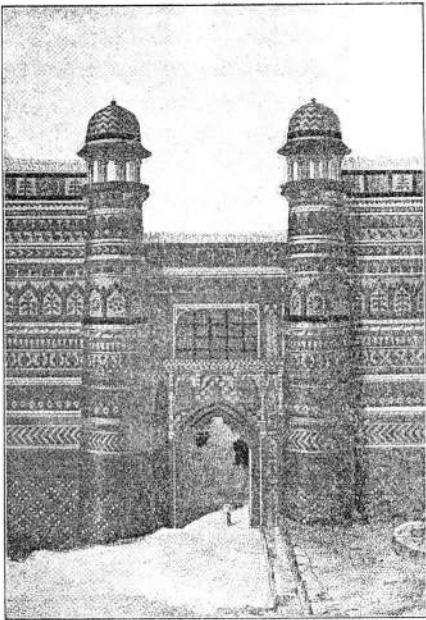
أسفرت هذه التأملات عن وصوله إلى النتيجة القائلة إن العالَم ليس إلّا مجموعةَ آلام فسأل :

من أين يأتى الألم ؟ ما هو سببُه ؟ كيف يكافَح ؟

هنالك عزم بُدَّهَة على اكتشاف مصادر الألم الملازم لكل موجود ومداواته ، فرأى أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً ما عَلِم أن لسعادته نهايةً وأن ما يتمتع به من سعادة زائلة أمر شاذٌّ فترك زوجته العزيزة وولده الطفل وأباه الشائب وقصره وأُجَراءه وكنوزه ولَبِس ثوباً حقيراً وحمل بيده كَشْكُولاً وصار يجوب القرى ماشياً عائشاً من الصدقات مفكراً فى الحياة مُقَلِّباً لجميع وجوهها مداوماً على تأملاته .

بَيْد أنه لم يَصِل بتلك التأملات إلى الحلّ المنشود فأراد اعتزال العالم فأوغل فى الأدغال البعيدة مفكراً سابحاً فى بحر من الرُّؤَى ليلَ نهار .

مَرَّت السنون ، وكانت كلما مَرَّت رأى شاكْيَه مونى بُعْده من الغاية الغامضة التى يسعى إليها ، ورأى أن من العبث ما عَرَّض روحه و بدنه له من ابتلاء قاس وأن من العبث ما قام به من الصيام إلى أن فَقَد وَعْيه وكاد يقضى نحبه وأن من العبث أن ينهمك فى فهم الطبيعة ومصير الأمور فهماً مجرداً ، فهو لم يَصِل ، بَعْدُ ، إلى درجة بُدَّهَة ، إلى الدرجة التى يصبح فيها المخلوقَ الذى يعلو البشر فيقدر على إنارة الناس وكشف الكُروب عنهم .



٦٣ ـ مدخل قصر غواليار

وإن بُدْهَة لَيُجْهَد نفسه فى الوصول إلى العلم الأسمى إذ ابتُلى بأمير العفاريت وروح الشرّ مارا ، فقد أراد هـذا الجنّىّ أن يُبْطِل عمله وأن يُدخله إلى زمرة المذنبين .

رأى بُدّهـة من الرُّؤى ، التى وُصِفَت فى « لَليِتاوِشتار » ما أزعج نفسه ، وبيان الأمر :

أن كتائب من الجنّ الأشرار أخـذت ، فى سكون البَرِّيّة ، تدور حوله وهى تقول له همساً ، بالمناوبة ، قولَ الشكّ المأثور : « ما فائدة ذلك ؟ » الذى يُبْعِد أصلب الناس عوداً من الهدف ويُلقيه فى هُوَّة من اليأس ، وبينما كان يَهْزِم بِرصين الكلام جيشَ العفاريت المُؤلَّف من غيلان ذوى أجسام نارية ذُكْنٍ سُود وعيونٍ مُشوَّهة غائرة كالآبار مُلْتَهِبة مقلوعة أو شافِنَة[1] وغيلان[2] مُتوَّجين بأكاليل من أصابع بشرية وغيلانٍ لا رأس لهم وغيلان لهم مئة ألف رأس ، إذ بنور رائع حافل بالأسرار يَعُمّ الغابة التى بدت نَدِيّةً كما لو بَلَّلَها القطر ، إذ بامتحان يُبْتَلى به ذلك الحكيم فيَرَى نفسه ، وهو غارق فى تأملاته ، مُحاطاً بجحفل من بنات الجن أبْشَرَ السـاحرات ، إذ بِصُوَر رائعـة تَتَموّج بين الأغصان فيندمج بعضها فى بعض على شـكل زُمَرٍ شهوانية ، إذ بنساء متطرّفات أو معتدلات لابسات أزهى ثياب أو عاريات باهرات يَرمى بعضُهنّ من تحت أهدابهنّ الطويلة بسهام أحداقهن المُغْرية ويرفع بعضٌ منهن لِحاظَهن الحادّة فيُحْدِقْن به لطيفات محاولات إغواءه بعبارات الحبّ وأوضاع الفسق وبما لم تَسْتَمِع به أذن من وعود اللذات .

---

(١) الشافنة : الناظرة بمؤخرها أو فى إعراض — (٢) تجد صورة قريبة لهذا المنظر فى أحد تصاوير جدر أجنتا التى نشرناها فى هذا الكتاب .

قالت بنات العفاريت الساحرات لذلك الحكيم : « تعالَ ، يا صاحب الوجه الذى يُحاكى القمر وانظر إلينا نحن ذوات الوجوه التى تشابه الزهر النَّضِر والأصواتِ العَذْبة التى تنفذ القلوبَ والأسنانِ البيض التى تَحْكى الثلج والفِضَّة ، أتجد لنا مثيلاً حتى فى مَقَرّ الآلهة ؟ أترى مثلنا فى منـــازل الإنسان نحن اللائى ترغب فيهن آلهة الدرجة الأولى على الدوام ؟ » .

ولـكن شاكْيَه مونى صَبَر على هـذا الامتحان الساحر فأجابهن ، كما جاء فى الأسطورة التى نلخصها بما يأتى :

« أرى البدنَ الدَّنِسَ الرِّجس النَّجس المملوء دوداً والسريعَ الالتهاب والزوال والمُتَأثِّرَ بالآلام ، فسأنال المجد الخالد الذى تقوم عليـه سعادة العالم الثابت والمتحرك فيُقَدِّسه الحـكماء » .

فسمع شاكْيَه مونى القولَ العَذْب الآتى :

« لقد أبْدَيْنَ سُحُور الشهوة الأربعة والستين وأطْنَنَّ نُطُقَهُنَّ وخِرْصانَهُنَّ[1] وخـلاخِلَهُنَّ وخَلَعْن ثيابهنَّ ثَمِلات ضاحكات ، فماذا أسأن إليك أنت الذى تحتقرهنَّ ؟ » .

غير أن شاكْيَه مونى قاوم المِحْنَة بشجاعة فقال :

« الخطيئةُ موجودةٌ فى كلّ مخلوق ، ويعلم أمرَها من خلع عنـه نير أهوائه ، ولا أعرف الشهوات إلاَّ كالسيوف والسهام والحِرَاب والمُوسى المدهون بالعسل ورأسِ الأفْعَى والأخْدُود[2] النارىّ .

وفى الأسطورة أن شاكْيَه مونى « لم ينظر إلى تلك المخلوقات عاشقاً ولاساخطاً ،

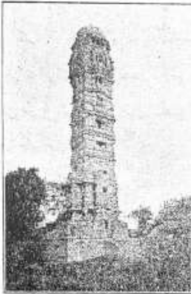
---

(١) الخرص : حلقة الذهب أوالفضة أوغيرهما — (٢) الأخدود : الحفرة المستطيلة .

فلأن ترجُف[1] الجبالُ وتُسجَّر[2] البحارُ وتُكوَّر[3] الشمسُ والقمر أقربُ من أن تَفتِن النساء ذلك الذى رأى بنور بصيرته خطيئاتِ العوالم الثلاثة » .

هنالك أرى كبيرُ العفاريت ، كما صنع الشيطان مع المسيح ، بُدْعَةَ المستقبلِ ممالكَ الدنيا ومجدَها واعداً إياه بالنجاح والنصر والسلطان إذا ما عدَل عن طلب الحكمة .

قال العِفريت : « أنا ربُّ الشهوة فى العالم كلّه ، وأنا المُسيِّر والمُذِلّ للآلهة وجَمْعِ الأرباب والإنسان والحيوان ، فقُمْ أيها الذى يقيم بملكى وسَمِّعْ صوتك » .



٦٤ ـ چتور، برج النصر (القرن الخامس عشر)
(ارتفاعه نحو ٣٦ متراً)

فقال شاكيه مونى : « إذا كنتَ ربَّ الشهوة فلستَ ربَّ عالم المرئيات ، انظُرْ إلىَّ ترنى صاحب الشريعة ، وإذا كنتَ ربَّ الشهوة فلا تسلُك سبيل الضلال ، سأنال النُّهى وأنفُكَ راغم وأنت ناظر » .

كفَّ جيش العفاريت المرهوب عن الكفاح مُتَاضياً متوارياً فى الظلام ، فبذلك تمَّ النصر لشاكيه مونى ، فبَرَّد وابلٌ من الزهور جبينه فسمع صوتاً من السماء يقول له :

(١) رجف الجبل يرجف رجفاً : زلزل ـ (٢) سجر البحر : فجره ـ (٣) كورت الشمس : اضمحلت وذهبت .

« تمنح الآلهةُ تيجاناً من اللآلئ، وتُغطى راياتٍ وأعلاماً وتُمطِرُ أزهاراً وتنشر من الصَّنْدَل ذَرًّا وتقول على أنغام الموسيقى : أيها البطل ! غُلِبَتْ كتائبُ العدوِّ بعد أن أحاطت بشجرتك .

« أيها البطل ! اليوم تنال ، على أحسن أريكةٍ ، النُّهى الخالىَ من شائبة الشهوة، واليومَ تَظفَر بِعِلْمِ بُدْهة بعد أن قهرتَ برفقٍ حزب الشيطان » .

وأريد بالشجرة المذكورة آنفاً تلك التى كان يلجأ إليها شاكْيَه مونى فى أثناء عزلته ، وكانت تلك الشجرة مغروسة فى المكان الذى يُعْرَف اليوم ببُدْهَة غَيَا والواقع أمام المعبد الذى نشرنا صورته فى هـذا الـكتاب ، ولا يزال القوم يُقَدِّسون ذلك المـكان كما يُقَدِّس اليوم زيتونُ جَثْسَيمانى الذى سال تحته عَرَقُ المسيح الدامى ، أجَلْ ، تحولت تلك الأغصان ، التى كانت تقى بُدْهَة حين تأمله ، إلى غُبَار منـذ زمن طويل ، ولـكن تقوى المؤمنين حَلَّت ، على الدوام ، محـلَّ تلك الشجرة وقتما هَلَـكت .

جاوز ذلك الحـكيم تلك المِحْنَةَ صاحباً للنُّهَى الأَسْمَى فانتهى إلى حَلٍّ ما كان يساوره من المُعْضِلات الهائلة ، جاء فى « لَلِيتَا وِسْتَار » :

« جَمَعَ إذْ ذاك أفـكارَه خالصةً كاملةً نَيِّرَةً مُنَزَّهَةً عن الرجس خاليـةً من الفساد مَرِنَةً مُهَيَّأةً لما أُعِدَّت له ثابتةً محافظة على العهد مستعدة لتلقى الحـكمة الربانية» .

« فرأى بالعين الإلهية الخالصة التى هى أرقى من العين البشرية بمراحل أن الخلائق ترتحل وتُبْعَث من طبقة طَيِّبة أو من طبقة حقيرة وفى طريق قويم أو طريق ردىء عاجزةً أو ناهضة مَجْزِيَّةً بأعمالها » .

وتَمَثّل له مَدَى البؤس البشرىّ من جديد فعَنّ له أن يكتشف ، فى هذه المرة ، سببَه والوسائل التى يزول بها زوالاً تاماً .

وهو إذ أنعم النظر فى سلاسل العلل والمعلولات رأى أن الشهوة أو الرغبة هى أمُّ الشرور وأن الوهم على رأسها ، فالشهوةُ تستحوذ على الإنسان منذ ولادته وتَقْضَم قلبه كالثعبان ذى السبعة الرؤوس الدائم الحياة الذى لا تُرْوَى له غُلّة أبداً ، وكيف تُرْوَى غُلّة هـذا الثعبان ؟ ليست الفرائس التى تُرْمَى له ، أى المجدُ والسلطان والعز وثَمَلُ المشاعر وملاذُّ الروح والفُتُوّة والجمال والحبّ إلا أعراضاً زائلة وأوهاماً خادعة ، والإنسان وإن طَمِع فيها لم تكن إلا طَيْفاً باطلاً ، وإذ إن كل شىء فى الكون يتحول بلا انقطاع ، وإذ إن كل شىء فى الكون يَهْلِك ويَتَجَدَّد ، وإذ إن كل شىء فى الكون فى يومنا غيرُه بالأمس فهل تَجد غيرَ الأوهام التى هى وليدة الرغبة وهدفها؟ ألا نُحْسن صُنْعاً إذا ما قتلنا الرغبة فى أنفسنا وبَدَّدنا بذلك الأوهامَ فالآلام ؟

« هكذا اتَّضَحَ لِبُدَّهة نورُ الدين، المجهول سابقاً ، فيَتَّسع ، على الدوام ، بإعمال الفكر فيصدر عنه الرأى والرُّؤيا والعلمُ والفهم والذِّكْر والمعرفة .

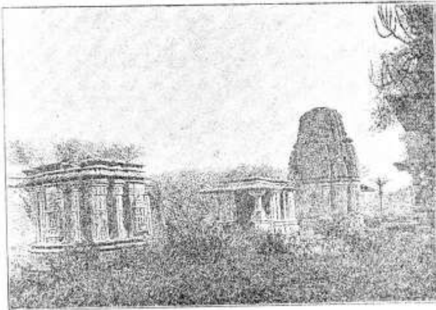
« وهكذا علمتُ ، أيها المتدينون ، ما هو الألم وما هو مداه وما هى الوسائل التى يُزال بها ، وعلمتُ ، أيضاً ، ما هو بؤس الشهوة وبؤس الحياة وبؤس الجهل وبؤس النظر وكيف تُغْلَبُ هذه الأبْؤُس وتزول فلا يبقى لها أثر ، وعلمتُ ، أيضاً ، ما هو الوهم وما هو مداه وكيف يُبَدَّد ويزول فلا يبقى له أثر » .

إذَنْ ، قام مذهب شاكْيَه مونى ، الذى أراد أن ينشره بين الناس حينما نَهَض من تحت شجرة الحكمة وعاد إلى إخوانه ، على إبطال الرغبة والتجرد من أمور

(٢٣)

الدنيا وتبديد الوهم كأملٍ عالٍ والدخول فى ملكوت نِرْوَانا حيث يغيب الشعور والفكر .

ولو اقتصر ما جاء به شاكيَه مونى على البراهين الفلسفية التى عَزَتْها القِصَّة إليه ما خرج اسمه من تحت طبقة الظُلُمات حيث يَرْقُد كثيرٌ من أجيال البشر ، فالبراهينُ الفلسفية لا تُحَرِّك الجموع ، والجموعُ يُؤَثِّر فيها صوت المشاعر وحدَه ،



٦٥ — ناجدها ، بالقرب من أوديبور ، أطلال معابد قديمة فى الآجام

فمن يُرِد أن يَنفُذَ قلوبَ الناس فليشاطِرْهم آمالهم وآلامهم وليُهِزَّ مشاعرهم ، وذلك كما أصاب أحدُ الشعراء فى قوله : « مهما بلغ ما نَعْبُدُه من الشدَّة وَجَدْنا فيه ما يقاسمنا آلامنا ، امرأةً كان أو إلهاً » .

فى ذلك ترى سِرَّ النفوذ البالغ الذى اتفق لِبُدْهَة الذى كان ابن ملك فأصبح ، كما وَدَّ ، سائلاً ليقاسمَ الجموعَ بُؤْسَها وليُعَلِّمَها كيف تتخلص منه فعَرَف كيف يحرك

أفقدتها ، وبُدَّهَة ، كمبسى ، أدرك آلام البشر وقاسمهم إياها وعلمهم قيمة المحبة والأمل ، فلم يزل سيدهم .

أجملنا حياة بُدَّهَة على حسب ما جاءت فى القصة ، وسنتكلم عن ديانته كما فهمها أتباعه وتوطدت فيما بعد ، وكما تبدو فى الكتب التى انتهت إلينا ، لا كما جاء بها لأول مرة حينما غادر شجرة الحكمة .

٣ — الديانة البُدَّهية

لم تأت البُدَّهِيَّة العالمَ بدين جديد فى الحقيقة ، بل جاءت بأدب جديد ، وليس فيها سوى عقيدة واحدة قائمة على توكيد أمر الوهم والعدم .

حقاً أن البُدَّهِيَّة لم تُكَبْكِب شيئاً ولم تكافح أمراً من الناحية العملية ، فقد أبقت على البرهمية وعلى آلهتها وطوائفها ، مع القول إن الآلهة والعفاريت والبراهمة والشودرا ليست إلا صُوَراً موقتةً متحولة بلا انقطاع إلى أن تفنى فيه تعالى بعد أن تكون بُدَّهَة ، أى أن تصير صاحبة العقل المطلق فترى بنور البصيرة سلسلة الموجودات السابقة وغاية الحياة وارتباط العلل والمعلولات ثم تدخل فى سلام نِرْوانا الأعلى الأبدى .

ذلك هو الهدف الذى تسير إليه النباتات والحيوانات والآلهة والناسُ وجميع المخلوقات الحيَّة بعد ما لا يُحْصَى له عَدٌّ من التناسخات والتقمصات .

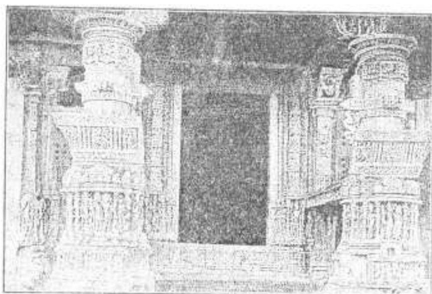
والطبيعةُ الأزلية إذ وُجدت فى كلِّ زمن وكانت جوهر كلِّ شىء ، عُدَّت عدماً لا أساس له ، وإن شئت فقل خلاء لا حدَّ له ، والخلاء هذا قد تَجَلَّى ، ذات مرة ، على صورةٍ بفعل الرغبة فصار ذا إحساس وضمير وإرادة ، أى ذا حياة ، وأخذ يتطور

تطوراً متسلسلاً ، والسببُ الأعلى بعد أن تجسّد على هذا الوجه غدا قادراً على القيام ببعض الأعمال الطيبة أو السيئة وأضحى عاجزاً عن الاهتداء ثانيةً إلى جوهره الهادئ إلاّ بثواب أعماله ، وفى الكَرْما تقديرٌ لانتقال السبب الأعلى من الأسفل إلى الأسمى نتيجةً لجميع أعماله وجميع أقواله وجميع أفكاره فى أثناء كل حياة من حيواته ، فيصل إلى درجة الإنسان ، فإلى درجة المتدين ، فإلى درجة بُودّهى سَتْوا ، فإلى درجة بُدّهة، ثم يهبط إلى الهوّة الصامتة الهادئة التى أخرجته الرغبة منها ، وترافقه الرغبةُ وما تجرّه فى موكبها من الآلام ما دام حياً ، فهدفُ البُدّهيِّ الصحيح ، إذَنْ، هو أن يُميت الرغبة فى نفسه لينال الراحة العليا .

وتأتى الأعمال الصالحة التى تسير إلى تلك الغاية بجانب ذلك الجهد الدائم المؤثر ، ولكل عمل ثمرتُه ، ومن الأعمال النيّاتُ والأقوال والأفكار .

وتجد روحَ البرهمية فى مذهب الكَرْما القائل إن أعمال كل واحد تُميّنُ الصور التى يُبعَثُ بها فيما بعد ، بَيْدَ أن الأدب فى البُدّهيّة أرق مما فى البرهمية ، فالبُدّهيّة تُعْنَى بالحياة الباطنية وبجميع الأعمال التى تُصْنَع كلَّ يوم فى ضمير الإنسان، فبُدّهة ، كما فى الإنجيل ، يَعُدُّ الإنسان قاتلاً إذا أراد سوءا بإنسان آخر ، ويَعُدُّ مجرمَ شهوةٍ كلُّ من يبتغى ثمرةً مُحرَّمةً ، ولا يقول بُدّهة إن التوبة تُكفّرُ الذنوب، فهو يرى أن التوبة ، مقصودةً كانت أو غير مقصودة ، لا تستطيع أن تمنع صدور المعلول عن العلة ولا العمل عن نتائجه ، وأ كثرُ ما يبدو الفرق الأساسيُّ بين البرهمية والبُدّهيّة هو فيما تقول به البدهية من روح المحبة القوية التى تُحْيِى هذا الأدبَ الجديد فى تواضعها وحلمها ولطفها وتسامحها العام .

ويُكْتب نجاح كبير ، لا ريب ، لإصلاح دينيّ يرفع البائسين الذين أثقل نظام الطوائف كواهلهم ، ويجعلهم من الناحية النظرية ، إن لم يكن من الناحية السياسية ، مساوين بطبيعتهم ومستقبلهم لسادتهم المتكبرين ، ويَحْمِل القولَ العَذْب والمبادئَ الرحيمة إلى مجتمع حناه حكمٌ حديديٌّ ، ويُظْهِرُ أسباب الألم في منابعه ، ويُعَلِّمُ وسائل إزالته شعباً أرخاه جوٌّ شديد وأخافه كابوسُ دينٍ صارم بما لا يَعرف الرحمة من الوسائل المفاجئة .



٦٦ — ناغدها . قسم من معبد بانكا (أقيم في القرن العاشر من الميلاد على ما يحتمل)

ذلك الإصلاح الدينيّ هو وليد احتياجات جَليَّة فظهر لقضاء هذه الاحتياجات، فلا يَبْحَثَنَّ العلماء في براهين أئمته الدقيقة وما استنبطوه من النتائج الفلسفية عن أسباب انتصار البُدَّهِيَّة وما بين أدبها ومذهبها من التناقض .

مذهبُ البُدَّهِيَّة دُوِّن مؤخراً ، ولم يستمع الشعب إليه قط ، وكلُّ ما سمعه

الشعب هو نداء الأمل والمحبة الذى رَدَّدَت سماؤُه صداه فلبَّاه بروحه من فَوْره .

ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار البُدّهِيَّة ماهو مادىٌّ أيضاً ، فقد كان يتألف من قسم الهند الشمالى المعروف بالهندوستان دولةٌ واحدة قبل الميلاد بقرنين ونصف قرن ، وكان أشوكا مَلِكَ هذه الدولة ، وكان اعتناقُ المَلِكِ لدين يكفى لازدهار هذا الدين وانتشاره .

ذلك ما اتفق للنصرانية فى الدولة الرومانية حينما انتحلها قسطنطين ، فأصاب كثيرٌ من المؤلفين فى تسمية أشوكا بقسطنطين الهند البُدّهِىّ .

وما انتهى إلينا من الوثائق الثمينة التى تركها أشوكا ، أى الكتابات المنقوشة على أعمدة وصخور فى جميع أجزاء دولته الواسعة ، يُثْبِت حَمِيَّته فى نصر تلك المبادئ الجديدة ويثبت أن ما فى هذه المبادئ من الناحية الشعبية السائغة ومن الأدب الكريم وروح المحبة أوجب اعتناق الجُهَّال والحكماء والمنبوذين والبراهمة لها على السواء .

تَجِد جذورَ الفلسفة البُدّهِيَّة فى المذاهب القديمة المعاصرة للبرهمية الأولى ، ولم يَبْدُ نموُّها إلا بعد طويل زمن ، ولم يَكُ أثرٌ فى بدء الأمر للكنيسة البُدّهِيَّة وما اشتملت عليه بعد حين من المحافل الدينية ومبدأ الاعتراف وذخائر الأولياء وبُدَّهَة المؤلَّه ، ولم تك أسطورة بُدَّهَة آنئذٍ شائعةً ، وما كاد أشوكا يذكر اسم ذلك المصلح الكبير إلاّ مرةً أو مرتين ، والثورة الوحيدة التى قد يَرْجِع تاريخ حدوثها إلى عهد هذا الملك ، أى الثورةُ الأساسية التى أعان على وقوعها بما أُوتِى من قوة ، هى تطور الأخلاق والوجهُ الجديد الذى بَدَت به واجبات بعض الناس نحو بعض وزعزعة

النِّير البرهميّ الثقيل وبزوغُ دور المحبة العميقة والحِلْم الذى جدَّد العالَمَ الآسيويّ الهَرِم من الأساس.

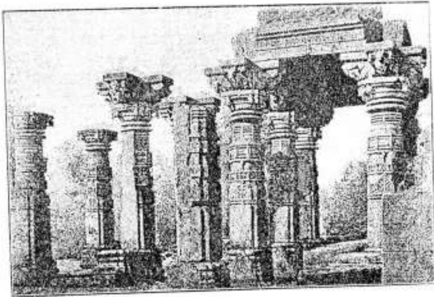
وأضحت البُدَّهيةّ بالتدريج ديناً مُنَظَّماً ثابت الأساس ذا آلهة وشعائر وعبادات وفلسفة، ومن سوء حظ انتصار البُدَّهِيَّة النهائى أن عَطِلَت من آلهة فتركت الميدان للآلهة البرهمية كى تَعْبُدَها الجماهير وإن لم تُوص بها، ومن العبث أن وَضَعَت البُدَّهِيَّةُ الآلهةَ دون الوَلِيّ أو دون الرجل الذى يَصِل إلى درجة بُدَّهَة، فنشأ عن ذلك أن هَصَرَت الآلهةُ البُدَّهِيَّةَ واستغرقتها وصهرتها مع البرهمية.

بذلك نفسر السبب فى غياب البُدَّهِيَّة عن بلاد الهند إلى الأبد مع أن بلاد الهند مهدُها، والبُدَّهِيَّة هى التى قالت بديانة الهند ورَضِيَت أن تُدْغَمَ فيها، والبُدَّهِيَّة وَصَلَت إلى بقية آسية مع موكب من الآلهة البرهمية التى لاءمت الخيال وأعانت على انتصارها.

ولا يمكن دِيانةً كالبُدَّهِيَّة أن تَسْكُبَ آلهةً سيطرت على الهند أحقاباً كُثُراً أبدياً، والبُدَّهِيَّةُ هى التى أرادت وضعَ تلك الآلهة فى مرتبة ثانوية من غير أن تجىء بما يقوم مقامها.

ولم تلبث فِرَق البُدَّهِيَّة أن كَثُرَت كما كَثُرَت فرق البرهمية من قبل، وبينما كان يقوم فى معابد بُدَّهَة إله حَدَّدَته القِصَّة بالتدريج جعلته بعض الفرق حالاً عالية يصير إليها جميع المخلوقات بعد أن تستعدَّ هذه المخلوقات فى ألوف من البُعُوث التى تتمُّ فى عصور لا حدَّ لها، وهذه المخلوقات تستطيع، إذ ذاك، أن تكون عاملَ نجاة لأهل الكون الآخرين ثم تُقيم بنعيم نِرْوَانَا السَّرْمَدِيّ حيث الخاتمة السعيدة المُثْلَى.

وترى الفِرَقُ الجديدة أن بُدَّهَة شاكِيَه موني وحده لم يكن رسول الحق في العالم، فسيظهر بُدَّهَة ثانٍ وثالث حاملين أنواراً جديدة وقوًى جديدة مرشدين إلى أقصر طرق لبلوغ الكمال ، بَيْدَ أنه لا بدَّ من مرور أحقاب لا تُحْصَى بين ظهور بُدَّهة وبُدَّهَة لِما يتطلبه تكوين بُدَّهَة من زمن طويل لا يتصوره سوى الهندوس ذوى الخيال الخصب الذى لا يَقِف عند حدٍّ فلا عهد لتصوراتنا الغربية المتواضعة بمثله .



٦٧ ــ أومكارجى . أعمدة معبد سدسوهرا (القرن الثانى عشر على ما يحتمل)

والزهد أحسن وسيلة لنيل حال بُدَّهة ، ومن هنا جاء النظام الرهبانىُّ الذى لم يَعْتِمْ أن ملأ الهند بالأديار ، وأقوى طريقة يتخذها الإنسان ليكون بُدَّهة هو أن يقتل فى نفسه الرغبة التى هى عِلَّة الحياة والألم ، وهذا ما تهدى إليه الحقائق الكبرى الأربع التى هى أساس الشريعة البُدَّهِيَّة والتى تخاطب رجال الرهبان ، لا الجمهور ،

لِما يتطلبه إدراكها والعملُ بهما من التقدم فى سبيل الكمال ، جاء فى لَلِيتاَ وِشْتَار ما يأتى :

« أيها الراهب ! إليك الحقائقَ الأربعَ المُكَرَّمَة : الألم ومصدر الألم وردع الألم وسبيل ردع الألم .

« فما هو الألم ؟ الألم هو الوِلادة والهَرَم والمرض والموت وفراق الحبيب والاجتماع بالبغيض ، والألم هو أن ترغب فى شىء وألا تنال ما ترغب فيه ، والألم ، أيضاً ، هو أن ترغب فى شىء فتَجِدَّ فى طلبه فلا تناله ، والألم ، بالاختصار ، إذ كان موضوعَ الأمور الخمسة التى تتقبلها الحواس ألما فإن هذ هو الألم .

« وما هو مصدر الألم ؟ مصدر الألم هو الرغبة التى تَتَجَدَّد بلا انقطاع ، هو الذى يذهب مع هَوَى اللذة ، هو الذى يُسَرُّ هنا وهنالك .

« وما هو ردع الألم ؟ ردع الألم هو التسكين من غير أن يبقى منه شىء ، هو الرغبة التى تتجدد بلا انقطاع ، هو الذى يذهب مع هوى اللذة ويُسَرُّ هنا وهنالك ، هو الذى يَخْذُل ويُقْصَى .

« وما هو سبيل ردع الألم ؟ سبيل ردع الألم هو الصراط المقدس المؤلف من ثمانية أجزاء كالبصر الكامل المؤدِّى إلى ردع الألم .

« تلك هى الحقائق المُكَرَّمة الأربع أيها الرهبان ! » .

وهنالك سبب آخر ، غير الرغبة فى قتل الألم والوصول إلى حال بُدْهة المجيدة فإلى السكينة التامة ، أوجبَ اختيارَ كثير من المُرِيدين لحياة العزلة فى الأديار ، وهو تَجَلِّى المساواة فى الأديار فعلاً بعد أن أعلنتها البُدْهِيَّة مبدأ ، ففى الأديار يساوى

الشودرا والباريا والجاندالا البرهميّ ويأكلون معه إذا ما كانوا أعضاء محفل واحد ، وكان للنساء ، أيضاً ، أديارُهنّ حيث يَظْهَرْن غيرَ ضعيفات ولا خاضعات لِما أَمَرَ به مَنُو من الوصاية الدائمة .

وكانت الحياة شاقة فى تلك الأديار المنحوتة فى الجبال فأنشأتها الهند فى ألف سنة فنقضى العجب من طِرازها فى الزمن الحاضر ، وكان لا بدّ لمن يود العيش فيها أن يوجب على نفسه الفقرَ والطُّهْر ، وأن يَتَبتّل إلى الحياة الجديدة بهجر المرأة والمال والولد ، وكان على الراهب ألا يملك شيئاً وأن يعيش من الصدقات على ألا يطلبها وألا يأخذَ من أيدى المحسنين أكثر من أكلة ، وأن يُعَلّم الناس السلام والحق ، وأن يُنْشِىء مشافىَ وملاجئَ للفقراء والمسافرين ، وأن يَجِدَّ فى منع الحروب ويأمر بالتسامح العظيم تِجاه جميع الأديان عادًّا إياها أوْجُهاً ناقصة للحقيقة الواحدة ، وأن يربى الأولاد ويحمِلَهم على احترام الوالدَيْن مُتَمَثِّلا نصَّ الكتب البُدّهِيّة على « أن الولد لا يكافىء والديه ولو حَمَل أمّه على إحدى كَتِفَيْه وأباه على كَتِفه الأخرى مئة سنة » .

والبُدّهِيّة أتت العالمَ الآسيوىَّ الهَرِم بروح المحبة وبما لم يَعْرِفه هذا العالم من الأدب العالى ، وقولُ العالم الفاضل المتدين مكس مولر جاء مُصدِّقاً لِما قاله المُبشِّرون فورَد فيه : « دعا إلى الأخلاق الفاضلة ، قبل ظهور المسيح ، أناس اعتقدوا أن الآلهة أشباح باطلة فلم يُقيموا هيكلاً حتى للربّ غير المعروف » .

وتؤيد الجملة الأخيرة من هذا القول آراء الأوربيين الخاطئة فى البُدّهِيّة ، وسأثبت عما قليل أنك لا تجد ديانة ، كالبدهية ، ذاتَ أرباب متعددين مستنداً

فى ذلك إلى البــانى ، ومن الصحيح إشارة تلك العبارة إلى سموّ الأدب البُدّهيّ ، فلا تجد ، بالحقيقة ، ديانةً ، أنقى من البُدّهيةّ أدباً ولا أعذبَ منها قولاً ولا أكثرَ منها رُحْماً ، فبُدّهَة بحث عن الوسائل التى يُنْقِذ بها الناس من مصيرهم القاسى فلبّى الناس دعوته ، وهو ابن الملك الذى غدا سائلاً ليشاطر الجماهير بُؤسَها ويُعلّمها المحبة، فــكان من أعظم من عرّفتهم الدنيا أخذاً بمجامع القلوب ، وهو الذى اعتنق الناس دينه الحاملَ لاسمه حيث غُرِس ، وهو الذى اكتسب دينهُ الناسَ بمــا تَحَلّى به دُعاته من الحلم والمحبة وإنكار الذات ، وهو الذى ألآن دينُه الطبائع فى آسية وحوّل البرابرة السفاكين إلى رجال هادئين ، ومن هؤلاء نذكر أجْلافَ المغول الذين أقاموا أهراماً من رؤوس البشر فأصبحوا بتأثيره قوماً مُهَذّبين مُتَّقِين .

وغايةُ القول أن البُدّهيةّ تشتمل على أرق المعارف الدينية التى عرَفها العالم لو لم تَحْنِ الــكواهلَ للاستعباد أكثرَ من أىّ دين .

ومما تقدم ترى أن البُدّهيةّ تختلف عن البرهميــة بسموّ الأدب وروح التسامح والمحبة أولاً ، وبالمــكان الواسع الذى جعلته للإنسان فى الــكون فلم تُعْطِه ديانةٌ أخرى مثلَه ثانياً ، فالطبيعةُ إذ إنها تتغير بلا انقطاع وتُبْدِع صُوَراً سائرةً إلى الــكمال مؤديةً بالتدريج إلى ظهور الإنسان الذى يستطيع أن يصبح بفضله وعزمه أكبرَ من إله ، أى أن يصبح بُدّهةَ الــكائنَ الــكاملَ الذى هو الأصلُ والغاية ، والجمعُ والصفر ، والعِظَمُ والعَدَم ، ومعنى الــكون ، فإنها ، كالــكون ، سلسلةُ أحوال زائلة وشــعورٍ واهم ، والــكائنُ ذلك ، إذ إنه عظيم مُبْهَم ، فإن من عدم الصواب أن نحدِّده من ليس عنده إقدام لاهوتيى الهندوس وهُيامُهم باختراع الصور الجسيمة والأعداد الضخمة .

ولم يُبْصِر أتباع بُدْهَة ، الذين يُعَدُّون بالملايين بتعاقب القرون فكانت أكثريتهم الساحقة من الدهماء والجهلاء والفقراء والوُضَعاء ، تلك التأملاتِ الهائلةَ التي تَقْلِب دماغ الأوربيّ ، فكان هؤلاء يدخلون معابده مفتخرين بالسجود مع البراهمة المتكبرين أمام صورته المقدسة وعبادة ذخائره والاحتفال بأعياده الرائعة تكريماً لإنائه الخاصّ بالصدقات ، وكانوا لا يَعْرِفون عنه سوى المحبة العَذْبة ذاكرين ، ناعمى البال ، أن أحد أصحابه[1] سأل أحقر امرأةٍ أن تَسْقِيه فقالت ، وهي تعلم أن ابن الطائفة يُفَضِّل الموت على تناول قطرة ماء من يدها :

« مولاى ! إنني جَنْدَالِيَّة » .

فأجابها برِفْقٍ :

« لا أسأل عن أنك جَنْدَالية أو غيرُ جَنْدَالية ، وإنما أقول إنني ظمآن ، فأطلب منك أن تَسْقِيني » .

ذلك أمر بسيط في الظاهر ، ولكنه معجزة المحبة عند الهندوسيّ وآيةٌ بَعْث لدى جموع من الخلائق البشرية .

تلك هي البُدْهِيَّة ، وليس بضائرها أن تَغْرَق فلسفتها بعد زمن في بحر من المجردات القريبة من الهَوَس وأن تَغْرَق عباداتها في طقوس البرهمية ورموزها ما كانت دِيانة محسنةً مصلحة قوية مؤثرة تأثيراً لا يَعْدِله شيء في تاريخ الإنسان .

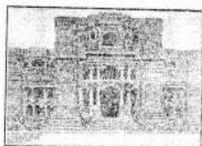
---

(١) ربما قصد المؤلف أن بدهة نفسه ، لا أحد أصحابه ، هو الذي سأل تلك المرأة أن تسقيه ، كما تدل عليه مقارنة المؤلف في أوائل الفصل بين بدهة والمسيح ، وإلا وجب أن يكون الحادث قد تكرر ، وهذا ما نستبعده ما دام عزو طلب السقي إلى بدهة أكثر ملاءمة لسياق الموضوع من عزوه إلى صاحب له (المترجم)

٤ — البُدّهِيّة كما جاءت فى المبانى

استحوذ على الناس بأوربة عَجَبٌ عظيم حينما عَلِموا أمر البُدّهِيّة من كتبها الفلسفية التى وُضِعَت بعد ظهورها بستة قرون فتُرْجِمت منذ سنوات قليلة إلى اللغات الأوربية فرَأَوْا أن أتباعها البالغ عددهم خمسمئة مليون نفس لا يعرفون إلهاً عادّين العالمَ وهماً باطلاً لا يقابلُ آمالَ الناس إلاَّ بالعَدَم .

ومن الطبيعىّ أن كنتُ لا أعرفُ عن البُدّهِيّة ، قبل زيارتى للهند ، غير ما ورد فى الكتب التى أشرت إليها آنفاً فأتكلَّم عنها فى فصل آخر ، وكنت أشكّ ، مع ذلك ، فى إمكان اعتناق الملايين من شِبْاه البرابرة لإلحادات فلسفية فاترة ، فكان يلوح لى أن مما



٦٨ — بندرابن . معبد غوبندو (القرن السادس عشر) (يبلغ ارتفاع المقدم ١٤ متراً)

يناقض سُنن التاريخ أن تظهر ديانة قائمة على مبادىء كتلك المبادىء بَغْتَةً فى العالم وأن تَغيب هذه الديانة عن البلد الذى ظهرت فيه فَوْرَ قيامها تقريباً ، فكنتُ أرجو أن تؤدى دراستى للمبانى البُدّهِيّة ، التى أهْمَل أمرها مَنْ بحث من علماء أوربة فى الدّيانة البُدّهِيّة ، إلى إلقاء ضياء جديد على تاريخ هذه الدّيانة ، فلم يَخِب رجائى ، فثبت لى من النظر فى النقوش التى تستروجه المبانى القديمة فى الهند أن الدّيانة البُدّهِيّة التى مارسها الهندوس فى ألف سنة تختلف عن الذى نتعلمه من الوثائق المكتوبة .

وفى المبانى ، لا فى الكتب ، يجب دراسة تاريخ البُدّهية ، فما تُخبرنا به المبانى غيرُ ما نجده فى الكتب الأوربية ، فهذه المبانى تثبت أن البُدهية التى أراد العلماء المعاصرون أن يجعلوا منهـا دِيانةَ إلحادٍ هى أكثر الدّيانات قولاً بتعدد الأرباب .

أجل ، إن المُصْلح الأكبر بُدهةَ لم يظهر فى المبانى البُدهية الأولى التى أقيمت منذ نحو ألفى سنة ، كسياجات بَهَارَت وسانجى و بُدهة غيا وغيرها ، إلاّ رَمْزاً ، فكانت تُعْبَد آثار قدميه وصورة الشجرة التى بلغ تحتها درجةَ الحِكْمَةَ العليـا ، غير أنه لم يَتِمّ أن أصبح إلهاً ماثلاً فى جميع المعابد ، وقد بدا وحيـداً فى أول الأمر كما يُرَى فى أقدم معابد أجنتا ، ثم اختلط بالتدريج بالآلهة البرهميـة : إندرا وكالى وسَرَسْوَتِى الخ . كما يُرَى فى معـابد إيلورا ، ثم غَرِق بين ما كان يهيمن عليه من الآلهة الكثيرة فعاد بعـد بضعة قرون لا يُعَدّ إلاّ جسداً لوِشنو ، فهنالك أفَلَت البُدهية عن الهند .

وتَطلّب حدوثُ ذلك الأفول أو التحول الذى أشرنا إليه فى بضعة أسطر مدةَ ألف سنة ، وأُنشِئَت المبانى الكثيرة التى تنطق بتاريخه بين القرن الثالث قبل المسيح والقرن السابع بعده ، وظل بُدهة يُعْبَد فى أثناء هذا الدور الطويل كإله قادر على كل شىء ، وفى الأساطير تصويرٌ له وهو يَمْنَحُ أتباعه النِّعَم ، وفى رحلة العالِم البُدهىّ الحاج هيوين سانغ الصينىّ الذى زار الهنـد فى القرن السابع خبرٌ بأن بُدهة ظهر أمامه فى غار مقدس بما اتفق له من اتصال طويل فى الهند .

فالأساطير والمبانى صريحةٌ إذَنْ ، فلو استند البحث فى البُدهية إليها لبَـدت على غير الصورة التى صُوِّرَت بها فى الزمن الحاضر ، ومن المؤسف أن أهمل علماء

أوربة دِراسةَ مبانى الهند حتى الآن فلم يزوروا الهند فاقتصرت دِراستهم للبُدَّهِيةِّ على الـكتب ، ومن المؤسف أن عَوَّلوا على كتب المذاهب الفلسفية التى وُضِعَتْ بعد وفاة بُدهة بخمسئة سنة فـكانت بعيدة من الدِّيانة الحقيقية .

على أنه لا جديد فى التأملات الفلسفية البُدَّهِيَّة التى أثارت عَجَب الأوربيين كثيراً ، فقد وُجِدَت ، منذ عُرِفَت كتب الهند بأحسن مما فى الماضى ، فى كتب المذاهب الفلسفية التى ازدهرت فى العصر البرهمىّ ، فى كتب الحـكمة التى عُرِفَت بأوپانِشَاد التى وُضِعَتْ فى مختلف الأدوار فوُجِد منها نحوُ مئتين وخمسين ترى الزندقة وازدراء الوجود والأدبَ المستقلَّ عن المعتقدات الدينية والمبدأ القائل إن العالم باطل الخ . وترى فى بعض تلك الـكتب ماقى الـكتب البُدَّهِيةّ الفلسفيةمن المذاهب ، وكان واضعوها من العاملين بمذهب الـكَرْما الذى هو أساس البُدَّهِيةّ وأساسُ جميع فِرَق الهندالدينية وأساسُ شريعةمَنُو فيقول : إن الناس مَجْزِيُّون بأعمالهم فى البُعُوث القادمة ، وإن غاية هذه البُعُوث هى الفناء فى أصل الأشياء العام ، فى برهما الذى حَـكى عنه مَنُو فيَقْرُبُ من نِرْوَانَا عند البُدَّهِيِّين ، فالروحُ تنجو ، إذ ذاك فقط ، من البعوث .

والإنسان ، لـكى ينتهى إلى ذلك الفناءالنهائىّ ، يجب عليه ، كما يقول البُدَّهِيُّون والبراهمة ، أن يَقْمَع الرغبة وأن يَزْهَد فى متاع الدنيا وأن يعيش عَيْشَ النُّسَّاك المتأملين .

فمن ثَمَّ ترى أن نظريات العصر البُدهىّ الفلسفيـــــةَ مطابقةٌ لنظريات العصر البرهمى الذى جاء قبله ، وهى قد نَمَت مُوَازِيةً للدين الذى يُعلِّمه الـكُهَّان ويمارسه الجمهور وإن اختلفت عنه أشدّ الاختلاف ، فعَدُّها كالبُدهية نفسها من الخطأ العظيم

كخلط نظريات الأوبانيشاد بالبرهمية ، والبُدهيةُ إذ لم تُعرَف في أوربة إلا بتأملات بعض أتباعها الفلسفية عُدّت هذه التأملاتُ البُدهيةَ نفسَها .

ومن السهل أن ندرك أن ديناً يبلغ عدد أتباعه خمسمئة مليون لا يقوم على المبادىء الفلسفية القاترة ، ويُعذَر بعض العلماء إذا أخطأوا فقالوا غير ذلك ما أفنَوا أعمارهم في دِراسة الكتب ، لا دراسة الرجال ، وإذا ما مرّتْ ثلاثة آلاف سنة وتبدّل مركز الحضارة ونُسِيَت كتبنا ولغاتنا كان من المحتمل ، حينئذ ، أن يكتشف بعضُ الأساتذة اللغةَ الإنكليزية فيترجموا أول ما يَعثُرون عليه من الكتب ، ككتاب الأصول الأولى لسپنسر وكتاب أصل الأنواع لداروين ، فيدّعوا أنها خلاصة المذاهب التي كانت تمارسها الأمم النصرانية في القرن التاسع عشر من الميلاد .



٦٩ ــ بندراين . معبد مدن موهن (أنشىء في القرن السابع عشر) (يبلغ ارتفاع البرج ٢١ متراً و ٤٠ سنتيمتراً)

وعلى الباحث ألاّ يُجْهِد نفسه في البحث عن هندوس ليفترض أنهم استطاعوا ممارسة دين بلا آلهة ، فكيف تجد هندوسياً لا يعبد آلهة والعالمُ عنده زاخرٌ بها ؟ فالهندوسيُّ ، بالحقيقة ، يُصَلّي للنَّمِر الذي يفترس أنعامه ، وللجسرِ الخط الحديديّ الذي يصنعه الأوربيُّ ، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء .

حقّاً ، قد يحفظ الهندوسيّ على ظهر القلب كتاباً من كتب بُدْهِيِّي الجنوب ، كالذي أُلِّف حديثاً تحت إشراف لجنةٍ من الأوربيين ، يُعَلِّمه أنه لا خالقَ للعالم وأن كلّ

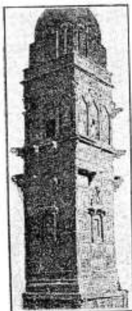
ما فيه وَهْمٌ ، ولكن هذا لا يمنعه من أن يَشْعُر باحتياجه إلى عبادة بُدَّهة الأعظم وجميع مَجْمَع الآلهة الذى يَمْلكه بُدهة هذا ، وحقًّا يشتمل كتاب « لَلِيتَا وِسْتَار » ، الذى هو أقدم الكتب البُدَّهِيَّة والذى يرجع إلى نحو ألف وثمانيمئة سنة ، أى إلى زمن حَلَّ بعدظهور بُدَّهة بنحو ستمئة سنة ، على مباحث فى الأوهام و بُطْلان أمور هذا العالم ، ولكن من ذا الذى عَلَّمه بُدهة هذا ؟ عَلَّمَ أولًا ، الآلهةَ الكثيرة التى تَجد لها ذكراً فى كل صفحة من ذلك الكتاب والتى حَضَرَت ولادته وعلى رأسها الإله برهما فألَّهَته فأخذت ترافقه فعبَدَته فى نهاية الأمر .

أجَلْ ، إن ذلك الكتاب محشوٌّ بالمتناقضات ، غير أن هذه المتناقضات لم تكن لتَبْدُوَ للهندوسىِّ ، فَفِكْرُ الهندوسىِّ قد صُهِر فى قالَب غيرِ الذى صُهِرَت فيه أفكارنا .

لا عهد للهندوسىِّ بالمنطق الأوربى ، ولا تجد كتاباً من كتبه ، التى تَتَرَجَّح بين ديوانى رامايَنا ومهابهارتا الحماسيين من جهة والكتب الفلسفية التى أشرنا إليها آنفاً من جهة أخرى ، غيرَ زاخر بالمتناقضات ، فالمنطقُ ، وإن وُجِد فى هذه الكتب ، ليس سوى منطق لَسِنٍ يُفْرِط ، أحياناً ، فى استخراج النتائج إفراطاً لا يعبأ معه بالمتناقضات .

إذَنْ ، يجب على من يريد أن يعلم أمر البُدَّهِيَّة ألا يَغْفُل عما لا غُنْيَةَ لديانات الهند عنه من الآلهة ، وذلك عند النظر إلى التأملات الفلسفية التى تَنَضَّدَت فوق البُدَّهِيَّة ، فلم يحاول بُدَّهة ، خلافاً للخطأ الشائع ، أن يُزَعْزِع الآلهة البرهمية ، كما أنه لم يحاول أن يَمَسَّ نظام الطوائف ، فلم يكن أىُّ مصلحٍ من القوة ما يستطيع أن يَدُكَّ به ركن نظام الهند الاجتماعىِّ ذلك .

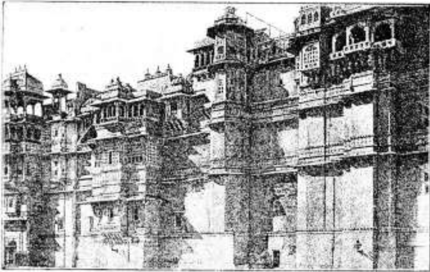
وما تقدم يدلُّ بسهولةٍ على أن البُدّهِيَّة لم تكن غيرَ تطور بسيط للبرهمية ، وذلك لمحافظتها على جميع آلهتها ولأنها لم تُغيِّر سوى أدبها ، ومما لا ريب فيه أن البُدّهيَّة اختلفت عن البرهمية قليلاً بعد مرور عدة قرون ، ومن المشكوك فيه أن تكون قدعُدّت ديناً جديداً في البداءة ، ولا شيء يدلُّ على أن أشوكا اعتنق ديناً جديداً ، ولا تكاد تجد غيرَ ذكرٍ أو ذكرين لبُدّهَة في مراسيم هذا الملك التي ملأ الهند بها فانتهى إلينا عددٌ كبير منها ، ففي هذه المراسيم أوصى بالتسامح تجاه جميع المذاهب الدينية التي كانت البُدّهِيَّة واحدةً منها والتي بدَت جديرة بالتكريم لما اشتملت عليه من روح مؤسسها ، ابن الملك الشهير ، المملوءة محبة .



٧٠ — متراً ، برج ساتي بوري
(القرن السادس عشر)
(يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً)

وسنثبت ، بعد قليل ، أن البُدّهية غابت عن الهند بسبب اندماجها في البرهمية القديمة مقداراً فمقداراً ، وفي خارج الهند من البلاد ، كبرمانية وكمبوج ، التي استقرت البُدّهِيَّة بها ، رافقتها الآلهة البرهمية ، ولكن هذه الآلهة إذ كانت مما لم تعرفه تلك البلاد العاطلة من البراهمة ذوى المآرب في تفوّقها حافظ بُدّهة فيها على ما خسِره في الهند من النفوذ البالغ ، ومن الجدَل الكبير ما دار حول مباني أنغكور الشهيرة ليُعرَف هل هي بُدّهِيَّةٌ أو برهمية لاختلاط ما يشاهَد فيها من الرموز البُدّهيَّة والشّيوية ، وما كانت هذه المجادلات لتحدث لو درس العلماء مباني الهند ، ولا سيما مباني نيبال ، قبل أن يُنعِموا النظر في مباني كمبوج فنها ، كانوا يتبيّنون اختلاطَ المذهبين كما أنهم كانوا يتبيّنونه في البلد المجاور برمانية ، فما

اطلع عليه الموظف الإنكليزيُّ السابق فى برمانية مستر ويلر أن البرمانَ ، الذين هم بُدَّهِيُّون كما هو معلوم ، يَعْبُدُون ، أيضاً ، الآلهـةَ الويدية ولا سيما إندرا وبرهما وأن بَلاط مَلِك برمانية يحتوى على براهمة ، وممـا اطلع عليه ذلك الموظف الإنكليزيّ ، أيضاً ، أن خانات المغول بآسية يعبدون الآلهة الويدية فى جوار جبل آلتائى .



٧١ ـ أودبور . قصر مهارانا (القرن السابع عشر) (دقائق الجبهة المشرفة على الساحة الكبرى)

ونرى مما عرضناه أنه لا أثر للهُوَّةِ العميقة التى افْتُرِض وجودها بين البدَّهية والبرهميـة افتراضاً نشأ عن اطلاع العلماء على البُدَّهِيَّة من قراءة الكتب ، وما بَيَّنَه هؤلاء العلماء من رأى هو الذى حال دون تَبَيُّن ما بينهما من ارتباط ، ومما حدث أن البَحَّاثة الأوربيّ هوغسن الذى عاش فى الهند أشار إلى بعض الصور الشِّيُوية التى تشاهَد فى معابد الهند البُدَّهية فأجهـد نفسه فى تفسير سبب وجودها فيها فقال إنه لا يوافق ثانيةً على امتزاج تينك الديانتين اللتين تنفصل إحداهما عن الأخرى انفصال

السماء عن الأرض ، وهوغسنُ هذا كان مقيماً إنكليزياً بنيبال ، وما كان عليه إلا أن يُحَدِّق إلى ما حوله ليَرَى درجة اختلاط الآلهة البُدْهية بالآلهة البرهمية فى معابد ذلك البلد ، بيد أن العلماء بلغوا فى ذلك الحين من اعتقاد اختلاف تينك الديانتين مبلغاً لا يَرَون معه وجود شىء مشترك بينهما .

ويزيد هذا المثل ، الناطقُ بوجود رأى مُبَيَّت حاجبٍ للحقيقة ، غرابةً عند النظر إلى الرسالة الإنكليزية التى عنوانها « بحثٌ فى الشَّبَه بين كثير من الرموز البُدْهية والشِّيوية » ، فذكر كاتبها ، مُتَعَجِّباً ، أن كثيراً من كُتَّاب الهند أنفسهم يَخْلِطون ما فى المعابد القديمة من الصُّوَر البرهمية بالصور البُدْهية مستنداً فى ذلك إلى كثير من الأمثلة[1] ، مع أن عَجَب ذلك الكاتب الإنكليزىّ كان يزول لو أوضح بمثل ما أوضحنا به سبب امتزاج البُدهية بالبرهمية .

٥ — توارى البُدهية عن الهند

لا يجهل أحد أن البُدهية التى يَدِين بها اليوم خمسمئة مليون من الآدميين ، أى ثلثُ البشر ، توارت تقريباً عن الهند حوالَى القرنين السابع والثامن من الميلاد بعد أن كانت الهند مهداً لها فانتشرت فى بقية آسية فعَمَّرت الصين و بلاد التتر الروسية

(١) تتجلى أوجه الشبه بين صور الديانتين ورموزهما فى أحوال كثيرة جداً ، ومن ذلك المثال الذى يتجلى للقارئ فى الصورة التى نشرتها فى هذا الكتاب لتمثال صنع فى القرن السادس من الميلاد ونصب فى بادامى مشخصاً وشنو وهو واقف على الأفعى أننانا ، فهذا التمثال مماثل لصورة بدهة البارزة الموجودة فى أمراوتى والتى صنعت فى القرن الخامس أو القرن السادس من الميلاد مشخصة إياه وهو قائم على أفعى أيضاً ، وفى غيا زرت معبداً برهميا معروفاً بوشنوبد (معبد قدم وشنو) حيث يعبد القوم ما يزعمون أنه أثر قدم وشنو كما يعبد البدهيون أثر قدم بدهة ، فأمر مثل هذا يدل على اختلاف الأسماء لشىء نفسه ، وهو ما تعد أمثاله بالألوف فى الهند .

و برمانية الخ . وهى إذا كُتِب لها بقاء فى الهند فليكون ذلك فى أقصى حَدَّيْها فقط، أى فى نيبال شمالاً وفى سيلان جنوباً .

وترى كتبَ الهندوس صامتةً صمتاً تاماً عن توارى البُدّهية عن الهند ، وعُزِى ذلك حتى الآن إلى ما افترض حدوثه من الاضطهادات الشديدة ، و إذا سَلّمْنا جَدَلاً بأنه يمكن التوفيق بين مبدأ تسامح الهندوس ومبدأ الاضطهادات الدينية و بأن الاضطهادات تُقَوّض دعائم الدين بدلاً من تسهيل انتشاره خلافاً لما تؤكد حوادثُ التاريخ أمرَه وما إلى هذا من الافتراضات التى لا تُصَدَّق وجدنا أنفسنا تجاه المُعْضِلة الآتية وهى : لماذا عزم فَجْأَةً أمراء الهند ، التى كانت مقسومةً إلى مئة إمارة صغيرة، على الكفر بدين مارسه أجدادهم عِدّة قرون وحملوا رعاياهم على اعتناق دين آخر ؟

أخذتُ أُبْصِر سبب تحول البُدّهية فَوْرَ بحثى فى مبانى الهند ، ثم اتضح لى ذلك السبب حين زيارتى لنيبال ، فعلمتُ ، إذ ذاك ، درجةَ الأغاليط فى الأسباب التى ذُكِرَت إلى يومنا لتفسير ذلك ، و بيانُ الأمر أننى درست أكثر مبانى الهند المهمة بإنعام نَظَرٍ فانتهيتُ إلى النتيجة القائلة إن البُدّهية غابت عن الهند لأنها صُهِرَت بالتدريج فى الديانة التى خَرَجت منها .

والحقُّ أن ذلك التطور تمَّ ببطوء ، ولكن الذى جعل الباحثين يَرَوْن وقوعه بغتةً هو عَطَلُ الهند من تاريخ ، ومن ثَمَّ وجودُ فواصل خمسة قرون أو ستة قرون يَتَعَذَّر معها وَصْل ما بين تحولاتها ، فتراهم إزاء ذلك فى حال كحال علماء الأرض السابقين الذين كانوا يَرَوْن تحولاتِ طبقات الأرض وسكانها العظيمة ، لا ما بينها من الأدوار المتوسطة ، فيَعْزُون ذلك إلى الانقلابات المنيفة ، ثم تَقَدَّم العلم فأثبت لهم أن هذه الانقلابات وليدةُ تطورات غيرِ محسوسة .

تُخْبِرنا دِراسة ما في مباني الهند من النقوش البارزة والتماثيل بتاريخ تطور البُدهية، وتوضحُ لنا كيف أن مؤسس هذه الديانة الذى استخفَّ بجميع الآلهة أصبح إلهاً ، وكيف أنه أخذ يظهر في جميع المعابد بعد أن كنتَ لا ترى له صورة في واحد منها ، وكيف اختلط بالآلهة البرهمية القديمة مقداراً فمقداراً ، وكيف أنه تَحَوّل إلى إله تابع، وكيف أن تلك الآلهة دَحَرَته في نهاية الأمر .

وكان لا بدّ لى من الرجوع إلى القرن السابع من الميلاد أو اكتشاف بلدٍ يَتَجَلّى فيه الطور الذى كانت عليه الهند في القرن السابع المذكور لإثبات نظريتى في ذلك التحول وفى توارى البُدهية عن الهند ، فوجدتُ أحد مُهُود البُدهية نيبالَ البلدَ الذى قاومت البُدهية فيه عواملَ التطور التى هَدَّدَتهُ في كلّ مكان حين صاقبت البُدهيةُ البرهميةَ القديمة ، فتجلى فيه الطور الذى اختلطت فيه البُدهية بالبرهمية من غير أن تَذُوب فيها ، وفى معابد نيبال بلغت الآلهة الهندوسية والآلهة البُدهيـة من الاختلاط ما يتعذر معه ، في الغالب ، تَبَيُّن الدين الذى يقول بها ، وهذا ما عرفه علماء الإنكليز الذين دَرَسوا شؤون نيبال من غير أن يستطيعوا تفسيره ، وما رُئِيَ أنه من الألغاز عند عدم تفسيره بدراسة مبانى الهند القـديمة ظهر لى أنه ليس من الألغاز عند إنعام النظر فيها ، فقد ثَبَت لدىّ أن اختلاط تلك الآلهة في الهند حَدَثَ في كلّ مكان من الهند في زمانٍ ما ، وزال عنى العَجَب من عَزْو علماء الهنـدوس قديمَ المعابد إلى إحدى الدّيانتين تارةً وإلى الدّيانة الثانية تارةً أخرى .

ويمثل ذلك نفسر مايبدو غريباً في الظاهر ، وهو أمر إقامة معابد بُدهية وجَيْنِيَّة وبرهمية بعضها بجانب بعض في أدوار واحدة ، فإذا رَجَعْنا البصرَ إلى الطور الذى يوشك أن تمازج فيه دِيانتان سَهُل علينا أن نَتَمَثَّل مَلِكاً يُوَزِّع الهِبات ، غيرَ

مُحَاب ، بين معابدها كما كان يُوَزِّعُها أحد الملوك فى القرون الوسطى بين كنائس مختلف القدِّيسين .

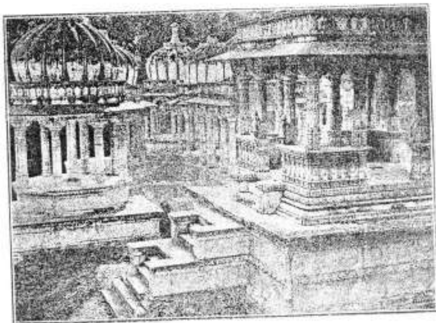
ولم يَنتَه إلينا سوى ما قصّه الحاجُّ الصينىُّ هيو ين سانغ الذى زار الهند فى ذلك الدور فَرَوَى أن مَلِكاً هندوسياً وَزَّعَ العطايا بين البُدهيين فى اليوم الأول من عيدٍ ووَزَّعها بين البرهمية فى اليوم الثانى منه ، فذلك الدور الذى كانت فيه تانك الدِّيانتان مُتَوَائِمَتَيْن هو الدور الذى سَبَق انصهارَهما فى دِيانة واحدة ، ومن السهل أن نَتَبَيَّن الصورةَ التى تَمَّ فيها هذا الإدغام من البحث فى الدِّيانة السائدة لنيبال فى الوقت الحاضر .

تاريخُ دخول البُدهية نيبالَ قديمٌ جداً ، والقصةُ تقول إن بُدهة نفسَه جاءه ، والأمر مهما يكن فإن أقدم المخطوطات البُدهية وُجِدَت فى أديار نيبال القديمة ، وفى القصة أن أشوكا الذى كان مَلِكَ مَغَدْها فى القرن الثالث قبل الميلاد حَجَّ نيبالَ ليزور معبد شَمْ بْهُونَاتْه ومعبدَ يَشُو بَتى الخ . وفى القِصَّة ، أيضاً ، أن الملك أشوكا هذا هو مؤسس مدينـة پَتَن التى تُعْرَف باسمها النيوارى لَلِيتا پَتَن فيُفْتَرَض أن أصل هذا الاسم مُحَرَّف من پتلى پُتْرا التى كانت عاصمة أشوكا فى الهنـد ، وغيرُ قليلةٍ المعابدُ المخروطة الشكل التى عُزِيَت إليه منذ القديم .

غدا نيبالُ ، إذَنْ ، مهداً من مُهُود البُدهية ، ولا تَزال هذه الدِّيانة سائدة له منذ ألفى سنة ، و إذا حالت عزلةُ نيبال دون أفول البُدهية عنه ، كما أفَلَت فى بقية بلاد الهند ، فإنها لم تَحُل دون تَحَوُّلها فيه تحولاً مشابهاً للذى غابت به عن بلاد الهند تبعاً للمبدأ القائل إن العللَ نفسَها تُسْفِر عن النتائج نفسِها ، ونيبالُ لِما كان عليـه من الأحوال الخاصـة أخذت البُدهية تغيب عنه ببطوء ، ولهـذا البطوء

نستطيع أن نتصور ماذا كانت عليه البُـدهية فى الهند فى القرنين السابع والثامن من الميلاد مع توارى النظم الرَّهْبَانِيَّة القديمة عنه ومع عودة الـكَهَنُوتِيَّة فيـه إلى النظام الإرثى ومع رجوع الآلهة القديمة فيه إلى سلطانها السابق .

اليومَ تبدو البُـدهية والبرهمية فى نيبال ديانتين مختلفتين اسماً كما بَدَتا فى الهند



٧٢ – أوديبور . المقبرة الملكية

فى القرن السابع من الميلاد ، واليومَ تبدو تانك الدِّيانتان فى نيبـال متسامحتين كتسامحهما الذى رأينا وجوده فى بقية بلاد الهندقُبَيْل أفول البُدهية عنها للأسباب المعروضة آنفاً ، و بلغ هذا التسامح الذى يُفَسَّر بتشابه تينك الدِّيانتين من القوة ما كان به لأتباعهما معابدُ وآلهةٌ وأعياد مشتركة كما سنرى ذلك .

تفرِض البُدهية ، فى نيبال ، على أتباعها عبادةَ ثالوثٍ عالٍ ، بدلاً من أن

تسير مع المذاهب البُدهية الفلسفية فترى العالَمَ مؤلفاً من هَيُولَى أزليـةٍ قادرة على التكوين ، وتُعَـدُّ هذه الهَيُولَى آلهةَ التكوين الوحيدة ، ويشتمل ذلك الثالوث على مُمَثِّل الروح آدِى بُودَّهة الذى هو الأصلُ وعلى ممثل المادة دَهرما وعلى ممثل المرئيات سنغها الذى هو نتيجة اتحاد الروح والمادة ، ورمزُ هذا الثالوث ، الذى يشابه الثالوثَ البرهمىَّ المؤلفَ من برهما ووِشنو وشِيوا ، هو مُثَلَّث ذو نقطة فى مركزه ، وهـذا المركز هو رمز آدى بُودَّهة الذى عُدَّ العلةَ الأولى فى آخر الأمر .

وتجىء تحت ذلك الثالوث الأعلى الآلهة البرهمية القديمة : وِشنو وشِيوا وغَنيشا ولَكَشْمى وغيرُه من الآلهة التى بَرَأها الكائن الأعلى لتسيطر على العالم ، وعلى ما تراه من هبوط هذه الآلهة من المرتبة التى قالت بها الدِّيانة البرهمية ظلت من رفعة المقام ما بَدَت به أهلاً ليعبُدَها البشر بأسْره .

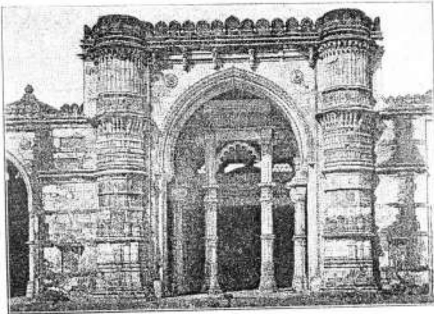
ولا تختلف مبادئُ بُدهيِّ نيبال فى الروح البشرية عن المبادئ البرهمية القديمة بصورة محسوسة ، وعُدَّت هـذه الروح ، كأرواح جميع الحيوانات ، صادرةً عن العلة الأولى آدى بُودَّهة راجعةً إليه بعد عِدَّة تناسخات ، والرجوعُ إلى العلة الأولى بعد هذه التناسخات ، أى الفناء فى آدى بُودَّهة ، هو الهدف الأسمى الذى يُؤْجَر به المؤمنون ، ويتوقف عدد هذه التناسخات وطبيعة هذه التناسخات على سلوك الإنسان فى حياته، وتُمَيِّن أعمالُه مصيرَه .

وعُدَّ مؤسس البُدهيـة نفسُه ، كإخوانه الذين افْتُرِض ظهورهم قبله حاملين لاسم بُدَّهة ، وَلِيًّا صَفَت جِبِلَّته بحَيَوات سابقة فأوشك أن يَصِل إلى الفناء الأسمى .

وأُنْشِىء أكثر معابد نيبال أهمية ، ولا سيما معبد سَمْ بُهُوناتهة ، تقديساً لآدى بُودَّهة ، ومُثِّل الثالوث البُدهىُّ (بدهـة ودَهرما وسِنْغها) فى تماثيلَ جالسة على

زهرة سدر، وفي هذه التماثيل بَدَا بُدْهَة ذا ذراعين و بدا مِنْقَهَا ودهرما ذَوَىْ أربع أذرع ، ومن ذلك الثالوث بَدَتْ دَهرما وحدها ، إلأهة المادة ، على شكل امرأة .

ويجيء بعد الثالوث البُدّهي ، كموضوعات للعبادة ، صُوَرُ مؤسس البُدّهِيَّة وأسلافه من الآلهة والبشر ، ثم تجيء آلهة الهندوس : مَهَانْكالُ مثالُ شيوا ، وكالى زوجــةُ شيوا ، و إندرا مَلِكُ السماء ، وغرودا الإله ذو الرأس العُصْفُورِيّ ، وغَنيشا الإلهُ ذو الرأس الفِيلِيّ ، وآلهة الحكمة ، الخ . وهــذا الإله الأخير هو من أعظم الآلهة احتراماً وتجد صورته في مداخل جميع المعابد ، و بعبادة هذا الإله البرهميّ الخالص يُباشَر جميع الشعائر البُدّهِيَّة .



٧٣ ـ أحمد آباد . مقدم المسجد الكبير (القرن الخامس عشر) (ارتفاع الجبهة : ١٣ متراً و ٥٠ سنتيمتراً) (أنشئت مباني أحمد آباد المهمة المرسومة في هذه الصورة وفي الصورة الآتية في العصر الإسلامي على الطراز الهندي المعروف بالجيني ، وهي لا تختلف عنه إلا بما أضيف إليها من الأقواس والدقائق الثانوية وخلوها من التماثيل)

وانتحل بُدَّهِيُّو نيبال الرمزَ الهندوسيَّ مع تحريف مدلوله ، فهم قدعَدُّوه الرمزَ السِّدْرِيَّ الذى تجلى به آدى بُودَّهة على صورة لهيب بدلًا من عَدِّه رمزاً إلى قدرة شِيوا على الإبداع .

وقد بُدِّل شكلاً مع ذلك ، فنُقِشَت أربعة وجوه لِبُدَّهَة على جوانبه ، كما عَلَتْه زخارف بُدَّهِيَّة .

ومما قلناه ترى درجة اختلاط بُدَّهِيَّة نيبال بالبرهمية ، ولهذه البُدَّهِيَّة أثر فى البرهمية كذلك ، فيُمَثَّل بُدَّهَة فى المعابد التى أُنْشِئت تمجيداً لِشِيوا ، ويَقْصِد أتباع كلتا الديانتين كثيراً من المعابد ذوات الآلهة المشتركة .

وما تشاهده من امتزاج تَيْنِك الدِّيانتين فى المعابد تجِد مثله فى الأساطير التى تَكْثُر فى نيبال ، وتجِد مثل هذا الامتزاج فى الأعياد الدينية التى يتعذر تمييز البُدَّهِيِّ من البرهميِّ فيها ، ويزور الحجيج معابد تينك الدِّيانتين ، على السواء ، زيارةَ المؤمن المطمئن .

تلك هى حال البُدَّهِيَّة فى نيبال فى الوقت الحاضر ، ويمكن الناقدَ البصير أن يُبْصر منذ الآن انصهارها فى البرهمية قبل انقضاء قرنين أو ثلاثة قرون مستنداً إلى ما ذكرناه ، وقد يعزو السائح ، الذى يجهل فى المستقبل دور التطور الذى تُجَاوِزه الآن كما جَهِل المؤرخون المعاصرون تطور البُدَّهِيَّة السابق فى الهند ، أفولَ البُدَّهِيَّة عن نيبال إلى شِدَّة الاضطهاد مستشهدين بأطلال المعابد التى تستره إذ ذاك .

بَيْد أن السائح الذى أتخيَّل ظهوره فى المستقبل إذا لم يقتصر على درس بُقْعَة واحدة من بقاع الهند فصَبَر فَجابَ جميع أرجائها نفَذَت مبادئُ التطور الدينى نفسَه فصانته عن مثل ذلك الخطأ ، فمن أجل هذا نرى أن تَقَصِّيَ الهند أفضلُ من مزاولة

كتب التاريخ بمراحل ، فالهند هى البلد الوحيد الذى يمكن الباحثَ أن يُبْصِر فيه عند انتقاله من مكان إلى آخر سلسلةَ التطور التى جاوزها البشر منذ عصور ما قبل التاريخ إلى الوقت الحاضر ، فبذلك الدرس الحىّ يطلع الباحث على التطورات السابقة التى انفقت للنُّظُم والمعتقدات فلا تَقُصّ الكتب فى الغالب إلا على أقصى وجوهها .

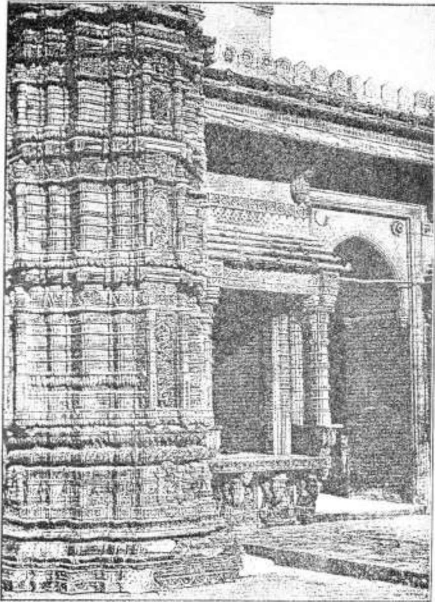
٦ — المذاهب الفلسفية فى البُدْهِيّة

نشأت مذاهبُ فلسفيةٌ مُوازِية للبُدهية مشابهةٌ للتى ظهرت فى العصر البرهمى ، وليس فى هذه المذاهب ما هو مبتكر كما ألمعنا إلى ذلك ، وبعضُ كتبها إذ تُرْجِم إلى اللغات الأوربية وظَنّ أن البُدهية نفسَها بين أضاميم ما تُرْجِم من هذه الكتب نرى من المفيد أن نُلَخّص روح تلك المذاهب تلخيصاً خاطفاً .

قامت تلك المذاهب على القول ببُطْلان ما فى السماء والأرض ، فالموجوداتُ ليست إلا مظاهرَ وحوادث صائرةً إلى الفناء ، وهى تشابه الزَّبَد الذى يعلو الماء طَرْفَةَ عَيْن .

« فلا رجال ولا نساء ولا خَلْق ولا حياة ولا نَفْس ، فلا حقيقة لهذه الأشياء ، فهى وليدة الخيال ، هى مشابهة للوهم ، مشابهةٌ للرؤيا ، مشابهةٌ لكلّ ما هو مختلَق ، مشابهةٌ لخيال القمر فى الماء » .

ولا يَعْرِف هــذا المذهبُ الفلسفىّ ، الذى لا عهد للأوربيين بمثل تَطَرّفه ، إلهاً خالصاً ولا إلهاً أقدَم من العالم ، فالطبيعة ، بحسب هــذا المذهب ، هى سلسلةٌ لا حَدّ لهـا (أولاً وآخراً) من المواليد والهَلَكات والتراكيب والانحلالات الدائمة



٧٤ ـ أحمد آباد . مسجد الملكة فى ميرزابور (القرن الخامس عشر من الميلاد) (دقائق الزخرف)
(يبلغ ارتفاع قسم المئذنة البادى على الصورة ستة أمتار و ٣٠ سنتيمتراً)

والعلل المتحولة التى هى معلولاتٌ والمعلولاتِ المتحولةِ التى هى عِللٌ والحوادثِ التى لا أولَ ولا آخر لها .

وفلاسفةُ البُدْهية ، بعد أن أنكروا مبدأ التكوين ، أنكروا مبدأ القضاء والقدر السائد لجميع الأديان اليونانية ، فلم يَرَوْا وجودَ قَدَر مسيطر على المخلوقات ، فصيرُ كلِّ مخلوق عندهم مَنُوطٌ بسَيْره ، والناموسُ الأدبيّ هو الذى يربط الحوادث بعضَها ببعض ، والأعمالُ وحدَها ، أو نتائج هذه الأعمال ، هى الخالدة ، والمخلوق يمكنه بالفضل أن يَصِل ، بعد سلسلة من الموالد ، إلى نعمة العدم فلا يبالى بالدموع ولا بالآلام فيفنى فى نِرْوانا فلا تبقى ضرورة إلى تَقَمُّصه صوراً أخرى .



٧٥ — أحمد آباد . مسجد الملكة فى سارنغ پور
(القرن الخامس عشر من الميلاد)
(يبلغ ارتفاع قسم المئذنة الظاهر فى هذه الصورة خمسة أمتار و ٦٥ سنتيمتراً)

وفى كتب الفلسفة البُدْهية سلسلةٌ من التأملات التى تُثبت بُطلانَ الأشياء ، فالبُدهىّ ، بعد أن يَعْلُوَ منطقة الصورة والصلابة والخِلْقة ينتهى بتأمله إلى منطقة اللانهاية فى الفضاء ، والبدهىُّ بعد أن يَعْلُوَ منطقة اللانهاية فى الفضاء ينتهى إلى منطقة اللانهاية فى الذكاء ، والبُدهىُّ بعد أن يَعْلُوَ منطقة اللانهاية فى الذكاء ينتهى إلى منطقة العطَل من

للموجودات ، والبُدهيُّ بعد أن يجاوز مِنطقة العَطل من الموجودات ينتهى إلى مِنطقة العَطل من الخيـالات وعدم الخيالات ، والبُدهيُّ بعـد أن يجاوز مِنطقة العَطل من الخيالات وعدم الخيالات ينتهى إلى مِنطقة الانقطاع عن الخيالات والإدراكات ، فهنالك يصبح محايداً تجاه الأفـكار ، محايداً تجاه إدراك الخيالات فيَعُود غيرَ ذى خيال ، أى غيرَ مُؤكِّد عدمَ الوجود لِما يَدُلُّ عليه هذا التوكيد من الوجود ، فإذا ما بلغ هذه المرحلة الخالية التى ارتفع إليها « أضحى اسم بُدْهة كلّهُ وأضحى بُدهة نفسُه وَهْماً أو طَيْفاً » .

وهذه المزاعم الفلسفية التى لا أمارى فى بُعد غَوْرها تَسُوق واضعيها ، فى بعض الأحيان ، إلى السفسطة ، والتوكيدُ أولُ ما يُجيب به فلاسـفة البُدهية عن جميع الأسئلة ، ثم يجيبون عنها منكرين ، ثم يجيبون عنها غيرَ مؤكدين وغيرَ منكرين ، ومن ذلك أنهم يجيبون عن السؤال : « هل يوجد بُدهة أو لا يوجد بعد الموت ؟ » بقولهم : « يوجد بُدهة بعد الموت ، ولا يوجد بُدهة بعد الموت ، و يعود بُدهة غيرَ موجود بعد الموت ما دام غيرَ موجود بعد الموت » .

و بين الأور بيين مَن يَرَوْن ، مثل حَوَارِيِّى شا كْيَه مونى أن العالم سيصبح بُدْهيًّا ، وليس فيما يَرَوْن ما يتعذر وقوعه ، فاستنبطوا من تأملات فلاسفة البُدْهية كتاب دِيانة ذا مَسْحَة عصرية فوافق عليه كاهن شرى بدا الأكبر بجزيرة سيلان ، ولا أقول مؤكداً إن هذا الكاهن الأكبر الذى استصوبه قد أَلَمّ به ، وإنما يُخَيَّل إلىّ أنه يوافق على كتابِ دِيانة آخر مُسْتَنْبَطٍ من الـكتب البُدْهية مناقضٍ لذلك الـكتاب .

وذلك الكتاب الصغير إذ اشتمل ، بأسلوب واضح ، على ما يمكن استنباطه من رسائل الفلسفة البُدّهية وكان مما رَضى به مذهبٌ بُدّهيٌّ مهمٌّ معروفٌ ببُدّهية الجنوب فإننا نقتطف منه العبارات الأساسية الآتية :

« ٥٧ — ما هو النور الذى يبدّد جهلنا ويُزيل جميع همومنا ؟ هو أن تعرف ما سَمّاه بُدّهة بالحقائق الأربع الكريمة .

« ٥٨ — ما هى هذه الحقائق الأربع الكريمة ؟ هى .(آ) بُؤْس الوجود — (ب) عِلّة البُؤْس أى إرواء الغُلة التى لا تَرْوى لتَجَدُّدِها — (حـ) هدم الرغبة — (د) وسائل هدم الرغبة

« ٦٥ — إلى أىّ شىء نَصِل عند إحراز النجاة ؟ نصل إلى نِرْوَانا .

« ٦٦ — وما هى نِرْوانا ؟ هى حالٌ يَقِف عند حَدّها كل تحولٍ فتكون السكينةُ فيها كاملةً ما عَطِلت من الرغائب والأوهام والآلام وكلٌّ ما يجعل الإنسان هَيُولاَنيًّا ، والإنسانُ ، لكى يبلغ نِرْوانا لا بدَّ له من أن يُبْعَث باستمرار ، فإذا ما بلغها انقطع بعثه .

« ٦٩ — وهل لحسناتنا أو سيئاتنا فعلٌ فى الصورة التى نُبْعَث عليها ؟ أَجَلْ ، فالحكم العام هو أننا نبعث فى حال حسنة عند ما تَثْقُل حسناتنا وأننا نُبْعَث فى حال سيئة عند ما تَثْقُل سيئاتنا .

« ١٢٢ — وبأىّ شىء يختلف كهنة البُدّهيّة عن كهنة الأديان الأخرى ؟ كهنةُ الأديان الأخرى يزعمون أنهم وسائطُ بين الله والناس ليُعِينوا الناس على نَيْل الغفران ، وكهنة البُدّهية لا يعترفون بالقدرة الإلهية فلا يأمُلون شيئًا منها ، ويجب عليهم ، مع ذلك ، أن يَقْضُوا حياتهم على مذهب بُدّهة وأن يَهْدُوا الآخرين إلى الصراط المستقيم ، ويرى البُدّهيُّون أن الله ظِلٌّ عظيم قَذَف به خيال الجهّال فى الفضاء .

« ١٢٨ — وبأىّ شىء تختلف البُدْهيّةُ اختلافاً جوهريًّا عن الذى يُسَمّى ديناً بالمعنى الصحيح ؟ بُدْهيّة الجنوب تُعَلِّم الصلاح من غير إيمان بالله ، وتقول بدوام الوجود من غير الذى يُسَمّى الروح ، وبالسعادة من غير سماء ذاتية ، وبالسلامة من غير رسول مُنْقِذ ، وبالنجاة من غير طقوس وصلوات وتَوْبَة ووسطاء من الكهنة أو القديسين ، وإن شئت فقل بِفَرْط الصَّلاح فى هذه الحياة وفى هذه الدنيا .

« ١٣٥ — أفتقول البُدْهيّة بخلود الروح ؟ يَعُدُّ مذهب الجنوب « الروحَ » كلمةً يُغْرِب بها الجاهل عن رأى خاطئ ، فإذا كانت الأشياء عُرْضَة للتغير وكان الإنسان شيئاً وجب أن يتغير كلُّ جزء منه ، فلا دوام مع التغير ، ولا خلود مع التحول .

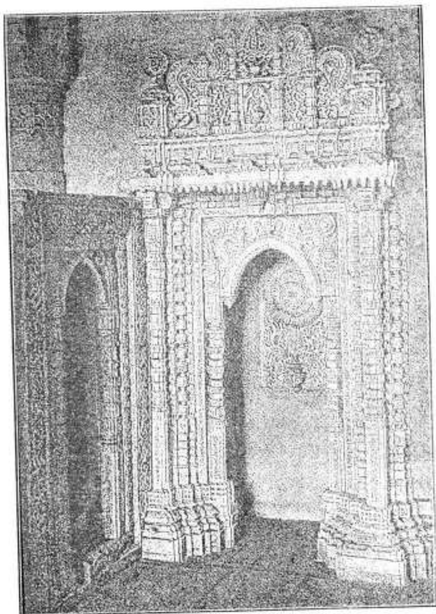


٧٦ — أحمد آباد ، مسجد محافظ خان (أقيم فى القرن الخامس عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع قسم المئذنة الظاهر فى هذه الصورة ١٢ متراً وسبعين سنتيمتراً)

« ١٣٦ — إذا طُرِح المبدأ القائل بالروح البشرية جانباً ، فما الذى يُوحِى إلى الإنسان بدوام وجوده ؟ الرغبةُ فى الحياة التى لا تُرْوَى لها غُلَّة ، فالموجود ذو الرغبة الذى يصنع مايكافأ به أو يعاقَب عليه فى المستقبل يتناسخ بتأثير كَرْما .

« ١٣٧ — وما الذى يُبْعَث ؟ هو تَكَتُّل سِكَنْدَا أو شخصٌ جديد صادر عن تَفَصُّد الشخص الميت تفصداً أدبيًّا .

« ١٤٤ — وهل تَكَتُّل سِكَنْدَا الجديد هذا أو هذا الشخص الجديد هو الموجود



٧٧ ـ أحمد آباد . المحراب الرخامى المنقوش فى المسجد السابق (يبلغ مجموع ارتفاع القسم المنقوش نحو ثلاثة أمتار)

السابق نفسُه ؟ نَعَمْ ، من جهةٍ ، ولا ، من جهةٍ أخرى ، ففى أثناء حياتنا الحاضرة تتبدل سِكَنْدَا تبدلًا تامًا فمع أن ابن الأربعين فلانًا هو الشخصُ نفسه أيام كان ابنَ الثامنة عشرة ، يُعَدّ غيرَه لما اعتور جسمه وذكاءه وأخلاقه من التغيُّر ، ويُجْزَى وهو شيخ ، مع ذلك ، بما عَمِل من الصالحات وما اجترح من السيئات وهو شابٌّ ، والشخصُ الجديد الذى يولَد إذ يولد مُتَقَمِّصًا الشخصَ السابق مع تبدل قليل فى الصورة أو يولد بتكتل سِكَنْدَا فإنه يحتمل نتائج أعماله فى حياته الأولى » .

وإننى حين أختم تلك المختارات أقول مكرِّرًا إن البُدَّهِيَّة التى قامت فى الهند فى العصر البُدَّهِىّ فأفصحت عنها المبانى تختلف عن المذاهب الفلسفية المذكورة آنفًا ، وإن قرابة هذه من البُدَّهِيَّة دون قرابة النصرانية من الوثنية اليونانية الرومانية ، وإن البُدَّهِيَّة الصحيحة هى أكثر أديان الهند إشراكًا ما أضافت آلهةً جديدة إلى الآلهة البرهمية ، وإن البُدَّهِيَّة التى تنطق بها المبانى هى دِيانةٌ ، وإن البُدَّهِيَّة المذكورة فى الكتب التى وُضِعت بعد ظهور بُدَّهة بستمئة سنة على الأقل هى مذهبٌ فلسفىٌّ ، وإن ما بين تلك الدِّيانة وهذا المذهب من الهُوَّة العميقة مثلُ التى تَفصِل التوحيد عن الإلحاد .

٧ — المجتمع البُدَّهِىُّ

من يُرِدْ أن يَتَبَيَّن ما كان للأدب البُدَّهى من الأثر الطيب فى المجتمع فَلْيَطَّلِعْ على مراسيم أشوكا ، فهو يَجِدها مملوءة بالتعاليم التى أريد بها سيادة الوئام والسلام والمحبة بين الأنام ، وليست تلك المراسيم شريعةً سياسية كما ظُنَّ فى أيامنا ، بل هى قوانين ذات صِبْغَة دينية أرادها ولىُّ الأمر المُحِبُّ لرعاياه ، لما فيها من

البساطة والحسن وبذر الحبِّ للآلهة وجميع المخلوقات .

وتختلف مراسيم أشوكا عن شرائع مَنُو فى ثلاثة أمور ، وهى :

١ — حبُّ الخير العام الشامل للحيوانات أيضاً وحَظْرُ ذبح هذه الحيوانات .

٢ — روحُ المساواة التى دُعِى بها جميع الطوائف إلى سماع الوعظ الدينىّ والفوز بوعوده .

٣ — التسامُح الذى يُرَى معه أن فى كثرة المذاهب الدينية سيرَ البشرية إلى الكمال المطلق فيوجب احترامها جميعها .

كانت الحيوانات محلَّ احترام فى المجتمع البرهمىّ لتجلى الروح العليا فيها بعضَ التَّجلِّى أيضاً ، ولأنها صُوَرٌ لآدميين تَقمَّصوا فيها ، فى الغالب ، بسبب آثامهم ، بَيْدَ أنه كان لا يُرَى كبيرُ حَرَجٍ فى قتلها ، فكان الصيدُ من وسائل تسلية الملوك والأكشترية ، ثم وضع أشوكا حدًّا لذلك فجاء فى مرسوم له ما يأتى :

« أجَلْ ، إن مئات الحيوانات تُذْبَح فى كل يوم لأغراض محمودة وإن من الجائز ذبحها لغاية مفيدة ، ولكنْ تَبيُّن النيَّة والغاية إذ يبدو صعباً فإن من الخير أن يُكَفَّ عن ذبحها ، ومن ثَمَّ يجب ألّا يذبَحَ حيوانٌ فيما بعد » .

واتُّخِذت وسائلُ لبلوغ رَفَاهِيَة الحيوانات والآدميين ، فجاء فى تلك المراسيم :

« ستُنْقَل الأعشاب والأشجار المثمرة التى تفيد الناس والحيوانات وتُزْرَع فى الأماكن التى لا تَكْثُر فيها ، وستُحْفَر الآبار وتُغْرس الأشجار فى الطرق العامة ليستفيد منها الناس والحيوانات » .

وفى البرهمية الأولى نَصٌّ على أن الناس يُولَدون مرَّتَيْن ، والطوائفُ الثلاث

الأولى وحدَها هى التى كانت تُدْعى للتمتع بنِعَم الدين وسماع المواعظ ، فكان يُصَبُّ فى أُذُنَى الشودرىِّ الذى يستمع إلى وعظٍ بَرْهَمِىّ أو إلى قراءة الكتب المقدسة زيتٌ حارٌّ ، فاليك ما قاله أشوكا فى ذلك :

« سيَعِظ الواعظون البراهمةَ المحاربين والسائلين والمحرومين وغيرَهم من غير عائق ، ليُدْخِلوا السرور إلى من يريد ويَحُلُّوا وَثاق من هو مُوثَق ويحرروا كلَّ أسير ، وسيحمِل الواعظون جوامعَ الكَلِم ومبادىء البِرِّ إلى إخوانى وأخَواتى ويَشُدُّوا أزْرَ كلِّ تقىّ وينفذوا كلَّ شقىّ فى أرجاء دولتى » .

وفى مراسيم أشوكا أروعُ مبادىء التسامح ، فقد جاء فيها :

« يقوم أصل مذهبنا وجوهره على أن تتبعَ دينَك ولا تَسُبَّ دينَ غيرك أو تَحُطَّ من قدره ، وأن تحترم الأمور الدينية مع ما بين العقائد من الاختلاف لِما فى ذلك من زيادة إيمانك ونموِّ يقين غيرك ، ففى كلِّ دينٍ نواحٍ طيبة تَحْسُن التمسك بها ، ولا شىء ، عند الآلهة المحبوبة ، يَعْدِل زيادةَ الإيمان ونموَّ الكمال الذى هو هدف جميع الأديان » .

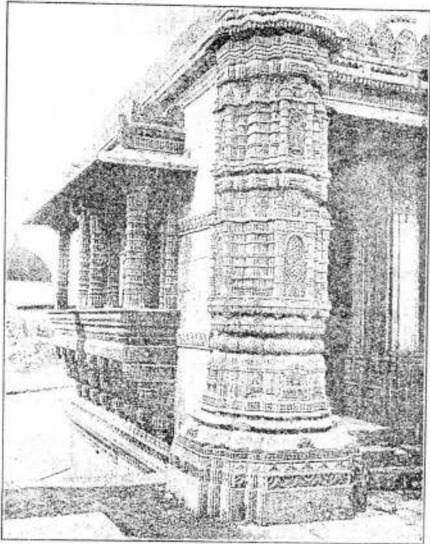
ولم تَبْقَ البُدهية ، على ما يظهر ، دينَ الدولة زمناً طويلاً كما كانت فى عهد أشوكا ، فلم يَكَد قرن واحد يمضى على وفاة هذا الملك حتى رَجَع بعض خَلَفه إلى البرهمية ، وظَلَّت البُدهية ، مع ذلك ، دينَ الشعب المسيطر فى ستة قرون أو سبعة قرون ، فكانت زاهرة حينما ساح الحاجُّ الصينىّ فاهيان فى الهند من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤١٤ بعد الميلاد ، ثم زار الحاجّ الصينىّ هيوين سانغ الهندَ بعد ذلك التاريخ بقرنين فأبْصَر الانحطاط الذى آلت إليه البُدهية وشاهد فى كلّ مكان

هَجْرَ الناس لمعابدها وأديارها وتداعىَ هذه المبانى ، فلما انقضى ألفُ سنة على عهد أشوكا كانت البرهمية قاهرةً للبُدهية نهائياً ، وكانت البُدهية غائبةً ، كديانة ، عن الهند ، ولم تكن البُدهية لتأفُلَ كمبدأ أدبىّ ، فلا تزال ذاتَ نفوذ إلى أيامنا ، وهى التى أوجبت ظهور البرهمية الجديدة التى هى ديانة الهندوس الحاضرة فندرسها فى الفصل الآتى .

والحاجُّ الصينىّ فاهيان ذلك قد قام برحلته فى الهند بعد الميلاد بأربعة قرون ليزورَ الأماكن المقدسة التى وُلِد فيها بُدهة وعاش وامْتُحِن ووَعَظَ ، وليُباحثَ أئمة البُدهية ويَنْسَخ الكتب المقدسة .

كانت البُدهية فى تلك الأثناء بالغة ذِروتها ، فكان البنجاب ووادى الغَنْج زاخرَيْن بالأديار التى يَقْصِدها ألوف الرهبان ليتعلموا فيها أسرار الدين ويَتَبَتَّلوا إلى التأمل العميق الدائم قبل أن يَنْعَمُوا بنِرْوانا ، وتلك الأديار كانت تقوم على صدقاتِ المؤمنين وهِبات الملوك ، وكانت مركزاً للمعرفة ومقراً لحل المُعْضِلات ، وكان يسودها صمتُ زهدٍ فتَتِمّ الأمور اليومية فيها بنظام مطلق ، وفى تلك الأديار حَلَّ فاهيان ضيفاً فوجد ثلاثة آلاف راهب يسكنونها فيجتمعون حول الموائد من غير أن يُسْمَع لهم صوت ولآنيتهم رِكْزٌ فقضى العجب من وقارهم وحيائهم واتِّزانهم .

وظهرت عِدَّة مذاهبَ يمكن ردّها إلى فرقتين ، فرقةِ المحمل الكبير وفرقةِ المحمل الصغير ، فتُمَثِّل الأولى الفلسفة البُدهية وتُمَثِّل الثانية أدبَها ، وكانت الأساطير توضع وتنمو ثم تصبح من أصول الدين ، وكانت الطقوس تُنَظَّم والأعيادُ والمواكب تَزِيد وكانت الصور والذخائر والزهور والعطور تُجَسِّم فى هذا الفضاء الذى يَتَعَذَّر على العامة أن تتخيله ، فكان بذلك قيام الفلسفة البُدهية .



٧٨ ـ أحمد آباد . مسجد رانى سبرى . دقائق زخرفية (القرن الخامس عشر) (يبلغ ارتفاع القسم الظاهر فى الصورة أربعة أمتار وخمسين سنتيمتراً)

وإذا نظرت إلى البُدهية من ناحية الدستور الاجتماعى والطبائع رأيتَها تتجلى فى تخفيف الآلام وتقليل الضرائب وتسهيل العلائق ونشر السعادة وتعميم السلام بما يلائم طبيعة الهندوسىّ .

أجَلْ ، ظلت الطوائف باقيةً مختلفة عملاً كما فى الماضى ، ولكنها بدَت متحدة تسامحاً ورِفقاً ، فكُشِفَت الكروبُ وأُنشِئت المشافى وأُقيمت المرابط رمزاً إلى الإخاء الذى يجمع بين جميع الموجودات .

ومُقَوِّمات المجتمع الهندوسىّ تلك ، وهى التى أبصرها فاهيان ، هى التى تَسُود جميع الأقطار البُدهية ، وفَتَرَت فى الهند بفعل البرهمية التى نهضت بعد زمن فكانت خاسرة لِرَوْعَتها الأولى حينما أتمّ هيوين سانغ حَجَّه فى القرن السابع من الميلاد ، وكان النصرُ لمُنْجِهية البراهمة على مبادئ البُدهية القائلة بالمساواة ، وما قام به هؤلاء من مكافحة البُدهية كان يعود عليهم بالفائدة ، وما فى الشعوب ، ولا سيما الشعب الهندوسىّ ، من احتياج إلى الآلهة الشخصية المنظورة جَذَب الجموع إلى الدين القديم بالتدريج ، فأسفر ذلك عن خراب المعابد والأديار البُدهية فى كثير من الولايات وأخذ بُدهة يحتلُّ فى المعابد مكاناً دون مكان وِشنو وشِيوا ، وأضحت عاصمة البُدهية السابقة پاتلى پوترا خَرِبة ، وصار المكان المقدسُ بُدهمغيا نفسُه لا يأوى إليه سوى البراهمة .

وتطوراتٌ كتلك حَدَثت فى النظام الاجتماعىّ ، فبعد أن تكلم فاهيان عن حرية الزراع وقلة ما كانوا يُؤْتونه من الضرائب فى زمانه رَوَى هيوين سانغ أن

مقدار الخراج الذى أخـذوا يؤتونه واحدٌ من ستة أى مثلما كانـ فى زمن مَنُو لا ريب .

وظلَّت العقوبات خفيفة مع ذلك ، وكان يُضار ، فى الغالب ، إلى الماء والنار والسُّمّ فى الابتلاء ، كما كان يُضار إليه فى محاكاتنا الإلهية فى القرون الوسطى .

وأثنى هيوين سانغ على أخلاق الهندوس فأعجب بشرفهم وبما نشرته البُدهية من الرِّفق والمحبة بين جميع طبقاتهم ، فذكر ، على سبيل المثال ، الأفراح العامة التى كانت تجمع بين ألوف الآدميين من جميع المذاهب والطوائف فيُوَزِّعُ الملك فى أثنائها العطايا السَّنِيَّة على الجميع ، لا فَرْقَ فى ذلك بين البراهمة والشودرا ، وبين البُدهيين والملحدين .

ولـكى يُجيد هيوين سانغ الاطلاع على الفلسفة البُدهية أقام خمس سـنوات بدير نَالَنْدَا الذى كان أشهر أديار الهند فـكان يَضُمُّ نحو عشرة آلاف راهب ، ثم جاب هذا الحاجّ الصينىّ الهنــــد فوَصَل إلى سيلان ، ثم قطع الهند ثانيةً راجعاً إلى بلاده فـكانت الرِّحلة التى قام بهـا كالتى قام بها فاهيـان فيما مضى تقريباً .

وأخذ نجم البُدهية يأفُلُ عن الهند بسرعة منذ ذلك الدور ، أى منـذ القرن السابع من الميلاد ، فلم يلبث أن غاب عنها تماماً ، فـكانت المعابد البُدهيــة التى أقيمت فيها بعد القرن السابع قليـلةً جداً ، ومن الأسباب التى أوجبت ذلك الأفول عن الهند كثرةُ الفِرَق التى انقسمت إليها ، فعَدَّ هيوين سانغ ثمانىَ عشرةَ فرقةً منها فَشَبَّه حماستها فى مجادلة بعضها لبعض بأمواج البحر ، ونرى البُدهية فى هذا

القرن التاسع عشر ، كذلك ، بعيدةً من الوصول إلى وَحْدة العبادة والمذهب ، فنجد فرقتين كبيرتين : إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب تزْعُم كلٌّ واحدة منهما أنها على الحقّ وأنها حافظةٌ لتُراث بُدهة .

والآن نذكر في بضعة أسطر المبادىء الأساسيةَ التي يمكن استخراجها من هذا الفصل فنقول :

إن البُدهية الأولى لم تكن ديانةً جديدة ، بل كانت طوراً من البرهمية التي لم تختلف عنها بسوى أدبها ، وإنه نشأ بعد ظهور البُدهية بزمن طويل مذهبٌ فلسفيٌّ نشوءاً مؤازياً لها ، وإن أدب البُدهية يرجع إلى أوائلها ، فيلوح لنا أنه نتيجة آلام البشر ، وإن بدهة كان أحدَ أكابر المتشكفين الذين هزَّ صوتهم الدنيا هزاً عنيفاً لتقمُّصهم آمال الجنس .

وإن جذور الفلسفة كانت سائخةً في تراب أقدمَ من ترابها ، وإنهما ظهرت حينما كان زُهّاد البرهمية المنهوكون المهزولون يتفكّرون ساكنين تحت الأشجار فكان الفَناء مثلَهم الأعلى قبل ظهور بُدهة .

وإن البُدهية إذْ لم تكن ديناً، وإن العالم إذ كان عاطلاً من أيّ شعب يستغني عن دين ، استردّت البرهميةُ سابقَ منزلتها ، وتمّ لها النصر بعد أن أخذت البُدهية تتحول إليها ، وإن البُدهية التي يدين بها اليومَ خمسمئة مليون من البشر ليست ، بالحقيقة ، سوى طور من البرهمية غير قريب من مثالها الأول لتشويها بعيدةً من العالم البرهميّ أي من العالم الهندوسيّ ، وإن الفروق زادت مع الزمن باختلاف

العروق التي اعتنقتها ، وإن هذه الفروق تتدرّج إلى الزوال لدى العرق الذى لاحت له البرهمية ولاح له إصلاحُها .

ولا يمكن الافتراضَ القائلَ إن الاضطهادات العنيفة هي التي أدّت إلى توارى البُدهية عن الهند أن يَقِف أمام الوثائق التي عرضناها في هـذا الفصل ولا أمام ثبوت الحماسة الغريزية التي صدرت البُدهية بها عن البرهمية وثبوتِ تطور النفوس البطيء الذى عادت به إليها

الفصل الرابع

حضارة العصر البرهمي الجديد

وصفُ المجتمع الهندوسيّ حوالَى القرن العاشر من الميلاد

---

(١) العناصر التي يستعان بها في بعث العصر البرهمي الجديد ـ غموض تاريخ الهند فيما بين القرنين الثامن والثاني عشر ـ مباني ذلك العصر وكتاباته وأساطيره ـ الوسائل التي يستعان بها في بعث حال المجتمع السياسية والاجتماعية في ذلك العصر ـ (٢) المجتمع الهندوسي حوالي القرن العاشر من الميلاد ـ بلوغ الفن الهندوسي غايته ـ وصف مدن الهندوس الكبيرة في القرن العاشر ـ حياة سكانها ـ شأن الحليلات ـ أعمال الملوك والأمراء ـ دين الأهالي ـ (٣) نظام ممالك الهند الآرية السياسي والاجتماعي حوالي القرن العاشر من الميلاد ـ راجبوتانا هي البلد الهندي الوحيد الذي حافظ على نظامه السياسي والاجتماعي القديم ـ أوجه شبه ظاهرة بين هذا النظام والنظام الإقطاعي ـ الفروق الأساسية الحقيقية بينهما ـ الزمن الراجبوتية ـ ظهورها ـ الأسرة الراجبوتية ـ الطبائع والعادات .

---

١ — العناصر التي يُستعان بها في بعث العصر البرهميّ الجديد

يبدأ العصر الذي نصفه الآن حوالَى القرن الثامن من الميلاد أي حين توارت البُدهية عن الهند تقريباً ، فالبُدهية ، بعد أن سيطرت على الهند ألف سنة ، خسِرَت سلطانها على النفوس ، فماتت، فكان موتها دليلاً على تبدل المجتمع ، و برهمية القرون الأولى هي التي حَلّت محلّ البُدهية ، ولكن مع ما اعتورها من تطور بالغ بفعل تلك البُدهية .

وفى العصر الذى انتهينا إليه كان النظام السياسىّ الذى أعان على انتشار البُدهية، أى على اتحاد مُعْظم الهند تحت سيد واحد ، قد زال منذ زمن طويل ، فقد انقسمت الهند إلى دويلات كثيرة مَلَكِيَّة مطلقة مستقلة متناجزة فى الغالب .

وتاريخُ العصر الذى ندرسه فى هذا الفصل فيمتدُّ من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر بعد الميلاد ، أى الذى دام منذ أفول البُدهية إلى دور المغازى الإسلامية، من أكثر التواريخ غموضاً ، فلولا ما وصل إلينا من مبانيه التى تنطق بعظمة الممالك التى ازدهرت فيـه ما علمنا من أمره إلا قليلاً ، والمبانى الخربة و بعضُ الكتابات والنقود والكتب الأدبيـة التى لا يُعْرف تاريخها هى كلّ ما بَقِىَ من وثائق ذلك العصر ، وهذه الوثائق تكفى ، مع ذلك ، لإثبات أن ذلك العصر الجديد ليس أقلَّ ازدهاراً من الذى جاء قبله .

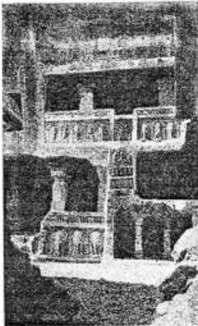
إذَنْ ، وثائقُ بعث المجتمع الهندوسى حوالَى القرن العاشر قليلةٌ جداً ، وهى تؤدى، مع ذلك ، إلى رسم خطوط الحضارة التى ندرسها فى هذا الفصل .

وما تُمْلَأُ به الهنـد من المبانى العجيبة ، فلا يُقاس به ما أُنْشِىء فى القرن الأول من الميلاد ، هو أهمُّ وثائق ذلك العصر ، فقد رأينا فى الفصل السابق درجة وضوح هـذه الكتب الحجرية التى تبدو صفحاتٍ هائلةً فوق أرض الهند ، فبهذه المبانى نستطيع أن نَقِف على ما اعتور أديان الهند من التطور البالغ .

قامت المعتقدات الجديدة التى نبحث فيها الآن على أساس المبادىء القديمة التى تغلَّبت عليها البُدهية عدة قرون ، نَعَمْ ، بُعِث الدين القديم ، ولكن مع تبدل عميق بفعل البُدهية من جهةٍ و بفعل روح الأجيال الجديدة من جهة أخرى ، وهذا الدين

الذى نسميه « البرهمية الجديدة » هو الدين السائد اليوم ، وهو الدين الرسمىّ لمُعْظم الهند الحديثة على الدوام ، وهو وإن حوّلته الأفعال لم تتبدّل أصوله ، ونحن ، حين ندرس هذه الأصول كما تبدو لنا اليومَ ، نتمثل ما كانت عليه منذ ثمانية قرون على وجه التقريب .

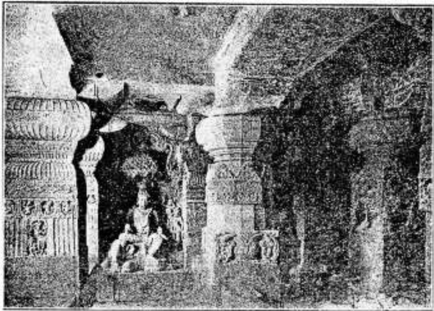
نتبيَّن دينَ ذلك العصر بدرجة الكفاية بما انتهى إلينا من المبانى والكتب إذَنْ ، وبالمبانى نطّلع على حال الحضارة الهندوسية فى القرون التى مرت قبل الفتح الإسلامى ، ومن دواعى الأسف أنها لا تفيد كثيراً فى استخراج نُظُم ذلك العصر الغامض السياسية والاجتماعية ، وهو الذى أُسِجَت فيه شبكة ما فى الهند من العادات والمعتقدات التى لا تزال تكتنفها .



٧٩ — إيلورا . قسم من مقدم معبد إندرا المصنوع تحت الأرض (فى القرن السادس من الميلاد) (يبلغ ارتفاع مجموع المقدم ١١ متراً و ٢٠ سنتيمتراً)

وإذا كنا لا نستجلى نُظُمَ المجتمع الهندوسىّ السياسيةَ والاجتماعية فى ذلك العصر بما لدينا من المبانى والكتب لم يبقَ لنا ، لبلوغ ذلك ، سوى البحث عن بُقعة فى الهند صانت نفسها ، لعزلتها ، عن المؤثرات الأجنبية فحافظت على النظام القديم ، من غير تغيير كبير .

ومن حسن الحظ أن وُجِدَت تلك البُقْعة فاستطعنا أن ندرس نظامَها في زمن أوشك أن يَغيب فيه ، فإذا عَدَوْت بعضَ أجزاء الدَّكَن التي تسكنها عروقٌ متأخرة لم تَرَ في جميع الهند سوى بُقْعة واحـدة تَفَلَّتت بفضل موقعها الجغرافي من المؤثرات الأجنبية فحافظت على نُظُمِها وعاداتها القديمة وما فُطِر عليه أهلوها من خُلُق الحرية



٨٠ — إيلورا . داخل المعبد السابق المصنوع تحت الأرض (يبلغ ارتفاعه مترين و ٦٠ سنتيمتراً)

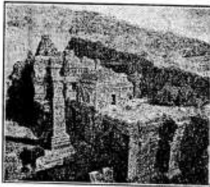
والاستقلال ، وتلك البُقْعة هي المِنطقة الجبلية الواسعة التي نَصِفُها باسم راجبوتانا ، وتلك البُقعة هي البلد الهنديُّ الوحيـد الذي لا يزال يملِـكه حَفَدة قدماء الملوك ولا يزال مُمْسِكاً بتلابيب النُّظم الأولى وآثار الماضي مع تعاقب القرون ، ونحن ، إذ ندرس هذه النُّظُم كما تبدو اليوم للباحث نَتَمكَّن من رسم صورة صادقة عن نظام ممالك الهند التي كان يسكنها أهلون من الآريين حوالَي القرن العاشر من الميلاد .

٢ — المجتمع الهندوسي حوالى القرن العاشر من الميلاد

يمكننا أن نقيس الحضارة الهندوسية التي دامت من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر بعد الميلاد بالحضارة الأوربية في أواخر القرون الوسطى ، وذلك عند النظر إلى المباني العظيمة وبعض الكتب الأدبية التي انتهت إلينا من ذلك العصر ، فقد بلغت الفنون حينئذٍ دورَها الزاهر في الهند وتَمْثِل ماشِيد في كهجورا وجبل ابو وغيرهما من المباني العجيبة التي ندرسها في مكان آخر ما أسفر عنه الفنّ القوطيّ من الآثار الجميلة ، ولن تقوم آثارٌ رائعة كتلك إلّا في مجتمع غَنِيّ مُهَذَّب مُقَدِّر للفنون مشتمل على فريق من كبار المتفننين ، وليس بمجهول لدينا تاريخ مباني ذلك العصر ، وهي كثيرة في شمال الهند وراجبوتانا وشواطيء أوربة ، وتُؤلِّف أصدقَ ما لدينا من الوثائق عن ذلك العصر ، وما وَصَل إلينا من كتب ذلك العصر الأدبية من أشعار وروايات فجديرٌ بالذكر ، وإن كان من الحَذَر الحسن ألا يُسْتَنَد إليها كثيراً لتعذر معرفة الزمن الذي صيغت فيه في الغالب : أهو نحوُ سبعة قرون أم نحو ثمانية قرون ، ولكننا إذا علمنا أن الأمور تتبدل في الهند قليلاً وأن مُضِيّ القرون فيها كمُضِيّ السنين في سواها أمكننا أن نقتبس من تلك الكتب بعض المعارف العامة التي نُكمِّلها بوثائقَ أصدق منها .

وعلى ما نقوله ، تقريباً ، من أن القصائد الحماسية الهندوسية الكبيرة المعروفة بالرامايانا والمهابهارتا هي وليدةُ كلّ دور ما صُحِّحت وأُكملت بما أضيف إليها في غضون عشرة قرون نرى أصلها أقدمَ من الميلاد وأنها لا تصلح جيداً لاستنباط المعارف التي تُطَبَّق على العصر الذي ندرسه في هذا الفصل ، وكلُّ ما نرى الاعتماد عليه في

هذا المضمار هو القِطَع التمثيلية التى تُعَدّ كاليداسا وسُدْراكا أهمَّها ، ولا نعرف تاريخ هـذه القِطَع التمثيلية بالضبط ، ويلوح لنا ، مع ذلك ، أنها وُضعت بعد القرن الأول من الميلاد وقبل القرن العاشر من الميلاد ، و إذ إن ما يُستنبط منها لا يختلف عما يُستنبط من المصادر الأخرى نقتصر على اقتباس وصف موجز لإحدى المدن الهندوسية الكبيرة وللمجتمع الهندوسىّ ، وهذا الوصف يوجد فى رواية سُدْراكا «مركبة الصَّلْصال[1]» التى تَمُرُّ من أُوجّين عاصمة مالوا ذاتِ المبانى الخَرِبَة فى الزمن الحالىّ ،



٨١ ـ إيلورا . معبد كيلاسا المصنوع من حجر واحد
(القرن الثامن من الميلاد) *

وما جاء فى تلك الرواية من وصف القصور والبيوت والمعابد يَقْضى بالعجب وينال الباحث منه الأَرَب ، وليس فى هذا الوصف ما يُوصَم بالمبالغة ما شَهِد به من زار مبانى غواليار وكهجورا وجبل آبو ، فقد رَسَم واضع تلك الرواية أمامنا ، بوصف ساحر ، صورةَ قصرٍ رُخامى مُرصَّع بالحجارة الكريمة ذى رِدَاء مُجَهَّزَة بصفائحَ ذهبية مُوَشَّاة بالألماس

(١) الصلصال : الطين اليابس الذى يصل من يبسه أى يصوت .

* بما أن معبد كيلاسا هو أشهر معابد الهند فدرسه فريق كبير من علماء الآثار رأينا أنه لا طائل من قياسه ظانين أننا نجد أبعاده فى كتب كثيرة ، ومن دواعى الأسف أن وجدنا اختلافاً كبيراً فى ذلك بين هذه الكتب فلم نستطع أن ننتفع بها ، وأما أبعاد المبانى التى ذكرناها فى هذا السفر فقد استعنا فى الحصول عليها بآلات حديثة وصفناها فى مذكرة خاصة عنوانها « الهند الأثرية والمنهاج » فلا يعدو الخطأ الذى تستغرقه هذه الآلات بضع سنتيمترات ، فهذه الأبعاد إذ تنال بها آلياً يجتنب بها ما تؤدى إليه القراءة والحساب من الأغاليط الناشئة عن الطرق المحادة التى لا يستفاد منها ، مع ذلك ، فى قياس الآثار المحاطة بالأبنية المائلة من قياس الأساس .

وذى قناطرَ من العاج المنقوش وذى جُدُر محاطة بحدائق وأزهارٍ زاهية مشتملة على متكآت مُظَلَّلَة ، وحدّثنا عن معابدَ رائعةٍ منعكسة على مياه النهر مشتملة على محاريبَ حافلةٍ بالأسرار عامرة بكاهنات سافرات ذوات كعوبٍ ومعاصمَ محاطةٍ بخلاخلَ وأسْوِرَة من ذهب وفضة تجلجل باتزان. عند ما يرقصن أمام الآلهة بانسجام .

ومن أزهى دور تلك المدينة دارُ الخليلة الكبرى وَسَنْت سينا التى كانت من أهمّ وجوهها ، وقد كان للخليلات فى ذلك العصر من الشأن العظيم مثلُ ما كان لهنّ فى عصر بريكليس اليونانى ، ومن ينعم النظر فى الخلاصة الآتية التى أقتبسها من رسالة لمسيو سو به فوُصِفَت فيها تلك الدار يَعلَمْ ضُؤُولةَ نفائس الخليلات فى زماننا إذا ما قيست بها .

« فى تلك الدار رِدَاه ثمانٍ وفُسَيْفِساء رائعةٌ ، وزرابىُّ[1] لامعة وحنايا[2] مُرَصَّعَة بالعاج ومُزَيَّنَة بالرايات ، وعَمَدٌ تعلوها آنيةٌ من بِلَّوْرٍ ، وصفائحُ من الإبريز[3] ساطعةٌ ، وقِبَابٌ مُزَيَّنَةٌ ، ومعارجُ[4] رُخامية ، ومنافذُ ذواتُ قلائدَ من لؤلؤ ، وفى أصابل[5] تلك الدار بَقَرٌ وجواميسُ وكِبَاشٌ وخيلٌ وقِرَدَةٌ وفِيَلَة ، وفى تلك الدار موائدُ قِمَارٍ ليجلس حولها صَفْوَة فُسَّاقٍ أُوجّين ومطربون من كلّ نوع ومُغَنُّون وراقصات وممثلون وقاصُّون ممتثلون لأوامر الخليلة الكبرى ، وفيها مطابخُ واسعة عامرة تُذَكِّرُ النَّهِمَ مِقْرِيًا بجنّة إندرا ، وفيها حوانيت للعطور ومصانعُ للحُلِيّ

(١) الزرابى : جمع الزربى والزربية : ما يبسط واتكئ عليه — (٢) الحنايا : جمع الحنية : من البناء ما كان منحنياً — (٣) الإبريز : من الذهب خالصه — (٤) المعارج : جمع المعراج وهو السلم والمصعد — (٥) الأصابل : جمع الإصطبل .

فيتألف منها سوق ، وفيها كتيبة من الخدم أو الإمّعين[1] الذين يتنادرون و يضحكون و يلوكون المِسْك ويَعْلُكون التَّنْبُل[2] و يقصِفون[3] ، وفيها حياضٌ ذات ميـاه مزعفرة[4] ، وفيها حظائرُ للطيور مُذْهَبة حيث تهتزُّ البَبَغاوات والزرازيق والطواطى والحِجْلان[5] والسَّلْوَى[6] والطواويسُ والإوَزُّ ، وفيها حديقة نَضِرَة عُلِّقَت فيهـا أراجيح من حرير » .

والمجتمع فى أوجَّين ، كما فى زمن ميغاستين وفى زماننا ، قائم على نظام الطوائف ، والمِهَن فيه وِراثية ، و يتألف منها سِلْسِلة مُعَقَّدَة يرئسها البراهمة فى كل حين ، وتَجِد بين البراهمة زاهدين وتَجِد بينهم مُتْرَفين مسرورين ، وتَجِد بينهم هُوَاةَ الشَّهَوَات والنساء الجميلاتِ من غير أن يؤثِّر هذا فى مقامهم .

ويكون ولىّ الأمر مَلِكاً مطلقاً على الدوام ، ولا شىء يُقَيِّد سـلطانه غير ما يُحاك حوله من المؤامرات التى تُهَدِّده بلا انقطاع فلا يستطيع حارسوه من الأكشترية أن يُحْبِطوها فى كلّ مرة ، و يظهر أنه كان يُحْكِم بالعـدل على ألا يكون أحد الخصوم قَوِيًّا ، فنى الهند ، كما فى أوربة ، يُقْضَى للقَوِىّ إذ ذاك .

وفى مقدمة تلك الرواية ، التى وُضِعَت بعد زمن ، ذِكْرٌ لأكثر المعارف اعتباراً ، فقد مُدِح فيها مَلِكٌ لاطلاعه على كتب الويدا والرياضيات والفنون الجميلة ومهارته فى تربية الفيُول .

---

(١) الإمعون : جمع الإمع والإمعة وهو التابع لـكل أحد على رأيه — (٢) التنبل : نبات من الهنـد يمضغ ورقه — (٣) قصف يقصف قصفا وقصوفاً : أقام فى أكل وشرب ولهو وأكثر من ذلك — (٤) زعفره : جعل فيه الزعفران — (٥) الحجلان : جمع الحجل وهو طائر فى حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين وهو يعيش فى الصرود العاليـة يستطاب لحمه — (٦) السلوى : طائر أبيض مثل السمانى .

وإذا لم نستطع أن نتمثّل جيداً حياة الملك اليومية وكبار الأمراء الذين يقلّدونه بحكم الطبيعة فى ذلك العصر من تلك الرواية فإننا نتمثّلها من الأقاصيص الهندوسية الأخرى ، ولا سيما الأقاصيص ال ٣٢ المعروفة بأقاصيص « العرش المفتون » .

فالملك بعد أن يستيقظ صباحاً على صوت آلات الطرب يقوم بواجباته الدينية ويوزّع الصدقات ثم يتمرّن على استعمال السلاح ، ثم يجمع وزراءه ويدبّر الأمور . فإذا ما حلّ وقت الظهر صلّى وتغدّى وقال[1] ، ثم تنزّه فى حدائق القصر ذوات الظلال ، محاطاً بنسائه وبالراقصات مقتطفاً أزهاراً مترنّماً متمايلاً فوق أرجوحة من حرير ، الخ .

وإذا ما حلّ وقت المساء قام بالواجبات الدينية وتعشّى وتلهّى بضروب اللهو من غناء ورقص وموسيقى إلى أن يأوى إلى حريمه .

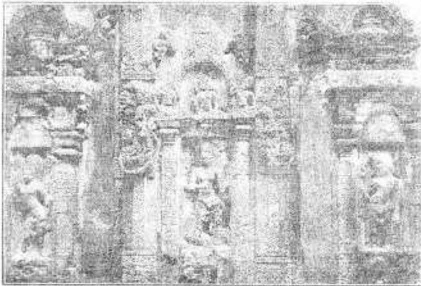
والبرهمية هى دين مدينة أوجّين الرسمىّ على حسب ما جاء فى رواية « مركبة الصّلصال » ، والبدّهية ، وإن وُجدت حينئذ ، لم تكن غيرمذهب الرهبان السائلين ، أى كانت فى دور الأفول ، وفى هذا دليلٌ على أن تلك الرواية ليست من القدم فى الدرجة التى افتُرضت لها ، أى إنها وُضعت حوالَى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد ، ويلوح ، مع ذلك ، أن التسامح بين تينك الدّيانتين كان تامّاً .

على أننا لا نضطرّ إلى أىّ كتاب لتعرّف دين الهند حوالَى القرن العاشر من الميلاد ما دامت معابد ذلك الزمن تخبرنا ذلك بوضوح ، فالبدّهية كانت آفلة وكانت البرهمية قائمة فى محلها ، وأضحى السلطان للآلهة التى كانت ثانوية فى العصر البرهمىّ الأول كشيوا ووِشنو ، فاقتسمت هذه الآلهة المعابد ، وتنافس آلهة البرهمية ، مع ذلك ،

---

(١) قال : نام فى (القائلة) أى فى منتصف النهار .

آلهةَ المذهب الجَيْنِيِّ القريب من البُدْهية والذى مَثَّل ، على ما يظهر ، دوراً مهماً فى القرن العاشر كما تنطق به فخامة معابده ، وهذا مع القول إن المذاهب الثلاثة ، الجَيْنِيَّ والشَّيُوِيَّ والوِشْنِيَّ ، كانت على وئام وكانت متساوية فى المرتبة لِما تدلّ عليه أطلال كهجورا من تماثل معابد هـذه المذاهب الثلاثة التى أُنشِئ بعضها بجانب بعض كالكنائس التى أُقيمت فى أوربة تمجيداً لضروب القديسين .



٨٢ ــ إيلورا . دقائق قسم من نقوش معبد كيلاسا

ولا نُسْهِب الكلامَ فى الدين الهندوسيّ فى القرن العاشر من الميلاد ، فبلغ هذا الدين من مشابهة دين الهند الحاضر ما لا نرى معه فَضْله عنه ، فنُحيل القارىء ، إذَنْ ، على الفصل الذى خصصتُه فى قسم آخر من هذا الكتاب للبحث فى دين الهند الحاضر.

و إننا بعد أن ألقينا نظرةً خاطفة على النواحى الخارجية من الحضارة الهندوسية القديمة التى دام أمرها بين القرنين الثامن والثانى عشر بعد الميلاد نرى أن نبحث فى

نظام مُنْظَم الهند الآرية السياسيّ في ذلك العصر فستند، كما قلنا آنفاً ، إلى دستور الممالك التي حافظت وحدها على نظامها القديم ، أي إلى ممالك راجپوتانا .

٣ — نظام ممالك الهند الآرية السياسي والاجتماعي

حوالَي القرن العاشر من الميلاد

تَغْشَى صحراء تهار النصفَ الغربي من المِنطقة الواقعة بين السِّند وجزيرة كاتهياوار وجَمبل والغَنْج والمسماة راجپوتانا ، وتَغْشَى النصفَ الشرقيَّ منها التلالُ الجدبية الكثيرة الآجام البالغة أقصى علوّها بسلسلة جبال أَرَاوَلي ، ففي منطقة راجپوتانا الجبلية هذه يقطن من افتُرضوا أنهم حَفَدة الأكشترية الآريون الذين يُعْرفون بالراجپوت أو أبناء الملوك فلا يزالون محافظين على استقلالهم تقريباً .

ويتألف من الراجپوت أجملُ عروق الهند وأصفاها على الأرجح ، والراجپوت هؤلاء أهلٌ لأن يقاسوا بفرسان القرون الوسطى الذين غادروا أوربة ليستولوا على القبر المقدس ، وذلك لِما اتَّصفوا به من طول القامات وانسجام الملامح ووَضَاءة البَشَرة وشَمَم الأنوف وحُسْن البِزَّة ومضاء السلاح .

ويُذَكِّرنا ما يُزَيِّن به الراجپوت جيادَهم من الجهاز الفاخر وما ينشرونه من البنود في ميادين القتال وما يتخذونه من رموز الأُسَر بعاداتنا الإقطاعية وبطبقة الأشراف عندنا ، ولذا يسهل علينا أن ندرك السرَّ في اعتقاد الأوربيين الذين درسوا نظام راجپوتانا سابقاً اشتمالَ هذا النظام على صورة قروننا الوسطى الإقطاعية غافلين عن الفروق العميقة التي تَفْصِله عن نظامنا الإقطاعي القديم .

ولا تقتصر أوجه الشبه الظاهرة بين نظام راجپوتانا ونظامنا الإقطاعيّ على ما ذكرناه ، فالراجه الراجپوتي يسكن حِصْناً ويسوس ما يملك من هذا الحصْن كما كان يصنع الدوكات والكونتات والبارونات في أوربة .

ومما يحدث أحياناً أن يتخلى الراجه عن قسم من أملاكه لقريب له فيصبح مولىً لهذا القريب التابع ، فيكون هذا القريب التابع مُلْزَماً نحو مولاه بالخدمة العسكرية ، فإذا لم يمتثل أوامره أو اقترف عملاً شائناً عُزِل وطُرِد وأعاد ما ملك إلى مولاه ، وتهيمن هذه الطبقة الأريستوقراطية العسكرية على الزُّرَّاع الذين هم من الطبقة الدنيا، فيدفعون إلى الراجپوت في أوقات معينة قسماً من غَلّات ما يزرعون ، ويُسَخِّرهم الراجپوت ، فهؤلاء هم الشودرا الذين يشابهون فَدّادِي[1] أوربة في القرون الوسطى .

والمرأة مكانٌ عالٍ وشأن مهمٌّ عند الراجپوت كما كان لأخواتها في عصر الفروسية الأوربية ، ومن أجل المرأة وحدها كانت الحروب تشتعل ، في الغالب ، بين الملوك المتنافسين .

وما كان على المرأة التي تُهْضَم حقوقُها أو يُطْعَن في شرفها إلا أن تُرسل سِوارَها إلى مبارز باسل لكي يمتشق حُسامه في سبيلها مسروراً .

وما أكثر ما كانت المدن تقاسي فنون الحصار دفاعاً عن حسناء يطاردها عدوٌّ عاشق ، فيُبْدِي حُماتها ضروبَ الشجاعة ، وما كان العدوّ ليَصِل إلى الحسناء مهما كانت نتائج القتال ، فإذا ما شَعَر أنصارها بحبوط الدفاع أعَدُّوا لها مَوْقِداً ثم صَعِدَتْ فيه طائفةٌ معهم وقتلوا أنفسهم على حين تَفِيض روحها بين اللّهب .

---

(١) الفدادون : الرعيان والجمالون والبقارون والفلاحون وسواهم ممن تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم .

وكانت المرأة الراجپوتية تتصف بالشجاعة ، فقد حاربت غيرَ مرة بجانب الأبطال من بني قومها مُفَضِّلَةً الموت على التسليم ، ومن ذلك أن الراجپوتيات صَعِدْن بالالوف فوق المواقد في أثناء حِصَارَيْ چِتُّور المشهورين لكيلا يَسْبِيَهُنَّ الأعداء .

وتقول راجپوتانا بمبدأ تعدد الزوجات كما تقول به بلدان الهند الأخرى ، بَيْدَ أن إحدى الزوجات تكون مُفَضَّلة ، فكانت تحْرُق نفسها فوق المَوْقِد عند موت زوجها ، ومما كان يحدث أن تُمَارِيَ الزوجاتُ ، أحياناً ، في أيتهن كانت المُفَضَّلة طمعاً في نيل شرف الاحتراق عند موته ، وإذا كان الملكُ هو المتوفى كان من التقاليد أن يَحْرُق جميعُ أزواجه أنفسَهن ، ولا يزال يُرَى بين قبور أوديپور الملكية ضريحٌ يشتمل على رُفات الملك سَنْغرام سِنْغها وزوجاته الإحدى والعشرين اللائى حَرَّقْن أنفسهن فوق مَوْقِده في سنة ١٧٣٣ .

وما تتمتع به المرأة الراجپوتية من الاحترام يشابه ما كان لأخواتها الأوربيات في القرون الوسطى ، كما يدلّ عليه ما كان من تَغَنِّي الشعراء الجوَّالين بمثل تَغَنِّي زملائهم بولائم أمراء النصارى الإقطاعيين وبالألعاب الحربية ومعاني الحب وجمال الحِسان وامتشاق الحُسام .

إذَنْ ، ليس من العجيب أن يرى الباحثون شَبَهاً بين مجتمعٍ ذلك نظامه والمجتمعِ الإقطاعي أيام الحروب الصليبية ، والآن نُبَيِّن ما ينطوي تحت تلك المماثلات الظاهرة من فروق عميقة :

يتصل طور المجتمع الراجپوتي الراهن بطور الحضارة الذي تقدمه رأساً ، لا بالنظام الإقطاعي ، وما تراه في أوربة الآن من



٨٣ ــ إيلورا . تماثيل في معبد دومارلينا المصنوع تحت الأرض (القرن الثامن)
(يبلغ ارتفاع التمثال الكبير خمسة أمتار)

الدول الكبرى فهو وليد جَمْعٍ سار من طَوْر الفرد الهمجيّ إلى طور الأُسرة فإلى طور القبيلة فإلى طور الشعب فإلى طور الإقطاع فإلى طور الأمة .

ليس النظام الراجپوتي بقائم على الإقطاع ، بل على النظام الشعبيّ .

والشعبُ ليس إلا أسرةً مُكَبَّرَةً ، ويستحيل على الأسرة أن تصبح شعباً قبل أن تجاوز الطور القَبَلِيّ .

ولنفترض أن هنالك مجتمعاً همجياً مقسوماً إلى أُسَر وأنه ظهر من هذه الأُسَر شخص مقدام مقحام خُلِقَ للقيادة وأن خصومةً نَشِبَت أو أرضاً ضاقت أو مطامعَ حَوْلَ مكان آخر ثَارَتْ حين بلوغ ذلك الشخص سنَّ الرُّجُولة فإن ذلك الرجل الجسور لا يسير وحدَه بحكم الطبيعة بل يستعين برجال أُسرته الذين اتفق له سلطان عليهم فيتبعونه بحماسة ، ثم ينضمُّ إليـــه رجال من الجيران والأفّاقين والمنحطين والمجرمين ، ثم يَمْضى هو وصحبه هؤلاء قُدُماً فيستولون على أرض عَنْوَةً فيستقرون بها فيقيمون حولها حاجزاً فينتحلون ، كعِصَابةٍ ، اسمَ زعيمهم ويَعُدُّونه أباً تمييزاً لهم من المجاورين المعادين .

ذلك أمر رومولوس وصحبه ، وذلك أمرُ داودَ في مَغارة عدلام .

ولا تصبح هـــذه القبيلة المصنوعة ، التي تألفت من اجتماع أفّاقِين مختلفي الأنساب تحت قيادة زعيم ، شعباً إلاّ بعد حين ، أي عندما تُنْسى فروق الأنساب بين هؤلاء الأفّاقين فيستطيع حَفَدتهم أن يدّعوا أنهم من ذرية مؤسس القبيلة الأول ، فتكون رآستهم لأكبر أبناء هذا المؤسس .

ومن ثَمَّ ترى أن عَدَّ أبناء الشعب الواحد أنفسَهم ذرية جدٍّ واحد لم يَقُم على غير الافتراض الوهميّ ، ومهما يكن من وَهْم في هذا الافتراض فإن قولنا ذلك يكفي

لتمييز الشعب الراجپوتيّ من الإمارة الإقطاعية الأوربية ، فمع أن أتباع الأمير الاقطاعي دونه منزلةً ولا يرتبطون فيه فلا يحتملون نيره إلاّ لضعفهم تجد أبناء الشعب الراجپوتي يرَوْن أنفسهم إخواناً لرئيسهم مساوين له وارثين الشرف مثله كابراً عن كابر ، ولهؤلاء الأبناء ما لرئيسهم هذا من حقوق الإكرام ، وهو إذا خاطبهم فكما يخاطب الأخ الأكبر إخوته الصغار الذين لهم ما له من المصالح فلا يمتشقون الحسام معه إلاّ لحماية هذه المصالح المشتركة ، ولا يبدو سلطان هذا الرئيس مطلقاً إلا أمام العدوّ في الحرب كما يبدو سلطان القائد العام في جميع البلدان .

وما كانت قيادة الجيش ، التي هي أهمّ المناصب في دولة حربية منظمة ، لِتُترَك لصبيّ ، فما كان يحدث ، أحياناً ، أن تُقطع ممارسة الحكم لدى الشعوب الراجپوتية عندما يؤول العرش إلى عاجز عن القيام بأعباء الملك ، فيُفوَّض أمره إذذاك إلى ابن عم الكَلالَة[1] ، فيختار الملكُ الراحل قبل وفاته ، أو زوجاته بعد وفاته في الغالب ، الوارثَ للعرش بطريقة التَّبَنِّي على أن يوافق بقية أفراد الشعب على هذا الاختيار .

والراجپوت حافظوا على استقلالهم بفضل هذا النظام المتين الذي يُعدُّون به أبناء أسرة واحدة و بفضل شجاعتهم وموقع بلادهم الجبليّ ، فعاملهم المغول كحلفاء ، لا كرعايا ، حتى بعد استيلائهم على عاصمتهم چتُّور ، و يداريهم الإنكليز إلى أقصى حدود المداراة .

ورفض مهارانا أُوديپور كلَّ صِلَة نَسَبٍ بملوك المغول في إبان سلطانهم ، و بدا سليله أميرَ الهند الوحيدَ الذي رفض حضور اجتماع أمراء الهند حينما نُودي بملكة

(١) ابن عم الكلالة : إذا لم يكن لحا ، أي لاصق النسب ، وكان رجلا من العشيرة .

إنـكلترة إمبراطورةً على بلاد الهند رَادًّا إلى نائب الملك « قِلَادةَ كوكب الهنـد العظيمةَ الشأن » ، قائلاً بهزوه : « إن أحداً من أجداده لم يحمِل شعار الذلّ والعبودية » ، واليوم يتمتع مهارانا أودِيپور بشأن رفيع بين ملوك الشعوب الراجپوتيـة وفى جميع الهند لـكَرَم محْتِده وصفاته مع عَطَله من أىّ سلطان عسكرىّ مُهِم[1] .

والراجپوت يقولون بمبدأ الزواج من خارج العشيرة ، والراجپوت لـكى يحافظوا على هذا القانون المطلق محافظةً واضحة قوية لا يزالون يمارسون عادة خطف الخطيبة الرمزىَّ بعد أن كانوا يأخذون عرائسهم غصباً فيما مضى .

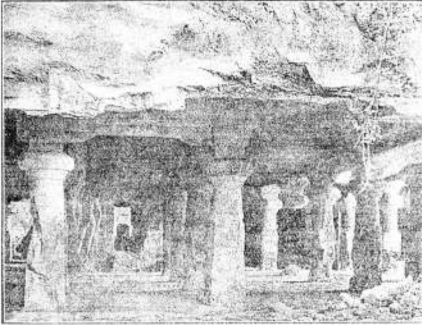
والراجپوتُ لـكى يحفظوا بناتهم من الزواج بغير كفوء زواجاً ينشأ عن اختطاف من هم دونهنّ شرفاً لهن ، ولـكيلا يكابدوا نفقات الأعراس الباهظة ، اتخذوا عادة قتلهن طفلاتٍ ، وقد أخذت هذه العادة الوحشية تزول فى الوقت الحاضر .

ونحن مع إمكاننا أن نَعُدّ الراجپوت كهندوس استطاعوا أن يحفظوا تقاليـد عرقهم من المؤثرات الغريبة بفضل مناعة منطقتهم لا نعتقد أن الهند كانت تنال مثل ما نالوه لو لم يَعُق تطورَها الغزاةُ من الأجانب ، فاعتقادٌ غيرُ هذا يكون عند نَسْيِنا الروحَ

---

(١) جاء فى الأساطير أن السى سوديا الذين يتألف منهم شعب أسرة أوديپور المالـكة هم من العرق الذى افترض أنه من سلالة راما فتجسد فيه وشنو الإله الشمس ، فإذا عدوت هذا الأصل الخرافى وجدت ذلك الشعب ذا تاريخ قديم ، فما قصه على پندت راتاپرتاب الذى كان دليلى فى أثناء إقامتى بأوديپور أن باپاراول هو مؤلف شعب السى سوديا فرأيت فى تاريخ الراجهستان لتود مايؤيد ذلك ، وقد اتخذ ملك ميوا الأول هذا مدينة نافدها ، الخربة فى الوقت الحاضر فنشرت بعض صور لآثارها فى هذا الـكتاب ، عاصمة له حوالى سنة ٧٠٠ من الميلاد ، ثم استبدلت بمدينة چتور بعد الاستيلاء عليها فظلت چتور عاصمة ميوار إلى أن فتحها المغول ، فاتخذت أوديپور إذ ذاك عاصمة بدلا منها ، ودام أمرها عاصمة إلى الوقت الحاضر ، فمن ثم ترى أن أسرة مهارانا تملك منذ اثنى عشر قرناً وأن قدماً كهذا لم يتفق لأسرة مالـكة فى أوربة ولا فى الهند التى لم تؤلف جميع أسرها المالـكة الحاضرة إلا بعد سقوط الدولة المغولية .

الطائفية التي تحول دون نموّ الروح القومية ، تلك الروحَ التي ظلت مؤثرة مع قلة أهميتها في دور اليقظة البرهمية العامة .



٨٤ ـ إيلفنتا . أعمدة المعبد الكبير المصنوع تحت الأرض (القرن الثامن من الميلاد) (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى سطحها خمسة أمتار)

ولم تبق الدول الراجبوتية ، التي تُشْبِه تخاريب النحل المُنَضَّدَ بعضُها فوق بعض تنضيداً هندسياً ، متماسكةً في الراجبوتانا لأن العدو لم يحملها على انتحال قوانينه فقط ، بل لفتور الراجبوت المحاربين الدينيّ الذي نشأ عن انهماكهم في الأعمال العسكرية في بيئة خَشِنَة غير صالحة للتأملات اللاهوتية .

ومن السهل بيان ما للروح الدينية في بقية الهند من التأثير المُفَرِّق في كيان الشعب بأن نقول إن لهذه الروح من العمل في كيان الشعب الأدبيّ مثل ما يكون

للنظام المدنيّ والحربيّ من العمل في نشوء الشعب ، فما تراه في الهند من تعدد الطوائف منذ قرون يتمّ ظهوره بمثل ما يتمّ به ظهورُ أحد الشعوب ، ومن ذلك أن طريداً شارداً خاسراً لطائفته يرفع راية الإصلاح الديني بإقدام فينضمُّ إليه بعض المريدين ، فإذا ما كان لَبِقاً نجيباً فاستطاع أن يلعب ببعض المشاعر عُدَّ مؤسساً مذهباً جديداً ، وإذا ما ذاع أمر هذا المذهب الجديد انقلب إلى طائفة جديدة .

وإليكَ ، إذَنْ ، الطائفةَ التي هي دائرة قرابة جديدة والتي تظهر خارج الشعب الذي هو دائرة القرابة الأولى ، مع اختلاف سُنَن الدائرتين وتناقضهما أحياناً ، وكلُّ هندوسيّ حقيقيّ ينتسب إلى طائفة وشعب معاً ، ولا يجوز له أن يتزوج إلاّ بفتاة من طائفته على أن تكون من غير شعبه ، وتُبْصِر النظام المعقدَّ المختلط الغريب في أعين الأوربيين الذي يمكن أن تنتهي إليه الهند لو سَمَحَت لها الأحوال بأن تسير طليقةً وراء مَثَلها الاجتماعيّ الأعلى وهدفها الدينيّ الأسمى ، وهذا الهدف الدينيّ وحدَه هو ما وَصَلت إليه الهند التي يكفي ما فيها من اختلاف الطوائف لقلب خيالاتنا الأوربية .

ولم يتفق للراجبوت ، بانتظام ، ذلك التَّبَلْرُ الذي يُحَوِّل فريقاً من الهمج إلى شعوب منفصلة إذا لم يُكَدَّر ، ولم يحافظوا عليه إلا بسبب الفتور الدينيّ الذي ذكرناه آنفاً ، وتَبَلْرٌ كهذا قد يشاهد في مرحلته الأولى لدى بعض هَمَج الهند كالبهيل ، ولكن الشعب عند هؤلاء ليس دائرة مقفلة تماماً ، وليست الأنكحةُ محظورةً عندهم إلاّ ضمن دائرة القبيلة .

وكلُّ شيء يُسَوِّغ لنا أن نرى معظم الهند الآرية في القرن العاشر من الميلاد على الصورة التي نرى بها الآن دُوَيْلات راجبوتانا المستقلة ، ومن أجل ذلك اتخذناها

أمثلةً على نظام الهند السياسيّ والاجتماعيّ قبل الفتح الإسلامي .

ولا نستطيع أن نُكَمِّل ، كما فعلنا في فصل آخر ، ما ذكرناه آنفاً بما رواه سياحٌ من الأجانب ، وما ورد في رحلة الرّحّالة العربي ابن بطوطة لا ينطوي على شيء كبير ، وليس أتمّ منه ما جاء في رحلة ماركوپولو السائح الأوربيّ الوحيد الذي زار الهند في القرن الثالث عشر ، وهاتان الرّحلتان جديرتان بالذكر مع ذلك ، لأنهما كلُّ ما لدينا من الوثائق الأجنبية عن جنوب الهند في القرن الثالث عشر .

وما رواه ماركوپولو من المعارف يدور حول الحضارة الدراويدية في جنوب الهند على الخصوص ، ولم نتكلم عن هذه الحضارة في هذا الفصل لنقص الوثائق ، ومما قصّه هذا الرّحّالة الشهير أنه وَجَدَ في ساحل كوروميندل أناساً سُوداً عُرَاةً عُبّاداً للبقر مقسومين إلى طوائف ، وأن المنبوذين وحدَهم كانوا يأكلون لحم البقر وأن هؤلاء المنبوذين كانوا يُستخدمون جزارين لذبح الحيوانات الأخرى ، لأن ذبح كلّ ذي حياة كان يُعَدُّ جرماً .

وقد أُعجب ماركوپولو ببهاء الحجارة الكريمة التي كان أولئك السُّود يَتَزَيَّنون بها والتي كانت تأتيهم من مناجم غولكوندا على ما يحتمل .

وكان أولئك القوم يتكلمون بلغة التمول ، وكانوا مقسومين إلى خمس ممالك تكلمنا عنها في الخلاصة التاريخية ، وكانت هذه الممالك واقعةً في الدَّكَن ، وكان يملكها خمسة إخوة .

وكان ملوك التمول يباهون بعدد نسائهم ، فكان لديهم نحوُ خمسمئة امرأة ، فكانت أرواح هؤلاء النسوة تفيض فوق المَوْقِد عند وفاة أزواجهن .

وبلغ ماركو بولو ساحل ملبار الذى كان يقطن فيه قرصان مقاديم ، وبلغ كوكَنَ حيث وَجَد أناساً هادئين مشهورين بشرفهم وصدقهم .

وأعجب ماركو بولو بكثرة مدن كجرات وبغناها وبازدهار تجارتها وبصناعاتها الخاصة ، ولاسيما صناعة جلودها المُرَصَّعة الموشاة التى كان الأهالى يصنعونها بفنٍّ عجيب، وباحترام أهاليها للحيوانات والبراهمة ، ومما شاهده أناسٌ عُرَاةٌ من البراهمة (اليوغويس) كانوا يعيشون من الصدقات كما فى أيامنا ، وأناسٌ قِبَاحٌ يُهْمِلون أبدانهم ويُطْلِقُون لُحاهم وشعورهم وأظفارهم ويقتلون أنفسهم جهراً ويُبْدُون أبشع المناظر .

وجزئياتُ الظواهر أكثرُ ما عُنِيَ به ماركو بولو ، فلم يكن باحثاً كهيوين سانغ أوفاهيان ، فلا نرى فى رحلته كبيرَ طائل .

وعلى ما تراه من نقص الأسانيد التاريخية تَجِدنا قد بعثنا قسماً غير قليل من المجتمع الهندوسى فى القرن العاشر ، فوَجَدْنا للوصول إلى ذلك ما هو أحسن من مذكرات المعاصرين ، وَجَدْنا فى دُوَيْلات راجپوتانا صفحةً حية مقتطعة من تاريخ الهند فى الأزمنة التى أردنا وصفها فظلت سليمة إلى أيامنا ، فعلى الباحثين أن يُسْرِعوا فى فكِّ رموزها وتَفَهُّمِها قبل أن تَطْمِسَ الحضارةُ الأوربية الحديثة معالمَها ، فالحضارة الأوربية ، وإن كانت دون الفتوح قسوةً ، أشدُّ منها تخريباً .

الفصل الخامس

حضارة العصر الهندى الإسلامى

وصفُ المجتمع الإسلامىّ فى الهند حوالَى القرن الخامس عشر

(١) تأثير المسلمين فى الهند ـ العروق الإسلامية فى الهنـد ـ دام العصر الإسلامى فى الهند من القرن الحادى عشر إلى القرن الثامن عشر ـ الشعوب الإسلامية التى استولت على الهند فى سبعة قرون ـ تأثير المسلمين العميق فى ديانة الهند ولغتها وفنونها ـ تأثير المسلمين فى الهند أقل منه فى مصر ـ أدخل المسلمون حضارة العرب إلى الهنـد بعد أن عدلت فى بلاد فارس ـ اختلاط حضارة المسلمين بحضارة الهند من غير أن تقوم مقامها كما تدل عليه دراسة المبانى ـ المغول ـ ضعف تأثير المسلمين العرقى فى الهنـد ـ (٢) الحضارة الإسلامية فى الهنـد ـ نظام الممالك الإسلامية السياسى فى الهند ـ وصف الحضارة المغولية فى الهنـد فى عصر الملك أكبر ـ عدم الأريستوقراطية الوراثية ـ سلطة ولى الأمر المطلقة ـ حياة الملك المغولى اليومية ـ إدارة المملكة ـ المصالح العامة ـ الطرق ـ البريد ـ الضرائب ـ العدل ـ نظام الجيش ـ شأن النساء فى بلاط ملوك المغول ـ ميل المغول إلى العلوم والآداب والفنون ـ آثار ملوك المغول العلمية والأدبية ـ مذكرات الملك بابر ـ أهميتها فى معرفة مزاج الأمير المغولى ـ مقابلة بين أمير مغولى وأمير فرنسى فى عصر النهضة .

---

١ — تأثير المسلمين فى الهند ، العروق الإسلامية فى الهند

يبدأ العصر الإسلامى فى الهند فى القرن الحـــادى عشر وينتهى من الناحية السياسية فى القرن الثامن عشر من الميلاد ، وهذا العصر عُرِف أحسنَ مما عُرِف أىُّ عصر جاء قبله بفضل مؤرخى المسلمين .

والهندُ خضعتْ في القرون السبعة التي دام فيها سلطان المسلمين لفاتحين من العرب والأفغان والترك والمغول القائلين جميعُهم بدين محمد وخلفائه ونُظُمهم .

وكان لهؤلاء الفاتحين الأثرُ البالغ في لغة الهند ومعتقداتها وفنونها ، ولا يزال هذا الأثر بادياً فتجد في الهند خمسين مليوناً من الهندوس يعملون بشريعة القرآن وتجد الناس يتكلمون في قسم كبير منها بلغة مشتقة من لغة السادة السابقين .

وفي فصل سابق درستُ تاريخَ الهند فذكرتُ مؤكِّداً تأثير المسلمين العظيم في جميع البِقاع التي خفقتْ فوقها رايتهم ، ففي مصر ، مثلًا ، قاموا بعملٍ أخفق الإغريق والرومان في القيام بمثله ، أي إنهم حوّلوا لغة شعب كانت له أقدم حضارات العالم وحوّلوا دينه وفنونه ، فلم يَنْشَب أبناء الفراعنة ، حين اتصلوا بالمسلمين ، أن نَسُوا ماضيَهم الذي بذل العلم الحديث جهوداً كبيرة لبعثه .

والتحولُ الذي تمَّ في جزء من الهند بفعل المسلمين هو دون التحول الذي وقع في مصر ، ففي الهند كان للمغلوبين من الأثر في الغالبين ما لم يَحْدث مثلُه في أيِّ بلدٍ خضع لأتباع محمد ، فبعد أن كان للحضارة الجديدة التي أدخلها الأفغان والترك والمغول إلى وادي السِّنْد ووادي الغَنْج فعلٌ عظيم في الحضارة القديمة التي كانت فيهما لم تلبث أن تأثَّرت بها فأسفر هذا عن ظهور حضارة ثالثة مشتملة على عناصر تينك الحضارتين بالتساوي تقريباً ، ونُسَمّى هذه الحضارة الثالثة بالحضارة الهندية الإسلامية .

ولم يَخْلُ العصر الهنديُّ الإسلاميُّ من مؤرخين ، ولو لم يَنْتَهِ إلينا من هذا العصر مخطوطاتٌ كافيــة لتنوُّره لأمكننا ذلك من البحث في المباني الكثيرة التي شِيدَت فيه فدلَّت على اختلاف المؤثِّرات الإسلامية باختلاف الأقطار ، فمن هذه المباني نعلم

أين كان أثر المسلمين البالغ وأين تغلبت عليه العبقرية الهندوسية ، وما تَجَلَّى فى المعابد والقصور من ضروب الفنون يدلنا ، كذلك ، على مصدر الأُسَر المالكة التى كان لها السلطانُ على الهند لِما تحمله هذه المبانى من الطابع الفنىّ الخاصّ بكلٍّ واحدة منها ، ويمكن القارئَ أن يَتَبَيَّنَ تاريخَ المسلمين فى الهند من الصور التى نشرناها فى هذا الكتاب عن فنّ عمارتهم .

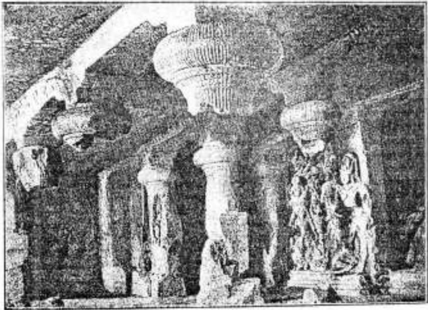
ولم يكن المسلمون الذين استولَوْا على الهند غيرَ مرة فى عهد محمود الغزنوى وتيمورلنك وبابَر وغيرهم من عرق واحد ، فغُزَاة المسلمين الأوّلون كانوا من الأفغان والترك ، وغُزاة المسلمين الآخرون كانوا من المغول مع شىء من التمازج ، وأما العرب الذين هم من أتباع محمد السابقين فلم يقيموا مستعمرات مُهِمَّة فى الهند وإن كانوا يجيئون إليها ، فى الغالب ، من بلادهم مجاوزين بحر عُمَان للتجارة فيُنْشِئون المستودعات ويستولون عَنْوَةً على أملاك فى السواحل الغربية نحو مصبّ نهر السِّنْد .

وإن مغازى جموع المسلمين الزاخرة التى انْقَضَّت على الهند فى ثلاثة قرون أو أربعة قرون من ثُغْرَة كابُل الدائمة الانفتاح هى أخرى المغازى التورانية ، ومن التورانيين ، على الخصوص ، أصحابُ بابَر المغولُ ذوو الوجوه المُسَطَّحة والجلود الكامدة والعيون الحادّة الأفقية الغائرة والوَجَنات البارزة والشعور السُّود المُسَنْدَرة[1] واللُّحَى المَعِرة[2] ، ويختلف هؤلاء المغول الذين هم إخوان هون أتيلا وكلوكُ الأورال كثيراً عن الأفغان ذوى الخدود الضيقة والأُنوف المتقارية وعن الترك ذوى العيون النُّجْل والجلود البيض والوجوه المتناسبة الصفيقة .

---

(١) المسندرة : المنبسطة — (٢) المعرة : القليلة الشعر .

وكان المغول فاتحين لجميع آسية تقريباً ومُهَدِّدين لأوربة حيناً وَصَلوا إلى الهند ، ولم تؤَسَّس دولةٌ واسعة بسرعة كالتي أسسوها ، وهؤلاء القوم بينما كانوا يَرعونَ مواشيَهم في مراعي سيبرية العظيمة المُمِلّة استحوذت عليهم روح حرصٍ غريبةٌ طائشة فانقضُّوا بغتة على العالم افتتحه سائرين وراء خيال يختلف عن مطامع الجمهورية الرومانية المنظمة الفاترة وحَميَّة العرب الدّينية ، ذلك الخيالِ القائم على الفتح العالمي للتَّلَهِّي بالفتح نفسه ، وإن شئت فقل لإذلال الأمم أمامَ رايتهم وحملها على التسبيح بحمدهم ولوضع جَبَرُوت رئيسهم الأعلى الخانِ الأكبر فوق البشر .



٨٥ — إليفنتا . أعمدة في المعبد السابق

يبدو جنكيز خان وتيمورلنك في التاريخ كابوسَيْن مُكَلَّلَيْن بتاجين من النار والدم ، وتجِد ناحيةً غيرَ مُدْرَكَة يَعْظُم بها شأنهما الهائل المرهوب ، وهي ما تراه

فيهما من التناقض المترجح بين الوحشية والتسامح ، و بين الجبَرُوت الذى كانا يذبحان به الخلائق عند أقلّ مقاومة والحلم الذى كانا ينحنيان به أمام آلهة المغلوبين ، و بين همجيتهما التى كانا يقيان بها ، بدم بارد ، أهراماً من هام(١) المقهورين وحبِّهم للآداب والفنون والعلوم الذى تحوّل به كثيرون من قومهم الأجلاف إلى أدباء وعلماء .

كان دين المغول الفطريّ قائماً على عبادة قُوى الطبيعة ، شأنَ جميع الدّيانات الفطرية تقريباً ، فكانوا يعبدون الشمس والأرض والخيل ، ثم انتحلوا أكثرَ معتقدات الأمم المغلوبة بالتتابع مضيفين هذه الآلهة بعضها إلى بعض ، و إذا غدُوا من فاتحى الهند المسلمين فلأنهم كانوا حين دخلوها متصلين ، منذ زمن طويل ، بأمم مسلمة كالفرس والأفغان والترك ولأنهم كانوا مشبعين من حضارة العرب المهيمنة على غرب آسية .

ومن الحظّ الحسَن أن لَقِى تسامحهم الكبير تسامحَ الهندوس فبُذِلَت جهود فى أيام دولتهم لدى الغالبين والمغلوبين لصَهْر مختلف المعتقدات بعضها فى بعض و إخراج ديانة واحدة منها ، فهذا ما سَعَى إليه مؤسس مذهب السِّك المصلح نانك ، وهذا ما سعى إليه الملك أكبر وآخرون ، فعلى ما حَبِطَتْ به تلك الجهود فلم يتّفق للهند دين واحد ظلّ بعض أديان الهند يُمَارَس بجانب بعض من غير تنازع .

وسنرى ، حين البحث فى أديان الهند الحديثة ، ما هو أمر الإسلام فيها وما هى التطورات التى اتفقت له ، وهو دين التوحيد ، ليلائم روح الإشراك فى الشعوب التى

(١) الهام : جمع الهامة وهى رأس كل شىء .

اعتنقته ، والآن نقتصر على البحث فى المؤثرات العرقيـة التى نَجَمت عن المغازى الإسـلامية .

من الشَّطَط أن يُقال إن تلك الغَزَوات أسفرت عن ظهور عرق جديد ، فكان الغُزاة من القِلّة ما لا يَتَعذَّر معه أن يُصْهَروا فى جموع الأمم المغلوبة ، والغُزاة أولئك كانوا مُوَلَّدين مع ذلك .

ولم يلبث المغول ، المتصفون بروح التسامح والتوفيق ، أن أرادوا الاتحاد بسكان الهند الذين وَجَدوهم مستقرين بهـا ، فتهافتوا على الزواج ببنات الراجپوت فلم تَعتَّم سَحَناتهم أن تغيرت تماماً بعـد أن تطورت بمصاهراتهم للأفغان والترك ، فمن إنعام النظر فى صور ملوك المغول المرسومة فى المخطوطات تبدو لنـا وجوههم الأكثر تناسباً واسـتطالة من وجوه المغول الأصليين المُسطَّحة ذاتِ الأنوف المُتَطامِنة[1] والشِّفاه الغليظة .

ويجب أن يُفرَّق فى زُمَر المسلمين الذين يبلغ عددهم فى الهند نحو خمسين مليوناً بين حَفَدة الأُسَر الإسلامية وحَفَدة الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام .

فأما حَفَدة الأُسر الإسلامية ، وهم الأقلون ، فيشابهون المثالَ التركىّ ، ويتألف منهم قوم طائشون بائسون أسِفون على الزمن الذى كانوا فيه سادة البلاد منتظرون الزمن الذى يَتِمّ فيه النصر لشريعة النبى .

وأما الهندوس المسلمون فأكثر عدداً ، ويختلفون قليـلاً عن إخوانهم البراهمة مثالاً وأخلاقاً .

ونُلَخِّص ما تقدم بقولنا إن أثر المسلمين العرقىّ فى الهند ضعيفٌ وأثرَهم الأدبىّ

---

(١) المتطامنة : المنخفضة

عظيم ، وأكثر ما يبدو هذا الأثر الأدبى فى المبانى والمصنوعات الفنية ، وله عمل كبير فى الدين واللغة ، كما يظهر ذلك من الفصول التى تدرس فيها مبانى الهند ودياناتها ولغاتها فضلاً عن هذا الفصل .

٢ — الحضارة الإسلامية فى الهند

أجملنا فى فصلنا عن تاريخ الهند أهمّ حوادث الممالك الإسلامية فى الهند ، ونذكِّر أن دولة المغول ، التى تتكلم عنها الكتب على العموم ، لم تدُمْ سوى مئتى سنة من السنوات السبعمئة التى كان السلطان فيها المسلمين ، ففى بعض ذينك القرنين ظلّ كثير من الممالك الإسلامية قائماً فى الدكن ، ولم تُجْمَع الهندُ بأسْرها تحت راية ملك مغولىّ واحد إلاّ قُبَيْلَ سقوط الدولة المغولية .

ويتضمن وصفنا لتاريخ الحضارة الإسلامية فى الهند بحثاً لتاريخ حضارة العرب التى خَصَّصْنا سِفْراً كبيراً لدراستها ، فمسلمو الهند لم يُدْخِلوا إلى الهند ، بالحقيقة ، سوى حضارة العرب بعد أن تَحَوَّلَت بعضَ التحول فى بلاد فارس بفعل الأزمنة والأمكنة والاختلاط بالشعوب المغلوبة ، وذلك على درجات مختلفة ومع دوامها على التحول .

وأدخل المسلمون معهم إلى الهند نُظُم الدول العربية القديمة السياسية أيضاً ، وكانت هذه النُّظُم السياسية تَحْمِل فى تضاعيفها المحاسن التى أدَّت إلى ازدهار الدول العربية فيما مَضَى والمساوئ التى أوجبت انحطاطها .

حَقّاً ، لقد بَدَت جميع الدول الإسلامية ، فى الهند وغيرها ، مطلقةً على الدوام جامعةً لجميع السلطات الدينية والعسكرية والمدنية فى أيدى وُلاَة لا رقيب لهم ،

فكانوا يَسْعَوْن فى إعلان استقلالهم وتأسيس ممالك لهم من فَوْرِهم ، وحَقًّا أن الممالك العظمى المطلقة التى تكون جميع السلطات فيها قَبْضَةَ رجل واحد تلائم الشعوب المتبربرة لِما يؤدى ذلك إلى الفتح ، فهذه الممالك لا تدوم إلا إذا ساسها رجال عظام، والرجالُ العظام إذ نَدَر ظهورهم وقع ما نعلم من انهيار الدول الآسيوية الكبرى فى وقت قصير ، وذلك ما وقع لدولة المغول التى ازدهرت أيما ازدهارٍ عندما كان على رأسها رجالٌ كِبار فسقطت عندما عَطِلت من مثلهم .

والمسلمون ، حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب، أدخلوا معها رغبة كبيرة فى العلوم والآداب والفنون ، وما شادوه فى عواصمهم: أحمد آباد وغور ودهلى و بيجابور، الخ . من المبانى ينطِق بعظيم حمايتهم للفنون ، وما انتهى إلينا من تراجم ملوك المسلمين يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يُشَجِّعون الآداب والعلوم أيضاً ، وأنهم كانوا يتعهدونها بأنفسهم ، ليس ذلك فى كُبْرَى الممالك وحدَها ، بل فى صُغْراها أيضاً ، ومن ذلك أن ملك مملكة غولكندا الصُّغْرَى فيروز شاه كان يزاول علم النبات والهندسة والشعر ولا يحيط نفسه بغير العلماء والشعراء والمؤرخين مع أشاغيله فى الحروب ضدّ دولة بيجانَغَر .

وعلى تلك السُّنَّة سار ملوك المغول ، وهى التى كانت مشتركة بين جميع الدول الإسلامية فى أوربة وآسية و إفريقية كما أثبتنا ذلك فى كتاب سابق[1] .

و إذ لم نستطع أن نَرْسُم تاريخ مختلف الحضارات الإسلامية فى الهند ، نقتصر على وصف حضارة المغول التى هى أكثر تلك الحضارات ازدهاراً ، فما جاء فى أخبار

---

(١) قصد المؤلف بذلك كتاب « حضارة العرب » وقد نقلناه إلى اللغة العربية . (المترجم)

مؤرخيهم وأنباء الأوربيين الذين زاروا الهند فى عصرهم يساعدنا على الحكم الصحيح فى إدارتهم ونظام دولتهم ، وما أبقوه من المبانى يساعدنا على الحكم الصحيح فى الفنون أيام سلطانهم .

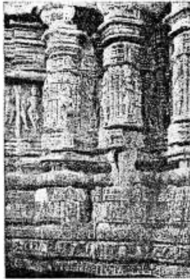
ذَرَّ قَرْنُ[1] الدولة المغولية فى الهند عندما استولى بابَر فى سنة ١٥٢٦ على أغرا التى كان يملكها أمير أفغانىٌّ من أسرة لودى المالكة فمات فيها مليكاً لهندوستان وكابل ، فلم يَألُ ابنه هُمايون جهداً فى الصراع دَعْماً لدولته ، ولم تبلغ دولة المغول فى الهند ذروة الرقى إلا فى عهد ملكها الثالث أكبر الذى ارتقى العرشَ سنة ١٥٥٦ فدام سلطانه خمسين سنة ، فهذا الملك الذى هو من أكابر رجال التاريخ ساوى بين المسلمين والهندوس حاضّاً تينك الأمتين على التزاوج جاعلاً نفسه قُدْوَةً ، وهذا الملك، وإن لم يُوَفَّق لصهر ديانتى تينك الأمتين فى دين واحد ، استطاع أن يَمْزُج فنون العمارة للأمم التى خضعت لحكمه ، وهذا الملك وَسَّع رُقْعَةَ مملكته ودَبَّر شؤونها تدبيراً رشيداً كما يظهر ذلك من الكتاب الكبير الذى أمر وزيرَه أبا الفضل بنشره، فترى أنه أحصى الأراضى ومسحها وقَدَّر أنواع تراب الولايات وفرض الخراج على حسب الخِصْب فجعل ثُلُث الغَلَّات للدولة وثُلُثَيْها للمزارعين ، وألغى كثيراً من الضرائب وصار يدفع إلى ضباطه رواتبهم نقداً بدلاً من الإقطاعات .

وداومت دولة المغول على الازدهار فى عهد خلفائه : جهانكير وشاهجهان وأورنغ زيب ، بيد أن ماصدر عن أورنغ زيب هذا من عدم التسامح وما شَهَرَه على ممالك الدَّكَن الإسلامية من الحروب أعدَّ دولة المغول للانهيار، فلم تلبث الهند عند وفاته

---

(١) ذر القرن : طلع أدنى شىء منه .

سنة ١٧٠٧ أن وقعت فى وَهْدَة الفوضى ، كما ذكرنا ذلك فى فصل سابق .



٨٦ ــ أميرناتها . نقوش طرف جانبى من المعبد (القرن التاسع على ما يحتمل) (يبلغ ارتفاع القسم الظاهر فى الصورة أربعة أمتار و ٥٠ سنتيمتراً)

وفى أوربة تُعَدُّ كلمة سلطان المغول مرادفةً لكلمة السلطان المطلق والأُبَّهَةِ الباهرة ، ولا يخلو هذا من أساس ، فالحقُّ أن مَلِكَ المغول كان مطلقاً ، فكان يستعين بسلطانه على صبِّ كنوز مملكته ، الغنيةِ إذ ذاك ، فى بَلاطه وإنفاقها على ضروب العظمة التى لا تعلوها عظمة .

وكنت تبصر بجانب الملك وزراء فتحسب أنه يستشيرهم فى شؤون الدولة المهمة ، مع أن هواه كان دستور دولته ، وكانت السلطات المدنية والحربية والدينية قبضتَه ، شأنَ جميع ملوك المسلمين ، فكان ظلَّ الله الحيَّ المرهوب وخليفتَه القادر فى الأرض .

وكان وزراؤه وولاته وقادته ومن إليهم من أمراء المغول صنائعَ فيرفعهم ويخفضهم بكلمةٍ تخرج من فيه .

ولم توجد أرستوقراطية وراثية عند المغول ، فالملكُ هو الذى كان يُوَزِّعها ويستردُّها كما يشاء ، والمَلِك هو الذى كان يَرِثها عند وفاة صاحبها ، فإذا ما قَضَى المرء نَحْبَه ، بعد حُظْوَة لدى الملك وتصرّف فى أموال البلاد ورقاب العباد وتمتع

بأطايب النعم ، ترك زوجته وأولاده فقراء فقراً مُدْقِعاً ، وكلُّ ما كان يقدر على صنعه لهم فى أثناء حياته هو أن يدفعهم إلى البَلاط ليكونوا محطًّا لأفضال الملك الذى يديم نِعْمَتَه عليهم ، أحياناً ، بعد وفاة أبيهم أو يُجْرِى عليهم رزقاً قليلاً .

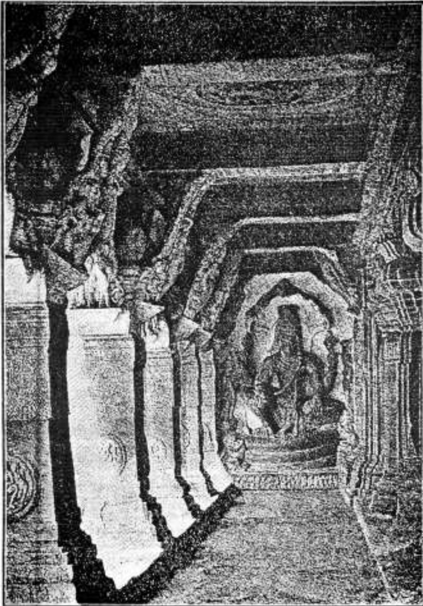
وكان ملك المغول لا يحتجب فى الهند ، فهو إذا كان يستاب رعاياه فى الغالب فإنه لم يَسْلُبهم نِعْمَةَ إمتاع العيون ، فكان يبدو للناس على الدوام .

ففى الصباح كان يظهر فى شُرْفته فيجتلى الجمهور طَلْعَتَه فيَهْتف له ، وما كان ليعدِل عن الظهور فى الشُّرْفة إلا فى حالة المرض الشديد ، وإذا حلَّ وقت الظهر عاد إلى تلك الشُّرْفة ليشاهد صِراع الفُيُول ومختلفَ التمارين العسكرية وما إليها مما يَتِمُّ فى ساحة القصر ، وإذا كان وقتُ العصر جلس للإستقبال ولاستماع كل ما يَجْدُر أن يقال له .

والحقُّ أن الدنو منه كان صعباً ، فكان يحاط بنطاقَيْن أو ثلاثة نُطُق من ذهب يتخللها أمراء وحرّاس لابسون أبهى ثياب حاجزون للناس عن العرش ، والحقُّ أن منظر الاحتفال والملك الذى كان يبدو رائع الطَّلْعَة بين الجواهر كان ثمناً كافياً لنسيان الشعب ما يدفعه فى مقابل انبهاره وحماسته ذات حين مع الاحترام القريب من الفَزَع .

وفى العاصمة كانت النفائس الفنية تُجْمَع أيام سلطان المغول كما كان الأمر فى أكثر الممالك الإسلامية ، والولاياتُ إذ كان يَضْغَطها وُلاة طُمعاء كانت تَقْضِى حياة بؤس فتثور فى الغالب .

جاء فى مذكرات الملك جهانكير ابن الملك أكبر ما يأتى :



٨٧ ــ بادامى . أعمدة وتماثيل فى معبد مصنوع تحت الأرض (القرن السادس من الميلاد)
(يبلغ ارتفاع المعبد إلى مستوى التمثال الظاهر فى الصدر (وهو تمثال وشنو الجالس
على الأفعى أنانتا) نحو خمسة أمتار)

« علمتُ ، وأنا فى دهلى ، أن فتنة اشتعلت فى قنوج فأرسلتُ كتائب لإطفائها ، فقتل ثلاثون ألفاً من العُصاة وأُرسل عشرةُ آلاف رأس مقطوع إلى دهلى ، وصُلِبت عشرة آلاف جُثَّة صلباً معكوساً فى سُوق الشجر المغروس على جوانب الطرق العامة ، وعلى ما ترى من المذابح لم تفتأ الفِتَنُ تَنْشَبُ فى الهندوستان ، ولا تجد ولاية من ولايات الدولة لم يُذْبح فيها خمسمائة ألف شخص فى عهدى وعهد أبى . »

وقد حَفَزَت ضرورة اطِّلاع الملوك على ما يحدث فى الولايات إلى تنظيم شؤون البريد لتسير بسرعة وانتظام فى كلِّ ناحية ، فلا تزال تجرى فى كثير من الجهات ، فالبُرْد كانوا سُعاةً مُشاةً يتناوبون أعمالهم بين مسافة ومسافة فى الطُّرُق العامة ، وكانت تُنْصَب على جوانب الطرُق حجارة بيضٌ تُرَى ليلاً حِفْظاً للسُّعاة من الضلال .

ويظهر أن الطُّرُق كانت جيدةً فى العهد المغولى ، فقد زعم تافرنيه الذى ساح فى الهند فى أواسط القرن السابع عشر أن طُرُق الهندخيرٌ من طُرُق فرنسة وإيطالية ، وروى أن الانتقال من مكان إلى آخر كان يَتِمُّ بهوادجَ يحمِلها سُعاةٌ سُرْعان أو بمراكبَ تَجُرُّها الثِّيران ، ووسائلُ نقلٍ كهذه لا تزال مألوفةً فى البِقاع التى لم تُمَدَّ فيها خطوط حديدية ، أى فى معظم بلاد الهند .

وكان خفراء من الجنود يحافظون على السُّيَّاح ، فكانوا مسؤولين تجاه قادتهم المقيمين بالمُدُن الكبيرة عن كلِّ ما يُصاب به من يرافقونهم منهم ، فإذا ما قَصَّروا فى العناية بسائح أو لم يجيدوا الدفاع عنه لم يُوصِ بهم رئيسهم فيخسروا معاشهم .

وفى شمال الهند كانت الطرق الجيدة والمواصلات السهلة ، وعكس ذلك حال الدكن الناشزة البعيدة من مَقَرِّ الدولة .

وكانت تُعَدُّ جميع أراضى الدولة المغولية ملكاً شخصياً لولىّ الأمر ، وكانت تقَسَّم إلى صنفين ، فالصنف الأول كان يشتمل على الأراضى التى يُقْطِع الملك قادة الجيش إياها بشرط أن ينفقوا على كتائبهم وأن يدفعوا إلى بيت المال مبلغاً معيناً فى كلّ سنة ، والصنف الثانى كان يشتمل على الأراضى التى يستأجرها ملتزمون ببدل سنوىّ يؤدونه ، فكان هؤلاء الملتزمون ، كنواب الملك ، ذوى سلطان مطلق على من يَقْبِضون على زمامهم من الأهالى ، فكانوا يجورون عليهم فى الغالب ، فكان الفلّاح التَّعِب من العمل الدائم فى سبيل غيره لا يبالى بالزرع فلا يحرُث ولا يَحْصُد إلا بالسياط ، وكان إذا ما جمع مالاً دفنه فى التراب مُظهِراً أقصى درجات البؤس حَذَرَ سلبِ ما عنده ظلماً وعُدْواناً .

ووصف السائح فرنسيس بيرنيه ، الذى أقام بدهلى اثنتى عشرة سنة فى أواسط القرن السابع عشر ، أى فى عهد الملك شاهجهان فاقتبسنا منه هذه التفاصيل ، مظالمَ الوُلاة ورُشاهم و بُؤْسَ الرعايا وافتقارَهم وصفاً قاتماً .

كان العدل غير سليم ، فكان يُغْوَى القضاة بالهدايا كما يُغْوَى وزراء الملك و بطانته وأزواجه ، أجَلْ ، إن الملك أكبر علّق فى قصره أجراساً يمكن كلَّ إنسان أن يقرعها ليشكوَ ظلماً أصابه ، غير أن القوم كانوا يعلمون أن من يصنع ذلك يكون عُرْضَةً لانتقام الظالمين الفظيع ، فكانت تلك الوسيلةُ غير صالحة لدرء المظالم .

والملكُ إذ كان يتعذر عليه أن يدير شؤون ممالكه الواسعة بنفسه وأن يراقب نائبيه كان يرسل مفتشين من لَدُنْه ليخبروه بما يقع ، ولكن هؤلاء ما كانوا ليَشُوا إلى الملك بغير فقراء الحكام أو بُخَلاء الوُلاة الذين لم يشتروا حُسْنَ شهادتهم لهم .

وما كان أمر الجيش خيراً من ذلك ، فقد عُدِل عن نظام أكبر فى دفع رواتب

الجنود نقداً إلى إقطاع أمراء الجيش الإقطاعات على أن يُمَوِّنوا الجنود ، وأمرُ هذا الإقطاع إذ كان موقتاً لم يفكر أولئك الأمراء فى غير الاغتناء سريعاً على حساب الكتائب ، فكان الجنود يُسَرَّحون والخيولُ تُباع ، فإذا ماأريد العَرْضُ اكْتَرى أمير الجيش خيلاً وجعل من العبيد جنوداً ، وما كان الملك ليجهل هذا الخداع ، وإنما كان يُغْمِض عينيه مكتفياً بتبديل وُلاته وقوّاده لكيلا يكون لديهم من الوقت ما يقدرون فيه على الاغتناء كثيراً والتفكير فى العصيان .

ومع ما تُبْصِره من نقص فى النظام العسكرىّ يثبت توالى انتصارات الجيوش الإسلامية على الجيوش الهندوسية تَفَوُّق تلك على هذه ، ومما نَعْلَمه أن راجه بيجانغر عَجِب ، أيام فتوح الدَّكَن الأولى التى تَمَّت فى القرن الخامس عشر ، من أنه لم يَغْلِب المسلمين فى أية ملحمة فعقد مجلساً من الأكشترية والبراهمة لاكتشاف السبب فى توالى انكساراته مع أنه أكثر جنداً وأوسعُ أرضاً وأوفرُ مالاً .

بدا البراهمة أولَ المتكلمين فعَزَوْا تلك الانتصارات إلى المشيئة الإلهية لاريب ، بيد أن الأكشترية اعترفوا بأن المسلمين أمهر من الهندوس فى الرِّماية وأن خيولهم العربية أو الفارسية أهمّ من فُرُوس الدَّكَن القصيرة ، فأسفر ذلك عن سعى الراجوات فى اجتذاب المسلمين إلى جيوشهم فاستطاعوا أن يَضُمُّوا فريقاً من المسلمين إليها فتمّ لهم بذلك بعض الفوز على ممالك الدَّكَن الإسلامية التى مَزَّقَتها الفتن الداخلية ، وفوزٌ تمَّ للهندوس مثلُ هذا لم يَدُمْ ، مع ذلك ، إلاّ إلى حين إغضاء الممالك الإسلامية عن اقتتالها قليلَ زمنٍ مُتألِّبةً عليهم .

ولم يَتِمَّ ذلك إلا فى أواخر الدولة المغولية حين قلَّت الحروب وانحلَّت عُرَا الجيوش الإسلامية ووقعت فى الحال التى نشأت عن جَشَع القوّاد وعدم اكتراثهم

فألمعنا إليها آنفاً ، وأضحت تلك الجيوش أداة ناقصة فى أيدى الملوك عندما أخذت الفتن تشتعل بين الأهالى وشرع نواب الملك المسلمون يرفعون رايات العصيان فيُضَعْضِعون أركان دولة المغول الكبرى .

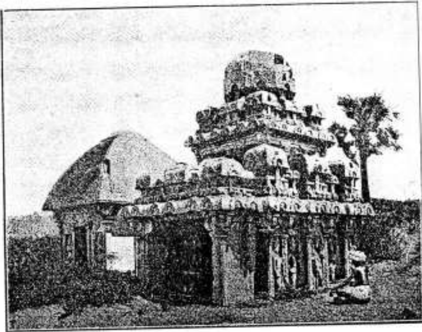
رأى الملك أورنغ زيب الذى عاش فى ميادين الحروب ألاّ يُغادر معسكره ، فاستنفد كنز أسلافه الخفىّ فأحاط نفسه بقوًى كبيرة ومِدْفَعِيَّة عظيمة وفروسية منظمة ، فكان يقضى أيامه بين هذا الجيش الرائع الهائل فنُقِل إليه نساؤه وجواهره وثيابه الزاهية على ظهور الفيول تحرسها صفوف متراصة من المحاربين مع المدافع ويتقدمها فريق من محرقى العطور .

وكان الملك إذا ما حَطَّ رَحْلَه فى مكان نُصِبت الخيام بسرعة عجيبة فيُخَيَّل إلى الناظر أن مدينة خرجت من الأرض ذاتَ شوارعَ وميادينَ ومفارقَ وحصونٍ حسنةِ التخطيط ، وكان لكلٍّ خيمة من تلك مكانٌ مُعْلَمٌ على خريطة مرسومة قبلاً ، فتبدو قصور الملك المتحركة مشتملةً على ما فى أروع المبانى من وسائل الراحة ، فالحقُّ أن معسكر أورنغ زيب غدا العاصمةَ الحقيقيةَ للدولة .

ومَثَّل النساء دوراً مهماً فى بَلاط ملوك المغول ، فحاول أوائل هؤلاء الملوك ، على الأقل ، أن يَضْفَروا العرقين أحدهما بالآخر بتزوجهم أميراتٍ هندوسيات وبناتٍ لزعماء الراجبوت على الخصوص ، وبِحَثِّهم المسلمين على الاقتداء بهم فى هذا المضمار .

ولم يكن لملوك المغول عددٌ معين من النساء فكانوا لا يحترمون شريعة محمد فى ذلك كما أنهم لم يحترموها فى أمور أخرى ، فبلغ عدد النساء فى دائرة حريم الملك

شاهجهان نحو ألفى امرأة ، وما كان شاهجهان ليكتفيَ بهذا العدد ، فكان لا يَخْشَى أن يَبْحَثَ عن خليلات له بين نساء أمرائه ، فأسفر هذا عن سُخْطٍ شديد لمقتِ المغول زناء الأزواج .



٨٨ — مهابلي پور ، معبد مصنوع من جلمود (القرن السادس من الميلاد)

وإذا كان الأمراء يرتاعون من تَوَلُّع الملك بزوجاتهم فإنهم كانوا يُسَرُّون من تَوَلُّعه ببناتهم ، فكان من أقصى أماني الموظف الكبير أن يرى ابنته بين حريم الملك ، فكان يمكن هذه الفتاةَ ، وهي خليلة للملك ، أن تكون عيناً عليه ، وكان يمكن هذه الفتاةَ أن تصبح ملكةً إذا ما راقت الملك ، فتنال بذلك نفوذاً بالغاً وتَصِير عاملَ سعادةٍ لأسرتها .

وكان للعجائز اللائى يراقبن الحريم من النفوذ ، فى الغـالب ، ما يعلمه نواب الملك وملوك الأجانب ، فيشترى هؤلاء ، بسهولة ، حمايتهن لهم بالبراطيل .



٨٩ ـ مهابلى پور ، نقوش بارزة على صخرة تمثل مقاتلة دورغا للغول مها ـ ورا (القرن الثامن من الميـلاد)

والإنسان يقضى العجب من أُبَّهَة حريم الملك ، فـكان لـكلٍّ واحدة من نِسْوَته جَوَارٍ وراقصاتٌ ، وكانت كلُّ واحدة منهن تَلْبَس كلَّ يوم ثوباً جديداً وحَلْياً جديداً .

وكان طُهَاة الملك يُطْعِمون المِلِـكات المعروفات بِبِي غَمْ » أى اللائى

لا يَعْرِفْنَ الغم » ، وكانت الخليلات يَقُمْن بشؤون أنفسهن بما يأخذنه من المِنَح والهِبــات .

والملك شاهجهان أقام المَزارَ الرائعَ تاج محــل من أجــل أحبَّ زوجاته لديه وأعزِّهنَّ عليه ، فَعُدَّ هذا المزار من أعجب ما اشتمل عليه العالم من المبانى .

وسار المغول على غِرَار المسلمين الآخرين فأداموا حضارة هؤلاء مُحِبِّين للآداب والعلوم والفنون حُبًّا جمًّا ، فرحَّبوا بالشعراء والعلماء ورجال الفنّ مهما كان جنسهم، ولا تزال المبانى التى شادوها ، لم يَصْنَع الغرب ما هو أروع منها ، تُثِير العجب ، ولم تكن العلوم دون الفنون حُظْوَة فى دولتهم فأنشأوا المدارس وأقاموا المراصد ، وحُبُّ المغول لعلم الفلك وَرِثوه كابراً عن كابر ، فقــد جلب خان المغول هلاكو إلى بَلاطه أشهر علماء العرب وأقام فى مراغة مرصداً كبيراً سنة ١٢٥٩ ، ولما اتخذ تيمورلنكُ مدينةَ سمرقند عاصمة لدولته العظمى أحاط نفسه فيها بالعــلماء ، ولما حلَّت أواسط القرن الخامس عشر بنى حفيده أولوغ بك مرصداً مُجَهَّزاً بآلات رَصَد رائعة نذكر منها ربعَ الدائرة التى بلغ نصف قطرها ارتفــاعَ كنيسة أياصوفية فى القسطنطينية على ما يُرْوَى فأسفر ذلك عن نتــائج ذات قيمة فى الفلك فنشر أولوغ بك هــذه النتائج فى كتاب مهم مشتمل على أهمّ مسائل الفــلك وعلى مواضعَ صحيحةٍ للنجوم[1] .

(١) لايزال يرى فى دهلى مرصد أنشىء فى العصر المغول ، فهذا المرصد قد أقامه راجه جيبور : جى سنغها للملك المغول محمد شاه حوالى سنة ١٧٢٠ ، وراجه جيبور هذا استعان بفريق من الفلكيين والمهندسين والرياضيين ، فاحتوى ذلك المرصد على ساعة شمسية يبلغ ارتفاعها ١٧ متراً و٢٥ سنتيمتراً ويبلغ طول قاعدتها ٣١ متراً و٧٢ سنتيمتراً ، وراجه جيبور هذا أتم بناء المرصد=

ولم يَبْدُ ملوك المغول حماةً للآداب والعلوم وحدَها ، بل ترى الكثيرين منهم قد حَذِقوها أيضاً ، فالحقُّ أن حبَّ الآداب ، ولا سيما الشعر ، كان نامياً عندهم ، فألَّف بعضهم كتباً مهمة فيها ، ونذكر من بين ملوك المغول تيمورلنك الشهير الذى أقام فى بغداد ، كما يُرْوَى ، هَرَماً من مئة ألف رأسِ إنسانٍ فأنشأ المدارس وشَمَل العلوم بعين رعايته وألَّف كتباً ذات قيمة ، وكان حَفَدَته بابَر وجهانكير وغيرهما مثلَه ميله فعُدَّت مذكرات بابَر ، التى شُبِّهت بتفاسير يوليوس قيصر ، نموذجاً حسناً فى الآداب ، ومن هذه المذكرات نعلم جَمْعَ المغولىِّ بين الوحشية والمدنية علماً أحسنَ مما فى جميع كتب المؤرخين ، ولا شىء يَشْمُل النظر أكثرُ من تَجَلِّى حقيقة مؤسس الدولة المغولية بالهند بابَر فى مذكراته تلك ، فبابَر ، هذا الجبَّارُ الذى هو سليل جنكيز خان وتيمورلنك ، سار على سُنَّة أجداده فأقام أهراماً من الرؤوس المفصولة ، وتبصره ، مع جَبَرُوته هذا ، أديباً رقيقاً ، وكان بابَر هذا يتكلم المغولية والعربية والفارسية ، وله قصائد باللغة الفارسية ، وكان بابَر هذا صبوراً على مطالعة كتب العلوم والآداب والتاريخ ، وكان حُبُّه للقراءة لا يمنعه من أن يكون مقاصراً كبيراً

= الذى تشاهد أطلاله فى مدينة پارس ونشر أزياجاً ، وعلى ما تجده من بساطة هذه المراصد ، إذا ما قيست بآلات الرصد الحديثة ، أدت إلى نتائج صحيحة فى علم الفلك بفضل أبعادها مع بساطة طرقها ، وتنويراً للذهن نقول : إن تعيين انحراف سمت الشمس وعرض أحد الأمكنة يكون بساعة شمسية مؤلفة من جدار قائم مقسوم إلى درجات ذى ميل مستقر به استقراراً عمودياً ، فتحدث الشمس عليه ظل هذا الميل ، فترصدات الشمس المكررة كل يوم إذ كانت تسفر عن قيد أكبر مسامتة لها وأصغر مسامتة لها كان نصف الفرق بين الرقمين دالا على أبعد حد لنصف النهار ، ومن ثم على انحراف سمت الشمس ، ونحن بطرحنا هذا الرقم من أعظم مسافة للمسامتة نتوصل إلى عرض المكان ، فعلى هذا الوجه وجد العالم الفلكى المذكور آنفاً رقم ٢٣ درجة و ٢٨ دقيقة كأبعد حد لنصف النهار ، أى وجد رقماً قريباً من الرقم الصحيح بنحو نصف دقيقة .

وشارباً مفرطاً ورفيقاً أنيساً وباسلاً وَفِيًّا لأصحابه مع استخفاف وتهكم ، وبابَرُ هذا ، مع علمه كيف يبدو ملكاً كبيراً عند الاقتضاء ، كان يدعو السفراء ، الذين يفِدون على بَلاطه ، إلى طرح الكُلَف الرسمية جانباً في بعض الأحيان ليقْضوا معه ساعة لهو ومَرَح ، وبابَرُ هذا ما كان ليرى حَرَجاً في الجدل حول مسألة علمية أو منطقية أو لاهوتية عند انهماكه في السكر ليلاً ، وفي كلِّ صفحة من كتاب بابَرَ المملوء بأدقِّ ضروب النقد والنوادر تَجِد سِمَة اطلاع من غير تَنَطُّع ، وفي هذا الكتاب تَجِد أنه كان يتَمَسَّك بالنكتة أو الكلمة الطيبة أينما وَجَدها ، ومما حدث ذات يوم أن أدركه ثلاثة فرسان بعد سَيْر يومين على أثر معركة خَسِرها فوقَف فالتفت فقال لهم ساخراً متكبراً : « أريد أن أرى ، أيها الشجعان ، أيكم يجرؤ على مَسِّى قبل الآخر » ، فارتبك هؤلاء الفرسان الثلاثة بفعل سُخْرِيَته فقالوا مرتدين حالاً .

حقًّا أن بابَرَ ، المِقْدَام الموهوب العالِم الذى يُعَدُّ من أقوى الفاتحين في العالم ، كان يجمع في شخصه مغامرة عرقه ورقته وهمجيته ، فكان ، حينما مات ، وهو ابن خمسين سنة ، ملكَ الهند التى دَوَّخها باثنى عشرَ ألفَ جندىٍّ بعد أن ظهر زعيمَ قرية وهو في السنة الثانية عشرة من عمره .

وكلُّ مقابلةٍ بين شعوب الشرق وشعوب الغرب إذ كانت خادعة على الدوام غدا من الصعب أن تقايس بين العصر المغولىِّ وأىِّ دور جاوزته أوربة كالدور الإقطاعىِّ مثلاً ، فالفارس المغولىُّ والبارون النصرانىّ ، وإن تماثلا ذوقاً وسفكاً ،

كان الأول منهما أفضلَ من الآخر ثقافةً وحُبًّا للآداب والعلوم والفنون بدرجات ، وأرى ، مع ذلك ، أن المقابلة ممكنةٌ بين العصر المغولى وعصر النهضة ، فالأمير المغولىّ والأمير الفرنسىّ كانا متماثلين ، لا ريب ، فى حُبِّهما للمخاطر الدامية والمبارزة بالسيف وأمور الشرف والجواهر الثمينة والملابس الزاهية والأشعار الدقيقة وفى احتقار ذلك الحيوان الذى كان يُدْعَى فى أوربة بالقَدَّاد وفى الهند بالشودرىّ .

الباب الخامس

آثار حضارات الهند

الفَصْلُ الأوَّل

آدابُ الهِنْدِ ولغاتها

(١) قيمة آثار الهند الأدبية القديمة ــ قيمة آثار الهند الأدبية ضعيفة من الوجهة الأوربية ــ نقائص آداب الهند ــ (٢) الشائد والأشعار الدينية ــ الآداب الويدية ــ مختارات مختلفة ــ أنشودة إندرا الويدية ــ أنشودة الفجر الويدية ــ أنشودة الشمس الويدية ــ أنشودة الروح العليا الويدية ــ أنشودة برهما ــ أنشودة آدى بدهة البدهية ــ (٣) القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى ــ المهابهارتا ــ أهميتها في الهند ــ خلاصة ومقتطفات ــ دخول الجحيم ــ دخول جنة إندرا ــ الرامايانا ــ خلاصة ومقتطفات ــ هبوط الفننا ــ طلوع القمر ــ اصطياد الغزال السحرى ــ إعلان حب سيتا ــ جيش شيوا ــ (٤) الأمثال والأساطير ــ يمكن الأمثال أن تكون أهم ما أنتجته الهند ــ أهمية البنج تنترا ــ ترجمتها إلى أكثر لغات العالم ــ الهتوپديشا ــ الأساطير ــ (٥) *التمثيل الهندوسي ــ شأن الحب فيه ــ الحوادث الخارقة التي فيه* ــ ضعف التمثيل الهندوسي ــ شكنتلا ــ (٦) آثار أدبية مختلفة ــ تنوع الموضوعات ــ البورانا ــ الأوپانشد ، الخ . ــ (٧) لغات الهند ــ تشتمل الهند على أكثر من ٤٠٠ لغة ولهجة ــ تقسيمها إلى خمس فصائل ــ أهم تلك اللغات ــ صعوبة تبين الأمكنة في الهند .

---

١ ــ قيمةُ آثار الهند الأدبية القديمة

كتبَتِ الهندُ ، وانتهى إلينا كثير مما كتبَت .

وظُنَّ ، حينما أسفر بحث بعض الأوربيين في السَّنسكرت عن كشف النقاب عن آداب الهند المجهولة ، أن عالَماً من العجائب والطرائف سيخرج من دياجير الماضى

الحافل بالأسرار ، وظَنٌّ ، على الخصوص ، أنه اكْتُشِف مصدر جميع الحضارات وجميع الأديان وأننا ، برجوعنا إلى عَنْعَنات عرقنا الحقيقية ، نهتدى إلى العصر الذهبيّ الضائع وإلى سرّ مصيرنا .

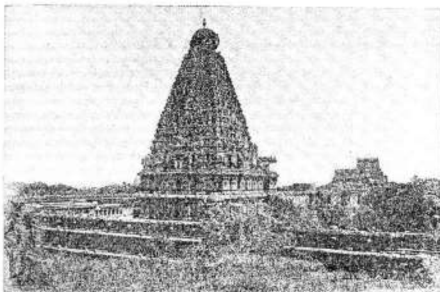
ولَسُرْعان ما فتَرَت تلك الحماسة ، فقد عُرِف أن حياة شعوب الهند القديمة وأفكارَها مهما كانت انتهت هذه الشعوب ، مثلما انتهينا ، إلى مُعْضِلات كبيرة من غير أن تَحُلّ واحدة منها ، فما كانت الكلمة الأخيرة التى تطمئن إليها نفوسنا لتأتينا من ضِفاف الغَنْج ، وما كان حبُّ الاستطلاع الشديد الذى أثارته المباحث الأولى فى كتب الهندوس إلاَّ لينقلب بسرعة إلى عدم اكتراث .

ولسنا بالذين ندرس كتب الهند فى هذا الفصل من حيث قيمتها الفلسفية كدرسنا ما فيها من الوثائق النافعة فى البحث التاريخى ووصف الطبائع ، بل نبحث فيها من الناحية الأدبية فقط .

بُولِغ فى تقدير كتب الهند الأدبية فى البداءة ، ولم يُتَحَرَّج فى تفضيلها على غُرَر آداب اليونان والرومان ، والواقع أن ما فى آداب الإغريق ورومة القديمة من المحاسن التى تقضى بالعجب تُغْرِينا بالإعراض عن الكتب الهندوسية ، فما فى شعر الإغريق والرومان ونثرهم من الترتيب والوضوح والاعتدال والانسجام والقَصْد الرائع الكامل يجعل الأوربيّ صَعْب المِراس ، فما كان مذهبنا الارتيابيّ الحديث إلا ليزيد مَقْتنا للمبالغة والإغراب ، وما كان ليَسْهُل على قُرّاء هذه هى حالهم أن يُعْجَبوا بما وَصَل إليهم من آداب الهندوس الضخمة المشوشة المُمِلَّة المملوءة بالخوارق .

بَيْدَ أنك تُبْصِر ، بين هذه المبالغات وهذا الغلوّ فى الخيالات وتجسيم الموضوعات

الحقيقية البسيطة والشعور الصادق الخالص وتَمَوُّج الأهواء والعواطف، تصويراً للروح والطبيعة بما هو طريفٌ لامع أحياناً ، وتراني أشبِّه ، طائعاً ، الآدابَ الهندوسية بنهر يشتمل ترابه على شُذُور من التِّبْر ، فيجب على من يرغب في استخراج بعض هذه الشُّذُور أن يجمع إليه عِدَّة أمتار مُكَعَّبة من هذا الطين .



٩٠ ـ تانجور ـ منظر الزون الهرى ومداخله (القرن الحادى عشر من الميلاد) أخذت هذه الصورة من خلف الزون (يبلغ ارتفاعه ٦١ متراً)

ولا نَعْرض على القارئ في المختارات التي ننشرها في هذا الكتاب سوى شُذُور من الذهب ، فإذا ما استَنْبَط منها أن جميع ما أنتجته قرائح الهند هو من نوعها غافلاً عن أن هذه النتائج تحتوى على أكداس عظيمة ثقيلة مُمِلَّة فإنه يكون مخدوعاً خَدْعَ من يُخَيَّل إليه أن تراب ذلك النهر من شُذُور التِّبْر فقط .

ويجب ألاَّ يُعَدّ هـذا الفصل الذى ندرس فيه آداب الهند إلاَّ لَمْحَةً إلى أهمّ

ما هو معروف منها ، فعلى القارئ الذى يريد أن يكون على علم واسع فى هذا المضمار أن يَرْجِع إلى الكتب التى نشرنا مختارات منها فى هذا السِّفْر والتى تُرْجِم الشىء الكثير منها إلى الفرنسية والإنكليزية ، والقارئ إذا لم يكن عالماً بآثار الهند ، أى إذا لم يكن من المعجَبين بكلّ ما يصدر عن السَّنسكرت إعجاباً تقليدياً فإنه لا ينظر حَمِساً إلى الآداب الهندوسية ، وهو يَصِل مثلنا ، لا ريب ، إلى النتيجة القائلة إن هذه الآداب إذ كانت تلائم أدمغة الهندوس وكانت تقضى بإعجابهم الموروث منذ قرون فإنها ليست مما يقرأه الأوربيون بشَغَف لعدم ارتباطها وانسجامها ولما فيها من المبالغة والإسهاب المُمِلّ وإبْعادها من المنطق .

وسنقتصر فى المطالب الآتية على تحليل أشهر آثار الهند الأدبية بإيجاز وعلى مقتطفات قصيرة منها .

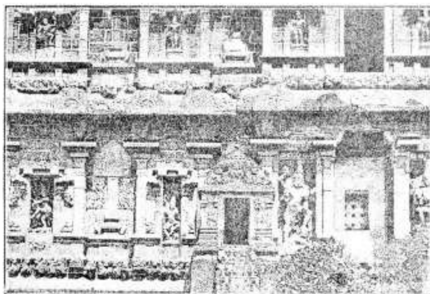
ولكى نجْلُو موضوعاً ذلك مدى اتساعه جَلاء نِسْبِيًّا رأينا أن نجمل عناوين تلك المطالب ما يأتى : الأناشيد والأشعار الدينية — القصائد الحماسية — الأمثال والأساطير — التمثيل — آثار أدبية مختلفة .

٢ — الأناشيد والأشعار الدينية

إذا عَدَوْت القصائدَ الحماسية الكبرى التى ندرسها فى مطلب آخر رأيتَ الأدبَ الويدىَّ الصحيح يتألف من أناشيدَ ورسائلَ دينيةٍ تُعْرَف بالويدا .

وقد أُتيح لنا فيما تقدم أن نتكلم مطولاً عن الأناشيد الويدية وأن نستشهد بكثير منها وأن نشير إلى مناحيها العامة ، فعلى مالا مِرَاء فيه من جمال القليل منها نوافق العلامة كولبروك على رأيه القائل : « إن ما تشتمل عليه كتب الويدا لا يستحقُّ

أن يُقرَأ ولا أن يترجم . » والعلامة كولبروك هـذا تلقى من براهمة بنارس علمَ الويدا فـكان من الصبر ما قرأها كلّها معه ، وهو الذى سُرَّ ، مع ذلك ، من معرفة أوربة لها لِما اشتملت عليه من المعارف ذات القيمة فى تاريخ الحضارة كما ذكرنا ، فهذه الـكتب هى الوثائق الوحيدة التى آلت إلينا من عصر يَظَلُّ أمره مجهولًا بدونهـا لا ريب ، وهذا مع إمكان جمع جميع المختارات المفيدة التى تُقتَطف من كتب الويدا فى بضع صفحات .



٩١ — تانجور . دقائق نقوش فى الزون السابق (القرن الحادى عشر من الميلاد)

ولا تتألف الآداب الويدية من الرِّغْ ويدا وحـدَها ، بل تشتمل أيضاً على نشائد وأحكام وعهود ، ومما قلناه إن هذه الآداب نَضِجَت مقداراً فمقداراً ، وإن من السُّخف أن يسير الباحث على غِرار بعض المؤلفين فيَنْشُد فيها « انبساطَ القلب وصَفْوَ الطبيعة وسعياً وراء المَثَل الأعلى » .

وبُدِئَ بوضع كُتُب الويدا قبل ظهور المسيح بألف سنة ، ولم تفتأ تُصَحَّح في أكثر من ستة قرون ، وكانت قبل تدوينها ، كدائرة معارف مشتركة ، يُنَقِّحها الناشرون ويكملونها في كلّ استنساخ مستعينين بمساعدين جُدُد .

وتجد في الآداب الويدية أثراً لهذا النشوء البطيء ، ولا تجد الأجزاء التي تتألف منها متجانسة في مجموعها ، وهنالك بُعْدٌ بين شعر بعض النشائد وأمثال السوترا الموجزة التي ذكر واضعوها لا ريب قولَ كاتب هندوسيّ : « إن المؤلف أن يُسَرَّ إذا ما اختصر بمقدار النصف حرفَ علةٍ قصير كما لو رأى نفسه قد وُلِد صبياً . » والهندوس يسيئون استعمال هذه القاعدة قليلاً ، مع ذلك ، لا من حيث الاختصار ، بل من حيث الغُلُوّ في الإسهاب الذي فيه عيبهم .

ويُعَدّ ما في الرِّغ ويدا من ألوف الأدعية أهمّ أقسام الويدا من الوجهة الأدبية ، ونِصْفُ ما في الرِّغ ويدا خاصٌّ بإله السماء إندرا وبإله النار أَغْنِي ونِصْفُهُ الآخر خاصٌّ بالآلهة الأخرى : الشمسِ والطبيعةِ والسُّحُبِ ، الخ . وفي هذا الكتاب استشهدتُ ببعض مقتطفات منها ، والآن أذكر أهمَّها مكرراً قولي إن قيمة تلك الآثار الأدبية العظيمة لا تُقَدَّر بمثل هذه المختارات ، ولا أقتصر على ما تَيَسَّر من الويدا وحدَها بل أُضيف إليه أنشودة برهما للشاعر كالي داسا الذي يُظَنّ أنه عاش في القرن السادس من الميلاد وأنشودةً سَنْسكرتية اقتطفناها من مخطوطات نيبال البُدَّهِيَّة التي نشرها مستر هوغسن ، ولم تُتَرْجم هذه الأخيرة إلى الفرنسية بَعْدُ ، وتجد فيها رَوْعَة التوراة التي تَنْدُر في المُدَوَّنات البُدَّهِية المطولة على العموم والنافية على الخصوص .

أنشودة إندرا الويدية

« إندرا هو الإله المولود الأول ، هو الإله المجيد الذى زيّن الآلهة الأخرى بأعماله ، هو الإله الذى يزلزل السماء والأرض بقدرته وعظمته التى لا حدّ لها .

« إندرا هو الإله الذى يُثبِّت الأرض الراجفة ، ويُمْسك السماوات ويُبَدِّد السحبَ العاصفة ويُوسِع الأجواء .

« إندرا هو الإله الذى يَهَب الحياة لكلّ موجود ، هو الذى يَطَأ أعداءه الأنذال فى المغاور المظلمة ، هو الذى يَقْبِض على جُثَثهم كما يَقْبِض الصائد على القنيصة .

« إندرا هو الإله ذو الوجه الجليل الذى يأمر الأغنياء والفقراء بالصلاة ، هو الذى يستغيث به الكاهن فى أدْعِيَته والشاعر فى نشائده ، هو الذى يرضى عما تَهَب .

« إندرا هو الإله الذى يملك الجياد والحقول والعِجَالَ والمدن والمَرْكَبات المملوءة كنوزًا ، هو الذى يجىء بالشمس والفجر ، هو الذى يُسِيل المياه .

« إندرا هو الإله الذى ينصر الأمم ، هو الذى يطلب المجاهدون منه العَوْن عند القتال ، هو الذى يبدو مثال الكَوْن ، هو الذى يَهَبُ الحياة للموجودات غير الحية .

« إندرا هو الإله الذى لا يُظْهِر قوته إلّا ليجازى الخبيث والكفور بلا انقطاع ، هو الذى لا يعفو عن الطاغين المستهزئين ، هو الذى يذبح الغيلان .

« إندرا هو الإله الذى تسجد له الأرض والسماء ، هو الذى ترتجف أمامه الجبال ، هو الذى يُرْسل الصواعق .

« إندرا هو الإله الذى يَقْبَل الإراقةَ والقرابين والأناشيد والأدْعية ، هو الذى يُجير الأتقياء ، هو الذى يُسَرُّ بضحايانا وهباتنا » .

أنشودة الفجر الويدية

« الفجر هو التُّرْجمان المنير للكلام المقدس ، الفجرُ يَنْشُر حُلِيَّه ليفتح لنا أبواب النهار ، الفجرُ يضىء الكون فيُطْلِعنا على كنوزه ، الفجرُ يُنَبِّه الخلائق ، الفجرُ يدعو العالمَ الراقد إلى الحركة بيده القادرة ، الفجرُ يحَفِز الإنسان إلى البهجة والسرور وإلى القيام بالشعائر المقدسة وإلى العمل لنيل السعادة ، الفجرُ ، على عكس الظلام ، نُبْصِر به كلَّ بعيد ، الفجرُ ، ابن السماء ، يبدو لنا نافعاً لامعاً مُدَثَّراً بدِثار ساطع رَبًّا لكل ثَرَاء فى الأرض ، الفجرُ يُنْعش بضيائه كلَّ موجود ويبعث كلَّ خامد ، فمتى يزورنا الفجر ؟ الفجر الذى ينيرنا الآن يكون كالذى جاء قبله ، ويكون مثلَه الذى يأتى بعده ، هو ينيرنا كغيره ، عادوا غير أناس أولئك الذين رأوا الفجر يتلألأ كما يتلألأ اليوم ، والآن حَلَّ دورنا لرؤيته ثم يَحِلُّ دور أناس آخرين يرَوْن الفجر بعد زمن فيموتون . . . الفجرُ فى حِمًى من الهَرم والموت ، فيتقدم ناشراً سَنَاءه غامراً شواطىء السماء ، الفجرُ إله النور وهو يُبَدِّد الظلام النَّحِس ، الفجرُ يُحْيى الطبيعة من فوق مركبته الرائعة التى تَجُرُّها جياد حُمْر ، أفيقوا ، إليكم روحاً جديدةً تسرى فينا ، الظلُّ يبتعد والنهار يقترب ، فقد مَهَّد الفجرُ الطريقَ التى تَسير منها الشمس ، هَلُمُّوا إلى النور ، هَلُمُّوا إلى الحياة ! » .

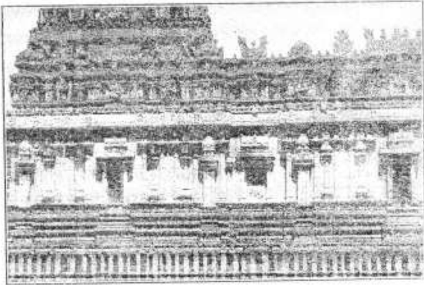
أنشودة الشمس الويدية

« أشعة النور تُظهر العالَمَ فتُنبِئ بالإله الذى يعلم كلّ شىء ، تُنْبِئ بالشمس التى إذا ما بَدَت توارت النجوم كاللصوص وتَبَدَّد ظلام الليل ، أشعةُ الشمس الساطعة كالنار تُسلِّمُ على جميع المخلوقات ، الشمسُ تجرى وتبدو للأعين وتبعث النور و يملأ سَناؤها الأجواء وتنهض أمام كتيبة الآلهة وأمامَ الناس والسماء فيراها كلّ واحد و يُعْجَب بها ، الشمسُ تُزكّى وتُزِيلُ الهمّ بضيائها الذى يغشى الأرض المملوءة أناساً ، الشمسُ المشرقة تَغْمُرُ السماء والأجواء وتُبْدِع الليل والنهار وتُبْصِرُ كلَّ ذى حياة و يَجُرُّ مركبَتَها سبعةُ جياد شُقْر ، الشمسُ إله يرى كلّ شىء وتُكَلِّل الأشعة شعره الجميل ... ونحن ، بعد أن يزول الظلام ونرى النور الرائع ، نسجد أمام ذلك الإله الذى يسطع بين جميع الآلهة و يظهر أنْضَر من جميع الكواكب . »

أنشودة الروح العليا الويدية

« لم يكن شىء فيما سَلَفَ ، فلا وجود ولا عدم ولا عالم ولا سماء ولا أثير فيما خلا ، فأين كان غِلافُ كلّ شىء ؟ وأين كان حَوْض الماء وموضع الهواء إذَنْ ؟ لم يكن موتٌ ولا خلود ولا نهار ولا ليل ، والكائنُ وحدَه كان يَتَنفَّسُ من غير أن يستنشق شيئاً غارقاً فى ذاته التى لم يكن شىء خارجاً عنها ، وكانت الظُّلُمات بعضها فوق بعض ولم يكن للماء سَنَاء فكان كلُّ شىء ممزوجاً به ، وكان عرش الكائن فى القضاء الذى يَحْمِلُه ، ثم بَرَأ الكَوْن بإرادته بعد أن نشأت فيه الرغبة التى هى أصل كلّ شىء ، هذا ما قاله الحكماء الذين يُفَكِّرون بقلوبهم وعقولهم فينْفُذُون ببصرهم

الحديد كل أمر فى الأعلى وفى الأسفل وفى أى مكان ما كَمَنَت فيهم بذور اللّقاح أى عظيمُ الأفكار ، سيبقى جوهر الـكائن الأعلى بعـد فناء كلّ شىء كما كان قبل خلق كل شىء ، ولـكن من يَعْرِف هذه الأسرار ؟ ومن يستطيع أن يكشفها ؟ ومن أين تأتى هذه الموجودات ومن أين يأتى هذا الـكون ؟ أراد الـكائن الأعلى خلقَ الآلهة فبَرَأها ، ولـكن من يَعلَمَ مصدر هـذا الـكائن الأعلى ومصدر هذا الخلق الواسع ؟ .. »



٩٢ ــ تانجور ، دقائق نقوش فى معبد سبرمانية
(ضمن اطاق الزون) (القرن الخامس عشر)

أنشودة برهما لـكالى داسا

« المجدُ لكَ أيها الإله ذو الصور الثـلاث الذى لم يكن غير ذى طبيعة واحدة قبل التكوين ، فلما بَرَأْتَ الـكونَ انقسمتَ إلى ثلاث صور لـكى تبدوَ صفاتُكَ

الثلاث ، القدرةُ والذكاء والحلمُ ، أحسنَ مما كانت عليه ، أيها الخالق غيرُ المخلوق ، لقد انتشر أصلك فوق المـاء فصدر عنه كلّ متحرك وساكن ، ويُقدَّس لك لأنك بارئُ كل شيء ، وأنت ، إذ تَجَلَّتْ عظمتك على ثلاثة وجوه ، كنتَ السببَ الواحد للخلق والديمومة والفناء ، والعنصرُ المؤنثُ والعنصرُ المذكرُ هما أصلا طبيعتك ومنهما يُبَثُّ كل موجود ، قَسَّمْتَ الزمان إلى ليل ونهار ، ويُسْفِر نومك ومُهادك عن هلاك المخلوقات وبعثها ، لا أول لك ولا آخر ، وأنت أصل العالم وغايته ، وكنتَ قبل الخلق ولم يكن شيء قبلك ، ولا رَبَّ لك وأنت رب كل شيء ، وأنت تَعرِف نفسَك بنفسك ، وتَرَأَتَ نفسَك بنفسك ، وتَقصُرُ نفسَك بنفسك ، أنت أبُو الآباء وإله الآلهة ومُبْدِع العلم وموضوعُه والبصيرُ وغايةُ البصر . »

أنشودة آدى بُدْهَة البُدْهِيَّة

« ١ — لم يكن شيء في البَدَاءة ، وكلُّ شيء كان فضاء ، وما كانت العناصر الخمسة موجودة ، هنالك بدا آدى بُدْهَة المُنَزَّهُ على شكل لهيب أو ضياء .

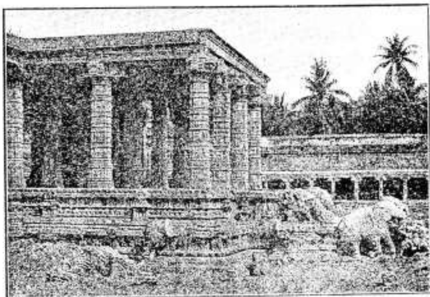
« ٢ — يشتمل آدى بُدْهَة على الفنون الثلاث ، وفيـه يتجلى مهامورتى وويسواروپا (صورةُ كلِّ شيء) ، فهو بُدْهَة الـكبيرُ الذى أوجد نفسه بنفسه ، هو أدينانا ، هو مَهيشْوَر .

« ٣ — آدى بُدْهَة هو أصل ما فى العوالم الثلاثة من الموجودات ، وهـذه الموجودات كانت بفضله ، فمنه ومن عميق تَأَمُّله انبجس الـكَوْن .

« ٤ — آدى بُدْهة موجود بنفسه ، هو أسوارا ، هو جَمَّاع للـكمال ولما لانهاية له ،

هو لا أعضاء له ولا عواطف فيه ، وجميعُ الأشياء صورته وإن لم تكن له صورة ، هو شكل كلّ شيء وإن لم يكن له شكل .

« ٥ — آدى بُدْهة لا يُجَزَّأ ، ولا وجهَ مرئيًّا له ، والألم لا يجد إليه سبيلاً ، وهو مصدر قدرته الذاتيـة ، وهو أبديٌّ بطبيعته ، ولـكنه غير أبديّ فى تجلياته ، فتراني أسجد أمامه .



٩٣ ــ شلمبرم . مدخل معبد ذى محمد (القرن الخامس عشر) (يرجع أقدم أجزاء هـذا المعبد إلى القرن العاشر ، ولـكن هذه الأجزاء توارت تحت ما أنشىء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر)
(يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى أعلاها ثلاثة أمتار و ٥٥ سنتيمتراً)

« ٦ — آدى بُدْهة لا أول له ، هو كامل ، هو خالص جوهراً ، هو أصل الحكمة والفضيلة المطلقة ، هو يَسْبُرُ الماضى ولا تبديل لـكلماته .

« ٧ — آدى بُدّهة لا شبيه له ، هو موجود فى كل مكان ، هو شديد البأس على الأشرار مثلُ الأسد الذى يَبْهَصِر الظَّبْىَ الوديع . .

« ١١ — آدى بُدّهة يُنْعِم على ذوات الحسّ بالسعادة ، وهو يُحِبّ من يخدمونه، وهو يملأ بعظمته القلوبَ رهبةً واحتراماً ، وهو يكشِف الكرب عن المكروبين .

« ١٢ — آدى بُدّهة حائز للفضائل العَشْر ، وهو ينعم بها على من يُمَجِّدونه ، وهو يملِك بِقاع السماء العَشْر ، وهو ربُّ العالم ، وهو يملأ بوجوده السماوات .

« ١٥ — هو خالق جميع البُدّهات وكثيراً من البُدّهِى ستوايات الذين يُحِبُّهم، وقد خلق العالم بمعونة براهما ودهرما (واحد من الثالوث البُدّهِى) ، وليس له خالق ، وهو مبدع الفضيلة ، وهو يُعِيد كلّ شىء إلى العدم » .

٣ — القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى

المهابهارتا . — قصائد المهابهارتا العظيمة من أضخم آثار العالم الأدبيــة فضلاً عن آثار الهند الأدبية القديمة ، وهى تشتمل على ٢١٥٠٠٠ بيت شعر مع أن الإلياذة لا تحتوى على أكثر من ١٥٠٠٠ بيت ، ولا تحتوى الأوديسة على أكثر من ١٢٠٠٠ بيت ، ولا تحتوى الإينِيْـد على أكثر من ١٠٠٠٠ بيت ، ويتألف من المهابهارتا خمسةَ عشرَ مجلداً عاديًا يبلغ مجموع صفحاتها ٧٥٠٠٠ صفحة .

وللمهابهارتا أصل أضيف إليه مع الزمن شىء كثير ، فتُعَد المهابهارتا من عمل القرون ، لا من عمل رجل واحد ، وتُقَدَّر المدة التى انقضت بين وضع نصّها الأصلى وآخر تصحيح فيها بألف سنة ، ولا يمكن تحديد عمرها بالضبط ، ولكنّ من المشكوك فيه أن يكون أحدث أقسامها قد وُضِع بعد القرن الثالث من الميلاد .

والمهابهارتا عظيمُ أهميةٍ لدى الهندوس ، فقد قيل إن كتب الويدا الأربعة وُضعت في كِفّةِ ميزان وإن المهابهارتا وُضِعت في الكِفّةِ الأخرى أمام الآلهة مجتمعةً فرَجَحت كِفّةُ المهابهارتا ، ومما نُصَّ عليه أن قراءة ما تيَسَّر من المهابهارتا يمحو الذنوب ، والحقُّ أن تقديس الهندوس المهابهارتا كتقديس النصارى للكتاب المقدس وتقديس المسلمين للقرآن ، ويعتقد الهندوس أن المهابهارتا وُضِعت في السماء وأن الآلهة أنعمت بها على الناس .

وعنوانُ المهابهارتا ، أو بهارتا الكبير ، تلخيص « لقصة شعب بهارتا الكبرى » ، وتُخْبِر هذه القصة باصطراع الپاندوا والكوروا فرْعَيْ أسرة البهارتيد القمرية التي استقرت بمدينة هَسْتِيناپورا القديمة الواقعة بالقرب من دهلي .

وتبدأ المهابهارتا بالأدعية والفواتح والأنساب ، ثم تشتمل على قصة مؤلفة من استطرادات وإيضاحات وتكرارات مُطَوَّلة يَمَلُّ الأوربي منها ، وفي المهابهارتا اختلطت الروايات بالأساطير اختلاطاً لم يُفَكِّر معه واضعوها في ربط بعض أجزائها ببعض .

وتقوم القصة على اقتتال أبناء پاندو الخمسة (الپاندَوا) وأبناء دهرى تَرَاشترا المئة (الكوروا) وأطِلَّ دم الپاندوا ، المشابهين لهركول وثيزة اللذين ذُكِرا في الأساطير اليونانية ، ولفرسان القرون الوسطى التائهين ، فجابوا بلاد الهند وأنقذوها من الغيلان المفسدين وقاموا بغرائب الأعمال ، وقاتلوا عفاريت غاب الأساطير الهندوسية الراكشسا المفترسين للناس والقادرين على الظهور بمختلف الصور والسِّباحة في الأجواء ، وأشدُّ أولئك الإخوة الخمسة (الپاندوا) هؤلاء هو العملاق بهيماسينا « ذو الذراعين

الطويلتين والبطن الذنبيّ » ، فقد استأصل الراك شسا الذكورَ وأغوى بناتِهم بجماله نائلاً الجوائز في جميع مسابقات الفروسية .

وفاز أحد أولئك الإخوة الخمسة على منافسيه الكثيرين ، فنال درويَدى الحسناء ابنةَ الملك درويَدى مُوتِّراً قوساً لم يقدر إنسان على ثَنْيه ، وخرجت الآلهة من منزلها السماويّ لتشهد القتال على حسب العادة ، وتزوج أولئك الإخوة الخمسة بهذه الحسناء معاً ، وفي هذا دليلٌ على تعدد الأزواج من الذكور في الهند في سالف الأزمان .

ولم يلبث أولئك الإخوة الخمسة أن سقطوا بعد أن بلغوا ذروة السلطة ، وذلك بما اقترفه أحدهم الذى خَسِر كنوزه وقصوره في المَيْسر ، والإخوةُ الخمسة أولئك إذ أعسروا بذلك رَجَعوا إلى حياة السياحة ومعهم درويَدى الحسناء ، وأخذوا يَتَلَهَّوْن بسماع ما يَقُصُّه النُّسَّاك والجنّ عليهم من أنباء الخوارق التي لا نهاية لها ، وهكذا قامت حياتهم على سماع الأساطير والقتال ، ومما حدث أن بلغ أحدهم أرجُنا من البأس ما حارب به الإله شِيوا المتنكرَ في صورة صياد ، أجَلْ ، إنه قُهِر ، ولكنه اعتذر عن ذلك بأنه التزم جانب الحِمْية فاقتصر على الاغتذاء بالهواء وجافّ الأوراق واقفاً على إبهام رجله رافعاً ذراعيْه طامعاً أن ينال بهذا الزهد درجة إله في السماء على رأى الهندوس ، ومما يُذْكَر هنا أن مما يُزْعِج مجلسَ الآلهة أن يرى الناسَ يقومون بتوبة قاسية ، وأراد أرْجُناً ، ذلك الذى قاتل شِيوا ، أن يَفْتِن الآلهة فذهب ، كأبطال دانتي ، إلى السماء ، وقاتل العملاقُ بهياسينا « ذو الذراعين الطويلتين والبطن الذنبيّ » بقوة بيانِ الثعبانَ الهائل الذى لَفّ به فلم يتركه ، كما فعل أبو هول إديب ، إلاّ إذا حَلّ ألغازه

ولم يَنْثَن أولئك الإخوة الخمسة أمام تلك الأعمال المرهوبة بفضل ذُرْعانهم الساحرة ، فهزموا وحدهم جيشاً خَرَج على مَلِك كانوا جنوداً له كاتمين أسماءهم .

وتَجِدُ قِصَص أعمال البطولة ممزوجة بالخوارق فى المهابهارتا ، وتجد اختلاط مسائل ما بعد الطبيعة بكثرة فيها ، فترى فى الكتاب السادس منها ، مثلاً ، مباحث دينية مُطوَّلة ، وفيها تُبْصِر كِرِشنا الذى تجسَّد فيه الكائن الأعلى وشنو يُحَدِّث فى وسط المعركة أخاه أرجُنا الباسلَ ، الذى تجسَّد فيه وشنو أيضاً ، عن بُطْلان متاع الدنيا وعن مصير المخلوقات وعن تدرُّجها إلى الفناء فى برهما وعن وجوب قمع الرغبة وما إلى ذلك من النظريات القريبة من المبادئ البُدَّهيَّة .

وأدلةٌ لاهوتيةٌ كتلك لا تمنع من ضَرَبات السيف ، فمع أن وشنو تجسَّد فى واحد من باندَوا لم ينتصر هذا على أعدائه كوروا إلا بعد قتال هائل دام ثمانيةَ عشرَ يوماً ، والنصرُ بعد أن تمَّ لباندَوا استطاعوا أن يسيطروا بسلام ، وهم عندما شَعَروا بدُنُوّ أجلهم توجهوا ، ومعهم زوجتهم المشتركة الفتّانة دروبَدى ، إلى جبال هِمالية حيث ماتوا بالتتابع ليُرْفَعوا إلى مقرّ الآلهة الخالدة حالاً ، فهنالك عُلِمَ أن وشنو لم يتجسَّد فى واحد من بنداوا فقط ، بل ظهر تجسُّدُ مختلف الآلهة فى أعدائهم الكوروا أيضاً ، فضلاً عن الإخوة الأربعة .

هذا هو الأساس الذى قام عليه ذلك الديوان الحماسىُّ الذى لا ينْضُب مَعِينه ، وهو ، كما ترى ، ذو مَسْحَة أريستوقراطيــة كهنوتية ، فلم يُذْكر فيه سوى الآلهة والكهّان والملوك ، ولا تَجِد فيــه إشارة إلى الشعب ولا إلى العامل ولا إلى التاجر ، الخ . وفى ديوان الحماسة ذلك شِعْرٌ رائع يمكن قياسه بأجمل الأشعار الأوميروسية ، ولا ريب فى أن أدبه أرقى من أدب الإلياذة والأوديسة ، ولكن ما فيه من شوائبَ

ظاهرة لا يُغْرِى الأوربىّ على مطالعتـه ، فهو ينقلنا إلى بشرية بائدة تختلف عنا بتفـكيرها وشعورها ونظرها إلى الأمور اختـلافاً تامًّا ، وهو يَعْرِض علينا عالماً من المبادىء الوهمية تسحر الإنسان فى دور طفولته لا فى دور كالدور الحاضر .

و إننا نختم تلك الخلاصة بمختارات معتدلة الخيال اقتطفناها من المهابهارتا :

هبوط يودّهيشتيرا إلى الجحيم

« تبِـع يُودّهيشتيرا رسولَ السماء من العليـــاء بخُطاً واسعة ، فياله من سقوط مشؤوم ! ويا لها من رحلة هائلة ! ذلك هو مأوى الأرواح المجرمة الغارقة فى ظُلُمات حالـكة والمُدَثَّرَة بنبات خبيث والمتنشقة رائحة الإثم الوبىء واللحم والدم ، ذلك هو المأوى المملوء بالجُثث والشَّعْر والعظام والفاسد بالديدان والهوام ، ذلك هو المأوى الذى يرمى بالشرر المُلْتَهِم وتُحَلِّق فوقه الغِرْبان والعِقْبــان وغيرها من الـكواسر المُجَنَّحة التى تهبط مبتورة مَهِيضَة فوق الجبال .

« سار الملك خائفاً مُزْبَئِرّ الشعر بين تلك الجُثث والرائحة المُنْتِنَة ، ورأى أمامه نهراً من الأمواج الملتهبة وغابةً من النِّصال ذات الأغصان الحادّة وصخوراً من الحديد وخوابِىَ مملوءة لَبَنًا فائراً وزيتاً حارًّا وعَوْسَجاً[1] قاتلاً أُعِدّت للمجرمين .

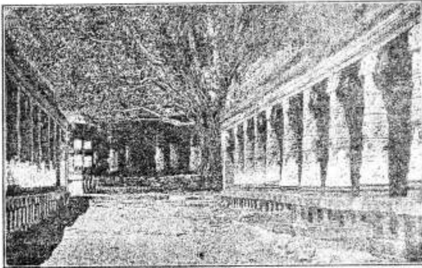
« رَاعَت تلك الأَبْخِرَة الوخيمة يودّ هيشتيرا فارتدّ إلى الوراء حين سَمِع القول الآتى يخرج من مهالك الليـل : « وَاحَرَبَاه[2] ، قِفْ ، أيهـا الملك العادل الشهير ، ثانيةً لتخفيف آلامنا ، يحوم عِطْر روحك التقية حولك كالرُّخاء[3] ، ولنا فى هــذا

---

(١) العوسج : من شجر الشوك — (٢) واحرباه : كلمة تستعمل للتأسف — (٣) الرخاء : الريح اللينة التى لا تحرك شيئاً .

المطر سكينةً تنتظرها منذ زمن طويل ، امكُثْ هنا ، ياابن بهارتا القدير ، فبك يزول العذاب » .

« أثرت هذه العجاعج[١] المحزنة فى البطل فتحسّر من غير أن يُميِّزها لما تعبِّر عنه من التباريح ، ثم عَلِمها ، فقال لرسول السماء مُتوَّراً مذعوراً متهماً للعدل الربانىّ مرتجفاً فى سوَاد ذلك الجوّ الخانق : « ارجع إلى أولئك الذين تمتثل أوامرهم فى السماء ، لأنى عَدَلْت عن العودة إليهما ، فسأبقى هنا عند من أحِبُّ لما يوجبه وجودى بجانبهم من تخفيف آلامهم » .



٩٤ — تربتى . أعمدة فى مدخل الجبل المقدس (يبلغ ارتفاع الأعمدة من أسفلها إلى أعلاها مترين و ٥٥ سنتيمتراً) (يظهر أن المعبد أنشئ فى القرن الثالث عشر ولكن الإنشاءات التى تدل عليها هذه الصورة قد تمت فى زمن أحدث من ذلك بزمن طويل)

« فلما سمع الرسول ذلك عاد إلى قصر ربِّ الأرباب إندرا وأخبره بما عزم عليه

(١) العجاعج : جمع العجعجة وهى اسم بمعنى الصياح .

حفيد بهارتا ، ولمّا أقام يودّهيشتيرا حيناً بدار العذاب هبط إندرا و يَمّا وغيرُهما من الآلهة إلى الهاوية ، ولما بلغوها بَدَّدَت أنوارُهم الظلامَ وزال العذاب عن المجرمين ، فصرتَ لا ترى نهراً مضطرماً ولا غابةً شائكةً ولا بحيرة من نار ولا صخراً من قُلْزٍ(١) ولا جُثّة كريهة ، بل صرتَ تَجِد رِيحاً طيبة عَطِرة تنتشر فوق أرصفة الآلهة ، وصرتَ ترى النار مُنارة بنور السماء الساطع » .

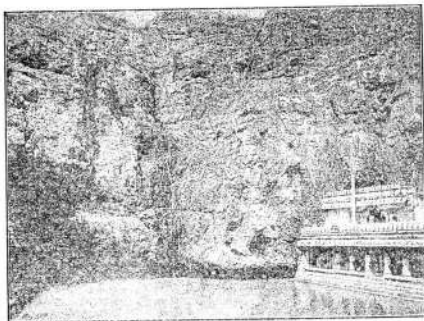
زيارة أرجُنا لجنّة إندرا

«وَدَّع البطل الطليق من قيود الأرض أرجُنا الجبلَ وأَهْرع فَرِحاً إلى الموكب الإلهى صاعداً فى الأجواء فوَصَل إلى البقاع المُحَرَّمة على أبناء الأرض فوجد فيها عشرات الألوف من المَرْكَبات المنيرة بذاتها ، لا بفعل الشمس والقمر وأىّ ضياء ، والتى بلغت من البعد ما نَعْجِز معه عن قياس حجمها والتى تبدو ، لهذا البعد ، مصابيحَ شاحبة ، فدنا منها فشاهد تألُّقها وانسجامها الرائع ، فمرّت أمامه مئات من الملوك العادلين والحكماء الراشدين وضحايا الحرب والمتكفّين الذين فتحوا السماوات ، ورأى منزل الأولياء والتائبين ذا الأزهار الجميلة الأوضاع فتَنَسَّم شَذاها العَطِر ، وشاهد غابة مودانا التى تنتشر جميع الغوانى تحت أشجارها الخُضْر ، وإن شئت فقل شاهد المأوى المُقدّسَ لأفئدة المؤمنين فلا يدخله من لا يَعْرفون التوبة ولا يُقَرّبون القرابين ولا يَثْبُتون فى ميدان القتال ولا يُقَدّمون الضحايا ولا يميلون إلى الزهد ولا يُنْصِتون للويدا إذا قرئت ولا يزورون الأماكن المقدسة ولا يدخله من يستخفون بالغسل وبالصدقات ومن يجحدون بالدين ومن يَسْكَرون ومن يَزْنُون ، ولا تُدْخَل مدينة إندرا قبل مجاوزة هذه الغابة الساطعة الربانية الغَنّاء .

---

(١) القلز : النحاس الذى لا يعمل فيه الحديد .

« وَقَفَتْ أمام مدينـة إندرا ألوف المَرْكَبات الحيَّة وفيها مُجِّد إندرا بصوت الشعراء والغوانى على حين كان النسيم ينشر أطيب رائحة ، وفيهـا استقبلت الآلهةُ والسعداء فَرِحِين ذلك المحارب ذا الذراعين المفتولتين بسـلام التبريك على صوت الموسيقى السماوية ، فسار على الطريق ذات الكواكب وعلى درب الشموس ذوات الأنوار محاطاً بملائكة السماء والأرض والهواء و بصفوة البراهمة والملوك فوصَل مُكرَّماً إلى حضرة رب الأرباب » .



٩٥ — ترپيق ، حوض مقدس فى سفح الجبل

الرامايَنا . — للرامايَنا مثلُ أهمية المهابهارتا فيُعَدّ هذان الديوانان الحماسيان ، مع كتب الوِيدا ، أعظمَ ما فى الآداب السَّنسكرتية .

والرامايَنا ، مع أنها أقدم من الميلاد بعدة قرون لا ريب ، أحدث من المهابهارتا ، فكان ما فيها من التحريف أقلَّ مما فى الأخرى ، وهى إذ لم تشتمل على غير ٤٨٠٠٠

بيت من الشعر فإنها أصغر من الأخرى بأربع مرات ، ويعتقد الهندوس أن الإله وشنو هو واضعها .

تقوم الرامايتا على خبر الحروب التى أوقد نارها راما ليستردّ زوجته سيتا الحسناء التى اختطفها الشيطان راونا ملكُ الجنّ الأشرار المقيمين بجزيرة لَنكا (سيلان) والمعروفين بالراكشسا .

وراما هو ، كأحد أبطال المهابهارتا ، إلهٌ فى صورة إنسان ، أو إنسان تَجَسّد فيه وشنو ، ويتألف أعوانه فى الحروب من القِرَدَة والنسور ، والحوادث فى الرامايتا ، كما فى المهابهارتا ، تجرى فى عالم خيالىّ ، ويدور مغزاها العامّ حول صراع بين الخير والشر ، وما فى الرامايتا من مخاطرَ فمصدره ما سام الظالمُ راوَنا به الكُهّانَ من الخسف وما منعه من تقديم القرابين ، فلما سَخِطَت الآلهة على ذلك عقدت مجلساً ورأت أن يتجسَّد أحدها فى صورة إنسان لإنقاذ البشر فأمر برهما أحدَ الأقانيم الهندوسية الثلاثة وشنو بذلك ، فوَطّن وشنو نفسه على الإخلاص ، فوُلِد فى صورة البطل راما ، ثم نفاه أبوه بتحريض من إحدى زوجاته جاهلاً أصله ، فأطاع أباه فاختفى هو وزوجته الحسناء سيتا فى الغاب ، وكان يسكن غابةَ دَندكا التى اختارها مقراً لعزلته جنٌّ وغيلان خياليون وغَدَت السِّعْلاة[1] سورپن كها أختُ راوَنا ملكِ الراكشسا عاشقةً لراما الجميل فتَحُول سيتا دون التنفيذ فتحاول سورپن كها افتراسَها فيدحرها راما فيجدع[2] صاحبُه لكشامَنا أنفها ويَصْلِم[3] أذنيها ، فتعزم سورپن كها على الانتقام فتعود مع أربعةَ عشرَ ألفَ عفريت فيهزم راما جميعَ هؤلاء بنِباله السحرية فتغضب سورپن كها من قهرها فتطير إلى سيلان فتطلب العَوْن من أخيها راوَنا (الملِك ذى

---

(١) السعلاة : أنثى الغول — (٢) جدع الأنف يجدعه جدعاً : قطعه — (٣) صلم الأذن يصلمها صلماً : قطعها من أصلها .

الوجوه العشرة والذُّرعان العشرين) لكى يَخْطَف سيتا ، فيجوب راوَنا الهواء فوق مركبة سحرية ويَجِدُّ فى أخذ سيتا بالحيلة مستعيناً بصديقه الذى انقلب إلى ظبى ويستدرج راما إلى خارج منزله فيختطف حينئذ سيتا متنكراً بزىٍّ أحد الزهاد ويجرُّها معه فوق مركبة سحرية فيَجِدُّ ملك الطيور وصديق راما النَّسْر جاتايوش فى وَقْفه فيسفر ماحدث من القتال الذى أُهين فيه راوَنا عن قتل ذلك النَّسْر ، فيداوم راوَنا على سيره ويقود تلك التى سباها إلى قصره حيث يسعى فى إغوائها على غير جَدْوَى .

ويكتشف راما مكانَ سيتا بفضل القرد هنومان فيستعين بالملك سُغْريوا ويجيش مؤلَّف من قرود ودِبَبَة[1] ويزحف لاستردادها ويحاصر لَنكا عاصمةَ راوَنا ، ويقوم بهجوم هائل وتَقْلَع الجبالُ والغابات لتُطْرَح فوق الرؤوس ، ويقاتل راما أخا راوَنا قتالاً شديداً ويَفْنِيه ويدوس أخو راوَنا هذا أنفى قرد حين سقوطه ، ويُجْرَح راما، ومن حسن الحظ أن كان ملك الدِّبَبَة يَعْرِف وجود نبات سحرىٍّ فوق جبل كيلاسا قادر على شفاء البطل راما ففَوَّض إلى هنومان أن يأتى بشىء منه ، وما كان هذا القرد الباسل ليُضيع وقته فى البحث عن ذلك النبات ، فقد اقتلع الجبلَ ورَجَع حاملاً إياه على ظهره ، فشُفِى الأمير آنئذ فبُعِث المجاهدون تارةً أخرى وعاد القتال إلى ما كان عليه فأسفر عن قتل راوَنا بسهم سحرىٍّ سَلَّمه برهما إلى راما فهتفت الآلهة الخالدة للنصر الذى أوجب عودة سيتا إلى بَعْلها ، وجاوزت سيتا هذه لهيبَ مَوْقِد فدَلَّت على أنها لم تسكن لراوَنا ، وبَيَّن إندرا لراما ، إذ ذاك، أنه شخص تَجَسَّد فيه وِشنو ، هنالك رَكِب البطل راما مع سيتا مركبةً سحرية فبلغ بها عاصمته أجودهيا حيث يمارس سلطانه أحد عشر ألف سنة .

---

(١) الدببة : جمع الدب .

ومما يلاحَظ أن جميع أبطال ذلك الديوان الحماسيّ هم ممن تَجَسَّدَت فيهم الآلهة فبَدَوْا من ذوى السلطان الخارق و بَدَوْا متقلدين سلاحاً سحرياً قليلَ الخطر سهلَ الاستعمال ، والمنطقُ الهندوسيّ إذ كان لا يبالى بهذه الدقائق إلا قليلاً فإننا لا نُسْهِب فيهما كثيراً ، و إنما نختم المطلب ببعض المختارات المقتضبة من الرامايَنا .



٩٦ — ويلور . دقائق عمود فى الزون الكبير
(القرن الرابع عشر من الميلاد)

هبوط الغَنْغَا

« صَعِد مَهيشورا فوق ذروة هِمالية فخاطب نهر الغنغا الذى يجرى فى الهواء قائلاً له : اهْبِطْ !

« هنالك فتح الحُزْمَة الواسعة من كل جانب مُحْدِثاً حوضاً كبيراً شبيهاً بغار جبل ، فهبَط نهر الغنغا الإلهى من السماوات وألقى أمواجه بصَوْلَة فوق رأس شِيوا العظيم ، فتاه على رأسه كَدِراً واسعاً سريعاً عامًّا ليَصِف دورانه ، ثم أراد بهاغى رتى إنقاذ الغَنْج فعوّل على نَيْل الحظوة لدى مهاديوا زوجِ أوما الخالد ، فأجاب شِيوا دعوته فأطلق مياه الغنغا فأرخى ضفيرة

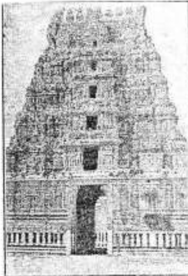
من شعره فشقّ بها قناةً فانطلق هذا النهر الإلهى الصافى الطّاهر السعيد المُثلّث المجارى فــكان نهرُ الغَنج .

« حَضَرَت هــذا المنظرَ الآلهةُ والرِّشى والغاندهروا وجموعُ السيدّها فوق مركبات مختلفة وجياد جميــلة وفيول رائعة ، وجاءت إلاهاتٌ سابحاتٍ ، وأتى الجدُّ أصلُ المخلوقات برهما يَتَلَهّى سائراً مع النهر ، فالحقُّ أن طبقات الخالدين هذه اجتمعت هنالك لتشاهد أعظم العجائب أى لترى نزول الغنغا إلى الدنيا .

« وكان يغشى السماء سحابٌ مظلم مع تألق تلك الكتائب الخالدة الطبيعيّ ومع الزينة الرائعة الساطعة التى كانت مُزَيَّنَة بها فتنير الفلك بنور ساطع يَعْدِل أنوار مئة شمس .

« جرى النهر ، وكان يجرى سريعاً تارةً ومعتدلاً مُنْثَنِياً تارةً أخرى ، وكان يَتّسع أحياناً ، وكان يسير بطيئاً طوراً وكانت أمواجه تتلاطم مرةً وكانت الدُّخْسان[1] تسبح بين أنواع الزّحّافات والأسماك .

« وكانت السماء محتجبة كالبروق التى تخرج من مكامنها هنــا وهنالك ، وكان الجوُّ المملوء أزباداً بيضاً كثيرةً يَلْمع مثل لَمعَان البحيرة المُمَوَّهة بالإوَزّ فى أيام الخريف ، وكان الماء ينزل من رأس مهاديوا إلى الأرض صاعداً هابطاً عِدّةَ مرات كالزوابع قبل أن ينال مجرًى منتظماً على صدر پرتهوى .



٩٧ — كانجى ورم . معبد فى زون (أنهى) فى القرن الخامس عشر من الميلاد على ما يحتمل)

(١) الدخسان : جمع الدخس ، وهو دابة فى البحر تمكن الغريق من ظهرها ليستعين على السباحة وتسمى (الدلفين) .

« رئى آنئذ أن الغرها والغَنَا والغاندهروا الذين يسكنون فوق صدر الأرض يكسحُون مع الناغا مجرى النهر الصائل ، ثم مَجَّد هؤلاء الأمواجَ الصافيـة التى تجَمَّعَت فوق جسم شِيوا ونشروها فوقهم فتَطَهَّروا من كل دَنَس ، وعاد إلى القصور الأثيرية أولئك الملعونون الذين سقطوا من السماء إلى الأرض فاستردوا طُهْرَهم القديم بعـد أن اغتسلوا فى ذلك النهر ، وقام الرِّشى الإلهيون والسيدَها وأعاظمُ القديسين بالدعاء خافتى الصوت ، وكانت الآلهة والغاندهروا يُغَنُّون ، وكانت جماعات الأبسرا تَرْقُص ، وكانت كتائب الزُّهَّاد فى حُبُور ، وكان العالم كلُّه غارقاً فى سرور » .

طلوع القمر

« طَلَع القمر وحوله كتيبةٌ من الكواكب وعليه تاج من الأشعة فيَغْمُر العوالم بأنواره الساطعة ، ورأى هنومان الشهيرُ صعودَ هـذا الكوكب الدُّرِّىّ الذى ينير الشواطىء الأثيرية فيبدو أبيض من اللبن أو من ألياف السِّدْر سابحاً فى الفلك كإوَزَّة فوق بحيرة ، فأعجب بأنواره اللامعة المُتَألِّقة يصبُّها فى الأفق بين قطيع من النجوم كما لو كان ثَوْراً هائماً ملتهباً حُبًّا فى مُرَاح عِجال ، وأبصره وهو يُطفِىء بالتـدريج ما طرأ على الأرض من الحرّ فى النهار ويُثِير ميـاه البحر الواسع ويُضِىء جميع المخلوقات » .

صيدُ راما للغزال السحرى مارتجا

« يُرَى الغزالُ حيناً ولا يُرَى حيناً ، ويَمُرُّ مسرعاً خوفاً من أن يُصْمَى (١)

(١) أصمى الصيد : رماه فقتله .

فاتناً أكبر الراغهوبد ، ويظهر تارةً ويختفي تارةً أخرى ، ويَعْدُو مذعوراً مَرَّةً ويَقِفُ مرةً أخرى ، ويغيب طوراً ويخرج من كِنَاسِه[1] راكضاً طوراً آخر .

« كان الغزال السحريُّ مارتجا خاتقاً فجاب جميع الغابة ، فرآه راما ذات ساعة يَرْكُض أمامه فشَدَّ قوسه غاضباً ، فلم يَكَد هـذا الغزال يرى راما مُنْقَضّاً حاملاً قوسَه بيده حتى توارى غيرَ مرة محاولاً ألا يراه ، فكان يبدو قريباً منه حيناً وكان يبدو بعيداً منه حيناً آخر .

« والغزالُ ، بين ظهورٍ وتوارٍ ، استدرج راما الذى يَتَعَقَّبه إلى مكان بعيد ، وكان راما ، الراكض وراء الغزال وقوسُه بيده فيُبْصِره حينا ولا يُبْصِره حيناً آخر في الغابة الكبرى كالقمر الذى تَحْجُبه السُّحُب في الخريف تارةً ويبـدو حيناً تنقشع تارةً أخرى ، يقول : « يُقْبِلُ ! أراه ! يتوارى ! » فيجوب جميع أجزاء تلك الغابة الواسعة .

« ووَصَل البطل راما الذى كان يُخْدَع في كلِّ ثانية إلى قُبَّة مُظِلَّة من الأعشاب الغَضَّة فوَقَف فبدا له ذلك الغزال مع غِزْلاَن أخرى ساكنةٍ قائمة بالقرب منه ناظرةٍ إليـه مذعورةً ، فعزم البطل راما على إصابته فشَدَّ قوسه المتينة ووضع أحسن سهامه على وَتَرِها .

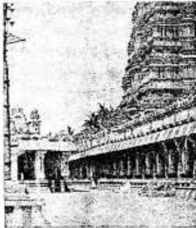
« فوَّق[2] راما السهم وجَذَب الوتر إلى شحمة أذنه ، ثم فتح جُمْعَ كَفِّه[3] فأطلق ذلك السهم الحادَّ الحـارَّ الذى صنعه برهما بيـده فأصاب به قلب الغزال مارتجا فأصماه » .

---

(١) الكناس : بيت الظبي — (٢) فوق السهم : وضع فوقته في الوتر ليرمى به ، والفوقة هي موضع الوتر من رأس السهم — (٣) جمع الكف : الكف حين تقبضها .

إعلان حبِّ سيتا

« قالت سيتا لزوجها راما : سأذهب إلى حيث تذهب ، أُقسم بحبك وبحياتك أنى لا أرغب فى سُكْنَى السماء بعيدةً منك يا سليل راغهُو الشريف ! فأنت مولاى وأنت سيدى وأنت دليلى وأنت إلٰهى ، سأذهب معك ، فهذا عزمى القاطع ، أراك تريد دخول هذه الغابات الكثيفة الوَعْرَة فسأسير أمامك لأُحَطِّم تحت قدميَّ العشبَ الناهض والعَوْسَج الشائك فأشقَّ لك طريقاً ، فالزوج هو القَوَّام على المرأة الصالحة ، لا والدُها ولا أمُّها ولا ابنها ولا صديقها ولا قلبها ، فلا تَنْفَسْ عليَّ بهذه السعادة واطْرُد منك هذا الفكر السَّيِّئ كما تُطْرَح القَطرة الأخيرة من الكوب ، خُذْنِى معك أيها الأمير العزيز غَيْرَ حَذِر ، ثِقْ بوفائى ، أَنْعِم عليَّ بهذه الحظوة ، لأُرافقك ولأَعِشْ معك فى هذه الغاب التى يسكنها الأُسُود والخنازير والدِّبَبَة والنمور ، فأتغذَّى فيها كما تتغذَّى بالفواكه



٩٨ – بيجانغر . داخل الباحة الثانية لزون شيوا الكبير (القرن الخامس عشر من الميلاد)

والجذور ، ولن أكون عِبْئاً ثقيلاً عليك ، ما أعظم سرورى حين أقطن بتلك الغابات الوارفة[1] الطيبة العَطِرة ، إنى إذا ما عشت فيها بجانبك مَرَّت ألوف السنين على كيوم واحدٍ ، فالجنةُ بغيرك كجهنم ، وجهنم معك أطيبُ منزل » .

(١) ورف الظل يرف ورفاً : امتد واتسع ، وورف النبات : نضر واهتز واشتدت خضرته فهو (وارف) .

جيش شيوا

«هنالك بدت كتائب أعوان شيوا السماوية تقذف النار من العيون والأفواه ، وهي ذوات أرجل وذرعان ورؤوس كثيرة ، وهي تلبس أسورة مرصعة بالجواهر ، وهي ترفع أياديها في الهواء كأنها أفيال وجبال ، ولكتائب من هذه صور الكلاب والخنازير والجمال وأعضاء الأفراس وبنات آوى والأبقار والدببة والقطاط ، ولأخرى أفواه الأنمار والفهود ومناقير الغربان والببغاوات ورؤوس الزماميج[1] ، ولهذه صورة الثعابين الهائلة ولتلك مناقير الإوز والزراريق والعقاعق ومناظر السلاحف والتماسيح والدخسان[2] والقردة ، وبعضها يقلد مالك الحزين والضفدع والحوت ، ولبعضها عدة عيون وآذان واسعة وبطون كبيرة ، وبعضها بغير رأس ولبعضها رأس دب أو رأس كبش أو رأس كلب ، وترمي بالشرر من المسام ويلتهب كل شعرة في جباهها وأبدانها » .

٤ — الرموز والأمثال — القصص والأساطير

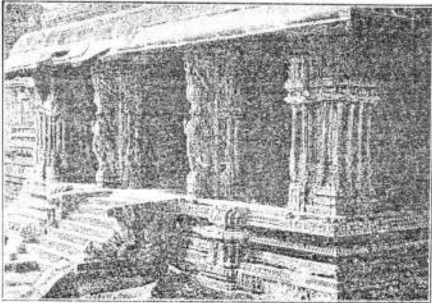
« يمكن عد رموز الهند وأمثالها من أهم ما أنتجته ، ولا ريب في أن الهندوس أساتذة لنا في هذا المضمار ، وتعد البنشج تنترا[3] أشهر مجموعة للقصص والحكم ، وهي تتألف من رموز اتخذ فيها الحيوان عامل درس للإنسان ، أجل ، إن ما فيها من الأحاديث قليل الاشتباك بعضه في بعض ، ولكن هذه الأحاديث وما انطوت عليه

---

(١) الزماميج : جمع الزمج وهو طائر مائي أبيض في حجم الحمام ولا يأكل غير السمك .
(٢) الدخسان : جمع الدخس وهو دابة في البحر — (٣) البنج تنترا : هي كليلة ودمنة (المترجم)

من الأمثال مما يشمُل النظر على العموم ، وما فى صفحاتها من الحِكَم الكثيرة ، فى الغالب ، يُثير فى النفس حبّ الاستطلاع .

ويُرَى أن وضع تلك المجموعة تمّ فى زمن قديم جداً ، ويَرَى كثير من العلماء أن بعض تلك الأحاديث اقتبسه إيزوب ، بَيْدَ أن الكتاب السنسكرتى الذى يشتمل عليها جُمِع فى عِدّة أدوار ما ذُكِر فيه اسمُ عالِم فلكىّ عاش حوالَى القرن السادس بعد ظهور المسيح .



٩٩ ـ بيجانقر . مدخل معبد وتوبا (القرن السادس عشر من الميلاد)

وذاع صيت أمثال الهند وقِصَصها ببلاد فارس فى النصف الأول من القرن السادس من الميلاد ، فأرسل كسرى أنوشروان الساسانىّ (الذى دام عهده من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م) عالماً طبيباً ليترجم البَنْچ تنترا إلى اللغة البهلوية ، وحافظ

خلفاء هذا الملك على هذه الترجمة إلى أن مَزَّقَ العرب دولة الفرس فى سنة ٦٥٢ ، فلما انقضت مئة سنة على زوال تلك الدولة وَجَد الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور نسخة منها تَفَلّتَت من خراب المكتبة الفارسية فأمر بنقلها إلى العربية .

والقرون كلما مَرّت على تلك الأمثال عَظُم قدرها، فتُرْجِمَت البَنْج تنترا فى القرن العاشر إلى الفارسية نظماً ثم نُقِلَت فى القرن نفسه إلى التركية بأمر سليمان ، وتُرْجِمَت البنج تنترا إلى اليونانية فى أواخر القرن الحادى عشر ، ونُقِلت إلى العبرية فالإسبانية فى القرن الثالث عشر ، ونُقلت إلى الألمانيـة فى القرن الرابع عشر ، وترجمها ريمون البيزيارى فى أوائل القرن الرابع عشر من الترجمة الإسبانيـة تلك إلى اللاتينية من أجل زوجة فيليب الجميل حَنّة النَّبَرِّيّة ، ولا تجد لغـةً لم يُنقل إليها هذا الأثر الخالد بشىء من الأمانة ، ومَثّلَت البنج تنترا دوراً مهماً فى آداب القرون الوسطى ، ومن هذه المجموعة اشتُقّ أكثر الأمثال الأوربية ، ومنها أمثال لافونتن

ونذكر مجموعة الهتو بَدِيشا بجانب مجموعة البنج تَنْترا ، وهى مثلها مشهورة وإن كانت أحدثَ منها كثيراً ، على أن الهتو بديشا ليست إلا نسخةً جـديدة عن البنج تنترا مع اختصار فى بعض الأمور وإضافاتِ أمثالٍ حديثة مقتبسة من مجموعة مجهولة قديمة جداً على الأرجح .

ومجموعة الهتو بديشا هذه نقلت إلى أكثر اللغات الأوربية أيضاً ، وسـنذكر بعضَ مختارات من حِكَمها فى فصل آخر .

وهنالك مجموعاتٌ أخرى مشابهة لتينك المجموعتين وإن كانت دونهما شهرةً ، فلا نرى فائدة فى ذكرها .

ويمكن القول إن كتب الهند حافلة بالقِصَص والأساطير ، فتُعَدُّ الآداب الهندوسية التاريخية أو الدينية مجموعة منها .

وعُرِف كثير من الأقاصيص الهندوسية في أوربة بكتاب ألف ليلة وليلة ، وتحتوي هذه المجموعة على كثير من القِصَص الهندوسية وإن كان معظمها من أصل عربيّ ، غير أن ما في كتاب ألف ليلة وليلة من القِصَص الهندوسية بلغ من الصقل والإصلاح ما يَصْعُب معه ، في الغالب ، تمييز ما هو من أصل هندوسيّ فيها .

وتستحقّ الأساطير الهندوسية ، التي مُلِئَت بها الكتب الدينية أو التاريخية ، دراسةً خاصة ، لا من أجْل فائدتها الضئيلة على العموم ، بل من أجْل المعارف النفسية التي تستنبط منها عن الهندوس فيصعب على الأوربيّ تَبَيُّنُها ، فلا بدّ من قراءة أساطير غير قليلة للوقوف على منطق الهندوسيّ الخاصّ وتطور فكره وطراز ربطه الأمور بعضها ببعض ، وقد ترجمتُ في سبيل هذا الكتاب بضع أساطير نيالية ذاتَ مَغْزى ، ثم وجدت أن صدره لا يتسع لها ، فأوصي المتخصصين في آثار الهند أن يدرسوا أُسْطُورة يبرو بكشا الذي هتفت الآلهة بأنه سيتزوج أمه ، كما هتفت لأديب ، وبأنه لم يَسْتطِع أن يتخلص مما قُدِر عليه مع ما قام به من الجهود ، وأن يدرسوا أسطورة إنشاء معبد بُدّهة بأمر أمير قَتَل والده خطأً فدلّ ما احتوته هذه الأسطورة من التفاصيل على أن أمر القرابين البشرية كان شائعاً في الهند حيناً من الزمن ، وأن يدرسوا أسطورة الرَّحّالة سَمْبَل الذي شاهد أصحابه الخمسمئة تفترسهم خمسمئة عفريتة في أثناء سياحته في سيلان ، الخ .

٥ — التمثيل الهندوسي

بعض الروايات الهندوسية كُتِب نظماً وبعضُها كُتِب نثراً على العموم، وتختلف لغة هـذه الروايات باختلاف مُمَثِّليها، فأما أبناء الطوائف العليا فيتكلمون فيها بالسَّنسكرتية، وأما أبناء الطبقات الدنيا فيتكلمون فيها باللغة البراكرتية.

والأدب في تلك الروايات أرفع مما يبدو في مسارحنا الحديثة مع أنها وُضِعَت بلسان فاسق في بعض الأحيان، فروحُ الدَّعارَة التي تسود رواياتنا تَراها غير موجودة في الروايات الهندوسية تقريباً، أجَلْ، إن للغرام كبيرَ شأنٍ في الروايات الهندوسية، غير أن الزواج يَعْقِبُه فيها، ومما كانت تُحَرِّمه مبادئُ الهندوس الاجتماعيـة وَلُوعُ المرء بزوجات الآخرين، وللخليلات دَوْرٌ مهم في تلك الروايات كالذي لهن في رواياتنا العصرية لا ريب، ولـكنه كان لهؤلاء الخليلات من المقام العالي في المجتمع الهندوسي ما يَعْدِل مقام أَخَواتهن في العـالم اليوناني السابق وما هو أسمى مما لأَخَواتهن في الوقت الحاضر.

وروايات الهند من روايات التوابع[1]، فالحوادث فيها من خوارق العادة على الدوام، وفيها تظهر الآلهة ظهوراً مستمراً، وفيها تتزوج الإلاَهاتُ بالآدميين، وفيها تَحُلُّ الآلهة المُعْضِلات عندما تتعقد.

ورواياتُ الهندوس، من حيث التركيب، ضعيفةٌ ضَعْفاً يستوقف النظر، ففيها ضُحِّيَ بالمجموع في سبيل التفاصيـل على الدوام، وأبطالُها ثَرْثارون على العموم،

---

(١) التوابع: جمع التابعة وهي الجنية.

وَأَشْعُرُ بالتصنع والتكلف فيا يقولون ، ومن الصعب أن تَجِد بين الروايات الهندوسية والروايات اليونانية وجهَ شبه خلافاً لِما رآه بعض العلماء .

ولم ينشأ ذلك الضَّعْف عن عَطَل تلك الروايات من قواعدَ مقررةٍ ، فقد اتَّبَع واضعوها ، بالعكس ، عِدَّة أصول معقدة في إنشائها ، كما يبدو ذلك في كتب كثيرة قضى العلماء المتخصصون زمناً طويلاً في ترجمتها .

ومُمَثِّلو الهندوس كانوا محترمين أكثر مما هم عليه الآن ، وغيرُ قليل ما كان يناله واضعو الروايات من الحُظْوة ما عَلِمْنا أن ملوكاً لم يترفعوا عن كتابة روايات تمثيلية ، ومن هذه الروايات نذكر رواية « مركبة الصَّلْصال[١] » التي ألَّفها شودرا كا ملكٌ مَعْدُها في أوائل التاريخ الميلاديّ على ما يظهر .

ونذكر من الروايات الهندوسية التمثيلية الكثيرة المعروفة في أوربة ما وَضَعَه كالي داسا الذي يُفْتَرض أنه عاش في القرن السادس من الميلاد ، ونَعُدُّ من رواياته : (السحاب الرسول ، وأصل الإله الفتى ، وغرام بطل بأورَوَشي ، الخ) ، وأشهرُ رواياته على الإطلاق هي رواية شَكُنْتَلا التي تُرْجِمت إلى أكثر من عشر لغات والتي نَجِد لها عِدَّة تراجم فرنسية ، فأُعْجِب بها غوته ولامارتين وغيرهما من أعاظم الكتاب ، وذلك في زمن خُيِّل فيه أن اكتشاف الآداب السنسكرتية فَتَح للإنسان آفاقاً جديدة ، وعلى ما نراه من عدم استحقاق تلك الرواية لِما مُدِحَت به في البَداءة نَجِد أن محاسن كُتَّاب الهندوس تَجَلَّت فيها أكثر من تَجَلِّي مساوئهم ، فهي ، على العموم ، أكثر من غيرها بساطة وأقرب إلى الصواب وأقلّ مبالغةً ،

---

(١) الصلصال : الطين اليابس الذي يصل من يبسه،أي يصوت .

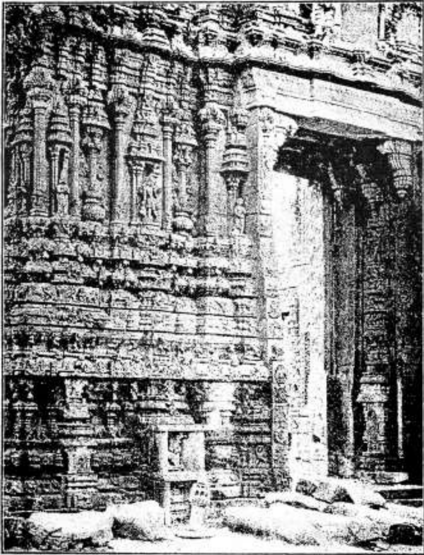
وموضوعُها إنسانيٌّ مؤثر وأبطالها بعيدون من التَّعَمُّل ، والـكلام فيها مُوجَز وتـكاد تخلو من التعسف والمجاز ، وفيها بعض فصول عاطفية رائعة .

وخلاصة تلك الرواية هي أن الملك دُشْيَنْتَه كان يصطاد فلقي في صَوْمعةٍ ابنةً لإلاهة وناسكٍ اسمها شَـكُنْتَلاَ فأولعَ بها فتزوجها على الفور على حسب عادة أبطال الهندوس ، وزواجٌ بسيط مثل هذا مما كانت تعترف به الشريعة موقوفاً على اعتراف الفريقَيْن المُختَصَّيْن به ، فلما قَضَى منها وَطَراً فَتَر حُبُّه لها فعاد إلى عاصمته هستي نابورا من غـير أن تحزن كثيراً كما يستنبط من صَمْت واضع الرواية ، وهي لم تعزم على اللَّحاق به إلا بعد أن أبصرت أنها ستصبح أمًّا ، وقد خامرها شكٌّ في أنه يعترف بها فأخذت معها الخاتَم الذى وهبه لها لتُثْبِتَ حقيقة أمرها . ومن المؤسف أن آذَت أحدَ الزُّهَّاد بأن نَسِيت أن تجيب عن سؤاله متاهيةً ، فدَعا عليها فخَسِر الملك ذا كرتَه فى مكانه فلم يَعْتَرِف بها ، وكان من نتائج هذا النسيان أن غَضِبَتْ فأضاعت الخاتَم فى نهر ، أجل ، وجد الخاتَم صَيَّادٌ فى بطن سمكة ، بَيْدَ أن الملك لم يعترف بها فرَحَلَتْ إلى حيث لم يعرف أحد ، فبحث عنها زوجها الملك فلم يَجِدها إلا بعد بضع سنين ، وما كانا ليلتقيا إلا بمعجزة مع ذلك ، وبيان الأمر أن ملك السماء إندرا عَجَز عن قهر جيش العفاريت فعهد إلى الملك دُشْيَنْته فى إبادتهم ، مما نَقَبَيْن به ما كان يُعْزَى إلى الآلهة والناس من الشأن ، فانتصر هـذا الملك عليهم فاستأصلهم فـكافأه إندرا بأن وَجَدَ له زوجته وابنه ، ثم تختم الرواية بتبجيل مُشَوَّش قليلاً .

٦ — آثار أدبية مختلفة

إذا عدوت التاريخَ ، والتاريخُ ما عَجَز الهندوس عن تدوين كتاب فيه ما عَطِلوا من مثل هذا الـكتاب ، لم تَجِد موضوعاً لم يكتبوا فيه ، فقد ألَّفُوا فى الفلسفة واللاهوت

والاشتراع ، الخ . عِدَّة كتب ، وأَلَّفُوا ، كذلك ، فى العلوم عِدَّة كتب ، وإن كان ما أَلَّفُوه فيها هزيلاً .



١٠٠ ــ تادپترى . نقوش تستر حواجز معبد (القرن السادس عشر من الميلاد)

ولو عَدَدْنا هذه المؤلفات لخرجنا من دائرة الإجمال ، فلا نذكر منها ، لذلك ، غيرَ الـكتب المعروفة بالپورانا ، لِما لها من الأهمية عند الهندوس .

وتجيء كلمة الپورانا بمعنى « القديم » ، ويُقصد بها كتب فى الديانة وُضِعت فى مختلف القرون ، فقيل ، بحقٍّ ، إنها مستودع الأساطير الشعبية ، وتشتمل ، كذلك ، على تاريخ أُسَر الهند المالـكة القديمة الأساطيرىّ ، وفيها أكثر من ٨٠٠٠٠٠ بيت شعر ، ويتألف منها ثمانىَ عشرةَ دائرةَ معارف لا يحتمل الأوربىُّ قراءتها .

ونذكر ، عدا الـكتب التى ألمعنا إليها فى هـذا الفصل ، المؤلفات الفلسفية التى فُصِّلَتْ فى الأوپانشدا ، وتكلمنا عنها حينما درسنا أمر البُدَّهية ونعود إليها فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى ديانات الهند الحاضرة ، ولا نجد ما يسبق فلسفتها جُرْأةً ، ونعترف بأن الهند انتهت منذ ألفى سـنة إلى كُبْرَيات المسائل التى لم يَصِل إليها الغرب إلا منذ قرن واحد فلم تُحْجِم عن إيجاد حلٍّ جرىء لها .

وتُعَدُّ آثار الهندوس الفنية مهمة إلى الغاية فضلاً عن آثارهم الأدبية ، ونبحث فى فَنِّ عمارتهم بعد أن ندرس فى المطلب المختصر الآتى لغاتها ، وفَنُّ عمارتها هو الذى أرى البحث فيه أهمَّ مما فى غيره وإن عُرِف قليلاً حتى الآن .

٧ ــ لغات الهند

ليس من هَدَف هذا الـكتاب وحدوده أن ندرس فيه لغات الهند ، ولو دراسةً وجيزة ، وسنقتصر فى هذا المطلب على المعارف الإحصائية المختصرة التى تشير إلى تَنَوُّع تلك اللغات .

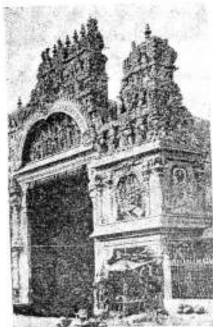
يجب على الرَّحَّالة الذى يَوَدُّ أن يسيح فى الهند وأن يُدْرِك أمره فى كلِّ مكان

منها أن يتعلم نحو ٢٤٠ لغةً ونحوَ ٣٠٠ لهجة ، وإذا ما أراد أن يبدو تام الثَّقافة فى لغات الهند أن يعرف ، عدا تلك اللغات وتلك اللهجات ال ٥٤٠ ، الفارسيةَ التى هى لغةٌ رسمية للقصور الأهلية والمجتمعات الراقية فى الهندوستان ، وأن يعرف البهلوية التى هى لغــة المجوس ، والصينيةَ التى هى لغة المهاجرين فى كلــكتة ، واللغاتِ الأوربيةَ التى يتــكلم بها فى الهند سكان المستعمرات الإنكليزية والبرتغالية والفرنسية ، الخ . ومما لا يُفيده أن يُضيف إلى تلك اللغات ، المُتَرَجَّح عددُها بين ٥٥٠ و ٥٦٠ ، لغةَ السَّنسكرت القديمة التى تُدَرَّس وحدَها فى جامعات أوربة على وجه التقريب ، لأنه لا يجد فى الهند رجلاً يتــكلم بها .

يمكن ردُّ لغات الهنــد الــكثيرة إلى خمسِ فصائلَ أساسـية يختلف بعضها عن بعض أكثر من اختلاف اللغات الأوربية فيما بينها ، وهذه الفصائل هى : ١ ـ اللغات الآرية ، ٢ ـ اللغات الدراويدية ، ٣ ـ اللغات الــكولية ، ٤ ـ اللغات التبتية ، ٥ ـ اللغات الــكهاسية .

وتشتمل الفصيلة الأولى على اللغات ذوات اللَّيِّ ، وتشتمل الفصائلُ الثلاث التى تليها على اللغــات ذواتِ الوصل ، وتشتمل الفصيلةُ الخامسة على اللغات ذوات المقطع الواحد .

والناس يتكلمون ، على العموم ، باللغات الآرية فى شمال الهند وقسم من وسطها ، ويتكلمون باللغات الدراويدية فى الجنوب ، ويتكلمون باللغات الــكولية فى جهات متفرقة فى الشرق والوسط ، ويتكلمون باللغات التبتية فى أودية همالية ، ويتكلمون باللغات الــكهاسية فى قسم من آسام .



١٠١ ـ مدورا . (الزون الكبير) باب معبد الإلاهة مينا كشى (القرن السابع عشر من الميلاد) (أنشئ زون مدورا الكبير فى زمن قديم جداً ، ولكن أهم أجزائه التى نشرناها فى هذه الصورة وفى الصور الآتية يرجع إلى عهد الراجه تيرومال ، أى إلى القرن السابع عشر)

ومن فصيلة اللغات الآرية تُعَدّ اللغة السنسكرتية الميتة منذ زمن طويل والتى وُضِعت بها كتب الهند المقدسة القديمة ، ولا تجد لهذه اللغة غير شأن مشابه للغة اللاتينية فى كتب العبادات الكاثوليكية ، فلا يتعلمها سوى شرذمة قليلين من البراهمة .

وترجع عناية الأوربيين العظيمة بالسنسكرتية فى جامعاتهم إلى عَدّهم هذه اللغة ، فيما مضى ، الأصلَ الذى اشتُقّت منه اللغات الأوربية ، بَيْدَ أن من المعلوم فى هذه الأيام أن اللغات الهندية الأوربية (السنسكرتية والألمانية والسلافية واللاتينية واليونانية والزندية) هى أخَوَات اشتُقّت من لغة مشتركة ضائعة فى الوقت الحاضر ، فغادت السنسكرتية لا تكون لغة أُمًّا أكثر من أية لغة آرية أخرى كاليونانية أو الهندية أو اللاتينية مثلًا ، وانحصرت فائدة الأوربيين من تعلمها فى قراءتهم كتبَ الهند الدينية القديمة الأصلية .

وفى الهند ، عدا اللهجاتِ ، ستُّ عشرةَ لغة آرية ، والهندوستانية هى أكثر هذه اللغات الآرية انتشاراً وأجدرها بالتعليم ، فهى لغة الهند الرسمية ، وهى لغة

الأعمال فيها ، وبها تُكتب الصحف وأهمُّ الكتب ، ولا غُنْيَة لمن له علائق بالهند عن معرفتها .

والهندوستانية الكثيرة الانتشار فى الهند ، اليومَ ، هى حديثة التكوين مع ذلك ، فلا يَرْجع تاريخ ظهورها إلى أقدمَ من القرن الخامس عشر ، والهندوستانيةُ مزيجٌ من الهندية ، التى هى من أصل آرىّ فكان الناس يتكلمون بهما فى الهندوستان ، ومن اللغتين العربية والفارسية اللتين كان مسلمو الهند يتكلمون بهما ، وقواعدُ هذه اللغة سَنسكرتية وتكتبُ بالحروف الفارسية (العربية) على العموم ، وتُعْرف هذه اللغة ، فى الغالب ، بكلمة الأردو التى تعنى المُعَسْكر ، لأنها كانت لغةَ المعسكرات المغولية بدهلى ، ونشأت هذه اللغة نشوءاً غريزياً عن صلات شعوب الهند بعضها ببعض ، فعلى علماء النحو أن يدرسوها إذا ما رَغِبوا فى معرفة نشوء اللغات وتحولها .

وأكثرُ اللغات الآرية شيوعاً ، بعد الهندوستانية ، هى الهندية التى يتكلم بها أهالى قسم من الهندوستان نفسها ، والپنجابية التى يتكلم بها أهالى الپنجاب والبنغالية التى يتكلم بها أهالى البنغال ، الخ .

ولا قرابة بين اللغاتِ الآرية واللغات الدراويدية التى يتكلم بها سكان جنوب الهند كما ذكرنا ذلك فى فصل سابق ، فاللغات الدراويدية من فصيلة لغوية مستقلة ، أى من اللغات ذوات الوصل المؤلفة ، كما هو معروف ، من أصل ثابت تُوصَل مقاطعُ بأوائل كلماته وأواخرها .

وتحتوى فصيلة اللغات الدراويدية على أربع عشرة لغة وعلى عِدَّة لَهَجات لكلٍّ واحدة من هذه اللغات ، ويتكلم بهذه اللغات خمسون مليوناً من الناس ،

وأهمُّ هذه اللغات هى التمولية التى يُتَكَلَّم بها فى جنوب الهند الشرقىّ الممتد إلى رأس كمارى والتى هى غنيــة بآدابها ، والتيلغوية التى يتكلَّم بها ١٧ مليوناً من الهندوس فى شرق الدَّكَن وفى بعض أملاك نظام ، والـكَنَرِيَّة والمَلَيالمية اللتان يُتَكَلَّم بهما فى الساحل الغربى ، الخ .

وفصيلة اللغات الـكولية التى تتكلم بها قبائل الهند الوحشية هى عنوانٌ مالسكان الهند الأصليين من اللَّهَجات قبل المغازى الأجنبية .

ولا أثر لفصيلة اللغات التبتية إلاّ فى أودية هِمالية .

ولا يتكلَّم باللغات الـكهاسية إلاَّ أناس قليلون فى جنوب آسام ، وهذه اللغات من ذوات المقطع الواحد ، أى من اللغات المؤلفة من جذر ثابت مستقل كما هو أمر اللغة الصينية.

وإليك جدولاً بأكثر لغات الهند شيوعاً على حسب الأهمية العددية ، فالرَّقم الذى هو بحذاء كل لغة منها يدلّ على عدد ملايين الآدميين الذين يتكلمون بهذه اللغة أو اللَّهَجات المشتقة منها :

مليون		مليون	
٥ و ٨٢	الهندوستانية	٥ و ٩	الـكجراتية
٣٩	البنغالية	٥ و ٨	الـكَنَرِية
١٧	التيلغوية	٧	الأورية
١٧	المراتهية	٥	المَلَيالمية
١٦	البنجابية	٤	السندهية
١٣	التمولية	٢	الهندية

ولا تَسْهُل السياحة فى داخل الهند بسبب تنوع لغاتها ولَهَجاتها ، فما أكثر ما كابدنا من المشاقّ من جَرَّاء ذلك ، ويصعب تعيين الأمكنة فى الهند أحيــاناً ،

فى الهند أماكنُ يُسَمَّى كلٌّ واحد منها فى الخرائط والكتب بِعِدَّةِ أسماء يجهلها الأهلون على العموم ، فعلى المرء أن يكون مُكاشِفاً ليَعلم ، فى الغالب ، أىَّ مكان قَصَد المؤلف فى كتابه[1] .

ثبت مما قلناه آنفاً عن اختلاف لغات الهند أن شعوب الهند ليست أقلَّ اختلافاً فى لغاتها منها فى عروقها ، وما بين هذه الشعوب من الفروق العميقة المزدوجة إذ كان أعظم مما بين الشعوب الأوربية ، لا ريب ، فإنها لا كبيرَ أملٍ لها فى أن تُوَفَّق لتأليف أمة واحدة .

---

(١) لم يكترث الإنكليز كثيراً لتوحيد كتابة الأسماء ، فلا تجد خريطتين إنكليزيتين كتبت فيهما الأسماء على نمط واحد ، حتى إنك ترى بين المدن التى تقطعها الخطوط الحديدية اسم المدينة الواحدة مكتوباً على أوجه مختلفة فى خريطة الدليل والسجل والمحطة ودليل البريد ، أجل ، لاتصعب معرفة اسم مدينة كانپور إذا كتبت : Cownpore أو Kanhpur ، واسم مدينة أمرت سر إذا كتبت : Amritsir أو Umritsur واسم مدينة پونديچيرى إذا كتبت : Pondichéry أو Punduchéry واسم مدينة كانجى ورم إذا كتبت : Conjevéram أو Kanchipuram ، الخ . ما بدا الأمر بسيطاً ، ولكن الأمر يصعب إذا كتبت مدينة تانجور : Tanjawur وكتبت مدينة أجودهيا : Awadh أو Audh وكتبت مدينة تراون كور : Tiruwankodu ، وكتبت مدينة مدراس : Mandir - Ray ، الخ . ومما لاحظه إستويك فى كتاب مهم نشره عن الهند أن كلمة «فتح» التى تضاف إلى أسماء عدة مدن تكتب على أحد عشر وجهاً غير صحيح : (Futeh ، Futh ، Futhe ، Futick ، Futi ، Futt ، Futteh ، Futtih ، Futteo ، Futtun ، Futty) ، وندرك بسهولة ، بعد هذا ، كما بين ذلك المؤلف ، أن رؤساء الكتائب لم يستطيعوا أن يميزوا أى مكان على دلائل المسافرين التى تعطيهم الحكومة إياها ، وقال ذلك المؤلف ، فضلا عن هذا ، إنه قابل خريطة حكومة مدراس بخريطة أركان الحرب فلم يجد أية مطابقة بين الأسماء ، فأبصر اسم نهر واحد كتب فى خمس خرائط : (Tamraparni ، Tamberperny ، Tambaravari ، Pambouri ، Chindinthura)

وعلى ماتراه من اختصار الخريطة التى نشرناها فى أول هذا الكتاب ، وعلى ماتراه من اقتصارها على الأمكنة المحتوية للمبانى المهمة تجدها أكمل ، من تلك الناحية ، من أكثر الخرائط المفصلة ، وقد بذلنا كبير جهد فى تنظيمها ، ومن الطبيعى أن اعتمدنا على التهجية الإنكليزية ما دامت اللغة الإنكليزية لغة الهند الرسمية ، وما ألف أكثر الكتب الخاصة بالهند بهذه اللغة ، وقد اخترنا من تهجيات الاسم الواحد أكثرها انتشاراً وقرباً من اللفظ الدارج كما سمعناه بنفسنا .

الفصل الثانى
مبانى الهند

صعوبة درس فن البناء فى الهند — تعذر وصل بعض أدوار مبانيها — ظهور طرز بناء بغتة وتواريها فجأة — (١) تقسيم مبانى الهند — أصول فن البناء الهندوسى — ظهوره — قواعد تقسيم له — جدول عام لتقسيم مبانى الهند — (٢) فن بناء الهند فى العصر البدهى (بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد) — المعابد والأديار المنحوتة فى الصخور — أجنتا وكارلى ، الخ . — القباب — سانجى وسارناتها — المعابد البدهية الكبرى القائمة فوق الأرض — بدهه غيا — المبانى الإغريقية الهندوسية فى شمال الهند الغربى — ضعف المؤثرات الأجنبية فى الهند — أمثلة مختلفة — (٣) فن البناء فى العصر البرهمى الجديد (بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد) — فن البناء فى ولاية أوريسة — معابد بهو ونيشور — فن البناء فى راجيوتانا — معابد بنديل كهند وجبل آبو — قصور غواليار وأودى بور ، الخ . — فن البناء فى كجرات — مبانى أحمد آباد — مبانى الهند الوسطى — معابد أمبرناتهه وإيلورا ، الخ . — (٤) فن البناء فى الهند الجنوبية — المعابد المصنوعة تحت الأرض فى جنوب الهند — بادامى ومهابلى پور الخ . — وضع معابد جنوب الهند العام — معابد بيجانغر ومدورا وشرى رنغم ، الخ . — (٥) فن البناء الهندوسى الإسلامى — تنوع الطرز الإسلامية فى الهند — عناصر فن البناء الإسلامى الأساسية — أصول الطراز المغولى — عناصره الأساسية — تصنيف المبانى الإسلامية فى الهند — (٦) فن البناء الهندى التبتى — مبانى نيپال — اختلاط العناصر الهندوسية والصينية — تقسيم معابد نيپال ومبانيها العام — (٧) فن البناء الهندوسى الحديث — تقهقر فن البناء فى الهند حديثا — أسبابه — المبانى الهندوسية التى أقيمت فى الهند منذ قرن .

دِرَاسةُ فنِّ بناء الهند ذاتُ مصاعبَ عظيمة ، فتجد بعض الأدوار من جهةٍ

عاطلةً من المبانى فتكون الأمثلة التى هى على جانب كبير من الأهمية ، فى بعض الأحيان ، واحدةً تقريباً ، وترى مبانىَ أحد الأدوار من جهة أخرى تختلف بحسب البقاع اختلافاً لا تجد معه ، فى الغالب ، قرابة ظاهرة بينها ، فالحقُّ أنك لا تُبْصِر فى مبانى الهند تلك الوَحْدَة التى عُزِيَت إليها كما أنك لا تُبْصر مثل هذه الوَحْدة فى أديانها ولغاتها وفنونها ، والحقُّ أن الهند مؤلفة من بلدان متباينة بيئاتٍ وسكاناً أكثر مما يُشاهَد بين بقاع أوربة المختلفة .

يمكن عالِمَ الآثار الذى يدرس مبانى الغرب ، كمبانى فرنسة مثلاً ، أن يتَبَيَّن ، فى الغالب ، نشوءها بين قرن وآخر وأن يلاحظ التطورات المتتابعة التى جاوزتها بين شكل وآخر ، وليست الأدوار التى لم يَنْتَه إلينا شىءٌ منها طويلة أبداً ، ويمكن وصل حلقاتها بالمخطوطات التى وَصَلَتْ إلينا عند الضرورة، فبالمبانى وبالكتب يسهل بعث ماضى الغرب .

والأمرُ غير ذلك فى الهند حيث أباد الزمان والإنسان شهودَ أدوار حضارتها الغابرة الطويلة إبادةً لا رحمة معها ، وحيث لا تَجِد إلى زمن قريب أثراً خطيًّا جديراً بأن يُسَمّى تاريخاً .

وإن عَالِم الآثار الذى يطوف فى الهند ، وهو يعرف أن ماضيها حافلٌ بالحضارات الكثيرة القوية ، ليُبْهَت مما يراه ومما لا يراه فيها ، فلا تجد فى الهند حجراً أثريًّا من بقايا أقدم حضاراتها ، وإن شئت فقُل من حضارتها التى ظهرت قبل الميلاد بخمسةَ عشرَ قرناً فأشادت بذكرها كتب الأدب ، ولا تجد من الحضارة التى قامت بعد تلك بِنُضْج دام ألف سنة سوى بقايا لا تكفى لإيضاح تاريخها وإن كَفَت

لإثبات عظمتها ، والمبانى ، حين بَدَت فى الهند بغتةً قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، مَثَلَت بدرجة من الكمال لم تُجَاوَز قطّ مع تعاقب القرون .

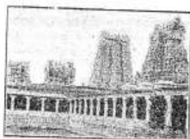
ولا يكتشف الباحث فى أية ناحية من الهند الأدوارَ الأولى التمهيدية التى تدلُّ عليها بقايا الحضارات الأخرى على الدوام تقريباً ، ففى بعض بِقاع الهند يرى الباحث ظهورَ المبانى فَجْأَةً وتَجَمُّعها فى قرنين أو ثلاثة قرون ثم يرى تواريها بغتةً ، أى إنه لا يَجِد قبلها و بعدها غيرَ الليل الدامس ، أَجَلْ ، إنه يكتشف فى بِقاع أخرى من الهند مُؤَثِّرات يونانية وفارسية بادية ، بيد أن هذه المؤثرات لا تَعْدُو بعضَ البِقاع ، وقد توارت بغتةً أيضاً ، وحقّاً أنه يشاهد ، من فَوْره ، فى إحدى البوادى الهندية أبواباً هائلة مُغَطَّاة بنقوش عجيبة، غير أنه إذا ماجاب جميع بلاد الهند الواسعة لايكاد يرى من نوعها غيرَ اثنين أو ثلاثة من أدوار حضارة دامت أكثر من عشرين قرناً ، وهو إذا ما عَدَل عن اكتشاف الماضى القديم المظلم من تحت الأعفار فاقتصر على دِراسة مبانى دورٍ أحدثَ من تلك الأدوار معروفٍ تاريخياً كالدور الإسلامى لم يَسْلَمْ من المصاعب أيضاً ، فمن العبث أن يَفْتَرِض أنه يتألف من هذه المبانى سلسلةٌ متجانسة بِزَعْم أنها شِيدَت من قِبَل شعوب تَدِين بديانة واحدة وتتكلم بلغة واحدة ، فما تَجِده من الفروق بين المبانى التى أقامها أتباع النبىّ فى دور واحد و بِقاع مختلفة من الهند هى من الوضوح والاتساع ما يجعلك تسأل معه : هل هذه المبانى من آثار قرون واحدة وشعوب واحدة ؟

وتاريخ ماضى الهند وحدَه يمكنه أن يُلقِيَ بعض النور على الشذوذ الظاهر الذى تُسْفِر عنه دِراسة أطلالها ، و بالوثائق التاريخية يمكننا أن نَتَبَيَّن الحوادث التى لا تُفَسَّر بغيرها إذا فُسِّرَت هذه الوثائق تفسيراً صالحاً مع نقصها ، فبالتاريخ وحدَه ندرك

مبانىَ الهند ، ومبانى الهند وحدَها هى التى تُـكْمِل هذا التاريخ ، و بفضل هذه المبانى خَرَجَت أدوارٌ من عالم النسيان بعد أن سكتت عنها الـكتب والمنمنات .

١ — تقسيم مبانى الهند

إذا استثنيت بعض المغاور التى ليس لها قيمةٌ فنية وجدتَ أقدم مبانى الهند لم تنشأ إلا بعد القرن الثالث قبل الميلاد ، ولدينا أدلة صحيحة ، مع ذلك ، على أن الهندوس كانوا ذوى طِراز بناء قبل هـذا التاريخ فأقاموا فيـه مدناً وشادوا فيه قصوراً ، فنحن نعلَم، من الوصف الذى ورد فى ديوانَى المهابهارتا والرامايانا ومن المبانى التى انتهت إلينا ومن شُرَف بهارت الـكثيرة النقوش مثلاً ، أن تلك المبانى بلغت من الـكمال

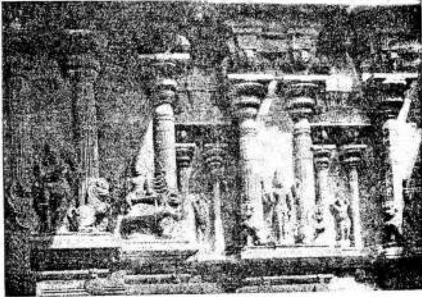


١٠٢ — مدورا . منظر معابد أخـذ من حوض البدر الذهبى

درجة لم تنلها إلا بمجاوزة ماض فنىّ طويل ، ونحن نفترض ، على العموم ، أنها زالت لأنها كانت مصنوعة من الخشب والآجُرّ وإن صُنِعَت أسسها من الحجر ، كما تدلّ عليـه محافظة أهل نيبال ، المتمسكين بقديم العادات ، على عادة إقامة مبانيهم من الخشب والآجُرّ إلى يومنا هـذا ، وكما لاحظه ميغاستين قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وكما يشهد به معبـد بُدْهة غَيَا الـكبير المصنوعُ بعضُـه من الآجُرّ فى ذلك الدور على الأقل ، فـكان البناء الوحيد الذى انتهى إلينا ، فالآجُرُّ والخشب إذ كانا أسهلَ استعمالاً من الحجر فى البناء كان لنا أن نرى تفضيل الهندوس لهما على الحجر .

ولم تبدأ الهند ، على ما يحتمل ، تَعْرِف المبانىَ الحجرية التى وَصَل إلينا بعضها

إلا فى عهد أشوكا أى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومن المحتمل أن صنعها بَنَّاؤوها منقولة عن المبانى الخشبية القديمة ، فعلى هذا الرأى كثير من العلماء ، وقد وَجَدتُ ما يؤيده فيما شاهدته بنيپال من اقتباس بَنَّائيها ، بضبطٍ ، فى المعابد الحجرية أعمدةَ المعابد الخشبية المنقوشة .



١٠٣ — مدورا . دقائق نقوش فى معبد من معابد الزون الكبير

وتبدو الآثار البُدَّهِيَّة القديمة ، كالأعمدة التذكارية والقِباب والشُّرَف المنقوشة، من كمال الصنع ما نُسِج به على منوالها عِدَّةَ قرون فى البقاع الهندية المختلفة : أمَراوَتى وأجنتا وسانچى الخ . وظُنَّ قبل تعيين الزمن الذى شيدت فيه هذه المبانى ، أن من الممكن إثباتَ تطورها الفنىّ بالمعابد الأولى المصنوعة تحت الأرض ، بَيْدَ أن تلك المنقوشات العجيبةَ معاصرةٌ لهذه المعابد الأولى التى نُحِتت تحت الأرض لتكون

ملاجىء أو صوامعَ للرهبان المتسكفين ، وما مَثَلُ من يريد أن يستنبط أصول فنّ عمارة دور من آثار ابتدائية كتلك إلاّ كمَثَل من يستنبط أصولَ مبـانى المدن الحديثة من أكواخ الرُّعاة فى الجبال ، والمعـــابدُ المنحوتة تحت الأرض حينما اتَّفق لها بعض الأهمية صارت تُصْنَع وَفْقَ الآثار المعمارية المعدودة من الطراز الأول .

وإذا عَدَوْت المعابد المنحوتة فى الصخر لم يبق لديك من تلك الأدوار الابتدائية سوى عدد قليل من النقوش والأعمـدة التى تفلَّتت من التخريب بمعجزة ، ومن حسن الحظ أن فـكّر البُدَّهِيُّون فى نحت معابدهم الأولى فى الجبال وإنقاذها بذلك من يد الزمن ، ولو لم يُخَرِّب الإنسان فيها بعض الشيء لظلت كما كانت حين صُنِعَت، وليس عدد هذه المعابد قليلاً إذا ما قيس بالآثار التى أقيمت فوق الأرض كالأعمدة التى صُنِـع كلٌ واحد منها من حجر واحد فنَقَش عليها أشوكا مراسيمه وكالشُّرَف المنقوشة القايلة فى الوقت الحاضر والمحيطة بالمزارات المخروطة الشكل .

ولم يبق شىء من القصور والمعابد الـكبيرة التى صُنِعَت قبل الميلاد فوق الأرض، ووَجَد فاهيان الذى زار الهنــد فى القرن الرابع من الميلاد أطلالاً لقصور أشوكا ، ووَجَد فاهيان هذا ما كانت عليه تلك القصور من الرَّوْعَة فقال إن الناس ليَعْجِزون عن صنع مثلها .

وغابت المعابد البُدَّهِيَّة المصنوعة تحت الأرض غياباً تدريجياً بين القرن الخامس والقرن الثامن من الميلاد ، واسْتُبْدِلت بها معابد مصنوعة فوق الأرض لمختلف الدِّيانات، وهذه المعابد إذ أنشأ أكثرَها أتباعُ الجَيْنِيَّة أُطْلِقَت كلمة الطراز الجَيْنِيّ على الطراز الذى أقيمت به ، ولا أوافق على هذه التسمية ما رأيت معابدَ برهمية وجَيْنِيَّة شِيدَت

على هذا الطراز في دور واحد كما بدا لى من المقايسة بين المعابد البرهمية والمعابد الجينية في كهجورا .

وسنرى فى غضون هذا الفصل أن فنّ عمارة الهند قد اختلف اختلافاً كبيراً بين بقعة وأخرى وبين دور وآخر ، وما كان الاختلاف الذى نبصره فى فنّ العمارة الأوربىّ بتعاقب القرون بأعظم من ذلك .

وعلى الباحث فى المبانى الهندوسية أن ينظر إلى جزئيّاتها عند الفصل فى أمرها ، لا إلى خرائطها البسيطة ، ومما لا ريب فيه أن معابد العصر البُدّهىّ كانت تؤلّف من ردَاه واسعة منحوتة فى الجبال ومن مزارات مخروطة الشكل محاطة بأعمدة وأن معابد العصر البرهمىّ تؤلّف فى شمال الهند من رَدْهَة أو عِدّة رِداه قائمة الزوايا مُزَيّنة بأروقة فوقها هَرَمٌ ذو وجوه مستديرة الخطوط ، وأنها تؤلّف فى جنوب الهند من أطُر واسعة قائمة الزوايا تُدْخَل من أبواب هَرَمِيّة ذوات وجوه مستقيمة الخطوط والأضلاع وذوات طبقات كبيرة ، ووصفٌ عامٌ كهذا لا يُغنى القارئ ، مع ذلك ، عن النظر إلى الصور التى نشرناها فى هذا الكتاب فيمكنه أن يَتَبَيّن بها طُرُزَها .

وهنا نذكر أن مهندسى الهندوس لم يشيروا بصنع القِباب المتوجهة إلى مركز واحد فى جميع معابد الهند التى أُنشئت قبل العصر الإسلامى وبعد هذا العصر فى الغالب ، فصانوا المعابد القديمة من الخراب بذلك ، فقِبابٌ كتلك التى تُصنَع فى الغرب بموادّ قليلة فتَغْشَى مساحاتٍ كبيرةً تحمل فى ثناياها بذور زوالها « فلا تنام أبداً » كما يقول الهندوس ، فالحقُّ أن البقاء لا يُكتَب لمبان تُشَاد بحسب طرقنا الأوربيــة فى بلد كثير الزلازل والعوارض الجوية كما يدل عليه أمر المبانى التى

أنشأها الإنكليز ، والحقُّ أن مباني الهند لو أقيمت وَفْقَ قواعدنا ماانتهى إلينا منها سوى الغبار .

اتخذ الهندوس ، دَعْماً لجسر أو ستراً لبناء ، القِبابَ ذواتَ المداميك الأفقية التي يَنضَّد بعضُها فوقَ بعض تنضيداً يَنْتأُ به عاليها مما سَفُل ، فإذا كانت المساحة التي يُراد غَمْوُها[1] واسعةً أضيف إلى الأعمدة التي تُمسِك حجارة الدائرة صَفُّ أعمدة أخَر قريبٌ من مركز هذه الدائرة ، ولم يستعمل الهندوس القِبابَ والأقواس المتوجهة إلى مركز واحد في معابدهم إلّا نادراً ، حتى بعد أن نشر المسلمون هذا النوع من البناء ، ولا يُفتَرَض أنهم جهلوا ذلك الطراز قبل المغازي الإسلامية مارأينا الإغريق الذين لهم صلاتٌ سابقة بهم كانوا يُعلِّمونهم إياه ، لا ريب ، عند افتراض جهلهم له كما جَهِله المصريون في القرون القديمة .



١٠٤ ــ مدورا . دقائق أعمدة رواق في الزون الكبير (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى السقف نحو خمسة أمتار ويبلغ ارتفاع تماثيل الحيوانات الحجرية الغريبة نحو مترين)

وما يُتَّخَذ لحضارات الهند ومعتقداتها الدينية من التقسيمات العامة يمكن أن يُتَّخَذ مثلُه لمبانيها ، والواقعُ أن هنالك فروقاً عميقة بين فن العمارة في العصر البُدَّهيّ

(١) غما البيت يغموه غمواً : غطاه .

وبينه فى عصر النهضة البرهمية والعصر الإسلامىّ ، ولكن تقسيماً كهذا ناقصٌ نقصاً تاماً ، فما بين العروق من الفروق يؤدى إلى فروق بين المبانى أشدّ من التى يؤدى إليها اختلاف العقائد ، فبهذا نكتشف السرّ فى اختلاف فنّ العمارة فى شمال الهند عن اختلافه فى جنوبها مع اعتناق تَيْنِك الجهتين لديانة واحدة فى أكثر من ألف سنة .



١٠٥ — مدورا . دقائق عمود فى ردهة الزون الكبير المعروفة بيوتهو مونتاپام

والتقسيم الذى يلوح لنا صلاحه هو الذى يستند إلى البقاع التى أقيمت فيها المبانى ، وهذا هو التقسيم الذى رَضِينا به ، وهذا هو التقسيم الذى يَرَى به القارىء ، الناظر إلى صُوَر هذا الكتاب ، أنه ما يُقَرِّب به بين متشابه المبانى وما يساعد على الوصف الشامل ، ونحن لم ندرس فى مختلف المطالب مختلفَ المبانى القائمة فى البُقْعَة الواحدة ، كدهلى مثلاً ، إلّا عندما تكون هذه المبانى قد أُنْشِئَت فى أدوار شديدة التباين فلا يَمُتُّ بعضها إلى بعض بوجه شبه .

وأقلُّ نظرة إلى صُوَر هذا الكتاب تدلُّ على أن كال مبانى الهند ليس بحسب

أزمنة إنشائها ، بل تدلُّ على أن أقدمَها أتمُّها ، ويتجلى بلوغ فنِّ البنـاء ذِروته فى معابد جبل آبو ومعابد كهجورا التى ترجع إلى القرن العاشر من الميلاد ، فعلى ما فى هـذه المعابد من نقص فى فن التماثيل بلغت جُزْئيَّاتها من الـكمال مبلغاً لم تَقْدِر القرون معه على إضافة شىء إليها .

ولا يطمعنَّ الباحث أن يجد فى الهند مثل ما يجده فى الغرب من تطور فن العمارة التدريجىِّ ، ففن العمارة فى الهند ، كآداب الهنـد ، قد وَصَل إلى درجة من الرقى بسرعة ، والهندُ لم تُجَاوِز هذه الدرجة بعد أن وَصَل فنُّها إليها .

ويدلّ الجدول الآتى على عناصر التقسيم الجديد الذى هَدَتْنا إليـه مباحثنا ، ونُخَصِّص ، بعد أن نَسْرِده ، بضعةَ مطالبَ للبحث فى تاريخ فنِّ عمارة كلِّ دور وكلِّ بُقعـة بحثاً موجزاً ، ونحن إذ كُنَّا لا نستطيع ، لضيق المـكان ، أن نَصِف بالتفصيل أىَّ بناء ، نُحيل القارىء الذى يُهِمّهُ هـذا الموضوع إلى الـكتاب الـكبير الذى لم يكن هذا الفصلُ غيرَ خلاصة خاطفة له[1] ، فمن ذلك الـكتاب اخترنا صُوَرَ هذا السِّفْر الـكبيرةَ تابعةً للتصنيف الذى نَعْرِضه ، فهى تـكفى ليَتَبيَّن بها القارىءُ أهميةَ آثار الهند .

---

(١) كتاب « آثار الهند » ، وهو يقع فى خمسة مجلدات ، ويشتمل على ٤٠٧ من الصور الـكبيرة ، وعلى مجلد واحد خاص بالنص ، وهذا الـكتاب هو نتيجة ما قامت به بعثة الآثار التى فوضت الحـكومة (الفرنسية) إلىّ أمرها ، فأرسلنا نسخة منه إلى وزارة المعارف (الفرنسية) العامة ، وقد تطلب درس مبانى الهند فى وقت قصير قطعنا أربعة آلاف فرسخ فى بقاع عاطلة ، فى الغالب ، من الطرق ومن جميع وسائل النقل فانتهينا إلى ابتكار أساليب جديدة فى التصوير والرسم ، فتقوم هذه الأساليب المبتكرة على المزج بين الفوتوغرافية وبعض الطرق الهندسية فتجد وصفها فى مذكرة خاصة نشرتها المجلة العلمية سنة ١٨٨٥ بعنوان « الهند الأثرية والمناهج » ، فترى فيها ، أيضا ، درجة ما فى دراسة مبانى الهند من النقص حتى الآن ، وما يقتضى من الوقت نهائيا لصنع صورة للأطلال التى تزول بسرعة عظيمة .

١ — تقسيم مبانى الهند العام

١ — فنُّ عمارة الهنـد البُدَّهِيُّ (بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد) .

١ — مبانى الهند الأولى (أعمدة تذكارية ، معابد وأديار منحوتة فى الصخر)

أمثلة : أعمدة الله آباد ودهلى التذكارية ، مبانى بهاجا وكارلى وأجنتا ، الخ .

٢ — مبان بُدَّهية أُنشئت فوق الأرض .

أمثلة : مبانى بهارت وسانچى وسارناتهه و بُدَّهة غَيَا ، الخ .

٣ — مبانٍ يونانية هندوسية فى شمال الهند الغربى .

أمثلة : مبانى پشاور وكشمير ، الخ .

٢ — فن بناء البرهمية الجديدة فى شمال الهند ووسطها

(بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد)

١ — فن العمارة فى شمال الهند الشرقى .

أمثلة : مبانى ساحل أوريسة (بهُو ونيشوَر ، جَـكَن ناتهة ، الخ) .

٢ — فن العمارة فى راجپوتانا و بنديل كهند .

أمثلة : مبانى كهجورا وغواليار وچتّور وجبل آبو وأودَيپور وناغدَها ، الخ .

٣ — فن العمارة فى كجرات .

أمثلة : مبانى أحمد آباد ، الخ .

٤ — فن عمارة الهند الوسطى .

أمثلة : مبانى إليفنتا و إيلورا وأمبرَناتهة ، الخ .

٣ — فن عمارة الهند الجنوبية (بين القرن السادس والقرن الثامن عشر من الميلاد)

١ — معابد جنوب الهند المصنوعة تحت الأرض .

أمثلة : مبانى مَهاَبَلِى پور و بادامى ، الخ .

٢ — فن عمارة المعابد فى جنوب الهند .

أمثلة : مبانى شِلَمْبَرَمَ وتانجور وتريپتى وكانجى وَرَم و بيجانغر ومَدورا وسِرى رِنسكهم ، الخ .

٤ — فن العمارة الهندوسى الإسلامى (بين القرن الثانى عشر والقرن الثامن عشر من الميلاد)

١ — فن العمارة الإسلامى قبل العصر المغولى .

أمثلة : مبانى دهلى القديمة ومبانى أجمير و بيجاپور وغول كوندا ، الخ .

٢ — فن العمارة فى العصر المغولى .

أمثلة : مبانى أغرا ودهلى وفتح پور ولاهور ، الخ .

٣ — فن العمارة التى تُوحِى بالمؤثرات الإسلامية فى مختلف بِقاع الهند التى يختصُّ الهندوس بأكثر مبانيها .

أمثلة : المبانى الإسلامية فى غواليار ومَهُوبا ومَدورا ، الخ .

٥ — فن العمارة الهندوسى التبتى (بين القرن الثانى من الميلاد والزمن الحاضر)

أمثلة : مبانى شم بُهوناتهة و بُدّهَة ناتهة و بهات غاوُن وَپَتَن وكهات ماندو ، الخ .

٦ — فن العمارة الهندوسى الحديث

أمثلة : مبانى بنارس وأَمْرِتسَر ، الخ .

٢ — فن عمارة الهند فى العصر البُدّهى

(بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد)

لا يَرْجِع أقدم مبانى الهند إلى ما قبل زمن راق من العصر البُدّهى ، أجَلْ ، وُجِدَتْ فى البنغال معابدُ مصنوعةٌ تحت الأرض فى القرن الخامس قبل الميلاد ، بَيْدَ أن هذه المعابد ليست إلا حفائرَ تُثْبِت مهارة الهندوس فى نحت الحجر ، ولا تَكْشِف عما كان عليه فنُّ عمارتهم ، فالهندوس لم تَبْدُ آثارهم المعارية إلا فى عهد الملك أشوكا الذى كان قبل الميلاد بنحو ٢٥٠ سنة .

ويمكن تصنيف جميع آثار الهند فى العصر البُدّهى كما يأتى :

الأعمدة التذكارية . — تَرْجع هذه الأعمدة التذكارية إلى عهد الملك أشوكا الذى أمر بأن تُنقَشَ عليها مراسيمه ، ويمكن عدُّها من أهم المصادر لتاريخ الهند ، وتَجِدُ أشهرَها فى الله آباد ودهلى ، وتُبْصِرُها مستورة بكتابات خاصة بالتعاليم الدينية وذِكْرَيات الملوك ، الخ . ويعلو تيجانَها أفيالٌ أو أسود تُذَكِّرُنا بأعمدة برسيوليس ، ويُفْتَرَض أن هذه الأعمدة كانت منصوبة ، على العموم ، أمام القِباب البُدّهية أو ما إليها ، وتشاهَد ، أحياناً ، أمام المعابد الواقعة تحت الأرض ، ولا سيما فى كارلى .

المعابد والأديار المنحوتة فى الصخر . — إن أقدم مبانى الهند وأغناها ما نُحِت فى منحدرات الجبال من المعابد والأديار .

وإذا استثنيتَ بعض الرَّداه المنحوتة تحت الأرض فى بِهار ، فتَرْجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد ولا تبدو غير حفائر بسيطة ، وجدتَ تاريخ أقدم تلك المعابد والأديار لا يزيد عن القرن الثانى قبل الميلاد ، وداوم القوم على صنع معابدَ وأديار من ذلك

الطراز إلى القرن الثامن بعد الميلاد فيكون مجموع الزمن الذى استمروا على إنشائها فيه نحو ألف سنة ، وهم لم يكفّوا عن صنعها إلا بعد توارى البُدّهيَّة عن الهند ، فالحقُّ أن تسعة أعشار تلك المعابد والأديار بُدّهيَّة ، وأن عشرها فقط برهميٌّ أو جَيْنِيٌّ .

وتقسم تلك المبانى المنحوتة فى الصخر إلى معابدَ وأديارٍ ، فنَعُدُّ من هذه المعابد ثلاثين ونَعُدُّ من هذه الأديار ألفاً .

ولم يَعْدُ بعضُ هذه المبانى حفائرَ قليلة الزينة ، بَيْدَ أنك ترى فى أكثرها وأقدمها غِنًى فى النقوش والتخاريم لم يَتَّفِق لأمة أحسنُ منه .

وفى هذا الكتاب نشرنا صُوَر ما هو مهمٌّ من تلك المعابد ولا سيما أشهر ما يُشَاهَد فى بهاجا وكارلى و إيلورا و بادامى وأجنتا ، الخ . والآن أقول بضع كلمات عما هو موجود منها فى أجنتا ليَتَمَثَّلَ القارئُ صنعَها والعملَ الهائل الذى تُعْرِب عنه ، على أن أذكر فى مطلب آخر شيئاً عما فى إيلورا

نُحِتَت معابد أجنتا بعيدةً تسعين كيلو متراً من أورنغ آباد ، وذلك على جوانب جبل وعر فوق فَجٍّ غامر يجرى منه سيل فائر ، ولا تُبْلَغ تلك المعابد إلاّ بِجَوْب أكداس من الصخور ، ويدلُّ منظر تلك الأماكن الوَهِرَة الوَعِرَة أن الرهبان الذين كانوا يهاجرون إليها كانوا يتمسكون بالعُزْلة تمسكاً لا يُوصل معه إليها بأية وسيلة ممكنة ، كما يُسْتَدَلُّ عليه من حال الأور بيين القليلين الذين يَرَوْن زيارة أجنتا ، مع قرب بمبى ، فيقتضى تحقيق رغباتهم بِرَحابة .

ويُثْبِت تفاوت أعمار تلك المعابد أن كثيراً من الآدميين قد عاشوا تحت قبابها الدُّجن قروناً طويلة ، ولن يَتَبَيَّن الإنسان العمل الذى تَطَلَّبه نحت تلك المعابد فى

جَوْف الجبل إلاّ إذا تخيل القرون التى تمّ فيها .

ومن المحتمل أن يكون أقدم تلك الآثار قد أُنشِىء بأَجَنْتا قبل ظهور المسيح بـ ١٥٠ سنة ، وأحدثُها قد تمّ بعد الميلاد بسبعة قرون ، وما بين تلك الآثار من الفروق يقوم على فَيْض الزخارف أكثر مما على القيمة الفنيـة ، ففى أجنتا ، كما فى بقية بلاد الهند ، لا تستند قيمة المبانى إلى قاعدة التطور التدريجى .

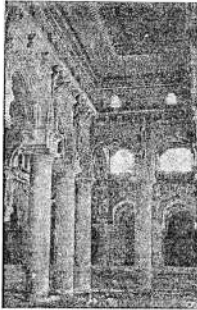
ويتصف أحدث معـابد أَجَنْتا باشتمالها على صورة بُدّهَة ، على الخصوص ، اشتمالاً مُـكَرَّراً بما لا حدّ له ، وتحتوى هيا كل هذه المعابد على نقوش يبدو بُدّهَة بالغاً بها درجة السعادة الإلٰهية .

ويتقدم معابدَ أَجَنْتا وأديارها المنحوتة تحت الأرض شُرَفٌ حجرية قائمة على أعمدة منحوتة مثلها فى الصخر .

وفى أَجَنْتا عِدّةُ أديار تابعة للمعابد ، ويتألف كلّ واحد منها من حُجُرات حول رَدْهَةٍ ، وتشتمل كلٌّ واحدة من هذه الحجرات على سرير من حجر ، ولا تنفصل هذه الحجرات عن المعبد فى الغالب ، بل تَتَّخذ الرَّدْهَة التى تحيط بها هذه الحجرات ، وهى واسعةٌ أحياناً ، معبداً مشتملاً على مقاصير جانبيةٍ خاصة بعبادة بعض الأولياء كما فى الـكنائس الـكاثوليـكية ، ولم تَفْتَأْ الأديار الأخيرة تَتَّسِع ، فوجب دَعْمُ سقف المعبد الواقعة حوله بأعمدة إضافية ، وإن كان هذا السقف مؤلّفاً من الجزء الأعلى مما هو منحوت فى الجبل ، وتحتوى أَجَنْتا على رِدَاه منحوتة تحت الأرض يبلغ جانبها ٢٨ متراً ويحملها ٢٤ عموداً ضخماً لا يزيد ارتفاعه على أربعة أمتار .

ويُرَى فى صدر كلّ واحدة من تلك الرِّداه العظيمة المنحوتة فى الصخر ، على

العموم ، تمثال كبير لبُدَّهَة تُحيط به تماثيل أخرى وتستر الأعمدةَ والسقوف نقوشٌ وزخارفُ ملونة ، وتستر الحيطانَ تصاويرُ ممثلة لحياة بُدَّهَة ، وهذه التصاوير ، مع رداءتها ، مفيدةٌ إلى الغاية ، فهى وحدَها كلُّ ما انتهى إلينا من التصوير فى الهند الغابرة ، ومن المحتمل أن تكون قد صُنِعَت فى القرن الخامس من الميلاد ، ومما يشمل النظر الوجوهُ فيها ، فملامح هذه الوجوه وقَسَماتُها وزِيُّها وزينتُها مما يدلُّ على عِرْق يختلف عن العِرق الذى يُرَى مثالُه فى المبانى الأولى القائمة فى بَهاجا وكارلى وبهارت وسانچى ، الخ .



١٠٦ ــ مدورا . داخل قصر تيرومل نايك (القرن السابع عشر من الميلاد) اقيم هذا البناء الذى هو من أهم قصور الهند فى القرن السابع عشر أيام الراجه الهندوسى تيرومل ، فلو جرد من التماثيل التى تزين مختلف أجزائه لعد أثراً إسلامياً خالصاً ، فيمكن عده مثالا على التأثير العظيم الذى اتفق للمسلمين فى جميع بقاع الهند ، ومنها التى لم تخضع لسلطانهم .

ولا شىء يفوق تلك المعابد المنحوتة تحت الأرض غير معابد إيلورا ، فمن أروع المناظر منظر تلك الرِّداه الواسعة ذات الأعمدة الضخمة والتى يَتِيه النظر وسط ظلامها فلا يُرَى فيها تمثال بُدَّهَة العظيم ، الذى يلوح العُلُوج حارسين له ، إلا على نور المشاعل .

القِبَاب . — يُذَكِّرنا شكل القِباب ، على العموم ، بمزاراتنا الأوربية القديمة ، فهى ذات شكلٍ نصف كُرِىّ على العموم ، كما فى سانچى ، وقد يكون

بُرْجيًا كما في سارناتهة ، ويحيط بها سياج حجريٌ ذو نقوشٍ ، وتُدْخَل من أبواب ضخمـــة .

ونَتَنَوَّر أمر تلك القِبــاب من وصف قُبَّة سانجي الـكبيرة ، فهذه القبّة من أقدم مباني الهند وأجملها ، وأُنشئت هذه القبّة نفسها في أيام الملك أشوكا ، أي في زمن أقدمَ من ٢٥٠ سنة قبل ظهور المسيح ، وأُنشيء سياجها الحجريّ وأبوابها في أوائل القرن الأول من الميلاد ، ولا تحتوي الهند على غير قليل من المباني التي أقيمت في ذلك العصر إذا استثنيتَ المعابد التي نُحِتَت في الصخر ، وإذا كانت مبـــاني سانجي قد تَفَلَّتَت من التخريب فذلك لوقوعها في بُقعة منيعة ، وإذا أدنيتَ إلى ذلك الأثر ما شيد في ذلك العصر من المباني ، كمباني بَهَارَت مثلاً ، فعلمتَ أن هذه ليست دون تلك زينةً أيقنتَ أن فنّ العمارة في كُبْرَيات العواصم الهندية كان قد بلغ درجةً رفيعة من العظمة لا ريب .

أقيمت قُبّة سانجي في زمن أُنشيء فيه ما يماثلها من المباني التي شيدت للدلالة على مكان مقدس أو لتخليد حادثة دينية .

وشكلُ قُبّة سانجي نصفُ كُرِيّ تقريباً ، وظَهْرُ هذه القبّة مُسَطّح ، ويبلغ قطر قاعدتها ٣٤ متراً ، ويبلغ ارتفاعها نحو ١٧ متراً ، وكان يعلوها ، كما كان يعلو كلَّ ما يُماثلها ، هيكلٌ متآزي السطوح لإمساك ثلاثة ألواح حجرية منقوشة يزيد عرض كلٍّ واحد منها عن الذي فوقه ، وهذا إلى أن شكل الهيكل ذلك كان شائعاً فتجده فوق رسوم القِباب والنقوش البارزة وفي المعابد المنحوتة تحت الأرض .

وقُبّةُ سانجي أُنشئت من الآجُرِّ كغـيرها من المباني المماثلة لها ، وأهمُّ أقسام

هذه القبة هو السّياج الحجريّ الكبير الذى يحيط به ، ولا سيما الأبواب الأربعة الرائعة التى يُدْخَل منها فنشرنا صورَ ابرز أجزائها .

ذلك السياجُ الحجريّ يُحْدِق بتلك القبّة ، ويتألف من أساطينَ عمودية مثمنة الزوايا ذوات ثُغْرات أُدخلت إليها أعمدة حجرية أفقية إتماماً لها .

ويشتمل ذلك السياج على نقوش كثيرة ، ولكن دقائق عمل المتفننين تَجَلَّت، كما يظهر، فى تلك الأبواب الكبيرة التى تكلمنا عنها آنفاً، فترى جميع وجوه هذه الأبواب مُغَطَّاة بضروب النقوش البارزة ، والباب الشمالىّ هو أهمّ هذه الأبواب ، فيبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ويبلغ عرضه ستة أمتار .

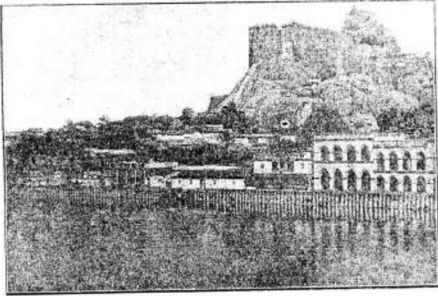
والنقوش البارزة التى تستر تلك الأبواب الضخمة تشيرُ ، على العموم ، إلى مناظر حياة بُدَّهة حينما كان أميراً وإلى معايشه قبل ذلك ، ولم يُصَوَّر هذا المصلح الكبير فيها بحسب الأوضاع المتفق عليها فانحصرت فيما بعد فى رسمه واقفاً أو متربعاً .

ويعلو هذا البابَ الشمالىّ خَطَّافٌ ، والخَطَّافُ رمزُ بُدَّهة ، وتجد عن يَسار ذلك الباب وفى قاعدة العمود صورةً لأثر قدم بُدَّهة .

ومع أن نقوش الأبواب الأخرى وزخارفها دون نقوش ذلك الباب وزخارفه فَيْضاً فهى جديرة بالذكر ، كما يبدو ذلك من صورنا الفوتوغرافية ، فالحيوانات التى تعلو أعمدة أحدها تستوقف النظر كثيراً .

ويشير منظرُ صُوَرِ الأشخاص المنقوشة فى سانچى وزينة رؤوسهم ووجوههم المستديرة والمسطحة ، كما يظهر ، إلى عِرْق من آسية الوسطى لم يبق إلى أيامنا ، وإن مَثَّل دوراً مهماً فى ذلك العصر لما نراه بارزاً أيضاً فى مبانى بهارت وبُدَّهة غَيَا ، الخ .

المعابد البُدّهية الكبيرة القائمة فوق الأرض . — المعابد البُدّهية الكبيرة القائمة فوق الأرض نادرة جداً ، ولم ينشأ هذا عن أنه لم يُصْنَع منها سوى عدد قليل ، بل نشأ عن اندثار مُعْظَمها بسبب صنعها من موادّ لا تقاوم جَوَّ الهند كالآجُرّ على الخصوص، والمعبدُ البُدّهيُّ الوحيد الذى لم تُصِبْه يد التخريب ، لترميمه المتصل ، هو معبد بُدّهة غَيَا الذى أُنشِئ قبل الميلاد بقرن فى المكان الذى تقول الأساطير إن بُدّهة بلغ فيه مرتبة الحِكْمة العُلْيا .



١٠٧ — ترى چنابلى . منظر المدينة وقلعتها

وأقدس أماكن الدنيا عند البُدّهيين ، البالغ عددُهم خمسمئة مليون من الآدميين، أى عند أكثر شعوب آسية ، هى الأمكنة الثلاثة : مدينةُ كابِلا وستو حيث وُلِد بُدّهة ، ومدينةُ بنارس حيث دعا بُدّهة الناس إلى مذهبه ، ومدينةُ بُدّهة غيَا حيث بلغ بُدّهة مرتبة الحكمة العليا ، ولا نعلم ، بالضبط ، مكان أُولَى هذه المدن الثلاث ،

ولاتزال المدينتان الأخريان منها باقيتين ، وهما من أكثر بلاد العالم التي يزورها الناس.

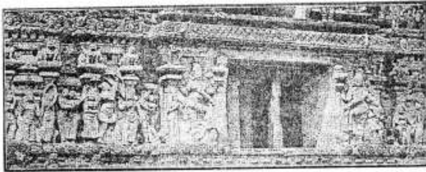
وكان تاريخ معبد بُدّهة غيَا موضعَ جدال كثير بين علماء الآثار ، ولم يكن تاريخ إنشائه الأول محلَّ أخذ وردّ بين أحد ، ما اعترف الباحثون ، على العموم ، بأن وصف (الحاجّ الصينيّ) هيوين سانغ له يطابق حاله الحاضرة ، وإنما يدور النقاش حَوْل دلالة أوائل القرن الرابع عشر الذى ورد ذكره فى مخطوط على تجديد ذلك المعبد أو على ترميمه ، ثم أزالت مباحث كننغهم وراجندرا لالاميترا كلَّ شكّ فى أن ما تمّ فى القرن الرابع عشر ليس إلا ترميماً قام به عُمّال من الأهالى غيرَ مُبَدِّلين شيئاً فى أشكاله الأصلية .

وشكلُ معبد بُدّهة غيَا هَرَمِيّ وقاعدتُه مربعة ، وطبقاتُه تسعٌ ، ويقوم على مُكَعَّب ارتفاعُه نَحْوُ ثمانية أمتار وجانبُه خمسةَ عشرَ متراً ، ويبلغ مجموع ارتفاعه اثنين وخمسين متراً ، وتجد فى داخله ثلاثة محاريبَ صغيرةٍ منضودة ، ويُقَدَّر ارتفاع الأسفل منها بنحو سبعة أمتار وجانبُه بأكثرَ من ستة أمتار ، ويشتمل على تاج من حجر بركانيّ أسودَ كان يعلوه تمثال ذهبيّ لبُدّهة .

وإننى أذكر أن شكل ذلك المعبد الهرمى أمرٌ شاذّ فى شمال الهند ، وإنما يذكرنا بمعابد جنوبها ، وأقدمُ المعابد التى أقيمت على هذا الطراز إذ أُنشِئَت بعد معبد بُدّهة غيَا باثنى عشر قرناً حُقّ لنا أن نرى من الإمكان اتخاذَ صانعيها هذا المعبدَ نموذجاً لهم .

وأسفرت الأحافير الحديثة التى تَمّت حول بُدّهة غيَا عن إخراج عدد كبير من النقوش والأعمدة والتماثيل النَّذْرِيَّة القديمة فى الغالب فوُضِعَت هذه الآثار ، اليوم ، فى الحدائق المحيطة بذلك المعبد ، وتشير إحدى صورنا الفوتوغرافية إلى أهمها .

ورَمَّمت الحكومة الإنكليزية معبدَ بُدَّهة غيا حديثاً ، ولا أرى الثناء على فاعل هذا الترميم ، فقد غيَّر شكلَ بعض الجزئيات بصورة محسوسة كما بدا لى من المقايسة بين حال ذلك المعبد الحاضرة وصورته الفوتوغرافية قبل الترميم ، وكَسَى ذلك المعبدَ لوناً أصفر كَدِراً فاكتسب به منظراً كريها ، مع أنه أنفق على ترميمه المحزن نحو مئتى ألف فرنك .



١٠٨ ــ شرى رنغم ، دقائق نقوش معبد فى الزون الكبير (القرن السابع عشر من الميلاد) (وربما كان زون شرى رنغم الكبير أوسع زون فى العالم ، وهو يتألف من سبعة أطر تبلغ جهة أكبرها ٩٠٠ متر ، ويشتمل على ١٥ برجاً يبلغ ارتفاع أحدها ٥٢ متراً)

المبانى الإغريقية الهندوسية فى شمال الهند الغربى . ــ لم تَحُل الحواجز المنيعة التى تَفْصِل الهند ، كما يلوح ، عن بقيـة العالم دون غزو مختلف الأمم لها منذ القديم ، والفاتحون من آريين ومغول وفرس وأفغان قد دخلوا الهند من خلال جبال همالية ، ولا سيما معبر أفغانستان ، فعمَّروها ، وإذا بدأتَ بالفرس الذين غَزَوْها بقيـادة دارا قبل الميلاد بخمسة قرون ثم بالإغريق الذين أوغلوا فيها سنة ٣٣٠ قبـل المسيح بقيادة

الإسكندر فانتهيتَ إلى العرب فإلى المغول الذين فتحوها بأسرها وجدتَها ذات صلات بأمم كثيرة وأبصرتَها خاضعةً لكثير من المؤثرات الأجنبية .

جازَ لنا ، إذَنْ ، أن نتوقع انعكاساً لتلك المؤثرات فى فنّ عمارة الهند ، وانعكاسٌ كهذا كان ضعيفاً ، مع ذلك ، إذا عَدَوْت المؤثراتِ الإسلاميـــة ، فالحقُّ أن الهند ظلّت ، إلى حين خضوعها لسلطان الإسلام، تَمْتَصُّ فاتحيها من غير أن يُؤثِّروا فيها ، ومَثَلُ الهنــد فى ذلك كمَثَل بلاد الفراعنة مصرَ التى غزتها عشرون أمة ، كاليونان والرومان ، فحا فظت على كيانها القديم وعلى دينها وفنّ عمارتها ولغتها ، فما كان لغير التمدن الإسلاميّ أن يُحَوِّل دياناتها ولسانها وفنونها .

وكان للإسلام أثرٌ بالغ كذلك الأثر فى الهند ، وذلك من غير أن يُزِيل ما لقيه فيها ، خلافاً لِما اتفق له فى مصر ، ففى الهند اختلطت المؤثّرات الإسلامية بالمؤثّرات الهندوسـية فأضحى نصف فنّ عمارة الهند ، كافّتها ، إسلامياً وأضحى نصفه الآخر هندوسياً .

و إذا عَدَوْت الإسلام وَجَدْت المؤثرات الأجنبية فى الهند ضعيفةً إلى الغاية ، ووجدت تلاشى هذه المُؤَثِّرات فى العوامل المحلية ، فالفنّ الذى أُدْخِل إلى الهند ، مهما كان نوعه ، لم يلبث أن تَحَوّل على أيدى عمال من الهندوس فاكتسب مظهراً خاصّاً ذا طابع هندى ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون هذا الفنُّ قد دخل الهند منذ ألفى سنة وأن يكون قد دخلها فى أيامنا .

ويتجلى أقدم المُؤَثِّرات الفنية الأجنبية فى ضِفاف السِّنْد ، فأُولَى علائق الهنــد بالفرس ثم باليونان صَدَرَت عن هــذه البُقعة ، وقد رأينا أن ما رواه هيرودتس

يُثبِت أن الممالك التى قامت على ضِفاف نهر السِّند كانت تُعطى الجزية قبل الميلاد بأربعمئة سنة ، ثم أيَّدت الكتابات المسمارية هذه الرواية .

وما نراه من أطلال المبانى التى لا يرجِع أقدمُها إلى ما قبل الميلاد كثيراً يَكْشِف عن التأثير الفارسىّ فى بعض أقسام من فنّ العمارة ، ويبدو هـذا التأثير ، على الخصوص ، فى الأعمـدة ذوات التيجان التى هى على شكل الجرس فتعلوها حيواناتٌ مُضْطَجِعَةٌ ظِهْرِيًّا ، وتجد نَمُوذَجَ ذلك فى قصر بنى أخميد ببرسيبوليس ، فأعمدةٌ كهذا النَّمُوذج تبصرها فى كثير من معابد الهند القديمة ، ولا سيما فى ناسك وسانچى الخ . وفى المناطق القريبة من پيشاور ، وتشاهد فى بهارت أقدمَها ، أى ما يرجع إلى ما هو أقدم من ٢٥٠ سنة قبل الميلاد .

ثم حلَّت المُؤَثِّرات الإغريقية محلَّ المُؤثِّرات الفارسية ، بَيْدَ أنك لا تَجِد الأثر الإغريقىّ إلا فى أودية كابُل وكشمير ، ويظهر هـذا الأثر ، على الخصوص ، فى التماثيل والأعمـدة ، فالأعمدة فى كشمير مصنوعة على الطِّراز الإغريقى المعروف بالدُّورىّ ، والأعمدة فى تـكشيلا مصنوعة على الطِّراز الإغريقى المعروف باليُونِىّ ، والأعمدة فى وادى كابُل مصنوعة على الطِّراز الإغريقىّ المعروف بالقورنتى ، وهذا إلى أنك تُبْصِر فى هـذه الأعمدة طابع المعتقدات الهندوسية ، فترى ، على الخصوص ، تمثال بُدَّهَة بين أوراق الأَقَنْثا[1] .

ولم تُجاوِز المُؤثِّرات الإغريقيةُ قسمَ شمال الهند الغربىّ الضيق الذى أشرنا إليه فيما تقدم ، ومن العبث أن حاول بعض الباحثين أن يكتشفها فى نقوش مختلف المعابد

(١) الأقنثا : هو نبات يعرف بشوك اليهود .

البارزة والمحفورة ، فأنت إذا بَعُدْت من المناطق المجاورة لنهر السِّنْد وجـدتَ تلك المؤثرات غارقة فى الفن الهندوسىّ فلا تَقْدِر على تَبيُّنها ، وإننى بعد أن درست أهمّ معابد الهند بدقة لم أُبْصِر فى نقوشها وعمارتها ما يدلّ على أن الهنـدوس اقتبسوا من الفنّ الإغريقىّ شيئاً يستحقّ الذكر فيما خلا تلك البقاع الضيقة .

وتلك المؤثرات الفارسية الأولى التى توارت ، من فَوْرها ، عن الهند عادت إليها مُؤَخَّراً مع المغازى الإسلامية بأعمقَ مما فى الماضى ، والفنّ الذى أدخله المسلمون إلى الهند هو من أصل فارسىّ تطورَ تطوراً عميقاً بفعل الحضارة التى جاء بها العرب إلى بلاد فارس حينما هَدَموا عرش الأكاسرة من بنى ساسان فى القرن السابع ، ويرتبط الفنّ الجديد الذى أدخله المسلمون إلى الهند ، فـكان نصفه عربياً ونصـفه الآخر فارسياً ، فى أقدم طُرُز الفرس من عِدّة وجوه ، فخُذ الخزف المطلىّ بالميناء مثلاً تَرَهُ يَرْجِع إلى ما قبل الميلاد .

٣ — فنّ البناء فى العصر البرهمى الجديد

(بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد)

نَقْسِم ، أولَ وَهْلة ، مبانى العصر الذى ندرسه الآن فيبدأ حوالَى القرن السادس من الميلاد ، أى فى الزمن الذى كان نَجْم البُدّهية يَأْفُل فيه عن الهند بسرعة ، إلى صنفين ، ويشتمل الصنف الأول على جميع المبانى القائمة فى مختلف بقاع الهند الشمالية والوسطى ، وتختلف مبانى هـذا الصنف الأول اختلافاً جديراً بالذكر باختـلاف الأمكنـة والأزمنة التى نشأت فيها مع ما تجده بينها من قرابة ظاهرة ، ويشتمل الصنف الثانى على مبانى جنوب الهند ، وتبلغ مبانى هذا الصنف الثانى من التشابه

ما يَحْتاج معه تمييزُ بعضها من بعض إلى عين بصيرة ، ونحن ، حين نُضْطَرُّ إلى تقسيم دراسة مبانى الصنف الأول إلى عِدَّة مطالب ، نستطيع أن نلخص مبانى الصنف الثانى فى مطلب واحد .



١٠٩ — شرى رنغم . الزون الكبير ، أعمدة فى داخل المعبد

فنُّ البناء فى ولاية أوريسة . — تُعَدُّ المبانى القائمة على سواحل أوريسة من أقدم مبانى الهند وأجدرها بالذكر ، وأنشئت هذه المبانى بين القرنين الخامس والثالث عشر من الميلاد ، وما فى أوريسة من المعابد المصنوعة تحت الأرض فأقدم من تلك المبانى ما وُجِدَت بينها معابد يَرْجِع تاريخ إنشائها إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد ، وإن كانت هذه المعابد لا تَمُتُّ بصلة إلى طراز المعابد التى نتكلم عنها الآن .

وأُقيمت معابد ولاية أوريسة على نمط واحد من حيث خطوطها الأساسية ، وذلك مع انقضاء سبعة قرون أو ثمانية قرون بين إنشاء مبانيها الأولى ومبانيها الأخيرة، وهى تختلف عن معابد جنوب الهند ، فلا ترى فيها أبراجاً ذات طبقات مُنَضَّدَة ولا رِدَاهاً تحملها أعمدة ، وعلى ما كان يُعْرَف من أمر الأعمدة ، التى أسفرت الأحافير فى أوريسة عن اكتشاف عدد منها صُنِع قبل إنشاء معابدها بطويل زمن ، فإن القوم لم يستعملوا الأعمدة فى شَيْد هذه المعابد إلاّ نادراً .

وشكل معابد أوربة الخارجي هَرَميٌّ ، بَيْدَ أن جوانب هذه الأهرام ذات خطوط مستديرة بدلاً من أن تكون ذات خطوط مستقيمة كما في معابد جنوب الهنـد .

ويَتَأَلَّف المعبد الأوربيّ من مزار مُكَعَّب مشتمل على صور للآلهة يَعْلُوه بُرْجٌ هَرَميٌّ ذو جوانب مستديرة الخطوط من التي تكلمنا عنها ، وذُرَا تلك الأهرام مقطوعةٌ وتعلوها تيجان ذوات جوانب تُشَابِه بها البِطِّيخ المُسَطَّح ، ويستر تلك الأهرامَ زخارفُ ونقوش ، ويتقدم جبهةَ المعبد الأوربيّ رُوَاق يغشاه بُرْجٌ هَرَميٌّ أيضاً ، ويَلي هذا البرجَ رَدْهَة أو رَدْهَتان مُمَدَّةٌ إحداهما للرقص والأخرى للطعـام .

ويحيط بالمعبد الأوربيّ سُورٌ ذو أبواب كثيرة مزخرفة يعلوها سقف هَرَميٌّ ذو جوانب مستقيمة الخطوط .

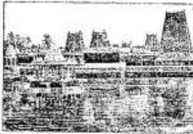
وجبهة المعبد الأوربيّ مصنوعة على وجه تكون الآلهة به أمام شمس مشرقة .

والتَّنَاسُب في المعبد الأوربيّ وأبعادُ كلّ جزء فيه خاضعة لقواعدَ دقيقة ، ولم يَسِر رجال الفن على هواهم إلا في زخارفه ونقوشه ، وأُنشئت جميع معابد أوربة على رسم واحد ، فترى أشكالها العامة متشابهة كثيراً ، والهندوس محافظون أكثر من جميع الأمم المحافظة ، فإذا ما أثبتت العادة بينهم أي طِراز وَجَب انقضاء عِدَّة قرون ليبتعدوا عنه ، وفي دقائق الزخارف ، لا في شكل المعابد ، يجب البحث عن أوجه التطور عند درس فنّ عمارة الهند .

ونَخَنُ جُدُر المعابد بأوربة عظيمٌ إلى الغاية ، وتَنْشَأُ بما هو أقوى مما تتطلبه متانتها ، فما جاء في أقدم كتب فنّ البناء الهندوسيّ أن تَعْدِل جُدُر البناء أربعةَ

أعشار مجموع مساحته وأن تُترك الأعشار الستة الباقية لفضائه ، فكان من نتائج هذا الغُلُوّ في الموادّ الإنشائية أن اكتسب البناء من القوة ما لم يَفْنَ معه تقريباً فضلاً عن رَوْعَته ، ولعلّ فيما يَحْدُث في بلاد الهند من الزلازل وتقلبات الجوّ ما يُسوّغ إفراط القوم في ذلك كما تشير به النظرية .

ولم يَغْفُل مهندسو تلك المعابد عما يزيد أبعادَها الظاهرة ، فتراهم أكثروا من الخطوط القائمة قصداً ، وتراهم تَجَنّبوا الخطوط الافقية عمداً .



١١٠ — كنبهكونم . الحوض المقدس في داخل الزون (القرن السابع من الميلاد)

وبُنِيَت جميع المعابد في أوريسة من الحجارة الرملية على الخصوص ، لا من الآجُرّ كما هو الأمر في جنوب الهند ، وبلغ تشذيب حجارتها ووصل بعضها ببعض درجة من الكمال والإحكام لم يبق معها احتياج إلى الملاط فلم يُتّخَذ قطّ ، وشُدّت أقسامها النائئة كثيراً بكلاليب من حديد في بعض الأحيان، وأُنشئت العوارض المرتكزة على الأعمدة ، أحياناً ، من حديد مُطرّق ، بدلاً من الحجارة ، ووُجِد في كنارك من هذه العوارض ما طوله سبعة أمتار ومقطعه ٢٠ و ٢٥ سنتيمتراً ، ورُوعِيَت في صنع هذه العوارض قواعد الميكانيكا النظرية مُجُملَت أواسطها أثخن من أطرافها .

ومما تقدم ترى أن تلك المعابد صُنعت من الحديد والحجارة فقط ، وأما الخشب فلم يُعْتَمَد عليه إلاّ في صنع الأبواب ، ومن هذه الأبواب نذكر باب بُهُوَنيشْوَر المصنوعَ من خشب الصندل المحفور .

ولا تعرف مباني أوريسة القِباب ذات الحجارة المتجهة إلى مركز واحد ، شأنَ

قِباب معابد الهند الأخرى ، وكلُّ ما يُرى فى أوربة من القِباب تلك التى تتألف من مداميكَ أفقية ، وقِبابٌ كهذه بعيدةٌ من شروط الاقتصاد فى المواد الإنشائية لا ريب ، ولكنها تتصف بالدَّيْمُومة .

وفى معابد أوربة نَدَرَت الأعمدة والأساطين المنفصلة عن الجُدُر ، ولا تَجِد منها فى سوى بَهْوٍ من معبد بُهُووَنِيشْوَر الكبير .

فنُّ العمارة فى راجپوتانا . — يُطْلَق اسم راجپوتانا على البُقعة المعروفة عند الأهالى باسم راجهستان أو بلد الراجوات ، ووُفِّقَت طائفة الراجپوت للمحافظة على نُظُمها فى تلك البقعة منذ فتحهم لها ، حتى بعد أن دَوَّخها المسلمون .

تعنى كلمةُ الراجپوت أبناء الملوك ، والراجپوت هم عنوان عِرْق من أقدم عروق الهند وأصفاها ، ويزعم الراجپوت أنهم حَفَدة الفاتحين من الآريين ، وبين الراجپوت ترى أقدم طبقة للأشراف فى العالم الهندوسى ، وراجه أوديپور هو ولىُّ الأمر الوحيد الذى يستطيع أن يَزْعُم أن شجرة نسبه ترجع إلى ما قبل ألف سنة .

ووَجَد المسلمون ، حينما أوغلوا فى الهند ، الراجپوتَ مستقرين بجميع مدن الشمال وبسهل الغَنْج إلى حدود البنغال الحاضرة ، فكانت لاهور ودهلى وقَنوج وأجُودِهيا الخ . قبضَتَهم ، وكانت دولتهم ممتدةً فى الشمال والغرب من نهر السِّنْد ونهر سَتلج إلى نهر جَمْنَة القريب من أغرا ، وكانت ممتدة فى الشرق والجنوب إلى جبال وِندهيا ، وإن شئت فَقُلْ إن دولتهم كانت قائمة على جميع شمال الهند الغربى ، فلما دُحِروا من هذه البِقاع الخصبة هاجروا إلى مناطق راجپوتانا الحالية المنيعة .

سَيَجِد القارىء شبهاً عظيماً بين أكثر المبانى التى أنشئت قبل العصر الإسلامى على الأقل فنبحث فيها الآن ، وتقع هذه المبانى فى بُقعة واحدة وشادها عِرْق

واحد ، و بين هذه المبانى ما هو ذو طراز خاصّ ، ومن المتعذر أن نشير إلى الأطوار التى اشْتُقَّت منها وإلى المراحل التى ترتبط بها فى مبان أخرى أحدث منها ما كانت عنوانَ نوعها .

ويلوح لنا أنَّ نعتَ « الجَيْنِيّ » الذى وُصِف به فنّ كثير من المبانى التى سندرسها غيرُ صحيح كما قلت ذلك آنفاً ، فيظهر أن الباحثين أطلقوا كلمة « الفن الجَيْنِيّ » على طِراز عمارة خاصّ بدِيانة معينة مع أنه لا يشير إلا إلى طِراز أحد الأدوار بالحقيقة ، فنرى أن مبانيَ أحد الأدوار فى المكان الواحد قامت على طِراز واحد ، مهما كانت الآلهة الجَيْنِيَّة أو البرهمية التى شِيدَت تقديساً لها ، ولنا أمثلةٌ على ذلك فى معابد كهجورا .



١١١ — كنبهكونم . داخل معبد راما فى الزون الكبير (القرن السابع عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى أعلاها أربعة أمتار و ٤٠ سنتيمتراً)

نذكر من مبانى راجبوتانا القديمة التى نشرنا غيرَ صورة لها فى هذا السِّفْر معابدَ كهجورا الواقعة فى بُنْدِيل كهند ومعابد جبل آبو .

تقع مدينة كهجورا ، التى كانت عاصمة آل چندل من الراجبوت فَقَدَت مهجورة ، على بُعْد ٣٤ كيلو متراً من شرق مدينة چَهْتَرپور ، وكانت هذه المدينة ، التى أصبحت مَنْسِيَّةً فى الوقت الحاضر ، من أهمّ مدن الهند كما تشهد بذلك مبانيها العظيمة ، ففيها نحو أربعين معبداً يبلغ

اتساع بعضها سعة كنائسنا القوطية الكبرى ، ولا نزال نطّلع على أطلال لها فيا مساحته عدة كيلو مترات مربعة ، وأنت إذا ما استثنيت مدينة بهُوَنِيشْوَر لم تر مدينة ذات مجموعة مبان مثلها .

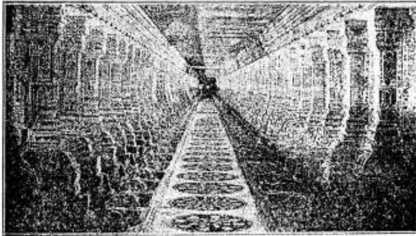
وأكثر معابد كهجورا التي لا تزال قائمة مما بُني في القرن العاشر من الميلاد ، ويُفْتَرَض أن أحدها شِيد في القرن السابع بعد الميلاد ، وإن كان يُشَكُّ في تاريخ إنشائه .

وعلى ما نُبْصِره من إقامة معابد كهجورا في قرن واحد ، على العموم ، فإنها خاصة بثلاث ديانات مختلفة ، أعني ديانة وِشْنُو وديانة شِيوا وديانة الجَيْنِيِّين ، وبلغت هذه المعابد من التشابه الفني ما يَصْعُب معه ، أوّلَ وَهْلَةٍ ، أن يُعْرَف الدين الذي تخصه ، ويمكننا أن نستنبط من تساوي أهميتها تساويَ تلك الدِّيانات الثلاث ازدهاراً في ذلك العصر .

ولم يَسْبِق الهندوسُ قطُّ معابد كهجورا من الناحية المعمارية ، وتجد بين ألوف التماثيل التي تَغْشَى هذه المعابد غيرَ تمثالٍ لا يَعِيبه مِنْقَاش نَحَّاتِي الزمن الحاضر ، ولا تجد بين متفنني الكتدرائيات القوطية غيرَ واحد استطاع أن يصنع ما يَعْدِل معابدَ كهجورا في بعض الأحيان ، وقلما تُبْصِر واحداً منهم قَدَر على صنع ما يفوق زخارفها .

ولما بين تلك المعابد من شَبَه أكتفي باتخاذ أحدها مثالاً ، فأختار معبد كهندرايامهاديو الذي أُنشِئ في القرن العاشر من الميلاد على مُسَطَّح حجريّ فبلغ طوله ٣٣ متراً وبلغ عرضه ١٨ متراً وبلغ ارتفاعه ٣٥ متراً ، فهذا المعبد يُذَكِّرنا خارجاً ، أي من حيث شكل أهرامه ذوات الخطوط المستديرة ، بمعابد أوربة الكبرى وإن كان

يختلف عنها فى جُزْئيّات الزخارف مع اشتقاقها من مصدر واحد ، ويتقدم مزارَ هذا المعبد إطارٌ أمامه رُوَاقٌ يُدْخَل من درج حجرية ضيقة ، وحول هذا المزار مَمَرٌّ خلافاً لِما يشاهد فى أكثر معابد أوريسة ، ويُضَاء هذا المزار والرَّدْهَة التى تجىء قبله إضاءة جانبية بنوافذَ واسعة يتألف من مجموعها رُوَاق تُمْسِكه أعمدة فينجم عن ذلك اكتساب رسم المعبد شكلَ صليب مزدوج ، وقبابُ هذا المعبد ، كما فى جميع معابد الهندوس ، مصنوعة من حجارة مُنَضَّدة تنضيداً أفقياً ، وطِرازُ عمارةٍ كهذا ، وإن كان لا يسمح بأخذ مِساحة كبيرة يَمْنَح القِباب قوة كبيرة كما قلنا ذلك آنفاً ، ومما رأيناه ، أيضاً ، أن مهندسى الهندوس وُفِّقوا لتكبير المِساحة التى تَغْشاها القُبَّة المصنوعة على ذلك الوجه بأن دَعَموا المداميكَ الأفقية المجاورة للوسط بأعمدة .



١١٢ — راميشورن . معبر الأعمدة فى داخل الزون (القرن السابع عشر من الميلاد) (يبلغ طول هذا المعبر نحو ٢١٠ من الأمتار ، أى أكثر طولاً من أوسع صحون أكبر الكتدرائيات)

ويستر داخلَ معبد كهنداريا وخارجَه تماثيلُ يَقْرُب ارتفاعها من متر واحد ، ويبلغ عدد هذه التماثيل نحو سبعمئة .

وتقع معابد جبل آبو التى نذكرها الآن ، ككثير من معابد الهند القديمة ، فى بقاع صعبة الوصول ، ويبدو لنا أن منشئيها أرادوا هذه الصعوبة وَفْقَ خطة مرسومة .

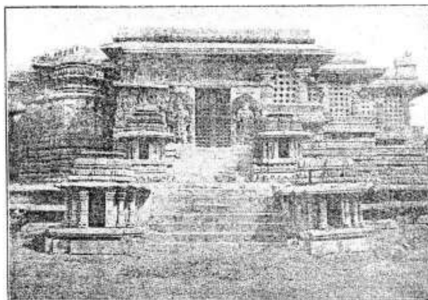
وتقوم معابد جبل آبو فوق ذِرْوة جبل مُوحِش يبلغ ارتفاعه نحوَ ١٨٠٠ متر ، وبُنِيَت جميع هذه المعابد من الرُّخام الأبيض الذى لا عهد لتلك المنطقة به ، فوجب نقل هذا الرُّخام إلى تلك الذروة وتحمُّلُ نفقاتٍ باهظة بذلك ، وتطلَّب إدماجُ قِطَع هذا الرُّخام بعضها فى بعض أعمالاً أشدَّ من تلك ، وما أسفرت عنه هذه الجهود من الأثر الفنيّ فيساويها ، ولا تُبْصِر مثلَ ذلك الإدماج فى أيِّ بناء غوطى بأوربة .

ومعبدا جبل آبو خاصَّان بالدِّيانة الجَيْنِيَّة ، وبُدِىء بإنشاء أحدهما المعروف بمعبد وِمِلاشاه سنة ١٠٣٠ ، وبُنِى الآخر المعروف بتال تيج بال بين سنة ١١٩٧ وسنة ١٢٤٧ .

وشِيد ذانك المعبدان على نسق واحد ، ويتألف أساسهما من إطار قائم الزوايا يبلغ طوله ٣٤ متراً وتُحِيط به مقاصيرُ صغيرة لايَدخلها النور إلا من أبوابها ، ويحتوى كل واحد منها على صنم عارٍ مُمَثِّل لصورة القديس الذى بُنِى المعبد تقديساً له ، وترى الصورةَ نفسَها مقتبسةً فى كلِّ مقصورة اقتباساً تاماً ، وترى نحو ستين مقصورة حول ذلك الإطار ، وترى أمام كل واحدة من هذه المقاصير شُرْفَةً مؤلفة من صَفَّىْ أعمدة ، وتعلو كلَّ باب لها نقوشٌ بارزة تُمَثِّل مناظر حياة ذلك القديس .

ويتألف قسم الإطار المقدَّم من رُوَاق واسع تغشاه قُبة يَدْعَمها ٤٨ عموداً مُتَدَمِّجاً من الرُّخام الأبيض يفوق الأعمدة الإغريقية العارية .

والقُبة التى تَدْعَمها تلك الأعمدة هى ، كجميع قِباب ذلك العصر ، مصنوعةٌ من مداميكَ أفقية ، ويُشاهَد ستةَ عشرَ تمثالاً مصفوفاً حول دائرتها ، وهذه القُبة إذا ما قيست بقُبّتَىْ كنيستَىْ وستمنستر وأكسفورد المشهورتين بِغِنَاهما بدَت هاتان القُبتان بجانبها ثقيلتين ، هذا ما رآه فرغوسن ، فلا يسعنى إلا أن أشاطره رأيه هذا مشاطرة تامة .



١١٣ ـ هيلابيد (ميسور) . مدخل المعبد الكبير (القرن الثالث عشر من الميلاد)
(هذا المعبد هو مثال الطراز المعروف بالجالوكى نسبة إلى آل جالوكية الذين
شيدت هذه المبانى فى أيامهم فيظهر أن هذا الطراز مزيج من الطرز الجينية
فى شمال الهند ووسطها ومن الطراز الدراويدى فى جنوبها)

ومعبدا جبل آبو ، على عكس ما يشاهد فى كهجورا ، خاليان من كلّ زينة خارجية ومن كلّ نقش خارجى ، ولا شىء يدلّ ، أوّل وَهْلَة ، على ما تشتملان عليه من العجائب .

وفى راجپوتانا مبانٍ رائعةٌ أخرى ، ولا سيما مايقوم منها فى غواليار وچتور ، ولا أرى وصفها لضيق صدر هذا الـكتاب ، فأكتفى بنشر صور لها ، و يُعَدُّ قصر غواليار والمعابد التى يشتمل عليها سور القلعة من أهم مبانى الهند القديمة ، وسأقول بضعَ كلمات عن هذا القصر وعن قصر أوديپور.

ومع ما عليـه قصر غواليار من تلَف ، وعلى ما مُنِىَ به أكثرُ قِطَعه الخزفية المَطْلِيَّة بالميناء من السقوط ، فإن السائح الناظر إليه لا يستطيع إلا الإعجاب به كما أُعْجب به الملك بابَر حينما دخله سنة ١٥٢٧ .

أُقيم قصر غواليار حوالىْ سـنة ١٥٠٠ ، و يسيطر هذا القصر على القلعة التى أُنشئ على جانب منها ، و يبلغ طوله خارجاً نحو مئة متر وارتفاعه ثلاثين متراً ، وأهم وجوهه هو الوجه الشرقى المستور بالخزف المطلىّ بالميناء ، ولهذا الوجه طبقتان ، و يُؤَلف من رصيف قائم الزوايا يتخلله على أبعاد متساوية ستةُ أبراج مستديرة تعلوها قِباب ، ولا تزال تَجِد رَوْعَةً لِما بَقِى من خزفه المطلىّ الساتر للجُدْران ، وليست التصاوير التى تغشاها غير هندوسية ، ولـكن صنعها من أصل فارسى كما هو واضح .

وداخل ذلك القصر مؤلفٌ من طائفتى غُرَف صغيرة منظومة حول باحات صغيرة ، ولا تزيد مِساحةُ أكبر هذه الغُرَف عن ١٠ × ٦ = ٦٠ ، وهى ذات فنّ بديع كما يبدو ذلك من إحدى الصور الفوتوغرافيـة التى نشرناها ، ولا أجد ما يَعْدِلُها رَوعةً غيرَ بيوت فى قصور فتح پور المشابهة لها .

وقصر أوديپور هو القصر الراجپوتى الوحيـد الذى تستطيع أن تقيسه بقصر غواليار ، بَيْدَ أن قصر أوديپور دون هذا القصر فنًّا ، لأنه أحدث منه ، ولما تجده

فيه من الطابع الإسلامي ، وهو يُعَدُّ ، مع ذلك ، من أجمل القصور التي تَخْطُرُ على قلب بشر لقيامه على مكان من أروع ما في الدنيا .

وترى ، أيضاً ، بين الصور الكبيرة التي نشرناها عن مباني أودبپور بعضَ مزارات في المقبرة التي تضم رُفَات ملوك ميوار .

وتجد على بعد ١٩ كيلو متراً من أودبپور مدينةَ ناغدها الخَرِبة الضائعةَ في الآجام ، وتشتمل هذه المدينة التي أُنشِئت في القرن السابع من الميلاد على معابد من أروع ما في الهند ، وإذ كان يَصْعُب بلوغ تلك الأطلال تَفَلَّتَتْ من الرُّوَّاد على العموم ، فلم يشتمل كتاب آخر على صور لآثارها الفخمة .

فنّ البناء في كجرات . — طِراز البناء في كجرات ، ولا سيما طِراز أحمد آباد ، الذي يمكن اتخاذه نَمُوذَجاً يختلف عن طُرُز المباني المذكورة آنفاً ، وذلك لاختلاط العناصر الفنية الإسلامية فيه بطِراز البناء الذي يُدْعَى بالجَيْنيّ .

أُنشئت مدينة أحمد آباد في القرن الحادي عشر من الميلاد وظَلَّتْ مئةً وخمسين سنة عاصمةً لولاية كجرات التي تَعْدِل بريطانية العظمى مِساحةً والتي حافظ أهلوها على استقلالهم مع اختلاف العروق التي يتألفون منها ، ومدينةُ أحمد آباد تلك اشتهرت بمجدها ، وفيها ازدهرت الفنون والآداب أيما ازدهار ، وذاع صيت البُقعة القائمة عليها منذ القديم ، وكانت تتاجر مع بلاد العرب ومصر .

ويعود فضل إقامة أهمّ مباني كجرات إلى أتباع الديانة الجَيْنيّة المشابهة للبُدّهِيّة ، ولم يصنع المسلمون غيرَ جعل هذه المباني ملائمة لمذهبهم .

استولى العرب على كجرات منذ القرن الأول من الهجرة ، ولكنهم لم يستقروا بها ، وحافظت كجرات على استقلالها إلى عهد الملك فيروز تُغْلُق ، مع ما قام به

محمود الغزنوى من غزو لاحق ، فلما حلّت سنة ١٣٩١ اعتنق هندوسىٌّ راجبوتىٌّ الإسلامَ وتسمَّى بمظفر وعُيِّن نائباً للملك فى كجرات .

وفى سنة ١٤١٢ نقل حفيد مظفر السلطان أحمد عاصمته إلى المدينة التى أطلق عليها اسمه فجعل اسمها أحمد آباد .

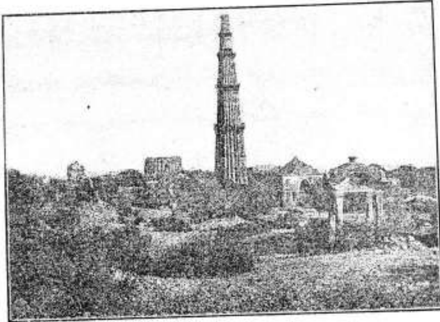
وحُوِّلَتْ المبانى الهندوسية القديمة المبنية على الطراز الجْينىّ إلى مساجد ، وما أنشىء بعدئذ من المساجد قام على هذا الطراز ، فإذا جرّدت مبانى أحمد آباد الحديثة من الأقواس والمآذن والكتابات العربية أمكنكَ عَدُّها هندوسيةَ الطراز .

فتح الملك أكبرُ مدينة أحمد آباد سنة ١٥٧٢ فجعلها من أملاك الدولة المغولية ، فكان يُدير شؤونها وُلاةٌ يأتونها من دهلى ، ومن هؤلاء نذكر شاهجهان وأورنغزيب قبل أن يجْلِسا على عرش أجدادهما .

بلغت أحمد آباد ذُرْوة عظمتها فى العصر المغولى ، فبدت أجمل مدينة فى الهندوستان ، وفى العالم على ما يحتمل ، فكان عدد سكانها يزيد على مليونين ، وكان لسائحيها وتجارها صلاتٌ مستمرة ببلاد العرب وإفريقية وجميع أجزاء الهند ، وكان لمصانع ديباجها ومُخْملها وحريرها وطيلسانها وورقها شهرةٌ فى كل مكان ، وبلغ عُمال الخشب والذهب والعاج فيها من إتقان الصنع مايَصْعُب معه التفوق عليهم ، وعمالُ كجرات هم الذين لا يزالون يصنعون عُلَب الصندل المرصعة المعروفة بِعُلب بمبى .

وفنُّ العمارة فى كجرات ، وهو الذى تَعُدّ طِراز أحمد آباد مثالاً له ، دليلٌ بارز على اختلاف فنّ البناء الإسلامىّ فى مختلف أقسام الهند ، وتجد لمبانى أحمد آباد من الطابع الخاصّ ما لا تَجِد مثلَه فى بُقعة أخرى من بقاع الهند لِما اتّفق للعناصر

الهندوسية فيها من التفوّق ، أجَلْ ، إن ما فيها من الأقواس والمناور والكتابات العربية يمنحها مظهراً إسلامياً ، بيْدَ أنها تُعَدّ بزُخْرُفِها من طِراز المباني الجَيْنِيّة التي وجدنا أروعَ نماذجها في جبل آبو .



١١٤ – دهلى القديمة . منظر عام لأطلال مسجد قطب الدين (برج قطب هو فى وسط هذه الصورة ، وترى دقائقه فى الصورة الآتية ، وتجد عن اليمين وتجاه البرج طاق علاء الدين) (ترجع مبانى دهلى إلى ثلاثة أدوار مختلفة ، فأما مبانى الدور الأول فهى التى شيدت قبل الفتوحات الإسلامية فلم يبق منها شىء تقريباً ، وأما مبانى الدور الثانى فهى مبانى الفتح الإسلامى الأول التى شيدت فى أوائل القرن الثالث عشر فتظهر فى هذه الصورة والصور الآتية ، وأما مبانى الدور الثالث فهى مبانى الدور المغولى التى شيدت فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، وهى تختلف عن السابقة ونشرنا صوراً لها فى هذا الكتاب)

وإذا سألتَ عن رسم مساجد أحمد آباد العامّ وجدتَه مثلَ رسم جميع المساجد الإسلامية ، أى وجدته مؤلفاً من ساحة واسعة قائمة الزوايا تُحِيط بها أرْوقة مسقوفة ،

فعلى جانب من هـذه الساحة ترى رُواقاً كبيراً مُعَدًّا للعبادة تعلوه ، على العموم ، ثلاثُ قِباب يحملها اثنا عشر عموداً ، شأنَ القِباب الجَيْنِيّة ، والقُبة الوسطى أعلى من القبتين الأخريين ، وقد تمّ هـذا العلوّ بإضافة أعمدة أعلى من الأخرى مرتين فوق مُقَدَّم الأعمدة و بتنضيد أعمدة على الجهات الثلاث الأخرى مستندة إلى السقف الذى اتُّخِذ أساساً لبقية القِباب ، و يزيد هذا الوضع ، الذى لا نشاهد مثله فى المبانى الجَيْنِيّة الأقدم مما فى أحمد آباد ، مقدارَ الضياء الذى يَنْفُذ فى البناء .

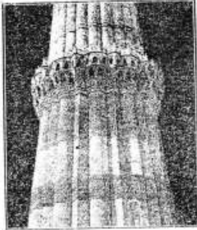
ولما قضت الضرورة بتوسيع أروقة الصلاة فى المساجد لم يَتِمّ ذلك بزيادة قطر قِبابها ، بل بزيادة عددها ، ومن ذلك أن جُملَت القِباب فى المسجد الكبير خمساً يَحْمِل كلٌّ واحدة منها اثنا عشر عموداً ، لا ثلاثاً على خط واحد ، وكل قُبة إذ كُرِّرَت ثلاث مرات غَوْراً غَدَت تلك القِباب الخمسُ خمسَ عشرةَ قُبة إذَنْ .

ومما يُشاهَد فى أكثر المساجد وجودُ كِواء[1] حافلة بالنقوش الهندوسية الرائعة ، وكانت هـذه الكِواء مملوءةً بالتماثيل فى المعابد الجَيْنِيّة ، فالشريعة الإسلامية إذ كانت تُحَرِّم صُوَر الآدميين وكان خُلُوّ الكِواء من شىء أمراً كريهاً رُئى مَلْؤُها بشبكة هندسية .

مبانى الهنـد الوسطى . — ليس عدد مبانى البُقعة التى ندرسها الآن كثيراً ، وإنما تُعدّ من أكثر مبانى الهند وفقاً للنظر ، ولا يختلف أكثر هذه المبانى ، كمعبد أمبرناتهة مثلاً ، عن المبانى التى درسناها ، بَيد أنك تجد بينها ما يدلّ على فنّ بناء خاصّ كمبانى إيلورا .

(١) الكِواء : جمع الكوة وهى الخرق فى الحائط .

وترى فى وسط الهنـد ، أيضاً ، معابدَ مصنوعة تحت الأرض ، ولكنها غيرُ بُدّهية كما هو أمر معابد كارلى وأجنتا الخ . المذكورة فيما تقدم ، بل تَخُصُّ الدّيانة البرهمية كما هو أمر معابد إليفنتا ، أوتَخُصُّ كلتا الديانتين كما هو أمر معابد إيلورا ، ومعابدُ إيلورا هـذه هى من المعابد التى أدت دِراستها إلى نظريتنا التى أوضحنا بها أُفول البُدّهية بابتلاع البرهمية لها ابتلاعاً تدريجياً .



١١٥ ـ دهلى القديمة . قسم من برج قطب (بدىء بإنشاء برج قطب الدين الذى ترى منظره العام فى الصورة السابقة سنة ١١٩٩ ، ويبلغ ارتفاعه ٧٣ متراً ، ويشتمل على خمس طبقات يحيط بكل واحدة منها شرفة مشابهة للشرفة الظاهرة فى هذه الصورة)

تقوم معابد إيلورا التى ندرسها وحدَها فى هذا المطلب على جوانب جبل تُتَوِّج ذُروته قريةُ روضةَ الصغيرةُ حيث يُرى ضريح الملك أورنغ زيب ، وتقع هـذه القرية فى شمال أورنغ آباد الغربى وتَبْعُد منها ٢٢ كيلو متراً .

ويبلغ عدد الأحافير التى تتألف معابد إيلورا منها ثلاثين ، ونُحِتَت هذه المعابد فى الجانب الغربىّ من الجبل على طول كيلو مترين ، وتَجِد مدخلَ هذه المعابد ضائعاً فى فِجَاجٍ عميقة تسترها آجام وأشجار عاديّة(١) ، واليوم ترى تلك المعابد والأديار ، التى عَمَرَتْها أجيال من الآدميين فتذَكِّرنا بآثار قدماء المصريين الضخمة ، صامتةً ، فلا يُكَدِّر صمتَها سوى سائلين قليلين يسيرون وراء السياح .

(١) العادى : الشىء القديم .

وأُنشئت معابد إيلورا في أدوار مختلفة ، ويرجع معبد وشوَا كَرْما ، الذي هو أقدمها ، إلى سنة ٥٠٠ من الميلاد ، ولم يُنْشَأ معبد كَيْلاسا الذي هو أحدثها في زمن أحدثَ من سنة ٨٠٠ من الميلاد ، فتكون تلك المعابد قد أُنْشِئَت ، إذَنْ ، في دور دام ثلاثمئة سنة .

وعندي أن ذلك الدور ، الذي بدأ في القرن السادس وانتهى في القرن التاسع فشيدت فيه مباني إيلورا ، هو الدور الذي عادت البُدَّهِيَّة فيه بالتدريج إلى البرهمية مصهورةً فيها ، فلم تلبث أن ابتلعتها بأسرها ، ففي هـذه المعابد أُحيط بُدَّهَة بآلهة ثانوية كثيرة مؤلفة من آلهة برهمية ومن آلهة مرشحة لرتبة بُدَّهَة ، وذلك بدلاً من أن ينفرد بُدَّهَة وحدَه بهذه المعابد، ومن الصعب أن نُمَيِّزَ جميعَ هذه الآلهة مستندين إلى ما بدا لنا من تفسير مجتهدي البراهمة (البِنْدت) الخلافيِّ ، غير أنه وُجِد في هذه المعابد ما يُزِيل الشكَّ ، فقد رُئِي بين نقوش ما هو بُدَّهِي منها صورةُ إلٰه السماء إندرا ، وإلاهةِ الموت كالى ، وإلاهة العِلم سَرَسْوَتي (زوجة برهما) ، وإلٰهِ الحكمة غنيشا الخ .

وهكذا نستطيع أن نشاهد في معابد إيلورا ذلك التطور الذي تَمَّ في الهند بين القرنين السادس والتاسع من الميلاد فلم يبق منه في الهند الأصلية سوى أثر قليل وإن سَهُلَ علينا درسُه في نيبال كما بَيَّنّا ذلك ، ولا تدلُّ معابد إيلورا على ذلك الدور الانتقاليِّ وحدَه ، بل تَدُلُّ ، أيضاً ، على مثل ما في نيبال من أن بعض معابدها بُدَّهِيَّة تماماً وأن بعض معابدها التي أُنشئت بعد هذه المعابد البُدَّهِيَّة بزمن قصير برهميةٌ تماماً .

وبعضُ معابد إيلورا قائمة فوق الأرض وأكثرها مصنوع تحتها على عِدَّة طبقات مستندة إلى أعمدة ضخمـة منقوشة نقشاً عجيباً ، ومما يُلاحَظ أنها عاطلة من مِثـل

الأقواس الهلالية التى تُرَى فى المعابد البُدْهِيَّة القديمة المصنوعة تحت الأرض ، ومن النادر أن تجد فيها دَغْفُوبات .

ويتطلب تعداد معابد إيلورا ودرسها مجلداً ، فاكتفينا فى هذا السِّفْر بذكر أهمها ، وفى هذه المعابد تُبْصِر ما لا تُبْصِره فى غيرها من خُدُور وتماثيل .

وأجدرُ معابد إيلورا بالذكر معبدُ إندرا ومعبدُ كَيْلاسا ، وليس معبدُ كَيْلاسا هذا معبداً مصنوعاً تحت الأرض تماماً ، فترى القسم الأوسط منه منعزلاً فوق الأرض عن بقية الجبل ، ولكنك تجده محاطاً بعِدَّة أحافيرَ تُؤلِّف جزءاً منه وتَنْشَب فى جوانب الجبل .

ويشابه خارج معبد كَيْلاسا معابد جنوب الهند الدراويدية ، وتجد تكراراً له فى الأبواب وتجد هذا المثال الابتدائىّ فى مهابلى پور أيضاً .

وإذا عَدَوْت معابد مهابلى پور وجدت معبد كَيْلاسا الذى أُنْشِئ فى القرن الثامن من الميلاد ، كما يلوح ، أقدمَ من جميع معابد جنوب الهند .

ويُعَدُّ هذا المعبد البرهمىّ الذى صُنِع تقديساً لشيوا من المبانى التى تَجَلَّى خيال متفننى الهندوس فى نقوشها ، فلا يكفى مجلد واحد لتصوير هذه النقوش فاقتصرنا على نشر أهمها ، فهى تُمَثِّل جميع الآلهة الهندوسية وتُمَثِّل أقاصيص ديوان المهابهارتا .

وكان يَغْشَى داخل ذلك المعبد وخارجه تصاويرُ ملونةٌ فلم يَبْق منها سوى أثر قليل .

ويقع معبد كَيْلاسا المصنوع من حجر واحد فى باحة قائمة الزوايا تُؤَلِّف جوانبها

من حواجزَ من الجبـل نفسه ، وقد نُحِتَت فى هذه الحواجز رِدَاه تحت الأرض مُزَيَّنة بنقوش .

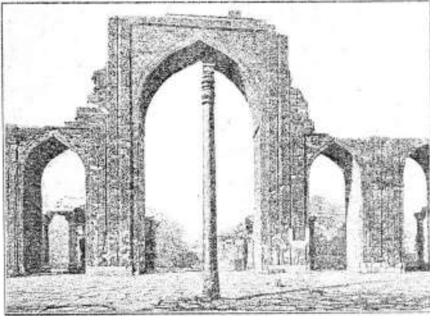
ونُحِت ذلك المعبـد الواقع فى وسط تلك الباحة من صخرة واحـدة ، ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً ، وتُدْخَل تلك الباحة من رُواق مُزَيَّن بأعمدة مربعة .

وداخل ذلك المعبد مُؤَلَّف من رَدْهَة كبيرة تَدْعَمها أساطين وأعمدة مربعة ، وتحيط بها مقاصير ، ونُصِبَت حول ذلك المعبد تماثيل أسود وأفيال وحيوانات وهمية مختلفة يُخَيَّل إلى الناظر أنها حارسة له .

ويُشَاهَد بالقرب من المعبد مِسَلَّتان تَبْدُوان واضحتين فى صُوَرنا ، ويُشَاهَد هنالك ، أيضاً ، فيلان هائلان من قطعة واحدة ، ويبدو لنا أن المهندس الذى أشرف على صنع ذلك المعبد دَارَى أقسامَ الصخر الضرورية لنحته ونحت الفيلين والمِسَلَّتين والمقاصير والجسور الجامعة بينها .

ولا أختِم كلامى عن معابد إيلورا قبل أن أقول إنه كان لها ، مع مبانى كهجورا وبيجانغر ونيبال ، أبلغُ الأثر فى نفسى ، فقـد نَسِيت ما كابدته من الجوع والتعب وليالى السُّهاد أمام هـذه العجائب ، أجَلْ ، إن معبد الـكَرْنَك فى الأقصر بمصرَ أثر رائع ، ولـكن معبد الـكَرْنَك هذا إذا كان يُخَيَّل إلينا أنه من عمـل قوم من العمالقة فإنه يلوح لنا أن معبد كَيْلَاسا ومعبد إندرا الواقعين فى إيلورا من صنع قوم من الجِنّ ، فما كان لعلاء الدين ، مع فانوسه السحرىّ ، أن يُتِمّ عملًا شيطانياً كهذا ، وما كان للصُّوَر الفوتوغرافيـة أن تُبْدِىَ لنا حقيقة تلك الآثار إلاّ قليلاً ، ويجب ، لتَمَثُّلها ، أن نَتَخَيَّل كتدرائية عظيمة رائعة منحوتة فى حجر واحد مفصول عن

جبل فصلًا مصنوعاً وترى بذهنك أيدى العُمّال ، الذين ينتسبون إلى عالَم غير عالمنا فحفروا بها جوانب تلك الهُوَّة ليَفْصِلوا ذلك الصخر الهائل ، حفروا بها أيضاً سلسلة معابدَ غائرةٍ فى جوانب ذلك الجبل ، وترى تلك المبانى وحواجزها مستورة بتماثيل آلهةٍ وإلاهات وغيلان وبكلّ ما يتصوره الإنسان الواسع الخيال من الحيوان على



١١٦ ـ دهلى القديمة . أقواس مسجد قطب وعمود الملك دهاڤا المصنوع من حديد (أنشئت هذه الأقواس فى أوائل القرن الثالث عشر ، ويبلغ ارتفاع أعلاها ١٦ متراً وترى أمامه عمود الملك دهاڤا المصنوع من حديد والذى هو من أندر بقايا دهلى القديمة ، ومن المحتمل أن يكون قد نصب فى القرن الثالث من الميلاد)

مختلف الأوضاع ، وترى هنالك الآلهة المرهوبة الجبارة يَحْرُسها شياطين من الحجارة متوعدين للزائر فلا يدنو منها ، وترى قوماً من الغيلان مُكَشِّرين عن أنيابهم ، وترى إلاهاتٍ باسمات ساحرات باسطات لِذُرْعانِهِنّ ، وترى راقصات مثيرات

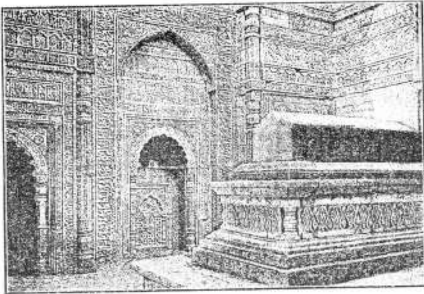
للشَّهَوات ، وترى آلهةً وإلاهاتٍ متعانقةً بشدة عن غرام شديد، وترى هؤلاء القوم من الأصنام الذين يلوح أنهم قدماء قِدَمَ العالم ، والمُؤَلَّفون من موجودات علوية ومن راقصات ومن جِنِّيَّات ، يُؤَلِّفون مَوْكِباً لا آخر له منتشراً على حواجز المعابد وفيما هو منحوتٌ من المبانى فى الجبال ، وأنت كلما صَعِدْت وهَبَطت وتقدمت على نور مَشْعَلك وجدتَ ظِلال أولئك ضاحكةً تارةً وَمُهَدِّدَةً تارةً أخرى ، فتُصاب بالدُّوَار فتعتقد أنك انتقلت إلى عالم من السحر والعجائب ، وتُدْرِك ، إذ ذاك ، وجودَ فرق بين تماثيل كتدرائياتنا القوطيـــة الفاترة الجامدة وأولئك القوم المصنوعين من الحجارة على أشكال بلغت من الحياة والصدق ما تقول معه إنها تَتَحَرَّك ، ولم يكن تاجُ محلُ القائمُ فى أغرا وحدَه هو الذى يكفى لزيارة الهنـد كما قيل ، بل إن معبد إندرا ومعبدَ كَيْلاسا يستحقان مثل هذه الزيارة أيضاً .

٤ — فنُّ البناء فى الهند الجنوبية

نجهل مصادر فنِّ البناء الهندوسيِّ فى جنوب الهند جهلَنا لمصادره فى شمالها ، فلما بَدَت أقدم آثاره فى أقدم معابد بادامى ومهابلى پور الخ ، وذلك حوالَى القرن السادس من الميلاد ، كان قد وَصَل درجــةً من الـكمال منطوية على ماض طويل ، وليس لدينا ما نذكره عن هذا الماضى الطويل الراقد تحت أعفار القرون ، نَعَمْ ، إن ممالك جنوب الهند الـكبيرةَ ، التى كانت عواصمها ، كَمَدُورا مثلاً ، معروفةً لدى كُتّاب العالَم الإغريقيِّ اللاتينيِّ القديم، اشتملت على مبانٍ مهمة لا ريب ، بَيْـد أن الأزمنة والحروب الأهلية والغَزَوات الأجنبيةَ لم تُبْقِ فيها شيئاً فلم نَقْدر على مَلْء الهُوَّة التى

تَفْصِل أبنية ما قبل التاريخ الحجرى ، الموجودةَ فى الهند كما فى أوربة ، عن المعابد العجيبة التى شِيدَت فى القرن السادس من الميلاد .

ولا نستطيع ، إذَنْ ، أن نَرْجِع فنَّ عمارة جنوب الهند الأولَ إلى غير المبانى ، الحديثة نِسْبِيًّا ، القليلةِ التى أقيمت فى القرن السادس من الميلاد كمبانى مهابلى پور



١١٧ — دهلى القديمة . ضريح الملك ألتمش ، أنشىء سنة ١٢٣٥ فى مسجد قطب . (جميع نقوش الردهة المشتملة على القبر منقورة على حجارة رملية حمر ، ويبلغ ارتفاع أعلى القوس الكبير الذى يرى فوق المحراب نحو خمسة أمتار ، وتنفصل حجارة الأقواس بعضها عن بعض قليلا فيسهل الانتباه إلى أنها مبنية من مداميك أفقية على الطريقة الهندوسية ، ويعد هذا الضريح مع الأثر المرسوم فى الصورة الآتية مثالا للمبانى التى امتزج فيها الطراز الهندوسى بالطراز العربى امتزاجاً حسناً)

وبادامى ، بَيْد أننا لا نجِد بين هذه المبانى والمعابد الهَرَمِيَّة التى يعود إنشاؤها إلى القرن العاشر من الميلاد أىَّ بناء متوسط ، فتبصر هنا حَلَقَاتٍ مفقودةً فى سلسلة المبانى كما أبصرت هنالك ، أجَلْ ، إن فنَّ البناء تَغَيَّر فى هـذا الدور الذى دام نحو

أربعة قرون ، غير أن المبانى التى أنشئت فيه إذا كانت قد نالت ضخامة لم تنلْ كالًا ،فالحقُ أنك ترى معابد مهابلى پور الأولى الصغيرة قد كُبِّرت كثيراً فيما بعد فاستبدلت فى المعابد التى أنشئت مكبرةً بالأعمدة المنقوشة نقشاً بسيطاً أعمدةٌ مُعَقَّدة منقوشة عليها صور للغيلان والفرسان تَمُدّ فى الغالب دون التى رأيناها فى معابد إيلورا رَوْعَةً فأمكن ربطها شكلاً بآثار جنوب الهند ، وذلك عدا ما فى بيجانغر على ما يحتمل.

و بين معابد جنوب الهند فروقٌ مهمة من حيث الصنعُ ، ولكنها شيدت على رسم واحد كما يظهر ، فكانت من فصيلة واحدة ، فترى فيها ما يأتى :

يحيط بالمعبد الكبير على الدوام إطارٌ قائم الزوايا أو عِدَّة أطُر قائمة الزوايا ذات مركز واحد لها فى جهاتها الأربع بابٌ هَرَمِىٌ مجذومُ الرأس متآزِى السطوح ، فيبلغ ارتفاع هذا الباب المستور بالتماثيل ستين متراً أحياناً ، فتلك الأبواب الهَرَمِيَّة هى التى تمتاز بها معابد جنوب الهند ، وتلك الأبواب قد تُعَدُّ معابد لضخامتها ، ومما يشاهد فى الغالب تعاقب كثير من تلك الأبواب الهَرَمِيَّة على خطٍ واحد فيتألف من ذلك شارع أهرام ، ومصدر هذا الوضع ، على ما يظهر ، هو عَدُّ القوم للإطار الأول غيرَ مناسب لشهرة المعبد أو غِنَى بعض الواهبين فأنشأوا حوله بالتعاقب أطُراً أخرى ذاتَ مركز واحد فتوسيعُهم بذلك المعبدَ الأصلىَّ من غير هدمه ، فأسفر هذا الأمر الذى هو وليد ضرورة توسيع المعبد فى البَداءة عن اتخاذه دستوراً فى شَيْد المعابد الجديدة فكان ما تراه من اشتمال هذه المعابد على عِدَّة أطُر ذات مركز واحد .

وتحتوى الاطُر الخارجية للمعابد الكبرى على مساكنَ لسَدَنَتِها ، وتحتوى ، أيضاً ، على أسواق الخ ، فيتألف منها مدينة مشتملة على عِدَّة آلاف من الأهلين .

وتجد في صُحون[1] المعبد الداخلية رُواقاً أو أكثر من أعمدة ، منقوشة عادةً ، أمام زُون[2] .

ونذكر ، من بين الأبنية التي تشتمل عليها المعابدُ العظيمة ، الرَّدَاهَ ذواتَ الأعمدة ، ومن هذه الرَّدَاه ما تحتوي الواحدة منها على ألف عمود .

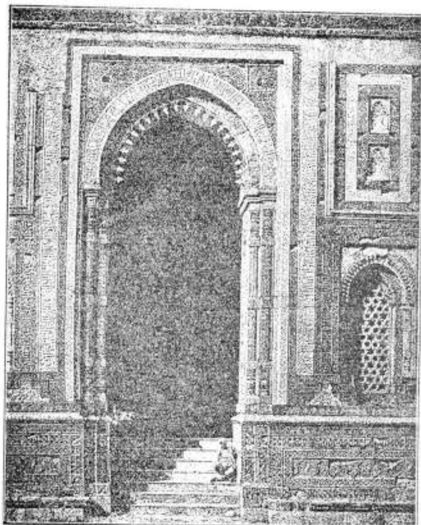
ويُرى في إطار كلِّ معبد حوض مقدسٌ قائم الزوايا مُعَدٌّ للغسل يزيد جانبه على مئة متر في الغالب .

ويكون زُون الآلهة التي أقيم المعبدُ تقديساً لها في وسط أحد الصُّحُون الداخلية ، وهذا الزُّون هو بناء قائم الزوايا يعلوه هَرَم عالٍ كما في تانجور مثلاً ، ولا يَنْفُذ النور في الزُّون إلا من الباب ، ويكون هذا الزُّون صغيراً على العموم ، ولا ضَيْرَ من صِغَره ما دام دخوله مقصوراً على أبناء الطوائف العليا .

والزُّون هو القسم الأصلي في كلِّ معبد من معابد جنوب الهند ، وفي سبيل الزُّون بَذَل الصُّنَّاع وصانعو التماثيل أكبر عمل ، فترى الزُّون مملوءاً من أسفله إلى أعلاه بالتماثيل الكثيرة جداً المتفاوتة القِيَم ، فترى بين هذه التماثيل ما هو بديعٌ وترى بينها ما هو شنيع ، وقد تكون هذه التماثيل من حجر ، وتكون في الغالب من المِلاط أو الفخَّار ، وعكسُ ذلك أمر أعمدة الزُّون ، فهي مصنوعةٌ من قِطَع صَوَّان واحدة ، ويجد بعض علماء الآثار الأفاضل وجهَ شَبَه بين الزُّون والأبراج القائمة أمام المعابد المصرية ، وعندي أن هذا الشَّبه سطحيٌّ ، فمن المتعذر أن تجد شَبَهاً جِدِّياً بينهما ، وإذا كان لابدَّ من الإصرار على وجود شَبَه بينهما فإن مثل هذا الشَّبه يكون بين الزُّون ومعابد بابل الهَرَميَّة المربعة القواعد التي حَكَى عنها أسترابون فتُبصِر مثالاً

(١) الصحون : جمع الصحن وهو الساحة — (٢) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام .

صالحاً لها فى مرصد خرز آباد ، وهذا إلى أن ذلك الطِّراز ليس خاصاً بجنوب الهند وحده فنشاهد مثله بشمال الهند فى معبد بُدّهَة غَيَا الذى يَرْجِع إلى القرن الأول من الميلاد.

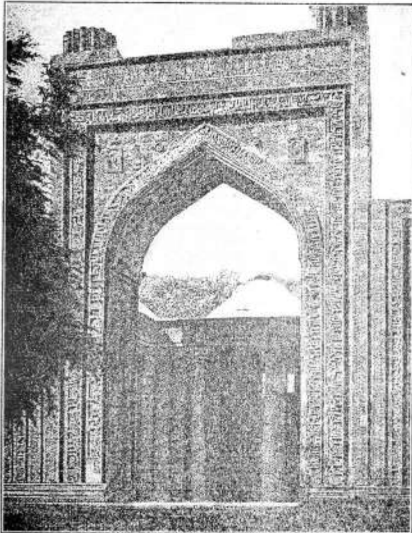


١١٨ ـ دهلى القديمة . مدخل طاق علاء الدين (أنشىء سنة ١٣١٠)
(يبلغ ارتفاعه نحو ١١ متراً)

والناظرُ حينما يبحث فى الزُّون يرى وجهَ كلّ طبقة منــه مؤلفاً من أطواق صغيرة ذات أعمدة تعلوها قُبة و يتخللها تماثيل ، فعلى هذا الطِّراز الابتدائى شِيد أقدم معابد الهنــد الجنوبية ، كمعـابد مهابلى پور مثلاً ، ومن هـذا العنصر اقتُبِس صنع الزُّون .

يكفى البيان الموجز السابق لوصف طِراز المعابد التى شِيدت فى سبعمئة ســنة (بين القرن العاشر والقرن السابع عشر) فنشرنا صوراً لها فلا تَجِد فروقاً أساسـية مهمة بينها ، ومن الممكن أن يقال ، على العموم ، إن جميع المبـانى التى وُصِفَت فى هذا المطلب من طِراز واحد خلا ما هو مصنوع منها تحت الأرض ، وتقوم تلك المعابد فى بُقعة جنوب الهند الممتدة من نهر كرشنا إلى النقطة القصْوَى من شـبه جزيرة الهند .

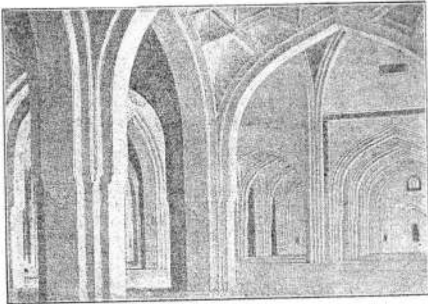
ونذكر من المعابد الشاملة للنظر التى وصفناها ما هو قائم منها فى المدن : بيجانغر ومَدورا وشرى رنغم على الخصوص ، و يبلغ معبد شرى رنغم نحو كيلو متر طولاً ، فهو أوسع معبد فى العالم على ما يحتمل ، وفى بيجانغر أطلال من كلّ نوع ، و بيجانغر هـذه كانت من أعظم عواصم الدنيا كما تشهد به أطلالهــا ، فغدَت اليوم بَرِّيَّة لا يسكنها غير الضوارى ، ومن أروع ما شَعَرتُ به عند ما زرت عجائب الهنــد هو ما تجلى لى حينما سِرْت ذات ليلة مُقْمِرَة فى شوارع هذه المدينة الميتة الواسعة اتساعَ شوارعنا والمُطَرَّزَة بأطلال المعابد والقصور ، ولِذُرًا هذه المعابد والقصور البادية من خلال الأدغال من الرَّوْعة ما يأخذ بمجامع القلوب ، وأشدُّ من ذلك رَوْعَةً منظر الإطار الحجرىّ العظيم المحيط بتلك الأطلال الجليلة والذى لا بدَّ من مجاوزته قبـل دخول تلك العاصمة ، هنالك خُيِّل إلىَّ أنى دخلت مدينة جبارة من صُنْع الجنّ



١١٩ ـ أجمير : إحدى أقواس المسجد الكبير (القرن الثالث عشر من الميلاد (يبلغ ارتفاعه نحو ١٧ متراً) (طراز مسجد أجمير مطابق لطراز المباني الإسلامية الأولى التي شيدت بدهلي فنشرنا صورها في الصفحات السابقة)

فخرَّبها مَرَدَةٌ من أبناء السماء والأرض ، ومن المعابد التى تحتويها هذه المدينه أذكر معبد وتهوبا وما اشتمل عليه من الأساطين المصنوعة كلٌ واحدة منها من حجرٍ واحد فَبَدَا هذا المعبد من عجائب الدنيا ، فمعبد وتهوبا هذا هو من أنفس ما شاده الإنسان ، وهو من الآثار الرائعة التى لا تُصْنَع مرةً أخرى .

« وتظهر ألوف الآلهة المتأملة التى تحول الأعمدة من مداميك المعبد إلى حنايا القِباب » .



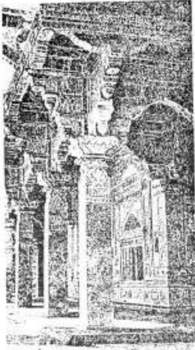
١٢٠ — بيجابور . داخل المسجد الكبير (القرن السادس عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع القوس الكبير الظاهر فى الصف الأول من هذه الصورة ثمانية أمتار ، ويبلغ طول المسجد نحو مئة متر ، أى مايعدل اتساع إحدى كتدرائياتنا الكبرى التى أنشئت فى القرون الوسطى) (بيجابور هى إحدى العواصم الكبرى الخربة الكثيرة فى الهند ، وقد شيدت مبانيها المرسومة فى هذه الصورة وفى الصور الآتية فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر حين كانت مقراً لمملكة الدكن الإسلامية فبلغت دائرتها ٤٨ كيلو متراً على ما روى .)

٥ — فَنُّ البناء الهندوسىّ الإسلامىّ

كان من نتائج تَعَدُّد الممالك الإسلامية فى الهند فى مختلف الأدوار ظهورُ طُرُز معمارية مختلفة باختلاف الولايات ، وسببُ هذا الاختلاف هو انتساب الفاتحين إلى عروق متباينة ووجود طِراز بناء خاص لكل ولاية استولَوْا عليها ، فأسفر انصهار هذه العناصر غير المتشابهة بعضها فى بعض عن ظهور طُرُز مختلفة يتعذر إطلاق اسم واحد عليها ، فمن يدرسْ آثار أحمد آباد ودهلى ولاهور و بيجاپور الخ ، يَشْعُر بأنه أمام مبانٍ مختلفة الأصول و إن بدا الأثر الهندوسىّ فى جميعها تقريباً ، فالحقُّ أن مسلمى الهند لم يُوَفَّقوا ، كما وُفِّقوا فى مصر والأندلس ، لإبداع مبانٍ مبتكرة كجامع قايتباى فى القاهرة أو الحمراء فى غرناطة مثلاً ، والحقُّ أن العناصر الأجنبية فى الهند قد تَنَضَّد بعضها فوق بعض أو اختلط بعضها ببعض اختلاطاً محموداً يَسْهُل معه تَبَيُّن كلٍّ واحد منها ، والحقُّ أن اختلاف المبانى الإسلامية فى الهند باختلاف البِقاع نشأ عن اختلاف نِسَب العناصر التى تألَّفتْ منها .

أدى امتزاج العناصر الأساسية الثلاثة ، الهندوسىّ والعربىّ والفارسىّ ، بعضها ببعض إلى ظهور طُرُز الهند الإسلامية ، وأما العنصرُ البيزنطىُّ فلم يَبْدُ فيها إلا فى أحوالٍ شاذة ، كما فى بيجاپور ، وأما المؤثِّرات الأوربية فلم تَبْدُ إلا فى العصر المغولى ، وقد انحصر أمرها ، مع ذلك ، فى الزخارف الثانوية كترصيع رُخام وجوه البناء بالحجارة الثمينة ، وقد بدا المؤثِّر الإيطالىّ حديثاً فى الأشكال الخارجية وفى جُزْئيَّات زخارف بعض المبانى ، كالتى شيدت فى لكهنئو وتانجور مثلاً ، بَيْدَ أن نتائج ذلك الضَّمّ كان على قِلَّةٍ ودون الوسط بمراحل فلا يستحقّ الوصف ، و إذا كان فى الإشارة

إليه من فائدة فلدلالته على أن الشرق والغرب لا يمتزجان فى طرُز مبانيهما كما أنهما لا يمتزجان فى أفكارهما .



١٢١ — بيجابور : ضريح إبراهيم رضا (أواخر القرن السادس عشر من الميلاد) (دهاليز الأعمدة المحيطة بالضريح (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى سطحها خمسة أمتار و ٤٠ سنتيمتراً)

وما نشرناه فى هـذا الكتاب من الصور يُغْنى ، أحسن من الوصف ، باختلاف نتائج ضمّ تلك العناصر المعمارية ، فإذا نظرت إلى أقدم المبانى الإسلامية الهندية ، كمسجد قطب الذى أنشىء فى دهلى فى أواخر القرن الثانى عشر من الميلاد ، وجَدْتَ المؤثرات العربية هى السائدة لها ، ثم كانت الغَلَبة للمؤثرات الفارسية فى شمال الهند الإسلامية على الأقل ، كالتى أقيم منها فى لاهور ، وكانت الغَلَبة للعنصر الهندوسى فى بِقاع أخرى كأحمد آباد مثلاً ، فحُقَّ لنا أن نصف آثار هذه المدينة بالهندوسية إذا استثنينا أقواسها وقِبابها ومآذنها .

أقيمت أقدم المبانى الإسلامية فى الهند كمسجد قطب بدهلى والمسجد الكبير بأجمير فى أواخر القرن الثانى عشر ، وأقيمت المبانى الإسلامية الأخيرة المهمة فى أواخر القرن السابع عشر ، فتكون تلك المبانى قد شِيدَت فى دور دام خمسمئة سنة .

وفى الكتب الإنكليزية تجِد المؤلفين يُطْلِقون ، فى الغالب ، كلة الطِّراز

البتهانى على طراز البناء الإسلامى فى الهند قبل العصر المغولى مقتبسين هذا الاسم من أسماء الأسَر المالكة التى كان لهـا السلطان فى ذلك الحين ، فلا أرى من المفيد أن يُطلَق اسم خاص على طراز بناء كهذا لا يختلف عن فنّ البنـاء العربىّ إلا ببعض الإضافات الهندوسية ، كما يلاحَظ ذلك بسهولة فى المبانى القليلة التى انتهت إلينا من ذلك الدور .

فإذا كانت هنالك ضرورة إلى تَسْمِيات خاصة ، فلتُطْلَق هـذه التسميات على الطُرُز البارزة التى تشاهَد أمثلتها فى المدن الإسلامية : أحمد آباد و بيجابور وغور الخ .

وأما اسم الطّراز المغولى فيجب أن يحافَظ عليه ، ويدلّ هذا الاسم على المبانى التى أنشئت فى عهد ملوك المغول ، ولا يَرْجِـع أقدم مبانى هذا العهد الأولى إلى ما قبل منتصف القرن السادس عشر ، والملك أكبر هو الذى شادها، ثم سار خلفاؤه ، جهانكير وشاهجهان وأورنغ زيب ، على سُنّته فى شَيْد المبانى إلى أواخر القرن السابع عشر ، وتجد هـذه المبانى فى أغرا ودهلى على الخصوص ، ولا يستنبط القارىء من تشابه مبانى هاتين المدينتين الواضح أن جميع المبانى الإسلامية التى أقيمت فى هـذا الدور بالهند قد بُنِيَت على هذا الطراز ، فلْيُنْعِمْ نظره فى صور هذا الكتاب ليرى العكس .

والمبانى التى أقيمت فى الهند على الطّراز المغولىّ هى التى تعرفها أوربة تقريباً ، مع أنها ليست سوى قسم ضئيل مما شاده المسلمون فيها ، ونُفَسِّر ذلك باقتصار الأوربيين على زيارة مدينتين مشهورتين منذ زمن طويل وبَهْرِ مبانيهما لهم ، وإن كنا نرى فى الهند من المبانى الإسلامية ما ينافس هذه المبانى من الناحية الفنية .

وطراز البناء الذى أتى به المغول هو ، كدياناتهم ، من أصل عربىّ حُوِّل حين مروره من بلاد فارس ، ومما حدث أن شاد تيمورلنك الذى ظهر قبل بابَر بمئة سنة

فى مدينة سمرقند (١٣٩٣ — ١٤٠٤) مبانى ذات طابع فارسى، فمن بلاد فارس اقتبس المغول القباب البصلية الشكل والترصيع بالخزف المطلى بالميناء الشائع فى لاهور والأقواس الحادة والأبواب الفخمة التى تعلوها نصف قبة.

وأراد الملك أكبر والملك جهانكير صهر الهندوس والمسلمين فى أمة واحدة فلم يألوا جهداً فى مزج طرازيهم فنجم عن ذلك أن وسم كثير من مبانى ذلك الدور، كمبانى فتح پورسيكرى مثلاً، بالطابع الهندوسى أكثر مما بالطابع الإسلامى، ثم توارت روح التسامح هذه فى عهد شاهجهان (١٦٢٨ — ١٦٥٨) الذى أقام أغنى المبانى فى العصر المغولى فعادت المؤثرات الهندوسية لا تبدو فى غير بعض الجزئيات، فصرت لا ترى النقوش البارزة العزيزة على متفننى الهند، فكان ما نعلم من خلو تاج محل منها واقتصار زينته الخارجية على فسيفساء هزيلة.

وترجع عناصر الفن التى كانت سائدة للطراز المغولى فى عهد شاهجهان إلى استعمال الأقواس المقرّضة والقباب البصلية وترصيع الرخام الأبيض بالحجارة الثمينة وستر المساجد، فى بعض الأحيان، بالخزف المطلى بالميناء.

وقد أفل نجم الطراز اللذين لتأثير المغول بأفول نجم هؤلاء بالتدريج، فلا يشيد القوم مبانى مهمة على حسب أصوله فى الوقت الحاضر، مع أن الطراز الهندوسى لا يزال محافظاً على نفوذه، ومع أن الطرز الإسلامية الأخرى لا تزال باقية فى الممالك الإسلامية التى تتمتع بشىء من السلطان كدولة نظام مثلاً.

تكفى الخلاصة السابقة لتسويغ ما اتخذناه من تقسيم المبانى الإسلامية فى الهند، وعلى الباحث أن يدرس هذه المبانى فى كل منطقة على حدة، والمبانى المهمة لكل

منطقة إذ كانت متجمعة فى عاصمتها وَجَب اتخاذ مبانى كُبرَيات المدن أمثلةً فى البحث ، فإذا ما قيل : فن بناء لاهور وفن بناء بيجابور ، مثلاً ، دَلّ ذلك ، بالحقيقة ، على فنّ بناء المِنطقتين الواسعتين اتساعَ ممالكنا الأوربية ، فى الغالب ، اللتين اتخذتا تينك المدينتين عاصمتين لها .

ويتجلى النفوذ الإسلامى فى جميع الهند تقريباً ، فقد وَجَدْتُه حتى فى نيبال التى لم يدخلها المسلمون قَطّ ، ووجدتُه ، أيضاً ، فى جنوب الهند التى لاتحتوى على مساجد بناها المسلمون فقط ، بل تشتمل على قصور إسلامية بناها الهندوس أيضاً كقصر مَدورا مثلاً ، وكان للنفوذ الإسلامى من الأثر البالغ فى شَيْد هذه القصور ما يُخَيَّل إليك معه ، أولَ وَهْلة ، أن بُناتَها من المسلمين بالحقيقة .

وإذا اتخذتَ ما قلناه آنفاً قاعدة أمكنك أن تصنف المبانى الإسلامية التى تملأ الهند كما يأتى :

ا — فن البناء الإسلامىّ قبل العصر المغولىّ (وقد أُنشئت على طِرازه مبانى دهلى القديمة ومبانى أجمير و بيجابور وغولكوندا الخ) .

ب — فن البناء فى العصر المغولىّ (وقد أُنشئت على طِرازه مبانى أغرا ودهلى ولاهور الخ) .

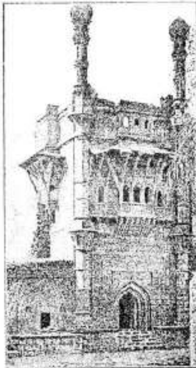
جـ — فن البناء الموسوم بالمؤثِّرات الإسلامية فى مختلف بِقاع الهند حيثأ كثر المبانى هندوسيةٌ (وقد أُنشئت على طِرازه المبانى الإسلامية فى غواليار ومهوبا وكهجورا ومَدورا الخ) .

ألاَ إن مبانىَ المسلمين فى الهند كثيرة إلى الغاية ، وتختلف طُرُزها بين دَور

ودور وبين مدينة ومدينة فيتعذر وصفها داخل الحدود التى رسمناها لهذا السفر ، وقد نشرنا أهم صورها فى هذا الكتاب مع ذلك ، ولا يسعنى سوى إحالة الراغبين فى دراسة كلٍّ واحدة منها بالتفصيل إلى كتابى « الهند الأثرية » ، ومن هذه المبانى الإسلامية أذكر برج قطب وباب علاء الدين ومزار أكبر وقلعة أغرا وأطلال فتح پور وقصر ملوك المغول بدهلى وما إلى ذلك من الآثار القائمة فى كبريات المدن فيسهل على الباحثين أن يصلوا إليها ، فنجم عن هذا ذيوع صيتها فى أوربة .

٦ — فن البناء الهندى التبتى

تقع دولة نيبال ، كما هو معلوم ، بين سلاسل جبال هيمالية المتوازية التى تفصل الهند عن التبت ، ونجم عن عزلتها واستقلالها محافظتها على عاداتها القديمة محافظة تامة ، ومن المفيد أن ندرس فن بنائها الذى صعب البحث فيه حتى الآن، فنرى فى كثير من مبانى نيبال اختلاط العناصر الهندوسية والصينية ، و بلغت هذه العناصر فى بعض مبانى نيبال من التمازج ما أسفر عن ظهور طراز خاص جديد .



١٢٢ — بيجابور . مهترى محل (القرن السادس عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع المئذنة نحو عشرين متراً) .

مبانى نيبال كثيرة جداً ، ففيها ما يزيد على ألفى بناء، وترتبط طرز هذه

المباني بأمثلة ثلاثة مختلفة اختلافاً جوهرياً كما نَصِفها لك :

فأما الطراز الأول بحسب القِدم فيتألف من مبانٍ كبيرة نصف كريّة مصنوعة من الطين والآجُرّ مشابهةٍ لقِباب الهند الوسطى كمزار سانچى على الخصوص ، ولكنها ليست مُحاطَة ، كهذه القِباب ، بسياجات حجرية ذات نقوش ، بل هى محاطة بأرصفة مستديرة ، وتُبصِر فى كلّ جهة من جهاتها الأربع محراباً ، وإن شئت فقل مِشكاة ذات تماثيل ، ويعلو نصفَ الكُرَة برجٌ مربع يتوّجُه هَرَم أو مخروط ، وترى حَوْل كلّ معبد أبنية دينية صغيرة ومقاصير وتماثيل الخ .

أجَلْ ، إن تلك المعابد خاصة بالدّيانة البُدّهيّة ، بَيْد أن البرهمية والبُدّهيّة بلغتا من التمازج فى نيبال ما تتلاقى معه رموز تَيْنك الدّيانتين فى جميع معابدها مهما كانت الدّيانة التى أقيمت من أجلها ، فترى فى تلك المعابد البُدّهيّة ، فى الغالب ، تماثيلَ الآلهة البرهمية (وِشنو وغنيشا الخ) بجانب تماثيل بُدّهَة وسابقِ تقمصاته والثالوث البُدّهِى (بدهة ودَهرما وسنغها) .

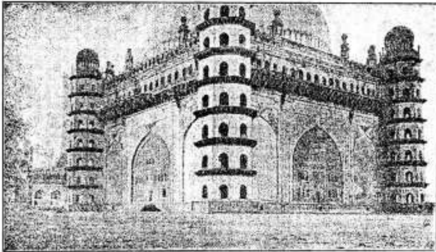
ونحن حين رأينا فى نيبال كيف تتدَرّج البُدّهيّة إلى الانصهار فى البرهمية استنبطنا وقوع هذه الحادثة نفسها فى بقية الهند حوالَى القرن السابع من الميلاد .

وتلك المبانى التى وصفناها ، وإن كانت أقدمَ مافى نيبال ، ليست أكثرَ مافى نيبال عدداً ، فيتألف مُعْظَم معابد نيبال من مبانٍ مصنوعة من الآجُرّ والخشب على طِراز تبتىّ صينىّ أكثر من أن يكون هندوسياً فتشتمل هذه المبانى على عِدّة طبقات قائمة الزوايا مُتَقَبِّضَة يعلو كلّ واحدة منها سقف ، ويظهر كلّ واحد من هذه السقوف مرتفعَ الزوايا قليلاً ، كما فى المبانى الصينية ، مزيناً بعدة جلاجل ، ويبدو كلّ بناء أنشىء على هذا الشكل هَرَمِىّ الشكل ذا طابع خاص .

ويرتبط قسم السقف البارز للأمام في بقية البناء بجسور خشبية منقوشة .

ويحيط بكلِّ معبد شُرْفَةٌ تحملها أعمدة خشبية محفورة حفراً دقيقاً .

ويقوم كلُّ بناء على أساس حجريّ ذي طبقات كثيرة متقبّض بعضُها فوق بعض ويُرَى على أحد وجوه كلّ معبد دَرَجٌ مؤدية إليه ، ويُزَيِّن جوانبَ الدرج تماثيلُ للآلهة والجنّ والإنس .



١٢٣ — بيجابور . مزار السلطان محمود (أنشيء في أوائل القرن السابع عشر) (يعد هذا المزار من أعظم مباني العالم ، ويشتهر بأبعاده الواسعة أكثر مما بجماله وزخرفه ، ويبدو مربع الشكل فيبلغ الجانب منه ستين متراً ، ويقوم على كل واحدة من زواياه الأربع مئذنة ، وتعلوه قبة عرضها ٣٨ متراً وارتفاعها من الأرض ٦٠ متراً ، فيبدو بذلك أعلى من مسجد أياصوفية بالآستانة)

وأما الطِّراز الثالث فيتألف من معابدَ حجريةٍ تختلف عن طِراز ذينك الطِّرازين اختلافاً تاماً ، فهي ذات طابع مبتكر ، فلا ترى للمؤثرات الصينية أثراً فيها ، أجَلْ إنك تُبْصر للمؤثرات الهندوسية عملاً فيها ، بيد أن هذه المؤثرات ليست من الأهمية

بحيث تُخرجها عن طابعها الخاصّ ، وهذه المبانى هى الوحيدة التى نشاهد فيها عَمَل المؤثِّرات الإسلامية لِما فيها من القِباب عرضاً .

ومن المتعذر أن نربط هذه المعابدَ الأخيرة بمثالٍ واحد كما يبدو ذلك من الصُّوَر التى نشرناها ، ووصفُها المشترك هو فى إنشائها على أُسُس حجرية ذات عِدّة طبقات وفى وجود تماثيلَ للحيوان والإنسان على جوانب دَرَجها كما فى المعابد السابقة.

وليس للمعابد الحجرية ما المعابد الآجُرِّيَّة ذات السقوف المُنَضَّد بعضُها فوق بعض من المنظر الغليظ فتكلمنا عنها آنفاً ، ويمكن عَدُّ المعبد القائم أمام قصر الملك فى بَتَن من أهم مبانى الهند شكلاً ، ويُزَيِّن طبقاته المُتَسَكِّمَشَ بعضُها فوق بعض (وهذا مااتُّخِذ مبدأً لفن البناء فى نيبال على ما يظهر) قِبابٌ ذوات منظرٍ رائع ، ولم يَبْعُد أثر طِراز الشمال الهندوسىّ فى غير الهَرَم ذى الوجوه المستديرة الخطوط الذى يعلو هذا المعبد .

ومنَ الصعب أن نُعيِّن تاريخ معابد نيبال ، ولو تقريباً ، نَعَمْ ، يمكننا أن نقول ، بوجه عامّ ، إن مزارات نيبالَ نصفَ الكُرِيَّة قديمة جداً ، أى معاصرة للقرن الثانى من الميلاد لا ريب ، وإن معابدَ نيبال الآجُرِّيَّة والخشبية أحدث من تلك ، أى أقيمت بعد القرن الخامس عشر ، ولكن من المتعذر تحديد تاريخ المبانى التى شِيدت بين ذينك القرنين ، فظلَّ أمر هذا التاريخ مشكوكاً فيه .

وتغشى معابدَ كُبْرَيات مدن نيبال و بيوتَها وقصورها نقوشٌ وزخارفُ زاهية ، وصُنِعَت أبواب قصور نيبال من صفائحَ برونزية منقورة نَقْراً دقيقاً ، ويقوم أمام هذه الأبواب حجارة ضخمة تعلوها تماثيل ، ويتجمع أكثر تلك المبانى ، فى الغالب ، ضمنَ مِساحة قليلة فيتألف منها منظر رائع ، وترانى قد زُرْت أشهر مدن الشرق فى

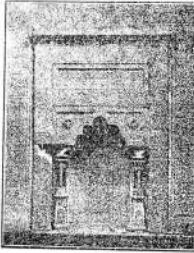
أثناء سياحاتى ، فلم أجد لمدينة فى الشرق من الأثر الجميل فى نفسى كبعض مدن نيبال ولا سيما پَتَن ، أجَلْ ، إن فى الجزئيَّات غِلْظَة أحيانًا ، مع عدم وجود ما يستطيع أشــدُّ النُّقَّاد تطرفًا أن ينتقد به نقوش الأعمدة ، ولكنى أقول مكرِّرًا إن المجموع طابعًا رائعًا شاملاً للنظر .

وقد نشرنا فى هــذا السِّفْر صورَ أشهر مبانى نيبال ، أى أشهر ما أقيم منها فى كهات ماندو وبهات غانو وپَتن وپَشُو پَتى الخ . مستندين إلى صورنا الفوتوغرافية .

٧ — فنُّ البناء الهندوسيُّ الحديث

رَجَع فن البناء ، كأ كثر الفنون الهندوسية ، إلى الوراء رجوعًا سريعًا منذ تمام الفتح الإنكليزى للهنــد ، أى منذ نحو قرن واحد ، ولهذا الانحطاط الهائل سببان : أولهما تَدَرُّج أمراء الهند وأشرافها إلى الفقر ، فهؤلاء الســادة إذ جُرِّدوا ، على الأكثر ، من دَخْلهم اضطرُّوا إلى العدول عن إنشاء مثل تلك المعابد والقصور العجيبة التى هى عنوان الثَّرَاء ومظهرُ غِنَى البــلاد فى الغالب ، وثانيهما اعتقاد الأقلين منهم ، الذين بَقِى لهم من المال ما يستطيعون أن يَشِيدوا به قصورًا ، أن تفوق الأوربيين فى الســلاح يتضمن تفوقهم فى الفنون، فرَأَوْا أن يقلدوا ما أقامه الإنكليز من الأبنية العامة الثقيلة ، فكان ما نراه من قصورهم الحديثة الشنيعة ، ومن هذا أن راجه غواليار، الذى هو من أقوى الأمراء المحليين ، قد تعامى عما أمام عينيه من مبانى الهند الرائعة فلم يَجِد غير إقامة قصر على طِراز إحدى مبانى لندن الـكريهة ، ومن هذا ، أيضًا ، أن أمير إندور بَنَى له قصرًا على الطِّراز الأوربىِّ فــكان أبشع ما رأيتُ فى الهند مع عَدِّه إياه ، لا ريب ، أجملَ ما فى عاصمته .

ومن الطبيعيّ أن يسير أغنياء الهند على تلك السُّنّة ، ظانّين أنهم يقيمون الدليل بذلك على بلوغهم درجة رفيعة من الحضارة وعلى نهوضهم فوق مستوى أبناء وطنهم ، فتبصرهم يُنْشئون بيوتهم على طِراز أوربيّ سقيم ممزوج بما لا يلائمه من الزخارف الإسلامية .



١٢٤ ــ غور . محراب مسجد أدينة (القرن الرابع عشر من الميلاد) (غور عاصمة قديمة مهجورة مثــل بيجانغر وكهجورا وبيجابور ، وتغير الآجام والأعشاب على مبانيها فتستولى عليها استيلاء تاماً ، ولا نرى كبير أهمية لما بقى منها (من مجموعة صور هنرى راقينشو .)

وتصرفٌ فاســدٌ كهذا يؤدى ، لاريب ، إلى انحطاط فنّ العمارة الهندوسيّ انحطاطاً تامًّا سريعاً ، وفنُّ عمارةٍ كهذا ، إذ كان لا يدوم إلا بتقدير قيمته يزول ، لاريب، إذا لم يُنْسَج على مِنْواله ، وليس على الباحث أن يكون نبيًّا ليبصر عَطَل الهند بعد جيلين أو ثلاثة أجيال من صانع ماهر قادر على إقامة بنــاء كتلك الآثار القديمة التى لا تزال تَمْلأ الهند وإن كانت أطلالها تَمَّحى فى هذه الأيام .

حقاً أن انحطاط الفنّ الهندوسيّ يرجع إلى ما ذكرتُه من الأسباب ، ولا أعرف غيره ، ومما يؤيِّد وجهة نظرى تلك هو أن أُخْرَيات العمارات الهندوسية التى بُنِيَت فى الهند قبــل استفحال النفوذ الإنــكليزى فيها تُثْبِت أن فنّ البناء لم يكن فى دور الانحطاط حين إنشائها .

وفى هذا الــكتاب نشرتُ صُوَرَ عِدَّةِ مبانٍ شِيدَت فى الهنــد منذ قرن ليطلع

القارىء على قيمة أُخْرَيات عماراتها ، وأهمُّ هذه العمارات معبدُ دورغا ببنارس ومعبدُ أور بأمرتسر ومعبدُ هَتهى سنغها بأحمد آباد ، أجَلْ ، إن هذه المبانى من طُرُز مختلفة أشدَّ الاختلاف ، بَيْدَ أنها تنطق بكمال من الصنع يتعذر مجاوزته فى أوربة ، وأحدثُ هذه المبانى هو معبد هَتهى سنغها الذى شِيد فى أحمد آباد منذ أربعين سـنة فتراني أشُكُّ فى وجود صانع ماهر فى الهند يستطيع أن يُنْشِىء مثلَه فى أيامنا .

هنا نختم ما أردنا قوله عن فنِّ عمارة الهند ، وهو، كما ترى، خلاصةُ رِيادِى لعالَم من المعابد والقصور الخيالية التى هى آثار جيل أفَلَ ، وما أولئك الآلهة والإلاهات والشياطين ذوو الصور الرائعة المتوعدة أو المرهوبة التى تملأ المعابد المُظْلمة ، وما تلك الأساطير والأقاصيص التى تدور حَوْلَ الملوك والأبطالِ فى المحاريب والمزارات الحافلة بالأسرار إلا شهودٌ على ماض لا نَقْدِر على بَعْثه بغيرهم .

الفصل الثالث

العلوم والفنون

(١) العلم الهندوسي — مصادر العلوم الهندوسية — اقتبس الهندوس علومهم من اليونان والعرب — كيف وقع ذلك — عطل الهندوس من الابتداع العلمي — معارفهم العملية — لا يجوز أن يعد تفوق أمة في فرع من المعارف دليلاً على مستواها الذهني — (٢) الفنون الهندوسية — أهمية آثار الفن في بعث حضارة أحد الأزمنة — يفصح رجل الفن عن احتياجات الزمن الذي يعيش فيه ومشاعره ومعتقداته — أهمية آثار الهندوس الفنية — أثر الهندوس البالغ في تحويل الفنون التي اقتبسوها من الأمم الأخرى — نشوء الفنون في الهند — النحت والتصوير — الفنون الصناعية — صناعة الخشب والمعادن والحجارة الثمينة ، الخ .

١ — العلم الهندوسيّ

لا يطمعنّ القارئ أن يجد في هذا الكتاب ما يجده في كتاب « حضارة العرب » من فصول كثيرة عن حال العلوم ، فالعربُ إذ نقلوا إلى الجامعات الأوربية كنز العلوم المتراكمة الذي انتهى إليهم من العالم الإغريقي اللاتيني بعد أن وسّعوا دائرته بما أضافوه إليه كثيراً كان من المفيد دراسة حال العلوم عندهم في إبّان سلطانهم ، ولا نجد مثل هذه الفائدة عند الهندوس ، فالهندوس ، خلافاً للرأي

القديم ، قد اقتبسوا معارفهم العلمية من الأمم التى كانوا ذوى علائقَ بها فلم يَعْرِفوا كيف يُسَيِّرونها إلى الأمام ، فدِراسة العلوم لدى الهندوس فى زمنٍ ما تَمْنِى دراسةً لتاريخ علوم الأمم التى كانت لهم صلات بها مما يخرجنا من نطاق هذا السِّفر .

ويُفَسِّر ما قلناه فى فصل آخر عن مزاج الهندوس النفسىّ عدمَ إضافتهم شيئاً ذا بال إلى العلوم التى تَلَقَّوْها من الأجانب ، فالروح الهندوسية القوية فى الفلسفة والدقيقة فى الفنون عاطلةٌ من الضبط والإحكام الضروريين للبحث المُجْدِى فى العلوم ، ففى هذا سرُّ ضَعْف الروح الهندوسية فى المعارف الهندوسية ، فالحقُّ أن الروح الهندوسية إذا كانت قادرة على هضم ماوَصَل إليه غيرها من نتائج العلوم ، فإنها لا تستطيع أن تسير إلى ما هو أبعد من هذا .

والأمتان اللتان اقتبس الهندوس منهما معارفهم العلمية هما الإغريق والعرب ، وترانا نجهل كيفية انتشار العلم الإغريقىّ فى الهند ، ولكن مبانى شمال الهند الشرقى التى درسناها فى فصل آخر تُثْبِت أن الهندوس كانت لهم صِلات دائمة بإغريق بقطريان ، فمن المحتمل أن يكون العلم الاغريقىّ قد انتقل إليهم عن هذه الطريق ، فكان ماتَحْمِلُه من امتلاء أقدم كتب الهندوس فى الفلك ، ككتب وَراها ميهيرا الذى عاش فى القرن السادس بأجين ، من الاصطلاحات والمراجع الإغريقية .

وأسهل من ذلك بيان الكيفية التى انتقل العلم بها إلى الهند بياناً صحيحاً ، فالعرب ، كما قلنا فى فصل سابق ، كانت لهم قبل الميلاد بزمن طويل صِلات تجارية مُنَظَّمة بالهند ، و بواسطة العرب كان الغرب يَتَّصل بالشرق فى القرون القديمة ، فلما فتح أتباع محمد العالم القديم ، بعد حين ، دامت صِلَةُ إحدى الأمتين بالأخرى ،

وَيَروى مؤلفو العرب وجود كثير من علماء الهندوس فى بَلاط الخلفاء ببغداد ، ولما مَرّت الأيام فتح ورثة الخلفاء من المسلمين الهندَ تبعهم علماء فداوموا على نشر معارف العرب فيها ، ومن هؤلاء العلماء أذكر البيرونىَّ الشهير صديقَ فاتح الهند الأول محمود الغزنوىّ ، فقد ساح هذا العالم فى الهند فى القرن الحادى عشر ونشر فيها علوم العرب التى كانت مزدهرة فى ذلك العصر أيما ازدهار ، فكانت تقوم على ما وَرِثه العربُ من معارف الغرب القديم وما أضافوه إليه من الاكتشافات ، فبذلك أضحى العلم الهندوسىّ لا يكون بعد القرن الحادى عشر غيرَ علم العرب .

إذَنْ ، ليست كتب العلم الهندوسىّ ، التى تتَرَجَّح بين كتب آريابهاتا الرياضية المؤلفة فى القرن الخامس من الميلاد وكتب برهماغبتا المؤلفة فى القرن السادس وما أُلّف إلى أيامنا ، غيرَ مشتملة على سوى المعارف العلمية التى دخلت الهند بتلك الطُرُق، وأهمُّ تلك الكتب معروفٌ لدينا اليوم ، ونَعْرِف منها أن مؤلفيها لم يحققوا فى أىِّ علم أىَّ تقدم يُذْكَر ، وما كان يدور حول قِدَم علم الفلك الهندوسى ودقته من الأفكار قد أُهمل تِجاه الدِّراسات التامة فأصبحت هذه الأفكار غير جديرة بعناية أحد .

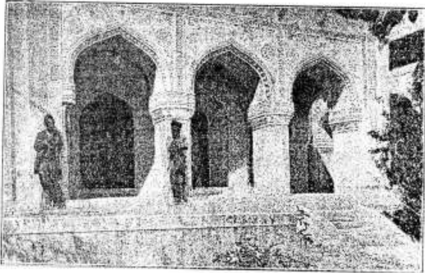
ولا تبدو القضايا العلمية الجديدة القليلة جداً ، التى تُرَى فى كتب الهندوس ، إلا على شكل لَمَحات مُبهمة عاطلة من أىِّ برهان ، ومن ذلك أن العالم الفلكىّ آريابهاتا ذكر فى القرن الخامس ، فى بضعة أسطر ، حركةَ الأرض اليومية حول محورها من غير أن يأتى بدليل ، ومن ذلك أن بهاسكراچاريه جاء فى القرن الثانى عشر ، كما يظهر ، برأى مُبْهَم حول حساب الكمية الصغرى من غير أن ينتهىَ إلى شىء .

ومما تقدم ترى أنه يجب ألاَّ يُعْزَى إلى الهندوس، على العموم، أيُّ إبداع في حقل العلوم، والهندوس، إذ لم نَقْدِر على إسناد أيّ شيء أساسيّ إليهم، نرى من غير المفيد أن نتكلم عن كتبهم العلمية التي لا نبصر فيها شيئاً لم نجده في كتب اليونان والعرب.

وضَعْف قدماء الهندوس في العلوم النظرية لم يمنعهم، مع ذلك، من أن يكونوا ذوي معارف عملية على شيء من الرُّقِيّ، وذلك كما يبدو من فن عمارتهم القديم ومن فنونهم الصناعية، فالهندوس كانوا يَعْرِفون صنع الزجاج والدباغة والتقطير واستخراج المعادن وصنع الفولاذ وتحضير بعض الأملاح المعدنية، بَيْد أن هذه المعارف العملية، التي هي وليدة التَّجْرِبة والتي نَعُدُّ مصدر غير واحد منها أجنبياً، ظَلَّت بعيدة من ميدان النظريات والمبادئ العامة بُعْداً لا تستحق معه أن تسمى بالعلم، أَجَلْ، إن التجربة قد تُعَلِّم الصبيّ استعمال العصا في إزاحة حجر واستعمال مِقْذَفَيْن في دفع زَوْرَق واستعمال بَكَرَة في رفع الأثقال، غير أن هذا الصبيّ لا يَصِل إلى مرتبة المعارف العلمية إلا حين يَعلَم أن العصا والمِقْذَف والبَكَرَة تطبيقاتٌ لمبدأ واحد.

وما أتيناه من الأحكام القاسية العادلة في علم الهندوس وآدابهم غيرُ ما أتيناه في فنّ عمارتهم وما نقوله، بعد قليل، عن فنونهم الأخرى، ولا يعتري القارئ العالم بروح الأفراد والأمم دَهَشٌ من ذلك، فوجود أمة تَفْضُل جميعَ الأمم في جميع فروع المعارف البشرية لا تراه في غير كتب التاريخ وخيال الجماهير، وضلالٌ كهذا مما يدلّ عليه الاختبار الدقيق، ولامِرَاء في أن الأمة، كالفرد، تكون بحسب مزاجها النفسيّ متفوقةً في فرع من المعارف البشرية، على أن تكون متأخرة في

الفروع الأخرى ، ولا نجد أفضلية جامعة لكلّ فرع ، وغيرُ كثيرٍ ما يبدو هـذا في الحقل الذهنيّ فَنَقْدِر على ربط فروعه في سلسلة واحـدة ، نَعَمْ إنني أرى تفوق ذوات الثُّدِيّ على الأسماك لِما أجده من كون جهازها العصبيّ أرقى من جهاز الأسماك العصبيّ ، ولكنني إذا ما قايست بين فيدياس ونيوتن وديكارت وقيصر لم أجِد وسيلة لإثبات أيّهم أفضل من الآخرين ، فالتفوق الفنيّ مستقل عن التفوق العلمي ، وكثيراً ما يناقضه ، وهو يتطلب ، بالحقيقة ، طرازَ تفكير وإحساس خاصًّا وطُرُزَ



١٢٥ ــ غوالكوندا . دقائق زخرف في مقدم مزار ملكي

نظر إلى الحيـاة والأمور خاصَّة ، فيَنْدُر أن يجتمع كلا التفوقين ، إذَنْ ، في أمة واحدة ، فالعالم يُحَلِّل الحوادث ويسعى في رُؤْيَة الأشياء كما هي غيرَ مبالٍ بجمالها وقُبْحها ، وعكسُ ذلك أمر المتفنن والشاعر اللذين يَجِدّان في تزيين الأشياء وإبدائها بعواطفهم على غير ما هي أو على ما هي في أحوال شاذَّة ، وإلا عاد المتفنن لا يكون

متفنناً وعاد الشاعر لا يكون شاعراً ، حقاً أننا لا نَعْلَم أمةً وَصَلَت إلى مثل ما وَصَل إليه الأوربيون من الرقيّ العلميّ في القرن التاسع عشر ، ولكن مما لا ريب فيه أن كثيراً من الأمم ، فضلاً عن الإغريق ، بلغت درجة من الفن أرفعَ من التي وَصَل إليها الأوربيون بمراحل ، فليس عصر البخار والكهرباء بالعصر الذي تَبْلُغ فيه الفنون ذُروتها .

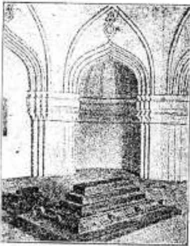
إذَنْ، يجب ألاَّ يُستنبط مما قلناه أيّة نتيجة لمصلحة الهندوس أو لغير مصلحتهم ، فليس بتقدمهم الفنيّ وحدَه أو بتأخرهم العلميّ وحدَه ما يمكن الحكم في أمرهم .

٢ — الفنون الهندوسية

خصصنا عِدّة صَفَحات من كتابنا « حضارة العرب » لإثبات أهمية الآثار الفنية في بحث حضارة أحد الأدوار ، فقلنا فيه إن المتفنن والكاتب لا يصنعان غير الإفصاح عن مشاعر الزمن الذي يعيشون فيه واحتياجاته ومعتقداته على شكل متطور فكان ماانتهى إلينا من آثار أحد الأجيال الأدبية والفنية أحسنَ صفحات التاريخ ، ومما ذكرناه هنالك أن استقلال المتفنن والكاتب ليس في غير الظواهر ، وأنهما مُكَبَّلان ، في الحقيقة ، بقيود من المؤثِّرات والأفكار والمعتقدات التي يتألف منها ما يسمى روحَ العصر القوية التي لا يستطيع أكثر الناس حرية أن يتخلص من سلطانها غير الشعوريّ ، وأنه إذا كان لكلّ جيل آدابُه وفنونه فلأن له احتياجاته ومعتقداته التي تُعْرِب عنها ، ومما ذكرناه ، أيضاً ، أن فنون أحد العروق إذ كانت ، كنُظُمه ، وليدةَ مزاجه النفسيّ فإن من المتعذر على عرق آخر أن ينتحلها من غير أن يُحَوّلها ، وأن

فنّ العمارة العربيّ لم يتحول فى الهند وحدَها ، بل تحول فى مختلف البلدان التى فتحها المسلمون فكان هذا الفنُّ أحسنَ مثال على هذه المطابقات .

ثم درّسْنا فى كتابنا « حضارة العرب » مزاجَ أحد العروق الفنيّ فوجدنا أنه يقوم على السرعة التى يضع بها طابعه الخاصّ على الفنون السابقة التى ينتحلها منذ دخوله ميدان الحضارة ، ومما ذكرناه هنالك أن بعض الشعوب تقتبس من مختلف الجهات ما يلائم احتياجاتها من غير أن تضيف إليه شيئاً جديداً وأن شعوباً أخرى تَمزُج العناصر الأجنبية بما يفيض منها فتَسِمُ هذا كله بطابعها الخاصّ وَسْماً لا يكشف تلك العناصر الأجنبيةَ معه غيرُ علمٍ راق ، وذلك كما اتفق للإغريق الذين اقتبسوا من الآشوريين والمصريين فنونهم ، وكما اتفق للعرب الذين هضموا الحضارة اليونانية اللاتينية ، وغيرُ ذلك أمر الترك وغيرهم من الشعوب العاطلة من العبقرية الفنية ، وإيضاحاً لذلك نقول إنه إذا ما قيس أقدم مساجد القاهرة ، كمسجد عمرو بن العاص ، بآخرها ، كمسجد قايتباى ، ظهرت قدرة شعب ، كالعرب ذوى الاستعداد الفنى ، على تحويل الفنون التى اقتبسها من شعب آخر ، وإنه إذا ما قيست المساجد التى أقامها الترك فى الآستانة بغيرها من المبانى البيزنطية وُجِد أنها نُسِخَت بدناءة من كنيسة أياصوفية مع إضافة بعض العناصر الأجنبية إليها إضافة تَدُلُّ على عَجْز الترك عن التحويل .



١٢٦ — غولكندا . داخل ضريح ملكى

وقد رأينا أن الهند كانت محلاً لاستيلاء مختلف الفاتحين ، فلنا أن نجد فى فنون

الهند عِدّة عواملَ أجنبيةٍ ، بيد أن الهندوس كانوا من الدّهاء ما قدّروا به على جعل ما اقتبسوه ذا طابع هندوسيّ بسرعة ، وتناول دهاء الهندوس ، أيضاً ، العمارة حيث يصعُب إخفاء ماهو مستعار فيها ، فبدا أثره واضحاً فيها ، فلم يَلبَث العمود الإغريقيُّ الذى اقتبسه متفننو الهندوس مثلاً أن زالت عنه صفته الإغريقية متحولاً إلى عمود هندوسيّ ، والهندوس إذا ما وضعتم بين أيدى متفننيهم أيةَ أداة فنية أور بيــة أبصرتم هؤلاء المتفننين يُجرِّدونها من صفتها الغربية بتجسيم بعض أجزائها وزيادة زخارف بعضها الآخر ، مع الرِّضى بشكلها العام على ما يحتمل .

وما اقتبسه الهندوس من العناصر الأجنبية فى فنّ البناء ، فقليلٌ إلى الغاية أو محدودُ المــكان على الأقل كما رأينا ، وما اقتبسوه منهــا فى الفنون الأخرى فعظيمٌ جداً ، ولــكنّ جميع ذلك لم يَلبَث أن تَغيَّر عما حوّلوه به فأصبح تمييزه متعذراً .

وإذا سألتَ عن مبدأ الزُّخْرُف الهنــدوسيّ العامّ رأيته يتّصف بزيادة المبالغة وفرط الغُلُوِّ فى الجزئيّات التى هى أبرز ما تشاهده فى آثارهم الأدبية والدينية والفلسفية ، والمرء إذا ما درس فنون الهندوس على الخصوص أدرك درجة علائق آثار أحد العروق الشاخصة بمزاجه النفسىّ وأيقن أنهــا أوضح لسان لمن يستطيع أن يُفسِّرها ، فالحقُّ أن الهندوس لو غابوا عن التاريخ كالآشوريين لــكفَت نقوش معابدهم البارزةُ وآثارُهم الفنية وتماثيلُهم لإطّلاعنــا على ماضيهم كما نعرِفه اليوم ، وأنت تَعلَم أننا توَصَّلنا ، بدراسة التماثيل والمعابد ، إلى معرفة تاريخ البُدّهية معرفةً أصحّ ممــا ورد فى الــكتب .

ظلّت الهند أغنى بلاد العالم آلافاً من السنين ، وازدهرت الفنون فيها على الدوام مهما كان نوعُ الفِتَن التى حرّكتها ، وما فتِئَت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ

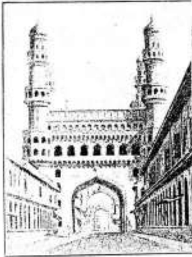
عن أدوات الهند الفنية وحليّها ونسائجها حتى صار من الممكن أن يقال إنها استنزفت مال الدنيا فى ألوف السنين ، أجَلْ ، إن الثّورات وتبديلَ الأسَر المالكة مما كان يؤدى إلى انتقال الثّروات بين حين وحين ، بيد أن هذه الثّروات كانت تبقى فى الهند فيستعملها مالكوها الجُدُد ، كأسلافهم ، فى شَيْد المبانى والقصور واقتناء النفائس وتشجيع الفنون التى هى من أغنى مصادر البلاد ، وقد رأينا فى الفصل الذى خصّصناه للبحث فى تاريخ المغازى الإسلامية الأولى درجة غِنَى الهند العظيمة ودرجة وَقْف هذا الغِنَى لأنظار الفاتحين .

واليوم صارت بلاد الهند أفقرَ بلاد العالم بعد أن كانت أغناها ، و بلادُ الهند قد هَزَلت بعد أن خضعت منذ قرن لنظام مؤدّ إلى امتصاصها ، و بلادُ الهند قد أخذت تستورد السِّلَع من برمنغم ومانجستر وغيرها من المدن الإنكليزية بعد أن كانت تملأ العالم بمنتجاتها ، والهندوسيُّ ، الذى أضحى عاجزاً عن الوقوف أمام ما تنتجه الآلات الصناعية الأوربية ، طَفِق يَعْدِل بالتدريج عن فنونه القديمة العهد داخلاً زمرة الأجَراء والزُّرّاع .

وقد بيّنّا أن فنّ البناء شَرَع يغيب عن الهند منذ رسوخ الإنكليز فيها ، وسيكون مصير أكثر الفنون الأخرى مثل ذلك بعد زمن قليل على الرغم من تشجيع بعض ذوى النفوس النَّيِّرَة ، وما انفكّ كبراء الأمراء المحليين يفتقرون فلا يستطيعون أن يَحْثُوا على التمسك بتلك الفنون ، وذلك فضلاً عن تملقهم لسادة الهند الجُدُد باقتنائهم إما تُنْتِجه إنكلترة ، والسائح الأوربىّ ، الذى يدخل قصور الهندوس الفنية ، كقصر مهارنا بأوديبور ، يَقِف مشدوهاً حينا يشاهد فيها أسقاطَ الأمتعة الرخيصة الكريهة التى تَخْرُج من الأسواق الإنكليزية بجانب عجائب الهندوس الفنية .

وأَنْدَع الآن تلك القواعد الكُلِّيَّة الضرورية لِتَفَهُّم الفنون الهندوسية باحثين في أهمها باختصار :

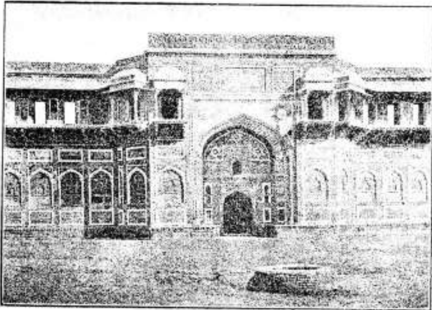
النحت . — لا تجد أمةً ، كالهندوس، قد اتخذت النحت أداة للزينة ، فما في معابد الهندوس ومزاراتهم من التماثيل والنقوش البارزة يُعَدُّ بالألوف ، ويَحارُ المرء تجاه سكوت الكتب الباحثة في فنون الهندوس عن الوثائق الخاصة بالنحت ، ونقصٌ كهذا مما أشار إليه فيرغوسن ، منذ زمن طويل ، من غير أن يفكر في تلافيه ، ولا نستطيع أن نَطَّلِع على النحت لدى الهندوس بما في بعض كتب الأساطير الهندوسية من الصور الرديئة المطبوعة بألواح الحجارة ، والذي يظهر أن صانعي تلك الصور اختاروا أردأ الأمثلة فَنَجَمَ عن ذلك اعتقاد الأوربيين، على غير حق ، أن النحت الهندوسي متأخر



١٢٧ — حيدرآباد . شهير منار والشارع الكبير (لا يكاد تارخ وجود حيدرآباد يزيد على ثلاثة قرون ، وتبدو مدينة الهند هذه ذات طابع القرون الوسطى الإسلامي إلى أبعد حد مع ذلك ، وتشرف هذه المدينة ، وهي التي أنشئت في أوائل القرن السابع عشر ، على شارعها الكبير ، ويتألف من حناياها قوس نصر مطلة على جميع الشارع ، ويبلغ ارتفاع الحنية الكبرى ١٥ متراً ، ويبلغ ارتفاع كل واحدة من المناور ٥٦ متراً)

إلى الغاية ، فأطمعُ ، والحالة هذه ، أن يبدو للقارئ من صور التماثيل التي نشرناها في هذا الكتاب خَطَلُ ذلك الاعتقاد ، فقد وجدتُ ، بجانب ما في بُهُوونيشْوَر وسانجي وإيلورا وأجنتا وبادامي وكهجورا وكُنبها كونم الخ . من آثار الفن الرديئة، آثاراً فنية رائعة لا يقدر رجال الفنّ بأوربة على إنكار أهميتها ، وما في أوديغيري

وبهارت وسانچی ومهابلیپور من النقوش البارزة التی نشرناها فی هـذا الـكتاب يُعَدُّ فی كل بلد من أرقى الآثار لا ريب .



١٢٨ ـ أغرا . مقدم القصر الأحمر فی القلعة (تبدأ بهذه الصورة صور مبانی العصر المغولی أی مبانی الهند الإسلامية منذ القرن السادس عشر ، ويعزو بعض المؤلفين إنشاء القصر الأحمر إلى الملك جهانكير ، ويرى كثيرهم أن هذا القصر أقدم من زمن ذلك الملك بقرن واحد ، ويلوح لنا أن هذا القصر هو أقدم مبانی المغول بأغرا ، ونرى أنه شيد على حسب النماذج الهندوسية التی هی أقدم منه ، فهو لا يختلف عنها إلا بما أضيف إليه من الأقواس الفارسية .)

وإذا نظرتَ إلى تلك التماثيل من الناحيـة التشريحيـة وجدتها غير مُرْضية وأبصرت فيها الأدلة على روح المغالاة العزيزة على الهندوس فترى الصدور والأوراك فی تماثيل النساء نامية نُمُوًّا لا تشاهد مثله فی الطبيعة ، وترى الآلهـة ذات الأذرع الأربع مما يَستكرِهُه الأوربیّ ، غير أن أكثر هذه الصور ذوات حَيَوِيّة شاملة للنظر ، فهی ، من هذه الناحية ، على خـلاف تماثيلنا المتصلبة الـكئيبة المصنوعة فی القرون

الوسطى وعلى خلاف أكثر ما فى مصر ، وفى عالم الآلهة والأبطال والإلاهات التى تملأ المعابد أكثرُ الأطوار حياةً والأوضاعِ تنوعاً ، فيُخيَّل إلى الناظر إليها أنها توشك أن تنزل من قواعدها لتتقدم نحوه ، نَعَمْ ، إن المِنْقاش الإغريقىّ أدقّ وأضبط ، ولكنه ، فى الغالب ، أبرد .

ومن غير المفيد أن نُسْهِب فى القول عن التماثيل ، فعندى أن عَرْض صورة صادقة لها أفضل مما يقوم به نَقَدَةُ الفن ، فلعلّ القارئ الذى ينظر إلى صُوَر التماثيل التى نشرناها فى هذا الكتاب يصبح ذا رأى صائب فى الموضوع .

والباحث حينما يدرس صُوَر التماثيل التى اشتمل عليها هذا السِّفْر ويُدَقِّق فى التواريخ التى ذُكِرَت تحتها يرى ، لا ريب ، أن قيمة هذه التماثيل ليست بحسب أزمنة صنعها ، فبينما يَشْعُر برَوْعَة أقدمها ، أى برَوْعَة التى أقيم منها فى بهارت وسانجى منذ ألفى سنة تقريباً ، يرى رداءة ما أقيم منها فى جبل آبو فى القرن العاشر وحسنَ ما أقيم منها فى كهجورا فى القرن العاشر أيضاً ، وفيما أقيم منها فى معابد جنوب الهند حديثاً ما هو جميل وما هو كريه . فالحقّ أنك لا تجد أثراً ظاهراً للتطور فى فنون الهند كما أنك لا تجد أثراً ظاهراً للتطور فى آدابها .

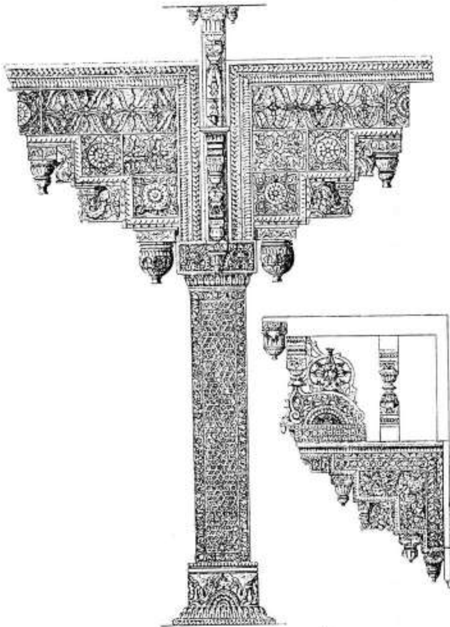
التصوير . — تَنْدُر التصاوير القديمة فى الهند مع كثرة الآثار القديمة المنحوتة فيها ، ولا تجد من التصاوير فى الهند غيرَ ما هو على حيطان معابد أجنتا التى أُنشئت تحت الأرض فى القرن الخامس من الميلاد[1] ، ولا تَنَاظُرَ فى هذه التصاوير وإن

(١) لم تنقلت هذه التصاوير الممتازة المرسومة على الجدران من يد المرممين المحترفين مع تحديها الزمن ، فما عليه هؤلاء المرممون من قلة الحذق فى طلائها أسفر عن إتلاف لم تسفر عن مثله عشرة قرون ، فلما زرتها وجدت الطلاء يتقشر من كل ناحية جاذباً التصوير معه فرأيت أجزاء هذا التصوير تتراكم على الأرض .

أتقن رسمها وكانت تُشِعُّ حياة كما هو ظاهر من الصور التي نشرناها لها ، وهـذه التصاوير أفضل من التصاوير البيزنطية الباردة ، ولا شكّ في أنه لم يكن في أوربة حين صنعها رَسّام قادر على وضع مثلها .

ومن دواعي الأسف أن ضاعت التصاوير التي رُسِمَت في تاريخ متأخر ، وما في أقدم المخطوطات ، التي لا تَرْجِع إلى ما قبل المغازي الإسلامية ، من التصاوير لا يُجيز لنا أن نفترض أن الهندوس أصبحوا أرقى من أسلافهم بعد زمن ، وتخرّج الهندوس في العصر المغولي على رَسّامي الفُرس فكان ما رسموه ابتدائياً عاطلاً من التناظر والانسجام مع ما فيه من دقة ، فالحقُّ أن الهند بتصاويرها وآدابها ظلّت في حال من التطور مماثلٍ لما كانت عليه أوربة في القرون الوسطى .

الفنون الصناعية (صنع الخشب والمعادن والحجارة الثمينة ، الخ) . — يُقْصَد بكلمة « الفنون الجميلة » ، على العموم ، فنُّ التصوير وفنُّ النحت وفنُّ العمارة ، ويُقْصَد بكلمة « الفنون الصناعية » بعضُ الصنائع ذاتِ الفائدة العامّة كالصِّياغة والنِّجارة والترصيع وما إلى ذلك من المِهَن التي تقوم على بعض المناهج الآلية ، بَيْد أن هذا التصنيف إذا كان ملائماً لما في الغرب الذي يتدرّج إلى العمل الآليّ فإنه ليس كذلك بالنسبة إلى صنائع الشرق التي تقوم على حِذْق العامل ، فما لا جدال فيه أن الفنّ مستقلٌّ عن تطبيقاته ، فتراني أعلم أن صنع إناء مُرَصَّع أو مِقْبَض خِنْجَر قد يتطلب من الفنّ والخيال ، مثلاً ، أكثر مما يتطلبه إنشاء بناء ذي خمس طبقات أو إنشاء محطة خطّ حديديّ ، فإذا اتخذتُ كلمة « الفنون الصّناعية » عنواناً للفنون الحقيقية فلمُجاراة التقسيمات التي اصْطُلِح عليها .



١٢٩ ــ أغرا . دقائق عمود حجرى منقوش في القصر السابق

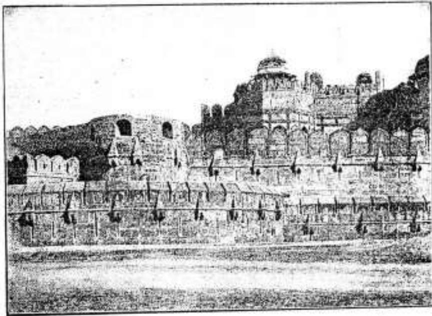
وما فى المُتْحَف الهندىّ بلنــدن من الآثار يجعل دِراسة الفنون الصناعيــة الهندوسية أمراً سهلاً ، وبلغت دِراسة هــذه الآثار من الكمال ما لا يُفيد معــه تفصيل موضوع قتّله بِيْرد وُود وأُجنالتى وكبلينغ وغيرهم من العلماء بحثاً وتمحيصاً، فنحن ، إذ نحيــل القارئ إلى كتب هؤلاء للوقوف على وصف تلك الآثار وصفاً صناعياً ، نقتصر فى هذا الكتاب على البيان الإجمالىّ مُتمِّين له بِصُور مقتبسة مما فى المُتْحَف الهندىّ ومما جلبناه فى أثناء سياحتنا فى الهند من الأدوات(١) .

ومن أكثر صِناعات الهنــد استعمالاً منذ أقدم الأزمان أذكر صِناعة المعادن فأضعها فى الصف الأول ، وعلى ما أدّت إليه الحروب والمغازى الكثيرة التى كانت الهند مسرحاً لها ، لا ريب ، من نَدْرَة الأدوات القديمة لا نزال نملك من هــذه الأدوات بعض ما صُنِــع من المعدن قبيل الميلاد ، كالصُّندوق الذَّهبى الذى وُجِد داخل قُبة بُدّهيّة بوادى كابُل مع نقود يُسْتَدلّ منها أنه أُنشىء حوالَىْ منتصف القرن الأول قبل ظهور المسيح فنشرنا صورته فى هذا الكتاب ، فهذا الصُّندوق قد صُنِع، كأدوات تلك البُقعة ، على حسب الفنّ اليونانىّ الهنــدوسىّ الذى أوضحنا أصوله فى فصل آخر .

وحازت البِقاع المجاورة لكابُل ، ككشمير والپنجاب، قَصَب السَّبْق فى صِناعة الأدوات الذهبية والفِضية كما تدلّ عليــه النماذج التى نشرنا صُوَرها فى هذا السِّفْر ، وفى الهند يصنع القوم أدوات الذهب والفِضة والنحاس والبرونز بما يقضى بالعجب ، وفى الهند بعضُ المناطق ، كتانجور فى جنوب الهنــد ، اشتهر بصِناعة البرونز المُرَصَّع بالنحاس الأحمر والفِضة فنشرنا نَمُوذَجاً مُلَوَّناً لها .

(١) أردنا ألا نقطع سلسلة صور المبانى فوضعنا صور الأدوات الفنية بعدها .

والقومُ فى الهنـد ، إذ كانوا لا يستعملون القاشانىّ ولا الخزفَ المطلىّ بالميناء فى أمورهم المنزلية راغبين فى البرونز والنحاس ، تجِد صِناعة هذين المعدنين عندهم راقية، فتُبْصِر حُسْناً ، أحياناً ، فى بعض الآنية المستديرة المُخَصَّرة فى أعلاها فتَصْلُح لحمل الماء وحفظه ، وما صُنِـع من هذه الآنية قديماً خيرٌ مما يُصْنَع اليوم فتراه اليوم نادراً إلى الغاية ، وفى المُتْحَف الهندىّ بلندن من هذه الأوانى ما يَرْجِـع تاريخه إلى القرن الثانى من الميلاد فصَدَر عن كولو مشتملاً على أطوار من حياة بُدَّهة .



١٣٠ — أغرا . منظر القلعة المنولية الخارجى (بدأ الملك أكبر بإنشائها فى سنة ١٥٧١)

ولم يقتصر حِذْق الهنـدوس على صِناعة الذهب والنحاس والبرونز وحدَها ، بل كانوا ماهرين فى صِناعة الحديد أيضاً ، وذلك كما يظهر من العَمُود الحديدى الشهير الذى أمر بصنعه الملك دِهاوا فيُرَى الآن فى مسجد قطب القديم بدهلى ، فهذا العمود

قد أُنشىء في القرن الرابع من الميلاد ، ولم يَسْتَطِع الأوربيون أن يصنعوا ما هو بضخامته إلا منذ زمن قريب بفضل ما انتهَوْا إليه من الوسائل الكثيرة التعقيد .

وصناعة ترصيع المعادن المعروفة بصناعة التكفيت ، وصناعةُ تلبيس المعادن تلبيساً جُزْئياً أو ترصيعها بالميناء الكثيف أو الشَّفّاف[1] مما زاولته الهند منذ زمن طويل بإتقان لم يُوَفَّق الأوربيون لمثله قطّ .

وصناعة الحُلِيّ في الهند ، وإن لم تُنْتِج ما يلائم الذوق الأوربيّ ، تساوي بدقتها أهمّ ما يُصنع في أوربة لا ريب .

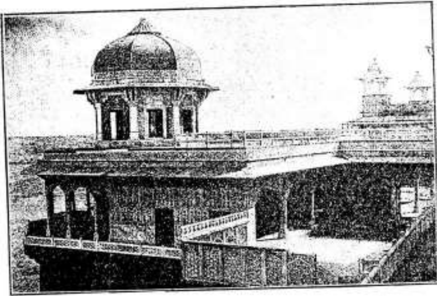
ويصنع الهندوس الزجاج ويَنْحِتون الحجارة الكريمة ، وفاق الأوربيون الهندوسَ في ذلك ، لا في صناعة العاج والخشب المُرَصَّع .

وتُعَدُّ الأسلحة الفولاذية من أهمّ ما تُنتجه الصِّناعة الهندوسية ، لا من حيث غِنَى زُخْرُفها وجمال ترصيعها وحدّها ، بل من حيث نوعُ فولاذها الذي طَبَّقت شهرته القرون القديمة بأجمعها أيضاً ، وعند بِرْدوُود أن نِصال دمشقَ الدائمةَ الصيت كانت تُصنع من الفولاذ الهندوسيّ ، وامتدح كُتّاب الإغريق فولاذَ الهند ، وكان يُستحصل أجوده بالحديد المُغْنَط .

ولم يلبث الهندوس أن انتحلوا جميع الصنائع التي عَرَفتها الأمم الفاتحة للهند فأتت بها من بلاد فارس أو من أوربة فحَوَّلوها كما أشرت إلى ذلك آنفاً ، ولا يزال القوم

(١) تأتي من الأدوات المعدنية المكفتة أو المطلية بالميناء ومن الصناديق الخشبية المحفورة ولا سيما صندوق ميسور الذي استوحى صانعو وجوهه تماثيل معبد هلابيد أهم الأدوات التي عرضت في ساوث كنسينغتن سنة ١٨٨٦ .

يزاولون فى أغرا صناعة ترصيع الرُّخام الأبيض ، التى هى من أصل إيطالى ، بالحجارة الثمينة كالزبرجد والفيرُوز واليَصْب والعقيق والجَمَشْت واللاَّزَوَرْد الخ . وفى أغرا بلغت هـذه الصِّناعة درجة رفيعة أيام ملوك المغول ، فـكان هؤلاء الملوك يُلبِسون قصورهم تلك الزخارف ، ويمكن القارىء أن يدرك تأثير ذلك فى النفس من صورة داخل قصر ملوك المغول بدهلى .



١٣١ ــ أغرا . قبة القصر المغولى الرخامية فى داخل القلعة (القرن السادس عشر من الميلاد)

ولا تزال الهنـدُ تصنع النُّسُج الحريرية والبُسُط والشالات بإتقان لم يتفق مثله للغرب إلا بمشقة ، بَيْد أن تقليد الأور بيين لهذه المنتجات الفاخرة و بَيْعَهم ما يُقلِّدُونه بثمن بَخْس مما يُنْذِر بأفولها فى وقت قصير .

ومع أن القوم يمارسون صناعة الخزَف فى كلِّ مكان بالهند فإنهم دون الأور بيين فيها ، وتَجِد ، مع ذلك ، رَوْعَةً فى كثير من مصنوعاتهم الخزفية الملونة .

وذاع فنُّ ستر المباني بالزخرف المطلىّ بالميناء فى شمال الهند الغربى منذ الفتوح الإسلامية ، وأصلُ هذا الفن فارسىّ كما تشهد به أطلال أقدم القصور ببلاد فارس ، وقد استُبْدل طَلْىُ الجصّ بهــذا الفن فى الوقت الحاضر كما تشهد بذلك الضرائحُ الملكية المصرية فى غولكوندا مثلاً ، وليس فى طِراز الزينة هذا ماهو متين مع أن الخزف المطلىّ بالميناء لا يَفْنَى ، وما تراه فى جميع الشرق من سَتْر المبانى بالخزف المطلىّ بالميناء ، كما فى جامع عمرَ بالقدس و بعض الأبنية بلاهور وقصر غواليار الخ ، من أروع ما يستوقف النظر ، فالمرء إذا ما أبصر من بعيد مُقَدَّمَ تلك المبانى المختلفة الألوان كقَوْس قُزَح ظَنّ أنه أمام قصر خيالىّ شاده الجنّ ، ولا شىء يدل على فساد تربيتنا المدرسية التقليدية أكثرُ من عَطَلنا من مهندس أوربىّ يحاول اقتباس أسلوب الزُّخْرُف العجيب هذا فى قصر من قصور الغرب .

هنا نَخْتِم بحثنا فى طِراز بناء الهندوس وسائر فنونهم ، فهذه الفنون ، التى نَبَتَت فى شعب من الشعراء والمتفننين قوىّ الخيال والمشاعر ضعيف العقل ، أسْفَرَت ، ذاتَ حين كما فى منام سحرى ، عن عالَم من القصائد العظيمة والنفائس الباهرة والخيالات الرائعة .



١٣٢ ــ أغرا . داخــل مسجد اللؤلؤ (أنشئ سنة ١٦٤٨) (يبلغ ارتفاع العمود إلى أســفل التاج نحو ثلاثة أمتار و ٦٠ سنتيمتراً) (وجميع داخل المسجد من الرخام الأبيض ، وفيه مكتوب « لم ير مثله بناء منذ بدء العالم »)

لن يعود الإنسان إلى صنع مثل تلك الآثار العجيبة التى هى وليدةُ ماضٍ يتوارى

مقداراً فقداراً فى ضَبَاب الأجيال ، فيجب علينا أن نحتفظ ببعضها على الأقل ، وإن تنازعَ الجيلِ الحاضر المادىّ فى سبيل الحياة تنازعاً قاسياً لا يترك للإنسان مجالاً يَرْجِع به بصرَه إلى تاريخ أجداده فى بعض الأحيان ، فلْنَتعلم كيف نحترم هـذا التاريخ ، فتلك الضرائح والمحاريب الصامتة فى الوقت الحاضر وتلك التماثيل الطاعنة فى السِّنِّ وتلك النقوش البارزة الصائرة إلى الخراب فيكسرها المهندس بمِعْوله مستخفاً ليملأ الخنادقَ فيمدّ عليها خطاً حديدياً هى وثائقُ ماضٍ صدرنا عنه ولا نلبَث أن نَصير إليه .

البَابُ السَّادِسُ

الهِنْدُ الحَدِيثَة

المُعْتَقَدَاتُ وَالنُّظُمُ وَالطَّبَائِعُ وَالعَادَات

الفصل الأول

مزاج الهندوس النفسي

كيف يمكننا أن ننفذ في مزاج الهندوس النفسي – فائدة البحث في الأمثال والقصص الشعبية – هذه الآثار هي صدى تجربة الشعب – (١) القدر – مذهب الهندوس في القدر – (٢) الخلق – ثباته عند الهندوس – (٣) الحياة والهرم والموت – (٤) عوامل سير الإنسان – ترجع هذه العوامل إلى الخوف والطمع والجوع والحب – (٥) النساء – قسوة كتب الهندوس على النساء – خبثهن وعدم ثباتهن – (٦) العلم والجهل – الهندوس يضعون العلم فوق كل شيء – احتقارهم للجهل – (٧) الغنى والفقر – أهمية الغنى – الموت عند الهندوسي خير من الفقر – (٨) السلوك الواجب في مختلف أحوال الحياة – مبادىء الأخلاق العامة – نتائج الفضائل والرذائل – سلوك الإنسان نحو الناس – كيف يتودد إليهم – فائدة المداهنة والاحتراز – الصلات وتنا تجها – (٩) السياسة – سلوك الملوك نحو رعاياهم – وزراؤهم وعمالهم – وسائل انتصارهم على أعدائهم – (١٠) مصدر الاختلاف بين تعاليم الكتب الهندوسية وتعاليم الكتب الأوربية – الأدب عند الهندوس مستقل عن الديانة – العلائق بين الديانة والأدب في أوربة .

رسمنا ، في الفصل الذي خصصناه من هذا السِّفْر للبحث في صفات أهمّ عروق الهند الخُلقية والعقلية المشتركة ، خطوطَ أخلاق الهندوس التي نشأت عن وَحدة البيئات والنُّظُم والمعتقدات ، وبَيّنّا في الفصول التي درسنا فيها تاريخ الحضارة نُضْجَ هذه النُّظُم والمعتقدات البطيء في غضون الأجيال .

والآن نتقدم في التحليل لتَفَهُّم مزاج الهندوس النفسيّ فندرس الهندوسيّ في

مختلف أحوال حياته وفى تفكيره حَوْلَ أحد المواضيع وفى نظره إلى الحياة وفى مبادئ سيره ، و إن شئت فَقُلْ باطنه .

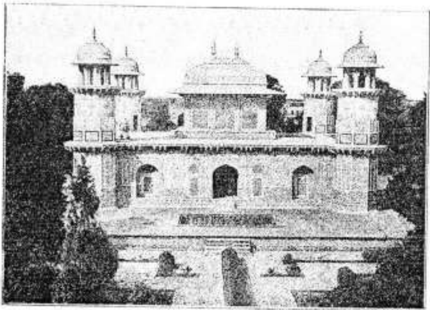
والحقُّ أن ذلك الباطن يبدو لنا من دراسة الطبائع والنُّظُم والعادات ، بَيْدَ أن الهندوسيّ دَوَّن فى كتبه منذ زمن طويل نتائج تجاربه فى الحياة ، والحقُّ أن أخلاق الشعب تتجلى فى جميع آثاره ، بَيْدَ أنه يجب البحث عنها فى آثاره الأدبية على الخصوص .

وهذا القول لا يؤدى ، مع ذلك ، إلى الهدف الذى نسعى إليه الآن ، فالآثار الدينية والفلسفية تَصْدُر ، على العموم ، عن مؤلفين تَعَوَّدُوا العيشَ فى عالم خيالىّ بعيد من العالم الحقيقى ، أَجَلْ ، إن القصائد الحماسية الكبرى وليدةُ الهَوَى الخالص الذى نَبَتَ فى الأدمغة الهائجة المُرَدِّدة لصدى الأزمنة الناشئة فيها ، ولكنْ مع كبير تحريف ، ما أبدت لنا أشخاصاً مُغَالِين فى مشاعرهم وأعمالهم ، وحَقًّا أن من الممكن أن يُستنبَطَ منها الشىء الكثير أحياناً ، ما دام الشاعر لسانَ العالَم الذى يحيط به ، ولكنْ على أن يكون ذلك مع تَحَفُّظ كبير .

ومن حسن الحظ أن بَقِيَ لدينا مصدرُ معارفَ خيرٌ من ذلك مُعَبِّرٌ عن أعمال الجماعة التى ظهر منها ، وأقصِد بذلك الأمثال القومية والأقاصيص الشعبية ، وليس من غير سبب أن قيل إن الأمثال هى صَدَى تجارب إحدى الأمم ، فالأمثال تُعَبِّرُ بإيجازها وتَحَلُّلِها القاسى عن أخلاق العرق الذى نشأت عنه وعن طبائعه وأفكاره ، والأمثال تُكَرَّرُ فى كلّ مكان لملاءمتها لروح أبناء هذا العرق .

وللشعب الهندوسيّ القِدْحُ المُعَلَّى فى هذا النوع من الآداب ، فتَجِد فى أساطير الهندوس وأقاصيصهم الشىء الكثير من الأمثال ، ولا تَجِد فى أمثال الهندوس

مثل ما تُعاب به آثارهم الأدبية الأخرى من التَّرَدُّد والغموض ، وكيف تكون هذه الأمثال مبهمةً مذبذبة وهى تُعَبِّر عن الأفكار العامة تعبيراً شعبياً ؟ والأمثالُ لن تكون شعبية إلا إذا كانت واضحة موجزة معاً ، والأمثالُ لن تصبح أمثالاً إلا بعد أن تُحَقِّق ألفَ مرةٍ وتتداولها الألسنُ طويلَ زمنٍ فتستقرَّ على وجه مُعَيَّن .



١٣٣ ـ أغرا . مزار اعتماد الدولة (تم بناء هذا الأثر سنة ١٦٢٢ ، وأنشئ من الرخام الأبيض المرصع بالحجارة الثمينة ، ويبلغ ارتفاع مناوره نحو خمسة عشر متراً ، ولا يمكن قياسه بتاج محل من حيث أبعاده ، ونرى أنه يفوقه ببدع أشكاله وذوق زخرفه) .

إذَنْ ، نَتَّخِذ الأمثال دليلاً لنا فى دِراسة الروح الهندوسية ، ولن يَعْدِل هــذه الأمثالَ مايَدُور حول هذه الروح من المباحث ، فالباحث مهما يكن حُرًّا لا ينظر إلى الأمور إلا من خِلال الأفكار التى ثبَتَت فيه بفعل البيئة والوِراثة والتربية .

ويقوم عملنا على اقتطاف ما يدور، كثيراً، حول موضوعات الحيـاة المعتادة، وعوامل السَّيْر فى مختلف الأحوال، ومبادىء الأخلاق والسياسة الخ. وذلك من كتب الهندوس، ولا سيما من البَنْچ تَنْترا والهِتُوپَديشا، ثم تصنيف ذلك فى مطالبَ خاصة، ونحن لم نقتطف من ديوان مهابهارتا الحماسىّ والـكتب الدينيـة والاجتماعية كالويدا ومانَوَا دَهرماشاسْترا الخ. غيرَ ما يَقرُب من الآراء الشعبية التى جاءت فى البَنْچ تَنْترا والهِتُوپَديشا فيُثْبِت قِدَم الآراء التى قيلت فى بعض الموضوعات، ومن هذا أن الأمثال الغريبة التى وردَت فى البَنْچ تَنْترا حول النساء أيَّدَتها تأملات المشترع الرزين مَنُو فى دُسْتُوره الدينىّ الذى ظلّ شريعة الهند العليا عِدّة قرون فَدَلّ ذلك على أن تلك الأمثال شعبية، فالحقّ أن إحدى الحقائق إذا ما صيغت فى قالَبِ مَثَلٍ أو حـكمة أمكننا أن نَجْزِم بأنها نَضِجت فى أجيال كثيرة.

وقد اقتصرنا على ما تقدم ليـكون مقدمةً للمختارات التى نَرى تَجَلِّىَ الروح الهندوسية فيها، وقد صَنَّفْنا هذه المختارات فى المطالب الآتية:

المصير — الخُلْق — الحياة والهرم والموت — عوامل سَيْر الإنسان — النساء — العلم والجهل — الغِنَى والفقر — السلوك الواجب فى مختلف أحوال الحياة — مبادئ الآداب العامة — السياسة.

١ — القــــدر

إذا جاوزتَ بِضْـع دَرَجات من دوائر الطول وجدتَ جميع الشرقيين من القائلين بالقَدَر، وهذه الجَبْرِيّة مستقلةٌ عن دِيانة الشرقيين ما دمتَ ترى بينهم أمماً

تدين بمختلف الأديان كالنصرانية والإسلام والهندوسية الخ . وهذه الجبريةُ ، وإن لم تُدَوَّن في العقائد الدينية على الدوام ، تُبْصِرُها مطبوعة في النفوس ، والشرقيون جميعهم مُشْبَعون من المعتقد القائل إن الحوادث تسير على سُنَن ثابتة لا تنفع أمامها إرادة الإنسان ، فإذا سِرْتَ من الروسى الذى ينحنى أمام القَدَر قائلاً : «ما العمل ؟» فبلغتَ المسلمَ الذى ينحنى أمام القَدَر أيضاً فيقول : « هذا مكتوب ! » فوصَلْتَ إلى الهندوسيِّ القائل : « لا يأتى ما لا يجب أن يأتى ، ويأتى ما يجب أن يأتى » وجدتَ جميع الشرقيين يَعُدُّون القدر سيداً مهيمناً ناظماً لأعمال الناس بحكم الضرورة ، وإليك أهمَّ ماوَرَد فى كتب الهندوس عن ذلك المذهب من النصوص التى لا تُبْطِل حركتَهم كما أن جبريةَ العرب لم تَحُلْ دون فتحهم للعالم القديم .

« لا يأتى ما لا يجب أن يأتى ، ويأتى ما يجب أن يأتى ، فنى هذا تِرْياق سموم الهموم ، فلماذا لا نستعمله ! » (هِتُوپَدِيشا)

« كَتَبَ القدرُ على جباهنا سطراً من حروف ، فلن يَقْدِر أذكى العلماء أن يمحوه » (پَنْچ تَنْترا)

« قد يسقُط الإنسان من فوق جبل ويَغْرَق فى بحر ، ويرتمى فى نار ، ويُلاعِب الأفاعى ، ولكنه لن يموت قبل أجله » (هِتُوپَدِيشا)

« النجاح فى الأعمال منوط بما يأمر به القَدَر ، وهذه الأعمال إذ نُظِّمَت بأفعال الناس فى حَيَوَاتِهم السابقة وبسلوكهم الراهن وأوامرُ القَدَر إذ كانت سِرًّا وَجَب على الإنسان أن يعتمد على وسائله فى السير . » (مَنُو)

« على الإنسان ألا يَكُفَّ عن العمل ولو فَكَّر فى القَدَر ، فلن تَسْتخرِج سِيْرجاً من سِمْسِمَة بغير عمل » (هتوپديشا)

٢ — الْخُلق

قوةُ المُيُول الطبيعية التى يَنْجُم عنها ثبــات الْخلق سهلةُ الإدراك فلم تَغِب عن بال الهندوس ، فهى تنتقل إلى الإنسان بالوراثة فيأتى بها عند وِلادته ، ولا تُؤدِّى البيئة التى يعيش فيها الإنسان إلى تعـديل مظاهر خُلقه ، ولا تَجِد اليومَ ما يستلزم التغيـير فى ملاحظات الهندوس الآتيـة عن الْخلق إلا القليل :



١٣٤ — أغرا . دقائق زخرف إحدى مناور البناء السابق (يبلغ ارتفاع المنارة نحو ١٥ متراً)

« لا يُغيِّر الأمر الطبيعىَّ بالمَشْوَرة ، فالماء الحارُّ يعود بارداً » (پَنْچ تَنْترا)

« لو أصبحت النار باردة وصار القمر مُحْرِقاً لأمكن تبديلُ طبيعة الناس فى هذه الدنيا » (پنچ تنترا)

« يجب اختبارُ المُيُول الطبيعية وحدَها ، لا الصفاتِ الأخرى ، فالواقع أن الطبيعىَّ يَغْلِب غيره من الصفات ويتبوأ مكانه فى الرأس » (هِتُوپَدِيشا)

« يَصْعُب على الإنسان أن يتغَلَّب على غريزته الطبيعيـة ، فلن تستطيع أن تَحُول دون قرْض الـكلب للأحذية ولو جعلته مَلِـكاً . » (هِتُوپَدِيشا)

« يَدُلُّ فُقْدان العواطف النبيلة وغِلْظَة القول والقسوة ونسيان الواجبات على رجال وُلِد من أمّ جديرة بالاحتقار » (مَنُو)

« يَرِثُ الإنسان الذى هو من أصل ساقط طبيعتَه السيئة عن أبيه أو عن أمه أو عن كليهما ، فلن يستطيع إنسان كَتْم أصله . » (مَنُو)

٣ — الحياة والهَرَم والموت

يشتمل هـذا المطلب على آراء عامة فى الحياة وإدراك السعادة والهَرَم والموت ، وبعضُ هـذه التأملات قاتمٌ ، ولكن الحياة ، كما يبدو ، قد صُوِّرَت فيها تصويراً حقيقياً بعيداً من التفاؤل والتشاؤم فجُعِلَت أمراً لا يُستفاد منـه غيرَ ثانية ، فيَجْدُر بالإنسان أن يُسْرِع فى التمتع به ، والحياةُ على مافيها من البُطْلان تؤَلِّف النعيمَ الأعلى الذى يرى حكماء الهندوس أن يُضَحَّى بكلِّ شىء فى سبيله .

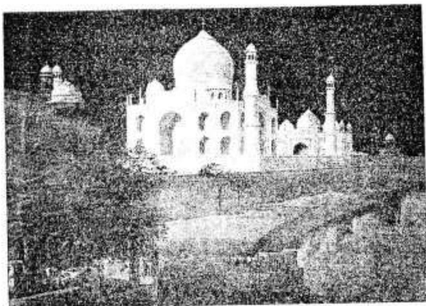
« يكون قارئاً لكلّ شىء عالِما بكلّ شىء ممارساً كلّ شىء من يرغب عن الرغائب ويعيش بلا أمل » (هِتُوبَدِيشا) .

« من لم يحزنْ فى الضَّرَّاء ، ولايفرحْ فى السَّرَّاء ، ولايَخَفْ فى البأساء كان تلـكما العوالمِ الثلاثة ، فقلما تَلِد أمٌّ ولداً كهذا .

« الشبابُ والجمال والحياة والثَّراء والقوة والاجتماع بالأحباب أمورٌ زائلة ، فيجب ألا تُزْعِج روح العاقل » (هِتُوبَدِيشا) .

« يجب على العاقل أن يُفَـكِّر فى العـلم والغِنَى كما لو كان غَيْرَ مُعَرَّض للهرم والموت ، وعليه أن يمارس الفضيلة كما لو كان الموت مُمْسِكاً بشعوره » (هِتُوبَدِيشا) .

« من ذا الذى لا يظهر طويلًا إذا نظر إلى تحته ، فالذين ينظرون إلى فوقهم فقراء على الدوام » (هِتُو پَدِيشا) .



١٣٥ — أغرا. تاج محل. (بدأ الملك شاهجهان بإنشاء هذا الأثر المبنى من الرخام الأبيض المرصع بالفسيفساء حوالى سنة ١٦٣٠ ، وذلك ليكون ضريحاً لإحدى نسائه ، وقام ببنائه عشرون ألف عامل فى ١٧ سنة ، ويعد أجمل مبانى الهند ، وأرى أنه بولغ فى شهرته ، فشكله على الطراز الفارسى مع قليل من الزخرف الهندوسى ، وهذا إلى أنك تجد شبهاً بينه وبين المبانى السابقة كزار همايون الذى نشرنا صورته « رقم ١٤٥ »)

« تشرب الأفاعى الهواء وهى غير ضعيفة ، وتأكلُ الفيول البَرِّيَّة الكلأ اليابس فتصبح قوية ، ويعيش أكابر الزُّهَّاد بالجذور والفواكه ، فالقناعة أعظم ثَرْوَة للإنسان » (پَنْچ تَنْترا) .

« مَثَلُ من يقضى أيامه غيرَ متمتع بماله وغيرَ مُنْعِم بشىء على الآخرين كمَثَل

الـكِير[1] ، فهو يتنفس من غير أن يعيش » (هِتُو بَدِيشا) .

« ماهى الفضيلة ؟ هى الشعور مع جميع المخلوقات ، وما هى السعادة ؟ هى الصحة عند أهل الدنيا ، وما هى المَحَبَّة ؟ هى الإحساس الصادق الطبيعىّ ، وما هى المعرفة ؟ هى الإدراك » (هِتُو بَدِيشا) .

« العقلاء لا يَبْكون ما هَلَكَ ولا ما مات ولا ما ضاع ، فبهذا يختلفون عن المجانين » (پَنْچ تَنْترا) .

« لِيُتْرَكْ الفردُ للأُسرة ، والأُسرةُ للقرية ، والقريةُ للبلد ، والأرضُ لنفسها » (پَنْچ تَنْترا) .

« على العاقل أن يحافظ على حياته ولو فى مقابل ولده وزوجه ، فالأحياء إذا ما صانوا حياتهم وَجَدوا كلّ شىء » (پَنْچ تَنْترا) .

« أيبقى ما يُنْتَحب من أجله إذا عاد الجسم المُرَكَّب من خمسة عناصر إلى البِنچتوَم[2] ودخل المكان الذى خَرَج منه ؟ » (هِتُو بَدِيشا) .

٤ — عواملُ سير الإنسان

ليس عند حكماء الهندوس رأىٌ عالٍ فى عوامل سير الإنسان ، فالخوف والطمع والجوع والحبّ أهمّ تلك العوامل ، والغَلَبَة للخوف بين تلك العوامل ، فلذلك كانت العقوبة لدى مَنُو النَّاظمةَ العُليا لكلّ مجتمع والقادرةَ على مَنْع الإنسان من الانحراف عن الواجب .

---

(١) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

(٢) البنچتوم : هى الأرض والماء والضياء والهواء والسماء (المترجم)

« العقابُ مهيمنٌ على البشر ، فمن الصعب أن تجد رجلاً فاضلاً بطبيعته ، فبالخوف من العقاب يمكن العالمَ أن يتمتّع بأطايب النعم » (منُو) .

« لا يُبْدى الإنسان محبة ولا عناية تجاه الآخر إلّا خوْفاً أو طمَعاً أو سيراً وراء عامل خاصّ » (بَنْج تَنْترا) .

« تَهْجُر الطيور الشجرة التى نَفِدَت أثمارها ، وتهجر الـكَرَاكىُّ الغديرَ الذى جَفّ ماؤه ، ويهجر النحلُ الأزهارَ الذابلة ، وتهجر الظباء طرفَ الغابة المحترقة ، ويهجر النُّدَمَاء الرجلَ الفقير، ويهجر الخدَمُ الملكَ المخلوع، فـكُلُّـكم طُـلّاب صَيْد» (بَنْج تَنْترا) .

« الريح تصاحب النــار التى تَحْرُقُ الغاب ، والريح تُطفِىء المِصْباح ، فمن يُصَادِقُ الضعيف ؟ » (بَنْج تَنْترا) .

« الإنسان لا يُحِبُّ الآخر إلّا طَمَعاً فى نفع منه ، والآلهة لا تستجيب إلا بسبب ما يُقرَّب إليها من القرابين » (بَنْج تَنْترا) .

« تدوم المودة بدوام الهِبـات ، فالعِجْلُ يهجر أُمَّه إذا نَفِـد لَبَنُها » (بَنْج تَنْترا) .

« الإنسان ليس خادم الإنسان ، بل خادمَ المال ، فالمرء يكون وجيهاً أو غيرَ محترم بحسب غناه أو فقره » (هِتُو بَدِيشا) .

« الإنسانُ إذا كذب أو مَجّد من لا يستحق التمجيد أو هاجر إلى بلد أجنبىّ فإنه يفعل ذلك فى سبيل بطنه » (بَنْج تَنْترا) .

« يسيطر الإنسان فى هذه الدنيا على جميع أفعاله ما لم تَسْحَر لُبَّه امرأة بكلامها» (بَنْشِج تَنْتَرا).

«يصبح العقلاء والأبطال فى المعارك من البائسين أمام المرأة» (بَنْشِج تَنْتَرا).

« يرى المرء ، الذى تُسَيِّره المرأة بكلامها ، غيرَ الجائز جائزاً والصعبَ سهلاً وغيرَ السائغ سائغاً » (بَنْشِج تَنْتَرا).

٥ — النساء

لا تجد كتاباً أقسى على النساء من كتب الهندوس ، والهندوس لا يختلفون عن بقية الشرقيين فى النظر إليهن ، فالنساء عندهم مخلوقات ناعمات ، ولكنهن متأخرات مُتَقَلِّبات يجب حَجْبُهُنَّ لنيل وفائهن ، وما صَدَر عن المشترع الرزين مَنُو ، الذى تسود شريعته الهند منذ ألفى سنة فقلنا بعضه مع بعض ما صَدَر عن علماء كثيرين ظهروا بعده بعدة قرون ، يُثْبِت عدم تَبَدُّل رأى الهندوس فى ذلك أصلاً » .

« مَنُو جعل قِسْمَة النساء فى حُبِّهن لفراشهنَّ ومقعدهنَّ وزينتهن وفى هواهنَّ وغضبهنَّ وسَيِّء ميولهنَّ ورغبتهنَّ فى الشرِّ والدَّعارة » (مَنُو).

« النساءُ ذوات طبيعة متقلبة تَقَلُّبَ أمواج البحر ، وللنساء مشاعر مذبذبةٌ لا تدوم أكثر من ساعة كسُحُب الشَّفَق ، فإذا ما قَضَيْن أوطارَهُنَّ نَبَذْن الرجل الذى يصبح غيرَ نافع لهن نَبْذَ اللَّكِّ[1] بعد عصره » (بَنْشِج تَنْتَرا).

« النساء يُكَلِّمْن رجلاً وينظرن إلى رجل آخر مضطربات ويُفَكِّرْن فى رجل ثالث ماثل فى خَلَدِهِنَّ ، فمن ذا الذى يُحِبّه النساء إذَنْ ؟ » (بَنْشِج تَنْتَرا).

(١) اللك ، نقل نبات اللك ، وهو نبات يتخذون منه صمغاً .

« النساء متقلبات على الدوام ، ولاتَسْتَثْنِ منهنّ نسوة الآلهة ، فَطُوبَى لمن يُحْسِن حَجْب نسائه ، فالمرأة إذا كانت طاهرة فلرغبة الرجل عنها ، لا لحيائها وعَفافها وفضلها ووَجلها » (هِتُوبَدِيشا) .

« يتساوى المجنون والسرطان والنَّيلَج[1] والسَّكُور[2] والمرأة عناداً » (بَنْج تَنْترا) .

« لا تُنَال النساء بالعطايا ولا بالرعاية ولا بالإخلاص ولا بالعناية ولا بالقوة ولا بالمبادىء ، فالنساء مخلوقاتٌ جامحات » (بَنْج تَنْترا) .

« النساء كالبقرة التى تبحث عن الكلأ الجديد فى الغابة ، فالجديد ، الجديدُ ، هو ما يرغبن فيه » (هِتُوبَدِيشا) .

« حبُّ المرأة ينطفئ بسرعة كوَمِيض البَرْق ، فالمرأة تتكلف حُبَّك مع تفكيرها فى غيرك ، والمرأة تَضُمُّك بين ذراعيها مع لَهَفها على منافس لك على ما يحتمل ، ولِمَ تُريد مقاومة الطبيعة ؟ فالسَّدْرَة لا تُزْهِر فوق ذُروة الجبل ، والبغلة لا تَحمِل أثقال الحصان ، والشعيرة لا تُنْبت أُرْزّة ، فلن تجد الفضيلة فى روح المرأة » (سُدْهاَركا) .

« تَهْوَى المرأة الفاجرة رجلاً آخر على الدوام وترضى بذلك ، فلا تبالى فى سبيل هواها بسقوط الأسرة ولا بعَذْل الناس ولا بالسَّجْن ولا بالمخاطرة بالحياة » (بَنْج تَنْترا) .

---

(١) النيلج : شىء يتخذ من نبات العظلم بأن يغسل ورق العظلم بالماء فيجلو ما عليه من الزرقة ويترك الماء فيرسب النيلج أسفله كالطين فيصب الماء عنه ويجفف — (٢) السكور : السكير السكر.

« ما فى قلوب النساء لا يجْرى على ألسنتهن ، وما يجرى على ألسنتهن لا يسرى إلى الخارج ، فما فى الخارج ليس من صنعهنّ » (يَنْشج تَنْترا) .

« يصير المنزل إلى الخراب إذا كان أمره بيد امرأة ، أو وُجِد فيه مُقامر ، أو كان آمره صبياً » (يَنْشج تَنْترا) .

« على المرء أن يُقلع عن الحبّ ، فإذا لم يُقلع عنه وَجَب عليه أن يَقْصره على زوجته ، فهى وحدَها التى تستطيع أن تَشْفيه » (هِتُوبَدِيشا) .

« المرأة هى زوبعة الرِّيَب وبُؤرة السَّفَه ومدينــة التَّهَوُّر ومستودع الذنوب وبيت الخِداع وحقل الظنون وزنبيل الطلاسم ، والمرأة هى الســدُّ الذى لا يَنفُذ منه أكابر الناس وذوو الدِّراية منهم ، والمرأة هى السُّمُّ الممزوج بالدَّلوك[1] ، فمن خَلَقها فى الدنيا لزوال الفضيلة ؟ » (يَنْشج تَنْترا) .

« يجب على الزوج العالم بخُلُق المرأة التى فَطَرها عليــه ربُّ الخَلْق حين برأ الـكَوْن أن يراقبها مراقبةً وثيقة » (مَنُو) .

٦ — العلم والجهل

الهندوسُ يَضَعون العلم فوق الغِنَى والجهــلَ تحتَ الفقر ، وليس فى العالَم أمةٌ قدَّرت العلم كالهندوس ، وتقدير الهندوس للعلم كان ، أيضاً ، فى زمنٍ لم يكن الغربيون فيه غير برابرة ، وسيرى القارىء من التأملات الآتية أن الهندوس يَقْدِرون على تمييز الذكاء من العلم المُكتسب ، فالعلم المقرون بالذكاء عند الهندوس هو طِلَّسْم سحريٌّ يساعد الإنسان على القيام بأى عمل ، والمَالُ عندهم لا يساوى الحــكمة .

(١) الدلوك : ما يتدلك به من طيب أو دواء .

« العلمُ أجمل زينة للإنسان لا ريب ، العلمُ كنز خَفِيّ ، العلمُ صديق رفيق في الرّحلات ، العلم منبع لا يَنْضُب مَعِينه ، العلمُ وسيلة المجد ورَوْنَق المجالس ، العلمُ هو العَيْن العليا ، العلمُ يُهَيِّئ لنا سُبُل الحياة في الدنيا ، فلولا العلم لكان الإنسان من البهائم » (هِتُوپَدِيشا) .

« العلمُ أطيب النِّعم ، فلا يمكن نَزْعه من إنسان ولا شراؤه منه ، فهو كَنز لا يَفْنَى » (هِتُوپَدِيشا) .



١٣٦ — أغرا . ضريح الملكة في داخل تاج محل

« الحكمة والملكة غير متساويتين، فالملك إذا كان محترماً في بلده فإن العالِم مُبَجَّل في كل مكان » (پَنج تَنترا)

« العالِمُ يتصف بكل المحاسن ، وليس في الجاهل سوى المساوىء ، فالعالم خير من عدة ألوف من الجهّال » (هِتُوپَدِيشا)

« لا ينال الإنسان العلم والثراء والفن نيلاً تاماً إلا إذا ساح في الأرض مسروراً » (پَنج تَنترا) .

« الذكاء خير من العلم وفوق العلم ، فمن كان غيرَ ذكيّ هَلَكَ » (پَنج تَنترا)

« ما هي فائدة المرء من العلم إذا كان عاطلاً من الذكاء ؟ وما هي فائدة المرء من المرآة إذا كان عطلاً من العينين ؟ » (هِتُوپَدِيشا)

« السهم الذى يَرْميه النَّبَّال يقتل رجلاً واحداً أو لا يقتله ، وأما ذكاء الحكيم فإنه يهدم بلداً مع رئيسه إذا ما أُطلق » (پَنْج تَنْترا)

« أعظم الفقر فى قِلَّة العلم . » (پَنْج تَنْترا)

« الجاهل يهاجمه كلَّ يوم ألفُ غَمّ ومئةُ خَوْف ، ولا يهاجم الحكيمَ شىء من ذلك . » (هتوپديشا)

« لا يَلْمع الجاهل فى مجلس إلاَّ بثَوْبه ، ولا يلمع الجاهل إلا إذا امتنع عن الكلام . » (هِتُوپَديشا)

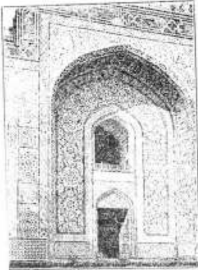
« خيرٌ لك أن تكون ذا ولد عالم من أن تكون ذا مئة ولد جاهل ، فالقمر وحده يكفى لتبديد الظلام مع أن الكواكب فى مجموعها لا تستطيع ذلك . » (هِتُوپَديشا)

« يَصِل ذوو المحاسن إلى النور بمحاسنهم من غير نظر إلى أنسابهم . » (پَنْج تَنْترا)

٧ — الغِنَى والفقر

من الصعب أن نتَّهِم الهندوس بالمَلَق فى كتبهم ، فهم لا يعلنون احتقارهم للثَروات ، كما جاء فى كتب الغربيين منذ القديم ، قولاً لا فعلاً ، فإذا عَدَوْت العلمَ الذى يضعونه فوق كلِّ شىء ، وجدتَ نَيْل الغِنَى غاية الحياة عند حكمائهم ، وهم يَمْقُتون الفقر ويَرَوْن الموت أفضل منه ، وتبدو آراؤهم هذه مبالغاً فيها ، لا ريب ، إذا ما طُبِّقَت على حضارتنا الغربية ، مع أنها غيرُ ذلك فى العالم الذى ظهرت فيه ،

فأحوال المعايش لدى أم الهند جعلتها لا تعرف غيرَ أقصى البؤس وأقصى الغِنَى ، وبلغ ما بين الفقر والغِنَى من التناقض مبلغاً لا أمل للفقير معــه أن يتخلص من فقره .



١٣٧ ــ سكندرا . دقائق زخرف مدخل الحدائق القائم فيها مزار الملك أكبر ، وهذا المدخل مصنوع من حجارة حمر مستورة بفسيفساء رخامية ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ١٦١٣ ، ويبلغ ارتفاعه ٢٢ متراً .

ويَهَب الغِنَى الحريةَ ويؤدى الفقر إلى العبودية ، وســترى من التأملات والنصائح التى ينطوى عليها هذا المطلب أن الهندوس ، على ما كان من استعبادهم فى كلِّ وقت ، رأَوْا مساوئَ العبودية ، فهــذه المساوئُ ، على الخصوص ، هى التى أوْحَت إليهم مقتاً شديداً للفقر .

« يرى بعض العقلاء أن المُلْكَ يقوم على الفضيلة والغِنَى ، ويرى آخرون أنه يقوم على اللذة والغِــنَى ، ويرى بعضٌ آخرُ أنه يقوم على الفضيــلة وحدَها ، ويرى بعضٌ رابع أنه يقوم على الغِنَى ، غير أن النعيم يَتِمُّ باجتماع هــذه الأمور الثلاثة . » (مَنُو)

« لا يَدَّخِر المرء وُسْعاً فى نَيْل الثَّراء، فعلى العاقل ألا يَبْذُل جهوداً إلاّ للوصول إليه . » (بَنْشِج تَنْترا)

« من كان غنياً كان ذا أصدقاء ، من كان غنياً كان ذا أقرباء ، من كان غنياً كان رجلاً فى الدنيا ، من كان غنياً عاش حقاً . » (بَنْشِج تَنْترا)

« يبدو العدوُّ ، فى هــذه الدنيا ، للأغنياء قريباً ، ويبدو القريب ، فيها ، للفقراء عدواً .

« من شأن الغِنَى أن يجعــل محترماً من هو غير جدير بالاحترام ، وأن يجعل مرغوباً فيه من يجب اجتنابه ، وأن يُمَدَّح من لايستحقّ المدح . » (پنچ تنترا)

« يُعَدُّ الشِّيب من الشُّبّان إذا كانوا من الأغنياء ، ويُعَدُّ الشُّبّان من الشِّيب إذا كانوا من الفقراء . » (پنچ تنترا)

« من كان غيرَ غَنِيٍّ فى هذه الدنيا لم يكن رجلاً إلا بالاسم » (پنچ تنترا)

« يتوارى شرف الإنسان وفخره وعلمه وجماله وذكاؤه إذا خَسِر ثروته .

« قد يقال إن الرجل سليم الحواسِّ ، فهذا قولٌ فارغ ، وقد يقال إنه سليم العقل ، فهذا كلام فارغ أيضاً ، فالرجل ينقلب إلى رجل آخر فوراً إذا أضاع ثروته . » (هِتُوپَدِيشا)

« فَقْر الناس هو العَدَم المُجَسَّم ، هو بُؤْرَة الشرور ، هو ضَرْبٌ من الموت . » (پنچ تنترا)

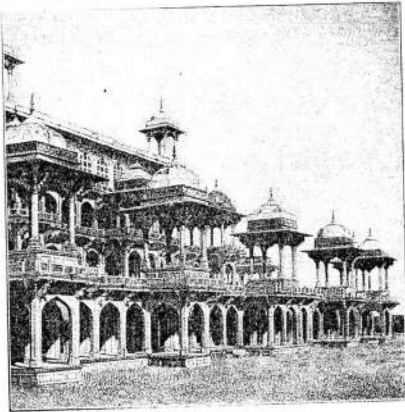
« قد تحتــاج إلى الصِّلصال إذا كان خالصاً ، ولــكن الفقير لا ينفع لشىء فى هذه الدنيا » (پنچ تنترا)

« يجب أن تخشى الفقر ، فهو عنوان العجز ، فلا يُعَدّ الفقــير إلاّ كلباً ولو قام بأحسن خدمة . » (پَنْچ تَنْترا)

« لا تلمع صفات الرجل الطيب إذا كان فقيراً ، فالثروة هى التى تُنير الصفات كما تنير الشمس كلَّ موجود . » (پنچ تنترا)

« يتلاشى ذكاء الرجل المُعْسِر ، مهما كان قوياً ، فى همّه الدائم من أجل القُوت والثوب .

« ولم يَلْبَث بيت الغنىّ الأنيق أن يصبح سَمِجاً إذا ما أَعْسَر ، فيبدو كالسماء بلا نجوم وكالحوض الذى جفّ ماؤه وكالمقبرة الكريهة » (پَنْج تَنْتْرا)



١٣٨ — سكندرا . مزار الملك أكبر بالهند
(هذا البناء الذى هو على شكل أرصفة منضدة وضع خاص ، فنرجح أنه مشتق من طراز هندوسى سابق ، فلا نرى له شبيهاً فى غير پنج محل بفتح پور)

« يَفقِد الرجل مقامه إذا افتقر ، ويغدو غير شريف إذا فقد منزلته ، ويصبح محتقراً إذا فَقَد شرفه ، ويَقِلّ عزمه إذا احْتُقِر ، ويقْنَط إذا قلّ عزمه ، ويخسر عقله

إذا قَنِط، ويَهْلِك إذا خَسِر عقله ، آه ، من الفقر الذى هو مصـــدر كلّ شرّ ! »
(هِتُوَبَدِيشا)

« يموت الرجل العاقل غير مُتَوَجِّع ، بَيْـد أنه لا يرضى بالفقر ، فالنار ، وإن أمكنها أن تنطفىء ، لا يمكنها أن تَبْرُد . » (هتوبديشا)

« قيل إن الرأىَ تفضيـلُ الفقر على الموت عند التخيير بينهما ، مع أن الموت يوجب ألمًا خفيفاً والفقر يوجب ألمًا ثقيلاً » (هتوبديشا)

« لا خير فى الحياة بغير استقلال ، فاذا تـكون الحياة عند التابعين لغيرهم إن لم تـكن موتاً ؟ » (هتوبديشا)

« لَأَن يعيش المرء فى غابة ، أو أن يكون سائلاً ، أو أن يَـكْسِب عيشَه من حَمْل الأثقال ، أو أن يَمْرَض خيرٌ من أن ينال الغِنَى مع استعباد » (پَنْج تَنْـترا)

٨ — السلوك الواجب فى مختلف أحوال الحياة

نجمع فى هذا المطلب ونُقَسِّم بعض النصائح العملية حَوْل سلوك الإنسان فى الحياة ونتائج الفضائل والرذائل وحَوْل واجباته نحو أقرانه وما يجب عمـــله للتوفيق بين الناس ، وأنفعُ الصفات التى أُوصِىَ بها هى : البصيرة والاحتراز والثبات والاعتدال فى الرغائب ، وعُدّ الغضب أمراً حقـيراً لعدم فائدته ، وعُدَّت المداهنـة أمراً حسناً لفائدتها ، فمن هنا ترى أن الآداب الهندوسية نفعيةٌ إلى الغاية .

ونذكر مبادئُ الآداب العامة قبل النصائح التى تُطَبَّق على مختلف أحوال الحياة ، وتشابه هذه النصائح ما جاء فى كتب النصارى ، ولا سيما ما يدور حَوْلَ الحِـكْمَة

القائلة : لا تُعامِل الناسَ بغير ما تُحِبُّ أن يعاملوك به ، ولكننا لن نسهب كثيراً في بيانها ، فالذى يجب أن يُعْرَف هو ما يحافظ عليه الناس ، لا القواعدُ الأخلاقية التى تقول بها الكتب ، والفرق بين كلا الأمرين واضح ، وما نذكره فى هذا المطلب من المقتطفات يكفى لِتِبْيان الأخلاق العملية عند الهندوس .

مبادئُ الآداب العامة

« أنصتوا لروح الفضيلة، فإذا أنصتم ففكّروا ، فلا تعاملوا غيركم بغير ما تحبُّون أن يعاملوكم به . » (پنچ تنترا)

« ينظر من لهم قلوبٌ نبيلة إلى نساء غيرهم كما ينظرون إلى أمهاتهم ، وينظرون إلى أموال غيرهم كما ينظرون إلى المَدَر[1] ، وينظرون إلى المخلوقات كما ينظرون إلى أنفسهم » (پَنْچ تَنْترا)

« يمكن الناسَ أن يستعدُّوا بسهولة لوعظ الآخرين ، وأما ممارسة الفضيلة فلا يقوم بها سوى خِيار الناس » (هِتُو پَدِيشا) .

« يرى بعضهم أن الحكمة فى اللسان كما عند البَبَّغاء ، ويراها بعض آخرُ فى القلب كما عند البُكْم ، ويراها آخرون فى القلب واللسان معاً » (پَنْچ تنترا) .

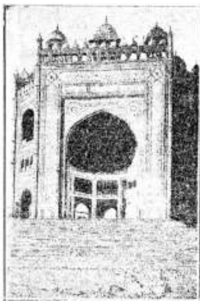
« اللئيم يتبعه عمله ولو سار من ألف طريق ، والكريم يتبعه عمله ولو سار من ألف طريق أيضاً » (پنچ تنترا) .

« يُؤْتِى كل عمل من أعمال الفكر أو اللسان أو البدن ثمرةً طيبة أو ثمرة خبيثة بحسب ما يكون خبيثاً أو طيباً ، وتنشأ أحوال الناس عن أعمالهم » (مَنُو) .

(١) المدر : الطين العلك الذى لايخالطه رمل .

« قيمة الإنسان ، مهما كان أصله وطائفته ، بإخلاصه وضبطه لحواسه وزهده وإحسانه وكَفّه الأذى عن غيره وقيامه بالواجب قياماً دائماً » (مهابهارتا).

« من يزرع الدُّخْن[1] يَحْصُد الدُّخْن ، ومن يزرع الشَّرّ يَحْصُد الشَّرّ » (مَنُو سَمْرِتي).



١٣٩ — فتح پور . مدخل المسجد الكبير (يبلغ ارتفاعه نحو ٤٠ متراً) (لا تجد ساكناً في فتح پور التي أراد ملوك المغول إنشاءها في غاية في القرن السادس عشر فاتخذوها عاصمة لدولتهم ، وتبدو قصورها المبنية من الحجارة الحمر سليمة ، ويعد المسجد الذي تدل هذه الصورة على مدخله من أوسع مباني العالم ، فيبلغ طوله ١٦٨ متراً ويبلغ عرضه ١٤٣ متراً ، فإذا ما استثنيت هذا البناء وجدت جميع مباني فتح پور قائمة على الطراز الهندوسي الخالص تقريباً)

« الأثمار التي يقتطفها الناس من شجرة خطيئاتهم هي المرض والكرب والغمّ والأرَق والبؤس » (هِتوپَدِيشا).

« حَبِط عمل الأفاعي والأشرار واللصوص ، ولولا هذا ما وُجِد العالم » (پنچ تنترا).

الحَذَر والاحتراز

« يجب على الرجل العاقل الراغب في الغِنَى وطول العمر والسعادة ألا يَثِق بإنسان » (پنچ تنترا).

« الضعفاء إذا ما حَذِروا لم يقتلهم الأقوياء ، والأقوياء إذا ما وَثِقوا قتلهم الضعفاء » (پنچ تنترا).

« على المرء ألا يَثِق بعدوّ مقهور ولو صار صديقاً » (پنچ تنترا).

« على العاقل ألا يُطْلِع أحداً على

(١) الدخن : نبات حبه صغير أملس .

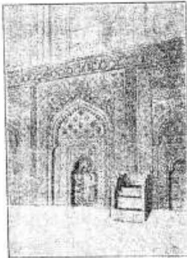
غِناه مهما كان ضئيلا ، فالغِنَى يُحَرِّكُ قلب العابد » (پنچ تنترا) .

« الاستعانة بالقوىّ فى القتال يؤدى إلى موت الضعيف ، فالقوىّ يَظَلّ سليماً كالحجر الذى يَكْسر الفَخَّار » (پنچ تنترا) .

« مَن تدخل فيما لايَعْنيه بحث عن هلاك نفسه بنفسه كالقرد الذى يقتلع زاوية » (پنچ تنترا) .

« على العاقل ألا يُضَحِّىَ بالكثير من أجل القليل ، فمن الحكمة أن يحفظ المرء الكثير بالقليل » (پَنچ تَنْترا) .

« من يترك الأكيد من أجل غير الأكيد يَخْسَر الأكيد وغير الأكيد » (هِتو پَدِيشا) .



١٤٠ — فتح پور ، محراب المسجد السابق
(يبلغ ارتفاع قسم البناء الظاهر فى الصورة نحو تسعة أمتار)

« أربعة أبواب تؤدى إلى الموت : العمل السيىء ومعاداة القريب ومنافسة الأقوى والاعتماد على المرأة» (هِتو پَدِيشا).

« العاقل من يتكلم عند ما يسأل عن حقه ، فالمتكلم بلاسؤال كالباكى فى الغاب» (پَنْچ تَنْترا) .

« الأحمق الذى يخاطب صَيَّاداً يبذل جُهْداً غيرَ مجدٍ أو الذى يخاطب جاهلاً شَقِيًّا يَلْحَقه عار» (پنچ تنترا) .

« يندمل جُرْح من يصيبه سهم ويلتئم

جُرْح يُحْدِثه سيف ، بَيْد أن كلمةً مؤذيةً تثير عوامل الحقد فلا يبرأ جُرْح أوجبه قول » (پنج تنترا) .

الحلم والصبر

« من كان حاذقاً فى أمور الدنيا وجب عليه أن يعالج هـذه الأمور بحلم ، فلا خسران فى عمل تمّ بحلم » (پنج تنترا) .

« الاتحاد أجمل شىء للناس ، ولا سيما مع الصديق ، فالأُرْزُ إذا ما جَرَّدته من قشره لا ينْبُت » (پنج تنترا) .

« اجتماع الأشياء الصغيرة يؤدى إلى نتائج كبيرة ، فالليف المفتول يُقَيِّد الفيل الهائج » (هِتُوپَدِيشا) .

كيف يَتَوَدَّد الإنسان إلى الناس .

« يجب أن تعامل النـاس على حسب أخلاقهم ، فالعاقل إذا ما أَلَمّ بأفكار الآخرين حَكَمهم من فَوْره » (پَنْج تَنْترا)

« يجب على المرء أن يتَوَدَّد إلى البخيل بالمـال و إلى الشديد بالخضوع و إلى الجاهل بالحلم و إلى المتعلم بخلوص النية . » (پنج تنترا)

« يمكن المرء أن يتَوَدَّد إلى الصديق بنبيل العواطف و إلى الأبوين بالاحترام و إلى النساء والخَدَم بالهدايا والرّعاية و إلى بقية الناس باللباقة . » (هِتُوپَدِيشا)

المداهنـة وسلامة الطوية

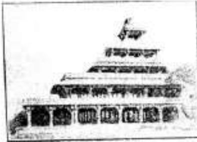
« سلامة الطَّوِيَّة أمر طيب لدى الزُّهَّاد المتبتلين إلى التأمل ، ولـكنها غير ذلك

عند الراغبين فى الثراء والزُّلفى لدى الملوك على الخصوص » (پنج تَنْترا)

« لا يعيش الرجل الذى يكون صريحاً
لدى النساء والعدو والصديق الخبيث.

« يرتدّ الكَبْشُ لكى يَنْطَحُ ،
ويَتَكَمَّشُ الأسد لكى يَثِبَ ، فالعقلاء
إذ يتناجَوْن ويَكْظِمُون غيظهم يحتملون
كلّ شىء عند إنعام النظر » (هِتُوپَدِيشا)

« لا يلبث العاقل الذى يعرف خُلُق
رجل عند المصاقبة أن يَسُوده . » (هِتُوپَدِيشا) .



١٤١ — فتح پور ، منظر پنج محل
(يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً)

الشجاعة والثبات

« عدم البدء أُولى علائم الذكاء ، وإنهاء ما بُدِئَ به ثانيةُ علائم الذكاء »
(پنج تنترا)

« النجاح بالأعمال ، لا بالآمال ، فالظباء لا تدخل فَمَ الأسد النائم »
(پنج تَنْترا)

« ما هو الحِمْل الثقيل لدى الأقوياء ؟ ما هى المسافة البعيدة لدى ذوى الإقدام ؟
ما هو البلد الغريب لدى المتعلمين ؟ من هو عَدُوُّ الحليم ؟ » (پَنْج تنترا)

« الرجل الثابت يَعْلُو الآخرين فيصير مُحْتَرَماً ولو لم يكن غنيًّا ، والرجل
الضعيف يُحْتَقَر مهما كانت ثروته » (پَنج تَنترا)

« من يَقَع فى بؤس فيَكْتَفِ بالتَّوَجُّع لا يصنعْ غير زيادة بؤسه من غير
وقوف عند حدّ » (پَنج تَنْترا)

الغضب

« الفيل ، مع عظيم قوته ، لا يغضب إذا لَسَعَتْهُ نحلة باحثة عما فى صُدْغَيْه من الشراب ، فالقوى لا يغضب إلا إذا كان تجاه قوة تَعْدِل قوته . » (پنچ تنترا)

« غضب الضعفاء سبب تعيسهم ، فالإناء الملتهب يحَرِّق جوانبه . » (پَنْچ تَنْترا)

« لمـا ذا يغضب الرجل العاجز عن إيقاع الأذى ، فالحِمَّصَة تَثِبُ من غير أن تكسر المِقْلاة التى تُحَمَّصُ فيها » (پَنْچ تنترا)

« إذا نَبَح الكلب على جبل فأيُّهما يألم ، الجبل أم الكلب ؟ » (مَثَلٌ تَمُولِىٌّ)

الحسد

« العلماء يَمْقُتُهُم الجهلاء ، والأغنياء يَمْقُتُهم الفقراء ، والأتقياء يَمْقُتُهم الملاحدة ، والنساء الفاضلات تَمْقُتُهُنَّ النساء الفاجرات . » (پَنچ تنترا)

تحرى الصلات ونتائجها

« على المرء ألا يكون ذا صِلَة بمن لا يَعْرِف قوّته ولا أُسرته ولا سِيرَته » (پَنچ تَنترا) .

« قد تـكون صداقةٌ ونَسَبٌ بين من تساويا ثروةً وعرقاً ، لا بين قوىٍّ وضعيف » (پَنچ تَنترا) .

« تـكون الصداقة والأُلفة بين من تساوَوْا ثروةً وتربيـة ، لا بين من تَبَوَّأ مكاناً عَلِيّاً ومن تَبَوَّأ مكاناً دَنِيّاً » (المهابهارتا) .

« الأحمق الذى يتخذ صديقاً فوقه درجةً أو دونه مرتبـةً يَسْخَر الناس منه » (پَنچ تَنترا) .

« يجب على العقلاء أن يتّخذوا لأنفسهم أصدقاء خُلَصاء ليُنْقِذوا أنفسهم من الشقاء ، فمن ليس له أحِبّاء لا يتغلب على البأساء » (پنچ تنترا) .

« حتّى الشيطان يحتاج إلى خلّان » (مَثَلٌ تَمُولِيٌّ) .

« لا رجل فى الدنيا أسعد ممن يحادث صديقاً و يساكن صديقاً و يذاكر صديقاً » (هِتُوپَدِيشا) .

« الظّباء تبحث عن الظّباء والأبقار تبحث عن الأبقار والأفراس تبحث عن الأفراس والأغبياء يبحثون عن الأغبياء والعقلاء يبحثون عن العقلاء ، فالصداقة تقوم على تشابه المحاسن والمعايب » (پنچ تنترا) .

« مَنْ يُقَدِّر الفضلَ يُحِبُّ صاحبَ الفَضْل ومن هو عاطلٌ من الفَضْل لا يُحِبُّ صاحب الفَضْل » (هِتُوپَدِيشا) .

« معاشرة الأشرار تُغَيِّر الأبرار ، فترى الفضلاء يجتنبون الخبثاء » (هِتُوپَدِيشا)

« يخسر الإنسان ذكاءه بمعاشرته من هم دونه ، فإذا عاشر أشباهه بَقِىَ مساوياً لهم ، و إذا عاشر من هم أفضل منه سار إلى الفضل » (هِتُوپَدِيشا) .

« يكون الحصان أو السلاح أو الكتاب أو الكلام أو المرأة أو الرجل طيباً أو خبيثاً بحسب المرء الذى يلاقيه . » (پنچ تنترا)

« لا تَعْرِفُ من الماء الذى يُصَبُّ على الحديد الحامى إلا الاسم ، فإذا استقرَّ الماء على وَرَق السِّدْر التمع كاللؤلؤ ، و إذا سقط الماء على صَدَف تحت كوكبِ سَوَاتى تَحَوّل إلى دُرّ ، فالحقُّ أن الطبائع الكريمة والمتوسطة والخسيسة تكون على حسب المجتمع الذى يُلازِم . » (پنچ تنترا)

٩ — السياسة

تجد فى كتب الهندوس إيضاحاً كاشفاً عن المبادىء الشعبية فى سياسة الناس وسلوك الملوك وواجباتهم ، ونقتصر على اقتطاف بعض مختارات منها فترى أنها مما لا يَذُمُّه مكيافيللى .

« تبدأ السياسة بالحلم وتنتهى بالعقاب » (پَنْشَج تَنْترا) .

« إذا كان الملك لا يجازى من يستحقون الجزاء شَوَى الأقوياء الضعفاء كما يُشْوَى السمكُ على المِنْضاج[1] » (مَنُو) .

« لا يُحْتَرم من لا يَسْتَبِدّ ، فالناس يهابون الأفاعى أكثر من مُبيد الأفاعى غَرُودَا » (پنج تنترا) .

« يَخْسَر الملك الذى يَتَمَلَّقه طبيبه وأستاذه ووزيره صحتَه ومقامه الدينىّ وثروته » (هِتُوپَدِيشا) .

« إذا عهدتم بالسلطة إلى رجل خَدَمكم لم يُفَكِّر هذا الرجل فى العَيْب بكم ، فوزيرٌ كهذا يَشِيد بخِدَمه ويَمْزُجها بأمور الدولة » (هِتُوپَدِيشا) .

« يجب عدم إغناء الوزير مهما كان ، فقد قال الحكماء : الغِنَى يُغَيِّر أخلاق الإنسان » (هتوپديشا) .

« إذا ما ضُغِط الوزراء استفرغوا جوهرَ المَلِك ، فالوزراء كالدماميل ، فعلى ملوك الأرض أن يُؤْلموا وزراءهم على الدوام ، أيُستَخْرِج ماء ثَوْب الحَمَّام من يَعْصِره مرةً واحدة » (هِتُوپَدِيشا) .

(١) المنضاج : السفود ، وهو حديدة يشوى عليها اللحم .

« قُتِل من لم يَقتل العامل الذى هو مثله ثَرَاء وقوة وذكاء وحزماً وسلطاناً »
(هِتُوبَدِيشا) .

« يجب أن يكون سلوك الأمير الملكىّ والوزيرِ الأول وكاهنِ آل البيت والحاجبِ تجاه الملكة وأمّ الملك كسلوك الملك » (پَنج تنترا) .

« يجب على الأمير الحاذق فى السياسة أن يكون كالسُّلَحْفاة التى تختفى بين طبقتيها العَظْمِيَّتَيْن فتقاوم بذلك صدمة عَدُوّها ، فإذا ما لاحت الفرصة نهض كالحية المرهوبة » (هِتُوبَدِيشا) .

« يجب على الأمير ، ليَظْفَر بأعدائه ، أن يلجأ إلى التوفيق والفساد والتفريق معاً أو على انفراد ، وليَجْتَنِبْ قهرهم بالسلاح » (هِتُوبَدِيشا) .



١٤٢ — فتح پور ، خاص محل (يبلغ مجموع ارتفاع القصر من فوق الرصيف المبنى عليه إلى أعلى القباب ١٧ متراً)

لا يُقْهَر العدوّ بالسلاح كما يقهر بالحيلة ، فالمحتال لا يَغلبه الأبطال مهما كان قصيراً » (پنج تنترا) .

لا مشيرَ أحسن من وارث عرش فى بَذْر الفساد بين الأعداء ، فعلى الأمير ألا يألُوَ جُهْداً فى رفع وارث عَدُوّه » (هِتُوبَدِيشا) .

« يجب على من يَعْرِف قواعد السلوك الثلاث التى يجب اتباعها ، وهى : الفضيلة والمنفعة والرغبة ، ألا يكون عظيم الرحمة ، فلن يستطيع متسامح أن يحافظ على ما فى يده » (هتوبديشا) .

«وجب قتل العدو الضعيف قبل أن يصبح قوياً ، فالعدوُّ الضعيف إذا ما تقوَّى حَطَّم قهره » (پنچ تنترا) .



١٤٣ — فتح پور سيكري : القسم الأعلى من عمود في قصر الملكة بيربل

« يجب ألا يُخالَف العـدوّ ، ولو بأوثق العهود ، فالماء يُطفىء النار مهما كان حارًّا » (هتوپديشا) .

« الأعداء الذين يُقتَلون بالسلاح ليسوا بالقَتْلى ، فقتلى الأعداء هم الذين يُقتَلون بالحِكمة ، فالسلاح لا يَقتُل سوى البَدَن ، والحكمةُ تَقتُل الأسرة والثروة والشُّهرة » (پنچ تنترا) .

« تقوم الحرب على أمور ثلاثة : الأرض والصديق والذهب ، فعلى من لا يملك واحداً منها ألا يُوقِد حرباً » (پنچ تنترا) .

« جيش صغير مُؤلَّف من جنود مُدَرَّبين خير من جيش عظيم مؤلف من أخلاط غير مُدَرَّبين ، فأردأ الجنود يُغلَبون ويُوجِبون هزيمة الشُّجعان في الميدان » (هتوپديشا) .

« إذا ما نَشِبت الحرب وجب على الأمير أن يكون صارماً حتى تجاه من يُحِبّهم حُبَّه لنفسه ومن يُحافظ عليهم ومن يرعاهم بعين عنايته » (پنچ تنترا) .

١٠ — مصدر الاختلاف بين تعاليم الكتب الهندوسية وتعاليم الكتب الأوربية

سوف يقف القارئُ ، الذي يطالع هذه الحِكَم بعد تلك الفصول التي كان للدين أبرزُ مكان فيها ، مشدوهاً أمام تناقض آراء الهندوسيّ في اللاهوت والآداب ، ففي

اللاهوت ترى تَجَلِّيَ خيال الهندوسيّ تجلياً مُشَوَّشاً مُفْرِطاً ، وفى آدابه ترى ثمرة الحسّ العمليّ بأدقّ معنى وبأكثره إيجاباً .

فبينما تُبْصِر السلطان لأخيلة أحبار الهند وشعرائها فى الحقول الوهمية ، فيفتح هؤلاء أبواباً لمستقبل أسْطُوريّ فيَعُدُّون كيان الإنسان كخردلة فى عالم الزمان فيضعون درجة من الكمال لا تكاد تُبلغ إلا بألوف مُؤلَّفة من التحولات التى تقع فى ألوف من القرون ، تجد علماء الأخلاق فى الهند يقولون بتمتع الإنسان بالحياة قبل كلّ شىء ويَرَوْن أن يُزيل عنه كلّ همّ يُضْنِيه وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها الطيبة وأن يبحث عن الغِنَى وألا يكون ساذجاً وأن يَحْذر النساء لأنهن أخطر الشرور بما يُوقِدْنه فى الأفئدة من نار الحبّ .

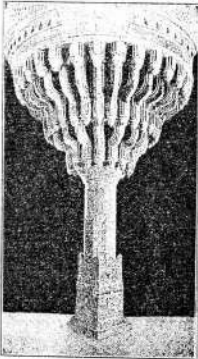
يَبْدو تَحَلُّل تعاليم الهندوس الخُلُقِيُّ مؤذياً لمشاعرنا ، ولكن لا تَنْس قيام هذه التعاليم على تَفَهُّم الحياة تَفَهُّماً منطقياً ، فنحن ، وإن كنا نقول بمبادىء خُلقية سامية لا نُطَبِّقُ ، عند العمل ، سوى حِكَم كتلك الحِكَم الهندوسية .

وهذا التناقض الذى يبدو جَلِيّاً عندنا يُرى مثله لدى الهندوس ، ولكن العروق والبيئات والأزمنة جعلت هذا التناقض يظهر فى الهند بين الدين والآداب وجعلته يظهر فى أوربة بين الآداب المُدَوَّنة وأعمال الحياة العادية .

وإذا بحثت عن التناقض بين الذى نُعَلِّمه والذى نُطَبِّقه فيَنْفِر منه الشرقيون الذين يدرسون أمور أوربة وَجَدْته ناشئاً عن مبادئنا الخُلقية ، وبيان الأمر أن الدين فى عصور الإيمان كان مرتبطاً فى الآداب ارتباطاً وثيقاً فلم تَعُدّ الآداب فيها سوى تعاليمَ إلهية خالصة ، فلما تلاشت المعتقدات بَقِيَت الآداب سليمة مِثَالِيَّة ، أى أسمى مما يَقْدِر الإنسان على تحقيقه ، ولما زالت عنها صفتها الإلهية ، بذلك ، تَجَلَّى

البَوْن واضحاً بين الذى نُطَبِّقه والذى نشير إليه باسم الناس ، لا باسم الله .

والدين منفصل عن الآداب عند الهندوس فى كلِّ زمن كما كان منفصلاً عند الإغريق والرومان ، أجَلْ ، إن التعاليم الدينية تَنفُذ ، كما قلنا ، جميعَ أعمال الحياة عند الهندوس لاريب ، غيرأن هذه التعاليم القاطعة الخاصة بالطقوس والحجِّ والصَّلَوات والقرابينْ الخ ، أى بسَيْر الإنسان نحو الآلهة ، لا تُبالى بسلوك الناس بعضهم نحو بعض ، فلم تقم الآداب الهندوسية على غير أساس العادة التى هى وليدة التجربة الناشئة عن مقتضيات الحياة ، وبينما تُبْصِر مَثَل الهندوس الأعلى قد ظلَّ ضمن دائرة خارجة عن هذه الدنيا عامرة بموجودات قادرة على كل شىء غير مبالية بسوى واجبات الناس نحوها ، لا بواجبات الناس بعضهم نحوَ بعض ، تُبْصِر الحياة بادية للهندوس كما هى بخيرها وشرِّها ، فليست الأرض التى يَسْكنها الهندوسىّ ، بالحقيقة ، إلاّ جُثْوةَ تراب زائلةً إذا ما قيست بالمساوف الساطعة اللامعة العامرة بالآلهة المرهوبة التى يراها بخياله عندما يطأ معابده أو يُقلِّب صَفَحات كُتُبه المقدسة .



١٤٤ — فتح پور . عمود مصنوع من الصوان المنقوش ويعرف بعرش الملك أكبر ويقوم فى ردهة استقبال الملك

وما بين سلوك الإنسان وآماله من التناقض يبدو ، إذَنْ ، عند الهندوسىِّ كما يبدو عند الأوربىِّ ، وإذا كان هذا التناقض أكثر وضوحاً عندنا فلأن

دائرتي مَثَلِ الهندوسيِّ الأعلى ومَثَلِ الأوربيِّ الأعلى مختلفتان ، ولو نظرتَ إلى ذينك المَثَلَيْن الأعْلَيَيْن من الناحية الفلسفية لوجدتَ أساسهما واحداً مع ذلك ، فأملُ السعادة الخلاَّب البعيد الذى يسعى البشر لتحقيقه منذ قرون والذى تَمرُضه على أعيننا مهامايا الخادعة ، أو الغوايةُ الكبرى ، هو العامل الحقيقيّ لجميع أفعالنا ولا حياةَ لنا بغيره ، فليس تأسيس الديانات و إقامة الدول و إيقاد الحروب والثَّورات وفتح البلدان وكلُّ ما يُسَجِّل التاريخ سَيره ، عند الفيلسوف ، إلا قِصَصاً لحوادثَ أتمها الإنسان سعياً وراء مَثَلٍ عالٍ دينيّ فى دَورٍ، وسياسيّ أو اجتماعى فى دور آخر، ومما لا ريب فيه أن المَثَل الأعلى الواجبَ الوجودِ والسيدَ المسيطر على أعمالنا والطَّيْفَ القادر على كلِّ شيء يَتغيَّر مواضعه هنا وهنالك على الدوام ، ولكنه لن يزول إلا بزوال آخر إنسان ، ونحن ، مهما نَبْلُغْ من درجات الشكِّ ، لن نَغفُل عنه طَرْفَةَ عَيْن من غير أن نحكم على أنفسنا بالموت حالاً .

الفَصلُ الثانى

ديانات الهند الحاضرة

آراء الأوربيين الحاضرة فى ديانات الهند — وجه الخطأ فيها — الفروق العظيمة بين مبادئ الهندوس ومبادئ الأوربيين الدينية — (١) الثالوث الهندوسى : برهما ووشنو وشيوا — لاحوتية هذا الثالوث — (٢) الشيوائية — قدم شيوا — رموزه — عبادته — (٣) الوشنوية — قدم وشنو — رموزه — تقمصاته — (٤) تنوع ديانات الهند — تحولاتها المستمرة — ينطوى اسم البرهمية الجديدة على مختلف المعتقدات — وصف هذه المعتقدات المشترك — كيف تؤسس المذاهب — (٥) أشكال ديانات الهندوس الخارجية — تقيد الهندوس بالشكليات فى أمورهم الدينية — التوبة والتقشف وتلاوة الكتب المقدسة والصلوات والحج والفرايض — (٦) الجينية — أصولها ونشوءها — مشابهتها للبدهية — (٧) مبادئ جميع أديان الهند العامة — الويدية والبرهمية والبرهمية الجديدة هى ديانة واحدة تتفرع منها البدهية والجينية — المبادئ المشتركة بين جميع ديانات الهند — (٨) الإسلام فى الهند — أهمية الإسلام فى الهند — فى الهند خمسون مليوناً مسلماً — كيف تحول الإسلام فى الهند — اقتباساته من أديان الهند الأخرى — نمو الإسلام المستمر فى الهند — (٩) تأثير الدين فى الأخلاق عند الهندوس — فصل الدين عن الآداب عند الهندوس — إذا نظرنا إلى الهندوس من الناحية الأوربية وجدناهم أكثر الأمم تديناً وأقلها آداباً — لا تبالى آلهة الهند بغير واجبات الناس نحوها ، لا بواجب بعضهم نحو بعض — تقوم التعاليم الدينية الأساسية لدى الهندوس على استمالة الآلهة بالعبادة وتقاء الطائفة — الأهمية القليلة لبعض الجرائم فى الهند — روح المحبة هى العنصر الأدبى الذى نفذ فى الهندوسى بفضل البدهية — صفات الهندوسى بسجيته لا بآدابه .

لم تُؤَدِّ الجهود العلمية الحديثة إلا إلى إذاعة مختلِّ الآراء حول ديانات الهند ،

ورأينا ، حين البحث في البُدّهية ، درجةَ اختلاف هذه الدّيانات في الحقيقة عما ورد في الكتب ، وتفقد تعاريفنا الأوربية الصريحة المضبوطة قيمتها إذا أريد تطبيقها على تلك المعتقدات المتحولة على الدوام والتي نَبَتت في الهند ولا تزال تَنبُت في الهند فلم تَدُلّ تسميتها بأسماء مشتركة على غير تشابه ظاهري ، وتتحد المعتقدات المتناقضة في نفوس الهندوس المذبذبة الخيالية البعيدة من المنطق اتحاداً لا نفهم أمره أبداً ، ويَسْجُد الهندوسيّ الذي يكتب ، مُعْتَقِداً ، تأملاتٍ في الزندقة المتطرفة، أمامألوف الآلهة الغريبة الغليظة المرهوبة أو يُقَبِّل باحترام أثر قَدَم بُدّهَة ووشنو ، ولا يقتصر أمر الأديان في الهند على توافقها ، بل تجد بعضَ العقائد المتناقضة بجانب بعضٍ في الدين الواحد ، ونحن إذ ندرس في الهند نفسها شعائر أديانها نُدْرِك تلك المتناقضات الغريبةَ علينا واختلافَ معنى كلمة « الديانة » عند الهندوسيّ وعند الأوربيّ .

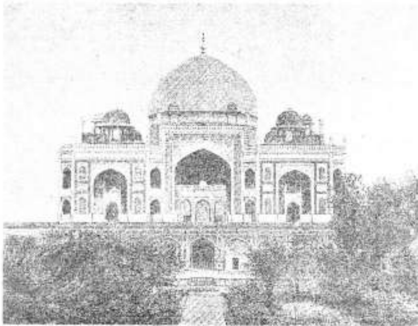
وتُشْتَقّ الديانات السائدة للهندوس في الوقت الحاضر ، نظريًّا ، من الديانات التي كان يعمل بها في زمن الويدا وفي زمن مَنُو ما دامت تعترف بسلطان الكتب القديمة المقدسة ، ولكنك تجد فرقاً بين الديانة الموصوفة في الفصول السابقة باسم الويديّة والبرهمية والديانة الجديدة المعروفة بالبرهمية الجديدة أو الهندوسية التي ظهرت في القرون الأولى بعد المسيح فقامت مقام البُدّهيّة مقداراً فمقداراً بابتلاعها إياها ، والبرهميةُ الجديدة هذه هي التي ندرسها فيما بعد .

١ ــ الثالوثُ الهندوسيُّ

تَقَسّمُ المذاهب الكثيرة التي تتألف البرهمية الجديدة أو الهندوسية من مجموعها إلى دِيانتين سائدتين : دِيانة شِيوا ودِيانة وِشْنو ، ويتألف الثالوثُ الهندوسيُّ من

هذين الإلٰهين الكبيرين اللذين يُقدِّس لهما الهندوسيُّ التقى مع برهما العظيم .

ومع أن برهما أقوى هذه الآلهة الثلاثة فإنه ليس له عُبّادٌ خصوصيون ، ولا تكاد تجد فى الهند معبداً خاصاً به ، وسببُ ذلك هو أن الدين لدى الهندوسى تصوريٌّ مادىٌ ، فبينما تَغْمُرُ رموزُ شِيوا وتقمصاتُ وِشنو المعابدَ بالأشكال والصور لم يُمَثَّل برهما تمثيلاً ظاهراً ، بل يَظَلُّ برهما هذا الروحَ الكبرى التى تُلْمَس فتَهَب الحياة لجميع الخلق فيطمع الهندوسى أن يَفْنَى فيها .



١٤٥ ــ دهلى . العصر المغولى، مزار الملك همايون (أنشىء سنة ١٥٥٥) ، (بنى هذا الأثر من حجارة حمر مرصعة بالرخام الأبيض على رصف تبلغ جوانبه ٨٨ متراً)

ولكلِّ إلٰه فى الثالوث الهندوسى نصيبُه فى أمر العالم ، فأما برهما فهو البارىء ، وأما وِشنو فهو الحافظ ، وأما شِيوا فهو المُبِيد ، ومع مناقضة شأن شِيوا الشأن الإلٰهَيْن

الآخرين فإن هـذا لم يكن في الحقيقة ، فليس في الفلسفة الهندوسية موتٌ بالمعنى الصحيح ، فالإبادة والتحول فيهما مترادفان ، فصورةُ الكَوْن فيهما تتحول بلا انقطاع من غير أن تَفْنَى عناصرُها ، فشِيوا العظيم هو الذي يقوم بهذه التحولات، وهو ، لذلك ، مُنْعِمٌ كالإلٰهين الآخرين ، وهو ، لذلك ، ظهيرُهما الواجب الوجود .

ونحن ، حين نُنْعِم النظر في شِيوا المرهوبِ ، إلٰهِ الإبادة والتحول الذي كانت تُقَرَّب إليه الضحايا الدامية ، والقرابينُ البشرية أحياناً ، كما تُقَرَّب إلى زوجته كالي، ندرك أنه أقدم مَنْ عَبَدَه الهنـدوس وأنه يَظَلُّ الإلٰهَ الراجح في الثالوث البرهميّ على ما يحتمل .

ولا تجد ، كالهنـدوس ، قوماً فَطِنوا إلى ما هو نسبيّ وهميّ متحول في ظاهر الأشياء ، فعند الهنـدوسي أن الذي يدركه الإنسان من الكون ليس إلا مهامايا أو وَهْماً كبيراً ، والإنسانُ لا يُدْرِك جوهر الأشياء أبداً ، وما يَشْعُر به من الطبيعة هو سلسلة التطورات التي لا أول لها ولا آخر ، وفي تعاقب العلل والمعلولات السَّرْمَدِيّ ذلك يُبْعَث الأموات ويموتون بعـد أن يُبْعَثوا ، ولـكن الموت والبعث هذين من الظواهر، وهما مظاهر لمجهول ثابت جوهراً مُتَحَوِّل صورةً .

وقد أبصر الهندوس ، منذ قرون ، المهامايا ، ذلك الوهمَ الأبديّ الذي يخدع عيوننا ويُقَيِّد قلوبنا أو يُحْزِنها والذي يُخْفِي حقيقةً يتعذر على الإنسان أن يَلْمُسها ، وعَرَف الهندوس كيف يدركونه ويَعْرِفونه في زمن اعتقد فلاسفة الغرب فيـه أنهم لَمَسوا المطلقَ ، فهنالك عظمة الفـكر الهندوسي البرهمي أو البدهي .

والشعب لم يبال ، مع ذلك ، بتلك التأملات الفلسفية الصادرة عن قليـل من

المفكرين كما قلنا ذلك حينما درسنا البُدهية ، فبَدَت هذه المُجَرَّدات التى لا تُدْرَك هَيُولِيّةً لدى الشعب على الدوام .

٢ — الشَّيوَائيّة

شِيوا هو إله الإبادة ، وإن شئت فقل إله التحول ، هو إله الحياة والموت ، هو الإله الذى يُمَدّ عضوُ التوليد من صفاته الرمزية فتُقَرَّب له القرابين مع ذلك ، هو إله الجوهر الأصلى الذى تصدر عنه الموجودات والموتُ الذى يَحُلُّها ، هو إله الهند الحقيقىّ ومبدع عبقرية عرقها .

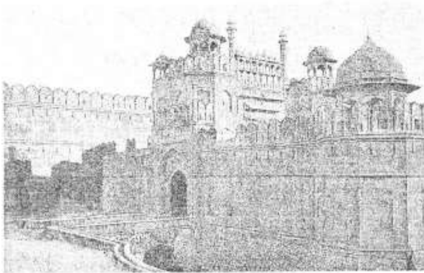
والإله شِيوا هو أقدم آلهة البرهمية الجديدة ، ويمكن عَدُّه متحداً هو والإله رودرا الذى ذُكِر فى الأغانى الآرية ، أى بإله الرياح الذى يأتى بالمطر وخِصْب الأرض ، ثم خُلِط بالإله أغنى ، وكان قدماء الآريين يَعُدُّون النار أصل الحياة التى تسرى فى جميع الموجودات فتَهَب لها الحياة فيعبدونها بحرارة ، وكان الآريون أولئك يَعُدُّون النار مُبِيدَة أو مُحَوِّلة فيَرَوْن إبادتها المادة تؤدى إلى تناسخاتٍ بعيدة الغَوْر .

وانتقل شأن الإله أغنى وصفاته إلى شِيوا فى البرهمية ، وظاهرةُ هذا الإله ذى الاسم الجديد وشعائرُ دينه مما ذكره ميغاستين فى القرون القديمة فشبَّهه بديونيزوس الإغريق ، واتخذ القومُ رمزَ شِيوا ، وهو عضو التوليد ، حوالَىْ بدء التاريخ الميلادى لا ريب ، فلما قام محمود الغزنوى بمغازيه فى القرن الحادى عشر كان يوجد اثنا عشر معبداً مشهوراً لتقديس هذا الرمز .

وجُهّال القوم إذ أُشْرِبوا حبَّ الوثنية بالتدريج جعلوا مما هو رمزٌ إلهاً حقيقياً ، فظهر المذهب القضيبىّ الذى اتخذَ عبادةَ شِيوا فى صورة عضو التوليد موضوعاً له ،

فترى جميع معابدهم مملوءةً بهذا الرمز، ويحمِلون عليهم تصاويرَ صغيرةً له من ذهب أو فِضة على الدوام، فيُقَبِّلونها بين حين وحين مُصَلِّين لها.

وكان مؤسس هذا المذهب بِسْوَا يعيش فى القرن الثانى عشر فيقول بإلغاء نظام الطوائف فنال نفوذاً كبيراً، ثم تلاشت مبادئه بموته، ولكنه ابتدع مذهباً قائماً على الذُّكُورَة متخذاً عضو التوليد إلٰها فظلّ هذا المذهبُ سائداً للدراويد فى ميسور ونظام وجميع جنوب الهند.



١٤٦ — دهلى. العصر المغولى، مدخل قصر ملوك المغول (بدىء بإنشائه سنة ١٦٣٨)

ولم يلبث رمزُ عضو الاستيلاد فى النساء أن بدا فى تلك المعابد بجانب رمز عضو التوليد فى الذكور فصار الشيوائيون يُصَلّون له، ويمثل هذا الرمز زوجة شِيوا، پَارْوَتى أو كالى، أى إلاهَة الحياة والموت والأمّ التى خرج العالم منها وإليها مَرَدُّه.

ولا تجِد عبادة أدت إلى مناظرَ مخالفةٍ للذوق والأدب كعبادة كالى الهائلة.

وسُرعان ما أصبحت تلك العبادة مألوفة لدى أشد قبائل الهند جَلَفاً فاختلطت بعبادة إلاهة سكان البلاد الأصليين الزنوج الوحشية المُضَرَّجة ، وفى سبيل تمجيد هذه الإلاهة امتزجت الدَّعارة بالقسوة فأريقت على مذابح معابدها دماء الضحايا البشرية الأخيرةُ التى أُبطِل تقريبها فى الزمن الأخير إلى الأبد لدى الأهالى البراهمة ، ولا يزال يُرَى فى معابدها من الفَحْشاء والمُنْكر والدَّعارة ما يستحيل وصفه ، وأظهر ما يكون ذلك فى المعابد التى يتردَّد إليها الشِّيوائيون أصحابُ اليد اليسرى .

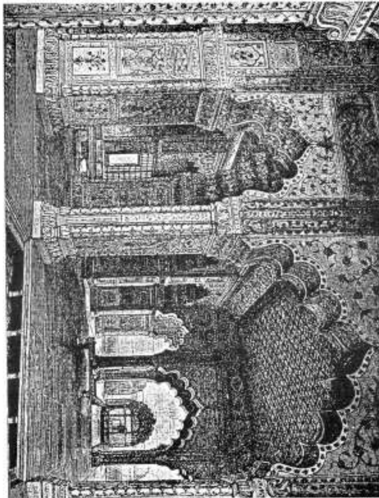
٣ — الوِشْنَوِيَّة

ليس الإله الأعلى وِشنو ، إلهُ الهندوس البراهمة الذين ليسوا من أتباع شِيوا ، قديماً قِدَم هذا الإله المنافس المرهوب ، ولوِشنو ذِكرٌ غالب فى كتب الويدا مع ذلك ، وعنه حَدَّث ميغاستين فشَبَّهه بهرقليس الإغريق .

ويجيب وِشنو عن احتياجات القلب الأبدية على حين يخاطب شِيوا الذكاء فيُعَدّ شِيوا هذا عنوانَ عبقرية الهندوسيّ فى تَفَهُّم الكَوْن ، ووِشنو ذلك هو إله الحبّ والإيمان ، ويتطلب اتِّباع شِيوا عملاً لنيل النجاة وقهر الشَّهَوات والتَّبَتُّل إلى شديد العبادات ، ومن أتباع شِيوا ، أو كالى ، تَجِد الزُّهَّاد الحقيقيين مع ما تراه من السَّفَه فى أعياده .

وديانة وِشنو ، كديانة شِيوا ، لم تبقَ روحية رمزية ، والهندوسُ يرغبون فى الصور المنظورة ليعبدوها أكثر من أىّ شعب آخر ، فلم تُجْدِ نفعاً جهودُ المصلحين فى تفسير أديان الهندوس بما يلائم التوحيد ، فلا يزال الهندوس كما فى العصر الويديّ يجِدون فى كلّ شى ما يعبدون فيَرَوْن موضوعَ عبادةٍ فيما لا يدركون فيَرْهَبون .

ولم تَخْبَط مجهودات براهمة الهندوس ومفكريهم في ابتداع مذهب توحيدي فقط ، بل حَبِطَت ، أيضاً ، في جمع هذا الاحتياج الدائم إلى العبادة في إلهين كبيرين أو ثلاثة آلهة كبيرة ، أجَلْ ، إن الشعب الهندوسي استمع لوعظ هؤلاء المفكرين ، ورَضِي بمذاهبهم طائعاً ، ولكن هذه المذاهب لم تلبث ، بعد أن نَفَذت فيه ،



١٤٧ — دهلي . ردهة الاستقبال في قصر ملوك المغول .

أن تحولت وكَثُرَت وانقسمت واكتسبت مظاهرَ واكْتَسَت بألوان وحياة أى تَجَسَّدت .

ووشنو هو إله واحد لدى الهندوس لا ريب ، بَيْدَ أن هــذا الإله اكتسب صُوَراً مختلفة يَتَعَذَّر تعريفها وعَدُّها ، فترى بين هذه الصُّوَر صُوَراً للفيلان والأبطال والإنسان والحيوان فضلاً عن كوكب الشمس الكريم القادر الذى اختلط به وِشنو منذ أقدم العصور .

وتُمَثِّل تلك التَقَمُّصاتُ ، المعروفةُ بأواتار وِشنو ، آلهةً كثيرة خاصة يُعْبَد كلُّ واحد منها ، على الخصوص ، بحسب المكان والجيل والمقام الاجتماعىّ ، وتَرْجِع التَقَمُّصات الأساسية التى ذُكِرت فى الكتب المقدسة المعروفة فيُقَدِّس لها الوِشنويون إلى عشرة فقط ، وأما التقمصات الأخرى فلا تَعرِف قاعدة ولا حَدّاً لِما يُولَد منها فى كلِّ يوم .

من أجل ذلك تُمْكِن دعوة الهندوس إلى عبادة أىّ إله من غير خوف مهما كان هذا الإله رفيعاً أو غليظاً ، فالهندوس لايقاومون الداعىَ لِما ظهر من أنهم أكثر شعوب الأرض تسامحاً ، ومن المحتمل أن يرْضَوا عنه من غير صعوبة فيجعلوا منه فى الحال واحداً من تَقَمُّصات وِشنو .

ومن ذلك أنك ترى جهود مبشرى النصارى غيرَ مُجْدِية فى الهند ، فلم يلبث المسيح ، الذى لاتَبْعُد قِصته عن قِصة كِرِشنا ، أنْ صار واحداً من تَقَمُّصات وِشنو ، فيُجيب الهندوس عن أدلة المبشرين بأنه ليس لدى المبشرين ما يتعلمونه ما دام الهندوس نصارى أكثر من النصارى ، ومن ذلك أن عَدَّ بعض الهندوس

ولىّ عهد إنكلترة من تقمُّصاب وِشنو حينما زار بلاد الهند وأُحيط بضروب العظمة والجلال .

واثنان من تقمُّصات وشنو شعبيان في الهند ، وهما يُعرفان براما وكِرشنا .

ولا نستطيع أن نُعيِّن تاريخاً صحيحاً لوضع ديوان الرامايانا وديوان المهابهارتا اللذين مُجِّدَت فيهما أعمال ذينك البطلين راما وكِرشنا ، وأمرُ هذين الديوانين عند الهندوس مشابهٌ لأمر دواوين هوميروس عند الإغريق ، فهما مدار فَخْر الهندوس الأدبي ، وهما مصدر إلهام لا ينضُب لدى شعرائهم ، وهما منبع أساطيرَ لدى جماهيرهم المُولَعة بالخرافات .

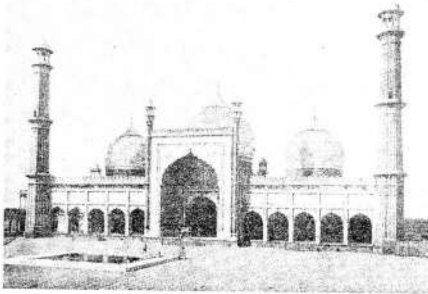
ووُضِع ذانك الديوانان المشهوران وعُدِّلا وزِيدا في قرون ، فكانا موجودَيْن حينما مَجّد الشعب بطليه المنصورَيْن العظيمَيْن راما وكِرشنا فجعَل منهما تقمُّصَيْن لوِشنو .

وليس مجد انتصارات ذينك البطلين (راما وكِرشنا) ، وحدَه ، هو ما أُعجِب به الهندوس بل أُعجِبوا ، أيضاً ، بما اتصفا به من الحلم والعاطفة والحبّ ، ولم ينشَب الحنان الحافل بالأسرار الذى كانت الأفئدة تهفو به نحوَ وِشنو أن انقلب إلى حبّ بشرىّ حيّ حارّ قائم على الشهوة فى الغالب ، وذلك حينما أصبح موضوعَه صورتا ذينك البطلين (راما وكِرشنا) اللتان تُشِعّان حياةً .

وفى شخص راما يُعْبَد فاتح الهند وسيلان والغالبُ الذى تمّ بفضله انتصار العرق الآرىّ ، ولكنه زوجُ سيتا قبل كل شىء ، وهذان الزوجان المخلصان العاشقان هما ، فى الوقت نفسه ، شِيوا وزوجتُه إلاهةُ الجمال لَكْشمى ، وما كانت عليه سيتا

من التَّعس والوفاء وما أوحت به إلى راما من الحب الشـديد مشاعرُ قويةٌ خَصِبَة أورثت الهند لِيناً ورِقَّةً منذ قرون .

وإليك ما قاله فى هـذا الموضوع الـكاتب الهندوسىّ والمفـكر الحرُّ السيد ملبارى فى كتاب نشره حديثاً بعنوان « كجرات وأهلها » فاستشهدنا به فى فصل آخر :



١٤٨ ـ دهلى . العصر المغولى ، صحن المسجد الكبير (عرض : نحو ٦٢ متراً ، ارتفاع المئذنة : ٤٠ متراً) (أنشىء سنة ١٦٥٨)

« طُوبَى لذلك الشعب الذى اتَّخَذ راما وسيتا مثلاً عالياً له ، طُوبَى لذلك البلد الذى يدفع ضريبة الإخلاص والتقديس لذينك الزوجين المنقطعى النظير ، ترى الصانع

الهَرِم الفَظّ وزوجته الساذجة الجاهلة وابنته الفتاة المَذْبة المِثالية يَسْكُبون دموع الوفاء حينما يتلو الكاهن ما تيَسَّر من الكتاب المقدس ، فطُوبَى ، ثلاث مراتٍ ، لمن قَدَر ، وهو رجل ، على الارتقاء إلى مرتبة الوحي الإلهيّ فأبدع موجودين من الظَّرْف الرفيع . »

وتُعَبِّر الرامايانا تعبيراً عالياً عن مَسَارّ الأسرة التى أتت فى المرتبة الأولى لدى الآريين على الدوام ، فتَجِد فى كِرِشنا العاشقَ الكامل الغاوى الملتهب منذ صباه غراماً ببنات الهَوَى الكثيرات فَفَتَنَ جميع النساء فكان ، مع راما الجميل ، أكثرَ أبطال الهند حُظْوَةً لدى الشعب .

وليست أسطورة كِرِشنا الصبيّ بعيدة من أسطورة يسوع ، فكِرِشنا هذا عزيز على جميع الأمهات الهندوسيات عِزَّةَ يسوعَ الطفلِ على أمهات النصارى ، وما يأتيه النِّسْوة النواسك والبنات والأرامل من عبادة ذلك الإله العاشق عبادةً حارّة حافلة بالأسرار هو كعبادة نِسْوَة الغرب ، فى الغالب ، لزوجهن السماويّ يسوعَ المصلوب .

وما فى ديانة وِشنو من الغرام يأتى فى الهند ذاتِ الجوّ المحرق وذاتِ السكان الملتهبى المزاج بنتائجَ مخالفةٍ للآداب الأوربية .

ونَجِد فى كجرات ، على الخصوص ، بعضَ المذاهب القائلة بعبادة كِرِشنا فيُدْعَى كُهّانُها بالمهاراجوات ، فمن أقصى آمال النساء هنالك أن يُصْبِحن عاشقاتٍ لكِرِشنا أى لممثليه أولئك الكُهّان الذين يبيعون قضاء الأوطار بأعلى الأسعار ، فاسمع ما قاله فى ذلك الكاتب الهندوسى السيد ملبارى الذى ذكرته غيرَ مرة :

« قد يرى الأوربيون أن المهاراجوية خرافةٌ شائنة أو طريقة شهوانية ساقطة، بيْد أن ألوف الأُسَر الهندوسية ستظلّ رازحةً تحت نيرها البهيمىِّ ما بقى هذا النَّير مستتراً تحت رائحة الطُّهْر » .

٤ — تنوع دِيانات الهند وتحولاتُها المستمرة



١٤٩ — دهلى . العصر المغولى ، مزار صفدرجنك بالقرب من دهلى (هذا الأثر الذى أنشىء سنة ١٧٥٤ هو آخر المبانى المهمة التى أقيمت فى العصر المغولى ، وهو مبنى من حجارة حمر مرصعة بالرخام الأبيض) (يبلغ عرض هذا المزار ثلاثين متراً)

رسمنا خطوط دِيانة وِشنو ودِيانة شِيوا ، وأشرنا إلى العقيدة القائلة بالثالوث المؤلف من هذين الإلهين ومن برهما فبدَت أساساً لجميع المعتقدات .

ومن المتعذر أن نَصِف للقارىءِ جميع دِيانات الهند التى لا تكاد تحصى وأن نَصِف ما يعتور هذه الدِّيانات من التحول الدائم ، فليس بين هذه الدِّيانات ما هو ثابت ، وكلٌّ واحدة منها ترْجِع إلى أقدم القرون فتجدُ مصدرها فى كتب الوِيدا ، نَعَمْ ، يجمعها اسم البرهمية الجديدة أو الهندوسية المشترك ، ولكنها بلغت من كثرة العدد والتنوع ما تُشَبَّهُ بورق الشجر فى غابة كبيرة ، وتميل كلُّها إلى التوحيد، ولا سيما أنها تشتمل على ألوف الآلهة وعلى أصنام حجرية وخشبية ، فى الغالب ، ممثلةً لأغلظ الأدوات ، ويُشْتَقّ من كل واحدة منها أفكارٌ فلسفية تورث العجب

بِغَوْرِها البعيد ، كما أنك ترى فى كلٍّ واحدة منها أسخفَ الخرافات .

وإذا أردنا أن نلخصها فى مجموعها ببضع كلمات قلنا إنها تقوم على الآلهة البرهمية القديمة المؤلفة من قُوَى الطبيعة التى أَلَّهَتْها كتب الويدا وشَخَّصها البراهمة ، ثم جاءت البُدَّهِيَّة فألانت هذه الآلهة المزعجة الحاقدة القاسية وجعلتها رحيمة ، وتجِد تأثير البُدَّهِيَّة ظاهراً فى جميع فروع البرهمية الجديدة لِما يَبْدو من تَسَرُّب روحها ذاتِ المحبة والرأفة فى كلِّ مكان ، وضاعت البُدَّهِيَّة ، التى هى بشريةٌ بما تأمر به من المحبة والتى هى فوق البشرية بفلسفتها المجردة ، بأحد الأمرين وانتصرت بالأمر الآخر ، فحافظ بُدَّهَة على ألوهيته بين الآلهة الكثيرة التى تملأُ المعابد مع تحوله إلى واحد من تَقَمُّصات وِشنو .



١٥٠ ــ دهلى (العصر المغولى) . ضريح من الرخام الأبيض فى داخل المزار السابق

ويمكننا أن نستخلص من اختلاط المذاهب والآلهة ذلك ثلاثةَ خطوط أو أربعةَ خطوط أساسية عن عبقرية الهند الدينية ، وهذه الخطوط تدور حول كيفية تصور العالم وميل الروح إلى التوحيد وميلِ الخيال إلى الإشراك والتسامح المطلق والإخاء بين العقائد المتناقضة ، ألم يكن هذا التنوع الذى لاحَدَّ له تُراثَ قدماء الآريين ونتيجةَ ذهنية هذا العرق الذى يُؤَثِّر فيه منظر الطبيعة الدائمُ التحولِ والمملوء عظمةً وتبايناً ؟ .

ولا تَجِد فى لغات الغرب الباردة المُتَّزِنة التى تُوصَف بها الآفاق الرائعة القاتمة المُمِلّة ، فى الغالب ، غيرَ ثلاثة نعوت أو أربعة نعوت صالحة لتعريف لون السماء

وشكل السحاب وحركة عين الماء ، حتى إن هوميروسَ نفسه دلّ بكلمة واحدة على نشاط أشيل أو جلالة جوبيتر (المشترى) فلم يتحول عن هذه الكلمة بجانب اسم كلّ إله أو بطلٍ مصوراً له بمنظار واحد على الدوام .

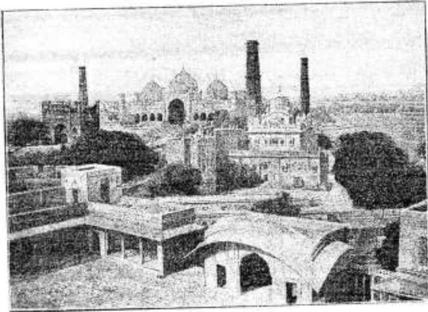
وغيرُ ذلك أمر الويدا ، فلا ترى فى كتب الويدا سحاباً واحداً ، بل ترى فيها ألوف السُّحُب من كلّ الألوان والأشكال المتحركة أو الثابتة بحسب ما تبدو للشاعر فى السماء بالحقيقة ، وفى الويدا ، كما فى الطبيعة ، تقلبٌ فى لَهَب أغنى وأمواج سوما وجَرْى الرياح وألوان الشَّفَق والفجر والآلهة الكثيرة مادام كلّ شىء إلهاً ، وتبصر مثل هذه الكثرة فى البرهمية الجديدة ماانقلبت مظاهرُ قُوَى الكون إلى آلهة هيولية .

وحينما يتَمثَّل الهندوسىّ المؤمن إلَهَهُ على وجه من وجوهه وصفة من صفاته يكون قد ألّف بذلك مذهباً ، ولايحتاج تأسيس مذهب إلى مؤسس برهمىّ ، ما أصبح أناس من الطبقات الدنيا من المصلحين فى بعض الأحيان ، فلا يكاد الحَبْر يجمع حولَه بعض المُريدين حتى يصيرَ زعيماً مرشداً ، وإذا لم يُقَيَّض لهذا الحَبْر أن يُفَسِّر مذهبه الخالص قام خلفاؤه المرشدون مقامه فى ذلك ، وقد يصير المرء مرشداً بالوراثة أو بالاستعداد ، ويكون المرشد فى الغالب من غير طائفة الكُهَّان ، ويبدو المرشد مُلْهَماً من الله فيتفق له نفوذٌ عظيم .

ونَعُدّ مؤسسَ مذهب السِّك نانَك من أشهر زعماء الهند المرشدين وأجدرِهم بالذكر فى تاريخها ، فنَانَكُ هذا وُلِد بالقرب من لاهور فى أواخر القرن الخامس عشر ، فخُيِّل إليــه أن يقيم ديانةً قائمة على التوحيد جامعة للمسلمين والهندوس ، فكان له الأتباع من الجاث التورانيين المقيمين بوادى السِّند .

داوم ذلك المذهب على الازدهار خلافاً لِما يحدث عادةً ، فلم يَمْضِ قرنان على

وفاة مؤسسه حتى نَظَّمه المرشد غووند سنغ تنظيماً عسكرياً فانقلب المذهب إلى شعب جسور غدا نذيرَ سوء على المغول و بدا مقاتلاً قوياً تجاه الإنكليز زمناً طويلاً ، ومما قلناه فى فصــل سابق أن السِّك أضحَوْا عرقاً حقيقياً من أجمل عروق الهند بفضل ما قاموا به منذ البَداءة من الرياضات البدنية و بفضل تزاوجهم فيما بينهم .

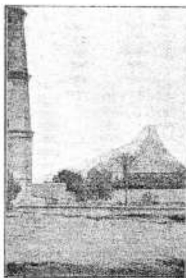


١٥١ ـ لاهور . منظر مسجد أورنغ زيب (أقيم فى القرن السابع عشر) ومنظر مزار رنجيت سنغها (أقيم فى القرن التاسع عشر) (التقطت هذه الصورة من أعلى القلعة)

أوردنا مثال السِّك لإثبات ما قد يُسْفِر عنه تأسيس المذاهب الدينية فى الهند من النتائج ، أجَلْ ، إن قليلاً من المذاهب يَصِــل إلى ماانتهى إليه مذهب السِّك من الأهمية ، غير أنه عَقَب جميعَ هذه المذاهب قيامُ طوائفَ جديدةٍ لا يتزاوج أفرادها إلا فيما بينهم عادِّين جميع سكان الهند أجانبَ عنهم كالأوربيين ، والحقُّ أن هنالك أسباباً كثيرة تحول دون انصهار شعوب الهند فى أمة واحدة ذات يوم ، وانقسامُ أهل الهند إلى طوائف يكفى وحدَه ليمنع حدوث هذا الانصهار .

ونذكر دِيانات سكان الهند الأصليين بجانب الدِّيانات الكثيرة التي جُمِعَت تحت اسم البرهمية الجديدة ، وقد قلنا بضع كلمات عن تلك الدِّيانات في الفصل الذي خصصناه للبحث في العروق ، ومن أظهر ما في تلك الدِّيانات عبادةُ جِنِّ الهواء وعبادةُ الحيوانات المؤذية كالأفاعي والأنمار ، ومما رأيناه في نِلْغيري وجودُ أقوام من الرُّعاة ، نذكر منهم البداغا والتودا على الخصوص ، يتخذون من أبقارهم وثيرانهم آلهةً ومن رُعاتهم كُهّاناً .

وقد أثَّرت تلك الدِّيانات الوثنية في البراهمة أنفسهم ، ومن ذلك الشأنُ الكبير الذي تراه لعبادة الحيوانات في جميع دِيانات الهند على الإطلاق ، والأفْعَى والبقرة أكثر هذه الحيوانات محلاً للاحترام ، فلا تجِد في الهند قوماً لا يُقَدِّسون لهما .



١٥٢ ـ لاهور . مزار رنجيت سنغها ومئذنة لمسجد أورنك زيب

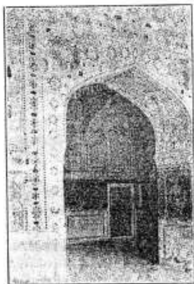
وذبحُ البقرة أو قتلُ الحيَّـة من أفظع الجرائم عند بُدَّهِيِّي نيبال وبراهمـة وادي الغَنْج ووحوش غوندوانا ، فترى صورة الأفْعَى بجانب تماثيل الآلهة في جميع المعابد ، وترى الثعبان والقرد خاصَّيْن بوشنو ، كما أن البقرة والثور خاصان بشيوا .

ويُعْبد الإله الشمس في الهند منـذ القديم ، وتُمْزَج عبادته بجميع دِياناتها ، وكان الآريون يتقربون إليه بالأدْعِيَة والصلوات ، فشادوا بذكره في أروع الأقوال ، وشَخَّصه

حَقَدتهم فى وِشنو كما رأينا ، وتجد من الآريين والدراويد والسكان الأصليين من يَدْعون الإلهَ الشمسَ رأساً من غير أن يُشَخِّصوه .

٥ — أشكالُ ديانات الهندوس الخارجية

يُحِبُّ الهندوس الصورَ والعلائم الخارجية ، فهم شَكْلِيُّون فى ممارسة أديانهم مهما كان نوعها ، وتجد معابدهم مملوءة بالرموز التى تشير إلى عضو التوليد وعضو الاستيلاد ، وبلغوا من الغُلَوَاء فى ذلك ما ترى أعمدة أشوكا حافلة معه برموز عضو التوليد ، وهم يجدون فى كلّ أسطوانة أو سارية أداة للاحترام والتقديس .

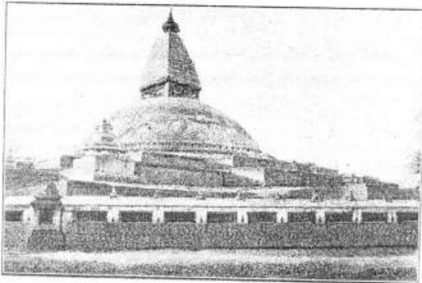


١٥٣ — لاهور . مدخل رواق فى قصر المرايا (يرجع أقدم أجزاء قصر لاهور إلى عهد الملك أكبر وهى الآن صائرة إلى الخراب ، وقد بنى مدخل الرواق الظاهر فى هذه الصورة حينما كان رنجيت سنغها ملك لاهور)

ومما يَجْلِب الثواب عند الهندوس النذورُ والتوبة والتقشف وتلاوة الكتب المقدسة والأورادُ والصلوات والحجُّ ، فيقومون بهذه الواجبات خير قيام ، ولا ترى قوماً ، كالهندوس ، يتشدَّدون فى ممارسة الفروض الدينية .

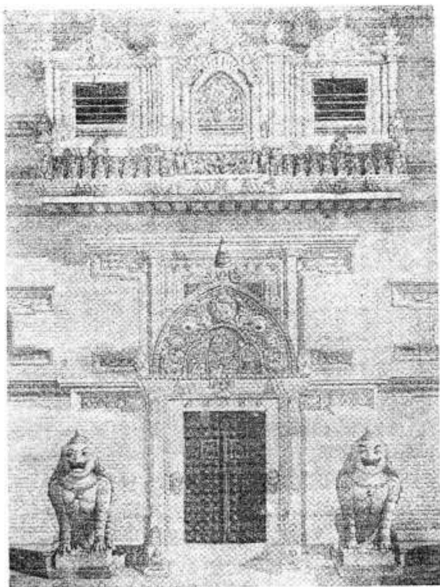
والرِّگ ويدا أكثر الكتب دِراسةً من قِبَل البراهمة والمؤمنين ، وينال من يتلوه ثواباً عظيماً ، وللغة السَّنْسكرتية التى كُتِب بها شأن كبير لدى الهندوس كشأن اللاتينية لدى الكاثوليك وشأن العبرية لدى بنى إسرائيل ، ولا بُدَّ للأدعية عند الهندوس

من أن تُحفظ وتُكرَّر عن ظهر القلب عِدّةَ مرات ، فتراهم يستعينون على ذلك بالسُّبُحات ، واستُعمِلَت النواقيسُ في المعابد البُدّهية على الخصوص ، ثم استُبدِلت الأقراص النحاسية بها في المعابد البرهمية على العموم ، وكانت القرابين كثيرة فيما مضى فتألف منها أهمّ الشعائر الدينية ، ثم فَقَدت اليوم شيئاً كبيراً من سابق شأنها ، وما كان لِيُوضَع على مذبح وِشنو غيرُ الأزهار والأثمار ، مع أن القرابين الدامية ، ومنها القرابين البشرية في بعض الأحيان ، كانت تُقرَّب إلى شِيوا .



١٥٤ ــ بدهة ناتهه (نيبال) . منظر المعبد الكبير (يبلغ ارتفاعه نحو ٤٢ متراً ويبلغ قطره نحو ٩٠ متراً) (انظر إلى المطاف الخاص بفن البناء الهندى التبتى من فصل فن البناء للوقوف على تاريخ إقامة مبانى نيبال)

وكان للكهنة أهمية كبيرة ، وكانوا أعظمَ ثقافةً مما هم عليه في أيامنا ، وكانوا يفسرون المؤمنين نصوصَ الكتب المقدسة الغامضة مجاناً ، وكانوا يمارسون في معابدهم الرائعة الطقوسَ ويُقرّبون القرابين باحتفال عظيم .



١٥٥ ـ پتن (نيبال) . باب قصر الملك (مصنوع من البرونز)

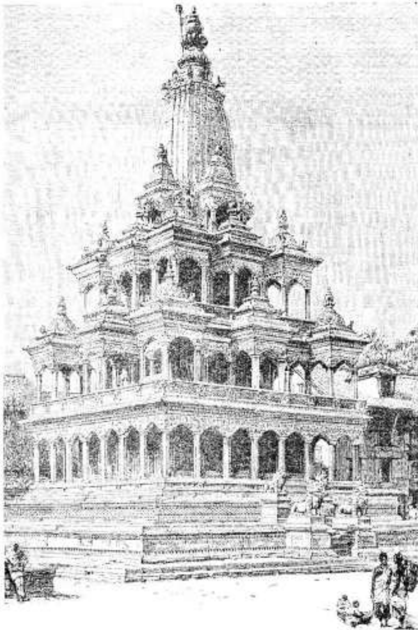
وكانت مظاهرُ الأُبَّهة فى بعض المعابد المشهورة بالهند بادية ، وكانت أيام الأعياد الدينية تتمّ رائعةً ، ولا يزال الحجيج الذين يزورون بنارس وجَكَن ناتهه ومعابدَ جنوب الهند الكبيرةَ يُعدُّون بمئات الألوف فى كل سنة ، وداخلُ هـذه المعابد ، ولا سيما داخـل ما هو قائم منها فى جنوب الهنـد ، رائعٌ إلى الغاية ، وهو يُحَرِّك نفوس المؤمنين الذين يأتون من أقاصى البلاد تحريكَ احترامٍ ووَجَلٍ ليَضْرَعوا إلى الآلهة المرهوبة .

وأماكن الحجّ الشهيرة مشتركةٌ ، فى الغـالب ، بين الدِّيانتين الكبيرتين : الوِشنوية والشِّيوانية ، فيختلط أتبـاع تينك الدِّيانتين بعضهم ببعض فى المواسم ، وغير قليل أن يحضر المسلمون هـذه المواسم عن تقوى ، لا للاستطلاع فقط ، فيُعَظِّم الجمهور بهم .

ولا مكان للحجّ فى الهند أشهرُ من جَكَن ناتهه أو بورى الواقعةِ على شاطىء أوريسة ، ولا مكانَ فى الهند يتجَلَّى فيه الإخاء بين أديان الهنـد واختلافها كذلك المكان الذى يُمَثِّل جميعَها فيـه ، فالهندوسىّ ، مهما كان دينه ، ومهما كان بُعْد البلد الذى يسكنه ، ومهما كانت مصاعب الرِّحلة ، لا يألو جُهْداً فى زيارة جَكَن ناتهه مرةً واحدة فى عمره .

ويقاسمُ وِشنو الكثيبَ المشؤومَ شِيوا عبادةَ الجمهور الذى يبلغ بتقواه الهائجة درجةَ الهذيان ويُسَيِّر الجمهورُ مركَبَه أى معبدَه الدَّوَّار ، وبلغ بعض متعصبى الجموع من الحماسة فى غابر الأزمنة الابتدائية ما كانوا يُلْقُون به أنفسهم تحت عَجَله فَرِحين .

وفى الهند أماكنُ حَجٍّ كثيرةٌ أقلُّ أهميةً من بنارس وجَكَن ناتهه على العموم، وتُعَدُّ ضِفاف نهر الغَنْج مقدسةً من منبعه إلى مَصَبِّهِ فيأتى المؤمنون إلى زيارتها من



١٥٦ ــ پتن (نيبال) . المعبد الحجرى الكبير القائم أمام قصر الملك (هذا المعبد هو الذى ترى قسما منه فى الصورة التى رقمها ٧ ، فهذا المعبد هو ، بالحقيقة ، من أكثر مبانى الهند بداعة ، وقد التقطنا جميع صور هذا الجزء من كتابنا بأنفسنا لتزيين ما نشرناه فى مجلة « حول العالم » من أنباء رحلتنا فى نيبال)

أقاصي البلاد ، وتُعَدُّ مياه الغَنْج مقدسة أيضاً فتُنقَل بين مكان وآخر في الهند بأجْر عالية ، ولا تخلو قصور بعض الراجوات من مقادير منها للغُسْل .

ذكرنا في وصفنا لطبيعة بلاد الهند ، وذلك حين البحث في أنهارها ، أن الهندوس يَعُدُّون جميع مجارى المياه مقدسة ، ولا نهرَ في الهنـد ، مع ذلك ، يَقرُب من نهر الغَنْج تقديساً ، وتَرْجِع عبادة الينابيع والسُّحُب والرياح الموسمية في الهند إلى أقدم العصور ، ومن الطبيعى أن يقوم الهندوس بهذه العبادة في بلد الجفاف حيث يَجْلِب الماء معه الحياةَ وحيث يموت سكانٌ كثيرون حين يَقِل الماء .

٦ — الجَيْنِيةُ

خَصَّصْنا في هذا الفصل مطلباً للجَيْنِيةِّ التي تزعم أنها دِيانة مستقلة عن البُدَّهية والبرهمية وإن كان هذا الزعم لا يقوم على أساس صحيح .

فالحقُّ أن الجَيْنِيةَّ مشتقةٌ من تينك الدِّيانتين معاً ، فلها فلسفة البُدَّهية وطقوسُها وأساطيرها وإن فُصِلَت عنها منذ القديم فعاشت بعدها بسبب ما تَنَزَّلت عنه للبرهمية من الامتيازات .

ونجهل تاريخ الجَيْنِيةَّ ونشوءها تماماً ، ونرى ، مع ذلك ، أنها مَثَّلَت دوراً مهماً في أحد العصور ، ودليلنا على ذلك أن المعابد الجَيْنِيةَّ التي شِيدَت في القرن العاشر من الميلاد تُعَدّ من أجدر مبانى الهند بالذكر ، ونَجِد قبل إقامة هذه المعابد العجيبة آثاراً للدِّيانة الجَيْنِيةَّ في كتابات ميسور التي خُطَّت في القرن الخامس من الميـلاد وفي مراسيم أشوكا التي ورد فيها ذكر لواحد من مذهبيها الـكبيرين ، والجَيْنِيةَّ هذه كانت دِيانة الدَّكَن في زمن الحاجِّ الصينيِّ هيوين سانغ .

والجَيْنِيَّة قديمةٌ قِدَمَ البُدَّهِيَّةِ تقريباً ، ويجب عَدُّها فرعاً من البُدَّهِيَّــة إلى أن يقوم دليل على خــلاف هذا ، ولا شيء يدلُّ على أنهــا أقدم من البُدَّهِيَّة كما يزعم أتباعها .

ويعتقد الجَيْنِيُّون ، كالبُدَّهِيِّين ، أزلية العالم ، ويُنْــكِرون ، مثلَهم ، كلَّ خالق ، ويختلفون عنهم فى كيفية النظر إلى النِّروانا التى هى عنــدهم جَنَّةٌ حقيقية أو سعادة تَحْظَى بها روح الإنسان ، لا فَنَاء .

ويرى الجَيْنِيُّون ، كالبُدَّهِيِّين ، أن النِّرْوَانا تُبْلَغ بعد مجاوزة سلسلة من الـكَيْنُونات تتدرج حلقاتها إلى الـكمال حتى تنتهى إلى جَيْنَا الذى هو آخرها فيبدو لنا أنه متحد بِبُدَّهَة ذاتاً .

والجَيْنِيُّون ، كالبُدَّهِيِّين الذين يقولون بِعِدَّةِ بُدَّهات بجانب شا كيــموني ، يَرَوْنَ جَيْنَاوات بجــانب جَيْنا على أن عددهم بلغ أربعة وعشرين جَيْنا ، فهؤلاء (الـ ٢٤ جَيْنا) هم آلهة الجَيْنِيَّة العليا .

ويرى الجَيْنِيُّون آلهةً وإلاهات ثانويةً بجانب أولئك الجَيْنَاوَات الذين بلغوا تلك المرتبة بتكامل متلاحق نابذين أثقال الحياة ، وتقول الجَيْنِيَّة ، من جهة العمل ، بتعدد الآلهة كالبرهمية ، فــكان لِلْجَيْنِيَّة مثلُ نصيب البُدَّهِيَّة من هذه الناحية ، فهى مع قيامها نظريًّا على الإلحاد كالبُدَّهِيَّة ، وذلك من ناحيــة التأملات الفلسفية ، لم تلبث أن استحوذت عليها آلهة ما ابتلعته من الأديان إلى حين .

ولم تَسْطِع الجَيْنِيَّة أن تعيش على وِئام مع البرهمية التى هى دِيانة الهند القديمة بسبب اعترافها بالآلهة البرهمية فقط ، بل لإعلانها أيضاً نظام الطوائف الذى دحضته

البُدّهِيّة روحياً إن لم يكن زمنياً ، فلم يكن البراهمة ليقاتلوا ديانة تعترف بمقامهم القديم وتقول بأن من أهمّ الواجبات احترامَهم المطلق .

وطقوس الجَيْنِيَّة وأساطيرها نسخةٌ من طقوس البُدّهِيَّة وأساطيرها ، فجَيْنا الأعلى مطابقٌ لآدى بُدّهَة الذى تقول به بُدّهِيّةُ نيبال ، وهنالك موافقة بينه وبين شاكيه مونى وِلادةً وحياةً وظهوراً وأمراً ونَهْياً ، فهما متحدان ذاتاً ومعنًى وإن اختلفا اسماً .

والاعـتراف والنواقيس والحجّ مما تَجِده فى كلتا الديانتين ، وللرهبانية شأنٌ واحد فى هاتين الديانتين .

وللجَيْنِيةّ ، كما للبُدّهِيّة ، كتبها الدينية ، وهى ، مثـلُ البُدّهِيّة ، ترفض عدَّ الويدا حُجّةً .

ولا تَجِد ديانة تَمْتَدُّ بالمعابد امتدادَ الجَيْنِية ، ولا تَجِد ديانة شادت من المعابد الكبيرة الغالية أعظم مما شادته الجَيْنِيّة ، فالحقُّ أن معابد كهجورا وجبل آبو الجَيْنِية هى عجائب فنّ البناء فى الهند ، والحقُّ أنه يُخَيَّلُ إلى الناظر فى أروقتها شِبْهُ المظلمة اهتزازَ قوم من الخلائق الغريبة المنقوشة على الحجر يُشعُّون حياةً ويكتنفون أحد الجَيْناوات البادى هادئاً رزيناً متربعاً فى جلوسه على العموم، والحقُّ أنك إذا عدَوْت الرموز التى تُمَيِّزُ الجَيْناوات الأربعة والعشرين بعضهم من بعض اعتقدتَ وجود جَيْنا واحد ما مُثّل أولئك الجَيْناوات عُراةً ذوى ملامحَ واحدة .

ورُسِمت على صدور الجَيْناوات وحولَ أعناقهم خطوطٌ مختلفة ، ونُقِشَت فى أكُفِّهم وتحت أخامصهم[(١)] إشاراتٌ خاصة على شكل السَّدْر أو الدولاب اللذين

(١) الأخامص: جمع الأخمص ، وهو مالا يصيب الأرض من باطن القدم ، وربما يراد به القدم كلها.

هما رمز دَهرما البُدّهيّ ، أى الشريعة والحياة .

وترى للجَيْنيّة أتباعاً كثيرين فى الهند ، وتبدو الجينيّة مزدهرة فى الكجرات وفى جميع شبه جزيرة كاتهياوار تقريباً .

٧ — مبادئ جميع أديان الهند العامة

يَنْطَبِق وصفُنا الوجيز لديانات الهند على جميع الدور الذى دام من زمن بعث البرهمية الجديدة إلى أيامنا ، ولم تتغير طقوس هذا الدور منذ ألف سنة .

ويجب أن تطبق روح الوَحدة ، التى لاحت لنا من خِلال تلك التموجات والاختلافات ، على جميع أدوار الدّيانات فى الهند إذا ما وُفِّقنا لجعل القارىء يَلْمُسها ، فليست الويدية والبرهمية والبرهمية الجديدة ، بالحقيقة ، إلا ديانةً واحدةً تُعد البُدهية والجَيْنِيّة فرعين لها .

ترى جميعُ أديان الهند أن الحياة شرٌّ ، وأن المادة مظهر حطيط لمبدأ الحياة ، وأن الطبيعة سلسلة تطورات دائمة ، وأن الآلهة والناس ظواهر باطلة ومظاهر وهمية للأصل الأعلى ، أى ابرهما العظيم ، وأن هذا الأصل الأعلى هو الله الواحد الذى يَهَب الحياة لجميع الموجودات وإليه يَصْمَد جميع الأديان ، سواء عليك أدعوته بأغْنى أم دعوته ببرهما أم ببُدّهة ، وأن الأجداد والحيوانات وقُوَى الطبيعة والجنّ والغيلان والأبطال الذين يتقمّصهم لا يلبثون أن يصبحوا موضوعاتِ عبادة ثم أصناماً للجماهير ، وأن الروح الخالدة تنتقل من موجود إلى موجود حتى تَفْنَى فى الأصل الأعلى ، وأن أفعال الإنسان فى هذه الدنيا تُقرِّر أحوال كِيانه القادم .

ويَشْعُر القارىء بالفروق التى يُمَيِّز بهـا بين فروع الدّيانة الهندوسية الثلاثة الكبرى القديمة والحديثة حينما يتمثّل الويديةَ وقُرْبَها من دين الطبيعة الفطريّ ،

والبرهمية ومجرداتها وحقدها وشؤمها ، والبرهمية الجديدة وتَشَرُّبها روحَ المحبة التى أسفر عنها الإصلاح البُدَّهىّ ، وأما الشكليات فقد تغيَّرت ولاتزال تتغير ، فلم ينفكَّ خيال الهندوس الخصيب ، الذى زادها كثيراً ، عن نشاطه فيُعَدِّلها بلا انقطاع .



١٥٧ — بتن (نيبال) . عمود من الخشب المحفور فى أحد البيوت

٨ — الإسلام فى الهند

لدين محمد أتباعٌ كثيرون فى الهند ، فقد بلغ عددهم فيها خمسين مليوناً ، أى خُمْس سكانها ، ولا يزال هذا العدد يزيد بمن يعتنقون الإسلام فى كلّ يوم .

ولا شىء أسهل على الهندوسى من انتحال دين جديد مع محافظته على دينه القديم فى الغالب ، فالهندوسىُّ مستعدٌّ بطبيعته لاعتقاد كل شىء ، والهندوسىُّ إذا ما رضى بآلهة جديدة لا يتضمن ذلك ، على العموم ، أنه ترك الآلهة القديمة ، وإنما يؤدى ذلك إلى زيادة عدد آلهته ، ويعمل الهندوسى تارةً بأوامر آلهةٍ وتارةً بأوامر آلهةٍ أخرى ، وذلك على حسب ما تمليه عليه حرفته أو طراز عيشه أو إحدى المصادفات .

وكلما صَعِدْتَ في سُلَّمِ الطبقات الاجتماعية وجدت الفروق واضحة ، فترى بين من هم على شيء من الثّقافة مسلمين حقيقيين وبراهمة حقيقيين ، ولكنك إذا ما هَبَطْتَ إلى الشعب وجدت اختلاط تينك الدّيانتين في بعض المرات اختلاطاً تاماً ، فتُبْصر محمداً والأولياء المسلمين آلهةً لها ما لآلهة الهندوس من الصفات ، وما أكثر ما تتبادل تانك الديانتان الطقوسَ جامعةً لأتباع مختلف المعتقدات أحياناً .

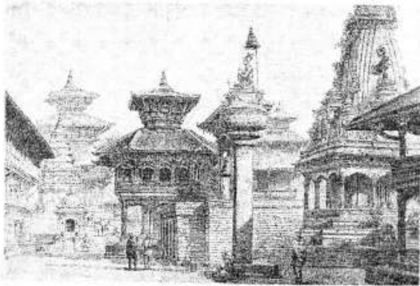
فانْظُر إلى بُوهرا الكجرات الذين هم من الشِّيعة المسلمين والذين هم من سلالة قدماء الهندوس ، لا من سلالة قدماء المسلمين ، تَجِدْهم لا يعملون بتعاليم محمد إلا قليلاً ، وتشابه طقوسُهم بعضَ الطقوس الهندوسية مشابهةً تامة .

وأهلُ السنة ، الذين تتألف منهم أكثرية المسلمين في الهند فيَعُدُّون أنفسهم على الإيمان الصحيح ، يزدرون الشِّيعَة ، وما بين هاتين الفرقتين الإسلاميتين من الاختلاف فأكثر مما بينهما وبين الهندوس ، وهذا إلى أنك تشاهد انقسامهما إلى فرق صغيرة كثيرة .

وقولُ الإسلام بالمساواة من أهمِّ الأسباب في تقدمه السريع ، فالحرص والرغبة في رفع النِّير الثقيل عن الكواهل ممـا يَدَعُ ملايينَ الناس إلى اعتناق دين النبيِّ طائعين مسرورين .

بَيْـد أن الدين الذي جاء به محمد بسيطٌ عند قوم تَعَوّدوا عبادة آلهة كثيرة جداً ، فلذلك لم تنجح جميع الجهود التي بُذِلَت لحمل الهندوس على التوحيد ، بل أدَّت إلى إضافة إلهٍ جديد إلى الآلهة التي كانوا يَعْبُدونها ، فالحقّ أن كثيراً من الهندوس المسلمين يُؤَلِّهون محمداً ، ثم أخذوا يُؤَلِّهون صِهْرَه عَلِيًّا ، وأن أبناء طبقات المسلمين الدنيا يُؤَلِّهون كثيراً من الأولياء ، فيَخْلِطونهم بالآلهة البرهمية القديمة .

وخَلْطٌ بين المعتقدات كهذا الخلط المُؤَدّى إلى أسخف الخرافات وإلى الوثنية ، أحياناً ، مما أوجب ظهور مصلحين لتطهير العقائد العامة وتحويلها إلى توحيد راق .
ذلك أمر كبير الذى ظهر فى القرن الخامس عشر فثار على القرآن والويدا فجَدَّ فى إقامة ديانة روحية واحدة مقامهما ، وذلك أمرُ نَانَك مؤسس مذهب السِّك ، وذلك أمرُ رام مُوهَن رَاى الذى مارس ديانة مقتبسة من النصرانية والإسلام والبرهمية ، وذلك أمرُ الملك أكبر المرتاب الذى خُيِّل إليه صَهْرُ ديانات الشعوب التى كان يَمْلِكها .



١٥٨ ـ بهات غاؤن (نيبال) . ميدان قصر الملك

نَعَمْ ، جَمَع أولئك المصلحون بعض الأنصار حولهم ، غير أن نجاحهم كان محدوداً على الدوام ، وهم لم يُوَفَّقوا ، فى الحقيقة ، إلا لزيادة أديان الهند عما كانت عليه من قبل .

وبدا الإسلام كما يزاوله القوم فى الهند ، متموجاً متحولاً على حسب الطابع الذى يتجلى فى جميع معتقدات الهندوسيّ الدينية ، ولم يُوَفَّق الإسلام لنشر المساواة بين جميع الناس فى البقاع الهندية التى يهيمن عليها فكانت سبب دخول الناس فيه أفواجاً ، فالمسلمون فى الهند يعرفون نظام الطوائف عملياً إن لم يَعْرِفوه نظرياً .

واقتبس الإسلام فى الهند من البُدَّهِيَّة ومن البرهمية ، فمن ذلك أن جميع المسلمين يمارسون عبادة الذخائر العزيزة على البُدَّهِيِّين ، فترى عندهم شَعَرَاتٍ من لِحْيَة النبيّ كما ترى عند البُدَّهِيِّين شَعَرَاتٍ من شاكيه مونى ، ومن ذلك أن أتباع الدِّيانات الثلاث يُقَدِّسون لبعض آثار الأقدام بحسب ما يَرَوْنها لِقَدَم برهما أو بُدَّهَة أو محمد .

والخلاصةُ أن الإسلام عانى نفوذ أديان الهند القديمة أكثر من أن يُعَدَّها ، وأنه ظلّ منتشراً فى وادى الغَنْج وفى كجرات على الخصوص ، وأن له أتباعاً كثيرين فى الدَّكَن ، وأنه لا يكاد يُفَرَّق عن البرهمية عند الدراويد فى الدَّكن .

ولكن المسجد الصامت العارى يُفتَح فى جميع مدن الهند بجانب المعبد المملوء بالأصنام ، وكلما تَقَدَّمت الحضارة وتَنَوَّر الناس زاد عدد المسلمين فيسفر عن لِين تعصب الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإله واحد فى ذلك القطر المملوء بالخرافات انحناء النفوس بالتدريج أمام جلال الله وعظمته .

حَقّاً أن فَتْح الإسلام للهند لَمّا يَتِمّ ، وهو سائرٌ ، صامتاً بطيئاً ، على طريقه فلم يَقِف تَقَدُّمه سلطانُ إنكلترة النصرانية .

٩ — تأثيرُ الدين فى الأخلاق عند الهندوس

أشرنا فى الفصل الذى درسنا فيه مزاج الهندوس النفسىّ إلى الهُوَّة بين الدِّيانة والآداب عندهم ، وترانا نؤكد هــذا الأمر الذى يَعْسُر على الأوربيين إدراكه ، فالآداب ، أى قواعد السلوك عند الأوربيين اشتُقَّت من الدِّيانة رأساً منذ قرون ، وبلغت الآداب من الارتباط فى المبادئ الدينيــة مبلغاً لا نــكاد نُبْصِر معه انفصالهــا عنها .

واستقلال الدِّيانة عن الآداب عند الهندوسىّ تامٌّ تقريباً ، وقيل عن الهندوسىّ ، بحقّ ، إنه كان أشدّ الأمم تديناً ، وإذا ما نُظِر إليه من الناحية الأوربية وُجِد ، بحقّ ، أقلّ الأمم آداباً على ما يحتمل .

أجَلْ ، إن نَيْل الحظْوَة لدى الآلهة والتَّوَدُّد إليهما هما الغاية التى يسعى إليها الهندوسىّ فى أدقّ أعماله ، فلا تَغيب هذه الغاية عن عَيْنَيْه ثانيةً ، ولــكن العَجَب يعترى الباحث إذا عَلِم أن مما قيل له هو : أن الآلهة أقلّ العالَم اكتراثاً لصدق علائقه بالناس ولنقاء حياته وإخلاصه فى القول والعمل ، وأن تلك الآلهة القادرةَ على كلّ شىء أقلُّ الموجودات غَضَباً من أجل سَرِقَته لمال جاره أو قتله لولده .

ويصبح الهندوسىّ عُرْضَةً لانتقام الآلهة الشديد إذا تَرَكَ الصلاة أو الدعاء أو تلاوة الــكتب المقدسة أو لم يَحْضُر الاحتفالات الدينية أو ذبح بقرةً أو لم يَقُم بواجب الطهارة أو لم يَغْسِل يديه قبل الطعام أو لم يَغْسِل فَمَه بعده .

تلك هى الذنوب التى تُثِير سُخْطَ الآلهة ، وإذا نظرت إلى الشعائر الدقيقــة الــكثيرة التى يقوم بها الهندوسىّ فى أدقّ شؤون حياته وجدتَها قد وُضِعت لتمجيد

القُوَى السماوية ودفع غضبها ونيل بركتها وأن الهندوسيّ يرى صدورها عن الآلهة وأنها تشابه وَصَايا موسى عند النصارى و إن كان ستٌّ من هذه الوصايا من الآداب .

وقد كُرِّرَت الوصية : « أ كْرِمْ أباك وأمّك ، لا تَقْتُلْ ، لا تَزْنِ ، لا تَسْرِقْ » تكراراً متصلاً باسم الله فيَعُدّ بعض الأور بيين عزوَها إلى الإنسان كفراً ، ولا تطالب الآلهة الهندوسَ بشيء من ذلك ، وهي تطالبهم بالقرابين والحجّ والتوبة والصلاة والقيام بشعائر في كلّ حين ، وأما غيرُ هذا فمن الأمور المادية النفعية العملية التي هي من شأن الإنسان وحدَه ، فلا تبالي الآلهة بها أبداً .

وكيف يروق أدبُ الحياة الآلهةَ التي هي عنوان قِلّة الأدب ؟ لقد استهْزِئ بجوبيتر (المشترى) الإغريقي الفاجر ، وبمِرْكُور (عطارد) اللصّ وبڤِينُوس (الزهرة) البَغِيّ فلم تُطَالِب هذه الآلهة الإغريقية عبادَها بالأدب أيضاً ، فالحقّ أن الأدب عند الإغريق ظلّ منفصلاً عن الدين أيضاً ، والحقّ أن الآلهة عند الهندوس لم تُبَال بالطُّهْر والعَفَاف كما أن سكان الأولمبيا الإغريقية (الآلهة اليونانية) لم يبالُوا بهما .

وهنالك صنفان من الواجبات يسيطران على حياة الهندوسيّ وهما : الأوامرُ الدينية ، أي أمور العبادة ، والطهاراتُ التي هي من الواجبات الدينية مع أن لها مصدراً آخر ، فأما الصنف الأول فقد نشأ عن ضرورة التَّوَدُّد إلى الآلهة الهائلة القادرة على إثارة الأعاصير و إصابة الناس بضروب الجدْب والأوْبِئَة ، وأما الصنف الثاني فمصدره ضرورة التطهر من أناس من الطوائف الدنيا وقع عَرَضاً .

فمن مراعاة ذينك الصنفين الأساسيين (وهما استعطاف الآلهة بالعبادة وتوكيد

نَقَاوَة الطائفة) تتألف قواعد الآداب لدى الهندوس تقريباً وما فى شرائع مَنُو من القواعد فيُرَدُّ إلى ذينك الصنفين ، وما تراه فى الغرب من الواجبات الأدبية فصادرٌ عن الدين مع أنه لا علاقة له بالدين فى الهند .

وارْجِع البصرَ إلى شرائع مَنُو تَجِدْ أن مخالفة أتْفَه الشعائر يُعَدّ لدى الهندوسىّ جرماً عظيماً لا يُكَفَّر عنه إلا بضروب التعذيب وبالقتل فى الغالب ، وأنه يمكن السارقَ والقاتلَ أن يُكَفِّرا عما اقترفا بالتوبة والاستغفار .

وإذا عَدَوْت زِناء الأزواج الذى يُهَدِّد كِيان الأسَر والعرق تهديداً عظيماً رأيتَ جميع الذنوب الحسية قليلةَ الخطر لدى الهندوس ، فما يمارسه الهندوس من العبادات الشهوانية يَدْعُهم إلى التَّحَلّل دَعًّا ، ولا ينقلب الغرام إلى جرم إلا إذا كانت الطائفة الدنيا محلَّه .

ويَتَوَقَّف جرم القتل على صنف المَجْنِيّ عليه ، فإذا كان المجنىُّ عليه بقرةً أو برهمياً كان الجرم عظيماً ، ويكون الجرم من الصغائر فى أية حالة أخرى ، وترى أنواعاً للقتل لا تُعَدّ من الآثام كقتل البنات .

وليست آداب الهندوسى ضعيفة فقط ، بل إن مالديه منها خاصٌّ بالذين يُولَدُون مرتين ، فما على الشُّودْرِيّ سوى الخضوع المطلق .

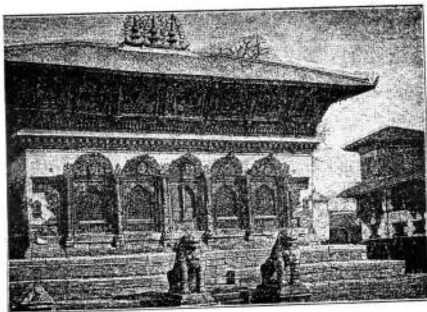
قال الأُسقف إبِر : « يجب على الشُّودْرِيّ أن يجتنب الذنوب الآتية : ذبحَ بقرة وإساءةَ برهمىّ وتركَ إحدى الشعائر التافهة التى تُستعطف بها الآلهة كما يُفْترض » .

وتختلف تلك الآداب الهزيلة بحسب الطوائف ، وهى تَعُدّ الذنوب من الكبائر

أو الصغائر على حسب طبقة الجانى أو المَجْنِىّ عليه ، وهى لا تُقاس بأهميــة الدين الذى يستوعب الروح و يستغرق أدقّ أعمال الحياة .

« فالهندوسىُّ يسير و يجلس و يشرب و يأكل و يعمل و ينام دِينِيًّا » .

هذا ما قاله هندوسىٌّ ، وهو قول واقعىّ ، فالهندوسىُّ لا يَسِيحُ ولا يبدأ بالطعام ولا يتلقّى صديقاً ولا ينام من غير أن يعوذ بالآلهة، والهندوسىُّ لا يَخِيط ثوباً ولا يَلْبَس حُلِيًّا إلا بوحى دينىّ ، والهندوسىّ يسكُن ، لذلك ، قطراً يُعَــدّ أكثر أقطار العالم شعائرَ وعبادات .



١٥٩ — كهات مندو (نيبال) معبد من آجر وخشب منقور

والعنصر الأدبىّ الوحيد الذى نَفَذَ طبيعةَ الهندوسىِّ هو روح المحبة البُدْهِيَّة ، وتسرّبت هذه الروح فى صميم الشريعة الشديدة التى وُضِعَت إرضاءً للآلهة الوهمية

القاسية ، لا من أجل صلاح الناس ، فألا تنها وأضافت إلى تعاليمها الجافية الثقيلة مبادئ محبة وكرم ، فالحق أن العصر البُدّهِيّ هو أكثر أعصر الهند أخلاقاً ، ولا يزال تأثيره الطيب بادياً حتى اليوم .

وما تَحَلَّى به الهندوسيّ من الصفات ، كالحلم والوفاء للسادة وحبّ الأسرة وروح التسامح العجيبة ، فمن مقتضيات سَجِيَّته ، لا من مقتضيات آدابه ، وأكثرُ صفاته تلك هى ، مع ذلك ، منفعلةٌ غيرُ فاعلة ، فالهندوسيّ يَعْرِف كيف يُطيع ، ولا يبدو حسناً إلا حين خضوعه لسيد ، وهو إذا ما ساس ظهر ظالماً مستبداً جباراً ، ولا تَجِد فى الهندوسيّ صفة يمكن أن يقال إنها ثمرةُ أدب دينيّ أينعت مع القرون ، ولم ينشأ الأدب فى الهند مع أن للدين سلطاناً عظيماً فيها على الدوام .

فالهندوسيّ ، إذَنْ ، رجل دين ، لا رجل أدب ، وقد تَمَوَّد الخضوع والانقياد لما فُطِر عليه من الأخلاق الهيِّنة التى اقتضاها الاستعباد الطويل وجوُّ بلاده المُبْطِلُ للنشاط ، ولو كان شعورُ الهندوسيّ الأدبيّ رادعَه لكان من أقسى شعوب الأرض طُرًّا وأشدّها خطراً ، ولكنك تَجِد سرّ عدم أذِيَّته فى سَجِيَّته .

الفصل الثالث

النظم والطبائع والعادات

(١) القرية والتملك ـ القرية في الهند وحدة سياسية لا يعلوها سوى الدولة ـ القرية وحدها هي وطن الهندوسي ـ نظام القرية ـ الشركة في الأموال ـ اختلاف نظام الأملاك في مختلف أجزاء الهند ـ (٢) الأسرة ـ حال المرأة في الهند ـ القرية عشيرة أو أسرة مشتركة ـ سلطان رب العائلة المطلق ـ انقياد المرأة ـ الزواج ـ عادة انتحار الأيامى ـ الأولاد ـ احترام الأم ـ (٣) نظام الطوائف ـ نظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نظم الهند السياسية منذ ألفي سنة ـ نشأ هذا النظام عن ضرورات عرقية ـ أسباب دوام هذا النظام ـ كيف يخسر الإنسان طائفته ـ في دستور الهند الطائفي سر خضوع الهندوسي لسادة من الأوربيين ـ سلطان نظام الطوائف في الهند ـ نظام الطوائف مما قال به جميع الفاتحين ومنهم الإنكليز ـ الطائفة الإنكليزية ـ هذه الطائفة محكمة إحكام الطوائف الأخرى ـ (٤) الحقوق والعادات ـ أطوار الحقوق القطرية في الهند ـ العادات المحلية والتعاليم الدينية هي أساس هذه الحقوق ـ لا يتصور الهندوسي وجود شريعة واحدة للجميع ـ مايلاقيه أولياء الأمور الإنكليز من المصاعب ـ عادات الهندوس في المواريث ـ (٥) الزراعة ـ الهند قطر زراعي على الخصوص ـ مصادر الزراع ـ الفقر وزيادة السكان ـ (٦) العامل الهندوسي ـ حال هذا العامل الاجتماعية أفضل من حال العامل الأوربي ـ حذقه الفني ومهارته اليدوية ـ (٧) حياة الهندوس العامة والخاصة ـ أبهة الطبقات الغنية ـ بساطة الحياة الخاصة لدى جميع الطبقات ـ المساكن ـ الولائم ـ الاستقبالات ـ الأزياء ـ المدن والقرى ـ الأعياد والحج ـ تربية الأولاد ـ النكاح ـ المآتم ـ الراقصات ـ استقبال ملوك الهند للأجانب .

١ — القرية والتملك

بدت القرية ، منذ أقدم عصور الهند ، جماعة سياسية منظمة تامة الوحدة لا يعلوها سوى الدولة .

فالحق أن القرية هي وطن الهندوسي ، ففي القرية تتجلى مقتضيات الاجتماع ، ففيها يجد الهندوسي الحكومة الأبوية الحامية له ، والقاضي الذي يرد عليه حقه ، والكاهن الذي يوجه روحه ، والطبيب الذي يداوي جسمه ، والشاعر الذي يسحر فؤاده ، والراقصة التي تفتن عينيه ، وأبناء عشيرته الذين يلتفون حوله كأسرة هو ابنها .

وما يبغي الهندوسي من الوطن الكبير المصنوع الذي أريد إنشاؤه له ؟ لا ينتظر الهندوسي شيئاً من هذا الوطن الكبير فلا يعترف به ، وكل ما يعلمه عنه هو أنه يثقل كاهله بالضرائب ، ومهما كان أصل الفاتح الذي أسس هذا الوطن الكبير بقوة السلاح ، فإن هذا الفاتح ، مسلماً كان أو نصرانيا أو أهليًا ، لم يظهر إلا متشدداً في جمع الضرائب ، فلا يبالي الفلاح بجنس هذا الفاتح ما أُلزم بالانقياد له ودفع الأتاوى[(١)] إليه على الدوام .

حقاً أن ثورات نشبت وحروباً اشتعلت ودولاً شيدت وممالك انهارت من غير أن يكترث الفلاح الهندوسي لذلك كله ، وما كان سادته الذين تولوا أمره بالتتابع ليطالبوه بسوى المال غير متعرضين لعاداته المتأصلة ، فظل كما كان منذ ثلاثة آلاف سنة ، ولا تزال القرية الهندوسية صورة لما كان عليه المجتمع الآري الفطري ، ويمكننا أن نتمثل بها حال جميع المجتمعات في أدوارها الأولى .

---

(١) الأتاوى : جمع الإتاوة وهي الخراج .

ولا يَذْهَبِ القارئُ إلى أن القرية فى الهند هى مجموعة منازل فقط ، بل تشتمل ، أيضاً ، على الأراضى التى تحيط بها فيملكها سكانها .

وتلك الأراضى مُشَاعة ، ويسبق الشيوعُ التملكَ الشخصىَّ فى جميع العالم كما هو معلوم ، ولكن جميع المجتمعات بينما تتدرج إلى مبدأ التملك الشخصىّ ترى المجتمع الهندوسىّ لا يزال وَفِيًّا للطِّراز الآخر ، ومن الغريب أن تُبْصِر المجتمع الهندوسىّ ، فى كل زمن ، يسعى فى ردّ كلّ مُلْك شخصىّ إلى المُشَاع خلافاً لما تسير إليه بقية الأمم .

وإذا حدث أن شخصاً استطاع أن ينال الغِنَى بمواهبه وَجَدَت الجماعة التى ظهر منها أن من الطبيعىّ أن تطالب بمقاسمته ما اكتسب ، فرُفِعَت فى الهند قضايا شاملةٌ للنظر حول ذلك ، فوَجَدَ قُضَاة الإنكليز عناء كبيراً فى الحكم المدعى عليه الغَنِىّ بثمرة عمله أحياناً ، وما كانوا ليَصِلوا إلى نتيجة كهذه إلا حين ثبوت عدم مساعدة الجماعة على نيله الثَّراء بما حَبَتْه به من التربية ، وإلا لم يُوجَد ما يمنع من ردّ أمواله إلى الجماعة .

وإذا وُلِد ولدٌ فى الهند كان له حقٌّ فى مال أبويه منذ ولادته ، وقد ظُنّ أن هذا يُؤَدِّى إلى نظام التملك الفردىّ ، مع أن الأمر غيرُ ذلك ، فالقسمة لا تَحْدث فعلاً ، فالولدُ لا يفكر فى هذا حين يبلغ سنّ الرشد فيصبح قادراً على المطالبة بماله ، بل يكتفى بنصيبه فى الدخل ، فمن هنا ترى أن المُشَاع هو مَرَدُّ التملك الفردىّ على الدوام .

وشيوع الأموال مزدوجٌ فيُنْظَر إليه من ناحية الأسرة أو ناحية القرية .

نشأ مُشَاع القرية عن الأُسرة ، وما كانت القرية غيرَ أُسرة كبيرة ، وهـذا التعريف صحيح في غير حال ، فأهل القرية إذ كانوا أبناء لجدّ واحد فإنه يتألّف من مجموعهم عشيرة حقيقية ، ومما يقع أحياناً أن تُؤَلَّف العشيرة من ثلاث أُسَر أو أكثر وأن يكون بابها مفتوحاً للغرباء ، ومما يحدث في الغالب أن تكون الصِّلة العائلية وهمية مع الاعتراف بها والاستناد إليها .



١٦٠ — كهات منذو (نيبال) . معبد من حجر (هذا المعبد من مباني نيبال النادرة التي ترى فيها مسحة من المؤثرات الإسلامية كالقباب)

والأمرُ مهما يكن فإن الزمرة تنقسم إلى أُسَر مختلفة ويكون لكلٍّ واحدة منها منزلٌ وأرض لتزرعها ، وما عند الاسرة من منقولات ، كالمواشي وآلات الزراعة الخ ، وما يعود على الأُسرة من دَخْل المُشَاع فمشتركٌ بين أفراد الأُسرة : الأبِ والأمِّ والأولادِ ، فهذا هو الشيوع المنزليّ .

ومن ناحيــة أخرى تُبْصر أراضيَ القرية خاصةً بأهلها فيزرعونها بالاشتراك ويقتسمون ما تنتجه فيما بينهم ، فهذا هو الشيوع الاجتماعي .

وإذا تمَّ الحصاد جُعِل الزرع المحصود أكداساً أكداساً فخُصَّت الدولة بالكُدْس الكبير ، فبهذا ينتهي واجب الهندوسيِّ نحو ما سُمِّي على غير حقٍّ وطنَه ، فيعود غيرَ مَدِين له بشيء وغيرَ منتظر منه شيئاً .

وبعد أن تَظفَر الدولة بحِصَّة الأسد يكافأُ موظفو القرية فيُخَص عميدُها بكُدْس كبير ويُخَص البرهميُّ بكُدْس آخرَ ويُخَص كلٌّ من الخفير والسَّقَّاء والحلَّاق والخزَّاف والنَّجَّار والحدَّاد والغسَّال والسَّكَّاف والفلكيّ والطبيب والشاعر والراقصة بكُدْس أصغر .

تقوم القرية بمعايش أولئك الموظفين وغيرهم ، ويزيد عدد هؤلاء بنسبة اتساع القرية وغناها ، وينتسب كلٌّ واحد منهم ، على حسب وظيفته ، إلى طائفة خاصَّة ويَجْتَنِب الزواج بغير بنات طائفته والأكل مع آخر من طائفة أخرى ، بَيْد أن حواجزَ قاسيةً كهذه لا تؤدي إلى تنافس أو خصام بين أهل القرية ، فهؤلاء إذ يعتقدون أنهم من أصل واحد يَشْعُرون بأنهم إخوة ، فترى روحَ المساواة سائدة لهم ، ولا تجد من يقومون بالوظائف الخسيسة غَضاضَةً فيما يقومون به ما حَظُوا برعاية أبناء عشيرتهم .

وبعد أن ينال الموظفون حِصَصهم من الغَلَّة يُقسَّم ما بَقِيَ منها بين جميع الأسر ، وليس كبيراً نصيبُ كلِّ أسرة ، فالفلاح الهندوسيُّ مُثْقَلٌ بالضرائب ، فهو يكون سعيداً إذا ما نال ، بعد الذي يُؤَدِّي ، ما يكفي أسرته ، وما يشترى به بِذاراً

للزرع فى العام القادم ، وفى البنغال تَعُدُّ الأُسرة سعيدة إذا نالت ما يَعْدِل خمسةَ دوانق أو ستة دوانق مُيَاوَمَةً .

وحيثما يَكُنْ أمر المُشاع منتظماً يَنَل الفلاح العَوْن من بنى قومه وقت الضِّيق ، فلا يقاسى أَلَم المجاعة إلا إذا كانت عامة .

ويسوس كلَّ قرية عميدٌ منتخب يساعده مجلس كان يُؤَلَّف من خمسة أعضاء فأضحى يُؤَلَّف من أعضاء أكثرَ عدداً ، ويدير شؤون كل قرية الموظفون الأوَّلون المذكورون .

وبلغ نظام القرية التقليديُّ من النفوذ فى النفوس ما لم يَقْدِر معه مَلِكٌ على تبديله ، واحترم جميع الفاتحين الذين دَوَّخوا الهندَ نظامَ القرية فلم يَتَعَرَّضوا لاستقلالها ، وللفاتحين فوائد فى ذلك ، فوَلِىُّ الأمر لم يكن ليبالى بغير جبايةِ الخراج المُجْدِى بانتظام ، وما كان ليَجِد خيراً من مجالس القرى المسؤولة عن سكانها فى مساعدته على هذه الجباية .

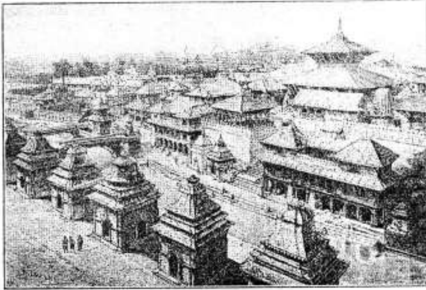
وهَيْهَاتَ أن تكون جميع قُرَى الهند على ذلك النظام ، ففى الهند المترامية الأطراف عروقٌ كثيرة مختلفة لا يَثْبُت معها أىُّ نظام ، فالواقع أنك تجِد فى الهند جميع أطوار التملك المعروفة التى تَتَرَجَّح بين شُيوع الأموال المطلق وحقِّ الفرد المطلق فى التملك .

وإذ كانت طُرُز جباية الضرائب عنوانَ أنواع التملك فى الهند فإننا نذكر باختصار الطُّرُزَ الخمسة التى تَجْبِيها الحكومة الإنكليزية بها فى مختلف أقسام الهند .

انتحل الانكليز المبدأَ الإسلامىَّ القائل إن رَقَبَة الأراضى لِوَلِىِّ الأمر وإن مايدفعه الرعايا إليه ليس ضريبة عنها ، بل دخلاً كالذى يؤديه المزارعون إلى مالكيها .

تُقَسَّم جميع الأراضى فى البنغال بين عدد كبير من المُلَّاك (زميندار) الذين هم نوعٌ من الزُّرَّاع العامون فيؤاجرونها من الفلاحين على أن يظلّوا مسؤولين عن الضريبة تجاه الدولة .

والنظام فى أودهة مثله فى البنغال تقريباً ، وذلك مع ملاحظة أن الحكومة فى البنغال تتوسط بين المُلاك (زميندار) والفلاحين حفظاً للفلاحين من كلّ جَوْر واستبداد ، وأن الفلاحين فى أودهة يَبْقَوْن تحت رحمة كبار المالكين .



١٦١ — پشپق (نبال) . منظر المدينة العام

ونجم دوام هذا الفرق مع الفروق التى نراها فى الولايات الأخرى عن سير الحكومة البريطانية على مبدأ « بقاء ما كان على ما كان » فتركت الأمور على ما كانت عليه بعد الانقلابات التى عَقَبَت سقوط الدولة المغولية ، أى إنها لم تتصدَّ للمُلَّاك (زميندار) الذين كانوا من سُعَداء الأفَّاقين فأقطعوا الإقطاعات بسبب الفِتَن والحروب .

و إنكلترة حين أقرّت مبدأ التملك الوراثي فاعترفت لأولئك المُلّاك بما يتصرفون فيه من الأراضي ظنّت أنها تقيم أرستوقراطية زراعية مخلصة لسلطانها حريصة على تحسين ما هو قبضتها ، ولكنها رأت ما خيّب ظنّها ، فلم يكن الفلّاح عُرضة للظلم والبؤس زاهداً عن فلاح الزراعة فى مكان مثله فى البنغال وأودهة ، فني هاتين المنطقتين يعمل الفلاح من أجل سادة قساة غلاظ صُفَقاء أخلياء، لا من أجل نفسه .

والحالُ فى البنجاب غيرُ ذلك ، ففيها تزدهر مُشاعات القرى ، وفيها تجبى الحكومةُ الانكليزية الخراجَ من عُمَدائها رأساً ، وفيها يكون الفلاحون طلقاء سُعَداء أرباباً لأراضيهم غيورين عاملين فى إنبات حقولهم أقصى ما ينالونه منها .

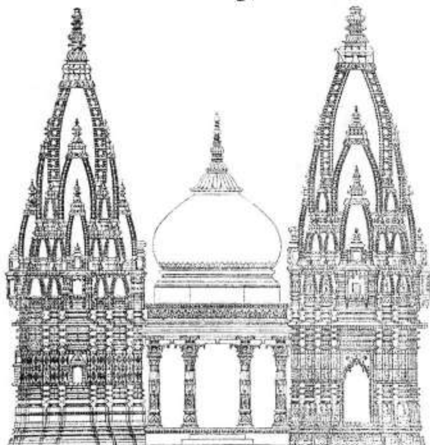
وفى الولايات الغربية والمتوسطة تجد ، تارةً ، مالكين وارثين يقبضون أجراً من الفلاحين ويدفعون الضريبة إلى الدولة آخذين الفرق لأنفسهم ، وتجد ، تارةً ، مُلّاكاً كباراً ومُلّاكاً صغاراً تُفرض الضرائب عليهم رأساً .

ويؤدى كلّ واحد فى الدّكن خراجاً إلى الدولة بنفسه قابلاً للتعديل زيادةً ونقصاناً بعد انقضاء سنوات فى كلّ مرة .

والدّكن ، على ما هى عليه من قلة الغِنَى وضَعْف الخصب إذا ما قيست بالهندوستان ، ذاتُ سكان سُعداء أكثر من سواهم على ما يحتمل ، أجَلْ ، إن الدّكن تعرف نظام القرية المستقلة ذات الأراضى المُشاعة ، ولكن أمرها غيرُه فى البنجاب ، فحقولها تُقسّم بين سكانها فى أدوار معينة .

ولكلّ أسرة مقسَمُها التامّ فى الأراضى ، ويزيد هذا المقسَم وينقُص تبعاً لنشاط العمال وإهمالهم ، ويستطيع ربّ الأسرة أن يبيع أرضه من غير أن يظفر

بموافقة الجماعة ، فلا ترى مثل هذا فى المُشَاع الحقيقىّ ، ومن شأن التقسيم بين حين وحين أن يُسَاوِىَ بين الثَّرَوَات وأن يُذَكِّرَ الفلاحين بأنهم أبناء أُسرة واحدة مبدأً على الأقل وأنهم متضامنون بعضُهم مع بعض .

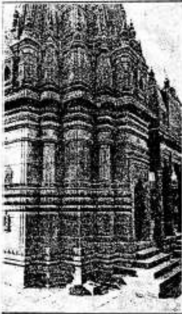


١٦٢ ــ بنارس . معبد وِيشويشور القائم على طراز البناء الحديث بالهند ، كما جاء فى رسم لبرنيس . (أقيمت جميع المبانى الظاهرة فى هذه الصورة والصور الآتية فى القرن الماضى وفى النصف الأول من القرن الحاضر)

وغايةُ القول أن الوُسَطاء بين الفَلَّاح والحكومة هم سبب بؤسه فى الغالب ، لا الغُلُوّ فى فَرْض الضرائب وحدَه ، فحيثما يَتَّصِل الفَلَّاح بالحكومة رأساً إما بصفته

الفردية أم بصفته الشُّيُوعِيَّة تَجِدْه نشيطاً ناجحاً راضياً ، مع فقره ، بما قُسِم له تقريباً .

وإنه لمنظر يُعْجب السائحَ ، حَقًّا ، ذلك الذى يبدو له حينما يجوب قُرَى البنجاب أو هِضاب الدَّكَن الجافيـة ، ففيها يَجِد المعابد الـكثيرة والأشجار المقدسة والهيا كل القائمة على جوانب الطُّرُق شاهـدةً على تَقْوَى ذلك الشعب الخُرَافِىِّ الساذج ، وفيها يُبْصِر دوائر البلدية البسيطة، المؤلفة من سقوف تُمْسِكُها أعمـدة ، تَنْطِق بالحرية فى صورة خضوع منذ ثلاثة آلاف سـنة ، وفيها يشاهد سكاناً نافعين هادئين فَرِحين لابسين ثياباً زاهيـة مع اختصارها يَمِيدُون فى الأزقة الضَّيِّقَة ذوات الحِيَـاط الخشبية مُحْدِقين بالغريب ، مع قليل إزعاج وعدم اعتداء .



١٦٣ — بنارس . معبد دورغا القائم على طراز البناء الحديث فى الهند

والأمرُ غيرُ ذلك فى ولاية أوريسة المُضطهَدة الفقيرة ، حتى فى وادى الغَنْج الغَنِىِّ حيث ينال القوم من الحقول كنوزاً لا تكون لهم .

٢ — الأُسرة ، حال المرأة فى الهند

نظام الأُسرة هو أول ما يَجِب البحث فيـه إذا أريد الاطلاع على المجتمع الهندوسى .

فالأُسرة هى مثال القرية والأساس الذى تقوم عليه ، وتُؤلّف الدولة رأساً من تَجَمُّع القُرَى كما رأينا .

والقرية الكاملة هى عشيرة أو أسرة مشتركة .

وفى الأُسرة المشتركة لايملك أحد لنفسه شيئاً خاصًّا ، فالمنقولات وغير المنقولات فيها ملك شائع ، فلا يستطيع أىّ فريق منها أن يبيعه من غير موافقة الجميع ، وربّ الأُسرة هو الذى يُدير شؤون الثروة ويتمتع فيها بسلطان أدبىّ مطلق ، فإذا مات خَلَفَهُ ابنُه البكر من غير اقتسام للأموال فيُطيعه الجميع كسابق إطاعتهم لأبيه ، فإذا انقضت بضعة أجيال تَحَوّلَت الأُسرة إلى عشيرة على أن يكون زعيمَها أسنُّ واحد فى أسنّ فروعها .

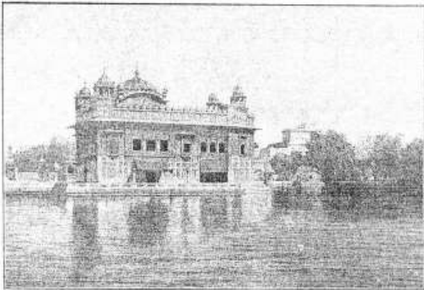
ومن النادر أن يظهر عامل انقسام أو انحلال فى الأُسرة بعد أن تتسع ، هـذا ما فصلناه حينما درسنا العشيرة الراجپوتية وذكرنا ، عند الكلام فى التملك ، الحالَ التى تُقَسَّم فيها أموال الأب بين أولاده بعد موته .

وهذا ما هو شائع فى الوقت الحاضر تقريباً ، فنى المجتمع الهندوسىّ مَيْل إلى زيادة شأن الفرد وتقليل شأن الأُسرة .

وإننى ، بعد تلك الكُلِّيَّات ، أدرس فى هذا المطلب أمرَ الأُسرة أى الأب والأمّ والأولاد فأقول :

إن سلطان ربّ الأُسرة فى الهند مطلقٌ كما كان فى رومة ، وإذا كان الأب لا يَصِل بسلطانه إلى ما يمارس به حَقّ الحياة والموت فلما فُطِر عليه الهندوسىّ من الحِلْم ، وفى الهند تَعُدُّ المرأةُ بعلَها قَوّاماً ممثلاً للآلهة فى الأرض ، وفى الهند تَبْلُغ

المرأة من احترام زوجها مالا تَذْكُر معه اسمه ، والمرأة ، إذا كانت حديثة عهد بالزواج استبدلت باسم زوجها لفظاً عَرَضيًّا ، وإذا أصبحت أُمًّا كَنَّت زوجها باسم ابنها البكر مُضافاً إلى كلمة « أبي » فتقول : « أبا فلان » مثلاً .



١٦٤ ـ أمرت سر . معبد الذهب القائم على طراز البناء الحديث في الهند بحيرة الخلود

وللزوج سلطان مطلق ، ومع أن المرأة لا تختاره ، ما عُدَّت خطيبته منذ طفولتها ، لا تكون الرابطة الزوجية بينهما ثقيلة ، فالزوجان الهندوسيان مُتَحَابَّان ، وإذا ظهر من الزوج عدم اكتراث لزوجته أمام الجمهور تبعاً للتقاليد فإنه يبدو في البيت حليماً نحوها على العموم ، فيسهل عليها أن تُؤثِّر فيه ، وقلما يَضْرِبها أو يُؤذيها بالقول السَّيِّئ .

والمرأة الهندوسية جاهلة جداً ، ويرى الهندوس بقاءها جاهلةً فِراراً من العار

والفضيحة لِما يجدون في تَعَلُّمِها من معاني تقليد الرجال سفاهةً وظهورِها كبنات الهَوَى أوضاعاً ، وفي هـذا سِرُّ ما يلاقيه سادة الهند في الوقت الحاضر من المصاعب في اجتذاب المرأة إلى المدارس .

ويُعَدّ الأولاد خاطبين منذ طفولتهم ، وتتزوج الفَتَيات في السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من أعمارهنّ على العموم ، ولا كيان للمرأة الهندوسية بلا زواج ، فلا تـكاد تُولَد حتى يختار أبواها لها من يكون وليَّ أمرها ، فهي إذا ما ترعرعت فَمِنْ أجْـله ، وهو إذا ما كان فظيعاً شنيعاً فَظًّا غليظاً فَضَّلت البقاء مُلْكَه على أن تظلَّ عَزْباء أو أن تَخْسَره .

وتُعَدُّ المرأة العَزْباء ، والمرأة الأَيِّم على الخصوص ، منبوذتَيْن من المجتمع الهندوسيّ ، ومن الأيامَى الفتاةُ التي تَفْقِد عروسها في أوائل عمرها ، وفَتْقٌ مثل هذا لا يمكن رَتْقه ، فتَهْبط المرأة المنبوذة إلى ما دون سِفْلَة القوم .

قال السيد ملباري : « موتُ الزوج الهندوسيّ قاصمٌ لظهر زوجته ، فلا قيـام لها بعـده ، فالمرأة الهندوسية إذا آمت[1] ظَلَّت حادًّا ما دامت حَيَّةً ، وعادت لا تُعامَل كإنسان،وعُدَّ نظرها مصدراً لـكلّ شؤم ، وعُدَّت مُدَنِّسَة لكلِّ ما تَمَسُّه ، فهي إذ تغدو بوفاة بعلها محتقرة منبوذة تبدو الحياة لهـا عِبْئاً ثقيلاً ، فلا يبقى أمامها سوى سبيل الفسق أو العيش بائسةً منزوية ، والفتاةُ الأَيِّم هي التي قَصَدْتُها بقولي ، وغيرُ حالها حالُ المرأة التي لها قُرَّةُ عَيْنٍ بأولادها ، فهي لا تـكون عُرْضَةً لسخافات طائفتها » .

---

(١) آمت : فقدت زوجها .

والآن نُدْرِك سرّ إخلاص المرأة الهندوسية لزوجها بما يُورِث العجب ، فتأصَّل هذا الإخلاص بتعاقب القرون حتى أصبح غريزة ثابتة فيها ، وبهذا نفسر دوام عادة حرق المرأة لنفسها فوق جُثَّة زوجها ، إن لم يكن سببَها ، فكان على المرأة الأيِّم أن تختار ما ينتظرها من السعادة والفلاح بلَحاقها زوجَها باسلةً أو ماينتظرها من البؤس والشقاء ببقائها حَيَّة فوق أديم الأرض ، فلم تتردد فى سلوك أشرف النَّجْدَيْن ، فكانت ، وهى الساذجة الهائجة ، تقضى نَحْبَها بين الدموع والحماسة والهُتاف والأدعية والتحية والنشائد الداوية .

ولما حَظَرَت الحكومة الإنكليزية تلك العادة قاومت النساء هذا الحَظْر فداوَمْن على القيام بها طويلَ زمنٍ مُخبِطاتٍ كلَّ مراقبة ، والنسوةُ هُنَّ اللائى مَنَعْن إلغاء تلك العادة فى نيبال على الرغم من الوزير الحازم جَنك بَهَادُر .

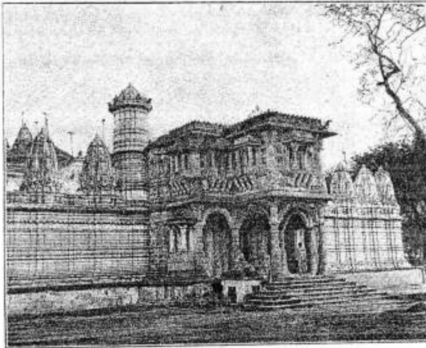
ومما يوضح هذا التعصبَ ما رَسَخ فى النفوس الجاهلة الساذجة من المعتقدات منذ قرون وما يُنْتَظَر من الحياة البائسة الشائنة ، فالإيمان الدينىُّ وحدَه هو الذى يأتى تلك المعجزات ، وهو فى المرأة الهندوسية ليس بأقلَّ مما فى الشهداء الذين اعتقدوا لقاء الله وراء لَهَب النار .

ومن المتعذر بيانُ الزمن الذى ظَهَرَت فيه عادة الحرق تلك ، ولا نَصَّ عليها فى شريعة مَنُو وكتبِ الويدا وإن أخطأ الكُهَّان فرَأَوْا بعد زمن طويل أن لها أثراً فى أُنشودة مقدسة أساءوا تفسيرها ، فتلك العادة أقدم من الميلاد ، فقد روى وجودَها اليونان ، لأول مرة ، قبل ظهور المسيح بثلاثمئة سنة .

أجَلْ ، إن تلك العادة زالت فى أيامنا عن الهند ، خلا نيبالَ ، بَيْدَ أن من الصعب أن يقال إن للنساء مَغْنَماً من وراء ذلك ، فحال الأرامل ، كما قلنا ، يُرْثَى

لها ، فمن أتيح لهنّ الزواج مرةً ثانية قليلاتٌ ، ويُنْظَر إليهن شَزْراً فى كلّ مكان ، ولا سيما أن المبدأ القائل بأن المرأة قد تكون مُلْك رجال كثيرين مما نَبَذه الهندوس منذ قرون .

ونَمَا مبدأ تعدد الزوجات الذى قالت به الشرائع الهندوسية بعد المغازى الإسلامية ، وحُجِبَت المرأة منذ هذه المغازى فى دوائر حريم الأغنياء على الأقل ، وتَعَوّدْن الخروجَ مُبَرْقَعات .



١٦٥ ــ أحمد آباد ، معبد هتحى سنغها القائم على طراز البناء الحديث فى الهند

وإن مبدأ تعدد الزوجات ، الذى يَرْجِع إليه الأغنياء كعامل بهجة وسرور ، لا يمارسه الفقراء إلا كسلاً وبخلاً ، فابن الطبقة الدنيا يقتصر ، فى الغالب ، على

زوجة واحدة ، فإذا حدث أن كانت له غيرُ زوجة فلكي يحمِلن على العمل وكَسْب عيش الأُسرة، فاللائى يرضَيْن بذلك لا يكنّ إلا من الطوائف الدنيا على العموم ، فيَرَيْن من القَدْر النسْبِيّ أن يسترن حالهنّ بالزواج .

ومن نتائج تعدد الزوجات أن يُسَمَّى الأولاد بأسماء أمهاتهم تمييزاً لبعضهم من بعض ، وكانت هذه العادة ، الشائعةُ بين الشعوب القائلة بتعدد الأزواج من الذكور أيضاً ، عامةً فى الهند القديمة .

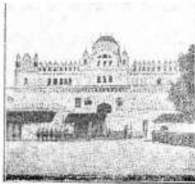
ولا تُمَثّل المرأة أىّ دَوْر ، وهى لا تصبح ذات شأن إلا بعد أن تصير أمًّا ، فحينئذ تُحْتَرم ولو تَرَمَّلَت ، فما تناله من احترام أولادها وعطفهم فلا حَدّ له ، فإذا ماشابت وهَرِمَت رأت نفسها محاطةً بجيل من الأبناء والحَفَدَة لها عليه سلطانٌ لا جدال فيه .

وليذكر ، من يَرْغَب فى استجلاء الأسرة فى الهند ، أنها غيرُ مقصورة على أفرادها الحقيقيين ، فهى تجْمَع ،فى عُرْوَةٍ لا انفصام لها، جَمْع الأجداد وحَفَدَتَهم فيُفْتَرَض بالذهن على الأقل وجودُهم فى كلّ عيد ويُشْرَب نَخْبُهم عند كلّ وليمة ، وبينما يكون المدعوون غارقين فى الفَرَح ينهضون ليَشْعُروا بتموج روح قدماء الآريين حولهم راجين حياةً طيبة لهؤلاء المجهولين الذين يَرَوْن فضلهم عليهم فى وِلادتهم فكانوا الحلقةَ الراهنة لسلسلة أفكارهم ومشاعرهم التى نُسِجَت فى غضون القرون .

٣ — نظام الطوائف

نظام الطوائف هو حَجَر الزاوية لجميع نُظُم الهند الاجتماعية منذ ألفى سنة ، ولهذا النظام من الأهمية العظيمة التى أُنْكِرَت ، على العموم ، فى أوربة وفى مستعمرات الهند التى يَملكها أوربيون ، ما أرى معه من المفيد دِراسة أصوله ونشوئه ونتائجه باختصار ، وهذا النظام هو الذى استطاعت بفضله شِرْذِمة من الأوربيين أن تُخْضِع ٢٥٠ مليوناً من البشر لحكمها الشديد إخضاعاً يَشْمَل نظر كلّ باحث ومؤرخ .

يَرْجع نظام الطوائف فى الهند إلى ما قبل ألفَىْ سنة ، ومما لا ريب فيه أنه نشأ عن مراعاة سُنَن الوراثة المقدرة ، فلما أوْغَل الفاتحون البيضُ ، الذين نُسَمِّيهم بآريِّى الهند ، وجدوا أنفسهم بجانب من قهروهم من التورانيين والسُّود المتوحشين ، وهؤلاء الفاتحون كانوا من شِباه الرُّعاة وشِباه الحَضَريين الخاضعين



١٦٦ — جهتربور ، مقدم قصر الراجه القائم على طراز البناء الحديث فى الهند

لزعماء لم يَمْدِل سلطانَهم سوى نفوذ الكُهّان الذين فُوِّض إليهم اجتلاب حماية الآلهة ، وقد أسفرت أعمالهم عن انقسامهم إلى ثلاث طوائف بحكم الطبيعة ، أى إلى طائفة البراهمة أو الكُهّان وطائفة الأكشترية أو المحاربين ، وطائفة الويشية أو الزراع والصناع ، وهذه الطبقة الأخيرة هى من ذُرِّيّة الغُزاة الذين فتحوا الهند قبل الآريين على ما يحتمل فتكلمنا عنهم فى فصل سابق .



١٦٧ ـ كلكتة : الزون القائم على طراز البناء الحديث فى الهند . (نختم بهذه الصورة الصور التى خصصناها لمبانى الهند ، وأما الصور الآتية فهى خاصة بأدوات فنية)

ومن ثَمَّ ترى مشابهة ذلك التقسيم لطوائفنا الثلاث القديمة : الإكليروس والأشراف والطبقة الثالثة ، وترى دون تلك الطبقات الثلاث المختارة أهلَ الهند الأصليين الذين عُرِفوا بالشودرا فكان يتألف منهم ثلاثة أرباع السكان .

لم تلبث التجربة أن أثبتت ما قد يُسْفِر عن امتزاج عرقٍ راقٍ بالعروق الدنيا فنهت التعاليم الدينية عنه ، فقال مشترع الهندوس القديم الحكيم مَنُو : « لا تلبث كل بُقعة يَنْشأ فيها أناس من عروق متوالدة أن يَعُمَّها الخراب وأن يضمحلَّ سكانها . » ، فهذا نصٌّ شديد لا ريب ، ولكن من المكابرة إنكار صحته ، فلم تَعْتَمَّ الأمم العليا ، التى اختلطت بعرق منحطٍّ ، أن هانت وذلّت أو فَنَت فيه ، فما عليك إلا أن تنظر إلى حال الإسبان فى أمريكة والبرتغاليين فى الهند ، مثلاً ، لتَعْلَم النتائج السيئة التى نجمَتْ عن تلك الامتزاجات ، فترى حَفَدَة أفّاقى البرتغال الفُخُرِ الذين دَوَّخوا قسماً من الهند فيما مضى لا يقومون اليوم بغير أعمال الخَدَم والأُجَراء فيها ، وترى اسم عرقهم لا يدل اليوم فيها على غير معنى الصَّغار والنذالة .

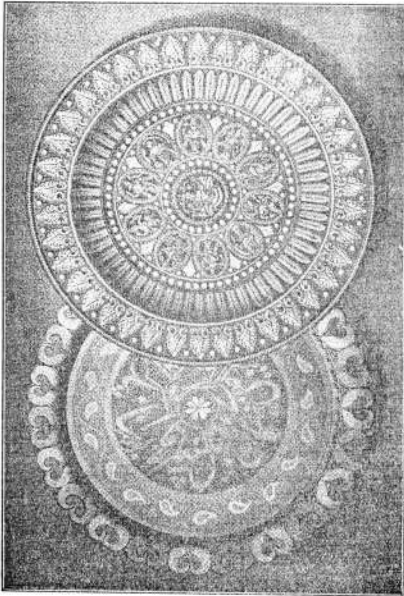
أدركت شريعة مَنُو التى هى دستور الهند منذ قرون كثيرة ، كجميع الشرائع ، تلك الحقيقةَ العِرْقيَّة التى هى وليدة تجاربَ طويلةٍ سابقة فلم تَغْفُل عن ضمان نقاء الدم ففرضت عقوبات شديدةً لمنع كل توالد بين الطبقات العليا ، و بين هذه الطبقات

وطبقة الشودرا على الخصوص ، ولم ترَ تلك الشريعة وسيلةً من وسائل التهديد الشديد إلا اتخذتها لبلوغ ذلك .

غير أن الضرورات الطبيعية لم تَنْشَب أن تَمّ لها ، بتعاقب القرون ، الفوزُ على تلك المحظورات المرهوبة ، فالمرأة فِتْنَتُها على الدوام ، مهما كانت الطائفة التي تنتسب إليها منحطةً ، فكان ما نَقْطَع به من التوالد على الرغم من شريعة مَنُو ، فلا يحتاج الباحث إلى اجتياب الهند في زمن طويل للاطلاع على توالد جميع عروقها فيما بينهم ، فعدد بعضِ الهند الذين يمكنهم أن يَدَّعُوا نَقَاوة دمهم قليلٌ إلى الغاية ، فعادت كلمة « الطائفة » غير مرادفة لكلمة « اللون » كما كانت في لغة السَّنسكرت ، فكان ما ترى من عدم وجود سبب لبقاء كلمة « الطائفة » إذا أريدت الدلالة بها على المعنى العرقيّ .

حقّاً أن مدلول تقسيات الطوائف القديمة زال منذ زمن طويل ، فحلّتْ محلّها تقسياتٌ جديدة غيرُ قائمة على اختلاف العروق ، وهذا مع استثناء البراهمة الذين لا يزالون هم وغيرهم أقلّ السكان توالداً .

وبينَ الأسباب الحديثة التي أدت إلى تمسك القوم بنظام الطوائف لا يزال ناموس الوراثة نافذ الحكم مثلاً لدور أساسي ، فالأهليات ، عندالهندوسيّ ، وراثية حتماً ، فعلى الابن أن يتخذ مِهْنَة أبيه حتماً ، والهندوسُ إذ رأَوْا أن المِهَن أمورٌ وراثية أسفر ذلك عن ظهور طوائفَ عندهم بعدد المِهَن نفسها ، فكل مِهْنة جديدة في الهند تقتضي ، بالحقيقة ، نشوء طائفة لها ، فكان ما ترى من ألوف الطوائف في الهند ، وكان ما تعلمه من أن الأوربي الذي يسكن الهند لا يلبث أن يرى كثرةَ هذه الطوائف عند نظره إلى تنوع الأشخاص الكثيرين الذين يُضْطَرّ إلى استخدامهم فيها.



١٦٨ ـ (١) طبق معدنى مكفت بالميناء على الطراز الهندوسى الإسلامى
(٢) تانجور . طبق هندوسى من النحاس الأحمر مكفت بالبرونز والفضة (من مجموعة المؤلف)

وتضاف المناصب السياسية والمعتقدات الدينية المختلفة إلى السبب العرقي الضعيف والسبب المهنيّ القويّ ، المذكورين ، في تكوين الطوائف .

وقد تُعَدُّ الطوائف التي نشأت عن الوظائف السياسية من فصيلة الطوائف المهنيَّة ، ولكن الطوائف التي نشأت عن اختلاف المعتقدات الدينية لا ترتبط في واحد من تلك الأسباب بصلة ، وقد تؤدي مطالعة الكتب إلى تقسيم الهند ، نظريًّا ، إلى ديانتين كبيرتين أو ثلاث ديانات كبيرة فقط ، ولكن عدد دياناتها يبلغ الألوف عمليًّا ، ففي الهند آلهة جديدة تُحْسَبُ تقمُّصَاتٍ لآلهة قديمة فتحيا وتموت كل يوم ، فَيُؤَلِّفُ عُبَّادها ، من فَوْرِهم ، طائفةً جديدة متشددة في أحكامها كبقية الطوائف .

وهنالك سِمَتان أساسيتان تتميز بهما كل واحدة من الطوائف ، ويختلف بهما أفراد كلّ طائفة عن أفراد الطوائف الأخرى ، فالأولى هي أن أبناء الطائفة الواحدة لا يُطاعمون غيرهم ، والثانية أن بعضهم لا يتزوج إلاَّ ببعض .

تانِك السِّمَتان متساويتان أهميةً ، وقد تَجِدون مئاتٍ من براهمة الهند الموظفين في دوائر البريد وفي إدارة الخطوط الحديدية لا يزيد راتب الواحد منهم على خمسة وعشرين فرنكاً في كل شهر ، وقد تَجِدون بين البراهمة من هم من السائلين ، بَيْدَ أن ذلك الموظف أو ذلك السائل يُفَضِّل الموت على الجلوس حول مائدة نائب الملك في الهند ، وإذا حدث أن كان أقوى راجوات الهند من الطوائف الدنيا (ومن الممكن أن يصبح أحد أبناء الطوائف الدنيا ملكاً كراجه غواليار مثلاً) فلَقِي ذلك البرهميّ فإنه ينزل عن فيله ، في الغالب ، ليُسَلِّمَ عليه .

وصفة البرهميّ وراثية فى الهند كصفة الشريف فى أوربة ، وهـذه الصفة غير مرادفة لصـفة الـكاهن كما يُظَنّ فى الغـالب ، لأن الـكُهّان من البراهمة ، فالبرهميّ يولد كما يولد الدوك ، وكان للقب البرهميّ ، الذى أضاع كثيراً من قيمته فى أيامنا ، كبيرُ أهمية فيما مضى ، فلم تـكن صفة المَلِك كافية ليأمُل بها صاحبها أن يتزوج بفتـاة برهمية ، ففى رواية شَـكُن تَلاَ التى وضعها كالى داسا حوالَى القرن الخامس من الميـلاد تجد أن دُشْ يَنْتَه مَلِكَ هَستى ناپور لَقِيَ شَـكُنْ تَلاَ فسأل مذعوراً هل هى من طائفة البراهمة أولا ، لِما فى انتسابها إلى هذه الطائفة من حَظْر زواجه بها .

وليس انتظام الطوائف مُؤَيَّدٌ قانونى فى العهد الإنـكليزى ، ولـكن التقاليد التى رَسَخَت فى النفوس لا تحتاج إلى المُؤَيِّدات الرسميـة ، فتقاليد كتلك غَدَت من الوَعْى الباطن فعُدَّت جزءاً من التُّراث الذى يولد مع الإنسان فلا يَقْدِر الإنسان على مقاتلته ، فالهندوسيّ يُفَضِّل الموت على انتهاك حُرْمَة مبادىء طائفته .

وكان من عوامل ارتباك حكومة الهند ، حينما فـكرت فى إرسال كتائبَ هندية إلى السودان ، أن جَهَّزَت كل فرقة بميرَةٍ وأَجْهِزَةٍ خاصة ليَتَسَنَّى لأفراد كل طائفة إعدادُ طعامهم على انفراد ولـكيلا يأكل بعضهم مع بعض ، وقد كنتُ آنئـذ فى الهند فدَلَّتْنِى مطالعة الصحف على درجة ذلك الارتباك لِما يُؤَدى إليـه أقلُّ غَفْلة فى ذلك الأمر الأساسى من أسوأ العواقب ، فغفلةٌ مثل هـذه كانت عاملاً فى ثورة السپاهى التى كادت تَدُكُّ الإمبراطورية البريطانية الواسعة .

وقد يَخْسَر الهندوسيّ طائفته لأسباب كثيرة لا فائدة من ذكرها هنا ، ومن أشدّها أن يَقْبل طعاماً أو ماء من ابن طائفة أخرى .

ولاشىء أعظم إيلاماً على الهندوسىّ من فَقْدِه لطائفته ، فليس حِرْم البابا للإنسان فى القرون الوسطى وحكمُ القضاء بعقوبة شائنة على أوربىّ فى الوقت الحاضر أشدّ وطأً من ذلك ، ففَقْدُ الهندوسىّ لطائفته يعنى فَقْداً لأبويه وأصدقائه وثروته ، فكلٌّ واحد يُعْرِض عنه نائياً رافضاً كلّ صلة به ، فيدخل إذ ذاك فى زمرة المنبوذين الذين يقومون بأخسّ الأعمال .



١٦٩ — إناء ذخائر بدهى مصنوع من الذهب فى القرن الثانى قبل الميلاد (صور الأدوات الفنية المنشورة فى هذا القسم من الكتاب مأخوذة من مجموعة المتحف الهندى بلندن ومستعارة من مستر بيرد وود)

ولنبحث الآن فى نتائج ذلك النظام المتين الاجتماعية والسياسية فنقول : إن الطائفة هى وَحْدَة الهندوسى الاجتماعية ، فلا عالم خارجها فى نظره ، ويَفصِل الهندوسىّ عن غير طائفته هُوّةٌ أعمق من التى تَفْصل بين الأوربيين المختلفى الجنسيات ، فهؤلاء الأوربيون يستطيعون أن يتناكحوا مع أن أبناء مختلف الطوائف لا يَقْدِرون على ذلك ، فيَنْجُم عن هذا وجود زُمَرٍ فى القرية الواحدة بعدد طوائفها .

ونظامٌ كذلك مما يتعذر معه اجتماع الكلمة ضدّ الأجنبى ، وقد أدرك الإنكليز هذا جيِّداً فاتخذوا من التدابير ما يحول دون نشوب أية ثورة عسكرية ، وذلك بأن ألّفوا كتائبهم من أناس منتسبين إلى طوائفَ مختلفةٍ مما لم يفعلوه قبل ذلك ، فما بين أبناء هذه الطوائف من التنافس يكفى وحدَه لجعل كل فتنة عامة أمراً مستحيلاً .

ونظامُ الهند الطائفىّ يفسر لنا ما يستغرب به الأوربىّ من خضوع مئتى مليون من

الآدميين لستين ألفاً من الأجانب المكروهين غيرَ محتجين ، فالحق أن نظام الطوائف هو الذى منع الهندوس من أن تكون لهم منافع مشتركة ومن أن يتّحِدوا سعياً وراء هدف واحد ومن أن يؤلفوا أمة واحدة ، فإذا أضفتَ إلى اختلاف الطوائف اختلافَ العروق القاطنة فى تلك الإمبراطورية الواسعة علمتَ أن ما يجب على كل فاتح أن يصنعه هو أن يتعهد ما بين هذه العروق من المنافسات وأن يَعْزِل قُوَى بعضِها عن بعض ، وما هى المصلحة المشتركة التى تكون بين أناس ذلك مَدَى اختلافِهم ؟ وماذا يَرَوْن من حَرَج فى سيد يحترم نُظُمهم الأساسية ؟ ألا إن وطن الهندوسى الوحيدَ هو طائفته ، ولاشىء غيرُها ، فبلدُه ليس له وحدَه ، فلم يُفكِّر ، لذلك ، فى وَحدته ، والإنكليز ، حين يراعون نظام الطوائف فى الهند بدقة ، يعلمون أن فيه سرَّ سلطانهم المكين ، فلا يصنعون ما يُضعضعه كما نصنع فى بقايا ممتلكاتنا كوندیچیری مثلاً ، وترانى فى بدء سياحتى فى الهند ، وذلك حينما كنت غير قادر على النظر إلى الأمور من خلال أفكار الهندوسى ، قد فسَّرْت لهندىّ ذكى من الطبقة الدنيا معنى الجمهورية وأوضحت له الفوائد التى يجتنيها من العيش فى بلد يتساوى فيه جميع الناس ويأمُلُ فيه ابنُ العامل أن يَصِل إلى أعلى المناصب ، بَيْد أن هذا الهندى ، الذى هو من أتباع شِيوا ، فكَّر ثانيةً فهزَّ رأسه مُستخفًّا مستنتجاً من كلامى أن من البؤس والشقاء أن يعيش الإنسان فى بلد عاطل من نظام الطوائف ومن النُّبَلاء ، فالحقُّ أن مما يَصْعُب على الفرنسى أن يدرك أن نُظُماً يراها طيبة، لملاءمتها احتياجاته ، لا تَصْلُح لأمم ذوات احتياجات مخالفة لها ، والحقُّ أنه يَصْعُب اقتناع السمك بأن التنفس فى الهواء أمرٌ طيب لصلاحه للإنسان .

وفى الهند بلغ سلطان نظام الطوائف الراسخ فى النفوس بفعل التقاليد والعادة من القوة ما أذعن معه الفاتحون لحكمه ، فقال به المسلمون عملاً ببعض القول مع مخالفته للشريعة الإسلامية ، وانتحله الإنكليز انتحالاً لا يتمثَّله سوى الذين طافوا فى الهند ، أجَلْ ، إنه غيرُ مُدَوَّن فى قوانين الإنكليز ، غير أنه يتألف من مجتمعهم فى الهند طائفة أشد إحكاماً من جميع الطوائف الأخرى ، فالإنكليز ، كأبناء الطوائف الأخرى ، لا يأكلون مع غيرهم ولا يتزوج بعضهم إلا ببعض ، ولا يزال الزمان الذى يتزوج فيه الإنكليز بنات الهند بعيداً ، فإذا حدث أن تزوج إنكليزى بهندوسية ، وهذا لا يقع إلا نادراً جداً ، أُخرِج من حظيرة طائفته وأُغلِقَت أمامه جميع الأبواب ، ويرى الجندىُّ الإنكليزىّ البسيط أن من الصَّغار أن يتزوج هندوسية ، فما حدث أن تَحَدَّثت ، ذات يوم ، مع ضابط بريطانىّ ببنارس فسألته : « أتأذنون لأحد جنودكم فى الزواج بهندوسية ؟ » فأجابنى قائلاً : « لا أَقْدِر على منعه ، لا ريب ، ما دام القانون لم يُحَرِّم ذلك ، ولكننى أشكّ فى وجود واحد من جنودى يُفَكِّر فى مثل ذلك » .

ولا يرجع انفصال الفاتحين الجُدُد انفصالاً تاماً عن أولئك المغلوبين إلى أمد طويل ، فما كان تناكح الشعبين أمراً نادراً إلى وقت قريب جداً ، وقد أسفر هذا التزاوج عن وِلادة أناس جامعين لعيوب الهندوس خالين من صفات الإنكليز ، فتراهم قوماً عاطلين من التقاليد والتاريخ والآداب فَبَدَوْا محلاً لازدراء كلا الشعبيْن اللذيْن خرجوا منهما وسبباً لقلق أولياء الأمور فى الهند .

وأدرك قدماء الآريين مخاطرَ مثلِ ذلك التناكح ، فكان ما تعلم من وضعهم لنظام الطوائف ، ثم أدرك الإنكليز ذلك ، فكان ما تعلم من فصلهم ما بين القوم

الغالبين والقوم المغلوبين تبعاً لضرورات عِرْقِيّة وإدراكاً لما بين العرقين المتصاقبين من الاختلاف مع عدم تدوين ذلك فى قوانينهم ، وكان ما تعلم من إقامتهم بين القومين من الهُوِىّ العميقة مايتعذر مجاوزته، فالإنكليز يُنْشِئون فى كلّ مدينة بالهند حيّاً نائياً لأنفسهم فلا يغادرونه إلى المدينة الأصلية إلا فى أحوال شاذة ، وتشاهد مثل هذا الفصل بين الأوربيين وأبناء الهند فى الخطوط الحديدية أيضاً ، فتُبْصِر للإنكليز مركباتٍ خاصةً ، وتُبْصِر لهم فى المحطات مطاعمَ ومقاعد خاصة ، نَعَمْ ، لم يُوضَع نظام يُحَرِّم على الغَنِىّ من أبناء الهند السفر فى مركبة الدرجة الأولى الخاصة بالأوربيين ، غير أنه لا يجازف بذلك إلا قليلاً ، فإذا ما جازف أسِيء قبوله فَيُضْطَرّ إلى النزول



١٧٠ — إناء من البرونز مكفت بالفضة
(حيدر آباد)

فى أقرب محطة ، والضباط هم أشدُّ الإنكليز شراسة من هذه الناحية ، فهؤلاء الضباط ، وإنْ كانوا من أعظم من رأيتُ أنساً وأدباً إذا ما خاطبوا أوربياً ، لا يلبثون أن ينقلبوا إلى قُساة غلاظ إذا ما كلّمُوا شخصاً من أبناء الهند مهما كان مقامه ، وعلى ما تراه من حقّ أبناء الهند ، كالإنكليز ، فى تَسَنُّم أعلى المناصب القضائية على الخصوص وعلى ما تراه من وصول بعضهم إلى ذلك لا تجد صلاتهم

بالإنكليز في غير الأمور الرسمية ، وأما أبواب المجتمع الإنكليزيّ في الهند فَمُوصَدة دونهم تماماً .

ومُوَلَّدو الأُور بيين والهندوس هم أكثر من تدور الخرافة الطائفية حولهم ، فمع أنك تَجِد تجاراً أو أغنياء من مُوَلَّدي البرتغاليين والهندوس يُقبَلون في رِدَاه بار يسٍ بقبول حَسَن لا يأذن الإنكليزيّ لأمثالهم في الهند في الجلوس أمامه أو في الأكل على مائدة معه ، وذلك خارجَ كُبْرَيات المدن التي هي على شيء من التفرنج .

ولستُ بالذي يَبْحَث هنا في عَدْل مثل ذلك النظام أو جَوْره ، فمن الحَذَر أن يُقْتَصر على عرض الأمور كما تُرَى ، ومن الخطأ أن يُؤْتَى بأحكام سطحية مختلة نظرية في نُظُم ثَبَت أمرها مع القرون ، فقد كُتِب لهذه النُّظُم البقاء مع مااشتعل من الفِتَن والثورات، وهي من القوة العظيمة ما انتحلها معه شعب من أرقى شعوب العالم تمدناً مع مَقْته لها في كُتُبه ، ومن أجزل الفوائد التي اتَّفَقَت لنا من رِحلاتنا أن عَلِمْنا أن الأمم لا تختار نُظُمها ، بل تعاني النُّظُم التي فرضتها عليها عوامل العروق والبيئات ، فالإنسان إذ ليس له أن يختار نُظُمه كانت هذه النُّظُم أقوى من عزائمه .

٤ — الحقوق والعادات

ظَلَّت الهند مظهر الحضارة الفطريّ من الناحية الحقوقية ومن نواحٍ أخرى كثيرة فلا تزال تعاليم كتبها الدينية التي يُفَسِّرها كَهَنَتها ويُعَدِّلونها بالتدريج وعاداتُها المحلية وحدَها مصدرَ قوانينها ، ولم يحاول أحد من قاهريها أن يستبدل بهذه المُقَوِّمات دستوراً جديداً ، فلم يَتَصَدَّ أشد هؤلاء ظلماً وأكثرهم رأفة للمبادئ التي كان يخضع

لها رعاياهم من الهندوس ، ولم يفكروا فى غير أمر واحد وهو : جباية الضرائب .

وإن أقصى ما يؤدى إلى المركزية فتسير إليه مجتمعات الغرب فى الوقت الحاضر هو أن يضع مشترع قانوناً واحداً يخضع لأحكامه أبناء بلد واحد فلا تُرَاعَى فيه أمور الطبقات ولا الثروات ولا الجهات .



١٧١ ـ إبريق مخرم مموه بالذهب (كشمير)

وَضْعُ الدولة قوانينَ واحدةً للجميع هو مبدأ حديث جداً ، فهو ، إذا ماأمكن إرجاعه إلى الدولة الرومانية نظريًّا ، لم يَبْدُ فى حقل العمل إلا حديثاً ، وقد اشتعلت الثورة الفرنسية من أجل ذلك المبدأ من بعض الوجوه ، ونحن إذا كنا نرى ازدهاره فى فرنسة ، معتقدين أن أمر الاشتراع من شأن الدولة ، يجب أن نقف عند هذا الحدّ ما أبصرنا عدمَ انتحال ذلك المبدأ فى كلّ مكان .

فلا تزال العادات المحلية مُحْكَمة فى إنكلترة وألمانية وروسية ، ونحن نشاهد زيادة قوة العادات كلما ابتعدنا عن مراكز الحضارة الأساسية .

والعادات ، إذ كانت تستند إلى طُرُز المعايش الخاصة والمعتقدات القديمة المُتَأَصِّلة واختلاف الجماعات البشرية الكثيرة فتنشأ ببطوء ، لا يمكن تقويضها فى يوم واحد بمرسوم أو بأمر يصدر عن مجلس نواب، وَضَلَّ من قال غير هذا من الفاتحين والمصلحين، فلم تَلْبَث نظمهم التى وضعوها أن انهارت عند أول صدمة .

بَيْدَ أن هذا العَمَى مرضٌ نفسيٌّ حديث فى الحقيقة ، فلم يكن أقوى المتغلبين فى غابر القرون ليصابوا به ، فإذا كانت المركزية المطلقة وهماً خَطِراً على الدول الضيقة التى لا تَجِد فيهــا سوى طُرُزِ معايشَ واحدة ولا تُبْصِر فيها سوى عِرْق متجانس تقريباً فــكيف يكون أمرها فى الدول الواسعة كدولة الرومان أو دولة المغول ؟ وكيف يكون أمرها فى بلد كالهند حيث ترى كثيرَ العروق والأديان والأجواء وما إلى ذلك من المؤثِّرات المختلفة المتجاورة ؟

والإنــكليز الفاتحون ، وهم أشــبه أمم الوقت الحاضر بالرومان ، قد انتحلوا فى الشرق سياسة قائمة على احترام العادات المحلية القديمة فسيُضْطَرُّون إلى الرجوع إليها فى قسم مهم من إمبراطوريتهم فى الغرب على ما يحتمــل ، والإنــكليز هؤلاء قد أدركوا أن ما وَطَّدته القرون لا يتحول إلاَّ مع القرون وأن الفوضى والخراب ممَّا يَعُمُّ بلاداً تــكون محل نَزَوات الخياليين والمشترعين فــكان أمر الإنــكليز فى ذلك ، من حيث النتيجةُ ، كأمر قدماء الملوك الذين كانوا يدركون بغريزتهم ذلك من غير دليل لا ريب .

وسار الإنــكليز على نَهْج ملوك المغول المستبدين فلا يطالبون بسوى دفع الضرائب بانتظام ، فإذا عَدَوْت النظام المالى وجــدت الإنــكليز قد تركوا للهنــد شرائعها ، وإن شئت فَقُل عاداتها الدينية على حسب تفسير البراهمة ، فلا ترى للمحاكم الأوربية فيها عملاً غير تنفيذ هذه الشرائع .

ولا مَعْدِلَ عن الاعتراف بأن ذلك التنفيــذ غير سهل على قُضاة الإنــكليز ، فالشرائع الهندوسية مُعَقَّدَة تعقيدَ المذاهب الدينية التى تُشْتَق منها ، فهى تختلف بين

ولايةٍ وولاية ، وبين قريةٍ وقرية ، فالحقُّ أن الهند ظلت مواظبةً على النظام الرَّعائيّ فتجد مجلساً منتخباً يمارس السلطة الاشتراعية فى كل بَلَدِيَّة صغيرة فتبصر من خلال هذا مهدَ النَّدوات المترجحة بين مجلس الشيوخ الرومانى وبرلماناتنا مما تراه فى جميع المجتمعات ذات الأصل الآرىّ .

ولكن برلماناتنا تَسُنّ القوانين ، ولا يصنع ذلك المجلس المنتخب غير احترام النُّظُم التى نَضِجَت نَضَجاً بطيئاً بفعل الدين والعادة ، وترى نظام الهند فى دوره الأول، أى كما وضعه آباء الأُسرة الوِيدية حينما كانوا يجتمعون لحفظ الأَمْن ونَفْع القرية ، وسار ذلك النظام منذ ذلك الزمن ، ومن السهل تعيين مراحله فى غضون التاريخ ، ما دام ذلك المجلس الآرىّ المنتخب لا يَضَع قانوناً فى القرن الواحد مع أن مجلس النواب يَسُنُّ عِدَّة قوانين فى يوم واحد فى الغالب .

ولا نُفَصِّل العقوباتِ التى تُفْرَض على مقترفى الجنايات والجُنَح ، وإنما نقول إن الحكومة الإنكليزية تجازى القاتل بالقتل والسارق بالسجن مع صَرَامةٍ ، وعندما يكون الجُرْم عظيماً يُضْطر القُضاة إلى مجاوزة الرأى العام الذى هو أقل منهم شِدَّة فى الغالب ، ومما رأيناه حينما بحثنا فى آداب الهندوسىّ أن بعض الصغائر عنده تكون ، أحياناً ، أجدر باللَّوْم من الاحتيال أو الغَصْب ، ومن العقوبات التى نَعُدّها شائنة ما لا يَشِين فى الهند ، فإذا خَرَج الرجل من السجن لم يُنْظَر إليه شَزْراً ، بل يَعُدّه أبناء وطنه ضحية إذا كان الأجنبىّ الغالب هو الذى حكم بسجنه رأساً .

وإذا استثنينا العقوبات الشديدةَ التى يقتضى الأمن العامّ فرضها وَجَدْنا للعادات فى الهند شأناً كالذى كان لها منذ عِدَّة قرون ، وأهمّ هذه العادات ما هو خاصّ

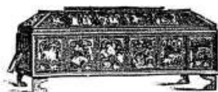
بالمواريث و بالتملك ، وللمواريث والتملك أشد الأمور تعقيداً واختلافاً بين ولاية وولاية، وسنذكر من العادات الشاملة ما يتعلق بالمواريث .

لا يَعْرِف الهندوسىّ الإيصاء ، فليس للهندوسى بعد موته أىّ سلطان على الأحياء، فما ذكرناه أن التملك فى الهند لا يكون فَرْدِيًّا إلا نادراً وأن الأملاك تكون للقرية فيها إن لم تكن للاسرة ، فإذا كان الهندوسىّ عاجزاً عن التصرف فى أثناء حياته بما يَمْلِك كما يريد فكيف يتصرف فيه بعد وفاته ؟

ليس الأب إلاّ مديراً لأموال أولاده فى الحقيقـة ، فإذا مات بَقِى ما كان على ما كان ، فإذا أراد الأولاد القِسْمَةَ أخذ كلّ واحد منهم حِصَّته ليُؤَسِّس أُسرة، و إلاّ ظل الابن الأكبر مديراً للأموال قائماً مقام أبيه المتوفّى .

والأولاد الذكور هم الذين يقتسمون تلك الأموال ، وأما المرأة فى الهند فلا تَمْلِك غير هِبات الأبوين والأصدقاء حين الزواج ، وليس للزوج حق فيما مَلَـكَته الزوجة ، ولا يستطيع أن يَبيعه من أحدٍ إلا برضاها .

و إذا مات الرجـل غيرَ ذى أولاد من الذكور وَرِثَته زوجته ما دامت فى قَيْد الحياة فقط .



١٧٢ ــ صندوق مزين بالمينا. (راجبوتانا)

ولاطائل فى تفصيل شَبَكَة الاشتراع الهندوسىّ المُعَقّدة المُتَحَوِّلة ، والاشتراعُ الهندوسىّ إذ قام على العادة وحـدَها كانت الشريعة الهندوسية سبب ارتباك للقُضَاة الذين يقومون بتنفيذها ، و يزيد هذا الارتباك عند ما يكون الخصوم من ولايات ذات عادات مختلفة ، وقد نشـأ عن وسائل النقل

السريعة زوال الحواجز بين هذه الولايات ، فيَجْمُل بوُلاة الأمور أن يفكروا فى وَضْع قانون واحد شامل لجميع المسائل التى تقتضيها المصلحة العامة ، وهذا ما يَشْغَل بالَ الإدارة الإنكليزية فى الهند فى الوقت الحاضر كما علمنا .

٥ — الزراعة

أثبتنا فى فصل « البيئات » أن الهند بلد زراعىّ قبل كلّ شىء ، وأن عَطَلَها من الوَقود ، على الخصوص ، يحول دون تَحَوُّلها إلى بلد صِناعى .

إذَنْ ، تتألف أكثرية الهندوس من الزُّرّاع ، أى من الفقراء الذين يعيش الواحد منهم مُيَاوَمةً ببضعة دوانق يختطفها من بيت المال أو المرابين الذين هم أشدّ ظلماً من بيت المال فلا يَجِدون وسيلةً للاغتناء أفضل من أكل الربا .

ومما زاد الفقرَ فى الهند زيادةُ سكانها بسبب عدم وقوع الهندوسىّ فى بُؤْس مُطْبِق ، فأضحى أهالى الهند فى أقلّ من قرن ضِعْفِى ما كانوا عليه ، وشعبٌ يزيد أفراده كهؤلاء من غير أن يكون مالكاً لأراض واسعة يَزْرَعها ، كما يَمْلِك أهلُ الولايات المتحدة الأمريكية ، لا يغتنى أبداً ، فإذا ما نال ثَرَاء فى أحوال شاذّة فلأجَل محدود ، فلذلك نقول إن سكان الهند ، على الخصوص ، يزيدون بسرعة على وسائل معايشهم .

ومن حسن حظّ الهندوسىّ أن كان من قِلّة الاحتياجات ما يبدو به أقلّ بؤساً من ابن الطبقة الأوربية المماثلة لطبقته ، فلم أسمع أن هندوسياً أمّيًّا يَتَوَجَّع من سوء طالعه ، فلو كان عنده ربع ما عند الأوربىّ من الاحتياجات لتعذر عيشه ، فإذا ما قُيِّض للإنكليز أن يجعلوا فيه مثل هذه الاحتياجات بفعل ما يَتَلَقَّنه من أصول

تربيتهم رأى الحياة أمراً لا يطاق كما يراها الأوربيّ الذى يُحَدَّد دَخْلُه اليوميُّ بثلاثين دانقاً أو أربعين دانقاً مثلاً .

حَقًّا أن الهندوسيَّ ، الذى هو أخلى النـــاس همًّا ، إذا ما كان له كُوخٌ من مَوْص(١) يأوى إليــه ونال قطعتى نسيج لِيَلُفَّ إحداهما حول رأسه ويَلُفَّ الأخرى حول كُلَيْتَيْهِ ونال حُفْنة أُرُزٍّ فى كلِّ يوم غدا مطمئناً غيرَ حاسد أحداً .

ولا يألم الهندوسيّ إلا عند المجاعة ، ولا يلبَث أن يموت جوعاً عند ارتفاع أثمان الحبوب ، وتسيطر غَفْلَته الطبيعية على حاله ، فهو يَصْرِف ما يَـكْسِبه يوماً فيوماً فلا يقتصد ما يمكنه وقت اليسر ، فينفق ما يزيد على احتياجه فى ابتياع الأَسْورة والقلائد وفى إقامة الولائم .


١٧٣ ــ إناء من البرونز مكفت بالنحاس (تانجور)

ذلك حال الهنـدوسيِّ فى كلِّ زمن وفى عهد جميع الفاتحين ، ومن عدم الإنصاف عَذْلُ سادة الهند على حال الهندوسيِّ مهما كان العِرْق الذى ينتسبون إليه ، فالسُّنَن الطبيعية ، التى قَضَت على الهندوس بأن يزيدوا نفوساً بسرعة لا مثيل لها فى العـالم وبأن يزرعوا فى سبيل الآخرين أرضاً لا نظير لخِصْبها فيموتوا فوقها جوعاً فى الغالب ، مما لا رادَّ لحُـكْمه ، فهى أقوى من سلطان المتغلبين أنفسهم ولا ينفع لومها .

(١) الموص : التبن .

ويقتصر شأن الغالبين على تخفيف شدّة تلك السُّنن المُقدَّرة على المغلوبين إذا كانوا من الكُرَماء المُنوَّرين ، والحكومة البريطانية بدت خيراً من غيرها فى هذا الأمر ، فالحقُّ أن الهندوس أنعم حالاً وأهدأ بالاً فى العهد الإنكليزى مما كانوا عليه فى أىّ زمن .

٦ — العامل الهندوسى

يُمثِّل العامل الهندوسى ، بفضل نظام القُرَى القديم والطوائف المِهنيَّة ، دوراً غير الذى يمثله العامل الأوربىّ فى الغرب ، فالعامل الهندوسىّ ، سواء أكان فى قريته أم فى طائفته المِهنيّة ، مكانُه الذى وَرِثه أباً عن جَدّ منذ قرون ، ويجهل العامل الهندوسىّ ما عَرَفَته شعوب الغرب من تنازع البقاء ومن العمل القاسى فى المصانع ومن البطالة وما إلى ذلك من ضروب البؤس التى تجدها فى حضارتنا ، وليس العامل الهندوسىّ بَدَوِيًّا كالعامل الأوربىّ الذى لا تُبْصِر له وطناً ولا أسرة فيبدو عدواً هائلاً للمجتمع الذى يَعْمَل فيه ، فالحقُّ أن العامل الهندوسىّ لا يَكْسِب مُياوَمَةً أكثر من اثنى عشر دانقاً إلا نادراً ، ولكنه إذ كان عاطلاً من احتياجات الأمم المتمدنة المصنوعة فإنه يكتفى بهذا المبلغ الزهيد ، والحقّ أن أجرة العامل الأوربىّ تزيد على أجرة العامل الهندوسىّ عشر مرات ، ولكن احتياجات ذلك إذ كانت أكثر من احتياجات هذا بدرجات فإنه يبدو بائساً فى الغالب .

ولا يتمُّ تخرُّج العامل الهندوسىّ فى المصنع أو المدرسة أو الكتب ، فالمهَن فى الهند أمر وراثى ، فهى تنتقل من الأب إلى الابن منذ أقدم الأزمنة ، وفى القرية

التي هي عنصر المجتمع الهندوسيّ الأساسيّ يُصْنَع كلّ ما هو ضروريّ وكماليّ ، ولا تجد قرية عاطلة من خزّاف أو نحّاس أو صائغ انتقلت إليه مهنته من أجداده منذ زمن مَنُو .

وتتألف طائفة من عُمّال كلّ مهنة في المدن الكبيرة ويتألف من كل مهنة عالَمٌ صغير له عرف وراثي ، كمهنة ناقشي العاج وصانعي الأسلحة والعطّارين والدهّانين والزجّاجين والخزّافين الخ .

ويَقْضِي السائح ، الذي يجوب مدن الهند وقُراها فيزور أكواخ العمال ، العجبَ من حِذْق هؤلاء العمال ومن قِلّة عدد الآلات التي يستعملونها في إنجاز أيّ عمل ، فيقطع السائح بأن عمال الأوربيين الذين يفوقون عمال الهندوس قليلون إلى الغاية وبأنهم يَعْجِزون ، مع ذلك ، عن إنتاج مصنوعات مُتْقَنة بمثل تلك الآلات ، فحِذْقُ كذلك هو نتيجة استعداد وراثي لا يُغْني عنه أيّ تخرّج ، نعم ، قد يصنع العامل الأوربيّ أدوات أفضل مما يصنعه الهندوسيّ مستعيناً بآلات ميكانيكية ، ولكنّ من فَرْط التساهل أن نساوي العامل الأوربيّ بالعامل الهندوسيّ ، والعاملُ الأوربيّ هو مَن حَطّ الاختصاص قيمته الذهنية على عكس العامل الهندوسيّ .

٧ — حياة الهندوس العامة والخاصة

تكلمنا في الفصل الذي خصصناه للبحث في العروق عن طبائع سكان الهند وعاداتهم المختلفة ، فنقتصر في هذا المطلب على قول بضع كلمات عما يشترك فيه أكثر الهندوس من الطبائع والعادات .



تَجِد كبيرَ أُبَّهَةٍ وَرَوْعةوعظمةفىمظاهر حياة الهندوس العامة كاستقبالاتهم وأعيادهم الدينية وعَرْض جنودهم ومواكبهم فتألَّف منها موضوع ألف قصة عجيبة لخيالاتنا الغربيـة ، وأما حياتهم الخاصة فبسيطة إلى الغاية .

١٧٤ — إبريق شاى يظن أنه صنع فى نيبال

وما لدى الغَنِيِّ من الطعام والمأوى والعادات لا يختلف كثيراً عما لدى الفقير ، فيتألف طعام كليهما من الخُضَر والأَرز أو السمن ومن التوابل والماء الخالص ، وكلاهما يأكل بأصابعه جالساً القُرْفُصاء على الأرض ، وما بينهما من الفرق فيتجلى فقط فى نوع البُسُط والفِراش والنُّسُج ، وتتألف أوانيهما من أطباق مصنوعة من ورق للَوْز ، وتَجِد عند الطبقات الدنيا من الأوانى الخَزَفيَّة أو المعدنية ما لا تَجِده عند الطبقات العليا ، وسببُ ذلك أن ابن الطبقة العليا يخشى أن تكون هذه الأوانى مما استعمله شُودْرِىٌّ أو منبوذ فلا يرى ، للخروج من هذا الاحتمال ، غير استعمال الأوانى المصنوعة من ورق الأشجار فتُتْلَف بعد استعمالها حالاً ، وهذا ما لا يخشاه ابن الطبقة الدنيا فيـكتفى بغسل أوعيته تلك غسلاً حسناً .

وليس فى بيت التاجر الغنىّ ما يُمَيِّزُه من كوخ الفقير من الأَثاث ، فـكلا المنزلين عاطل منه ، وما فيهما من طَرْف فمقصور على زينة الجُدُر المنقوشة المُرَصَّعة أحياناً وغِنَى الستائر الحريرية والزَّرابِىِّ المبسوطة على الأرض والوسائد التى يُجْلَسُ عليها أو يُسْتَنَدُ إليها .

وأظهر ما تبدو نعمة الغنىِّ من أهل الهند فى المنازل الواسعة العالية وما يحيط بها من الحدائق ، وفى خرير المياه الجارية إلى الحيـاض ، وفى الثياب الفاخرة والحُلِىِّ

الثقيلة الثمينة ، والزهدُ فى الطعام أمرٌ شامل لأهل الهنـد ، وما يمارسه أهل الهند كل يوم من الطقوس الدينية يجعل حياتهم واحدة مهما كانت الطبقات الاجتماعيـة التى ينتسبون إليها ، وتقوم هذه الطقوس ، على الخصوص ، على الغسل والصلوات صباحاً وظُهْراً ومَساء ، ولا سيما قُبَيْـل الأكل أو بعده حالاً .


١٧٥ ــ إناء من فضة مموه بالميناء
(العصر المغولى)

والهندوسىُّ لا يبـدأ بعمل ولا يدنو من صديق ولا يُفَـكِّر فى نوم من غير أن يعوذ بالآلهة ، وهو ، لـكيلا يَغْفُل عن واحد من أدعيته الـكثيرة ، يستعين بسُبْحَة كالمسلمين والـكاثوليك ، وهو يكتفى ، فى الغالب ، بذكر أسماء آلهته المختلفة .

ووصفُ حياة الهندوسىِّ العامة أسهلُ من وصف دقائق حياته الخاصة ، وعِلّة هذا ما فُطِر عليه من الغَيْرَة المانعة من اطِّلاع الأجنبى على سرائر بيته ، والهندوسىُّ ، مع ذلك ، مِضْيافٌ ذو أدب جَمٌّ .

ونساء الهندوسىِّ تظل بعيدات من أنظار الزائرين ، ومن الإهانة لربِّ المنزل أن يُسْأَل عنهن .

وإذا ما تَزاور الهندوس بَدَوْا أبسطَ أُلْفَةً مع مراعاة أشدِّ قواعد الحِشْمة ، وتَعَدّ مقامات الناس ، ولا سيما مكان كلٍّ واحد

منهم فى رَدْهة الاستقبال ، من أعظم ما يلاحظه الهندوس ، فإذا ما حضر راجه أو أمير من البيت المالك جلس تحت مِظَلّة منصوبة فى صَدْر الرَّدْهة المقابل للبـــاب ، ويصطفّ الآخرون على طول الرَّدْهة على أن يكون أقلُّهم منزلة بالقرب من البـاب ، ويجلِس الجميع على بُسُط أو على وسائد .



١٧٦ ـ شمعدان من البرونز
(مدورا)

ومن يستقبلُ الزائرين هو الذى يشير عليهم بالانصراف ، وذلك بإتيانه قولًا أو عمـلاً مصطلحاً عليه كأن يسـأل مثلاً : هل يحظى بزيارتهم مرة أخرى ؟ أو كأن يَعْرِض عليهم تَنْبُلًا[1] أو جُلّاباً[2] .

ويَلْبَس هندوس الشمال ثياباً بحسب الزىّ الإسـلامى على العموم ، ويحافظ هنـدوس الوسط والجنوب على الزّىّ التقليدىّ المؤلف من قطعة نسيج تُلَفّ حول الـكُلْيتَيْن وقطعة نسيج أخرى تُلَفّ حوْل الرأس ، وتَلْبَس المرأة نسيجاً فَضْفَاضاً (سَارى) يحيط بساقيها ويُرَدّ أحياناً إلى ما فوق رأسها فيستر وجهها ، وتَلْبَس المرأة أيضاً صُدْرَةً قصيرةً لا تستر خصرها ، ولا يَلْبَس الهندوس أحذية ، بل يَلْبَسون بوابيجَ مَعْقوفةَ الطّرَف حينما يكونون خارج بيوتهم فيخلعونها فى العَتَبات ، فالهندوس حُفَاةٌ فى منازلهم .

(١) التنبل : نبات من الهند يمضغ ورقه ـ (٢) الجلاب: ماء الورد (معرب)

ومنظر قُرَى الهندوس حسن رائع ، ويُؤلّف أكثر بيوتهم من طبقة واحدة ، وتُصْنَع جُدُر هذه المنازل من سِيقان الخيزُران كما في البنغال ، ومن الطين مع سقوف من القِرْمِيد كما في الهندوستان أو سقوفٍ من الصَّلْصال المرصوف كما في الدَّكَن ، وتكاد تجد معبداً صغيراً في كلّ خطوة ، وتقوم في وسط القرية دائرة البلدية المصنوعة في الغالب من سَقْف قائم على أعمدة ومن ميدان ذى شجر ظليل ، ويُرَى في القرية حيٌّ منفصل خاصٌّ بالمنبوذين ، ويجتنب الهندوس لَمْسهم بدقة من غير إيذاء ، ويقرُب حال المنبوذين هؤلاء من حال السائلين في أوربة .

والطرق في كُبْرَيات مُدُن الهند ضيقة ومزدحمة ويسير فيها جمهور أنْمَر[(١)] على الدوام ، ويجوبها الأغنياء في هوادجَ يتبعها حَمَلَةٌ متناوبون وتُوضَع السِّلع على مصاطب الحوانيت فيدفع المشترون الثمن من غير أن يدخلوا هذه الحوانيت المُفَتَّحة الأبواب ، وتبدو سوق التجار أكثرَ أماكن المدينة حركةً وتَغَصُّ المعابد بالجمهور أيضاً ، مثلما تَغَصُّ أطراف حِياض الغسل .

ولكلّ معبد حَوْض مقدس يَغْطِس الرجال والنساء والأولاد في مائه القذر في الغالب .

وماء نهر الغَنْج نفسُه هو الماء المُقَدَّس في المدن القائمة على ضِفافه ، ويُنْزَل إلى هذا النهر من دَرَج عالية على الدوام ، لِما يطرأ على مستواه من التحول ، وتَغَصُّ تلك الضِّفاف بالحجيج في الأعياد الدينية ، وتبدو رائعة في الليل بساحر الأنوار ، ولا شىء

(١) الأنمر : ما فيه بقعة بيضاء وأخرى سوداء .

أجملُ من نهر الغَنْج الجليل حين تنعكس عليه أنوار النيران التى تُوقَد على أرْصِفَة القصور والمراقى القائمة على ضِفافه ، ويسطع بعض هذه الأنوار فوق الصَّوارى[(١)] فيُخَيَّل إلى الناظر أنها تناطح الكواكب .

وزينةٌ كتلك مما يَرُوق الهندوسَ ، ومما يزيد أعيادَ الهندوس رَوْعَة ازدحامُ الجماهير التى تجتمع فيها وضروبُ الأُبَّهَة التى تتَجَلَّى فيها ، أجَلْ ، إنك تشاهد أعياداً لكل مدينة ولكل طائفة ولكل مذهب ، بيد أن هنالك أعياداً كبيرةً عامة تلتقى فيها جميع الأديان .

وللحجِّ والأسواق فضلُ جَمْع مختلف الشعوب فى صعيد واحد ، والتجار يتبعون الحجاج فيزيدونهم عدداً ، ولا تُفْتَتَح سوقٌ قبل البدء بتمجيد الآلهة .

وأولادُ الهندوس ، وهم من الأذكياء الحسان على العموم ، يترعرعون طُلَقاء ، فيَلْعَب أبناء الفقراء ويَرْتَعون فى الطُّرُق والحقول عُرَاةً ، ويتَخَرَّج أبناء الأغنياء على البراهمة المرتبطين فى بيوت والديهم كمُؤَدِّبين ، وقليلٌ من هؤلاء الأبناء من يذهبون إلى المدارس مع ما تَبْذِله الحكومة الإنكليزية من الجهود ، فإذا ما بلغ الواحد منهم السنة العاشرة أو السنة الثانية عشرة من عمره تَزَوَّج .

والنساء يَمشِن مُقَيَّدَاتٍ كما ذكرنا ، فإذا خَرَجْن مع زوجهنَّ ابتعدن عنه بضع خطوات ، وإذا سافَرْن معه فى القطار تَبَوَّأْن مقاعدَ فى مركبة الدرجة الثالثة مع أنه يَتَبَوَّأ مقعداً فى مركبة الدرجة الثانية فى الغالب ، وهنَّ لا يأكلن إلا بعده ، ويَخْدِمْنه فى أثناء طعامه .

---

(١) الصوارى : جمع الصارى وهو عمود يركز فى وسط السفينة يعلق به الشراع .

ويحرِّق براهمة الهندوس موتاهم إذا زادت أعمارهم على سبع سنوات ، وإلا دفنوهم على العموم .

ويكون المَوْقِد حُفْرة قليلة العُمْق ، فإذا كان الميت غنيّاً مُلِئَت هذه الحُفْرة بحُطَيْبات من خشب الصَّنْدَل وزِبْل البقر المُجَفَّف الذى يُعَدُّ وَقوداً مقدساً فى الهند ، ثم تُسْتَرُ الجُثَّة وجميع المَوْقِد بطبقة رقيقة من الطين الرَّطْب ويُحْرَق الوَقيد قبل إغلاق جميع المَوْقِد ، فإذا ما تم الحرق فى خمس ساعات أو ست ساعات وحَلَّ الغد جَمَع الأقارب عِظام الميت المحروقة ورَمَوْها فى بحر أو نهر .

والهندوس مفرطون فى إظهار سَرَّائهم وفى إظهار ضَرَّائهم ، وهم ذوو جَذَل بطبيعتهم ، وهم محبون للاحتفالات والألعاب والملاذّ العامة ، وهم ، مع زهدهم عادةً ، يقيمون أفخر الولائم فى بعض الأحوال ، والزواج أهمّ عيد عند الأسرة الهندوسية ، فى سبيل الزواج لا يَعْرِف الهندوس للإنفاق حدوداً ، فيُخَرِّب فقراؤهم بيوتهم بأيديهم فى حَفَلات الزواج فيُثْقِلون كواهلهم بالديون من أجل دعوة جيرانهم إلى الولائم التقليدية .

وإذا سألت عن أمر الأغنياء فى الهند علمت أن أفراحهم تُقْرَن برقص الراقصات وبالصيد على ظهور الفُيُول ، ومن أروع المناظر لدى الهُواة والمتفننين مواكب أمراء الهند للصيد حيث يَرَوْن فُيُولهم ذات الرُّخُوت[1] الزاهية وجيادَهم ذات السُّروج الرائعة وكتائبَ خَدَمهم ذوى الثياب الساطعة .

وتُعَدُّ الراقصات رُكناً فى جميع احتفالات الهندوس الدينية والمدنية ، وليست الفَتَيات الفقيرات ، المتوسطات الظَّرْف الرديئات الثياب ، الراقصات فى بيوت الأغنياء

---

(١) الرخت : السرج .

أو فى رِداء القنادق أمام الأجانب طمعاً فى أجْر زهيد ، باللاتى يتمثل الأوربىُّ بهنَّ تلك الفاتنات المُدَّثِّرات بالشُّفوف الرقيقـة واللابسات حُليًّا ساطعة واللاتى يَقُمْنَ بالتمثيل الصامت المتموج الحافل بالأسرار فى المعبد بجنوب الهند واللاتى يكون رقصهن أمام الآلهة أهمَّ عمل يَقُمْنَ به .

وأمراء الهندوس مُكْرِمون للضيوف ، ولاسيما إذا كان الضيف مُوصًى به ، ولا أرانى خاتماً لهذا البحث الخاطف قبـل أن أورد ما لاقيته فى بَلاط بهوبالَ مثالاً على ذلك :

تَمْلِك مملـكةَ بهوبال الصغيرة فى الوقت الحاضر مَلِـكةٌ ، فلما عَلِمَتْ هذه الملِـكة بقدومى أرسلت إلىَّ عربةً من بَلاطها فبلغتُ بها أحـد قصورها حيث استقبلنى خَدَمٌ كثيرون حاملون سِلالاً مملوءة فواكه وأزهاراً ، وكان على رأس الجميع وزير ليُبَلِّغنى أطيب تَمَنِّيات الملِـكة .



١٧٧ ــ إناء معدنى مموه بالمينا ء (البنجاب)

فما كِدْتُ أدخل القصر حتى دَنا منى ضابط القصر قائلاً :

«تُرَحِّب الملِـكة بكَ أيها السَّرِىّ الأجنبىّ راجيةً أن تُعرِب عما تَرْغَب فيه» .

فأبديت رغبتى فى تنـاول العَشاء ، فبدَت إشارةٌ فرُفِـع حِجابٌ فرأيت فى الرَّدْهة المجاورة مائدة مُنَسَّقة على الطريقة الأوربية مشتملةً على شَمَاعِد وآنيةٍ من

بِلَّوْر وفِضة يحيط بها خَدَمٌ لابسون ثياباً مختلفة الألوان واقفون صامتون كتماثيل من برونز مزملةٍ بحرير .

ولم أكد أجلس حتى سمعت صوت جَرَس فى الخارج فقيل لى إن هذا كان لأن المليكة لم تَرَ أن تنام قبل أن أسأل عما أرغب فيه مرة أخرى .

فسألت أن يرافقنى حَرَسٌ إلى سانچى فى الغد ، فلما حلّ الصباح وجدت الفُيُول والفرسان ينتظروننى أمام الباب ، ولما وَصَلْت إلى سانچى وجدت خَيْمَةً مُعَدَّةً لى مشتملةً على سُرُر مُغَطَّاة بنُسُج من حرير وعلى دقائق القِرَى الشرقىّ .



١٧٨ — إناء خزفى مطلى (سندها)

وتمّ لى مثل ذلك الاستقبال الرائع من قِبَل الوصىّ على عرش جِهَنْغَرْپُور الذى أمر بأن يُنْصَب لى فى البَرِّيَّة بكهجورا خيمةٌ حاوية جميع وسائل الراحة الأوربية ، فلما رَجَعْت من ذلك البلد القديم المهجور فى الوقت الحاضر حضر لتحيتى ذلك الوصىّ على العرش مُحَاطاً بوزراء البلاط وأمرائه بعيداً بضعة أميال من عاصمته .

حَقّاً أن ذلك القِرَى ينقلب إلى زَعْج الأجنبىّ إذا أمر الراجوات بضَرْب المدافع إيذاناً بوصول أجنبىّ إلى عواصمهم ، ولكنّ الخطْب يهون على السائح إذا أراد الوقوف على الأُبّهة الآسيوية وعلى المواكب السائرة والجماعات ذوات الثياب الزاهرة ، فالسائح الذى يُكَرَّم بمثل ذلك يظلّ شاكراً لمن احتفى به فيَذْكُرُ له ذلك .

وليست تلك المنـاظر الزاهية مُتْعَةً للعيون والخيالات فقط ، فالناقدُ والمؤرخُ يَجِدان فيها ، أيضاً ، مثلما يَجِده المتفنن .

والسائح إذا دخل حيدر آباد على ظهر فيل فشاهد حَوْلَه حَرَس نظام ذى الأوضاع الرائعة أبصر صورة صادقة عن عاصمة كبيرة فى أيام سلطان الإسلام .

وحيدر آباد ، عاصمةُ ممالك نظام ، هى المدينة الهندية التى حافظت على مظهر القرون الخالية وعظمةِ بلاطات الشرق القديمة ، وقد تُقَاس بمدن العهد الإقطاعى فى أوربة وإن لم يكن للشرق عهدٌ بالإقطاع الحقيقىّ ، فالباحث حينما يرى أمراء نِظام أصحابَ جيوشٍ يدخلون بها عاصمةَ الملك فى بعض الأحيان يتَمَثّل له ما كان يقوم به الأرمانياك والبورغون من القتال فى شوارع باريس .

الفصل الرابع

الإدارة الإنكليزية

مستقبلُ الهند

---

(١) الإدارة الإنكليزية — مبادىء إدارة الإنكليز في مستعمراتهم — حكومة الهند قبل ثورة السپاهي — إدارة الهند الحاضرة — تقسيمات إدارية — سلطة الحكام ونائبيهم — موظفو الإنكليز ورواتبهم — استخدامهم الكبير — يدير الهندوس أمور بلادهم الثانوية — بساطة الإدارة الإنكليزية — الجيش — المالية — التجارة — وسائل النقل — دول الهند المستقلة — (٢) التربية الإنكليزية في الهند — أهمية التربية — تأثير التربية الأوربية السيء في الهندوس — المثقف الهندوسي — عقله وأدبه — عدم اتزانه — (٣) مستقبل الهند — مسألة مستقبل الهند تتضمن نتائج اصطراع الشرق والغرب — يمكن الهند أن تغير سادتها ، غير أنه محكوم عليها بالخضوع للفاتحين من الأجانب — الأخطار التي تهدد سلطان الإنكليز في الهند — أهمية ما تتمخض عنه المنازعات الصناعية في الهند وفي بقية الشرق — نتائج هذه المنازعات الخطرة على أوربة — ما قد تسفر عنه من خفض أجور العمال في أوربة — لماذا لا يؤدي الأدب الأوربي الراهن إلى تبين مخرج ملائم لأوربة في التنازع الصناعي القادم بين الشرق والغرب

---

١ — الإدارة الإنكليزية

أقامت أمم كثيرة مستعمرات ، وحافظت أمم قليلة على ما أسست ، وعرفت إنكلترة كيف تحافظ على مستعمراتها على العموم ، فكان هذا سبب نيلها مغانم عظيمة ، فلذلك نرى من المفيد جداً أن نعلم كيف تمثلكها .

ودرس الموضوع فى مجموعه واسع مااختلف نظام الإنكليز الاستعمارىّ باختلاف المستعمرات ، فمن المستعمرات الإنكليزية ما هو مستقل استقلالًا تامًّا تقريبًا كأسترالية التى لم يكن سلطان الإنكليز فيها إلا اسميًا ، ومنها ما للإنكليز فيه حكام ذوو سلطان مطلق كالهند ، فنرى بين هذين الصنفين من المستعمرات مجالًا لتطبيق مختلف النظُم .

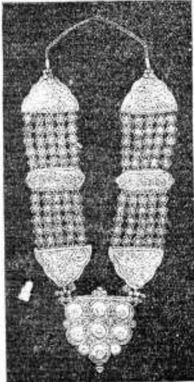
والنظام الذى ندرسه فى هذا الفصل خاصٌّ بالهند ، فسنذكر فيه خطوط ذلك النظام الذى استطاع به ألف من الموظفين وجيش صغير من الأوربيين (لا يكاد يزيد على الجيش الفرنسى المرابط فى الجزائر لحكم ثلاثة ملايين من المسلمين) أن يُخضعوا به أكثر من مئتى مليون من الآدميين ، أى أكبر إمبراطورية فى العالم بعد الصين .

ليس من السهل استخلاص المبادىء العامة التى سار عليها الإنكليز فى تأسيس إمبراطورية الهند الاستعمارية وما إليها من المستعمرات ، وهذه المبادىء العامة هى من قواعد السلوك التى ترغب الأمم ، كالأفراد ، فى العمل بها عملاً لاشعوريًا فى بعض الأحيان من غير أن يُوصَى بها فى الكتب ، ونحن ، إذ بحثنا فى الإدارة الإنكليزية بالهند وفى تاريخها بحثًا دقيقًا أمكننا أن نستخرج تلك المبادىء كما يأتى :

١ — يجب أن يكون فتح إحدى المستعمرات تجاريًا قبل فتحها حربيًا ، فالتجار ، وحدهم ، يستطيعون أن يُثْبتوا ، برواج أسواقهم ، وجودَ نفع بالغ فى الاستيلاء على بلد ، فإذا ما فعلوا ذلك دُوِّخ ذلك البلد عند القدرة على قهره عسكريًا ، وإلا فتح بالحيل والدسائس .

٢ — يجب أن يَتِمّ قهر البلد الذى يراد فتحه بمال هذا البلد وبجنوده ، فعلى الأوربىّ الغازى أن يقتصر على إدارة شؤون هذا الفتح ، وقد رأينا كيف أن هذا

المبدأ الأساسيّ قد طُبِّق فى فتح الهند فاستطاع الإنكليز، بتدخلهم فى منازعات أمراء الهند، أن يستولوا به على جميع الهنـد من غير أن يتكبدوا نفقة أو ضَياعاً فى الرجال إلا قليلاً جداً .



١٧٩ — عقد من فضة (سندها)

٣ — يجب أن تُستغلّ المستعمرة استغلالاً تاماً فى سبيل الأمة الغازية الفاتحة وحدَها ما دامت عاجزة عن رفع نير هذه الأمة الأجنبية عنهـا كما رُفع عن أمريكة وأوسترالية .

٤ — يجب ألّا تُمَسّ نُظُم المستعمرة وعاداتها ومعتقداتها إذا ما أُريد استغلالها اقتصادياً من غير أن يرفع سكانهـا راية العصيان ، وذلك بأن تُترَك لهم إدارتهم وقضاتهم مع إشراف شِرْذِمَةٍ من الأوربيين لا يألون جُهْداً فى الوصول إلى المقصدين : حفظِ الأمْن وجبايةِ أقصى ما يمكن من الضرائب ، وتُبْصِر من لقب « الجباة » الذى يطلق فى الهنـد على أكابر موظفى الإدارة الإنكليزية هدفَ الإنكليز من استعمارهم للهند .

٥ — يجب ألّا يتوالد الغالبون والمغلوبون أبداً ، ما دامت التجارب المكررة منذ القديم قد دلّت على أن توالد الشعوب العليا والشعوب الدنيا فى المستعمرات يؤدى إلى انحطاط الشعب المهيمن أخلاقاً وعقلاً ثم إلى خروج مستعمرته من يده فى أقرب

وقت كما أصاب البرتغاليين فى الهند والإسبانَ فى أمريكة ، وقد رأينا فى المطلب الذى درسنا فيه أمر الطوائف كيف أن الإنكليز عَضُّوا على هذا المبدأ بالنواجذ .

ولا مِراء فى أن المبدأ القائل باستغلال المستعمرة فى سبيل الأمة الغالبة وحدَّها صَعْبُ التطبيق ، فإذا ما جاوزت هذه الأمة الحدود فأساءت التصرف أصبح سلطانها لا يُطاق فثار عليها الشعب المقهور ، فتَبَيُّنُ هذه الحدود ليس من السهولة بالذى يُظَنُّ ، فقد التبس الأمر على الإنكليز مع روحهم العملية الممتازة ، فكادوا يخسرون الهند لمجاوزتهم تلك الحدود .



١٨٠ — حلية من فضة على شكل شبكة (أوربية)

ظلت حكومة الهند الإنكليزية قبل ثورة السِّپاهى منذ ثلاثين سنة تَستغلّ مئتى مليون من الآدميين بواسطة شركة تجارية اتخذت عِصاباتٍ من الإنكليز المرتزقين حاميةً لها فلم يستفِدْ من هذا الاستغلال سوى هؤلاء الإنكليز الذين فُوِّض إليهم أمرُ إدارة الهند ، فلم ينَلْ مساهمو تلك الشركة ربحاً ذا بال ما كان همُّ كل موظف إنكليزى من هؤلاء ، صغيراً كان أو كبيراً ، أن يغتنى بسرعة ، فبحث البرلمان الإنكليزى فى فضائح هؤلاء الموظفين الإنكليز المالية فى الهند ، فلما عَمَّ الجوْر والطُّغْيان وقَفَت الأعمال العامة فأُهمِلَت الطرق والحِياض والقنَوات الخ . إهمالًا تاماً .

دلّت ثورة السِّپاهي الدامية ، التي كادت تؤدي إلى خروج الهند من أيدي الانكليز ، على ما في تلك الحكومة من الأخطار ، فلم تكد تلك الثورة تُطفأ حتى غُيِّرت تلك الحكومة تغييراً أساسياً ، فقد نُشر في سنة ١٨٥٨ المرسومُ المعروف بـ « مرسوم الحكومة الرشيدة في الهند » فنُزِعت به حكومةُ الهند من تلك الشركة التجارية وأُسْنِدت إلى الملِكة ، وعُيِّن وزير للهند وأُضيف إليه مجلس مؤلف من أعضاء أقاموا بالهند عشر سنوات على الأقل ، وقُسِّمت الهند إلى ولايات يرئسها نائب ملِك على أن يساعده مجلس تنفيذيٌّ يُعَيِّنه صاحب التاج ومجلسٌ اشتراعيٌّ يُعَيِّنه نائب الملِك هذا ، فاليوم ترى الهند مقسومة إلى الولايات الثماني : (البنغال ، والمناطق الشمالية الغربية ، والپنجاب ، والمناطق الوسطى ، ومدراس ، وبَمْبي ، وآسام ، وبرمانية) ، لا إلى ثلاث رياسات كما قيل على العموم، وترى على رأس أهمّ هذه الولايات موظفين مستقلين لا يتلقَّوْن من نائب الملك أوامر في غير أمور الجيش والمالية ، حتى إن حاكمَيْ بَمْبي ومدراس يتصلان بالتاج رأساً ، أي من غير طريق نائب الملك ، فتجدُ لكلٍّ واحد منهما مجلساً اشتراعياً ومديرين .

وتُقَسَّم كلُّ ولاية إلى مديريات يدير شؤونها موظف تنفيذيٌّ يدعى بـ « الحاكم الجابي » أو « النائب المُفَوَّض » ، وتكون السلطات الإدارية والقضائية في يد واحدة أو منفصلاً بعضها عن بعض بحسب حضارة كلٍّ منطقة ، واليوم يكاد بعض هذه السلطات يكون مفصولاً عن بعض في كلِّ مكان .

ويبلغ أهل كلِّ مديرية ، وهي ما تَعْدِل المديرية الفرنسية ، مليوناً في الغالب ، ولا يزيد عدد موظفي الإنكليز المدنيين في الهند بأسْرها على ألف ، ويرتبط هؤلاء في إدارة « الخدمة المدنية » ، فبهؤلاء يحكم الانكليز مئتي مليون من بني الإنسان .

ويُعتنى باختيار هؤلاء الموظفين ، فيتألف من مجموعهم طبقة راقية لا تملك أمة مثلَها ، وقد اتصلتُ بغير واحد من هؤلاء فقضيت العجب من أخلاقهم وقوة تمييزهم فضلاً عن ذكائهم وقوة معارفهم ، فهم يديرون شؤون الهند بحِكْمَة وإخلاص .

وتُجْزِل الحكومة الإنكليزية رواتب موظفيها فى الهند مع تدقيق فى أمر تعيينهم ، وقد كان هذا التعيين يَتِمُّ بالخِيار فيقوم الابن مقام أبيه فى إدارة الهند كما كان يُرَى ، وأما اليوم فيَتِمُّ التعيين للوظائف بالمسابقات فيُجْتَنَب ، بذلك ، بعض المساوئ ، غير أن الخُلُق والنشاط الضروريين فى مزاولة تلك الوظائف ليسا مما يُقَدَّر بالامتحانات كما أصاب السر ريشاد تميل فى قوله .

وليس قبول المرشحين فى تلك الوظائف بالأمر السهل ، فبعد أن يُمتَحن المرشح فيما يُثبت به تعليمه ومعرفته التامة للهندوستانية (لأن الإدارة الإنكليزية لاترْضى بأن يُحْكَم قوم من غير أن تُعْرَف لغتهم) لا بدَّ من مجاوزته بعض المراحل التى تنكشف بها أهلياته ، فيدخل إذ ذاك دائرة « الخدمة المدنية » براتب يترجح بين ٩٠٠٠ فرنك و١٧٠٠٠ فرنك على حسب الفرع الذى رُئى استعداده له ، فإذا مرَّت عليه أربع سنوات تَرَجَّحَ راتبه بين ٢٢٠٠٠ فرنك و ٣٠٠٠٠ فرنك ، وإذا مرَّت عليه ثمانى سنوات ، أى حينما يكون حوالَى الثلاثين سنة من عمره ، كان له أن يأمُل نَيْل ٥٠٠٠٠ فرنك راتباً ، فيسير من هذه الدرجة إلى أن ينال ١٠٠٠٠٠ فرنك ، أو أكثر ، راتباً ، وهذا مع نَيْله تعويضاً إذا ما تعلم لغة جديدة ، ولا سيما العربية أو الفارسية أو السَّنسكرتية فى غضون ذلك .

وبعد أن يَمْضى على الموظف البريطانى المرتبط فى إدارة « الخِدْمة المدنية » ٢٢ سنةً ، أى إذا ما كان فى الأربعين من عمره ، حُقَّ له أن يعود إلى إنكلترة براتب

تقاعد سنوىّ يترجح بين ١٥٠٠٠ فرنك و ٢٥٠٠٠ فرنك[1] .

وتجد تحت موظفى الإنكليز أولئك مئاتِ الألوف من موظفى الهندوس الثانويين الذين يَنْدُر أن يزيد الراتب الشهرى لكلٍّ واحد منهم على خمسين فرنكا ، أى على هذا المبلغ الكثير على الهندوسىّ ، فبهؤلاء وحدَهم يتصل الجمهور الهندوسىّ ، فهؤلاء إذ كانوا مطلعين على احتياجات ذلك الجمهور وأفكاره ونُظُمه المختلفة باختلاف الولايات بَدَوْا قادرين على القيام بما فُوِّض إليهم ، فتُدار كل ولاية وكل مديرية بحسب عاداتها القديمة .



١٨١ ــ سارية سرير مدهون باللك (سندها)

ترى ، من ذلك ، درجة كمال تلك الإدارة وبساطتها ، وبينما تشاهد الأمم الأخرى تُرْسِل إلى مستعمراتها الواقعة فيما وراء البحار جحافل من الموظفين المتفاوتى الدرجات الجاهلين للغة وطنهم الموقت ومبادئه وطبائعه وعاداته فلا يصدر عنهم غيرُ مَسٍّ مشاعرِ من يحيطون بهم تَسْتَخْدم الحكومة الإنكليزية فى إدارة مستعمراتها موظفين أهليين وقضاةً محليين تحترم بهم شرائع هذه المستعمرات وعاداتها ، وما يناله أكابر الموظفين من رواتب ضخمة مما يَحُول دون ارتشائهم فيَبْذِلون ذكاءهم

(١) رواتب الضباط أقل من رواتب موظفى « الخدمة المدنية » ، فالترقى فى الجيش إذ كان يتم بسرعة فإن الجيش يكون لديه من يحتاج إليهم من المرشحين بدرجة الكفاية ، ورواتب موظفى الجيش أعلى مما فى أوربة مع ذلك ، فراتب العريف فى الجيش ١٥٠٠ فرنك، وراتب الملازم ٦٠٠٠ فرنك ، وراتب قائد المئة ٢٠٠٠٠ فرنك ، وراتب القائد ٣٠٠٠٠ فرنك ، ويكون راتب أمير اللواء مترجحاً ، فقد يزيد عن ١٠٠٠٠٠ فرنك إذا كان أمير اللواء مندوباً أو مقيما ، ومن ذلك حال أمير اللواء الذى هو مندوب فى راجبوتانا فى الوقت الحاضر .

فى سبيل الأعمال التى وُكِلَتْ إليهم ، ومن هؤلاء الموظفين المرتبطين فى « الإدارة المدنية » من أقاموا بالولاية الواحدة عشرين سنة فعرَفوها معرفة تامة .



١٨٢ — حلية من ذهب (بمبى)

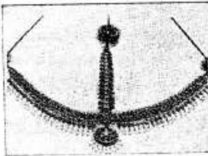
ويمكننا انتقاد نظام يترك الأمم المقهورة حرة فى نُظُمها وعاداتها إذا ما نظرنا إلى الأمر من حيث المبدأ القائل إن شأن الأمم العليا هو فى فَرْض ما نسميه نِعَم الحضارة على الأمم الدنيا ، وترانى ، مع ذلك ، غيرَ معتقد صواب هذا المبدأ النظرىّ غيرِ الصالح لبقاء المستعمرة قبضةَ الأمة التى أقامتها ، أجَل ، إننا نظن أننا نصنع خيراً إذا منحنا ما بَقِىَ لنا من المستعمرات فى الهند نُظُمَنا الجمهورية كالمساواة والانتخاب العام الخ ، بَيْدَ أنه يجب على من يُعْجَبون بهذا النظام الاستعمارى ألاّ يأسفوا على أننا أضعنا الهند فى عهد لويس الخامس عشر ، وذلك لأن تطبيق مبادئنا العظيمة على الهند كان يؤدى إلى خُسْرِنا لها بسرعة لا مَحالة ، فضلاً عن وقوعها فى فوضى دامية كبيرة .

ولا شىء أقضى لعَجب السائح الذى يَصِل إلى پونديچيرى بعد أن يزور الهند من المقابلة بين قلة احترام الهندوس للأوربيين فى هــذه المستعمرة الفرنسية واحترامهم العميق للأوربيين فى الهند الخاضعة لسلطان إنكلترة ، فنحن نرى من المعروف الطيب أن نُنْعِم بنُظُمنا الراقية الحديثة على المشابهين لأبنـاء القرون الوسطى ، والهندوس يَرَوْن أننا لم نصنع ذلك إلا لأننا نخشاهم ، فنَفْقِد ، بذلك ، نفوذنا لديهم ، فلنحتفظ

بمبادئنا فى المساواة إذا لم نستطع العيش بدونهـا ، ولـكن لنَكُفَّ عن تأسيس المستعمرات ما تمسكنا بتلك المبادئ .

ونَتَمَثَّل النتائج التى أسفرت عنهـا الإدارة الانكليزية الجديدة فتوقفت عليها مقادير الهند منذ ثلاثين سنة مستعينين بالإحصاءات الرسمية ، فبفضل تلك الإدارة سُتِرت الهند بالخطوط الحديدية والقَنَوات وأسلاك البرق والأشغال العامة فأضحت أنجح مستعمرة ملـكتها أمة ، ومن النظر فى بعض الأرقام نَتَمَثَّل حال هـذه الإمبراطورية العظيمة بسهولة .

يخضع للإنكليز مئتا مليون من الأهالى ، فإذا أضفت إلى هذا العدد سكان ممالك الهند الأهلية البالغ عددهم ستين مليوناً كان المجموع ٢٦٠ مليوناً ، ولا تكاد تَجِد نصف مليون من هؤلاء نتيجةً لتوالد الهندوس والأوربيين ، ويرجع هذا التوالد ، على الأكثر ، إلى زمن كان الإنكليز والهندوس فيـه على اتفاق أكثر مما هم عليه الآن .



١٨٣ — حلى (ترى چنابل)

والجيش الإنكليزى فى الهند مؤلف من ٦٥٠٠٠ جندى فقط ، وتَجِد بجانبه جيشاً من الهندوس مؤلفاً من ١٢٧٠٠٠ جندىّ ، ويقود هـذا الجيش ضباط من الإنكليز .

ويبلغ دخل بيت المال فى الهند ملياراً و ٧٠٠ مليون ، ويُجْبَى ٥٦٥ مليوناً من

هذا المبلغ من الخَرَاج و ١٣٠ مليوناً من الأفيون و ١٥٥ مليوناً من الملح .

وتترجح نفقات الجيش ، بحسب السنين ، بين ٤٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون ، وتَبْلغ نفقات الإدارة المدنية ٢٧٥ مليوناً ، وتبلغ نفقات الأشغال العامة ٣٧٥ مليوناً ، وتَبْلغ الديون العامة أربعة مليارات ، ومن هذه المليارات الأربعة مليار واحد أُنْفِق لقمع ثورة السپاهى ، ومنها ٥٤٠ مليوناً أُنْفِقَ فى محاربة الأفغان الأخيرة .

وتتألف الأشغال العامة الكبرى من الخطوط الحديدية والقَنَوات على الخصوص، وفى الهند أكثر من ٢٠٠٠٠ كيلو متر من الخطوط الحديدية ، ونحوُ هذا المقدار من القَنَوات .

وتُقَدَّر موازنة الهند التجارية فى الوقت الحاضر بثلاثة مليارات ، فتبلغ الصادرات ١٧٠٠ مليون ، وتبلغ الواردات ١٣٠٠ مليون ، وأخذت صادرات الهند تزيد على وارداتها منذ سنين ، فانتهت هذه الزيادة إلى ٤٠٠ مليون فى الوقت الحاضر ، ومعظمُ هذه الزيادة هو مايجب على الهند أن تدفعه من النقود إلى إنكلترة فى مقابل إدارتها ، ويمكن عَدّ هذا المبلغ ضرباً من الجزْية الخطِرة على كيان الهند الاقتصاديّ .

والقطن والأفيون (٢٧٥ مليوناً) والأرز والبُرّ أهمُّ صادرات الهند ، والنسائج القطنية أهم ما تستورده الهند .

والهندُ تستورد النسائجَ القطنية (٦٥٠ مليوناً) من إنكلترة ما دامت مصانع الهند الابتدائية لا تَقْدِر على مزاحمة المصانع الإنكليزية ، وأخذت مصانع الهند تَصْنَع ، مع ذلك ، مقادير كبيرة من النسُج القطنية فتبيعه من الصين وشواطئ إفريقية الشرقية وجزيرة العرب .

والصين و إنكلترة أهمُّ البلدان استيراداً من الهند ، ومرفأ هونغ كونغ أهمُّ مكان لهذا الاستيراد .



١٨٤ — سوار من فضة (البنغال)

وتُنْقَل صادرات الهند بحراً في ١٢٠٠٠ سفينة أو ١٣٠٠٠ سفينة تَقْصِد موانئ الهند ، ويَرفع ٨٣ في المئة من هذه السفن المترددةِ إلى مرافئ الهند أعلاماً إنكليزية .

و إذا كان رَخاء الأمة بحسب سرعة مواليدها ، وهذا ما أجادل فيه ، كانت الهند أرغد عيشاً من أيِّ بلد في العالم لما اتفق لها ما لم يتفق لغيرها من زيادة المواليد ، فالهند التي قُدِّر سكانها بمئة مليون في سنة ١٨٠٠ صارت تشتمل على مئتي مليون من الأهالي في سنة ١٨٧١ ، ومما حدث أن بلغت الزيادة في عشر سنين ، أي بين السنتين ١٨٧١ و١٨٨١ ، اثني عشر مليوناً مع ما انتاب الهند من المجاعات والأوبئة التي تُهْلِك ملايين الناس فيها بأوقات معينة ، وفي هذه الزيادة ما يُسَرُّ منه بعض الاقتصاديين لو لم يَزْعُم اقتصاديون آخرون أن الأمم الفقيرة وحدها هي التي تتكاثر كالأرانب إذا عَدَوْتَ البلدانَ التي تحتوي على أرض واسعة غير عامرة كأمريكة .

و يقطن أولئك الأهالي ، البائسون القانعون على العموم بما قُسِم لهم ، في الأرياف على الخصوص ، وليس في كلِّ قرية من نصف قُرَى الهند أكثرُ من مئتي نفس ، ومن النادر أن ترى تجمعات كبيرة في الهند ، فلا تجد فيها أكثر من خمسين مدينة تحتوي الواحدة منها ما يزيد على خمسين ألف نفس .

و إذا عَدَوْت مئتى المليون الذين يحكمهم الإنكليز رأساً رأيتَ فى الهند ستين مليوناً من الأهالى يقيمون بممالك يرئسها ملوك مستقلون يراقبهم الإنكليز فى صلاتهم السياسية ، وأراضى هذه الممالك أهمُّ من سكانها لبلوغها خُمْسَى أراضى الهند ، ويُقدَّر دَخْل هذه الممالك بأربعمئة مليون ، وتشتمل جيوشها على ٣٥٠٠٠٠ جندى و ٤٠٠٠ مِدْفَع ، وتتفاوت هذه الممالك اتساعاً ، فبينا ترى منها ممالك كمملكة نظام التى تَعْدِل إيطالية مساحةً مع تسعة ملايين من السكان وثلاثين مليوناً من الدخل ، تجِد منها ممالكَ كمملكة كاتهياوار المؤلفة من قرية واحدة يَمْلِكها أحد الراجوات ، وترى فى بعض الولايات ، كبرار ، أناساً يلقبون براجه تلقيباً شَرَفِيًّا كما يُلَقَّب بعض الناس فى أوربة بدوك أو بارون .

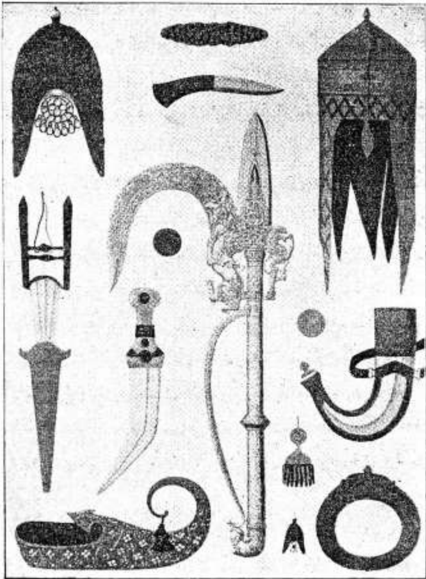
يتمتَّع ملوك تلك الممالك بسلطة مطلقة فى تدبير شؤون رعاياهم ، ولم تتقيد سلطة أولئك الملوك إلَّا بمعاهدتهم لإنكلترة على ألا يَشْهَرَ بعضهم حرباً على بعض وألا يتبادلوا السفراء وألا يَقْبَلوا أوربياً فى بلادهم من غير أن تأذن الحكومة البريطانية فى ذلك ، ويقيم بعاصمة كلِّ مملكة مهمة من تلك الممالك سفير إنكليزىٌ لا تَعْدو وظائفه دائرة الشؤون الدبلوماسية ولا يتدخَّل فى الأمور الإدارية إلا فى أحوال شاذة ، وبعضُ تلك الممالك يُعْطى إنكلترة جزية وبعضها لا يُعْطى شيئاً ، وإذا عَدَوْت بضع ممالك منها وَجَدْتها حديثة وتقوم بأمورها أُسر مالكة بدأ سلطانها بعد سقوط دولة المغول .

٢ – التربية الإنكليزية فى الهند

إن من أكثر المواضيع ، التى توحى بها الهند الحاضرة إلى الباحث ، طرافةً وأقلها وَقفاً للنظر حتى الآن هو ما يُؤدِّى إليه تطبيق تربية ملائمة لشعب راقٍ على شعب متأخر كالهندوس ، وليس فى التاريخ ، على ما أعتقد ، تجربةٌ تمّت على مقياس واسع فى ذلك كالتى تتمّ فى أيامنا ، ومما يفيد الأمم الراغبة فى إنشاء مستعمرات وفى المحافظة على ما فى يدها ، على الخصوص ، أن تطّلع على نتائج هذه التجربة .

تُمَدّ الهند الحاضرة عنوان ما كانت عليه الحال فى القرون الوسطى ، فتطبيقُ أصول التربية الحديثة عليها هو كتطبيق هذه الأصول على أمم القرون الوسطى أن لو كانت موجودة فى الوقت الحاضر ، أى كوصل ما بين هذين العالمين اللذين تفصل بينهما هُوّى عميقةٌ لما بينهما من اختلاف فى المشاعر والأفكار والاحتياجات والمعتقدات ، والحقُّ أن هنالك وجهَ شَبَه بين علم الاجتماع والتاريخ الطبيعىّ فى أن الروح ، كالجسم ، لا تستطيع أن ترتقى من طور ابتدائىّ إلى طور راقٍ من غير أن تجاوز ما بين هذين الطورين من الأطوار الوسطى ، والحقُّ أن شأن التربية كشأن النُّظُم ، فما لاءم منها احتياجات أمة لا يلائم احتياجات أمة أخرى .

أثّر صُراخ مبشرى البروتستان ومحبى الإنسانية فى الإنكليز المحتاجين إلى موظفين من الدرجة الثانية فما دونها لإدارة الشؤون العامة فى الهند ، فعَقَد الإنكليز النية على فتح مدارسَ لإعداد مثل هؤلاء الموظفين ، ومن الطبيعى أن كان التعليم الذى يناله هؤلاء ملائماً لما فى برامج المدارس الابتدائية بأوربة وأن كان الإنكليز يقومون به .



١٨٥ ـ أسلحة وأدوات هندوسية مختلفة ، حلى ، خوذة مغولية ، كلاب حديدى مكفت ، يستعمل لسوق الفيلة ، حذاء مزين باللآلىء لأمير مسلم هندى

والهندوس هم الذين يتلقَّوْن ذلك التعليم بمقدار كبير منذ ثلاثين سنة ، فأسفر ذلك عن ظهور طبقة خاصة شاملة لمئات الألوف من المُثقَّفين فى الوقت الحاضر .

والمُثقَّف الهندوسىّ الذى هو من تلك الطبقة طابع عقلىّ خلقىّ خاصّ ، ويمكن درس أمره كعرق ذى وصف معين ، ولا شىء كهذا الدرس يثبت خطر التربية الحديثة عندما يُنْعَم بها على أدْمغة غير مستعدة لتلقيها ، وهذه التربية هى التى تُعَدّ فى الوقت الحاضر تِرْياقاً عاماً .

ولا نرى ما هو أفضل من وصف المُثقَّف الهندوسى بالذى فَقَد اتزانه عقلاً وخُلقاً، فما حُشِر فى دماغه من الكلمات يُثِير عنده من الأفكار الغربية ما يَعجز عن إدراكه ، وإذا ما نُظر إلى التعريف الذى لا قيمة له لدى العاجز عن إدراك ما يثيره من الأفكار أو ما يماثلها عُدّ ذلك المثقَّف المسكين بالنسبة إلى العالَم الجديد الذى نقلته تربيته المصنوعة إليه كالأعمى الذى يُحْمل على معرفة الألوان بوصفها له بألفاظ ، ولا شىء يَعْدِل عدمَ ارتباط أفكاره غيرُ هَوَسه المستعصى فى الكلام بلا هدوء وبلا تعقل ، فإذا وُجِد فى إحدى المحطات ولَقِىَ أوربياً سأله بوقار ، ومن غير أن ينتظر جواباً ، عن ترجيحه شكسبير على يونس التيرانى وعن اصطياد مليكة إنكلترة للنمر وعن الروبيات التى يكسبها العالِم الأوربى فى كل سنة وعن المِهْنة التى يرغب فى تدريب أولاده عليها .

ولا أمرَ يثير الدَّهَش أكثرُ من عدم ارتباط أفكار المثقف الهندوسى ، فليس وِشنو وشيوا وجوبيتر والتوراة وولىُّ عهد إنكلترة وأبطال الإغريق والرومان والجمهورياتُ القديمة والممالك الحديثة إلا أشياء ترقص فى رأسه رقصَ السارابند فى سَواء الجحيم ، وهو يعتقد أن مليكةَ إنكلترة ووزيرها الأول وولىّ عهدها ثالوثٌ

مشابه لثالوث برهما ووشنو وشيوا ، وهو يُفَسّر ما علمه من المبادىء الحديثة على حسب مبادىء عرقه الموروثة التى لا ينتهى إلا إليها ، والتى لا يستخفّ إلا بها ، مع ذلك ، وَفْقَ الهُوِىّ التى أغرقته فيها تربيته الإنكليزية ، قال العالم الإنكليزى المعتدل الأستاذ مونيه وليامز :

« لم يَرُقْنى ما أسفرت عنه تربيتنا التى نُطَبِّقها على الهندوس من النتائج ، فقد وجدتُ بين هؤلاء متعلمين قليلين جداً ، ووجدت بينهم كثيرين من شباه المتعلمين، ووجدت معظمهم ناقصى التعليم فاقدى الاتّزان ، أجَلْ ، قد يَقْدِر مثقفو الهندوس على القراءة الكثيرة ، ولكنه لا حاصلَ لِما يُفكّرون فيه .

« هم ثَرْثارون ، ويُخَيَّل إلى الناظر أنهم يَقْذِفون من أفواههم كلاماً لم يَهْضِموا معانيه ، ويدلّ كلامهم وحركاتهم على أنهم من القاصرين ، ويُهْمِلون لغتهم ويزدرون آدابهم وفلسفتهم ودينهم من غير أن يكتسبوا شيئاً من صفات الأوربيين ، ويُصَوّبون إلينا ما يقتبسونه منا غير شاكرين ، وهكذا ينتقمون منا لِما أصابهم من الانحطاط بسبب تربيتنا » .

وليس ما أصابت به التربية الأوربية الهندوسىّ المثقف من انحطاط الُخلق بأقل مما أصابته به من انحطاط الذكاء ، وإننى قبل أن أبحث فى هذه الناحية أذكر ما قاله عن أحوال الهندوسىّ المثقف السيدُ ملبارى الذى ظهر فوق مستوى بنى قومه الهندوس فكان كتابه الصغير النفيس عن كجرات نافعاً لى فى غير موضع ، فإليك قول السيد ملبارى عن نفسه وعن صديقه الذى اشترك معه فى إصدار جريدة ، وإصدارُ الجرائد مما يَصْبو إليه مُثَقّفو الهندوس ، وفيها تتمتع به الصّحافة من الحرية ما يشبع هوسَهم :

«لم يَقِف جهلنا وصَلَفنا عند حدّ ولكن ، ألم يكن من المفاخر أن يُنتقَد أكرم رجال الإمبراطورية وأن يُسْخَر منهم ؟ كتب صديق (ب) كلة عن معركة بلاونة ذات يوم فسألنى عن الباب العالى ، فأجبته بأن الباب العالى هو زوجة سلطان الترك المُفَضَّلة ، فأنبأنى صديق (ب) بأنه كان يَظُنّ أن الباب العالى هو خديو مصر عند الأوربيين ، فمِثْلُ هذا كان يَتَّفِق لنا فى الغالب فتُحَمَّل جريدتنا أوزاراً مضاعفة ، فلما عَلِمْنا فى الغد وجهَ الخطأ لَعَن كلٌّ منا صاحبَه» .

يُضاف إلى ذلك الارتباكَ الفكرىَّ الماثل لدى الهندىّ المثقف تجريدُ التربية الأوربية إياه من أىّ خُلُق ، فما كان يستند إليه فى سَيْره من الأُسُس الدينية المتينة قد زال إلى غير رجعة ، فهو قد خَسِر إيمان آبائه من غير أن يستبدل به مبادىء سَيْر الأوربىّ ، فانحصر صدقه فى مراعاة قواعد الأخلاق العامة التى يَحْمِله الشُرْطِىّ عليها .

واضطرُّ الإنكليز إلى اتخاذ أدقّ ضروب الحذَر ومالا حدّ له من الرَّقابة ليحولوا دون اختلاس مُتَقَفِّى الهندوس ، ولا شىء أدعى للخوف من دوائر البريد والنقل فى الهند ، فلا نصيبَ لكتاب يُظَنّ أنه مشتمل على أوراق ذات قيمة لِثِقَل وزنه بأن يَصِل إلى المرسل إليه ما لم تكن قيمته مضمونة ، وقد عانيت الشىء الكثير حين سياحتى فى بلاد الهند من أجل صناديق المحتوية على أدواتى العلمية ، فقد كان مُتَقَفُّو الهندوس الموظفون فى الخطوط الحديدية يظنونها مملوءةً بالروبيات لثقلها فيكسرون أقفالها ، فاضطُرِرْت إلى حفظ أدواتى تلك فى ظروف معدنية مُحْكَمة اللَّحْم ووضعِ هذه الظروف ، المكتوب عليها أنها شاملة لمتفجرات ، فى صناديق خشبية ، فأدى ذلك إلى زُهْد أولئك الموظفين عنها حَذَرَ الخطر .

وذلك الموظف الهنـدوسيّ المثقف النَّذْل أمام سادته الإنـكليز ذو عُتُوّ تجاه بنى قومه من أصحاب المصالح ، وأولئك الموظفون هم المديرون الحقيقيون للهند ماداموا عُمّالاً فى الإدارة الإنـكليزية ، وما كانوا ليَرْضَوْا بذلك ، فتراهم يَحْلُمون بحكم الهند فى سبيل مآربهم الشخصية .

ذلك هو هدفهم الدائم ، وإذا خَـلَا ثلاثة أو أربعة بعضهم إلى بعض لم يبحثوا فى غيره ، ثم يحتدم الجـدَل بينهم فلا ينتاوبون القول بل يتكلمون معاً ، وهم إذا ما سكتوا فلأنهم يَشْعُرون بخُطَا أوربىّ ، وهذا الأوربىّ إذا ما دَنا تفرقوا هنا وهنالك مُتَنَهِّدين ، وما أشدّ اشمئزازى حين مقابلتى بين نذالة الموظف الهندوسىّ المثقف تجاه الأوربى وتَصْعِير[1] خَـدّه لأبناء أمته ، فالجهلُ أحبُّ إلىّ من تلك الدناءة والوقاحة .

والإنـكليز يَعْرِفون أولئك المثقفين جيداً ، فيعاملونهم بجَفاء وغِلْظَة لا يُقِرُّهم السائح الأجنبىّ عليهما أولَ وَهْلَة ، واللغة التى يكلمهم الإنكليز بها هى لغة السِّياط التى يلجأون إليها حين لا ينفع الوعيد والتهديد ، والسائح إذا ما أقام بالهند بضعة أيام لم يلبَث أن يعترف بأن تلك وسيلة لابدّ منها لحمل أولئك المنحطين على التزام جانب الحِشْمَة والابتعاد عن ضروب الوقاحة ، ومن النادر أن يسمح إنـكليزىٌّ لهندوسىّ من ذلك الطِّراز بأن يَرْكَب معه فى حُجَيْرَة واحدة من حُجَيْرات مركبات القِطار مع أن هذا من أقصى آمال الهندوسىّ ، وقد اعترانى الدَّهَش من هذه الشدة فى البَداءة ، فما حدث أن رَكِب هندوسىٌّ من أولئك فى المركبة التى كنت فيها فأَنِس إلى قبولى

(١) صعر خده : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبراً .

إياه بلطف فَمَنَّ له أن يَدُلَّني على مركزه الاجتماعي فأسند رجليه إلى ظَهْرِ الصُّفَّة بما يحاذي مستوى رأسه ثم أشعل سيغاراً كبيراً و بَصَق على سقف المركبة وزجاجها ، ولم يكن ليَقْطَع ما يفعل إلا ليسأَلني بأسخف الأسئلة عن مقامي الاجتماعيّ ووسائل عيشي ونفقاتي وما إلى ذلك من الأمور التي جعلت البقاء في حُجَيْرتي أمراً لا يُطاق، فلما بلغنا أقرب محطة رَكِب إنكليزيّ في حُجَيْرتي تلك فصمت ذلك الهندوسيّ وتَكَمَّش عالماً ما ينتظره ، فأمسكه الإنكليزيّ من أذنه وطرده من مركبتنا قائلاً له : اخْرُجْ !

وليس من الصعب إخضاع تلك الزمرة من مثقفي الهندوس المتوتري الأعصاب الجُبَناء كالهِرَر ، والذين عَدَل الإنكليز عن استخدامهم كَوَقَّادين أو ميكانيكيين أو سائقين لِما رَأَوْه من وثوبهم من القاطرات عند الخطر وفِرارهم في الحقول طلباً للنجاة ، والخطر إذا ما بدا في خطّ حديديّ وُجِد موظفو المحطات المجاورة بعد زمن، لا ريب ، متسلقين للأشجار أو مختبئين في المغاور أو متكدسين في الغُرَف متحسرين قانطين .

ذلك هو أثر التربية الأوربية في شعب غير ناضج ، ويمكن تقدير ذلك بأحسن مما تقدم عند المقايسة بين أولئك المثقفين ومن تَخَرَّج في المدارس المحلية الخالصة ، فهؤلاء يظهرون مُتَّزِنين مُهَذَّبين محترَمين جديرين بأن يَتَبَوَّأوا مقاعدَ في أرقى مجالس أوربة العلية على خلاف أولئك المثقفين الوُقَّح الأنذال .

وترى الإدارة الإنكليزية مضطرة إلى استخدام أولئك المثقفين مع احتقارها لهم لِما يتعذر عليها من أن تَجِد أوربياً يرضى براتب مثل رواتبهم ، والإدارة

الإنكليزية إذا ما احتملتهم فلأنهم شرٌّ لابُدَّ منه ، وهذا مع علمها التام درجةَ عداوتهم الكبيرة لها .

ولا أجد مايَشْمَل النظر أكثرَ من تحويل التربية الأوربية الهندوسَ الموصوفين بالدَّعة فيما مضى إلى أعداء أشداء للبريطان ، ويمكن تَمَثُّل ما وَصَل إليه حقدهم على البريطان من الحملات التى تُوَجِّهها الجرائد المحلية إليهم كلَّ يوم ، وإذ إن رأيَ الأجنبى فى هذه المسألة يكون مَوْطِن شبهة بحكم الطبيعة ، وإذ إن الشواهد التى يمكننى الاستناد إليها تأييداً لدعواى هذه لا تكون مقبولة إلا بكثرتها فإننى استشهد ، مُرَجِّحاً ، بالأستاذ مونيه وليامز الذى يَعُدُّ أبناء وطنه الإنكليز أحكامَه صائبة جداً فى أمر الهند ، فاسمع ما قاله فى الطبعة الثالثة من كتابه : « الهند الحديثة » :

« يؤسفنى أن أقول إن رِحلاتى فى الهند أثبتت لى وجودَ هُوَّة بين الإنكليز والهندوس تُضْبِح مجاوزتها بعد ثورة السپاهى متعذرة شيئاً فشيئاً ، وأعمقُ من تلك الهُوَّةُ الموجودةُ بين الشعبين فى جنوب الهند » .

وقد لاحظ ذلك الأستاذ أن الهندوس المثقفين يُوَجِّهون إلى الأوربيين تعبيراً مشابهاً لتعبير البرابرة ، وأن هذا التعبير لا يكفى للإعراب عن حقدهم الهائل على سادة الهند فقال :

« رأيت أن استخفاف أولئك بحضارتنا وبنا كاستخفاف أجدادهم بالوحوش الفطريين ، مع ما لدينا من أسلاك البرق والخطوط الحديدية ، فهم يعتقدون تفوقهم علينا خلقاً وديناً وعقلاً » .

واليومَ أخذ ذوو البصائر من الإنكليز يدركون مخاطر التربية الأوربية ، فإليك

ماقاله أحد حكام الهند سِير الفرد ليل فى كتابه : «مباحثُ فى طبائع الشرق الأقصى الدينية والاجتماعية » :

« ظاهرةُ الوضع الحاضر فى الهنـد هو أننا نَنْشُر نظريات الحقوق السياسـية و بذورَ النُّظُم التمثيليـة بين شعب كان يملِـكه سـادة غيرُ مسؤولين فى غضون القرون ، والهندُ ، كما تعلم ، بلدٌ لم يكن له عهد بالحريات المحلية و بعادات الاستقلال منـذ زمن طويل أو بلد لم يعرفها قط ، وفى الهند ، حيث لم يتقدم العـلم فى وقت إلى أبعدَ مما كان عليـه فى أوربة فى القرون الوسطى ، نُطَبِّق أصول التربيـة الحديثـة .

« ومن البديهىّ أن يُؤمن بالتربية فلاسفةُ السياسة ، كعلماء الاقتصاد فى فرنسة وميل وستيوارت ميل فى إنكلترة ، وأن يقولوا إنهـا تقوم بدور المُسَكِّن المُلَطِّف عند الفَوَران الاجتماعى والانقلاب الثورىّ ، أو إنها تمنع الشعب من التطاول إلى الوظائف السياسية التى لم يتعود ممارستها ، ونحن نقول إن التربية العامة إذا وُضِعَت فى غير محلها كانت سبب اضطراب فى بعض الطبقات وعاملَ انحلالٍ فى النظام الاجتماعى القديم ، وذلك كما يُرَى فى الهند التى تقوم الحكومة فيهـا بنشر التعليم العامّ مستعينةً بمعلمين من الأجانب الذين يُوَجِّهون هَمَّهم إلى بذر أحدثِ النظريات العلمية والسياسية بين شعب لم تُؤهِّله عاداته وثقافته السابقة لتَلَقِّى هذه النظريات و إلى إدخال تربية عصرية خالصة إلى شعب قام كلُّ تعليم فيه على الدين منذ أقدم الأزمنة » .

اتَّسع نطاق مثقفى الهندوس أولئك ، على الخصوص ، فى زمن نائب الملك الذى حَـكَم الهند قبل حاكمها العام الحاضر ، فنائب الملك ذلك إذ كان مسيحياً مؤمناً قائلاً إن الناس يُولَدون إخوةً متساوين حقوقاً وذكاء و إن من الممكن تحويلَ مثقفى

الهندوس إلى أوربيين بين عَشِيَّة وضُحاها نال أولئك المثقفون حُظْوَةً لديه ، فما كان أسوأ عَدُوّ يجلس على عرش الهند ليُسِيء إلى إنكلترة بهذا المقدار ، فأولئك المثقفون الذين أصبح لهم بعض الحقوق النظرية بذلك أخذوا يملأون الصحف المحلية بأعنف الحَمَلات وأشدّ الشَّكايات ، فالحقّ أن روسية لو بلغت حدود الهند وفازت بشيء لوَجَدت المثقف الهندوسيّ حاضراً لرفع راية العصيان في سبيلها ، والحقّ أن ذلك المثقف المُسْتَحِرّ ضدّ السلطة الإنكليزية هو كالأَرَضَة الخَفِيَّة التي تَقْرِض أسفلَ التمثال الهائل .

أسهبتُ قليلاً في بيان نتائج التربية الإنكليزية في الهند ، وعلةُ ذلك أنك لا تجد في التاريخ مثالاً أوضحَ من مثال الهند في إثبات الخطر الذي يَنْجُم عن مَنْح أمة تربيةً غيرَ ملائمة لمزاجها النفسي ، فقد أدّى تطبيق التربية الأوربية على الهندوسيّ إلى تقويض ثقافته السابقة التي تَمَّت له مع الزمن وإلى إحداث ما لم يَمْزِنه من الاحتياجات من غير أن تَمُنّ عليه بوسائل قضائه ، وإلى جعله بائساً عدواً لمن طبّقوها عليه ، حَقّاً أن الهندوسيّ المثقف يَأْلَم بمرارة من سوء حاله ، وحَقّاً أن له في الحوادث القادمة ما يَقْدِر به على الانتقام فعلاً لا قولاً ، فيَتِمّ على يده زوال السلطة التي رَبَّتْه .

٣ — مستقبلُ الهند

ليست مسألة مستقبل الهند هي مسألة مستقبل السلطة الإنكليزية فيها فقط ، بل نُبْصِر لهذه المسألة ، أيضاً ، أفقاً أبعد مدى من ذلك ، فعلى الأمر تتوقف نتائج الصِّرَاع بين الشرق والغرب اللذيْن يَفْصِل أحدَهما عن الآخر هُوَّةٌ عميقة ، وإني

قبل أن أتكلم فى هـذه المسألة فى مجموعها أقول بضع كلمات حَوْل مستقبل سلطان الإنكليز الممكن فى الهند .

يرى القارىء المطلع على أحوال الهند الحاضرة ، كما بيَّناها فى هـذا الـكتاب ، أن أمل الهندوسىّ فى حكم نفسه بنفسه ضعيف جداً وأنه قُدِّر عليه أن يكون قَبْضَة الفاتحين من الأجانب .

يَعْجِز الهندوس عن تأليف أمة واحـدة عَجْزَ الأوربيين عن ذلك ، وتنتسب شعوب الهند إلى عروق مختلفة ذاتِ مصالحَ متباينة فلا يستطيع الهندوس أن يكونوا إلْبًا[1] واحداً على الأجنبى المسيطر ، ولنفترض إمكان اتحاد شعوب الهند فى الوقت المناسب لطرد عدوّها المشترَكِ ، فإذا تَمَّ لها ذلك لم تلبث أن تتقاتل بعـد انتصارها مثل ما وقع عند انهيار دولة المغول حين عَمَّت الفوضى بلاد الهند ، فيهتبل غزاةٌ من الأجانب فُرْصة ذلك ، فيفتحون الهند بتسليط بعض أهاليهـا على بعض كما فعل فاتحوها فى كلّ زمن مضى ، ولذلك أرى أن كلّ ما يمكن الهندَ أن تطمع فيـه هو أن تستبدل بسادتها سادةً آخرين ، فلعلها تصبح أحسن حالًا ، وهـذا ما أشُكُّ فيه .

وشَبَح سلطان الروس هو الذى يبدو فى الوقت الحاضر على الأقل ، فلم تَتَوان روسية فى التقدم إلى الهند ، وقد لا يمضى زمن قصير حتى تكونَ على أبوابها ، فيعود إلى مَمَرّ كابُـل ، الذى عَبَره الفاتحون فى كلّ حين ، سابقُ شأنه .

يَحِيق الخطر بسادة الهند الحاليين ، ولن يستطيعوا تداركه إلا بصالح الإدارة ،

---

(١) الإلب : القوم تجمعهم عداوة واحد فيقال : « هم على إلب واحد »

ومن حسن السياسة أن يستميلوا آلهة الهند بأن يدافعوا عن منافع الهند الدينية لِما لهذه المنافع من الشأن الأول فيها وأن يناضلوا عن التقاليد والعادات القديمة لِوَلُوع الهندوس بمُقَوِّمات ماضيهم ، ومن حسن السياسة ألّا يضعضعوا الإيمان القديم وألا يَبْذُروا روح الجدَل والشكّ بنشرهم أصول التربية الغربية بدون تَبَصُّر ، فلو كان للهندوس فوائدُ حقيقية من هذه التربية لقلنا إن حبّ الإنسانية لدى الإنكليز تَغَلَّب على مصالحهم الخاصة ، ولكن الواقعَ غيرُ ذلك ، فلم تُؤَدِّ التربية الغربية إلا إلى سُخْط الهندوسىّ على سوء حظه وارتباك فى أخلاقه وما إلى هذا مما يجعله نصيراً لكلّ فاتح مهما كان أمره .

ولم يَبْدُ من ذلك الشرّ غيرُ أوّله ، ولم يُصَب به سوى بضعة آلاف ، وأما الملايين من إخوان هؤلاء فلا يزالون واهمين فى أنه لم يُبَدَّل من الأمور سوى اسم السلطة العليا ، والسلطة العليا هى التى عَانَوا حكمها فى غضون القرون فأيقنوا أنها أمر لا رادَّ له فقَدَوا غير مكترثين له .

وما هو الداء الشديد المفقود الذى تبحث عنه عروق الهند المُسِنّة حينما تَبْلُغ الأزمة التى تتدرج إليها ذُرْوَةَ حِدَّتها فتصبح أمراً لا يطاق ؟ أتسفر عن بعث إسلامى كما يَتَنَبَّأ به بعضهم ، والإسلام يسير قُدُماً فى الهند ؟ أم إن دولة أوربية أخرى تغتنم فرصة ما يُقْتَرف من الأغاليط ، فتبدو ، كما يدلّ عليه كلُّ شىء ، المنقذَ الذى تنتظره النفوس المضطرِمَة الضالّة التى لا دليل لها ؟ لا يستطيع أحد أن يُنْبِىء ، لا ريب ، بما قد يحدث فى القريب العاجل ، وإنما الذى لا شكّ فيه هو أن معنى الاستقلال الحقيقىّ سيظلُّ خافياً على الهند عِدَّة قرون أخرى ، فالهند إذ تَعَوَّدت الخضوع

لسادة من الأجانب منذ زمن طويل كُتِب عليها أن تكابد نير الأوربيين مرةً أخرى إلى أن تصبح آلة بيد عرق آسيوىّ مرهوب ، فحينئذ يصبح هؤلاء المغلوبون منذ القديم غالبين لنا ، على ما يحتمل ، مستعينين بإخوانهم من أبناء الشرق الذين يقومون مقامنا فى قيادة البشر تبعاً للسنة الحديدية القائلة بسلطان الأقوى فتهيمن على مقادير الأمم .

ومقامٌ كذلك ستناله أمم الشرق بغير قوة للدافع مع ذلك ، فلابدّ من تغيير نوع الأسلحة بسبب تطور الصِّناعة الحديثة ، فلا تلبث ميادين القتال أن تنقلب إلى أسواق للسلع ، فهذه الأسواق ، وإن كانت فى الظاهر أقلّ سفكاً للدماء من ميادين القتال ، أشدُّ منها هولاً ، وبيان الأمر أن البشرية التى اتخذت الكهرباء والبخار دليلين لها ستدخل دوراً حديدياً يكون الصراع فيه من أجل الحياة قاسياً جداً فلا يَترُك للرحمة مجالاً ، وقديماً قال العرب : « لا يَنبُت العُشب على أرض يطأُها الترك » ، والعُشب قد يَنبُت فى الأماكن التى ستشهد ذلك الصراع ولكنه سيكون من النادر أن تكون تلك الأماكن هى التى سَيَرْعَى الغالبون مواشيَهم فيها .

هنا نَصِل إلى تعميم المسألة التى أشرنا إليها آنفاً فتدلّ على أن مسألة مستقبل الهند أبعد مدى مما نتصوره أول وَهْلَة ، فعلى هذه المسألة يتوقف مستقبل أوربة فى الحقيقة ، فلْنَدْرُس هذه المسألة الهائلة .

ظلّت الهند ، منذ أكثر من ألفَىْ سنة ، موضعَ طمع كبير لجميع الأمم التى عَلِمت أخبار عجائبها ، وانتقلت الهند من سيد إلى سيد على الرغم من الحواجز التى تحميها ، ولم يَحُل ما مُنِيَت به الهند من ضروب المغازى والفتوح دون بقائها على ما

هى عليه فى كل حين ، وتشابه الهنـد أرض الفراعنة الحافلة بالأسرار فى ازدرادها لقاهريها .

بيد أن الهند لم تَعْرِف لها سادة من غير الشرقيين إلى أواخر القرن الماضى ، فلما فتحها الأوربيون وَجَدت نفسَها ، لأول مرة ، أمام شعوب تختلف عن شعوبها أشدَّ الاختلاف ، فيَتَعَذَّر عليها أن تبتلعها ، ولم يَعْرِف التاريخ منذ أقدم الأزمان تواجه عنصرين ذلك مدى اختلافهما فى أرض واحدة مع كثافة جموع .

إنـكلترة هى عنوان العالَم الغربىِّ بحضارته المُعَقَّدَة وتقدمه على نسبة هندسية وسَيْره سريعاً إلى مستقبل مجهول متذرعاً بما لديه من القُوَى الجديدة ، والهند هى عنوان العالَم الشرقىِّ الثابت الخيال والناظر إلى المـاضى ، لا إلى المستقبل ، مستوحياً أفـكار الأجداد والآلهة بلا انقطاع .



١٨٦ — قطعة من تصوير هندوسى فى القرن الخامس على جدار بأجنتا ، وتمثل هذه الصورة محاولة العفاريت أن يغووا بدهـة (يمكن النـاظر أن يتمثل حال التصوير الهندوسى منذ ١٣٠٠ سنة من هذه الصورة مع ما أصاب تصاوير الجدر بأجنتا من التلف)

ويتوقف مصير الهنـد على نتيجة الصِّراع الراهن بين الشرق والغرب ، ولا يزال القتال فى مرحلته الأولى مع تواجه ذينك العـالمين غيرَ مرة فى الميدان ، وليس دَحْر العرب من فرنسة ومن إسـبانية ومهاجمةُ العرب فى عُقْر دارهم أيام الحروب الصليبية الهائلة وتدويخُ إنـكلترة للهند وسدُّ الصين المنيعُ الذى صَدَّعَته المدافع إلا أنباء حرب بدأت منذ قرون ، غير أن هذه الأنباء لم تـكن ، بالحقيقة ، سوى أخبار مناوشات بسيطة إذا ما قيست بالصِّراع

المرهوب الذى تسفر عنــه طُرُق المعايش الحديثــة الناشئة عن مبتكرات العلوم فى الوقت الحاضر بحــكم الضرورة .

أدت سرعة وسائل النقل التى نَجَمَت عن البخار والـكهرباء إلى تقريب المسافات فأوجبت اتصال بعض أمم الأرض ببعض اتصالًا وثيقاً ، فعاد النهران اللذان اقتسما مجرى الروح البشرية (أى النهرُ الشرقىّ الـكبير الهادىء العميق الجليل البطىء والسيلُ الغربىّ الصائل السريع) لا يَجْرِيان فى أودية مختلفة ، أَجَلْ ، إن التوازن بين المَجْرَيَيْن ، اللذين اختلطت مياههما ، سيقع ذات يوم فى ذينك العالمين ، ولـكنك إذا بحثت فى كيفية حدوث هذه التسوية المحتملة لم تَنْشَب أن تعترف بأنها لن تكون على ما فيه خير الغرب .

و إذا جاز لنا أن ندرك النتائج من العلامات الراهنة التى تزيد كلّ يوم قلنا إن النتيجة الأولى لاقتراب ذينك العالمَين بفعل البخار والـكهرباء هى تَســاوِى قِيَم السلع الصناعيــة والزراعية ، ومن ثَمَّ تَساوى أجور العمال فى الدنيا قاطبةً ، ومن الطبيعىّ أن يُحَدَّد مُعَدَّل هــذه الأجور بحسب ما يناله عمال الأمم الأقلّ احتياجاً والأرخص إنتاجاً ، والشرقيون الذين يتألف منهم مُعْظَم البشر إذ إنهم أكثر الناس زهداً وقناعةً يكونون بحكم الضرورة الناظمين للأجور فى مزاحمة كتلك ، ومن ثَمَّ يكونون أكثر الفريقيْن اســتفادة من ذلك الاقتراب ، نَعَمْ ، قد ترتفع أجورهم عن المستوى الأدنى بنسبة نفقات النقل الضئيلة ، ولـكن ما يطرأ على أجور عمال الأور بيين من الهبوط سيكون عظيماً جداً لا محالة .

ولا يحتاج الباحث إلى نظر ثاقب ليَتَبَيَّن فى الأفق علائمَ الصِّراع بين عالمَين ، لا أمتين ، فيؤدى هذا الصِّراع إلى أشدّ النتائج هَوْلًا ، فها هو ذا قمحُ الهند يُبــاع

فى أوربة بأرخص من حبوبنا فيورث زراع فرنسة بُؤْساً وقنوطاً[1] ، وقد أخذ زُرَّاع أوربة يُفَكِّرون فى ترك الصِّراع مع ما يجدونه من نُظُم الحماية العاجزة ، وما أكثرَ الحقولَ التى لم تَجِد لهـا مزارعين يقومون بزراعتها فى مقابل تأديتهم الضرائب المفروضة عليها ، وماذا يحدث حينما تتوارى صِناعة الغرب أمام أمم تستعين فى صناعتها بما لدينا من الآلات فتُنْتِج سلعاً أرخص مما ننتجه عشرين مرة ؟ سيرى المُعَدِّن ، الذى تَعَوَّد إنفاق خمسة فرنكات أو ستة فرنكات مُيَاوَمَةً فيُهَدِّد البنيان الاجتماعى بالهدم لأن أجرته اليومية لا تزيد على ثلاثة فرنكات أو أربعة فرنكات ، استيرادَ أرباب الصِّناعة من الصين الفحمَ الحجرىَّ الذى يستخرجه عمال يَعُدُّون أنفسَهم من السُّعَداء إذا ما نال الواحد منهم أجرة يومية تَتَرَجَّح بين خمسة دوانقَ وستةِ دوانق ، وقد يأتى زمن على العامل ، الذى يُضْرِب من أجل رفع أجرته ، لا يَجِد فيه مصنعاً يعمل فيه لِما تحتاج إليه مصانع الشرق الأقصى المُجَهَّزة بمثل آلاتنا من ذلك الفحم الحجرى والتى يقوم بشؤونها عمال تَقِلُّ أجرة الواحد منهم عن أجرة العامل الأوربى عشرين مرةً فتَغْمُرُ العالَم بما تنتجه غَمْراً لا يَقِف أمامه أىُّ حاجز ، فمن أجْل هـذا ومن أجْل زوال المسافات ستتساوى قِيَم الموادِّ الأوليـة والموادِّ المصنوعة فى جميع الأسواق كما أن أجور العمال ستتساوى بحكم الضرورة ، فالحقُّ أن المزاحمة تتعذر بين فريقين من البشر يقضى أحدهما كالشرقيين احتياجاتِه بأجرة تَتَرَجَّح بين أربعـة دوانقَ وخمسة دوانق ويقضى الآخر ، كالغربيين ، احتياجاتِه بأجرة تزيد على تلك

---

(١) تتقدم زراعة القمح فى الهند تقدماً عجيباً بفضل ماأنشئ فيها من الخطوط الحديدية الكثيرة فلا نمثله بغير الأرقام ، فبعد أن كانت الهند تنتج منذ عشر سنين هكتاراً ونصف هكتار من القمح صارت تنتج اثنى عشر مليوناً فى الوقت الحاضر ، وأجرة الزارع فى الهند إذ كانت منخفضة فلا تزيد على أربعة دوانق فى كل يوم فإن قنطار القمح يصل إلى لندن فيباع فيها بسبعة عشر فرنكا .

عشرين مرة ، فلا يكون المَخْرَج من هذا المأزق ، إذ ذاك ، إلا بتنزيل أجور الفريق الثاني إلى مُعَدَّل أجور الفريق الأول .

ولا ريب في أن تلك التسوية العامة التي سنرى فَجْرها عمَّا قليل (وهي التسوية التي سَهُل أمرها ، على الخصوص ، بما ذكرته غير مرة مؤكداً في كتبي ، وهو أن القيمة العقلية المتوسطة لدى أمم الشرق ليست دون ما يقابلها من طبقات أهل الغرب) لا تمنع أوربة من أن يكون لديها ما ليس في الشرق من صَفْوَة رجال ، ولكن ماذا تصنع هذه الصَّفْوَة الكثيرة الذكاء والقليلة العدد تجاه تلك الجموع الزاخرة التي يتوقف عليها المصير ؟ وهل أنقذت صَفْوَةُ المفكرين والمتفننين والعلماء من الإغريق بلادَ اليونان من الفتح الروماني ؟

ولا يَتِمّ النصر لأوربة في ذلك الصِّراع الذي يتوقف عليه مصيرها بسبب حالتها الأدبية ، ومشاعرُ مجتمعات الغرب الهَرِم ، كما كانت عليه رومة في دور انحطاطها ، تدور حول الظهور والتمتع بأطايب النِّعَم ، ونرى ثقافتنا العقلية نفسها تؤدي إلى ابتعاد ا عن العمل المنسجم وإلى انتخابنا وتقلبنا وعدم ثباتنا وإلى تشككنا العام وإلى اندثار عوامل السير والعزم فينا ، وفي صفات غير هذه تجد سِرّ قيام الدول العظيمة وسِرّ بقاء هذه الدُّوَل ، والغربُ يَفْقِد بالتدريج ما لا يزال متيناً لدى الشرقيين من حُبّ الأسرة واحترام الأجداد ومتانة المعتقدات، وهذه المشاعر هي أساس التئام الأمم مهما كانت قيمتها الفلسفية ، وهي عواملُ القوة التي استعان بها أولو النفوس العالية في قيادة العروق إلى النصر ، فإذا ما توارت هذه المشاعر لم تلبث المجتمعات المستندة إليها أن تَنْفَصِم عُرَاها فتنقلبَ إلى زُمَر مختلفة المصالح عاطلة من المشاعر المشتركة ، واليومَ تُبْصِر الأديانَ المُسِنَّة المحافظة على سلطانها في الشرق ، مع وصفنا إياها بالأوهام ،

والتى شِيدَت باسمها أكبر الدول فتمّ حكمها بهــا ، تَخَسّر نفوذها فى الغرب مقداراً فمقداراً، ولم يكتشف العلم بَعْدُ ما يقوم مقام الآلهة الميتــة ، واليوم نعيش بفضل ماض لا نؤمن به مُوَجَّهين وجوهنا إلى مستقبل لا يزال خافياً علينا .

وماذا يكون المَثَل الأعلى الجديد الذى يَصْلُح أساساً لمجتمعات الغرب القادمة ؟ لا يَقْدِر أحد على بيان أمره فى الوقت الحاضر ، ولا تَجِد مُعْضِلَة أشدّ خطراً وأبعدَ غَوْراً من تلك التى تَشْغَل بال المفــكرين ، ولا غَرْو ، فعليها يتوقف كياننا فى المستقبل، ولن تُعَدّ شعوب الشرق التى أمْعَنّا فى ازدرائها من البرابرة بعد اليوم ، ولا يزال منبع النشاط والفُتُوّة الذى استنفده الغرب فى القيام بجليل المشاريع وفى حقــل الفــكر والعمل راقداً فى أمم الشرق الــكبرى ، ولن تطول غَفْوَة هــذه الأمم الشرقية ، فقد دنا وقت يقظتها ، وحان الوقت الذى تُسْفِر فيه مغازينا وفتوحنا وا كتشافاتنا وأفكارنا عن إخراج الشرقيين من طور القرون الوسطى الطويل الذى هم عليــه ، وحينئذٍ ينتصبون أمامنا (كما انتصب البرابرة أمام الرومان ، والعربُ أمام العالَم الإغريقى اللاتينىّ الهَرِم) بمثــل ما خسرناه من الحماسة والنشاط والآمال والخيالات ، هنالك تملِك العالَمَ ، كما مَلَــكته فى الماضى ، أممٌ ذات مُثُل عالية قوية واحتياجات ضعيفة ، أقول ذلك وأنا أرى أن على أبنائنا أن يقوموا بعمل جِدّىّ إذا أرادوا البقاء قادةً للعالم زمناً آخر وعدمَ الوقوع بسرعة فى الهُوّة الأزليــة التى يَجُرُّ تطور الأمور النــاسَ والدولَ إليها .

فهرس الصور

والخرائط

تقسم صور هذا الكتاب إلى خمسة أنواع وهى : ١ : المناظر ، ٢ : أمثلة العروق، ٣ : فن البناء ، ٤ : الفنون الجميلة (الرسم والحفر) ، ٥ : الفنون الصناعية .

وأكثر هذه الأنواع هو ما اشتمل على صور التماثيل والمبانى ، وهو يكفى لتمثل فن العمارة والحفر فى الهند منذ البداءة إلى الوقت الحاضر .

ولا تجد فى أى كتاب سابق صوراً لأكثر التماثيل والمبانى التى عرضنا رسومها فى هذا السفر ، وقد التقطناها من نحو ٦٠ بقعة ونشرناها على حسب الترتيب المدون فى الفصل « فن البناء » ، وترى هذا الترتيب فى الجدول الخاص بالمبانى .

(١) ذكر « رهط من الإيرولا » سهواً في الصفحة ١٦٢ مع أن الصحيح هو « اثنان من الإيرولا » فوجب التنبيه على ذلك .

التصوير والرسم

الفنون الصناعية

الخرائط

فهرس الموضوعات

الباب الأول

البيئات

الفصل الأول

الأرض والأجواء

الفصل الثاني

وصف مناطق الهند العام

الفصل الثالث

النباتات والحيوانات والمعادن

البــــاب الثانى

العروق

الفصل الأول

منشأ عروق الهند وتقسيمها

الفصل الثانى

عروق الهند الشمالية أو الهندوستان

الفصل الثالث

عروق الهند الوسطى والهند الجنوبية

الفصل الرابع

الصفات الخلقية والعقلية المشتركة
بين عروق الهند المختلفة

(١) ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة فى الهنـد من تماثل بين شعوب الهندوس ـ ما بين فريق كبير من شعوب الهندوس من الصفات المشتركة ـ المؤثرات الجثمانية والعقلية التى أدت إلى هـذه الأخلاق المشتركة ـ نظام الطوائف والنظام السياسى والمعتقدات الدينية الخ ـ (٢) الصفات الخلقيـة والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس ـ الدماثة والصبر والتسليم والمداجاة وعدم النشاط وعدم التبصر وفقدان المبدأ الوطنى ـ نتائج عدم النشاط فى مصير الهندوس ـ الصفات الخلقية أفضل من الصفات العقلية فى تقرير مصير الأمم ـ مستوى الهندوس العقلى ـ مقابلة بين الهندوس والأوربيين ـ طبقات الهندوس الوسطى مساوية لطبقات الأوربيين الوسطى ـ طبقات الهندوس العليا هى دون طبقات الأوربيين العليا ـ قدرة الهندوس على الإدغام ـ ضعف رأيهم وبرهانهم ـ عدم الدقة فى تفكيرهم ـ الفروق بين العروق العليا وغيرها ـ تطبيق هذه الفروق على الهندوس ـ نتائج مزاج الهندوس النفسى ـ تقصيرهم فى العلوم وفى التاريخ ـ الخلاصة .(١٨٦ ـ ٢٠١)

البـــاب الثالث

تاريخ الهـند

الفصل الأول

تاريخ الهند قبل المغازى الأوربية

(١) مصادر تاريخ الهند ـ نقص المصادر التاريخية ـ ليس للهند تاريخ ـ اقتصار تلك المصادر على المبانى والكتب الدينية والأساطير وأقاصيص قدماء السياح ـ أهمية المبـانى والتماثيل والنصبات ـ لا يزيد تاريخ أقدمها على ثلاثة آلاف سـنة ـ الأسس لتقسيم تاريخى ـ (٢) العصر الويدى ـ العصر الويدى هو عصر الهند الأساطيرى ـ المغازى الآرية ـ كتب الويدا ـ (٣) العصر البدهى ـ فقـدان الوثائق التاريخية ـ

الباب الرابع

تطورُ حضارات الهنـــد

الفصل الأول

حضـارة العصر الويدىّ

وصف المجتمع الهندوسى قبل الميلاد بألف سنة

(١) عناصر بعث حضارات الهند ـ التقسيم إلى أعصر ـ الكتب الدينية ـ الحاسيات ـ الأساطير ـ أحاديث قدماء السياح ـ المبانى ـ بطوء التطور فى الهند ـ لماذا لم تجاوز شعوب الشرق أطوار القرون الوسطى بعد ـ تأثير التقاليد والمعتقدات ـ من أسباب جمود الشرق اختلاط شرائعه الدينية والاجتماعية على الدوام بدلا من فصل بعضها عن بعض كما فى الغرب ـ المعتقدات الدينية فى الشرق هى أساس جميع نظمه الاجتماعية ـ عناصر التقسيم لمختلف أطوار الحضارة فى الهند ـ التقسيم إلى ستة أعصر ـ (٢) مصادر بعث الحضارة الآرية ـ غموض أصول العصر الآرى ـ لم تصل إلينا منه آثار حجرية، وإنما انتهت إلينا منه كتب دينية ـ قيمة كتب الويدا ـ لم تكن هذه الكتب من عمل شعوب فطرية، بل من وضع فريق من الأدباء وعلمـــاء اللاهوت ـ (٣) أصل الآريين ـ مقايسة بين الآريين وقدماء الفرس ـ غموض أصل الآريين ـ الفرضيات الحديثة ـ أدخل الآريون إلى الأمم المقهورة حضارتهم ولغتهم، لادمهم ـ توارى الآريين عن الهند ـ (٤) الأسرة عند الآريين ـ كانت الأسرة والعرق أساسى المجتمع الآرى ـ ارتباط الفرد الوثيق فى أجداده وحفدته ـ كانت الأسرة، لا الفرد، أساس الوحدة ـ لم تكن الديانة غير عبادة العرق والأسرة ـ خلط الآلهة بالأجداد ـ أهمية ما يقرب إلى أرواح الأجداد من القرابين ـ حال المرأة عند الآريين ـ سلطان رب الأسرة المطلق ـ (٥) نظم الآريين السياسية والاجتماعية ـ القرية وليدة الأسرة الكبيرة ـ لا يزال نظام القرية، كوحدة سياسية، باقياً إلى أيامنا فى الهند ـ (٦) الحياة عند الآريين ـ فنونهم ـ طرق معايشهم ـ الميسر والملاهى والمآتم الخ. ـ (٧) مبادىء الآريين اللاهوتيـــة والدينية ـ لا آلهة معينة عند الآريين ـ تشتمل كتب الويدا على أكثر المبادىء الدينية

الفصل الثانى

حضـارة العصر البرهمى

وَصْفٌ للمجتمع الهندوسىّ قبل الميـلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون

الفصل الثالث

حضـــــارة العصر البُدّهى

(١) الوثائق التى يستعان بها فى تمثل المجتمع الهندوسى حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد - دام العصر البدهى فى الهند نحو ألف سنة - قلة الوثائق التاريخية وكثرة المبانى الحجرية فى العصر البدهى - مخطوطات نيبال - رحلات حجيج من الصين - (٢) القصة البدهية - تحول العالم البرهمى القديم فى أوائل العصر البدهى - حياة بدهة كما جاءت فى للِيتا وِسْتار - ولادة بدهة - يأسه - تأملاته فى أسباب الألم - نظرياته فى هدف الحياة و بؤسها - (٣) الديانة البدهية - الأدب الذى نجم عن البدهية - لا تمس البدهية الآلهة القديمة - مذهب الكرما - الأسباب الأدبية والمادية التى انتشرت بها البدهية - تأثير البدهية الواسع فى آسية - بماذا تختلف البدهية عن البرهمية - (٤) البدهية كما جاءت فى المبانى - رأى علماء أوربة فى إلحاد البدهية - فساد هذا الرأى - البدهية أكثر الأديان إشراكا - مطابقة ما جاء فى الأقاصيص لما فى المبانى - ما فى البدهية من التأملات اللاهوتية يرى فى جميع ديانات الهند - نشوء النظريات الفلسفية حول البدهية نشوءاً مؤازياً لها مستقلا عنها - مصدر ما فى أوربة من الأغاليط حول البدهية - يجب عد البدهية متطورة عن البرهمية - (٥) توارى البدهية عن الهند - تؤدى دراسة مبانى نيبال وسائر بلاد الهند إلى تفسير ذلك الغياب - البدهية فى نيبال - الثالوث البدهى - امتزاج البرهمية والبدهية فى نيبال - (٦) المذاهب الفلسفية فى البدهية - بطلان الأشياء - مختارات من كتاب بدهى حديث - (٧) المجتمع البدهى - روح الاتحاد والاحسان والرحمة - رحلات الحاجين الصينيين فاهيان وهيون سانغ فى الهند - ما انتهى إلينا منهما عن المجتمع البدهى - الخلاصة . (٣٤٠ - ٣٩٥)

الفصل الرابع

حضارة العصر البرهمىّ الجديد

وصفُ المجتمع الهندوسىّ حَوَالَى القرن العاشر من الميلاد

(١) العناصر التى يستعان بها فى بحث العصر البرهمى الجديد - غموض تاريخ الهند فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر - مبانى ذلك العصر وكتاباته وأساطيره -

الفصل الخامس

حضارةُ العصر الهنديِّ الإسلاميِّ

وصفُ المجتمع الإسلامى فى الهند حوالَى القرن الخامس عشر

الباب الخامس

آثار حضارات الهند

الفصل الأول

آداب الهند ولغاتها

الفصل الثاني

مباني الهند

الفصل الثالث

العلوم والفنون

الباب السادس

الهند الحديثة

المعتقدات والنظم والطبائع والعادات

الفصل الأول

مزاج الهندوس النفسي

الفصل الثاني

ديانات الهند الحاضرة

تحولاتها المستمرة — ينطوى اسم البرهمية الجديدة على مختلف المعتقدات — وصف هذه المعتقدات المشترك — كيف تؤسس المذاهب — (٥) أشكال ديانات الهندوس الخارجية — تقيد الهندوس بالشكليات فى أمورهم الدينية — التوبة والتقشف وتلاوة الكتب المقدسة والصلوات والحج والقرابين — (٦) الجينية — أصولها ونشوءها — مشابهتها للبدهية — (٧) مبادئ جميع أديان الهند العامة — الويدية والبرهمية والبرهمية الجديدة هى ديانة واحدة تتفرع منها البدهية والجينية — المبادئ المشتركة بين جميع ديانات الهند — (٨) الإسلام فى الهند — أهمية الإسلام فى الهند — فى الهند خمسون مليون مسلم — كيف تحول الإسلام فى الهند — اقتباساته من أديان الهند الأخرى — نمو الاسلام المستمر فى الهند — (٩) تأثير الدين فى الأخلاق عند الهندوس — فصل الدين عن الآداب عند الهندوس — إذا نظرنا إلى الهندوس من الناحية الأوربية وجدناهم أكثر الأمم تديناً وأقلها آداباً — لا تبالى آلهة الهند بغير واجبات الناس نحوها ، لا بواجب بعضهم نحو بعض — تقوم التعاليم الدينية الأساسية لدى الهندوس على استمالة الآلهة بالعبادة ونقاء الطائفة — الأهمية القليلة لبعض الجرائم فى الهند — روح المحبة هى العنصر الأدنى الذى نفذ فى الهندوسى بفضل البدهية — صفات الهندوسى بسجيته لا بآدابه (٥٩٩ — ٦٣٣)

الفصل الثالث

النظم والطبائع والعادات

(١) القرية والتملك — القرية فى الهند وحدة سياسية لا يعلوها سوى الدولة — القرية وحدها هى وطن الهندوسى — نظام القرية — الشركة فى الأموال — اختلاف نظام الأملاك فى مختلف أجزاء الهند — (٢) الأسرة — حال المرأة فى الهند — القرية عشيرة أو أسرة مشتركة — سلطان رب العائلة المطلق — انقياد المرأة — الزواج — عادة انتحار الأيامى — الأولاد — احترام الأم — (٣) نظام الطوائف — نظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نظم الهند السياسية منذ ألفى سنة — نشأ هذا النظام عن ضرورات عرقية — أسباب دوام هذا النظام — كيف يخسر الإنسان طائفته — فى دستور الهند الطائفى سر خضوع الهندوسى لسادة من الأوربيين — سلطان نظام الطوائف فى الهند — نظام الطوائف عما قال به جميع الفاتحين ومنهم الإنكليز — الطائفة الإنكليزية — هذه الطائفة محكمة إحكام الطوائف الأخرى — (٤) الحقوق والعادات — أطوار الحقوق الفطرية فى الهند — العادات المحلية والتعاليم الدينية هى أساس هذه الحقوق — لا يتصور الهندوسى وجود شريعة واحدة

